بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : أحمد بن عبد ا لله بن جمعان بن سرور الغامدي **كلية :** الدعوة وأصول الدين **قسم :** العقيدة

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الماجستير **في تخصص :** العقيدة

عنوان الأطروحة : ((أسبـــاب سقـــوط الشيوعيـــة " الماركسيـــة "))

===

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ...

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه – والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٤١٨/٢/٩هـ – بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ، فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الداخلي
الاسم : د. سليمان بن عبدا لله السلومي	الاسم : د. محمود محمد مزروعه	الاسم : د. عبد ا لله بن عمر الدميجي
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

يعتمد

رئيس قسم العقيدة

الاسم : د. أحمد سعد حمدان الغامدي

التوقيع :

١٤١٨/٢/١٧

يوضع هذا النموذج امام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة

المملكة العربيه السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة ام القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

أسباب سقوط الشيوعية
(الماركسية)

رساله مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة

إعداد الطالب
أحمد بن عبد الله بن جمعان آل سرور الغامدي

إشراف الدكتور
سليمان بن عبد الله السلومي

المجلد الثالث

١٤١٦هـ - ١٤١٧هـ

الفصل الثالث
فشل النظام الإقتصادى الشيوعى

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد

المبحث الأول : المذهب الإقتصادى الشيوعى وأهم مرتكزاته .

المبحث الثانى : النظام الإقتصادى الشيوعى بين النظرية والواقع .

المبحث الثالث : نظرية القيمة وفائض القيمة .

المبحث الرابع : مميزات النظام الإقتصادى الإسلامى .

الفصل الثالث
فشل النظام الإقتصادى الشيوعى

تمهيد :

إن الاهتمام بالغذاء وإيجاد الطريق للوصول إليه قديم قدم الإنسان ، ولاحرج أن يهتم الإنسان بما يحقق له رغد العيش والوصول إلى مايسد جوعته . إلا أن هذا المطلب قد اتخذ أشكالا عدة عبر العصور التاريخية ، حتى وصل إلى اعتباره المحرك الأساسى للمجتمع فى أفكاره ومعتقداته وأخلاقه وطريقة حياته كما صورته الحركة الشيوعية الماركسية .

وبدورنا نقول إن الاهتمام بالإقتصاد ليس أمرا مستغربا لأنه يتعلق بحياة الإنسان وتلبية متطلباته . وعلى قدر رقى الإقتصاد وتنوع موارده وتحقيقه للاكتفاء تكون سعادة الشعوب ، وعلى قدر تردى الوضع الإقتصادى على قدر ماتعانى . وإذا كانت الأنظمة المختلفة قد اهتمت بمسألة الإقتصاد فإن الشيوعية كانت كذلك ولكنها اهتمت به من أجل ربط الحياة الإجتماعية والأخلاقية والفكرية به ليخدم أهدافها .

ويفخر الشيوعيون بأن ماركس أول من فسر أحداث التاريخ تفسيرا إقتصاديا ، فقالوا : (هل كانت آراء ماقبل كارل ماركس تتجه هذا المنهج الفكرى فى تفسير التاريخ أم أن ماركس هو أول من فسر التاريخ كأسلوب إقتصادى ؟

والإجابة فى بساطة : أن ماركس كان بالفعل هو أول من فسر أحداث التاريخ على أسس إقتصادية)[١].

ويقول البروفسور سيلجمان فى هذا الصدد : (لاشك أن ماركس يجب أن يعتبر بحق أول من وصل إلى التفسير الإقتصادى للتاريخ)[٢].

---

(١) النظم الإقتصادية المعاصرة (١٦٣) .

(٢) التفسير الإقتصادى للتاريخ (٥٢) نقلا من المرجع السابق (١٦٣) .

وماركس : (إنطلق من أن ظروف الحياة المادية تمثل الأساس الحقيقى ، الذى يحدد فى النهاية طابع عقائد المجتمع وتطلعاته .. وبين ماركس أن النظريات الإقتصادية فى المجتمع الطبقى تحمل طابعا طبقيا ، وأوضح التناقض الجذرى بين الإقتصاد السياسى البروليتارى والبورجوازى .

كما أظهر ماركس أن النظريات الإقتصادية تعتبر سلاحا فكريا هاما فى الصراع الطبقى)[١].

ويرى الشيوعيون أن من سبق ماركس كان تفسيرهم للتاريخ حسب مايرد فيه من أحداث وقصص ورجال عظام ، أما الشيوعيون وبقيادة ماركس فقد فسروا التاريخ البشرى كله وقسموه على أساس العامل الإقتصادى وقوى الإنتاج . جاء فى كتاب التفسير الإقتصادى للتاريخ : (أما السابقون على ماركس من المفكرين والفلاسفة فكانوا يفسرون التاريخ على أساس وجود رجال عظماء أو قادة عسكريين أثروا فى الأحداث وشكلوها بالوجهة التى ارتضوها وحسبما يؤهلهم نجاحهم فى التغلب على الصعوبات والعقبات التى تعترض طريقهم . وقد يكون هناك تفسيرات أخرى للتاريخ على أساس التطور فى العقائد والأفكار أو فى تغيير النظم السياسية أو فى الظروف الطبيعية المحيطة كالجو والطعام والتربة)[٢].

وقد قام ماركس والشيوعيون من بعده بتقسيم المجتمعات البشرية إلى عدة مراحل تبعا للعامل الإقتصادى وعلاقات الإنتاج فيه ، فبدأوا بنظام الرق واعتبروه أقل تشكيلة إجتماعية وإقتصادية طبقية .

فقالوا : (يعتبر نظام الرق أول تشكيلة إجتماعية وإقتصادية وطبقية . ظهر الرق فى الشرق فى الألف الرابع قبل الميلاد ... يتصف الفكر الإقتصادى فى العالم القديم بالدفاع عن ملكية العبيد الطبقية والمهيمنة)[٣].

---

(١) تاريخ النظريات الإقتصادية (٤) .
(٢) نقلا من كتاب النظم الإقتصادية المعاصرة (١٦٣-١٦٤) .
(٣) تاريخ النظريات الإقتصادية (١٥) .

ويرى الشيوعيون أن المجتمعات الإنسانية السابقة عرفت النظريات الإقتصادية المختلفة . كما يرون أن الأنظمة التى أقرت الملكية ودافعت عنها كانت أنظمة استغلالية ، ويرون أنه فى بابل كان المعتدى على الملكية الخاصة يعاقب بالإعدام ، وأن المجتمع البابلى كان منقسما إلى عبيد وملاك وذلك بسبب وجود الملكية الفردية[١].

كذلك كان المجتمع الصينى : إذ يرون أنه فى الفترة من القرن الثامن وحتى القرن السابع قبل الميلاد انتشرت فى الصين الوسائل والأدوات الحديدة التى تسرع تطور أعمال الأرض والحرف المختلفة . بالإضافة إلى الحلال المشاعية حيث حل محلها إقتصاد ملاك العبيد ، كما وجد فى الصين بعض المفكرين الذين دافعوا عن نظام الرق ، ويرون أن وجود الطبقات والملكية من صنع الإله والطبيعة وهو أفضل مما سواه[٢]. ومن هنا اعتبر الشيوعيون أن العبيد كانوا فى ذلك المجتمع مظلومين ، بسبب وجود الملكية الفردية .

كذلك كان الأمر بالنسبة للهند حيث دعمت من سلطة ملاك العبيد[٣].

النظريات الإقتصادية فى اليونان القديم :

حملت الفلسفة اليونانية أفكارا إقتصادية لدى مفكريها ومن هؤلاء :

(أ) **أفلاطون** :

يرى أن الملكية المشتركة هى القاعدة العامة ، ومنع الملكية الخاصة عن بعض فئات المجتمع ، حتى لاينشغلوا بها عن المصلحة العامة.

(ب) **أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ق.م)** :

عاش فى عهد الرق ، وكان أكبر المفكرين الموجودين فى ذلك العصر ، وعزا انقسام المجتمع إلى عبيد وملاك للعبيد إلى فوارق طبيعية بين البشر .

---

(١) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (١٦) ، وعن وجود الأساليب الإقتصادية فى بابل انظر المذاهب الإقتصادية الكبرى (١٧) .

(٢) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (١٧) .

(٣) انظر المرجع السابق (١٨-١٩) .

ويفيد الشيوعيون أن عبقرية أرسطو تنكشف (فى اكتشافه لعلاقة المساواة فى التعبير عن قيمة السلعة) . أى أنه وقف على الطريق المؤدى إلى قيمة العمل)(١).

ومع ذلك فأرسطو على خلاف أفلاطون حيث يرى (أن الملكية الجماعية غير عملية وتتعارض مع ميول الناس ، لأنها تحول دون بروز المزايا الناجمة من فخر الملكية ، فضلا عن النوازع الكريمة)(٢).

الفكر الإقتصادى فى روما :

وجدت النظريات الإقتصادية عند الرومان كغيرهم وإن كانت أخذت عن الإغريق كثيرا ، ولم يختلفوا عنهم إلا قليلا وكان الفكر الإقتصادى الرومانى انعكاسا لما كانت عليه الحياة حينذاك(٣).

وانقسم المجتمع إلى ملاك وعبيد وقع عليهم الاستغلال ، وانفجرت فى روما أزمة إقتصادية وسياسية ، فاستغل الشيوعيون هذه الأوضاع وعلقوا عليها واعتبروا الأوضاع الإقتصادية المتردية التى ظلم فيها الرقيق أو العامل ذريعة يتوصلون بها إلى تطبيق فكرهم القائل بأن الدين إنما يظهر تبعا للوضع الإقتصادى والعلاقات الإنتاجية الموجودة فى المجتمع .

جاء فى كتاب تاريخ النظريات الإقتصادية : (وفى منتصف القرن الأول قبل الميلاد ظهرت أيديولوجية دينية جديدة ـ المسيحية ، التى كانت فى البداية أيديولوجية العبيد وكافة المضطهدين . لقد وعدت المسيحية المبكرة بالقضاء على الفقر عن طريق توزيع وسائل الإنتاج فى المشاعية المسيحية القديمة . وفى القرن الرابع أقرت المسيحية ديانة رسمية للدولة وتحولت

---

(١) تاريخ النظريات الإقتصادية (٢٠) .
(٢) المذاهب الإقتصادية الكبرى (٢٠) .
(٣) انظر المرجع السابق (٢٠) . وعن بعض الشخصيات التى وجدت فى روما انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (٢١-٢٢) .

الكنيسة تدريجيا إلى آلية كبيرة لتشغيل الجماهير الواسعة)[١]. فكانت المرحلة الأولى وهى مرحلة الرق .

العصور الوسطى :

كان نظام الإقطاع[٢]هو الشائع فى هذا الوقت .

وكانت (الزراعة الحرفة الأساسية ، وكان معظم الإنتاج يمارسه أتباع أمراء الإقطاع ...)[٣].

وقد أكثر الشيوعيون من الحديث عن نظام الإقطاع فى المجتمعات الإنسانية ، ومن ذلك :

الجزيرة العربية : وهم بهذا يريدون الوصول إلى أن الدين مخترعا بشريا ، وأن القرآن إنما هو من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو مايتفق مع أصول مذهبهم الإلحادى . فيرون أنه (فى نهاية القرن السادس ومطلع القرن السابع ، وبسبب ولادة العلاقات الإقطاعية فى شبه الجزيرة العربية ـ سعى الأعيان والتجار والإقطاعيون لتشكيل دولة واحدة فيها . وقد لاقى هذا السعى صداه فى الأيديولوجية الدينية الجديدة ـ الإسلام . كان

---

(١) تاريخ النظريات الإقتصادية (٢٣) .

(٢) الإقطاع : تنوعت استخدامات هذاالمصطلح وتضاربت (ووجد مؤرخو الدستور روح الإقطاع فى الحقيقة الواقعة التى تقضى بأن ملكية الارض هى مصدر السلطة السياسية .

بالنسبة لرجال القانون فإن روح الإقطاع (تتحد عن طريق حيازة الأرض) ، أما المؤرخون الإقتصاديون فيرون أن الإقطاع يتمثل فى (زراعة الأرض عن طريق ممارسة حقوق معينة على الأفراد) .

History. Vol. xxv, (1940-1) p.216 .

نقلا من كتاب دراسات فى تطور الرأسمالية (٤٩) وانظر مابعدها ، مورس دوب ، تعريب د. رؤوف عباس حامد ، دار الكتاب الجامعى دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٣) المذاهب الإقتصادية الكبرى (٢١) .

مؤسس الإسلام تاجر من مكة وهو محمد ، الذى ألف القرآن (تلاوة) وقدمه على أنه وحى من الله إليه)[١].

وجاء عنهم : (كانت إرشادات الإسلام فى "تآخى" كافة المسلمين بمثابة أساس أيديولوجى فى النضال من أجل توحيد كافة القبائل العربية ، ومبررا للحروب التى وصفت بأنها مقدسة ضد الكفار ، لقد دعا القرآن إلى "قتال المشركين" واحتلال "أراضيهم وبيوتهم وممتلكاتهم" . وقد كرس القرآن باسم الله الطبقات أو علم الناس أنه لو لم يرفع الله بعض الناس على بعضهم الآخر "لاختل توازن الأرض" واهتم القرآن بالتجارة ، إلا أنه حرم الربا . وبغية تكريس استعباد الكادحين وإخماد الصراع الطبقى ، دعاهم القرآن "ألا يتمردوا فى الأرض" ودعاهم إلى العمل هنا لينالوا الثواب فيما بعد فى جنات "الخلود")[٢].

الإقطاع فى أوروبا :

ظلت الزراعة هى الحرفة الوحيدة المنتشرة تقريبا فى العصور الوسطى وقد لعبت الكنيسة دورا كبيرا فى الحياة الأوربية ، ومر معنا الحديث عن الكنيسة وطغيانها ، وشيئا من أحوال رجالها .

وبسطت الكنيسة سلطانها على أوروبا كلها تقريبا ، فكانت روسيا تقوم على نظام الإقطاع وهو نظام ظالم للعامل ، فقام الشعب بالمناضلة ضده منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر . وكان الفلاحون هم قواد الثورة ضد ذلك النظام فطالبوا برفع الظلم ، وإعطائهم الأراضى ، والسماح لهم باستخدام الغابات والمزروعات ، وإزالة القيود عنهم ، هذا عدا وجود بعض الشخصيات التى كانت تطالب بالإصلاح العام حيث لعبت الأفكار تلك دورا

---

(١) تاريخ النظريات الإقتصادية (٢٥) .
(٢) المرجع السابق (٢٦) .

هاما فى صياغة الأفكار المناهضة للإقطاعية[(١)].

ومن أشهر المفكرين المناهضين للإقطاعية فى روسيا الديكابريين : وكانت أفكارهم تقوم على نقد الإقطاعية وتخليص الفلاح من العبودية ، بل ووصل الأمر إلى انتقادهم للرأسمالية ، ومن هنا أخذ الشيوعيون بآرائهم وأثنوا عليهم ، لأن أفكارهم كانت تخدم الفكر الشيوعى ، وإن كانت طوباوية[(٢)]حيث قال لينين عن أفكارهم : (من حيث الجوهر لم تكن تلك إشتراكية ، وإنما حلم طيب وعبارات منمقة)[(٣)].

وقد اعتبر لينين أن أهم مايميز هذه الأفكار وجود النضال الطبقى فيها[(٤)].

ونختم هذه اللمحة المختصرة فى بيان وجود الأفكار الإقتصادية فى العصور السابقة بما جاء عن جورج سول حيث يرى أن ماوصل إلينا من آراء العالم القديم الإقتصادية ، نجد توافرها فى الفكر الحديث ، ومن ذلك (أولوية الزراعة على أنها الأساس الذى تقوم عليه مقومات الحياة الأخرى كافة .

الفكرة القائلة بأن الأساليب والنظم الإقتصادية كانت وثيقة الصلة بوحدة إجتماعية يمكن إدارتها ، وقد تكون هذه الوحدة بيتا أو مدينة أو مزرعة إقطاعية أو مجموعة منظمة من المشتغلين بالتجارة وأرباب الحرف ، إن الإدارة الحكيمة المتزنة للعمليات الإقتصادية أمر مرغوب فيه .

---

(١) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (١٥٤-١٥٥) .
وعن بعض الشخصيات المناهضة للإقطاع فى روسيا انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (١٥٤) ومابعدها .

(٢) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (١٧١-١٧٤) .

(٣) المرجع السابق (١٧٤) .
ولمزيد عن الشخصيات المؤثرة فى الإقتصاد الروسى انظر المرجع نفسه (١٧٥) ومابعدها .

(٤) انظر المرجع السابق (١٧٥،١٨٤) .

ومشروعية الإنتاج والتبادل مادام المنتج معد للاستعمال فحسب . والتحذير الوارد بالكتاب المقدس بأن (حب المال أساس كل الشرور) الشعور بأن أنواعا من الحرف غير كريمة ولاتجعل الناس صالحين للاشتراك فى الحياة العامة أو الحكم ، ومن بينها العمل اليدوى بدون توافر الفراغ أو فرص التعليم ، وكذلك السعى إلى إقتناء المال لذاته .

الإعتقاد بأن من الضرورى تنظيم التوزيع والتبادل تنظيما عادلا ، وأن فى الإمكان بلوغ هذه الغاية عن طريق قيام مجتمع يسهم كل فرد فى ظله بما هو مؤهل له ، على أن يحصل لقاء ذلك على نصيب عادل أو (طبقا للعرف) من المنتج العام .

لم تكن هذه المذاهب موضوعا منفصلا تماما عن الملاحظات الأخرى بشأن السلوك الإنسانى ، ولكنها كانت أجزاء من قوانين أخلاقية عامة أو فلسفة تستهدف معالجة التجارب الإنسانية من مادية وروحية)[١].

لمحة عن الإقتصاد الروسى قبل الثورة البلشفية :

وجدت فى روسيا عدة تيارات إقتصادية ومن أهمها البرنامج الإقتصادى للشعوب الثورية (الديكابريين) .

وهى : (حركة المثقفين التى تعبر عن مصالح الفلاحين ومن أهم مميزات مذهب الشعوبيين سعيهم للقضاء على بقايا النظام القديم وخاصة الاستبداد الإقطاعى وإزالة آثار نظام الرق الإقطاعى (القنانة) وإنقاذ الشعب الروسى من النظام الإقتصادى الرأسمالى)[٢].

يقول لينين : (إن الحركة الشعوبية احتلت مكانة طليعية وسط التيارات التقدمية فى الفكر الإجتماعى الروسى)[٣].

---

(١) المذاهب الإقتصادية الكبرى (٢٣-٢٤) .
(٢) تاريخ النظريات الإقتصادية (٢٩٦) .
(٣) نقلا من المرجع السابق (٢٩٧) .

وقد وجد عدة مفكرين لهذه الشعوبية وكانوا يمثلون تيارات مختلفة . ويمكن القول بأن أفكارهم تقوم على التالى[١]:

أولا : أن الملكية الجماعية ضرورة ، وأنها الشرط الأهم للثورة[٢].

ثانيا : حتمية الصراع فى المجتمع البرجوازى حتى الانتصار التام للثورة[٣].

ثالثا : اعتبار المشاعية المثل الأعلى للشعب الروسى إذا ماأراد تجنب المصير المؤسف للدول الرأسمالية الغربية[٤].

وقد اهتم الروس بأفكارهم ويرون (أن الأهمية التاريخية للديكابريين ، الثوار الروسيين ، الذين حاولوا خلع القيصر فى ثورة ١٤ كانون الأول ١٨٢٥ عظيمة جدا ، لقد باؤوا بالفشل نتيجة ابتعادهم عن الجماهير الواسعة واعتمادهم على النبلاء فقط . وكانوا بعيدين جدا عن الشعب بشكل مخيف ، كما أشار لينين ، غير أن تجربتهم الرائدة كانت درسا تاريخيا لطليعى حركة تحرير روسيا فيما بعد . وكان برنامج الديكابريين الإقتصادى والسياسى تقدميا رغم ماكان فيه من القصور والطوباوية ، فقد كان موجها مباشرة ضد الإقطاعية . وكان تطبيقه العملى يمكن أن يؤدى إلى خلق الظروف الجيدة لتطور القوى المنتجة ورفع مستوى حياة الشعب وطرح الديكابريون كل قضايا تطور روسيا الإقتصادى . وأعطوا للعديد منها الحلول المحددة وأثروا بذلك تأثيرا كبيرا على تطور الفكر الثورى الروسى والحركة التحررية عموما وقد أولى لينين أهمية كبرى لنشاط الديكابريين ...)[٥]، وذلك لنشاطها الثورى الذى أثر على سير الأحداث فيما بعد .

---

(١) أخذت هذه النقاط من ثنايا كلامهم عن بعض مفكرى الشعوبية فى روسيا .
(٢) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (٢٩٧-٢٩٨) .
(٣) انظر المرجع السابق (٢٩٨-٢٩٩) .
(٤) انظر المرجع السابق (٢٩٩-٣٠٠) .
(٥) المرجع السابق (١٦٧) .

وبعد هذا العرض نصل إلى الآتى :

أولا : أن العمال والفلاحين فى أوروبا كانوا بمثابة العبيد والأرقاء ، مما جعلهم على استعداد لقبول أى فكر أو رأى يخالف واقعهم حتى ولو كان هذا الفكر المخالف مصوغا فى قوالب نظرية تعدهم التغيير والتبديل فى ظروفهم المعيشية سواء على المدى القريب أم البعيد .

ثانيا : أن العمال فى روسيا القيصرية لم يكونوا بأحسن حالا من سواهم هذا إن لم يكونوا أشد معاناة من غيرهم تحت وقع سلطان الكنيسة والقيصر .

ثالثا : ساعد وضع العمال على تمسكهم بكل فكر رأوا فيه أنه يخالف واقعهم، واستفاد دعاة الإشتراكية كثيرا من هذا الاندفاع ، فأصبح العمال الأداة الأولى التى استخدمت فى نشر ومحاولة تحقيق المبادىء الإشتراكية الماركسية .

رابعا : انخدع العمال بالوعود التى أعطيت لهم ، وبالتالى انجرفوا فى تشجيع ذلك الفكر والإرتماء فى أحضانه .

ونختم هذا التمهيد بلمحة عن الفكر الإقتصادى الماركسى وانتشاره فى روسيا .

الإقتصاد الماركسى :

أولت الماركسية الإقتصاد إهتماما كبيرا ، مما جعل بعض المفكرين والكتاب يعتبر الماركسية مذهبا إقتصاديا بحتا ، ولكن هذا لايسلم لهم لأن النظرية الماركسية نظرية شملت الإقتصاد والإجتماع والسياسة والدين . بل ليس من المبالغة القول بأن أفكار ماركس الإقتصادية إنما وجدت لخدمة الأفكار المادية الإلحادية لديه . فماركس يقدم المذهب الإقتصادى كأقوى دليل على صحة مذهبه الفلسفى والسياسى والإجتماعى . حيث يرى أنه مامن جانب من جوانب الحياة إلا والعامل الإقتصادى هو المتحكم فيه .

ومما يدل على ذلك هو أن الكتابات الماركسية عن الإقتصاد كانت متأخرة عن الحديث عن مذهبه الفلسفي وماديته التاريخية . يقول طارق حجي : (ونحن نجزم أن هذا الترتيب الزمني لم يأت مصادفة ، ولكنه جاء نتيجة طبيعية لفكر ماركس . فشباب ماركس وثقافته الأولى ودراسته النظامية ورسالته للدكتوراه[١](عن فلسفة الطبيعة عند أبيقور) ومؤلفاته خلال مايقرب من عشرين سنة (١٨٤٠-١٨٦٠م) ونشاطه السياسي خلال تلك الحقبة ، ومقالاته وخطبه وأحاديثه ، كل ذلك ينبيء - بوضوح - بأن حجر الأساس في مذهب ماركس هو (المادية التاريخية) ، وإن الماركسية فلسفة قبل أي شيء آخر ، وإن كارل ماركس إنما أراد لها أن تختلف عن (الفلسفات) الأخرى بأن تكون مذهبا علميا شموليا ، فعكف على إعطاء فلسفته بعدا سياسيا (بنظرياته عن الصراع الطبقي ، والعمل الثوري ، والثورة البروليتارية، ودكتاتورية البروليتاريا) ، وبعدا إجماليا بنظرياته التي لم تكتمل إلا بعد وفاته والتي تستهدف تشييد إقتصاد ماركس من مجموع نظريات العمل والقيمة وفائض القيمة والنظريات المتفرعة عن هاتين النظريتين الأساسيتين ، مثل قانون تجميع رأس المال ، وقانون تركيز رأس المال ، وقانون زيادة البؤس ...الخ)[٢].

يقول منيف الرزاز : إن (الإشتراكية مذهب للحياة ، لامذهب للإقتصاد ، مذهب يمتد فيمايمتد إلى الإقتصاد والسياسة والتربية والتعليم والإجتماع والصحة والأخلاق والأدب والعلم والتاريخ . وإلى كل أوجه الحياة كبيرها وصغيرها ، وأن تكون إشتراكيا يعني أن يكون لك فهم إشتراكي لكل هذا الذي ذكرت ، وأن يكون لك كفاح إشتراكي يضم كل هذا الذي ذكرت)[٣].

---

(١) ليست كالدكتوراه المتعارف عليها .

(٢) تجربتي مع الماركسية (١٢١) .

(٣) دراسات في الإشتراكية نقلا من كتاب الإشتراكية في التجارب العربية (٢١٦) .

ويقـول : الإشتراكية (ليسـت وضعا إقتصاديا معينـا ، وليست سعيا فى سبيـل وضـع إقتصادى معين فحسـب ، بل هـى فهم إشتراكـى لكـل نواحى الحيـاة ، وحين أقـول بأننى إشتراكـى فقـد عينـت مـوقفى لامـن العلاقـات الإقتصـادية التى أعيش من خلالها فحسب ، بل لقد عينـت موقفى من جميع نواحى الحياة التى تلامسنى وألامسها)[١].

وهكـذا كانت فلسفة ماركـس فلسفة شاملة لافلسفـة إقتصادية فحسب . بل إننى أعتقـد بأن الآراء الإقتصـادية ماوضعت أساسا إلا لخدمـة بقية الآراء من أجل التدليل على صحتها .

ودون شـك أن مـاركس نجح فى خداع الآخرين إلى درجة لابأس بهـا حيـث جعل من فكره دعوة لمنـاصرة المظلومين والمضطهـدين ورفع الاستغلال عنهـم والمطالبة بحقوقهم ، ومنحهم حرياتهم ... وهذه الشعـارات البراقة هى التى مكنـت لآراء ماركس فى نفـوس العمال والمضطهـدين بما فى ذلـك عمال وشعب روسيا[٢].

حيـث رضـى الشعب بما قسـم لـه زمنا طويلا حتى إذا استهـل القـرن التاسع عشر ظهرت فى روسيا طبقات من المفكرين كانوا على اتصـال دائم بما يجد فى أوروبا وعلى الأخص فـرنسا من أفكار تقدمية ، فقـرأوا هجوم فولتير على النظـام الفرنسى القائم حينـذاك واطلعوا على آراء جان جاك روسـو فى حقـوق الإنسان ، ومع ذلك فقد أغلقت القيصرية أبوابهـا فى سبيل الإصلاح والتجـديد إلا جزئيـات بسيطـة لاتكـاد تذكـر فى حين أن شعـوب أوروبا فى

---

(١) دراسـات فى الإشتراكية ، نقلا مـن كتاب الإشتراكية فى التجـارب العربية (٢١٩) . يقـول توينبى : (إن الشيـوعيـة دين بكـل تأكيد ، وهـى دين خالـص قديم رغم المظهر الأيديولوجى الجديد أنهـا كالقومية شكل من أشكـال عبادة الإنسان لنفسه على طـريقة جمـع المتكلم ، إنهـا آخر تنـوع لعبـادة الآلهـة ولآلهـة قيصـر فى الإمبراطورية الرومانية ، وعبادة الملك ـ الإله فى مصر الفـرعون) . نقلا من كتاب هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٨٤) ، وانظر الطبقة الجديدة (٢١٩) .

(٢) عن أوضاع العمال والفلاحين فى روسيا القيصرية انظر حقيقة الشيوعية (٩-١٣).

القرن التاسع عشر تجاهد فى سبيل حريتها .

كان قياصرة الروس يتشبثون بنظمهم القديمة ويعملون على كبت حركات الإصلاح ، بالإضافة إلى أن السلطة المكملة للأتوقراطية تكره التجديد وتجارب الإصلاح ، لأن المبادىء الحرة الجديدة قامت لتحرم هؤلاء الإقطاعيين من الإثراء والتنعم على حساب الشعب ، لذلك قاموا بدورهم بالمعاونة على التجسس على الجماعات التى تطالب بالإصلاح وتنادى بالدستور وتهتف بالإشتراكية ، وبهذا تسربت الأفكار الإشتراكية الماركسية إلى روسيا فوجدت أرضا خصبة متعطشة[1]لمثل تلك المبادىء وظهر أول كاتب إشتراكى هو (باكونين) الذى كان يعتقد أن الثورة وحدها السبيل إلى تحقيق مبادىء الفيلسوف الإشتراكى الألمانى ماركس[2].

انتشار الأفكار الإقتصادية الماركسية فى روسيا :

ومن هنا ولهذه الأوضاع كانت آراء المفكرين وتطلعاتهم لدراسة مامن شأنه أن يصلح الوضع ، وكان الاهتمام منصبا على الآراء والأفكار التى تقوم بمعالجة أوضاع الفلاحين ومهاجمة أصحاب الاستغلال . وكانت تلك التوجهات موجودة فى الفكر الامركسى الذى أولى العامل اهتمامه ، ومما ساعد على تفشيه ـ أى الفكر الماركسى ـ فى روسيا ترجمة البيان الشيوعى بالإضافة إلى التنويه بمؤلفات ماركس وانجلز فى المؤلفات الروسية ، وزادت شهرة ماركس وانتشار فكره بعد أن تم صدور المجلد الأول من رأس المال مطبوعا باللغة الروسية عام ١٨٧٢م[3].

كما (كان لنشاط الجناح الروسى فى الأممية الأولى أهمية كبرى فى نشر الماركسية فى روسيا فقد تضمن برنامج ودستور الجناح الروسى دعوات للنضال ضد الطبقات المستغلة وفى ذات الوقت لم يتعمق أعضاء الجناح

---

(١) إن صح التعبير .
(٢) انظر حقيقة الشيوعية (١٤-١٦) .
(٣) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (٢٩٤) .

الروسى إلى جوهر الأفكار الإجتماعية والسياسية لدى ماركس فقد حافظت نظراتهم على الطابع الشعوبى وتجلى هذا فى الاعجاب بالمجتمع الفلاحى أملا فى تجنب تطور العلاقات الرأسمالية كما حدث فى أوروبا الغربية ، ولكن رغم وجود الأحكام الخاطئة فى برنامج الجناح الروسى فقد أولى ماركس أهمية خاصة لنشاطه وربطه الأممية الأولى بالحركة الثورية الروسية ، كما وساهم الجناح الروسى فى الأممية الأولى فى تهيئة الظروف لظهور المجموعات والزمر الماركسية الأولى التى لعبت دورا كبيرا فى نشر الإقتصاد السياسى الماركسى فى روسيا)[1].

ومن هنا نصل إلى الحديث عن المذهب الإقتصادى الشيوعى .

---

(٢) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (٢٩٥-٢٩٦) .

المبحث الأول
المذهب الإقتصادى الشيوعى وأهم مرتكزاته

قلنـا بأن الشيـوعية اهتمـت بالإقتصـاد كثيرا ، بل واعتبرته العـامل الوحيد الذى يحرك الحياة ـ وأغفلت الجوانب الاخرى ـ وجعلته (متصرفا فى أقدار "الإنسان" بعيدا عن إرادة الإنسان وفطرته واستعـداداته وطاقاته . فهى دائما خاضعة لحتمية العوامل الإقتصادية ، أو ناشئـة من هذه العوامل ...)[١].

ومع ذلك وكما قلنا سابقا أن المذهب ليس مذهبا إقتصـاديا بحتا (ذلك أنه لايوجد مذهب إقتصادى مجرد ، ليس له ارتباط بتصـور شامل عن الكون والحياة والإنسان وقضية الألوهية!)[٢].

وبعد هذا التصور الشامل فهو (مذهب إقتصادى مبنى على هذا التصور ومرتبط به حيث لايمكن فصله عنه)[٣].

العامل الإقتصادى :

أوصـل مـاركس العامل الإقتصـادى إلى درجة الإلـه حيـث تصدر عنه الأشياء ويتحكم فيها ، ومامن فكر أو خلق إلا هو مصدره ، ولاشك أن هذا الاهتمـام هو الذى دفع بالبعـض إلى الإعتقاد بأن الشيـوعية مذهب إقتصادى بحت .

إن مـاركس أراد أن يحقـق فكـرته المادية الإلحادية مــن خلال إرجاع الأفكـار الـدينية والأخلاقيـة والأسرية إلى التطورات الإقتصـادية حتى ينفـى الألوهية ويحقق المبادىء التى يقوم عليها فكره .

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة (٩١) .
(٢) مذاهب فكرية معاصرة (٤١١) .
(٣) المرجع السابق (٤١٢-٤١٣) .

ونحن لانشك فى أهمية العامل الإقتصادى ودوره الكبير فى المجتمع الإنسانى ، ولكنه ليس هو العامل الأول أو الوحيد المحرك للحياة الإنسانية بل يسبقه العقيدة الدينية الصحيحة التى هى المحرك الأساسى للإنسان . ولأجل ذلك فإن خواء الروح من هذا الدافع الدينى ينعكس على كل العوامل بحيث تتراجع ولايكون لها ذاك التأثير فى الحياة الإنسانية وحسبنا هنا ماجاء من اعتراف عن انجلز بأنه هو ورفيقه قد بالغا فى تقدير العامل الإقتصادى فى حين أن العوامل الأخرى لها أهميتها ، وقد أرسل انجلز عددا من الرسائل لرفقائه وكانت كلها تدل (على أنه ابتعد بمرور الوقت عن الإيمان الصارم بالحتمية الإقتصادية ، وأنه كان فى طريقه إلى الوصول إلى موقف فلسفى مستقل لولا أن عاجلته المنية)(١).

كما أنه فى آخر أيامه : (أنكر أن يكون للإقتصاد أثر مباشر على النشاط الفكرى ، فالإقتصاد لايؤثر على نحو مباشر سوى فى المجالات الذهنية القريبة منه مثل السياسة ، ولكنه يعجز عن أن يمارس أى أثر مباشر فى المجالات البعيدة عنه مثل الفنون والآداب)(٢)

ويقول انجلز فى رسالته إلى بلوخ : (ماركس وأنا مسؤولان جزئيا عن حقيقة أنه فى بعض الأوقات قد أعطى أتباعنا أهمية العامل الإقتصادى أكثر مما يستحق ، ولقد اضطررنا إلى تأكيد صفته المركزية فى معارضتنا لخصومنا الذين كانوا ينكرونه ، ولم يكن هناك وقت ولامكان ولافرصة لإنصاف العوامل الأخرى فى الحركة التاريخية)(٣).

ويقول أحد المصلحين والمحترمين للنظرية الماركسية ، وهو جى.دى. أيج كول : (إن الأساس الإقتصادى للمجتمع عامل واحد فقط من عوامل

---

(١) موقف ماركس وانجلز من الآداب العالمية (١١٠) .

(٢) المرجع السابق (١١٤-١١٥) .

(٣) حقيقة الشيوعية (٣٠) . ولمزيد عن موقف انجلز وتراجعه انظر : هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٦٦-٦٧) ، حذار .. لاهم تقدميون ولاعلميون ولاموضوعيون (١٥) .

تصوير الشكل العام للحضارة ، حتى ولو كان أهم عامل)[١].

ثم نقول بأن الواقع التاريخى وحياة المجتمعات البشرية ، وماقام فيها من تحولات ومؤثرات تبطل مايدعيه الماركسيون بأن العامل الإقتصادى هو العامل الوحيد .

فهذا المجتمع الإسلامى ينقض مايذهب إليه الشيوعيون حيث كان قيامه والتغيير الذى حصل فى مكة المكرمة ليس بسبب التطورات الإقتصادية كذلك الحال فى كثير من المجتمعات البشرية حيث حدث فيها التغيير والتبديل لأسباب إجتماعية وسياسية كما فى الصين وفيتنام ودول أوروبا الشرقية ، هذا بالإضافة إلى أن الخلاف واقع بين كثير من الدول الشيوعية ذاتها ، وكذلك الأحزاب الشيوعية المتواجدة فى كل دولة ، وهذا يعنى أن المحرك ليس واحدا[٢].

(فالعامل الإقتصادى هو أحد العوامل الفعالة فى التاريخ ولكنه ليس هو العامل الفذ)[٣]. ثم إن مابناه ماركس على أساس إنفراد العامل الإقتصادى بكل شىء يبطله الواقع . فقوله إن التركيب الطبقى يقوم على أساس من العامل الإقتصادى إدعاء باطل ، لأن هناك عوامل أخرى تؤثر فى التراكيب الطبقية ، فهناك تركيبات طبقية قامت على أسس عسكرية أو سياسية ، أو دينية ، فالتركيبات الطبقية فى العقيدة الهندية قامت على أسس دينية لامادية .

والقضاء على الملكية الخاصة لايلزم منه القضاء على الطبقات الموجودة فى المجتمع ، فإن المجتمعات الشيوعية أوجدت ألوانا جديدة من التركيبات الطبقية ، وكذلك العداء ليس عاملا أساسيا فى التركيب الطبقى لأن العداوة توجد بين أفراد الطبقة الواحدة ، وهذاموجود ملاحظ فى عالم الواقع[٤].

---

(١) تفسير التاريخ (١٠٤) ، صديقى ، نقلا من كتاب السرطان الأحمر (٨٢) .
(٢) للاستزادة حول هذا الموضوع انظر معالم الإشتراكية العربية (٦٩-٧١) .
(٣) حقيقة الشيوعية (٣٠) .
(٤) انظر إقتصادنا (٢١٩) .

وخلاصة القول أن الأسباب الإقتصادية لها دور كبير فى التأثير على سير المجتمعات الإنسانية وتاريخها ، ولكن ليست هى الأسباب الوحيدة . يقول يحي الجمل : (إن الأسباب الإقتصادية قوية التأثير فى سير المجتمع الإنسانى هذا صحيح لاشك فيه وإنكاره مغالطة علمية ، ولكن هذا القول شىء والذهاب إلى أن السبب الإقتصادى هو وحده دون سواه الذى يحرك مسار التاريخ الإنسانى شىء آخر ، إن السبب الإقتصادى سبب من أسباب كثيرة دينية وقومية وليس السبب الإقتصادى وحده هو دائما السبب الغلاب . وإذا كنا نؤكد أهمية الأسباب الإقتصادية فى حياة المجتمع الإنسانى وفى كل صورة تطور فإن الذى نريد أن نؤكده إلى جوار ذلك هو أن الاسباب الإقتصادية لاتنفرد وحدها بتفسير التاريخ الإنسانى وإلا كان معنى ذلك أننا نلتفت إلى جانب واحد من جوانب الحياة المتعددة المتشابكة .

ومن ناحية أخرى فإن البحث فى المجتمعات القديمة يوشك أن يجمع على أن المعتقدات البدائية الدينية كانت أقوى فى التأثير على تلك المجتمعات من كل ماعداها ، وأن السلطة ارتبطت بمن يزعمون لأنفسهم معرفة أسرار تلك المعتقدات قبل أن ترتبط بأصحاب القوة الإقتصادية ، حقا استغل هؤلاء أو بعضهم سلطته ليمكن لنفسه إقتصاديا ، ثم استغل القوة الإقتصادية ليمكن السلطة السياسية ، هذا صحيح ، ولكنه لاينفى أن البداية ارتبطت بالجانب الدينى فى حياة الإنسان قبل أن ترتبط بمعدته)[1].

أهم مرتكزات النظام الإقتصادى الشيوعى :

إن الشيوعية اهتمت بالإقتصاد اهتماما كبيرا وكان لها مجموعة مرتكزات فى إقتصادها يمكن إجمالها فى الآتى :

(١) إلغاء الملكية الفردية والقضاء على كافة صورها وأشكالها .

(٢) تأميم جميع وسائل الإنتاج وتحويلها إلى ملكية الدولة .

---

(١) الأنظمة السياسية المعاصرة (٩٧-٩٨) .

يقـول ماركس : (ولابد لعمليـة جعل الإنتاج إجتمـاعيا مـن أن تجعل وســائل الإنتــاج ملكيـة إجتمــاعية ، وأن تؤدى إلى "انتزاع الملكيــة مــن مغتصبيها")[1].

(٣) التوزيع حسب مبدأ :

من كل حسب طاقته ، ولكل حسب عمله فى المرحلـة الأولى . ثم بعد ذلـك يكون التوزيع على مبـدأ من كل حسب طاقته ولكـل حسـب حاجته ، أى فى المرحلة الثانية .

(٤) الإشـراف مـن قبـل الحكومة على جميـع مـرافق الإنتـاج وفـق الخطـة الموضوعة من قبلها لنوع السلطة المطلوب انتاجهـا (سيطرة الدولة على مجريات الإقتصاد) . الإقتصاد الموجه .

(٦) إلحاق جميـع أفراد المجتمع بالخدمـة للدولة لتحقيق مبـدأ القضـاء على الطبقات ، وذلك بتأمين العمل وكفالة العمال .

(٧) نظر القيمة وفائض القيمة .

وقـد طبقت هذه المرتكزات فى روسيـا بعد الثورة البلشفيـة ، ومن هنا اعتبر الشيوعيون أن الثورة البلشفية هى الفيصل بين القديم والجديد بالنسبة لروسيا حيث قالوا : (إن ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧م هى نقطة التحول الكبرى فى تاريخ روسيـا السوفيتية السيـاسى والإجتماعى والإقتصـادى . فقبـل ثورة سنة ١٩١٧م كان النظام الإقتصادى والسياسى السائد رأسمـــاليا إقطاعيا بحتا ، بل وممعنا فى الرأسمالية والرجعية ولكن بعد الثورة اتجهت البلاد إلى أقصى اليســار وطبقت النظام الماركسى بفلسفته الإقتصادية والسيـاسية ، ولأول مرة فى العـالم وبشكـل لم يسبـق لـه مثيـل . فـالثورة إذن هـى الحد الفـاصل بين عهدين مختلفين متباينين فى روسيا السوفيتية : عهد رأسمـالى إقطاعى رجعى ، وعهد بلشفى ماركسى متقدم)[2].

---

(١) مصادر الماركسية (٤٧) .

(٢) نقلا من كتاب النظم الإقتصادية المعاصرة (١٨٩) .

فهم يرون أن الإقتصاد السوفييتى يقوم بتنفيذ آراء ماركس ولينين ويسير حسب آرائهما حيث جاء عنهم : (لقد اعتمدت روسيا السوفيتية فى بناء إقتصادها القومى بعد الثورة على الأسس والتقاليد الماركسية الصميمة ، فبدأت بتأميم الصناعة الكبيرة والبنوك ووسائل النقل والأراضى وفرض الاحتكار على التجارة الخارجية وإقامة الصناعة الثقيلة وكهربة البلاد فى أسرع وقت ممكن . وكانت هذه الخطوات جميعها مجرد أهداف ومثل عليا رسمت أبعادها النظرية الماركسية أولا ثم طبقتها الثورة بعد ذلك ؛ مرسية بذلك أسس تنظيم الإقتصاد القومى على المبادىء الماركسية اللينينية)[١].

وإذا كانت النظرية الماركسية الإقتصادية طبقت فى الاتحاد السوفييتى فإن الذى يوضح هذه النظرية ويبين مصداقيتها وصلاحها من عدمه هو واقع تلك الدولة .

---

(١) النظم الإقتصادية المعاصرة (١٨٩) وانظر مابعدها .

المبحث الثانى
النظام الاقتصادى الشيوعى بين النظرية والواقع

أولا : إلغاء الملكية الفردية :

إن قاعدة المذهب الإقتصادى الشيوعى الأولى هى هدم الملكية الفردية وصرح البيان الشيوعى بذلك حيث جاء فيه : (باستطاعة الشيوعيين أن يلخصوا نظريتهم بهذا الصدد فى هذه الصيغة الوحيدة وهى : القضاء على الملكية الخاصة)[١].

ويذكرون أن الملكية البورجوازية هى التى يرغبون فى القضاء عليها[٢] واعتبروها سبب الشرور والظلم الواقع على بنى الإنسان وأنها كانت انعكاسا لأوضاع معينة اقتضتها وليست فطرية فى النفس الإنسانية .

وإذا قيل للشيوعيين إن عمل الإنسان لمنفعته الذاتية هو مما فطر عليه ولاتنشأ فى الأفراد عاطفة السعى والجد إذا سلبوا ملكيتهم قالوا : إن هذه من الكلمات الواهية التى تولى كبر وضعها الطبقة البرجوازية لأغراضها ومافى الإنسان من ميول واتجاهات إنما هى وليدة البيئة والمجتمع ، فإذا ماستبدلت بيئة بأخرى ومجتمع بآخر ، ذلك المجتمع أو تلك البيئة تخترع أفكارا جديدة لعواطف تلائمه ، فالناس فرديون مادام نظام الملكية الفردية قائما ، وستنقلب عقليتهم جماعية حينما يقوم نظام الملكية الجماعية[٣].

وملخص اعتقاد الشيوعيين عن الملكية كما يلى :

(١) إنكار فطريتها .

(٢) أن الأصل فى المجتمعات البشرية الملكية الجماعية (المشاعية) .

(٣) أن القضاء على الملكية الفردية سيؤدى إلى القضاء على الظلم والشرور.

---

(١) البيان الشيوعى (٥٦) .

(٢) انظر المرجع السابق (٥٦) .

(٣) انظر أسس الإقتصاد (٧٠-٧١) .

(٤) التأميم .

(٥) نتائج القضاء على الملكية :

(أ) زوال الطبقات .

(ب) المساواة .

ونأتى الآن لبيان بطلان هذه المعتقدات ، ونرى هل حقق الشيوعيون فى واقعهم شيئا منها أم لا؟!!

أولا : بيان بطلان زعمهم أن الملكية ليست من الأمور الفطرية .

سبق القول فى إثبات فطريتها وبيان بطلان زعمهم ذلك[1].

ثانيا :استدلالهم بالمجتمع البدائى بأنه حقق السعادة ولم يكن للملكية الخاصة فيه مكان ، وإنما ظهرت الملكية فى المجتمعات الاستغلالية كالمجتمع العبودى والإقطاعى والرأسمالى ، وعلى هذا فلابد من العودة إلى الأصل الأول وهو جعل الملكية ملكية مشاعية أو جماعية . وهذا إدعاء باطل من وجوه :

الوجه الأول : أن الأصل الأول الذى كانت عليه البشرية يرفض هذا الزعم ويبطله لأنه لم يكن هناك مشاعية لافى الأموال ولافى الأبضاع . وهذه عقيدة مسلّمة عندنا . ومن بعد نجادل القوم من خلال فهمهم .

الوجه الثانى : أن ماركس وانجلز قد اتخذا من التعميم فى الأحكام منهاجا لهما ، فهما لايترددان عن إعطاء حكم جزئية صغيرة لكل مايتفق معها فى الاسم ، وهذا مخالف لأبسط قواعد المنهج العلمى .

الوجه الثالث : يقال لهم ماهى الأشياء التى كانت موجودة فى ذلك العصر؟

وسيكون الجواب بأنها الحجارة وماتستخدم فيه من آلات وأوانى فيقال لهم : ماهو الدافع لكى يتقاتل الناس والأرض كلها على هذه الشاكلة؟

ثم ماأدرى ماركس وانجلز أنه لم يكن كل إنسان يمتلك أدواته وآلاته الخاصة[2].

---

(١) عند حديثنا عن فطرية التملك فى الفصل الأول من هذا الباب (٦٣٤) ومابعدها .

(٢) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٠٩) .

ثم إن المأكولات التى كانت موجودة فى ذلك العصر إذا لم تستهلك فلاشك أنها ستفسد خاصة مازاد عن حاجة الإنسان . وبالتالى فلاغرابة إن دفعها أو سمح لغيره بالمشاركة فيها .

إضافة على ذلك لو لم يكن هناك كم كبير من هذه المأكولات وكذلك الأدوات والآلات فلاشك أن كل إنسان سيكون حريصا على الاحتفاظ بما يقيم أمره والانفراد بذلك الشىء ، ولكن الأشياء التى كانت موجودة (أحجار يتخذون منها وسائل كبديل عن الكبريت والسكين

غابات شاسعة مليئة بالفواكه . حيوانات ، أسماك فى البحار .

فهل ينكر عاقل أنه لو لم يكن هناك إلا قطعة واحدة من اللحم لتقاتل الجميع على ملكيتها وطفت على السطح غريزة حب التملك واضحة؟

إذن فالغريزة موجودة ولكن لم يكن هناك مايستحق التملك ، مما جعل الناس يتركون الأمر مشاعا بينهم)[1].

<u>الوجه الرابع</u> : يقال لهم : هل ثبت لماركس أنه لم يحدث نزاع قط على ملكية شىء فى المجتمعات البدائية؟

قطعا لايستطيع الشيوعيون أن يجيبونا بنعم!! وإلا كان قولهم بلابرهان ولادليل لأنهم لم يشاهدوا هذه المجتمعات ولم يعيشوها ، وكل كلامهم قائم على الظن والوهم ، وعلى أساس قياس بعض المجتمعات البدائية فى القرن التاسع عشر أو العشرين على المجتمعات البدائية الأولى .

والقياس مع الفارق ، ألم يكن هناك صراع بين أفراد هذه المجتمعات على امرأة جميلة بعينها يراها أجمل من غيرها فيمتلكها وليكن شيخ القبيلة أو فتى قويا . ألم يكن شيخ القبيلة يميز نفسه ولو بريشةواحدة يضعها على رأسه ويمتلكها دون الآخرين ويحرم على غيره أن يضعها على رأسه[2].

وهذا نوع من التملك لاتستطيع الشيوعية أن تنكره لوجوده حقيقة فى تلك البيئة .

---

(١) إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٠٩) .
(٢) انظر جاهلية القرن العشرين (١٢٧) .

الوجه الخامس : أن المجتمع البدائى بوصفه ساعد على أن لايمتلك الإنسان بعض الأشياء لايعنى أنه ليس صاحب غريزة ، أو أن حب التملك لايوجد فى نفسه ، لكن قد تتغير صورة الملك مع ثبات الغريزة .

ففى تلك الفترة البدائية (لم يكن هناك مايمتلك! لم يكن الصيد الذى يصيده الإنسان ملكا لفرد بعينه لأنه لايستطيع أن يمتلكه وهو لايصيده بجهده وحده من ناحية ، ولايستطيع أن يحتفظ به من ناحية أخرى لأنه ينتن ويفسد ولكن حتى فى ذلك الحين كان يثور الصراع على "امتلاك" امرأة . فيتصارع من أجلها الرجال . ثم صار هناك (إنتاج) يمكن أن يمتلك . فامتلك الإنسان الأدوات البسيطة التى أنتجها . ثم امتلك المحاصيل حين تعلم الزراعة . وامتلك حيوان الزراعة المستأنس حين تعلم كيف يستأنسه . وامتلك الأرض التى تغل المحاصيل . ثم امتلك المصانع . واليوم يمتلك القنابل والصواريخ . وقد يمتلك الكواكب فى الغد القريب أو البعيد . ماالذى تغير؟! نزعة الملك أم صورة التملك؟)[1].

يضاف إلى ذلك أن أبحاث علم الأنثروبولوجيا من خلال كتبها فى المجتمعات البدائية الموجودة اليوم جاءت النتائج مكذبة لكل ماادعاه ماركس فى مسألة الملكية ، حيث أكدوا أنه لم يخل عصر من العصور من الملكية الخاصة[2]. فزعمهم ذلك وهو أن المجتمعات البدائية لم تعرف الملكية الخاصةلايقوم على دليل علمى .

الوجه السادس : أن واقع الشيوعية بعد أن فرضت بالقوة يرد على هذا الزعم ، حيث قامت الشيوعية الماركسية وقالت نظريا بأن الملكية الجماعية هى الأصل فى النفس البشرية ، وأرادت تحقيق ذلك فى المجتمع الإنسانى المعاصر فقامت الثورة البلشفية المستمدة أفكارها من مبادىء ماركس وانجلز ، ولم تترك الأمر للناس كى يرجعوا إلى أصلهم برغباتهم واختيارهم ، بل

---

(١) التطور والثبات فى حياة البشرية (٩١-٩٢) .
(٢) انظر الشيوعية والإنسان (١٤٦) .

فرضت عليهم هذه العودة بالقوة والحديد .

وحسنا الآن نسلم بما قالوه عن المجتمع البدائى جدلا فما بال هذا المجتمع الذى بدأ فى تطبيق الكفر الشيوعى العلمى رفض هذا الأصل وعاند واستكبر على الانصياع له والعودة إليه؟!!

وكم هى الخسائر المادية والروحية التى لحقت بذلك الشعب من أجل فرض تلك العودة عليه بالقوة؟!!

وهل يعقل أن يطلب من إنسان أن يرجع إلى أصله الذى سلب منه وهو يتطلع إليه ثم لايرغب فى ذلك؟! وإذا كانت الملكية الخاصة هى انحراف وسوء ، شاع بسببها الظلم والطغيان لقرون عديدة فى المجتمع (فهل شفيت النفوس من الداء وسلمت من الانحراف ، وارتدت إلى أصلها الملائكى المزعوم؟!)[1] عندما استخدمت القوة والضغط من أجل إعادة الناس إلى أصلهم ونبذ ذلك الانحراف!!

إن واقع الاتحاد السوفييتى فيه أكبر برهان على رد هذه الفرية القائلة بأن الملكية الجماعية هى الأصل ، ذلك أن القوة والقهر لم تفلح فى إعادة الناس إليها .

إضافة إلى أن الواقع الذى يعيشه الفرد هناك خاصة منذ أواخر عهد ستالين يرد كذلك على هذه المقولة ، حيث أقرت الملكية الفردية ، وأحقية التملك الخاص ، وإن كان فى نطاق ضيق ، إلا أنه أخذ يتسع مع الأيام إلى أن عاد الناس بالفعل إلى الأصل الأول لهم والمناقض لما ذهبت إليه الشيوعية ، وفرضته الثورة الشيوعية بالقوة ، وهذه هى فطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها .

ولو لم يكن حب التملك فطرة فى النفس البشرية ، لما اتخذت الثورات منها شعارا لها تريد تحقيقه لينضوى تحتها الناس ، ويكثر اتباعها ، ومعتنقى أفكارها[2].

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة (٤٢٦) .

(٢) انظر فلسفة الثورة الفرنسية (١٥٧-١٥٨) ، وانظر (٢١٨) .

والشيوعية نفسها عندما أرادت نشر أفكارها والدعوة إليها اتخذت من الأمور التى تتطلبها الفطرة الإنسانية شعارات لها حتى تضمن اندفاع الكل من ورائها ، فنادت بالحرية ، والمساواة ، والعدل ، وكل هذه الأمور تميل إليها الفطرة الإنسانية بطبعها .

وهكذا يبطل زعمهم أن المجتمعات البشرية كانت على المشاعية ، وأن هذا هو الأصل فى الإنسان ، فلاالعلم شهد لهم ، ولاالواقع أنقذهم بل أبان بطلان زعمهم .

ثالثا : بطلان زعمهم أن الملكية الفردية سبب الشرور والظلم فى المجتمع الإنسانى ومن هنا يتعين إزالتها ، وهذا مبدأ فاسد وزعم باطل وذلك للوجوه التالية :

الوجه الأول : المفاسد الكبيرة المترتبة على القضاء على الملكية الفردية .

إن الملكية الخاصة تعتبر حافزا قويا على العمل والإنتاج سواء كان زراعيا أم صناعيا ، وذلك لأن الفرد العامل يعلم بأن فائدة ومردود عمله ذلك سيكون له منه نصيب ، بل إن الأصل أنه له كله ، فينطلق فى العمل ويبدع فيه ويحقق نتائج لايمكن تحقيقها مع وجود الملكية الجماعية التى يشعر الإنسان بأنه لن يستفيد من عمله إلا بقدر مايشبع جوعه أو يسد رمقه . إذا فلن يعمل إلا بقدر مايرى أنه يحقق له تلك الكفاية من العيش . إضافة لذلك أن الإتقان والجودة ستكون مفقودة ، زد على هذا أن المحافظة على السلعة والشىء المنتج لن يكون بدرجة لو كانت الملكية الخاصة هى التى ستعقب ذلك الإنتاج ، وبالفعل فإن واقع الاتحاد السوفييتى الصناعى والزراعى قد أكد ذلك ، وأصبح تردى الوضع الإقتصادى وتأخر البلاد أكبر دليل يرد به على أن الملكية الجماعية هى الأصل أو أن الملكية الخاصة هى سبب الظلم وقسوة العيش .

جاء فى كتاب نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية أن السوفييت لايذهبون إلى العمل (وعندما يحضرون ، فإنهم يعملون ببطء وبشكل سىء ، ونستطيع اليوم أن نكون مكتبة كاملة من رسائل القراء ، وتقارير الصحفيين

وتحليلات الإعلاميين حول النوعية الرديئة للإنتاج السوفييتى)[١].

وهذه نتيجة بدهية لانعدام الحافز الفردى .

يقول الدواليبى : (إذا مانظرنا إلى أن القاعدة الأساسية فى الإشتراكية الثورية هى أن تنزع حق الملكية من أساسه لثمرة العمل والسعى ، وأن لاتعطيه إلا حاجته فقط ، أدركنا عندئذ مقدار الإساءة الكبرى إلى برامج زيادة الإنتاج ، ومقدار الإساءة العظمى إلى مصلحة المواطنين ...)[٢].

ويقول ميشيل هيلير : (إن الحافز الإقتصادى قد اختفى ، وتوقف عن فك وظائفه ، خاصة تلك المتصلة بتماسك أخلاقية العمل ، والرضى عن العمل المنجز بشكل جيد ، فسواء حسن العمل أو تدنت نوعيته فإن العائد هو نفسه ، ويبقى سيئا فى كل الأحوال)[٣].

الوجه الثانى : إن واقع الاتحاد السوفييتى الزراعى والصناعى دل على فساد ذلك المبدأ وأثره السيء .

ويجدر بنا أن نعرض لهذين الأمرين بشيء من التفصيل لأنهما متلازمان ويرتبط بهما أحداث كثيرة وقعت على الساحة السوفيتية .

أولا : الزراعة :

اهتم السوفييت بالمسألة الإقتصادية بل وجعلوا لها أكبر قدر من مذهبهم وادعوا أنه ماقام إلا لتحقيق الرفاهية ورغد العيش لكل فرد . وإذا كان لينين هو الذى قام بتطبيق الفكر الماركسى فى الاتحاد السوفييتى فإنه اصطدم بالواقع وجعل التعامل مع واقع الناس مقدما على الأفكار النظرية التى سطرها ماركس وانجلز ، ولأجل ذلك جاء بفكرة الإقتصاد الجديد[٤].

---

(١) (١٢٣) .

(٢) نظرات إسلامية فى الإشتراكية الثورية (٤٣) .

(٣) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٢٤) .

(٤) سيأتى الحديث عنها بشيء من التفصيل فى المبحث الأول من الفصل الخامس إن شاء الله تعالى .

ولكـن (إلى أى مدى نجحت هذه الخطة ، وماهو تأثيرهـا على الإقتصاد القـومى السوفييتى بعد ذلك؟ والإجابة ـ فى بسـاطة واقتضـاب ـ إن الخطة فى وقتها قد نجحت لأنها حققت بعض الأهداف السياسية التى وضعـت من أجلها وهـى المسـاهمة فى تدعيم ثورة البروليتـاريا وإقامة تنظيم مـاركسى سليم . إلا أن الأهــداف الإقتصـادية التى وضعهـا لينين كمثـل عليـا ينبغـى تحقيقهـا ؛ وخاصـة ماتعلق بالتصنيع وإقامة القاعدة المادية التكتيكيـة للتطور الإقتصادى الإشتراكـى ـ مـاكان لهـا أن تنجـح فى هـذه الفترة الـزمنية القصيرة وأمـام الصعـوبات والمعـوقات الإقتصـادية والسياسية الكبيرة التى واجهـت البلاد فى السنـوات العشرينية من القرن الحالى ، ولأسباب أخرى يمكـن تلخيصها فيما يلى :

(١) التخلـف الإقتصادى الذى ساد إبان العهود القيصرية السـابقة للثورة ؛ وهو التخلف الذى وصفه لينين بأصعب وأعقد العقبـات التى واجهت البلاد فى إرساء النظم الإشتراكية على أسس وقواعد سليمة .

(٢) الثـورات السياسية المضادة التى حدثت بالفعل فى أعقـاب ثورة ١٩١٧م ـ ولسنـوات طـويلة بعدها ـ والتى أدت إلى فقـد مـايقرب مـن مليونى رجل فيما بين سن السادسة عشر والخمسين .

(٣) ألاعيب الدبلوماسية الغربية والرأسمالية داخل روسيـا نفسها فى محاولة منهـا لتفويض النظام الشيـوعى وإعادة الحكم الـرأسمالى مرة أخرى .

كـانت هـذه هى المعوقات السيـاسية والإقتصـادية التى واجهـت الخطـة الإقتصادية اللينينة بعد ١٩٢٣م ، والتى ظلت آثارها المخـربة حتى سنة ١٩٢٨م وهـى السنـة التى بدأ عندهـا مشـروع السنوات الخمس الأولى الـذى يعتبره الإقتصـاديون الإشتراكيون المعاصرون نقطة الإنطلاق الأولى فى تاريخ التطـور السوفييتى فى العصر الحديث)[١].

---

(١) النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٠٥-٢٠٦) .

ولاشك أن التنظيم السوفييتى كان يسير فى تطبيق نظام المزارع الجماعية والتأميم ، وزيادة الأراضى المزروعة . جاء فى كتاب النظم الإقتصادية المعاصرة : (إن السمة الرئيسية البارزة فى التنظيم فى الزراعة السوفيتية بعد تحول البلاد عن الحكم الرأسمالى القيصرى القديم وانتقالها إلى الماركسية هى وجود محاولات دائمة ومستديمة من جانب الحكومة نحو توسيع رقعة المساحة المزروعة وزيادة إنتاجية الفدان الواحد . فهذا هو الهدف العام للتنظيم ، بل لعله هو الهدف العام لكل تنظيم زراعى فى العالم . ولكن الإشتراكية السوفيتية وهى تضع هذا الهدف العام فى اعتبارها تختلف فى وسائل تحقيقه عن أى تنظيم آخر فى أية دولة أخرى ـ وينبغى أن تختلف فهى تؤمن بأن الزراعة المجزأة الصغيرة لايمكنها أن تسد حاجة السكان المتزايدة للسلع والمنتجات الزراعية بل وحاجات التصدير إلى الخارج)[١]. ويرى الشيوعيون أن ملكية الأرض للفلاح يعيق بناء الإشتراكية[٢].

ويقوم التنظيم الزراعى السوفييتى على شكلين من أشكال الملكية الجماعية :

(أ) السوفخوزات :

وهى مزارع حكومية كبيرة (حيث تمتلك الدولة وسائل الإنتاج من أرض وعدد وآلات فضلا عن امتلاكها المنتجات الزراعية السنوية .

(ب) الكولخوزات :

وهى (مزارع تعاونية ينضم إليها الفلاحون بمحض إرادتهم ويمتلكون جماعيا وسائل الإنتاج الأساسية يستثمرونها لصالح الشعب بأسره)[٣].

ولكن هل حققت هذه الأنظمة ماأراده الشيوعيون منها؟ إن واقع الاتحاد السوفييتى الإقتصادى يكفى دليلا على بيان الفساد الذى حصل من

---

(١) النظم الإقتصادية المعاصرة (٢١٤) .

(٢) المرجع السابق (٢١٥) .

(٣) المرجع السابق (٢١٥) ، وانظر القانون الدستورى والنظم السياسية ، القسم الثالث (١٤٧-١٤٨) .

جراء هذه السياسة . كما أن ماصاحب تطبيقها يكفى على ردها وعدم القول بنجاحها .

ولن نذهب بعيدا عما قاله بعض زعماء وقادة الشيوعية عن ذلك ، وعن تصوير الوضع الإقتصادى المتردى . يقول فارغا : (كان المفروض ، بالفعل ، أن يكون للتعاونيات الزراعية ملء الحق فى التصرف فى قواها المنتجة عملها التى يفترض أن تبيعها للدولة على أساس الاتفاق الحر وبأسعار مناسبة لكلا الطرفين . وكان من المفروض أيضا أن تتمتع بالتسيير الذاتى الحر ، القائم على أساس انتخابية الموجهين والمنظمين .

أما فى الواقع ، فقد بادرت القيادة الستالينية ، فور البداية بتنظيم الكولخوزات ، إلى تطبيق نظام الصادرات الجماعية والتسيير القسرى على هذه الكولخوزات بصورة دائمة . وقد أرغمت هذه الأخيرة على تعيين المناوبات الزراعية بحسب خطة (مفبركة) من قبل الشعب الزراعية للجان التنفيذية ، وتولى قيادتها رؤساء معنيون من قبل اللجان المنطقية ، وفرضت عليها الضرائب فى شكل تسليم عينى للبضائع بكميات تحددها الدولة وبأسعار مناسبة لها وحدها . وفى كثير من الأحيان كان حجم التسليمات العينية ضخما للغاية يتجاوز إمكانيات الكولخوزات ، مما يجعل جزاء العمل زهيدا . وأحيانا شبه معدوم . وعلاوة على ذلك ، وإبتداء من النصف الثانى من الثلاثينات ، قلصت تقليصا كبيرا قطع الأراضى الخاصة التابعة للكولخوزين . وحد من حق تربية المواشى والدواجن بصورة محسوسة ، وحظر على الكولخوزيين قسر الشعب لإطعام حيواناتهم فى أى بقعة من الأرض أينما كانت ، فلاغرو إن سعى سكان الكولخوزات ، فى هذه الشروط إلى كسب رزقهم بطرق أخرى ، وإلى التوطن فى المدن للعمل فيها ، وحتى يوضع حد لتزييف اليد العاملة هذا ، صارت جوازات السفر تسحب من الكولخوزيين ، وماعاد يؤذن لهم بمغادرة القرية بدون موافقة الرئيس والممثلين المحليين للسلطة.

وفى الواقع ، قضت القيادة الستالينية على الكولخوزات بالدمار ، ولاسيما فى الجزء الشمالى من روسيا الأوربية ، وجردت العديد من الكولخوزيين من كل اهتمام بالعمل . وماأمكن للكولخوزات أن تفلت من قبضة البؤس ، بل أن تزدهر فى بعض الأحيان ، إلا فى الجنوب والجنوب الشرقى من البلاد حيث تعوض الأرض عن العمل بمئة ضعف)[١].

وهكذا يظهر التضييق الشديد على أصحاب المزارع الجماعية ، ومن ثم بحثهم عن طرق أخرى يحاولون إيجاد مايرغبون فيه من خلالها . كما أدت هذه السياسة المتشددة من جديد إلى التأثير سلبا فى كمية الإنتاج ونوعيته .

هذا إذا ماوضعنا بجواره اهتمام ستالين بالصناعة ، وكان ذلك على حساب غذاء الشعب ، حيث انعدمت السلع الاستهلاكية والضرورية بشكل كبير .

ونكتفى هنا بهذا التصوير الجيد عن وضع الزراعة والفلاحين من أحد رؤساء الاتحاد السوفييتى حيث قال خروشوف :

(لماذا كانت زراعتنا متأخرة عن صناعتنا؟

لماذا تركنا تحت رحمة الطبيعة المتقلبة ، ومواسم الحصاد غير الثابتة؟

إن ستالين مسؤول عن ذلك لأسباب عديدة منها :

(١) أنه وضع الزراعة فى المرتبة الثالثة فى إقتصادنا .

(٢) كان يعتبر المزارعين حثالة المجتمع ، لايحترمهم ، ولايقدر عملهم . وظن أن الضغط هو الطريقة الوحيدة لحملهم على الإنتاج .

(٣) كان مايدفع للفلاحين لقاء محصولهم أقل من كلفته إلى حد أن فقدوا الدافع إلى العمل فى المزارع الجماعية .

(٤) فرض ضريبة على بساتين الفاكهة الخاصة التى كان المزارعون يعتنون بها حتى فقدوا أيضا الدافع إلى تلك العناية ، وفكر بعضهم فى قطع أشجارها . وبكلمة أخرى كان ستالين يعتبر الفلاحين كالأغنام التى يجز صوفها كلما كبر .

---

(١) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٥٨-٦٠) .

(٥) أضاف إلى الاحتكار ضررا ، ففرض للمحصولات الزراعية أسعارا مخفضة .

(٦) عين للإشراف على المزارع الجماعية رجالا أرسلهم من المدن دون خبرة بالزراعة ، وخصص لهم رواتب معينة فلم يهتموا أكان الموسم جيدا أم سيئا .

أعتقد أن انعدام الدافع المادى أضر كثيرا بالزراعة . إن الذين يدعون أن الناس يجب ألايكون دافعهم المال بل الاعتبارات الأيديولوجية مخطئون . لكن ستالين رفض الاعتراف بهذه الحقيقة ، وكذلك بعض أعضاء القيادة . أن الشيء الأساسى فى الصراع فى سبيل الإشتراكية وهو إنتاجية العمل ، وكى تنتصر الإشتراكية فى بلد يجب أن تحصل من العامل على أكثر مايمكن ، ولاأعنى أن يتم ذلك بالقوة .

هناك سبب آخر وهو عجز الزراعة عن التمشى مع بقية إقتصادنا بعد الحرب بسبب البيروقراطية الزائدة ، لست ضد الإجراءات الإدارية على أن تكون معقولة وفعالة . ولكن وزارة الزراعة كانت تتدخل فى كل شيء ، وتقرر حتى مايبذر ، ومتى يكون البذار ، وكيف يكون ، ومتى يبدأ الحصاد وغير ذلك . وكثيرا ماتأتى الأوامر خلافا لمفاهيمنا ، ويكون فيها تضييع للوقت والجهد . ولاأعنى بهذا إنكار ضرورة الإدارة ، فقد قال لينين : "إن الإشتراكية إدارة ")[١].

ثانيا : الصناعة :

دون شك أن السوفييت اهتموا بالصناعة كثيرا[٢] منذ زمن لينين غير أنها شهدت تحولا كبيرا زمن ستالين . وهذا التحول والاهتمام كان على

---

(١) الوصية الأخيرة (٩٠) .

(٢) انظر الدراسة التى وردت عن الصناعة السوفتيية فى كتاب النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٠٨) ومابعدها .

حساب الشعب وأدى إلى مفاسد كبيرة كان من أهمها تردى الزراعة ، وفقدان المواد الغذائية . يقول بسام العسلى : (ويمكن إيراد أرقام لاتعد ولاتحصى للبرهان على كثافة التصنيع واتساعه خلال فترة حكم ستالين (خاصة من سنة ١٩٢٨ حتى سنة ١٩٤١م) وربما كانت الحقيقة الوحيدة الأكثر وضوحا هى حركة السكان من الريف إلى المدينة ومن الزراعة إلى الصناعة فيما بين سنة ١٩٢٦م وسنة ١٩٣٩م . والذى حدده القسم الأكبر منها بعد الشروع فى الخطة الخمسية الأولى فى العام ١٩٢٨م ، وخلال عقد واحد من السنين تقريبا ازداد تعداد السكان الصناعيين فى الاتحاد السوفييتى من حوالى (١٦) بالمئة من المجموع العام إلى مايقارب ٤٦ بالمئة ، أى بمعدل ثلاثة أضعاف تقريبا . ولقد أمكن تحقيق ذلك بإنقاص المجموعات الزراعية من ٧٧ بالمئة من المجموع العام إلى أقل من ٤٧ بالمئة ولم يسجل مثل هذا التحول الشديد فى مركز الثقل الإقتصادى لأمة من الأمم فى مثل هذا الوقت القصير فى تاريخ البشرية كله ، وليس فى العصر الحديث على كل حال . وقد ساعد على هذا الإنجاز ، تحويل المزارع إلى تعاونيات ، مع الاعتماد على تصنيع الزراعة تقنيا للتعويض عن هجرة الفلاحين إلى المدينة . ورافق ذلك إكراه من أشد الأنواع من جانب الحكومة فى موسكو ، ولقد تسبب ذلك بمعاناة واسعة واضطراب إجتماعى ، بحيث ظهر واضحا أنه من المحال على أية دولة أخرى فى العالم أن تنهج سياسة مماثلة لهذه إزاء شعبها ، وأنه من المحال أيضا أن تتوافر لزعيم آخر فى الاتحاد السوفييتى ، خلا ستالين ، مثل هذه الإرادة الصلبة ، والعزيمة الحديدية التى تمكنه من التأثير على الإقتصاد المخطط المجرد من الإنسانية)(١).

(وخصصت نسبة عالية ـ وبصورة متزايدة ـ من الدخل القومى الضخم لتغطية نفقات القوات المسلحة ، وتحقيق ذلك كله ، وأكثر منه ، بتضحيات هائلة وقع عبؤها على المواطنين جميعا . حتى أن المانيا النازية لم تشهد تحويل (زبدة المدنيين) كلية إلى (مدافع للجيش) بمثل هذا الشكل . إن

---

(١) ستالين (٨٥-٨٧) ، وانظر النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٢٢-٢٢٣) .

اختبـار أية سيـاسة من هذا النـوع يكمن فى النتائج النهـائية ، وليـس هناك سوى الشعب السوفييتى يستطيـع وحده القول فيما إذا كـان انتصـاره النهائى يعـادل مـادفعه مـن ثمن طـوال الفترة مـن سنة ١٩٢٨م حتى سنـة ١٩٤١م)(١).

ولكـن هل يعنى هذا أن الصنـاعة السوفيتية كانت فى المستـوى الـذى أنفـق عليهـا؟ إن الواقع والمشـاهد يدل على الفـارق الكبير بين مـاأنفق وبين جودة الصناعات السوفيتية .

ومـن أهم الأسباب التى أدت إلى هـذا التخلف فى الصنـاعة السوفيتية ـ مقارنة بالإنفاق ـ هو القضاء على الملكية الفردية ، وانعدام الحافز الفردى ، والطابع الإجبارى على العمل ، والقمع البوليسى الرهيـب ، والاهتمام بالكم لابالكيف(٢).

هذا بالإضافة إلى التخلف التكنولوجى الذى كان يعانى منه السوفييت فى مسألة التنقيب على النفط العصب المحرك للإقتصاد(٣).

وهكـذا غـدت الـزراعة والصنـاعة ـ رغـم الاهتمـام بهمـا ـ متخلفتين وذلك نتيجة بدهية للقضاء على الملكية الفردية .

الوجه الثالث : نتيجةلكون هذا المبدأ يتعارض مع الفطـرة الإنسانية فقد أدت محاولة تطبيقه إلى معاناة شديدة مما جعل الناس ينفرون منه . وفى هذا إقـرار مـن الشيوعية بتأصل ذلـك الأمر فى نفوس النـاس وإلا لماوصـل بهم الأمـر إلى هذا الحد من الطغيـان والجبروت فى محاولـة فرض ذلك الفكر على المواطنين السوفييت .

يقول أحد الطلاب لصديقه ليونهارد : (لابد أن تفهـم! لقد كانت أيام كفاح مرير ، لتحويلنا من حياة خاصة نتمتع فيها بالملكية الخاصة ، إلى حياة جمـاعية ، يسلـب الإنسان فيهـا كل شىء حتى حريتـه . وكـان بعض أعضاء

---

(١) ستالين (٨٩-٩٠) .

(٢) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٩٦) .

(٣) انظر : التحدى العالمى (٩٦) جان جاك شرايبر ، ترجمة فيكتـور سحاب ، إبراهيم العـريس ، الطبعـة الأولى ١٩٨٠م ، المؤسسـة العـربية للدراسات والنشـر ، الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٩٥) .

الحزب الصغار ، يتصرفون معنا تصرفات مشينة ، ولكن استنكرت هذه الأعمال من الحزب فيما بعد . يحدث مثل هذه الأعمال فى التحويل الإجبارى إلى حياة جماعية!)[١].

لقد (كان تطبيق مبدأ الملكية الجماعية فى المحيط الشيوعى الحديث عسيرا واجتاز مراحل حرجة .

ففيما يختص بالأملاك الزراعية :

اغتصب الفلاحون الروس لحسابهم ، فى سنة ١٩١٧م ، أملاك الأشراف وكبار المزارعين ، ورفض هؤلاء الفلاحون النزول عن هذه الأملاك للحكومة بل أبوا أن يسلموها محاصيلها .

وفى سنة ١٩٢٢م تقرر ترك الأراضى ملكا للفلاحين ، فانتعشت الزراعة والتجارة .

وفى أعقاب ذلك ، شرعت الحكومة فى حمل الفلاحين على التخلى عن تلك الأراضى ، مرغبة بوعدها ، مهددة بوعيدها ، وبالفعل أزيلت الحدود بين الأراضى ، وزودت القرى بالآلات الزراعية الكبيرة التى تكفل زيادة الغلة ، وتحقق مايرجى من الإنتاج الكبير .

وفيما يختص بالأملاك الصناعية :

وضعت الحكومة يدها مبكرا - فى المدائن الصناعية - على المصانع والمناجم ، وصدر فى سنة ١٩٢٠م ، قانون بتأميم المصانع الآلية التى لايقل عدد عمالها عن عشرة . وفى سنة ١٩٣٤م ، بلغت الصناعة الحكومية ٩٩٪ من مجموع الصناعة الروسية ، وبلغت الزراعة والتجارة الحكومية نحو ٩٠٪ من المجموع .

وتنفيذا للمبادىء الشيوعية ، تدبر الدولة - بمعرفتها وبدون منافس لها - كل المرافق العامة ، ويستطيع الأفراد - بمقتضى القانون الروسى - النهوض بأعمال خاصة محدودة النطاق قوامها الجهد الشخصى دون استغلال جهود الغير)[٢].

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٨٦) .

(٢) الشيوعية فى موازين الإسلام (٤١-٤٢) .

ويقـول د. خفاجى : (إن مبـدأ إلغاء الملكية الفردية إلغـاء تامـا ينافى الفطـرة الإنسـانية ، التملـك فى الإنسـان ، ويدعـو إلى الخمـول والكسـل ، ويخالف تعاليم جميع الأديان ، وقد طبق ذلك فى المجتمع الشيوعى فى روسيا بقوة السلاح ...)[١]. ومع هذا لم يفلح ذلك النظام فى تحقيق ماأراد .

الوجه الرابع : رغـم هذه القوة والجبروت إلا أن الشيـوعية لم تصمد أمـام الفطـرة الإنسـانية واضطـرت إلى الاعتراف بالملكيـة الفـردية ، فحصـل التراجع وأبيحت الملكية فى عهد ستالين ، وكلما تقادم الـزمن زاد التوسع فى هذه الملكية إلى أن أبيحت مطلقا كما لو أن النظام قـد يئس من تطبيق ذلك المبدأ.

يقـول الأستـاذ محمـد قطـب : (لقـد شـاء المذهب الشيـوعى أن يحول الفطـرة عـن طـريقها فى مسـألة الملكية الفـردية ، واستخـدم لـذلك الضغـط والإرهـاب والحديد والنـار ، والتجسـس ، وكـل وسـائل الحكـم البـوليسى الشنيـع ، التى اعترف بهـا خروشـوف فى (اعترافاته) عـن عهـد ستالين (بعد وفاته بطبيعة الحال!) فماذا كانت النتيجة فى النهاية؟!

كـان ذلك التراجع المستمـر من قبل الحكم البـوليسى ، خطـوة خطوة نحو الفطـرة البشـرية . مـن إباحة التفـاوت فى الأجور بين عمـال الطبقـة الواحدة والعمل الواحد ، وإباحة الملكية الفردية ـ فى المواد الاستهلاكيـة! ـ إلى اعتراف خروشوف بأن العمل فى المزارع الجماعية لايسير كما كان مقدرا له ، ولايعطى الغلة التى تعطيها المزارع الفردية ... إلخ؟!

كلا! إنهـا الفطـرة فى النهـاية ـ باعتـدالاتها وانحرافـاتها ـ تحدد حدود التطـور الإجتماعى والإقتصادى والسيـاسى ، فى أثناء نموه الفطـرى .. فتتركه ـ لسعتهـا ومـرونتها ـ يتشكـل فى أشكال شتى .. ولكـن فى حدود الفطـرة فى نهاية المطاف!)[٢].

---

(١) الإسلام يرفض الشيوعية (٧٧-٧٨) .
(٢) التطور والثبات فى حياة البشرية (١٢٤) .

لقد تراجعت الحكومة السوفيتية وسمحت بامتلاك أثاث البيوت والأمتعة والأدوات المخصصة للاستعمال الشخصي ، وأجازت امتلاك الحديقة للفلاح حول بيته[١].

ورغم أن هذه العودة كانت جزئية إلا أنها مالبثت أن أصبحت ملكية كاملة فى الآونة الأخيرة من حياة الدولة السوفيتية ، حسب ماغرس فى الفطرة البشرية .

الوجه الخامس : أن إقرار هذه الملكية جزئيا لم يكن ليحل الإشكال القائم من تذمر الناس تجاه هذا النظام . إضافة إلى أنه فتح الباب إلى المطالبة بإقرارها بصورة أكبر .

يقول البدرى : هذا التملك الجزئى يعنى : (تحديد التملك الفردى بالكمية والمقدار ، وهذا أيضا مناقض للفطرة البشرية ، ومخالف للأحكام الشرعية ، كما نفهم من نصوص الشرع ، حيث أن هذا التحديد ، والإلغاء الجزئ ، يحد من نشاط الفرد ويعطل جهوده ، ويقتل عبقريته ومواهبه ، فى حسن الإنتاج والإبداع فيه ، وبالتالى يقلل من إنتاجه ويوقفه عند نشاط معين لايتجاوزه ، وبذلك يحرم من مواصلة نشاطه الذهنى والجسمى ، وعند ذاك تخسر الأمة بمجموعها كفاءة الأفراد المجدين ، كل هذا ومثله يقع ويحصل ، مادام يمنع الفرد من تملك مايزيد عن المقدار المقرر له ، أو عن الكمية المخصصة لأمثاله ، وهذا من ناحية مناقضة الفطرة البشرية ، وهى وحدها كافية لبيان فساد وخطأ هذه القاعدة ، وفوق هذا فإنها مخالفة للأحكام الشرعية ، التى نفهمها من أدلة الشريعة الإسلامية ، وذلك أن منع الفرد من التملك إلا بمقدار معين ومصادرة مازاد عن هذا المقدار آثم ، لأنه اعتداء صريح على أمواله التى من الله تعالى بها عليه ، سواء أكان ذلك من جهوده الذهنية أو الجسمية كالعمل ، أم بهبة وهبت له ...)[٢].

---

(١) انظر الإسلام يرفض الشيوعية (٧٨) .

(٢) حكم الإسلام فى الإشتراكية (٧٢-٧٣) .

ولاشك أن هذا التمليك الجزئى قد فتح المجال أمام الشعب المتطلع إلى تحقيق ماتطلبه فطرهم ، ولم يف بالحاجة فثار الشعب يطالب بحقوقه ، ولم يعد يرضى الفلاح (أن يقلص وضعه ، وأن يرد إلى عامل بسيط مأجور)(١).

الوجه السادس : أن إلغاء الملكية الفردية يستوجب وجود جهة تملك تلك الوسائل والأموال وتوجهها ، ويكون لها حرية التصرف فيها . فهل قضى على الملكية الفردية فى الاتحاد السوفييتى وكان الناس شركاء فى كل الموجودات؟ إن واقع الدولة السوفيتية يكذب ذلك .

فبداية تلغى الملكية الفردية بدعاوى كاذبة ، (وتكوين مايسمى بملكية الدولة أو القطاع العام أو الملكية العامة ، أو بملكية الشعب والعمال وغير ذلك من الأسماء الخادعة) وهذا (ليس طريقا للإزدهار القومى أو دفع عجلة الإنتاج ، ولالرفع مستوى المعيشة بقدر ماهو طريق للسلبية والاتكالية والاستغلال الجماعى وهبوط الإنتاج ورداءته)(٢).

فالملكية أصبحت فى يد الدولة ، ومن هم الذين يقومون على هذه الدولة؟ إنهم أفراد الحزب القلائل ، أما الطبقة التى قامت الثورة البلشفية من أجلها فلاشىء لها .

يقول وحيد الدين خان : (وطرح ماركس شعار تحويل السلطات إلى ملكية شعبية إجتماعية لأجل القضاء على هذا التركيز فى السلطات ، ولكن هل يمتلك الشعب - حقا - هذه السلطات فى ظل النظام الذى يقترحه ماركس؟ وهل يتحرر مثل هذا المجتمع من لعنة المركزية؟

إن تغيير إسم شىء مالايغير من حقيقته ، فالنظام الجمهورى الرائج يزعم أنه حول كل السلطات السياسية إلى ملكية شعبية ، ولكن الإشتراكيين يرفضون قبول هذا الزعم ، بل يحللون النظام الجمهورى ليروا من الذى يملك السلطات فى حقيقة الأمر؟ وهكذا نحلل زعم الإشتراكيين فى ضوء

---

(١) نظرات إسلامية فى الإشتراكية الثورية (٩٥) .
(٢) الاتجاهات الفكرية المعاصرة (٢٠١) .

التجربة العملية لنرى ماهو الشكل الحقيقى العملى الذى يتخذه شعارهم القائل بملكية الشعب لوسائل الإنتاج؟

والحقيقة هى أنه لامناص من وضع وسائل الإنتاج فى أيدى عدد من (الرفاق) فى ظل النظام الإشتراكى ، تماما كما يتصرف فيها عدد من الرأسماليين فى ظل النظام الرأسمالى ؛ والفرق الوحيد بين هاتين الحالتين هو أن تركيز السلطات يتم فى الحالة الأولى تحت شعار "الملكية الفردية" ، بينما يتم عين هذا العمل فى الحالة الثانية تحت شعار "الإدارة الإجتماعية" ، وهذا هو الفرق الشكلى بينهما)(١).

ويقول يوجينا فارغا : (وبالرغم من أن شكلين اثنين للملكية : ملكية الدولة المسماة خطأ (بملكية الشعب) والملكية (الكلوخوزية الفلاحية والتعاونية) اللتين لكل منهما (مصالحه السياسية الخاصة) أقول بالرغم من أن هذين الشكلين من الملكية ، قد تعايشا حتى فى منتصف الثلاثينات ... فإن البلاد كانت ولاتزال محكومة فقط من قبل حزب سياسى منظم بيروقراطى . وقد أدى ذلك إلى انحطاط تام فى شكل "سلطة السوفييت" أو بتعبير أدق "سلطة نواب السوفيتات العمالية والفلاحية" .

إن بيروقراطيةالحزب المستندة إلى التسلسل التراتبى لأصحاب الامتيازات من أهل المرونة تحكم البلاد بواسطة مؤسسات الحزب لابواسطة السوفييت : اللجنة المركزية ، اللجان المنطقية ، لجان المحافظات ، وتحكمها أيضا بواسطة مؤسسات الدولة الموضوعة تحت تصرفها : مجالس الوزراء ، الوزارات ، اللجان التنفيذية فى المناطق والمحافظات وفروعها وشعبها وجميع أجهزة الدولة هذه تحمل صفة (السوفياتية) وهى تعد كذلك حقا كما تعد السلطة التى تمارسها سلطة (السوفيات) لمجرد أن المشرفين عليها من ممثلى أرستقراطية الحزب البيروقراطى يشغلون فى الوقت نفسه وظائف نواب

---

(١) سقوط الماركسية (١٠٢-١٠٣) ، وانظر (٣٠) ، وانظر أسس الإقتصاد (٨٦-٨٨) .

السوفييت ، المنتخبين من قبل مجمل السكان على أساس انتخابات (مباشرة ورسية ومتساوية)[١].

وكالعادة فإن الشيوعية وقعت فى التناقض هنا ، فهى حرمت الملكية الفردية وأعطت حلا أبشع من وجود الطغيان الرأسمالى . يقول وحيد الدين خان :

(ولاشك فى صحة قضية الماركسية حول النظام الرأسمالى الرائج ، إلا أن الحل الذى تتقدم به الماركسية لعلاج هذا المشكل هو أبشع من الداء الذى تدعى العمل على استئصاله ، فيمكنك أن تنزع الملكية الفردية من أيدى الناس (للقضاء على الاحتكار) ، إلا أنه لابد لك أن تنظم عمليات الزراعة والتجارة والإعلام والطباعة ...الخ .

ومن الطبيعى أنه لايمكن لكل سكان البلاد إدارة هذه المرافق مرة واحدة ، بل يجب أن يضطلع بها البعض ، وهذا البعض فى هذه الحالة هو عين الذى يمسك بزمام الحكم ؛ أى أنك تسلم زمام المعاش والإقتصاد إلى الذين يمسكون بزمام الحكم أيضا ، وهكذا ستجتمع سلطتان مختلفتان فى يد واحدة ، بينما كانتا موزعتين بين التجار والسياسيين من قبل وكيف يمكن الحيلولة دون ظهور احتكار أخطر وأعظم من ذى قبل حين تجمع كل السلطات فى يد واحدة تملك كل المفاتيح من توزيع الرزق إلى صياغة الأفكار؟!)[٢]

ويقال لهم إذا ألغيت الملكية الفردية :

(فمن هى "الجماعة" المالكة؟ أهى جماعة القرية ، أم جماعة المدينة ، أم الجماعة فى الدولة كلها؟؟

- وإذا كانت هى (جماعة الدولة كلها) فكيف يمكن إدارة هذه الأشياء من قبل الجماعة المجتمعة كلها ومن غير سلطة فوقها ، ومن غير حق أحد

---

(١) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٦٥-٦٦) .

(٢) سقوط الماركسية (١٠٧) .

فى التمثيل للآخرين ، ومن غير تمييز بأى سبب كان لأحد فى السلطة والحقوق على الآخرين ، ومن غير اللجوء مجددا أيضا إلى أفراد يتمتع بعضهم بأفضلية على البعض الآخر فى الأجر والسلطان؟؟ وإذا كانت هى جماعة القرية فقد يصح هذا فى الأراضى ، ولكن كيف يصح هذا فى الأمور المشتركة مابين جماعات القرى ، أو مابين جماعات المدن بل ومابين جماعة الدولة كلها كما هو الشأن فى الخطوط الحديدية ، وفى الصناعات الثقيلة؟؟)[١].

إن دعوى إلغاء الملكية الفردية وجعلها ملكية جماعية يرفضه واقع الناس حيث لابد من الخلاف وتضارب الآراء وبالتالى إذا كانت ملكية للشعب كما ادعاه الشيوعيون فإن تحقيقها محال .

وإذا كانت ملكية فى يد طبقة العمال فمعنى ذلك أن هناك فئة تملك وأخرى لاتملك شيئا ، ويكونون بهذا وقعوا فيما فروا منه بطريق آخر .

وبالنظر فى واقع الاتحاد السوفييتى نجد أن الملكية سلبت من أفراد الشعب بالقوة ثم لم تعط العمال شيئا ـ الطبقة التى قامت من أجلها الثورة البلشفية إدعاء ـ وإنما أصبحت الملكية فى يد طبقة عليا تتمتع بكل ميزات التملك بل وبزمام الأمور كلها الفكرية والسياسية والإقتصادية فتفرض ماتشاء ، وتمنع ماتشاء . يقول دجيلاس : (إن السلطة الجديدة تحرز سيطرتها وامتيازاتها وتقاليدها ، تبعا لنوع جديد من الملكية يعرف باسم الملكية الجماعية أو الملكية التعاونية ، التى تديرها الطبقة الجديدة وتوزعها على هواها باسم الأمة والمجتمع)[٢].

فأين تحقيق ذلك المبدأ؟! وأين تمليك الطبقة المضطهدة؟! إن الفكر الماركسى المطبق فى الاتحاد السوفييتى صادم الفطرة الإنسانية ، ولم يعط أصحابها حتى ولو جزءا يسيرا مما وعد به .

---

(١) نظرات إسلامية فى الإشتراكية الثورية (٩٣-٩٤) ، وانظر تهافت الفكر المادى التاريخى (٦٦) ومابعدها .

(٢) الطبقة الجديدة (٦٤-٦٥) .

يقول دجيلاس : (تجهد الحركة الشيوعية نفسها لخلق جو كثيف من الأوهام والأحلام الكاذبة حول أهدافها ، بشكل أكثر شمولية ، وديمومة ، من الأوهام التى خلقتها الثورات السابقة للثورات الشيوعية)(١).

ثم إن هذه الفئة من الناس الممثلة فى الحزب الشيوعى غير قادرة لوحدها بتسيير الأمور الإقتصادية بالإضافة إلى أن هذه الفئة لن تنظر إلا إلى مصالحها دون الآخرين ، فهى صاحبة السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية ولم يبق لبقية الأفراد شيئا .

يقول المودودى : (إن طائفة صغيرة مهما كانت عليه من الكفاءة والأمانة والحرص على الصالح العام لاتستطيع أبدا أن تحيط علما بأموال ملايين ومئات الملايين من الناس وماهم عليه من المواهب والكفاءات الخلقية والنوازع والميول الفطرية المتنوعة حتى يكون من الممكن لها أن تقدرها تقديرا كاملا دقيقا وتعين الطريق لرقيها وتقدمها ونموها ...) .

(إن الناس ليسوا ـ على كل حال ـ بأعشاب أو أزهار فى الحديقة حتى يهذبها البستانى ويشذبها وينسقها كما يرى ، فلاتنمو إلا حسب خطته التى يضعها لنموها وكمالها ، بل إن لكل فرد من أفراد البشر شخصية تبغى النمو والكمال حسب سيرها الفطرى مهما كان فى وجهها من الموانع والعقبات)(٢).

وأيضا أن الملكية عندما تكون فى يد أفراد ويسيئون بها للآخرين يمكن أن يعاقبوا أو يفرض عليهم أمرا أو آخر ، أما عندما يكون من بيده الأمر هو الذى يصدر مثل هذه القرارات فلاشك أن الوضع سيختلف . يقول وحيد الدين خان : (فالذى سيصدر قرار الاعتقال هو موظف لدى هؤلاء ، إذن من سيتجرأ أن يقوم بإجراء ضد هؤلاء؟!

والحقيقة هى أن الملكية الإجتماعية أبشع أشكال نظام النهب الفردى ، فلاتعنى إلا أن تمكن الناهبين ـ بقوة ثروتهم ـ من أن يمارسوا أعمالهم تحت

---

(١) الطبقة الجديدة (٤٢) .

(٢) أسس الإقتصاد (١٩٣-١٩٤) .

غطاء قانونى ، وأن ينهبوا بصورة أكثر تنظيما بمساعدة من الشرطة والعسكر)[١]. ومن هنا فإن إلغاء الملكية الفردية كان بنقلها عن أصحابها إلى آخرين لايستحقونها .

الوجه السابع : أن الملكية الجماعية ماظهرت فى مجتمع إلا وكانت تمثل الطغيان وكانت آخر صوره فى الاتحاد السوفييتى إذ أن هذا النظام مصادم للفطرة الإنسانية . ومن هنا فهو يخدم أهداف الطغاة ليس إلا ، لأن النفس الإنسانية بفطرتها ترفضه .

يقول دجيلاس : (الملكية الجماعية لم تظهر لأول مرة فى التاريخ فى ظل الأنظمة الشيوعية ، بل سبق لها أن قامت فى كل المجتمعات القديمة ، بل يمكن القول إن كافة الأنظمة العبودية التى قامت سالفا فى الشرق ، كانت ترتكز على أساس إعطاء الأولية لأملاك الدولة .

ففى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، كان نظام ملكية الدولة مطبقا فى مصر القديمة ، والدولة هى التى تقوم بتأجير الأملاك العامة إلى المستثمرين كما كان لها جهاز من الموظفين لإدارة المصالح الحكومية وجبى الضرائب من مستثمرى الأراضى . كما كانت كافة الترع وأقنية الرى والمنشآت الضخمة والمشاريع الكبرى ، ملكا للدولة)[٢].

ويضيف : (إن الملكية الجماعية أو ملكية الدولة ، توضح أسباب ظهور ظاهرة بناء المعابد الضخمة والهياكل العظيمة للأباطرة . كما تفسر الأسباب الكامنة وراء شق الترع ومد الطرقات وبناء التحصينات .

ولقد اعتبرت الدولة الرومانية الأراضى التى احتلتها عن طريق الفتوحات ، ملكا للدولة ، كما كان للكنيسة فى القرون الوسطى أملاك جماعية مشتركة . ومما سبق يظهر بوضوح أن الشيوعيين لم يقوموا باختراع الملكية الجماعية ، إنما كانوا نسيج وحدهم ، بإضفائهم طابعها الشمولى على

---

(١) سقوط الماركسية (١٠٨-١٠٩) .

(٢) الطبقة الجديدة (٧٧) .

جميع جوانب المجتمع ومرافق الحياة ، متفوقة بذلك على كافة أشكال الملكية الجماعية فى العهود الغابرة ، متجاوزة فى طابعها الحاد والعنيف ، حتى على الملكية الجماعية التى سبق لها أن قامت فى مصر الفرعونية)[١].

قلت وهذا غير مستغرب فى فرض فكر يصادم الفطرة الإنسانية ، فلابد أن يكون طاغيا دكتاتوريا حتى يصل إلى أهدافه .

إلا أن الوقت كفيل ببيان بطلان ذلك الفكر من خلال واقعه ورفض الناس له .

وهذا ماحدث فى الاتحاد السوفييتى حيث لم تمض فترة من الزمن إلا وأعيد تقرير حق الملكية ونص عليه فى الدستور مما يدل على فساد ماتصادم مع الفطرة البشرية .

وبهذا يظهر جليا أن الفكرة القائلة بإلغاء الملكية الفردية غير صالحة للتطبيق لتعارضها مع الفطرة الإنسانية ، ويكفى أنها ماقامت ووجدت إلا مع الطغيان ، ومافرضت إلا بالقوة والنار .

ومع ذلك لم تصل لغايتها لأن البشر فطروا على خلاف ماأرادته الشيوعية بالإضافة إلى فشل الماركسية فى تحقيق ماوعدت به من جراء القضاء على الملكية الفردية . (مما ولد تراكما نفسيا مضادا لتلك المصادرة كبر عبر العقود حتى وصل إلى مرحلة عدم تمكن تلك النفوس من احتمال أكثر مما احتملت فانهارت الجدر المانعة ، وخرج الناس بالملايين يطالبون بمصالحهم الخصوصية المهدرة)[٢].

إن الماركسية اصطدمت بالواقع الإنسانى الذى أثبت أنها فلسفة طوباوية كما كان حال الفلسفات الإشتراكية السابقة .

فالشيوعية لم تستطع (أن تطبق نظامها عن الملكية الفردية حيث اضطرت إلى العودة عن كثير من أفكارها ليس فقط فيما يخص الملكية بل فى

---

(١) الطبقة الجديدة (٧٧) .

(٢) الإنهيار (١/٣٨-٣٩) .

أفكارها فى الجوانب الأخرى)[١].

ومما يدل على فساد هذا المبدأ هو التراجع الحقيقى الذى أحدثه زعماء الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى ، وذلك بسماحهم للتملك الفردى . وكفى بهذا نسفاً لمبدأ القضاء على الملكية[٢].

وبهذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن القضاء على الملكية الفردية مصادمة للفطرة الإنسانية ، ولأجل ذلك لم تستطع الشيوعية تطبيق مبدأها ذلك لاصطدامها بواقع الناس .

ثانيا : أن واقع الاتحاد السوفييتى دل على أن هذا المبدأ لم يتحقق ولن يتحقق .

ثالثا : أن مفاسد القضاء على الملكية الفردية قد شهدها واقع الاتحاد السوفييتى .

رابعا : أن المبادىء التى رتبها الشيوعيون على مبدأ القضاء على الملكية الفردية لم تتحقق ولايمكن تحققها .

ثانيا : بيان فساد مبدأ التأميم الذى قام به الشيوعيون فى الاتحاد السوفييتى :

التأميم :

عملت الدولة على إيجاد الملكية الجماعية وسلب الملكية الخاصة ومصادرتها باعتبارها أساس الآثام والشرور والصراع الواقع فى المجتمع ، ولكن حقيقة الأمر أن التأميم لم يكن إلا عبارة عن سلب الملكيات الخاصة من الرأسماليين ووضعها تحت يد الطبقة الحاكمة ، أى أن المسألة هى مجرد إحلال طبقة مكان طبقة أخرى ، فالثروة التى كانت تسيطر عليها الرأسمالية

---

(١) الملكية فى الشريعة الإسلامية (٨٥/١) .

(٢) عن تراجع الشيوعيين عن تطبيق ذلك المبدأ انظر : سقوط الماركسية (١١٢) ، من أين نبدأ (١٥٠-١٥٢) .

تنتقل فى النظام الشيوعى إلى فئة محددة معينة فالأمر لايعدو أن يكون نقل الملكية من طبقة إلى طبقة أخرى .

والتأميم هو : (إحالة المؤسسات الإنتاجية أو فروع الإقتصاد التى تشكل ملكا خاصا إلى حوزة الدولة)[١].

و(انتصار الثورة البروليتارية هو المقدمة السياسية للتأميم الإشتراكى)[٢].

وهذا المبدأ يحمل مفاسد كبيرة وسلبياته عديدة . سواء على العمال أم على الإقتصاد . ومن ذلك :

أولا : أن التأميم فى حقيقة أمره لايخرج عن كونه ملكية ولكنها ملكية بصورة أخرى ، ملكية مغلفة بغلاف الإشتراكية ، حيث تنتقل من يد صاحبها الشرعى أو أصحابها الشرعيين إلى هيئة اعتبارية لاوجود لها هى كل أفراد المجتمع أو الدولة ، ولكن واقع الاتحاد السوفييتى يدل على أن المالك هم أفراد قلائل يحتلهم الحزب وليس من تحدث عنه الشيوعيون[٣]. وقد مر معنا تسلط الحزب وسيطرته التامة[٤].

ثم إذا كانت وسائل الإنتاج ستخضع للتأميم فإنها تحتاج إلى من يقوم بإدارتها ومراقبتها ، ومعرفة العمال ، وكيفية توجيهها واستخدامها إلى غير ذلك من اللوازم التى تقتضى وجود فئة تقوم على أمر هذه الوسائل ، وبالتالى كانت الوسائل فى يد الحزب ودهاقنته ، فأصبحوا يملكونها ويوجهونها حسب أهوائهم وشهواتهم .

نعم لقد (ألغيت الملكية الفردية من المجتمع الشيوعى ، ولكن السلطان والنفوذ الذى تركز فى "الحزب" قد جعل منه طبقة متميزة ، لها كل

---

(١) المعجم (١١١) .
(٢) المرجع السابق (١١١) .
(٣) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢١١) .
(٤) راجع (٨٦٦) ومابعدها .

سمات الطبقة ومميزاتها سواء فى نوع المعيشة ـ أى المتاع ـ أو فى النفوذ والسلطان)[١].

يقول دجيلاس : (فى الحقيقة أن الطبقة البيروقراطية الشيوعية الجديدة صاحبة الامتيازات الضخمة ، تستخدم جهاز الدولة كستار وأداة لتحقيق مآربها وأغراضها الخاصة .

وإذا ماعدنا لدراسة الملكية ، فإننا سنجدها ليست أكثر من حقوق الربح وحرية السيطرة ، وإذا مااتجه المرء إلى تحديد ربح الطبقة من خلال هذه الحقوق وفى إطار تلك الحرية ، فإن الدولة الشيوعية تتجه فى النهاية ، إلى خلق شكل جديد من أشكال الملكية وخلق طبقة حاكمة مستثمرة جديدة ... إن الثورة الشيوعية قد أشعلت بهدف إلغاء الطبقات وإزالتها من المجتمع إلا أنها قد خلقت فى النتيجة طبقة جديدة بكل ماتحمله من إرهاب وطغيان ، عن طريق تركز الثروة والسلطة بين يديها الملطختين بالدماء)[٢].

وهذه الطبقة طبقة رأسمالية من نوع جديد ، ويؤكد ذلك دجيلاس فيقول :

(إن الثورة الشيوعية لاتخرج عن كونها شكلا من أشكال الثورة الرأسمالية . فمجموعة العلاقات التى تحدث أثر انتصارها هى بطبيعتها علاقات رأسمالية الدولة . وينطبق هذا القول تمام الانطباق مع الوقائع الثابتة لأسس العلاقات الجديدة للنظام الشيوعى ، الذى يقوم بتنظيم الكيانات العمالية والمؤسسات الحكومية ، كما إنه يذهب أكثر من ذلك ، حين يعمل على توزيع الدخل القومى والأرباح والسلع المادية ، بعد أن حولت بمجموعها إلى ملكية الدولة ...)[٣].

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة (٤٢٨) .
(٢) الطبقة الجديدة (٥١-٥٢) .
(٣) المرجع السابق (٤٩) .

ويقول : (وفى ظل هذا النظام ، فإن كل شىء يتم إنجازه باسم الدولة ومن خلال أنظمتها التشريعية ، بينما الحزب الشيوعى - بما فيه قيادته البيروقراطية المحترفة - يظل فوق الأنظمة وخلف جميع أعمال الدولة الصغيرة منها والكبيرة ، إن البيروقراطية الحاكمة ، هى التى تقوم - بصورة رسمية - بكافة الأعمال من استخدام إلى إدارة ومراقبة جميع الممتلكات المؤممة والمصالح التى أخضعت لسيطرة النظام الإشتراكى ، ولقد قاد الدور الذى تلعبه البيروقراطية الحاكمة ، من احتكار الموارد والمراقبة التى تفرضها على الدخل القومى قادها إلى مركز مرموق خاص . وهذا مايجعل الكيانات الإجتماعية مشابهة بالكيانات القائمة فى ظل نظام رأسمالية الدولة ، وذلك لأن حركةالتصنيع فى ظل النظام الأخير يتم عن طريق جهاز الدولة ، وليس بمساعدة القوى الرأسمالية)[1].

ثانيا : أن التأميم يؤدى إلى تدنى مستوى الإنتاج والقلة فيه ، وهذه نتيجة طبيعية لمصادرة الملكية الفردية ، حيث لم يعد أصحاب الشركات أو المصانع ، أو أصحاب الحرف يهتمون بالوفرة الإقتصادية أو الجودة فى الإنتاج وذلك لأن المردود واحد .

إن تردى الصناعة والزراعة ليس مستغربا فى ظل التأميم لكل الممتلكات . ناهيك عن الكسل والتواكل الذى يبعثه هذا المبدأ .

إذ إن الإنسان فطرعلى حب العمل الخاص الذى يرى أن مردوده سيكون له، وإذا لم يتوفر له ذلك ، فإنه سيبحث عن الطريق الذى من خلاله يحقق رغبته تلك[2].

---

(١) الطبقة الجديدة (٥٠-٥١) ، وانظر الإشتراكية العربية (١٦٣) .

(٢) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٣٧) .

ثالثا : عندما كان التأميم ضد الفطرة الإنسانية ، ومصادرا لحرية التملك ومغتصبا لحقوق الآخرين ، كان لابد من بذل كافة الجهود واستخدام سائر الوسائل فى فرضه على الناس ، وتطبيقه عليهم بالقوة ، وهذا ماحدث فى الاتحاد السوفييتى ، فكم من الأرواح أزهقت ، وكم من الأسر شردت ، وكم من الأطفال والنساء ماتوا جوعا بحثا عن الغذاء والمأوى .

يقول لويس فيشر عن تأثير التأميم على الدولة : (إن مهمة واحدة من تلك المهام(١)التى اضطلعت بها تكفى لاستنفاد طاقة أى حكم واستنزاف جهد أى عهد من العهود ...)(٢).

وعن آثار التأميم يقول : (كان طبيعيا أن يلاقى التأميم الزراعى على هذا النحو مقاومة عنيفة موحشة مترامية المدى من معاشر الفلاحين ، وقد رأينا جميعا مافعلت الحكومة السوفيتية حيالها ، فقد نفت جموعا جامعة من (الكولاك) أو الزراع الموفقين من الأرض وألقت بهم فى معسكرات (السخرة) ؛ ولكن هذا النفى بالجملة لم يحطم المقاومة القائمة فى القرى فقد أبى الفلاحون الفقراء استياق ماشيتهم إلى المزارع (الجماعية) ، وعمدوا إلى ذبحها وأكلها ، أو بيعها ، قبل أن يستسلموا للضغط ويرتضوا الدخول فى حظيرة المزرعة الجماعية ، حتى لقد لبثت روسيا عدة أعوام تعانى نقصا فى الماشية ، وقلة فى الخيل ، واضطرت السلطات إلى الاستعانة بمختلف جميع وسائل القوة والإكراه على استياق الفلاحين إلى المزارع الجديدة ، وكثيرا ماكانت وحدات من الجيش الأحمر تغشى القرى ، وينتقل جنودها من كوخ إلى آخر لإكراه القوم على تكوين (كولخوز) أو مزرعة جماعية ، وتهديدهم بالنفى إلى سيبيريا أو التركستان إذا هم أصروا على الاستقلال بزراعة

---

(١) يقصد العمل على تأميم المزارع الجماعية .

(٢) المعبود الذى هوى (٢٧١) .

أرضهم . وبهذه الوسائل وأمثالها سيق بالكثرة الساحقة من الفلاحين الروس إلى هـذه المزارع ، ولكن فـريقا كبيرا منهم ماكادوا يدخلـون حظائرهم حتى تململوا منها أو راحوا (يعرقلون) جهودها الجماعية احتجـاجا على الإفراط فى فرض الضرائب عليهم ؛ أو لبقيـة أمـل فى عـدول الحكـومة عـن المزارع لإخفاقها)[١].

ويضيف فى بيان أن الآثار التى حققها التأميم لاتساوى مابذل فى سبيل تحقيقهـا وأهدر من أجلها ، فيقول : (وقد زرت عشرات مـن هذه المزارع فى أوكـرانيا والقـرم والقـوقاز وشمـال روسيـا فى الفترة بين ١٩٢٩م و١٩٣٦م ، وكـانت تبدو أكبر وأفضل كثيرا مـن تلك المزارع الصغيرة التى رأيتهـا قبـل ذلـك بعـدة سنين ، فقد اختفـت منهـا الأسوار المقامـة مـن العوسج وتوارت الخيران والأخاديد ، وظهـرت فيهـا الآلات الحديثة وأقيمـت رياض الأطفـال ومعـاهد الحضـانة ، وقـال الموظفـون إن غلـة الأرض زادت ، وأن تجارب البذور ، وتحسين الإنتاج والحرث بالآلات الكهربائية وغيرها من المستحدثات العلمية التى لم تكن تخطر للفلاح يوما ببال أصبحت وفيرة متـداولة . ولكن هل تساوت المحاسن والمساوىء؟ وهل يعدل الأمل الموعـود والثمن المدفوع فى سبيله..؟؟

لقـد بدأت أشعر بقلق ، وأخذتنى الحيرة مـن جميـع جهـاتى ، فمضيت أسـائل نفسى أترانى رحت أمجد الصلـب والكهرباء ، ونسيـت الإنسان ذاته .

إن كـل مـافى العـالم مـن أندية ومـدارس وكتـب وجرارات وأنوار كهربائية وطرق ودروب معبدة لن تزيد شيئا على العالم الذى كنت أحلم به ، إذا كـان النظام الذى أثمرهـا فاسدا بعيدا من الخلـق خاليـا من البشرية)[٢].

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٧١) .
(٢) المرجع السابق (٢٧٢) .

لقد أوجد مبدأ التأميم التناقص الواضح فى عدد المزارع الصغيرة التى كانت تقدر بالملايين ، هذا بالإضافة إلى التناقص الرهيب الذى شهدته الثروة الحيوانية والزراعية حيث (كانت أول نتيجة لهذا الهجوم على الجبهة الداخلية ، أن تفشت المجاعة ، وهبط عدد الخيول من ٣٤ مليونا فى ١٩٢٩م إلى ١٦ مليونا فى ١٩٣٣م والبقر من ٦٨ مليونا إلى ٣٨ مليونا ، والغنم والماعز من ١٤٧ مليونا إلى ٥٠ مليونا والخنازير من ٢٠ مليونا إلى ١٢ مليونا واستولت الحكومة فى شتاء سنة ١٩٣٢-١٩٣٣م من أوكرانيا وكوبان ، رغم احتجاج الفلاحين ، على مقدار من الحبوب بلغ من وفرته أن مات من أهل الإقليمين عدد يتراوح بين ثلاثة ملايين وخمسة ملايين ، من جراء المجاعة التى أحكمت الحكومة تنظيمها ، ولكن ستالين استطاع بهذا الثمن الفادح أن يفرض نظام الملكيات الزراعية المشتركة . ولم يبق فى روسيا منذ ١٩٣٩م فلاح ينعم باستقلاله الخاص)(١).

وإذا كان التأميم القصد منه تحقيق الرخاء والاستقرار لأفراد الشعب فإن الذى حدث هو العكس تماما ، حيث اعترف خروشوف بأن الوضع بعد الثورة أسوأ حالا منه قبلها ، فقال : (كانت حالتنا بعد الثورة أسوأ منها قبلها ، فالرواتب قلت كثيرا ، والأسعار ارتفعت كثيرا ، ولكن الصعوبات المادية لم تقعدنا ، كنا مستعدين للتضحية بوقتنا وأنفسنا فى سبيل الإشتراكية والثورة والطبقة العاملة والمستقبل .

ذلك بأن رؤيانا للمستقبل لم تعرف حدودا . كانت رؤيا حسنة ، خلاقة ، وملهمة ، ألهمتنا بقبول حياة التقشف والتضحية ، وتكريس أنفسنا بقوة لتحسين أحوال مواطنينا المادية ، وهذا يعنى قبل كل شىء بناء المساكن غير أن بناءها لم يحظ من الأفضلية خلال الثلاثينات بما حظى به بعد الحرب وخلال السنوات التى كنت فيها على رأس الحزب والحكومة)(٢).

---

(١) نقلا من كتاب الإسلام فى وجه الزحف الأحمر (٩١-٩٢) .
(٢) الوصية الأخيرة (٨٤-٨٥) .

وهـذا اعتراف بأن السياسـة الإقتصـادية القـائمة على مصـادرة الملكيـة والاستمتـاع بالإنتاج لن تؤدى إلى إسعاد الإنسان لأنهـا تتعارض مع فطرته .

رابعا : أن مبـدأ التأميم يعمل على زيادة الفقراء فقـرا ويسلب الأغنياء حتى يصلوا إلى درجة الفقر ، فهذا المالك لهذا المصنع أو الشركة أو لوسائل الإنتاج تلك ستكون ذات مردود عليه ، وعلى قدر اتساعها سيحتاج إلى اليد العـاملة وعلى قدر إكرامه لهـا ، سيتحسن إنتاجه وكميتـه وهكذا فى حلقات متواصلة من النفع لصاحب المصنع ومن يعمل لديه . فكيـف إذا سلبت تلك الممتلكات من أصحابها وأصبحوا لايملكون إلا مايسد رمقهم ، فسينتقلون من الغنى إلى الفقر ، والعامل إذا كان يرى بأنه سيكون صـاحب الحق الأول فى ثمرة عملـه فـإنه يبذل من الجهـد مـايكون سببا فى جودة الإنتـاج ووفـرته ، وبالتـالى يزداد العـرض وبصـورة جيـدة ويقل السعر مما ينعكـس على حياة الشعـب وسعـادته . ولكن عنـدما طبق مبدأ التأميم حصـل العكـس من ذلك وعاش الاتحاد السوفييتى عقودا من الزمن وأبسط الضروريات تكاد تكون غير موجودة فى أسواقه ، وإن وجدت فـإن الحصـول عليهـا كـان مـن الصعـوبة بمكـان وعلى هـذا فإن سياسة التـأميم التى ادعـت تحقيـق المصلحـة والـرفاهية للعـامل لم تكن كذلك بل أضحـت هذه السياسة سببا فى تعـاسته وشقـائه بل وتعـاسة الشعـب بأكملـه ، ولم يجد الشعـب إلا الجوع والخوف والفقـر والعبودية .

خامسا : مـن أعظـم مفاسد التـأميم وجود الطبقات فى المجتمـع وهـذا تناقض صارخ بين دعوة الشيوعية العريضة بإلغاء الطبقات ، وبين العمل على إيجادها بل وشدة التمايز بينها .

إن الإشتراكيـة ترى أن زوال الطبقات يمثل ركنـا أساسيا فى قيامها[١]، ولأجل ذلـك اعتبر بعض الماركسيين أنه (إذا تطـرق الشـك إلى نظرية صراع الطبقـات فبان فسادها ، فـإن صرح النظرية الماركسيـة ينهـار من أساسه)[٢].

---

(١) انظر إقتصادنا (٢١٩-٢٢٠) .

(٢) هـزيمة الشيـوعية فى عـالم الإسلام (٨٢) ، وانظـر حوار مـع الشيـوعية فى أقبيـة السجون (٢٠٨) .

ونبين الآن فساد هذا المبدأ (إلغاء الطبقات) بالإضافة إلى بيان عدم تحقق مارتب عليه ، وبطلان زعمهم إلغاء الطبقات بالوجوه التالية :

الوجه الأول : أن الله تعالى أخبر بأن خلقه متفاضلين فيما بينهم ومختلفين ، بل إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ وهم الصفوة من الخلق ـ فضل الله تعالى بعضهم على بعض . قال تعالى : ﴿**تلك الرسل فضلنا بعهضم على بعض**﴾[1]، وقال تعالى : ﴿**ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم**﴾[2]. كما أنه تعالى هو الذى يهب لمن يشاء رزقا ويمنعه عن من يشاء قال تعالى : ﴿**قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء**﴾[3].

فهذا دليل على أن المجتمع فيه الرفيع والوضيع ، الغنى والفقير ، وذلك كله لحكمة يريدها تعالى .

فيبطل هذا الأصل والمبدأ الشيوعى بكتاب الله تعالى.وماذا بعد هذا؟

الوجه الثانى : أن الصراع الطبقى حتمية كما يرى ماركس ، وأن تاريخ البشرية يقوم على الصراع الطبقى ، ومهمة زوال الطبقات من المجتمع تقع على عاتق طبقة البروليتاريا .

يقول ماركس : (صراع الطبقات يعود بالضرورة إلى دكتاتورية الطبقة العاملة ، وهذه الدكتاتورية لن تتاح إلا بإشعال نار الثورة العمياء والإنقلاب الشامل المبيد ، ولن تستطيع الطبقة العاملة التحرك ولاالنهوض بنفسها إلا بنسف جميع طبقات المجتمع المتراكمة فوقها ، بعد أن تصحو من الأفيون الذى خدرتها به الأديان حتى لاتفيق فتتحرك وتنهض وتبيد)[4].

ويقول انجلز : (ورسالتنا : أن نثير الطبقة العاملة ، ونملأ قلوبها بالحقد والغيظ ، حتى نستطيع هدم المجتمع بإبادة الطبقات التى تتراكم عليه)[5].

---

(١) سورة البقرة : (٢٥٣) .

(٢) سورة هود : (١١٨-١١٩) .

(٣) سورة آل عمران : (٢٦) .

(٤) الشيوعية فى موازين الإسلام (٨٦-٨٧) .

(٥) المرجع السابق (٨٧) .

ويقول لينين : (إن الثورات العاصفة التى رافقت سقوط الإقطاعية القنانة ، فى كل مكان من أوروبا وخاصة فى فرنسا ، بينت بوضوح متزايد على الدوام أن النضال الطبقى هو أساس كل التطور وقوته المحركة)[١].

ويقول ستالين : (تحرير الطبقة العاملة وقف على الثورة المدمرة ، ولن تثور الطبقة العاملة إلا إذا ملأنا صدورها بالمقت والحقد على الطبقات الأخرى والخوف منها ، فالمقت والحقد والخوف والضغينة هى بواعث الثورة ووقودها ، وعندما تبدأ الثورة نلقى فيها بالوقود حتى نلتهم كل من يناوئنا)[٢].

(ويفخر "خروشوف" بأن الشيوعيين حطموا مقاومة الأعداء الطبقيين وعملائهم .

والحكومة العمالية الشيوعية لاتترك للبقاء أى أثر لحكم الطبقات الأخرى ، بل تقضى ـ حماية للنظام الجديد ـ على كل ماعداه من نظم سياسية ، وإقتصادية ، وإجتماعية ، وقانونية ، ودينية ، متذرعة بالجرأة ، غير عابئة بمبدأ قانونى أو أخلاقى)[٣].

وهكذا تتابع أقوالهم فى هذه القضية التى ستفضى إلى تحقيق الكثير والكثير للشيوعيين .

وهذه الأقوال كذبها الواقع وبيان ذلك بالحقائق التالية :

(أ) كذب التاريخ دعاوى الصراع الطبقى حيث ثبت وجود مجتمعات وجدت فيها الطبقات ، ومع ذلك لم يقع الصراع الحتمى الذى ذكره ماركس بل نشأت بينهم المودة والرحمة والتضحية ، وأروع مثال لهذا هو واقع المسلمين ومافعله رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما وصل إلى المدينة من مؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .

---

(١) مصادر الماركسية (٩) .

(٢) الشيوعية فى موازين الإسلام (٨٧) .

(٣) المرجع السابق (٨٧) .

فـأين هـو الصراع الطبقى مـع أن المجتمـع الإسلامـى كـان يجمع بين الأغنياء والفقراء ومابينهما؟

(ب) أن الواقع الذى ذكر ماركس أن هذا المبدأ سيتحقق فيه قد أبطل ذلك فحتمية الصراع الطبقى فى ظل الملكية الفردية لوسـائل الإنتاج الحديثة الـذى قـرره ماركس فى البلـدان الأكثر تطورا ـ لم يقـع حيـث لم يقم ذلـك الصراع فى انجلترا كمـا تنبأ ماركس وأراد أن يتخـذ منها مركزا لقيادته . غير أنه (لم يمت حتى شاهد فشل نظريته العلميـة هذه ، وأراد نقـل مـركزه إلى نيـويورك بعـد أن يئـس من انجلترا ، ووجه بالفعـل دعـوة لعقد مؤتمر شيوعى هنـاك ، فلم يجبه أحد ، وهـذا مااضطره إلى العـدول عن الذهاب إلى مقر دعوته الجديد! وهكـذا بطلت نظريته ولم يحدث الصـراع الطبقى لافى انجلترا ولافى أمـريكـا حيـث جزم بحتميته فيهما ...)[١].

(ج) هذا بالإضافة إلى أن ماركس قال بأن المجتمع طبقتين مـالكين وأرقاء ، وأين هى الطبقة المتوسطة التى توجد فى المجتمـع . وأشار ماركس أن هذه الطبقة ستزول أو تنـدمج فى طبقـة العمال ، ولكـن الـواقع كذب هذه النبؤة ، حيث إن واقع الدول الرأسمالية أبطـل هذه الفرية ، زد على هـذا أن هـذه المجتمعـات مازالت إلى الآن وبواقعهـا الطبقـى بل والموغـل فى الطبقية ، فى حين أن المجتمع الذى كـان آخذا فى طريقه إلى الشيـوعية وحاول القضاء على الطبقية إنهار وتلاشـت هذه الفكرة حيث كان الواقع أبلغ من النظرية .

الوجه الثالث : أن مـاركس قال إن الصـراع يكون مـن البروليتـارى وتنـاسى الرأسمالى حيث سيكـون منه هو أيضا صراع مـن أجل الحفاظ على مصالحه ومكانته التى هو فيها .

---

(١) نظرات إسلامية فى الإشتراكية الثورية (٣٣) .

يقـول هنرى ده مـان : (فلنسلم جدلا بفرضية مـاركس التى تقـول أن الصـراع الطبقى بين البورجوازية والبروليتـاريا هو نتيجـة طبيعيـة لاختلاف المصالح الناتجة عن أسلوب الإنتاج الرأسمالى .

يستخلص ماركس من هذه الفرضية أن المعركة يجب أن تقـوم ليتحقق مصير الرأسمالية بدمارها بيدها .

فلنسلم بهـذا ، ولكن يجب أن يكون هناك خصمان لقيـام أية معركة . من الواجب إذن أن لايقتصر الصـراع على البروليتـارى ، بل إن الـرأسمالى يصارع أيضا . والتعليل الماركسى يخضع الخصمين للقانون نفسه .

الـرأسمالى الذى يصارع فى سبيل إبقاء الاستثمار والاستغلال يتصـرف حسـب منطوق قانون الحتمية التـاريخية الذى يخضع له العـامل فى دفـاعه عن المصـالح المناقضة لمصالح الـرأسمالى . فإذا لم يكن هنـاك دوافع أعلى وأسمى من هذه الحتمية التاريخية ، فـإن تصـرف الخصمين مبرر تمامـا فى مـوقفهما الطبيعـى . ولهذا فإنه لايمكننـا مطلقا بعد هذا أن نعطـى أحد هـذين الموقفين قيمة أكبر من القيمة التى نعطيها للموقف الآخر)[١].

الوجه الرابع : أن مـن أعظم مايرد به على هذا المبدأ هـو واقع دولة الاتحاد السـوفييتى حيث طبـق فيها هذا المبدأ فإلى أى حد وصلـوا فيـه وهل حققوه؟

لقد كان المجتمع السوفييتى مقسم إلى عدة طبقات ، فمن ذلك :

(أ ـ **الطبقة العليا** : التى تضم رؤساء الحزب الشيوعى ، ورؤساء الجيش والنقابات ، والجمعيات التعاونية ، والمصانع ، والصحف الكبرى ، وأصحاب المراكز الرئيسية الأخرى فى الدولة .

ب ـ **والطبقة الوسطى** : وتضم الموظفين والضباط والمهنـدسين ، وأهل الفنون والتعليم والصحافة .

ج ـ **والطبقة الدنيا** : ويندرج تحتها عامة الشعب من عمـال صناعيين وزراعيين وتجار صغار ...الخ)[٢].

---

(١) الإشتراكية البناءة (٤٩-٥٠) .
(٢) الشيوعية فى موازين الإسلام (٨٣) .

ويرى بعض الكتاب أن الشيوعيين جعلوا الطبقات الوطنية أربعة :

الطبقة الأولى : (هم الشيوعيون ، من الضباط والقواد وكبار الموظفين والكتبة والفنانين الذين هم من عمال موسكو فهؤلاء يتناولون احتياجاتهم متى شاؤوا ويأخذون الكميات التى يرغبون فى استهلاكها ، ولهم امتيازات خاصة فى الأكل والملبوس .

وطبقات العمال تشمل :

الطبقة الأولى : العمال الذين يقومون بأعمال شاقة .

الطبقة الثانية : الوطنيون ، وتشمل الموظفين والمعلمين وطبقة العمال من أى نوع ، فهؤلاء ينالون أيضا مايعينه لهم القانون الشيوعى ويراه كافيا لهم .

الطبقة الثالثة : الشيوخ والأطفال والمقعدون الذين لايقوون على العمل ينالون أيضا مايفرضه لهم القانون . وللبوليس الحق بأن يقبض أو يضرب كل من يصادفه يأكل بغير وقت الأكل المعين)[١].

وقد أكثر الكتاب والمؤلفين من الحديث عن الطبقات فى الاتحاد السوفييتى والتمايز بين أفراد الشعب ، وكذلك كان هذا الإقرار من بعض قادة الشيوعيين ، وأعضاء الأحزاب .

وسنرى الآن بعضا مما جاء عنهم وقيل عن وجود الطبقات وتفشيها فى المجتمع السوفييتى ، وبصورة أكبر منها فى الدول الرأسمالية القائمة على الطبقية . ويمكن الرد على هذا المبدأ من واقع الاتحاد السوفييتى بالآتى :

(أ) **واقع الاتحاد السوفييتى يدل على وجود الطبقات وتفشيها** .

يقول فارغا : (لقد كان من المتفق عليه ، ومازال من المتفق عليه الافتراض بأن سكان روسيا ينقسمون بوجه الإجمال إلى ثلاث طبقات غير متناحرة : العمال والفلاحين والكولخوزيين وموظفى الدولة .

---

(١) الفتح بالإرهاب (٤٨-٤٩) .

أما فى الواقع ، فإن هؤلاء الأخيرين لم يؤلفوا طبقة متجانسة فهناك من جهة أولى المستخدمون العاديون ، أعضاء الحزب غير المقلدين سلطة ما ، الذين لايسوسون شيئا أو إنسانا ، والذين لايستطيعون أن يملوا أوامر أو قرارات لها قوة القانون ، وهناك من الجهة الثانية ، الموظفون المنفذون الذين يشرفون على المنشآت والمؤسسات وفروع بكاملها من الصناعة ، وعلى السياسة والثقافة والحياة اليومية ، وأخيرا على الدولة كلها فى علاقاتها الداخلية والخارجية وعلى الحزب برمته وعلى نشاطه كحاكم ومنظم . ولهؤلاء الناس القدرة على إملاء أوامر وقرارات لها قوة القانون ، وهم يؤلفون الشريعة السائدة فى المجتمع الإشتراكى .

الشريعة التى توجه مختلف مجالات الحياة ، والمفوضة بمطلق السلطة وتمسك أرستقراطية الحزب البيروقراطية التى تخضع لها جميع (عتلات) جهاز الحرب والحكومة ، بقوة الحسم والفصل ، ويبدو أن ضرورة تأسيس نوع من السرية فى قلب الشريعة السائدة قد رأت النور فى مطلع الثلاثينات ، ولم يكن ذلك فى الواقع سوى خط فاصل بين قيادة الحزب البيروقراطية وبين سائر شرائع الشعب الأخرى . فهو يضمن لتلك القيادة البيروقراطية العزلة عن الخارج ، واستقرارا داخليا ، ويوفر للجهاز الحماية من كل حادث طارىء ، ومن كل تقلب ،و من كل تدخل من قبل عناصر غير موثوقة وغير مضبوطة . هذا الوضع المحيز للشريعة السائدة وجد تعبيره فى العودة إلى نظام المدونة القيصرى ، أى نظام وضع قوائم بأسماء المميزين من الأفراد الممنوحين ثقة الحزب السامية ، الذين يمكن أن يعهد إليهم بعمل مسؤول ضمن نطاق الحزب أو الدولة)[١]

وإذا كانت الشوعية تعتبر أن إلغاء الطبقات سيكون فى مرحلتها إلا أنه من المحال أن يتحقق ولعله فى مرحلة عليا منها . يقول آرنست ماندل :

---

(١) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٥٢-٥٤) .

(أما الطبقات والشرائح الإجتماعية على اختلافها - الطبقة العاملة والفلاحون والانتليجنسيا (وهو الإسم الذى يطلق هنا على البيروقراطية) - فإنها ستظل قائمة .

لقد أتانا إذا من يخبرنا بهدوء أنه سيظل ثمة طبقات وشرائح مختلفة حتى فى ظل الشيوعية! أما (المجتمع المتجانس إجتماعيا) ، أى المجتمع الذى لاطبقات فيه ، فيبدو أننا لن نصل إليه إلا فى "مرحلة عليا من الشيوعية")(١).

وبدورنا نقول إذا لم تتحقق المرحلة الدنيا فكيف بالعليا؟

(ب) **من المسلمات أن طبقة الإقطاعيين قد زالت وحاولت الشيوعية منع ظهور الطبقة الرأسمالية وقامت بمعاداتها .**

ولكن الذى حدث بالفعل هو ظهور طبقة جديدة فى المجتمع وضعت يدها على كل صغيرة وكبيرة فيه ألا وهو الحزب(٢). وظهرت الامتيازات الطبقية حتى أصبح الحزب يمثل جانبا منها مع أبنائه ، وكذلك بقية أفراد الشعب فى جوانب أخرى . فإذا كان هناك أمرا ، أستثنى منه الطبقة الممتازة وأبنائها ، وإذا كان هناك نهيا طبق على الطبقة العاملة دون غيرها .

يقول ليونهارد - وكان أحد طلاب المدارس السوفيتية ووصل إلى العمل الحزبى - بعد أن ألغيت المنح الدراسية وطرد كثير من الطلاب :

(لم يبق فى المعهد إلا أبناء وبنات الطبقة الحاكمة ، والضباط والموظفين الكبار)(٣).

ويقول : (لن يستطيع - بعد صدور القانون الجديد - الصعود فى سلم المناصب العليا فى الدولة إلا أبناء وبنات طبقة معينة ، ألا وهى الطبقة المهيمنة على الوظائف الكبرى فى الحزب ومؤسسات الدولة ، إذن فقد قفلت

---

(١) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٦١) ، وانظر التضليل الإشتراكى (١١) وذكر أن الشيوعية عجزت أن توفى بما كانت تبشر به رغم مرور أربعين سنة عليها .

(٢) انظر مذاهب فكرية معاصرة (٤٢٧) .

(٣) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٢٤) .

الدائرة : فالطبقة البيروقراطية الحاكمة التى تكونت منذ نهاية العشرينات ، وثبتت سلطتها بحركة التطهير - امتدت من ٣٦-١٩٣٨م - التى أطاحت "بالمجموعة القديمة" ، بدأت فى عام ١٩٤٠م فى اتخاذ تطبيق وسائل احتكار السلطة ، ومنع دخول "الطبقات الأخرى" لمشاركتها فى الحكم ، وبهذا خطت الخطوة الأولى نحو جعل السلطة والامتياز الطبقى ، وقفا على أبنائهم يرثونه من بعدهم)(١).

و(قد انقسم الشعب إلى طبقة القادة والحاكمين ، وطبقة العسكريين ، وطبقة العلماء والأكاديميين ، وطبقة العمال .. أضف إلى ذلك الامتيازات السياسية والدبلوماسية للحزب الحاكم ، كما أنها تمنح الطبقات المفكرة كالعلماء والأدباء والمخترعين امتيازات لاتمنحها لغيرهم من ذوى المواهب المحدودة من العمال والفلاحين ...)(٢).

مع أن الثورة الشيوعية ومن قبل الفكرة الماركسية كانت كلها من أجل العامل والفلاح ورفع الظلم عنهما فإذا بهما أردأ طبقة فى المجتمع .

ويبين ليونهارد تقسيم المجتع إلى درجات فيقول :

(الدرجة السفلى ، لايعرف أفرادها شيئا عما يدور فى وطنه ، ثم تزداد المعرفة مع ارتفاع الدرجة ، حتى تصل إلى مجموعة معينة ، تكون ملمة بكل شىء) .

و(نشاء عن طريق تقسيم الناس إلى درجات بالنسبة للحصول على معلومات ، نوع من الشعور بضرورة الانتماء إلى مجموعات ، لاتنفصل عن مراكز السلطة فى الاتحاد السوفييتى ، ومما لاشك فيه أن الالتفاف حول شخصيات بارزة فى الحزب هام جدا ، وخاصة فى الاتحاد السوفييتى ، حيث توجه جميع وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة ، وليس لجماهير الشعب أى منافذ للأخبار إلا النذر اليسير ، أى لايذاع إلا مايزعج السلطة الحاكمة)(٣).

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (١٢٥) .
(٢) الاتجاهات الفكرية المعاصرة (١٩٠) .
(٣) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٢٠٣) ، وانظر الطبقة الجديدة (٦٣-٦٤) .

(ج) أن واقع الاتحاد السوفييتى قد جعل هذه الفكرة خرافة لايمكن تحقيقها وأكد فى الوقت ذاته أن الطبقات ووجودها فى المجتمع . خاصة فى الدخول والثروات . لايمكن تلاشيها .

جاء فى كتاب حقيقة الشيوعية : (أسطورة "إلغاء نظام الطبقات" التى تتغنى بها الشيوعية ، خرافة لم تحدث قط ولايمكن أن تحدث فى يوم من الأيام ، لأنها مخالفة لطبائع الأشياء ، ومادامت الناس تتفاوت فى القدرات والملكات فكيف يمكن أن يسوى بينهم فى الأقدار[1]،والدرجات والطبقات ، فاختلاف الطبقات مسألة باقية ، ودورة خالدة فى روسيا السوفيتية نفسها ، قد امحت الطبقات ، لتأخذ طبقات أخرى جديدة فى الظهور ، وغاية مايمكن الوصول إليه فى ظل أحسن النظم الإجتماعية هو تحسين علاقات الطبقات بعضها ببعض ، بدون تعريض المجتمع للرجات العنيفة والانقلابات المدمرة ، والبلاد التى قطعت مرحلة لابأس بها فى هذا السبيل عن طريق الضرائب التصاعدية وضريبة الميراث قد أيأس تقارب الطبقات بها دعاة الشيوعية)[2].

ونورد هذه النقول عن ليونهارد ذلك القائد الذى بقى فى الشيوعية ردحا من الزمن ومارسها فى واقع حياته وشهد شاهد من أهلها .

فعندما أراد ليونهارد الحزب شعر بأنه إنسان آخر يعيش بين عوالم شتى يقول عن العربة التى كانت ستقله إلى حيث طلب فى الحزب :

(خرجت من الباب ولازلت فى ذهول ، بل اشتد ذهولى ، فالعربة واقفة على استعداد لتوصيلى ، وأى نوع من العربات! ليست العربة العادية (Emmotschaka) (هكذا يسمون فى الاتحاد السوفييتى العربة الصغيرة (M-1) التى يستعملها أعضاء الطبقة المتوسطة فى قيادة الحزب) بل العربة الكبيرة الجميلة (SIS) عربة القياديين من أعضاء الحزب البارزين)[3].

---

(١) أى القدر وليس القدر .

(٢) (٢٣-٢٤) .

(٣) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٢٢٤) .

ويتحدث ليونهارد عن اسكان العاملين فى أجهزة الأحزاب فيقول :
(وزع هؤلاء الناس على أماكن السكن طبقا لطبقاتهم الحزبية ، وظهر الفرق واضحا بين طبقة وأخرى ، كذلك اختلفت معاملتهم بالنسبة للخدمات الأخرى . فكل الأعضاء الذين كان نشاطهم داخل الجبهة فى المقر الرئيسى كانوا يحصلون على ثلاث وجبات يوميا فى مبنى العمل وهو قصر الجوالة السابق . والزعماء الكبار الذين كانوا يقيمون فى الفندق الجميل (Baschkirija) كانوا يحصلون بالإضافة إلى الوجبات الثلاث ، على طرد كبير ، ملىء بأصناف الفواكه والحلوى ، ويرسل إلى محل إقامتهم . أما الباقون من أعضاء الجبهة فيحصلون على مايحتاجون إليه من أغذية ، من محل خاص بهم ، يوجد فى الدور الأرضى لفندق (Baschkirija) ويحصلون على الوجبات الثلاث ، وعلى مقدار مايأخذه عامل فى بطاقة التموين . وبين الحين والحين يوزع عليهم بعض المأكولات الخاصة . كان هذا وضع العاملين فى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، كل على حسب قيمة مايقدمه فى العمل السياسى ، نظام التقسيم إلى طبقات فى كل شىء فى السكن ، والأكل ...الخ طبقة تعلو الأخرى حتى القمة)(١).

فالأكل يوزع على حسب الطبقة ، وإليك هذا اللقاء بين ليونهارد ورجل من الحزب الشيوعى الألمانى ، وأراد الحصول على الأكل . يقول له ليونهارد ـ بعد أن سأله ذلك الرجل عن نوعية الأكل المتوفرة ـ :

("هذا يتوقف على نوع الماركة التى معك" نظر إلى مندهشا ثم أطلعنى على نوع "ماركته" لقد كانت واحدة من الطبقة رقم (٣) ، وهو نوع يعطى "للعاملين غير المهمين" فشرحت له كيفية الوصول إلى مكان تناوله الطعام .

قل لى .. هل يوجد أنواع مختلفة من (الماركات)؟

(طبعا .. يوجد أربعة أنواع مختلفة من (الماركات) تبعا لعمل القيادى فالاثنان الأخيران هما للعمال الفنيين والمستخدمين) .

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٢٢٦-٢٢٧) .

(نعم! ولكن .. أليس الكل رفقاء)؟!

(طبعا ..

(نظر إلى فزعا ، ثم قال : "ماركات" مختلفة ، وطعام مختلف . ولكن الكل رفقاء)!

(أدار ظهره دون أن يجيبنى وذهب ، وبعد لحظات سمعت صرير الباب الرئيسى ، لقد غادر الرفيق مبنى اللجنة المركزية)[١].

بعد أن شعر ليونهارد بالانقباض ومر بحجرات الطبقتين ٤،٣ السفليتين يقول :

(عندما فتحت باب القسم الخاص بطبقتنا . فهنا .. على المناضد المغطاة بالمفارش البيضاء يتناول العاملون من الطبقة العالية طعامهم المكون من أصناف متعددة)[٢].

ويضيف : (كان نظام التفريق بين الطبقات مطبقا أيضا فيما كان يطلق عليه : Pajoks تلك الطرود الكبيرة من المأكولات ، والتبغ ، والمشروبات الكحولية ، والشيكولاتة التى كنا نحصل عليها بصفة مستمرة ، علاوة على بطاقات المواد الغذائية ، وتموين اللجنة المركزية . ولما كانت هذه الطرود غير مقصورة على القياديين الكبار والمتوسطين فقط ، بل كانت أيضا للقياديين فى الجهاز الإدارى والإقتصادى ، وللعلماء وللأخصائيين والشعراء والفنانين ، فقد تدرجت بدقة تامة ، ويحدد ذلك أهمية الحاصل على الطرد ، ونوع العمل الذى يقوم به)[٣].

وإذا نظرنا إلى قضية الأجر التى دعت الشيوعية إلى المساواة فيها نجد أنه (قد بلغ معدل الأجر الوسطى للعامل فى الاتحاد السوفييتى عام ١٩٣٥م حوالى ١٨٠٠ روبل سنويا ، فى الوقت الذى بلغ فيه راتب الأمين العام للجنة

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٥٧٠) .
(٢) المرجع السابق (٥٧١) .
(٣) المرجع السابق (٥٧٣) .

الغزل والحرير الاصطناعى ٤٥٠٠٠ روبل سنويا . وإذا مارتفعت المعدلات فإن النسبة بين أجر العامل وراتب الموظف قد بقيت ثابتة فى جوهرها ، وهكذا يظهر للعيان مدى التناقضات القائمة بين أجور العمال ومعاشات الموظفين الحزبيين ، وقد أصبحت هذه التناقضات أمرا واقعا لايمكن إخفاءه ، ولاسيما عن أعين الذين قاموا بزيارة الاتحاد السوفييتى فى السنوات الأخيرة)(١).

وعندما يقع التساؤل لماذا كل هذا؟ يقول ليونهارد كان الجواب ببساطة : (حماة الدولة فالرفقاء مكلفون بعمل كثير ، ولذا من المسلم به أن يتخلصوا من الهموم المادية) .

ويعلق ليونهارد بقوله : (من الممكن أن يكون هذا صحيحا ، ولكنه لايفسر إطلاقا تدرج توزيع الطرود حسب الطبقات ، بعضها فوق بعض . وبالإضافة إلى ذلك ألم يكلف العمال فى المصانع والمناجم ، والقياديون من الطبقة الدنيا ، "الذين لايحصلون على طرود" أيضا بعمل شاق يؤدونه ببذل كل ماعندهم من طاقة)(٢).

وعن الإسكان الفاخر من الفيلات يقول :

(ثم فكرت فى "الفيلات" الفخمة فى "يندر شونهاوزن" ... وكنت أذهب إلى هناك زائرا كل أسبوع تقريبا . وأرى السور المضروب حول الحى كله ، وقد وقف على مدخليه حراس من الجنود السوفييت)(٣).

ويقول أندريه جيد : (ولما زرت سوتشى Sotchi تولانى العجب البالغ من كثرة المصحات "والاستراحات" التى كانت يومئذ تشيد للعمال فيها فقد بدت لى بهجة للغاية ذات حدائق فاخرة وحمامات خاصة متناثرة على الشواطىء الرملية . ولاريب فى أن تخصيص هذا المظهر من الترف لمعاشر العمال عمل جدير بالثناء . ولكن الواقع أن الذين يستمتعون به هم فى الأغلب من أهل الطبقة الجديدة الممتازة .

---

(١) ستالين فى الحكم ، أورلوف ، نقلا من كتاب الطبقة الجديدة (٦٦) .
(٢) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٥٧٣) .
(٣) المرجع السابق (٥٧١) .

ولست أنكر أن الذين يحتاجون إلى الراحة والعلاج مفضلون على سواهم ولكن على شرط أن يكونوا من المقربين إلى سياسة الحزب المؤمنين على خططه وبرامجه ، وإنه لمحزن أن يتبين المرء فى ذلك الموضع أن الذين يستخدمون فى بناء تلك الدور لايتقاضون غير أجور صغيرة ولايسكنون غير معسكرات حقيرة مظلمة .

وإذا كنت معجبا الإعجاب كله بالاستراحات التى رأيتها تبنى فى "سوتشى" فماذا عسى أن أقول عن الفندق الذى نزلت به فى (سينوب) ... فقد كان يفوق بمراحل كل بناء عداه حتى لايصح أن يقارن إلا بأفخم الفنادق فى الخارج وأوفرها راحة وترفا ونعماء ، فقد كان بكل غرفة فيه حمامها وشرفتها ، وكان الأثاث من أبدع الرياض شأنا والطعام لايقل عن مثله فى فنادق الدرجة الأولى فى أى بلد كبير .

وكانت بجواره مزرعة نموذجية تتولى إمداده بإنتاجها وتحوى مرابط للخيل ، ومداود للبقر وزرائب للخنازير وتقافيص للدجاج مزودة بأحدث الأجهزة)[١].

ويقول ليونهارد : (لم تكن الفيلات ، وتركيب الطبقات فوق بعضها فى توزيع الطعام هما فقط مميزات القياديين الكبار ، إذ لم يمض وقت طويل على تأثيث مبنى اللجنة المركزية فى شارع (فال) وافتتاحه ، حتى علمنا أن منزلا هيىء ليقضى فيه أعضاء جهاز اللجنة المركزية فترات استجمام ، ويوجد هذا المنزل فى (بيرنيكى) بالقرب من (بيرناو) وأثث ـ بالنسبة لذلك الوقت ـ تأثيثا فاخرا ، ويحيط به منتزه كبير ، وهو معزول تماما عن العالم الخارجى .

كان الطعام فاخرا بدرجة تجعل الطعام فى اللجنة المركزية ـ بالنسبة له ـ يبدو متواضعا جدا . هنا نقضى أيام الأجازات ، وأحيانا يرسل بعض القياديين بعد القيام بعمل خاص إلى (بيرنيكى) ، كى يسمنوا مرة أخرى .

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٣٩) .

ويجب ألا ينسى شىء هنا : كلما كانت الامتيازات كبيرة ، كلما كانت الأعمال التى يتطلبها الحرب من القيادى كبيرة أيضا ...)(١).

وهكذا فالتمييز الطبقى داخل الحزب نفسه فكيف بين الحزب وبقية أفراد الشعب؟!!

ويذكر ليونهارد ذلك التفاوت فيقول : (كان بيت الاستجمام فى "بيرنيكى" فى بادىء الأمر لكل القياديين فى جهاز اللجنة المركزية ، غير أنه حدث تفريق بينهم فيما بعد ، فقد جهز بيت استجمام على مستوى عال فى (زيهوف) للأعضاء الكبار فى سكرتارية اللجنة المركزية)(٢).

ويقول الأستاذ محمد قطب : (هناك فارق فى نوع المتاع ودرجته ، وفارق فى مشاعرك حين تكون هنا وحين تكون هناك .. ويتسع الفارق كلما صعد الإنسان الدرجات فى "الحزب" حتى يصبح عضوا فى اللجنة التنفيذية العليا أو من الأعضاء البارزين فى الحزب ، فينقلب نعيمه ترفا ماكان يحلم به بعض القياصرة فى زمانهم! والشعب فى "أكواخه" العصرية ، والأسرة كلها فى غرفة واحدة تجمع الأم والأب والأطفال ...)(٣).

ويقول دجيلاس : (إن توطيد ملكية الطبقة الجديدة ، قد تمثل فى مجموعة التطورات الطارئة على سيكولوجية أعضائها ، وعلى نمط حياتهم وعلى وضعهم المادى ، نتيجةللمراكز التى احتلوها فى نطاق السلم الحزبى .. ولقد حاز الأعضاء الكبار من أفراد النخبة الممتازة على أفضل المساكن والبيوت كما شيدت لهم الأحياء الخاصة ومنازل الاصطياف . وحصل أمناء سر الحزب ورؤساء البوليس السرى ليس على السلطة العليا ، وحسب ، إنما على أجمل المساكن ، وأفخم السيارات وسواها من مظاهر الأبهة والعظمة والامتيازات الخاصة . أما بقية الأعضاء من دونهم مرتبة فقد حازوا على امتيازات متناسبة مع مراكزهم الحزبية والإدارية .

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٥٧٣) .
(٢) المرجع السابق (٥٧٣) .
(٣) مذاهب فكرية معاصرة (٤٢٨) .

وبذلك تحول ميزانيات المقاطعات واعتمادات البناء والتعمير ومشاريع إعادة التعمير التى يتم تنفيذها لسد حاجات الدولة ، أصبحت جميع هذه الأمور موارد لاينضب لها معين ، تدر المنافع الهائلة على البيروقراطية السياسية)[١].

ويعترف (شيفشنكو) الروسى فى كتابه (الشقاق مع موسكو) بالامتيازات الطبقية فى الاتحاد السوفييتى . ويؤكد شيفشنكو هذا التمايز أن (هذه الطبقة هى طبقة الصفوة الذين يتمتعون بدرجات مختلفة من الامتيازات طبقا لمستوى مناصبهم فعضو هيئة المكتب السياسى مثلا لاحدود ولاقيود على الامتيازات التى تمنح له وبعده أعضاء اللجنة المركزية ثم أعضاء الحزب فالوزراء ثم أصحاب الوظائف الهامة المختلفة أما أعمال المصانع والفلاحون والمهندسون والمحامون والأطباء ومديرو المحال التجارية وباقى أصحاب المهن من المواطنين فهم بعيدون تماما عن أى امتيازات .

وامتيازات الصفوة كثيرة ، فهم يحصلون على الرواتب العالية والشقق الفاخرة كما أنهم يعاملون معاملات الأشخاص الذين يطلق عليهم أشخاص مهمون جدا فى المطارات والشواطىء والمستشفيات ولهم مدارس خاصة لأولادهم ، ولهم محلات خاصة يتعاملون معها بأسعار مخفضة ويحصلون منها على أى كميات يريدون من الأطعمة أو الملابس أو غيرها .. لقد سمعت الكثير حول هذا الموضوع قبل أن أنضم وأسرتى إلى طبقة الصفوة ، وعندما أصبحنا جزءا منها أى من طبقة الصفوة أصبحنا ننظر لهذه الرفاهية وهذه الامتيازات بشىء من الإعجاب والسعادة وسرعان ماأصبحنا نعتبر كل هذا حقا من حقوقنا الأصلية)[٢].

لقد أصبحت العضوية فى الحزب بعد الثورة (تعنى انتماء العضو الجديد إلى طبقة رفيعة المقام ذات امتيازات خاصة ، وهذا مايؤدى إلى أن ينمو الحزب على حساب مجموعة طفيلية من أعتى المستغلين وأشرس الأسياد .

---

(١) الطبقة الجديدة (٨٠-٨١) .

(٢) نقلا من كتاب كفاحنا فى مقاومة الشيوعية (٥٩) .

لقد استطاع النظام الشيوعى أن يخفى طبيعته الذاتية لمدة طويلة من الزمن ، قبل أن تنكشف هويته الحقيقية . وقد عمد إلى إخفاء واقع ظهور طبقة جديدة خلف ستار من الشعارات الإشتراكية الزائفة ، وتحت غطاء العمل على إقامة الملكية الجماعية ونظام التعاونيات الجماعية الجديدة . إن الملكية الإشتراكية ليست أكثر من ستار للملكية التى تمارسها البيروقراطية السياسية الحاكمة ، التى عملت بادىء ذى بدء على دفع عجلة التصنيع وعلى إخفاء واقعها الطبقى خلف هذا الستار)[١].

واستمع الآن إلى رجل حب الشيوعية من الأعماق ثم كفر بها كما كفر غيره عندما رأوها على حقيقتها من خلال واقعها :

(ومنذ بضع سنين كتبت عن حبى للاتحاد السوفييتى وإعجابى ، لما يجرى فيه من تجربة منقطعة النظير ألهب التفكير فيها مشاعرى وأثار فى صدرى أكبر الآمال ، إذ رجوت أن تسفر عن تقدم عظيم وخير كثير ، ودوافع تغمر العالم كله ، وتسرى فى الدنيا بأسرها ؛ وكان بديعا أن يحيا المرء فى هذه الآونة من الزمن ليشهد هذا الميلاد الجديد ويهب حياته كلها له ، فلاعجب إذا أنا مضيت فى أعماق جوانحى أربط مصيرى باسم الثقافة والأدب والفن بمصير ذلك الأتجاه .

وقد أعلنت بعد أربعة أيام من وصولى إلى روسيا ... أن مصير الثقافة مرتبط فى تقديرى بمصير الاتحاد السوفييتى ...)[٢].

وبعد أن امتدح الاتحاد السوفييتى قال : (ولم أبدأ أرى الأشياء على وضوحها إلا حين تنحيت عن الإستعانة بوسائل النقل الحكومية ومضيت أتنقل وحدى فى البلاد لكى أتمكن من الاتصال رأسا بالشعب ... وحين هربت من كبار الموظفين ومضيت أختلط بالعمال تبين لى أن أكثرهم يعيشون فى أبشع صنوف الفاقة فى الوقت الذى كنت أجلس فيه إلى مأدبة فاخرة كل

---

(١) الطبقة الجديدة (٦٧) .
(٢) المعبود الذى هوى (٢٢٩) .

ليلة ، وأرى الخوان حافلا بالأطايب ، ومختلف (المشهيات) حتى لتكفى لإشباع النفس قبل أن يبدأ الطعام ذاته ، وهو عشاء من ستة ألوان منوعة ، يستغرق المرء فى الجلوس إليها عدة ساعات ، ولم أترك ولامرة واحدة حرا أدفع قائمة حساب ، وليس فى إمكانى أن أقدر نفقات هذه المآدب ، ولكن صديقا لى أوتى علم الأسعار فى روسيا أنبأنى أن الشخص الواحد فى هذه الولائم يكلف مائتى روبل أو ثلاثمائة ، بينما كان العامل الواحد من العمال الذين لقيتهم لايتقاضى من الأجور أكثر من خمسة روبلات فى اليوم ، وهو القانع بالخبز الأسود والسمك المجفف ، ولم نكن فى مقامنا بها ضيوفا على الحكومة فى الواقع ، وإنما كنا فى ضيافة مؤسسة غنية تدعى جمعية المؤلفين السوفيتيين ، وكلما فكرت فيما أنفقت علينا ، وكنا ستة أضياف ، يصحبنا الأدلاء والمشرفون ، ويجالسنا مثل عددنا من كبار الموظفين ، أدركت أنهم كانوا ينتظرون منا لقاء المال الذى أنفقوه علينا غير ماوجدوه ، وأظن أن بعض هذا السخط الذى أبدته جريدة (البرافدا) مرجعه إلى هذا الكفران الذى كان منى بصنيعهم ، ولاريب فى أنه كان من الطبيعى أن يحسنوا وفادة الضيف ماستطاعوا ، وأن يشهدوه على أحسن مافى بلادهم ، ولكنى مع ذلك ذهلت وعجبت لما لمسته من الفارق البعيد بين هذا الوجه من الخير الذى يستمتع به الأكابر ، وبين نصيب الكافة وحظ العامة ، أو هذا البون الشاسع بين المناعم والامتيازات ، وبين الفاقة البالغة ، والفقر المدقع . فلاغرو إذا كان إعجابى بالاتحاد السوفييتى والعظائم التى حققها هو الذى سيجعل انتقادى شديدا ، ومؤاخذاتى قاسية ، لما كنا نرتقبه منه ، وماحملنا على التعلل به ، والأمل فى بلوغه ، فقد كنت مطمئنا إليه، معتمدا عليه ، فلم يكن أشد مافجعنى أن أرى الهدف لم يستكمل ، بل أن أشهد فيه كل ماكنت أجده فى وطنى ، وأحاول منه هربا ، تلك الامتيازات التى كنت أرجو أن أراها ملغاة

إلى الأبد)[١].

وعلاوة على هذه الطبقية الفاحشة فإن الدولة قد جعلت الإقتصاد ومسائله سرية للغاية حتى لايطلع عليها أفراد الشعب كى لايعرفوا الحقيقة التى تخفيها تلك الفئة المتسلطة ، والتى كانت متسترة بمصلحة العمال ، حتى لاينفضح أمرها ، وينكشف عوارها ، فتثور الجموع ضدها .

إن هذه الامتيازات للطبقة الحاكمة والسرية الملازمة للإقتصاد أدت إلى مزيد من التذمر فى أوساط العمال وأفراد الشعب نظرا لما يرون من سوء حال يعيشون فيه ، فى حين يتمتع هؤلاء وينعمون بكل مالذ وطاب .

فغضب الشعب بسبب الجوع الذى كان مفروضا عليهم وحلت البغضاء فى نفوسهم للحزب[٢].

ويقول دجيلاس : (إن التناقضات القائمة بين واقع الملكية التى تمارسها الطبقة الجديدة وبين مفهومها القانونى والعقائدى ، يمكن أن يدلنا على الأسباب الحقيقية الكامنة وراء الانتقادات الشعبية . فمجموعة هذه التناقضات لاتلعب دورها فى تحريض الآخرين وإثارة سخطهم وحسب ، بل إنها تعمل على نخر الحزب نفسه ، لكون القلة البيروقراطية الحاكمة هى التى تتمتع بمفردها بالامتيازات وتتصرف حسب هواها بمقدرات الأمة . وإذا مااتسعت رقعة هذه التناقضات وازدادت تضخما ، فإنها قد تقود إلى ظهور فرص فعالة لتغيير طبيعة النظام الشيوعى سواء جرى ذلك التبدل برغبة من الطبقة الحاكمة أو رغما عنها)[٣].

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٣٢-٢٣٤) .ولمزيد انظر المرجع نفسه (٢٣٤-٢٣٥) ، وانظر مرضى حكموا العالم (١٠٨-١١٠) وذكر التمييز الطبقى فى العيادات الطبية بين أعضاء الحزب وبقية أفراد الشعب ، وانظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٨٧) عن التمايز فى الملابس النسائية .

(٢) انظر الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٦٢-٦٣) .

(٣) الطبقة الجديدة (٩٤) .

وحتى لايطول بنا المقام فى سرد الحقائق والآراء عن وجود الطبقية العاتية فى الاتحاد السوفييتى نقول إن هذا التمايز أدى إلى جعل طبقة العمال والفلاحين لايجدون إلا قوت يومهم ولايصل إليهم إلا بشق الأنفس وهؤلاء العمال ، أما من عداهم من أعداء الحزب فالموت لهم(١).

لقد كان على الإنسان السوفييتى أن يقضى وقتا طويلا فى طوابير الانتظار ليحصل على أبسط الحاجيات ، وقد قدرت خسائر (المجتمع السوفييتى سنويا ، بفعل اطضرار السكان للانتظار أو الوقوف فى طوابير أمام المتاجر بغية تلبية حاجاتهم ، حوالى خمسة وستين مليار ساعة عمل)(٢).

يقول غيرد : (لعل المسؤولين غير مطلعين على المصاعب التى تصيب قطاع التموين . فالعشرة أو العشرين ألفا من المسؤولين فى موسكو وأنسباؤهم وأصدقاؤهم ، يعيشون فى حلقة مغلقة من نظام تموينى ركيزته السوق السوداء ، ولايمت بصلة إلى حياة المواطن العادى . كان باستطاعة المحظوظين فى موسكو الحصول بصورة أسهل من قبل ، على السيارة والشقة السكنية . وسواها من السلع التى تشهد على مستوى معيشة مرتفع . وكانت عمليات الاستيراد تخفى وراءها فشل السياسة المتبعة فى الزراعة السوفيتية . وكان الخبز الروسى والفودكا يصنعان من القمح الامريكى . ونجحت القروض وعمليات الاستيراد من الغرب فى حجب الأزمة بصورة مؤقتة ، مع ذلك ، تنامت النقمة حتى فى الأوساط التى تساند النظام القائم . وازدادت الشكوى من تفاقم الفساد . ولم يعد بالإمكان خنق فورات الغضب التى يثيرها ظلم النظام . أكثر من ذلك ، عانت الفئة المثقفة فى صفوف المسؤولين من شعور الخيبة على الصعيد السياسى فقد بات واضحا للمطلعين على الوضع الفعلى السائد ، إن النظام الإقتصادى السوفييتى بلغ حده من التطور وصار يؤلف ، فى شكله الحالى المتحجر سدا منيعا فى وجه كل تقدم وإصلاح)(٣).

---

(١) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٣٢٣-٣٢٥) .
(٢) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٣٧) .
(٣) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٧٣-١٧٤) .

ولاشك أن ذلك سيؤدى إلى سخط الشعب وتذمرهم ، ولو على المدى البعيد .

يقول ماندل : (ينبغى أن يبقى فى أذهاننا أنه فى نهاية حقبة بريجنيف كان قد ساد شعور بالاستياء الشامل بين الجماهير السوفيتية بفعل نقص التموين المعيشى ، "إنه شعب محبط يتحدث علنا عن الرازروخا Razrukho أو خراب الإقتصاد")[1].

إن مستوى المعيشة فى الاتحاد السوفييتى المتردى كان له أبلغ الأثر فى نقمة الشعب .

يقول هيلير عن تردى الوضع : (لايعتبر مستوى المعيشة فى الاتحاد السوفييتى من أدنى المستويات فى أوروبا وحدها ، بل فى العالم كله . فعلى قاعدة حجم المواد الغذائية والخدمات الموضوعة بتصرف المستهلك ، فإن بلد الإشتراكية الناضجة يحتل المرتبة الخمسين أو الستين .

وبإمكاننا أن نفهم شكل أفضل مايمثله متوسط الأجر السوفييتى ، إذا عرفنا أن عتبة الفقر فى الثمانينات ، أو (الرفاه الضعيف) وفق اللغة السوفيتية ، كان بحدود ٧٠-٨٠ روبل حسب الخطة وبأنه سيبلغ ١٠٠ روبل فى الشهر وللشخص الواحد فى المدى القريب . وتشير الأرقام الأكثر جدة إلى وجود (عشرات الملايين من الأشخاص) (لاوجود لرقم دقيق) الذين يحصلون على دخل أقل من ٧٥ روبل فى الشهر . وتضم البلاد ٨٥ مليون متقاعد . وينال العامل المتقاعد أوالمستخدم ٨٤ روبل فى الشهر ، أما فى حالة الكولخوز فإن الدخل يهبط إلى ٥٣ روبل . جميع هؤلاء يعيشون دون حافة الفقر ، أو فى أحسن الأحوال فى حدودها . وفى الأول من تشرين الأول عام ١٩٨٩م ، ارتفع المعاش التقاعدى من ٤٥ إلى ٦٠ روبل ، ووفقا للمعطيات الرسمية . فإن مانسبته ٤١ مليون شخص ، فى عام ١٩٨٩م من سكان الاتحاد السوفييتى ينالون أجورا شهرية أقل من الحد الأدنى الضرورى

---

(١) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٥٣) .

(٧٨ روبل) . بالمقابل وفى الولايات المتحدة ، حيث تبلغ عتبة الفقر السنوية ١١٦١٢ دولارا لعائلة مؤلفة من أربعة أفراد فإن عدد الأشخاص الذين تشملهم هذه الوضعية بلغ عام ١٩٨٧م ، ماجموعه ٣٢,٥ مليون شخص)[١].

ويقول ماندل مصورا بعض أسباب التأخر الإقتصادى فى الاتحاد السوفييتى : إن (ثمة نقص فى سلع الاستهلاك ، سواء الزراعية منها أو الصناعية . وثمة نقص بشكل خاص بالمنتوجات المستوردة (لم يستورد الاتحاد السوفييتى سوى ١٩٧ غرام من البن للمواطن الواحد عام ١٩٨٦م ، مقابل ٥,١٢ كلغ بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية ، و١٠ كلغ بالنسبة لألمانيا الشرقية و٣,٥ كلغ بالنسبة للمجر ، و٤ كلغ بالنسبة لألمانيا الغربية ، و٢,٨ كلغ بالنسبة لبريطانيا) . غير أن هذا النقص ليس السبب الوحيد ولاالسبب الاساسى فى أزمة التموين . ويمكن تلخيص هذه الأسباب الإضافية على الشكل التالى :

(اختلالات رئيسية بين التوظيفات فى القطاع المسمى منتجا من جهة ، والقطاع المسمى خدماتيا من جهة ثانية . فثمة تخلف صارخ فى سستام النقل وفى سستام التخزين ، وسستام التوزيع)[٢].

٢ ـ (خسائر ضخمة "تبذيرات" ناجمة عن هذه الاختلالات . ويقدر غورباتشوف أن نصف كمية الفواكه والخضار التى تصل إلى موسكو تفسد قبل وصولها إلى المتاجر ...) .

وأقر ليغاتشيف (أنه لايوجد فى موسكو سوى متجر واحد للفواكه والخضار لكل أربعة وعشرين ألف مواطن) .

وجاء فى البرافدا العدد الصادر فى نوفمبر ١٩٨٨م (أن مستودعات التبريد فى العاصمة السوفيتية لاتتسع إلا لحمولة ١٩ حاوية مبردة للحوم ، فيما تصل تلك المستودعات مئتا حاوية فى اليوم . وليس ثمة مايثير الدهشة

(١) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٠٨-١٠٩).
(٢) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٨٩) .

من ضياع جزء هام من اللحم . والحال هكذا ، إن هذا الوضع قائم منذ عشرات السنين ، من دون أن يكون فى المستطاع بناء مستودع تبريد إضافى واحد خلال عشرين عاما . والمثال الأكثر غرابة حول التبذير ، يتعلق بإنتاج البطاطا : فالاتحاد السوفييتى ينتج بقدر ماتنتج الولايات المتحدة الأمريكية والصين وبريطانيا وألمانيا الغربية مجتمعين ، لكن ، وبحسب فيكتور تيغونوف ، فإن ربع هذا الإنتاج فقط يصل إلى المستهلكين .. والنتيجة نقص حاد للبطاطا فى المتجر ...)(١).

٣ ـ (تأخيرات منهجية فى تنفيذ خطط الصناعة الخفيفة بما فيها الصناعة الزراعية الغذائية ...)

٤ ـ (احتكار وعيوب بيروقراطية ، نظرا إلى الفرق الكبير بين "الأسعار الرسمية" و"الأسعار الحرة" ...)(٢).

٥ ـ (الآثار الانحرافية "للأسعار المتعددة" . إن الأسعار فى الأسواق الكولخوزية والمتاجر التعاونية وبشكل عام فى السوق الحرة والسوق السوداء والرمادية هى بشكل عام ضعف أسعار متاجر الدولة على الأقل . وينتج عن ذلك تدفق "نصف شرعى" أو غير شرعى متواصل ومحتوم للسلع من قطاع الدولة إلى "القطاع" الحر . غير أن تكييف أسعار قطاع الدولة مع "الأسعار الحرة" سيؤدى إلى انخفاض كبير فى مستوى معيشة القسم الأكثر تواضعا من السكان ، مالم تصحبه إعادة توزيع جذرية للمداخيل ...)(٣).

(التأخر التكنولوجى ، النوعية السيئة للعديد من المنتجات الصناعية "وتؤدى الظاهرتان إلى "ضعف المنافسة التى تمتلكها المنتوجات السوفتيية ـ بما فيها الآلات ـ فى الأسواق العالمية" ، الضعف فى عائدات الاستثمارات المبالغ بها إلى حد بعيد وغير المنجزة على مدى طويل (مجمدة) ؛

---

(١) نقلا من كتاب الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٨٩-٩٠) .
(٢) المرجع السابق (٩٠) .
(٣) المرجع السابق (٩١-٩٢) ، وانظر الفشل الكبير (٣٠٣) .

التخطيط غير المتوازن والذى يزداد تفككا ، والهدر المتنامى للطاقة والمواد الأولية)[١].

والتأخر التكنولوجى يتفق مع سياسة الاتحاد السوفييتى الذى كان يحجر على الناس كل شىء لأن الأجهزة الحديثة قد تستخدم ضد ذلك النظام ويكون الاطلاع على ماعند الآخرين عن طريقها فكان التضييق عليها يخدم السياسة الدكتاتورية السوفيتية[٢].

لقد أصبحت الدولة فى الاتحاد السوفييتى تملك كل شىء أو على الأقل أكثر كل شىء .

حيث ١ - (أشارت إحدى الإحصائيات أن نسبة ٩٨٪ من مزارع البطاطا فى الاتحاد السوفييتى ملك للدولة ، وأن ٢٪ فقط تمثل ملكية خاصة ، وأن نسبة إنتاج هاتين الاثنتين فى المائة بلغت ٥٠٪ من إنتاج الاتحاد السوفييتى كله من هذا الغذاء .

٢ - أشار تقرير إحصائى آخر أنه درست نسبة إنتاج عدد معين من مهندسى الاتحاد السوفييتى وقورن بنسبة نفس العدد فى إحدى دول الغرب الرأسمالى فتبين أنه لايزيد على النصف ، الأمر الذى دفع مؤسسات الاتحاد السوفييتى من أجل أن يعطى أكثر!!

٣ - ليس اجراء لينين الشهير عام ١٩٢٤م ، بعد أقل من سبع سنوات على قيام الثورة الشيوعية ، والذى أعاد فيه نظام تمليك الأراضى ، بعد التدهور الشامل الذى شهده الاتحاد السوفييتى من جراء التأميم الكامل لوسائل الإنتاج ، ليس هذا الإجراء هو الأول والأخير بهذا الصدد .

٤ - عندما اتضح استحالة تحقيق الشعار الماركسى (من كل حسب طاقته) فى تجربة الماركسية ، فى روسيا وشرقى أوروبا استحدث النظام

---

(١) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٣٥) ، وانظر (٣٧) .

(٢) انظر ماذكره ماندل عن ذلك الخوف مختصرا فى كتابه الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٣٨-٣٩) .

الشيوعي ماسماه بالحافز الفردى فى الإنتاج ، وهو نسبة فى زيادة العامل تعطى له سنويا حسب زيادته فى الإنتاج المقنن للمستوى المتوسط للعامل)(١).

وكذلك كان الوضع فى دول أوروبا الشرقية حيث تم السماح بالملكية الفردية بعد العجز عن تطبيق مبدأ القضاء عليها(٢).

إن الوضع السوفييتى كان متردیا مما يدل على أن القضاء على الملكية الفردية لن يحقق السعادة للناس . وهنا نقول لهؤلاء إن الملكية الفردية ليست هى سبب الشرور والآثام والاستغلال ، بل إن السبب فى الطريقة التعسفية التى استخدم بها الرأسماليون الملكية الفردية حيث جعلوها سببا فى احتكارهم واستغلالهم وظلمهم لطبقة العمال ، وهذا ليس لعيب فى الملكية ذاتها ، بل فى الفئة التى أساءت باسمها . والإسلام خير دليل على أن الملكية الفردية ليست سببا فى الظلم بل بالعكس داعية للعدل محققة له .

لقد أضحى مبدأ تطبيق الملكية الجماعية وكذلك النعيم الذى سيصل إليه الناس من خلال ذلك التطبيق كلاما نظريا لايصل حتى درجة الاهتمام به ، أو محاولة أخذه المأخذ الجدى للتطبيق ، وهذا فى كل المرتكزات الإقتصادية التى نادى بها الشيوعيون .

يقول الإقتصادى Ibenstein :

(إن الضعف الرئيسى والأكبر فى النظرية الماركسية أنها تحتوى على مبادىء ومثل عليا تتسم بالعدالة المطلقة وتكافؤ الفرص والفهم العميق لكبريات أو صغريات المشاكل التى تواجه الناس فى كل مكان . ومع ذلك فالنظرية نفسها - وكما ثبت فى كثير من الدول - تباعد بين هذه المثل العليا وبين الحقيقة)(٣).

---

(١) تهافت الفكر المادى التاريخى (٥٢-٥٣) ، د. محمد البهى ، الطبعة الثالثة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م ، مكتبة وهبة .

(٢) انظر مقال فى العدل الإجتماعى (٢٤-٢٥) .

(٣) النظم الإقتصادية المعاصرة (١٨٣-١٨٤) .

رابعا : أقوال مشاهدى العيان الذين عاشوا فى ظل النظام الشيوعى حيث أوضحو التميز الطبقى الذى كان موجودا منذ اللحظة الأولى بعد تفجير الثورة البلشفية فهم أجدر الناس بوصف الوضع الذى عاشوه .

فذكر ليونهارد أن الأكل يكون حسب صنف البطاقة التى يحملها الفرد كما أن الإسكان كذلك ، بالإضافة إلى الطرود الخاصة لأعضاء الحزب[١].

تقول رايسا غورباتشوف : (خلال أعوامنا الأخيرة فى ستافروبول[٢] كان دخلنا الشهرى ستمائة روبل تدفع لزوجى بوصفه سكرتير اللجنة الإقليمية ، يضاف إليها ٣٢٠ روبلا تدفع لى بوصفى محاضرة ، وكان ذلك على وجه العموم دخلا جيدا فى تلك الأيام . أما حين أصبح سكرتير اللجنة المركزية فقد دفع له ٨٠٠ روبل شهريا ، وإذا لم أكن مخطئة فإن كل السكرتيرين والأعضاء المرشحين وأعضاء المكتب السياسى والسكرتير العام يتسلمون المبلغ نفسه فضلا عن ذلك كان هناك مبلغ يدفع لقاء الطعام مقداره ٢٠٠ روبل شهريا للسكرتيرين والأعضاء المرشحين و٤٠٠ روبل لأعضاء المكتب السياسى الثانى العضوية .

كان يسمح لنا باقتناء الكتب مجانا ، وكان رئيس الأسرة وزوجته يزودان بتنقلات مجانية على شكل سيارة وسائق . أما الشقة فكان إيجارها مجانا كما يمنح مبلغ معين لمصاريف الإجازات ، وقد سحبت كل هذه الامتيازات بما فيها استعمال البيوت الريفية التى تمتلكها الدولة .

وفقا لقرارات اتخذها مجلس ممثلى الشعب فى الاتحاد السوفييتى ، أصدر مجلس السوفييت الأعلى قرارا يتعلق بمرتبات رئيس جمهوريات الاتحاد السوفييتى وحمايته والخدمات اللازمة له ، وكذلك مرتبات رئيس مجلس السوفييت الأعلى ونائب الرئيس ورئيس الوزراء ، وقد خصصوا لرئيس الجمهورية راتبا يبلغ ٤٠٠٠ روبل شهريا ، فإذا أخذنا فى الاعتبار الضرائب

---

(١) انظر حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٥٧٠-٥٧٥) .
(٢) المدينة التى ولد بها غورباتشوف .

الحالية والمدفوعات الأخرى ، فذلك يعنى راتبا صافيا يبلغ ٢٥٠٠ روبل . وتقدم له أيضا مقرات إقامة فى منطقة موسكو والقرم وشقة رسمية فى موسكو ووسائل النقل الضرورية وطائرة معدة إعدادا خاصا مع هليوكوبتر . وعند تقاعد رئيس جمهوريات الاتحاد السوفييتى يتسلم راتبا تقاعديا يصل إلى ١٥٠٠ روبل شهريا ، كما يزود بداتشا تملكها الدولة مع الموظفين اللازمين والحرس الخاص ووسائل النقل)[١].

يقول ماندل : (لقد ذهبت فى العام ١٩٨٤م إلى موسكو كسائح عادى سعيا وراء إجابات ، وعام ١٩٨٥م ذهبت مجددا إلى لينغراد ... وتبيليسى وسوخومى وموسكو (...) وماشاهدته هناك كان شديد الاختلاف عما وجدته فى رحلتى الأولى عام ١٩٧٠م خلال حقبة بريجنيف . لقد اتسعت التفاوتات الإجتماعية إلى حد لامثيل له فى السابق وظهرت بوضوح للعيان ، وبعلانية . كنت أسمع للمرة الأولى عن ال(Pogatye Lioudi) - رجال أغنياء - بل من أصحاب الملايين ، كما لو أن وجودهم فى بلاد السوفييت أمر طبيعى ، شبه ضرورى . وقد جاء لى من شرح لى ، بشكل جد طبيعى ، إن أبناء الأغنياء يدعون الأطفال المذهبون (Zolotyle Dietky) فيما يدعى أبناء غير الأغنياء (الفئران الرمادية) (Sieryie Kryssy) وكان لكل من المجموعتين محلات بيع اسطوانات مختلفة وبشكل خاص مستقبل مختلف محدد مسبقا)[٢].

وبعد هذا فليس من حق أحد أن يقول بأن هذا المبدأ ممكن التطبيق فإن ذلك يعد من إنزال المحال منزلة الممكن وأنى لهذه المعادلة أن تستقيم .

خامسا : أن الطبقة التى سيطرت على الأمر هى الحزب الشيوعى وأصبح الأعضاء يتميزون عن بقية أفراد الشعب فى كل صغيرة وكبيرة . وأصبحت مسألة إقامة طبقة البروليتاريا مكان كل الطبقات بعد القضاء عليها فرية .

---

(١) أملى (١٠٧-١٠٨) .

(٢) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٤٤) .

(أ) **وجود الطبقة الأرستقراطية المتحكمة بالأمور كلها .**

يقول فارغا : (وبديهى أن هذه الأرستقراطية المتربعة على سدة السلطة بذلت كل مافى وسعها لتثبيت امتيازاتها الحقوقية الغير المقر بها ، بل حتى امتيازاتها المادية : وجود قانونى ضمنى يبيح لها استخدام ممتلكات شتى ، وبوجه خاص الممتلكات العائدة إلى الإدارة ، ويمكننا أن ندرج فى عداد هذه المزايا أجرا مرتفعا "ومغلفات" من اليد إلى اليد ، واقتناء سلع غذائية لايمكن العثور عليها فى المخازن والمتاجر ، ومطاعم خاصة ، وشققا واسعة ، وأحيانا مفروشة فرشا فخما ، وكذلك فيلات ريفية بحدائقها وأزهارها وملاعبها لكرة المضرب وأحواضها للسباحة ، علاوة على السيارات وسواق شخصيين ودارات استجمام فخمة)(١).

(ب) **كانت الطبقة الحاكمة تشكل فى الدولة الروسية طبقة بحد ذاتها سيطرت على مجريات الحياة .**

يقول دجيلاس : (كان من الطبيعى جدا ، أن تستخدم هذه الطبقة الجديدة أسلوب التضليل والخداع ، حين تدعى بأنها ستعمل - من خلال بسط سيطرتها - على توفير السعادة وتأمين الحرية لكافة المواطنين .. إلا أن مايميز الطبقية الجديدة للحزب الحاكم ، هو الأسلوب الجديد فى معالجة التخلف القائم فى المجتمع من خلال المنطلقات الوهمية لأفكارها ، من خلال الديكتاتورية والإرهاب على الشعب . ولقد أكدت هذه الطبقة الجديدة ، أنها أكثر تسلطا فى الحكم من أية طبقة أخرى ظهرت على مسرح التاريخ ، كما أثبتت فى الوقت نفسه بأنها تحمل أعظم الأوهام ، وأنها تكرس أعتى أساليب الظلم فى مجتمع طبيعى جديد .

---

(١) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٥٤) ، وانظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف وذكر أن توزيع المغلفات ألغى عام ١٩٥٦م فى عهد خروشوف وأوجد نظاما آخر يجعل متاجر خاصة وموزعين متخصصين حتى يستطيع كبار الموظفين شراء السلع بأثمان زهيدة أو مجانا .

أمـا الطبقـة الجديدة فهى البيروقـراطية وبعبـارة أوضـح يمكـن تعريفها ببيروقراطية السياسة الحاكمة ، وتضم هذه الطبقة الكثير مـن طبائع ومميزات الطبقـات السـابقة الأخرى ، بالإضـافة إلى طبـائعهـا ومميزاتهـا الـذاتية الجديدة)[١].

ويقــول : (إن الاعتقــاد السـائد لـدى الطبقـةالجديدة بأن أى خرق لسلطتهـا الاستبـدادية ، قـد يشكـل خطـرا على ملكيتها وامتيـازاتها ، يجعلهـا تعـارض بشـدة أى شكـل مـن أشكـال الحرية ، بحجـة الـدفاع عـن الملكيـة "الإشتراكية" وصيانتها .

إن توجيه الانتقادات إلى الطبقة الجديدة بسبب إدارتهـا مقدرات الأمة إدارة احتكـارية ، يثير لـديهـا بالـغ الخوف من احتمالات فقـدانها السلطـة ، ولـذا فـإنها تنفعل بشدة من هـذه الانتقادات والمطالـب ، بقـدر ماتسلط هذه الانتقـادات الأضواء على مظـالم الطبقةالجديدة وتفضح الطـرق التى تتبعهـا فى الحكـم ، والوسائل التى تعتمـدها للاحتفاظ بالسلطة . ويبرز التنـاقض الهـام والخطير فى نطـاق الملكية ، فالممتلكات تعتبر من وجهة النظـر القانونية أملاكا عامة قومية ، إلا أن فئة بيروقـراطية صغيرة هى التى تقـوم بإدارتهـا بما يتفق مع مصالحها الخاصة)[٢].

(ج) إن هـذه الطبقة كان لها الامتيازات فى أدق الأمور الإجتماعية والمعيشية مما يدل على وجود الطبقية وتفشيها فى المجتمع السوفييتى .

وهذه الطبقات (مفضل بعضها على بعض فى الدخل وفى الحقـوق ، على نحو شـديد الوضوح ، بل إن من مظاهر هذا التفاضل الطبقـى اختلافات فى الأزياء والشارات والرموز الحربية ، والملاحظ أن أفراد الطبقـة الممتازة ـ فى المجتمع الشيوعى ـ يتمتعون بمزايا لايشاركهم فيها غيرهـم من أفراد الطبقات الأخرى ... فهـم ـ بما يملكـون مـن سيـارات ومغـان (فيلات) خاصـة ، وبما

(١) الطبقةالجديدة (٥٤-٥٥) .
(٢) المرجع السابق (٩١-٩٢) ، وانظر (٧٦-٧٧) .

لديهم من خدم وحشم وحرس مسلح ، ومايحصلون عليه من خدمات الأطباء الخصوصيين ، وبما يظفرون به من المزايا التعليمية لأولادهم - يتمتعون بمكانة خاصة وامتيازات مادية هى المكانة الخاصة والمزايا المادية التى تستأثر بها الطبقات الأرستقراطية فى البلاد الأخرى . وهم - على هذا الأساس - على بعد بعيد من أفراد الشعب ، ثم إنهم يعدون أنفسهم غير مسؤولين أمام المواطنين العاديين ، بخلاف الحال بالنسبة لنظرائهم فى البلاد الديمقراطية .

وهكذا يتأكد أن الدخول الحقيقية متفاوتة جدا فى الطبقات الشيوعية ويعضد هذا الاستنتاج أن أبناء الطبقة الدنيا من سكان المدن قل - فيما يردد بعض الدارسين - أن يروا اللحم والبيض ومنتجات الألبان التى هى جزء أساسى دائم من طعام الطبقة العليا .

على أنه من المسلم به إجتماعيا أن الطبقات ظاهرة إجتماعية لايمكن انعدامها ، وهى فى هذا كاللغة والدولة والنظام الإقتصادى ...الخ والواقع أن الناس ليسوا سواء فى قدراتهم الذهنية أو الجسدية أو النفسية ، وقد فرض الله العزيز الحكيم اختلافات بين الافراد لاقبل لأحد بمنعها ، وإنما الذى يجب مقاومته هو أن تصبح هذه الاختلافات ذريعة للتمييز والاحتكار وتحطيم العدالة ؛ بمعنى أن تستمتع طبقة معينة بفرص إحراز المال والجاه والعلم والمناصب وسائر أسباب الرفاهية لمجرد أنها طبقة عالية موسرة ، وتحرم - فى الوقت نفسه - طبقة أخرى من هذه الفرص ، لمجرد أنها طبقة خفيضة فقيرة والذى تجب إسلاميا مقاومته هو أن يحرم - لمجرد التفاوت الطبقى - الأفراد المتكافئون فى مختلف القدرات من الفرص المتكافئة التى تتيح استثمار الحياة إلى أبعد مدى)[١].

---

(١) الشيوعية فى موازين الإسلام (٨٣-٨٥) .

وكان لهذه السيطرة من قبل السلطة السوفيتية (الحزبية) آثارها السلبية الطبقية .

فكانوا يهتمون بتنمية المجالات التى يحصلون من خلالها على السلع والخدمات الاستهلاكية . أى مداخيلهم ومنافعهم الخاصة ، ويتناسون ولايهتمون برفع مداخيل المنشآت فيحصل بذلك تفشى السرقات والغش والسوق السوداء ...الخ(١).

٢ ـ يقول مارك بوبوفسكى :

(أصبحت الرتبة العلمية والوظيفة تحددان بصرامة مستوى حياة الباحث العلمى . وأدى ذلك إلى إنهيار فجائى للثقة بين الناس ، وراح العلماء الذين يميلون أصلا إلى الاتصال بزملائهم فى الفرع نفسه ، يحددون اتصالاتهم بالأفراد الذين ينتمون إلى مستواهم الإجتماعى وحسب ...)(٣).

٣ ـ وجود المحلات التجارية الخاصة التى تدل على وجود النظام الطبقى ، إذ أن هذه المحلات خاصة فى فئة من الناس .

يقول النمر : (وهناك محال أخرى خاصة لبيع الأطعمة بأسعار مخفضة مخصصة للمارشالات، والأدميرالات ، ولكبار العلماء ، ورجال القضاء ، والمديرين الإقتصاديين ، والأبطال الحاصلين على الأوسمة من العمال الإشتراكيين ، وللكتاب الحائزين على جائزة لينين ، والممثلين أو راقصى الباليه ، ولكبار الصحفيين فى (برافدا ، وازفستيا) أو غيرهما من المطبوعات الهامة ورجال الطبقة الحاكمة لمدينة موسكو .

ولجهاز اللجنة المركزية ثلاثة مستويات من المسئولين والموظفين ـ كما قال لى أحد من يتصل عملهم باللجنة ـ وهؤلاء يتسوقون مشترياتهم من ثلاثة محال مختلفة بثلاث درجات متفاوتة ، ويتناولون طعامهم فى (كافتيريات) بداخل مقر الحزب محددة بدقة حسب النظام المقرر .

---

(١) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٨٢) وانظر (٨٨) .
(٢) المرجع السابق (٩٦) .

أما أصحاب المناصب المتوسطة فى الحزب ، والوزارات الرئيسية والهيئات العامة للقوات المسلحة أو البوليس السرى فلديهم محال (متوسطة المستوى) نسبة السلع الكمالية فيها أقل ، لكن مايدفعونه فيها أكثر مما يدفعه الرؤساء الكبار)[١].

(وفى كثير من الوكالات الحكومية يحصل كبار المسئولين على مايعرف باسم "توزيع خاص" وهو فى حقيقته بطاقات تمنحهم حق الشراء من محال خاصة موجودة فى مشارف العاصمة . وقد قال لى أحد البيروقراطيين أن لكل مسئول من هؤلاء المسؤولين حصة معينة من المال يمكنه إنفاقها فى هذه المحلات ، وهذه الحصة مسجلة فى بطاقته الشخصية ، وتحدد قيمتها وفقا لرتبته ، وتحاط قيمة هذه الحصص بالسرية بالنسبة للموظفين من أتباع هؤلاء المسئولين)[٢].

(وفى الطابق الثالث من مبنى (ج ر م) أكبر محلات بيع البضائع والسلع فى سوق موسكو التجارية قسم معروف باسم (القسم ١٠٠) يتخصص فى بيع الملابس الأنيقة للطبقة المختارة) .

(وفى الطابع الأرضى من مبنى "الجيش والبحرية" فى شارع كالنين محل سرى لبيع سلع للضباط)[٣].

(ولطائفة أخرى من طوائف المجتمع السوفييتى المحظوظة ثمانية محلات خاصة تتعامل بالعملة الصعبة فى موسكو ، ويستطيع الروس الذين يحملون (شهادات الروبل) أن يشتروا منها البضائع المستوردة أو السلع السوفيتية النادرة بأسعار مخفضة .

(شهادات الروبل) هذه عملة خاصة تمنح فى العادة لأولئك الذين كسبوا مالا من عملهم فى الخارج كالدبلوماسيين أوالصحفيين المعتمدين

---

(١) الماركسية بين النظرية والتطبيق (٩٣) .
(٢) المرجع السابق (٩٣) .
(١) المرجع السابق (٩٣) .

والشعـراء وأمثالهم ، وهو مالابد لهم من أن يحولـوه إلى عملة سوفيتية)(١).

ومـن أبرز الرموز (للامتيـازات هى السيارات الليمـوزين التى يقودها السـائقون للزعماء ، بستائرها الرمادية المسدلة على نوافـذها لتحول بين المارة وبين معرفة من فيها من الشخصيات البارزة هذه السيـارات تجرى فى منتصف الشـوارع بينمـا رجال البوليـس يفسحـون لها الطريق ويشيرون إلى وسـائل النقل الأخرى بالتزام النواصى)(٢).

٤ ـ الخصـوصية حتى فى الأفلام التى يشـاهدها أعضـاء الحزب فلم تكـن تعـرض إلا لفئـة قليلة ، حتى أن ستـالين لم يكن يقضى نهمـه إلا فى الأفلام الأمريكية والأوربية وخاصة (الكاوبوى)(٣).

والفن الروسى لايخرج عن خدمة أفراد الحزب .

حيـث (يتضمن القيم الخاصة بطبقة ما . والفنانون المتمـردون الثائرون على قيم الطبقـة الحاكمـة قـد يتعـرضون للمصادرة والتشـريد . ومـن ثم فإن بعضهـم يلجأ أحيانا إلى برج عـاجى يمكنه من الامتنـاع عن التعاطف مع قيم الطبقة الحاكمة دون أن يتعرضوا لخطر القمع أو المصادرة)(٤).

٥ ـ ونظـرا لتمتع الطبقة الحاكمة بالنوعية الخاصـة من السيارات ، فقد وصـل الأمـر إلى أن يجعلـوا طـرقا خاصـة لاتسير فيهـا إلا سيـارات أعضـاء الحزب(٥).

٦ ـ يقول النمر : (نقلت لنا البرقيات حين احتفل ستالين بزواج ابنته كيـف كـان احتفالا مثل احتفـالات الملـوك والأباطرة ، كمـا نقـل لنا الذين زاروا روسيا أو تنقلوا فى أرجائها ، وعرفوا الحياة فيهـا كيف تتفاوت الحياة بين الروس تفاوتا كبيرا ، فالقادة والزعماء يعيشون فى ترف ومتعة وبذخ فى

---

(١) الماركسية بين النظرية والتطبيق (٩٤) .
(٢) المرجع السابق (٩٧) .
(٣) انظر ستالين (٢٦٩) .
(٤) موقف ماركس وانجلز من الآداب العالمية (١٣٩) .
(٥) انظر الماركسية بين النظرية والتطبيق (٩٩) .

قصـــورهم ومصـايفهم وربما لايحظـى به كثير مـن قـادة الـدول الـرأسمالية وزعمـائها ، بل الفنانون هنـاك والأدباء يغرقون فى الترف إلى أذقـانهم ، بل إلى أعلى رؤوسهـم ، وأظـن أن الأمـر ليـس كذلك بين العمـال والفلاحين!! وربما ليس كأمثالهم فى الدول الرأسمالية)[١].

إلى غير ذلـك من المميزات التى اختـص بها رجال الحزب دون غيرهـم فى جميـع مرافق الحياة وبدون استثناء مما يدل على أن مبـدأ إلغاء الطبقات أبطله الواقع السوفييتى وبالتالى حكم على النظرية الماركسية بالفساد .

سادسا : قـامت فكرة إلغاء الطبقات من أجل الإبقاء على طبقـة واحدة هى طبقة البروليتاريا ولكن واقع الاتحاد السوفييتى دل على أن أقـل الطبقات استفـادة مـن الفكر الشيوعى هـى طبقـة العمال ، وكانت المميزات الحقيقيـة لأفراد الحزب دون غيرهم .

ونلمح الآن بشىء عن الطبقة التى قامت من أجلها الشيوعية كما زعم أصحابها .

(أ) إن مـايحدث فى الاتحاد السوفييتى يناقض هذا المبـدأ ، ويوجه إلى الشيوعيين هذه التساؤلات .

(هـل المجتمع الروسى اللاطبقـى يسير وفق المنهـج التدريجى ، أم هو سائر وفق قانون "القفزات"؟!

ولـو كـان أمـرهم تدريجيا فمـا طـول هذا التدريج؟ وإن كـان الأمـر (قفزا) ، فما هذا القفز الذى لايكاد يعبر بوابة الإرتقاء؟!

لقـد قفزت روسيا من عصر الـرأسمالية إلى عصر الجمهـورية فى ثمانيـة أشهر لاغير ، أما مسيرتهاللتحول من المجتمع الطبقى إلى المجتمع اللاطبقى ، فلايكـاد يكفيهـا قـرن كـامـل ؛ ولعـل هـذا مـن أغـرب وقـائع التـاريخ البشرى!!)[٢].

---

(١) إسلام لاشيوعية (٨٢-٨٣) .

(٢) سقوط الماركسية (٧٧) .

(ب) يقول جيد :

(إن معظم الطبقة الكادحة فى الأنظمة الشيوعية يعيشون تحت الفاقة وينظر إليهم من قبل أعضاء الحزب باشمئزاز وازدراء كأنهم يمثلون الفاحشة الأثيمة الناشئة فى أحضان الإجرام!!)[(١)].

(ج) إن (الواقع السوفييتى أثبت أن الطبقة المختارة الآن ، ليست طبقة العمال ، وإنما هى طبقة موظفى الحزب الشيوعى ، ورجال الإدارة وغيرهم من الأفراد الذين يتمتعون بحظوة عند الدولة . حتى أن المنتجعات ودور الاستراحة (المصايف) لايستطيع العمال أن يصلوا إليها إلا بدفع أثمان باهظة لاتساعدهم عليها ميزانياتهم الضئيلة ، أما الاستفادة من هذه الأماكن بالمجان فلايسمح بها إلا لحوالى واحد بالمئة فى العام الواحد عدا الطبقة ذات الحظوة طبعا طبقة موظفى الحزب الشيوعى)[(٢)].

سابعا : ثم يقال لهم إذا كان الصراع الطبقى يختفى من المجتمعات الإشتراكية فلماذا حدث (الصراع بين روسيا ويوغوسلافيا؟! ولماذا خرج عمال المانيا الشرقية على موسكو فداستهم الدبابات الإشتراكية؟! ولماذا يرفض الشعب البولندى والمجرى الإنضمام إلى (الأخوة الروسية)؟ ولماذا هذا

---

(١) نقلا من كتاب شهادتى للتاريخ (٢٣٤) .

(٢) إشتراكيتهم وإسلامنا (٥٨-٥٩) .

ولمزيد عن وضعية العمال والوضع الذى هم فيه نتيجة انفراد الحزب الشيوعى بكل شيء انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٨٣) ومابعدها .

(وفى وصف البيت الذى كان يعيش فيه خروشوف على ضفاف البحر الأسود ومافيه من حمام للسباحة لايتكرر فى أماكن أخرى فى العالم إلا قليلا ، وفى وصف عدد السيارات الفارهة الفاخرة التى كان يقتنيها بريجنيف فى كل ذلك رد على دعاوى الشيوعية الباطلة) . حاضر العالم الإسلامى (٦٥) .

ولمزيد من المعلومات انظر : شهادتى للتاريخ (٢٣١) ، الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٢١٣) ، لاللرأسمالية .. لاللماركسية .. نعم للإسلام (١١٥،١٨٢) ، وسقطت الماركسية (٢٠) .

الصراع بين الصين وروسيا؟! وهذا يدل على أن سحر الأخوة الإشتراكية ليس إلا عبودية حديدية ، وماأن ترتخى القبضة الحديدية حتى تجرى الشعوب المستعبدة للفكاك والفرار منها)[١].

ثامنا : أن هذا المبدأ يدل على تناقض الشيوعية فهم يقولون بإلغاء الطبقات ثم يبقون على طبقة واحدة يكون بيدها الأمر ، وهى طبقة العمال ومع ذلك سيظل هناك طبقة أخرى حيث ستكون معدمة حالها حال البؤس والشقاء وبالتالى يقع الصراع بينهما .

تاسعا : أن الصراع الطبقى يأخذ أشكالا أخرى ، فمثلا جميع طبقات مجتمع أو شعب تصارع ضد جميع طبقات شعب آخر ، وعلى هذا فإن الصراع الطبقى داخل المجتمع الواحد قد يتناسى أو يزول خاصة عندما يكون الصراع مع عدو خارجى ، ومع ذلك فإن زواله من هذا المجتمع لم يقم على الصراع والمواجهة بل اقتضت ضعفه الظروف .

يقول بودان : (إن ماركس قد غالى فى إبراز الصراع الطبقى داخل الأمة الواحدة ، وبذلك أهمل العوامل التى تلطف من حدة هذا الصراع وعلى رأسها اندماج أفراد الطبقات المتصارعة فى إنسانية واحدة)[٢].

عاشرا : أن هذا التفاوت بين أفراد الشعب السوفييتى وانقسامه إلى عدة طبقات كان له أكبر الأثر فى تدهور الأوضاع الإجتماعية ، وكذلك النقمة على هذا الفكر ومحاولة الخروج عليه . يقول ماندل :

(ثمة تداخل أكيد لا بل صلة سببية لامجال لإنكارها بين الأزمة الإقتصادية وتدهور الوضع الإجتماعى ، ونمو التفاوتات وشعور المواطنين بأنهم يتلقون نتائج الظلم الإجتماعى وانعدام شرعية البنى السياسية وفعاليتها)[٣].

---

(١) سقوط الماركسية (١٠٩) .

(٢) هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٨٢) .

(٣) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٤٩) .

ويقول الدلال : (إن الشعب فى الاتحاد السوفييتى قسمان : (حزبى ولاحزبى . الأول له امتيازات لايحصل عليها الثانى . إذن اللاحزبى سيحقد على الحزبى ، والحزب أقسام كثيرة تبدأ من النصير إلى الملتزم مرورا بالتدرج الحزبى إلى اللجنة المركزية إلى رئاسة الحزب .

كل ذى رتبة حزبية له حق الآمرية على من هو دونه رتبة فى الحزب وفى كثير من الحالات يسخره له بما يشاء ، وترى كل مرتبة تحقد على من فوقها!! وهذا رأيناه بأم أعيننا ولم يحدثنا به أحد!! إن المحصلة لكل ذلك هى تعاظم الكبت الذى يؤدى إلى الانفجار ، حتى إذا مالاحت الفرصة للتعبير عن ذلك انطلقت الحمم فى كل اتجاه . داخل الحزب وخارجه ، ولكن انطلاقها خارج الحزب أشد لأنها أوسع شعبية ، ولأن الجماهير أكبر إحساسا وتألما بالظلم وعدم المساواة . لقد وقع ذلك فى الاتحاد السوفييتى ودول أوروبا الشرقية فسارت الجموع تصرخ بلاوعى وبوعى ، وكأنها خرجت من قمقم ، أين الضابط فى هذه المسألة؟ ماهى العدالة التى تحقق المساواة وترفع الظلم؟ إنها العدالة المتساوقة مع السنن الربانية)(١).

والنظام الذى يتساوق مع السنن الربانية هو الإسلام الذى لايضيره بقاء هذه الطبقات ، ولكنه لايجعلها مصدر ظلم أو تفاضل ، فالإسلام يحرص على المساواة والعدل ، ومنع الظلم ويقيم العلاقات الحسنة بين الحاكم والمحكوم ، والغنى والفقير ، والسيد والعبد ، والتفاضل إنما هو بالتقوى . قال تعالى : {**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**}(٢).

الحادى عشر : أن التفاوت الطبقى أمر واقع ملازم لطبيعة الإنسان لتفاوت هذه الطبيعة فى الإمكانيات والقدرات المادية والعقلية ، فالقضاء على هذا التفاوت أمر غير ممكن فتلك سنة الحياة ، فالبشر ليسوا كلهم سواء كما تفترض الشيوعية . فيتفاوتون فى المواهب والمزايا الخاصة ، ويتبع ذلك الثروة والمال قال تعالى : {**أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم**

---

(١) الإنهيار (١/٣١-٣٢) .
(٢) سورة الحجرات : (١٣) .

في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا}[١].

ومن هنا يبدو استحالة تحقق هذا المبدأ فى المجتمع[٢].

وهذا لايدل على أن الفروق الذاتية يعول عليها فى دين الله تعالى لا بل الإسلام يعتبر الناس سواسية وأكرمهم أتقاهم لله ، بغض النظر عن وضعه وثروته ، فالإسلام يقر هذا التفاوت ولايحكم على الفضل من خلاله .

فهم سواسية كأسنان المشط . يقول صلى الله عليه وسلم : "إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع ويتركون على الشريف والذى نفسى بيده لو فاطمة فعلت ذلك لقطعت يدها"[٣].

ومع ذلك لايفرض المساواة الكاملة بين الناس فى الدخول ، كيف وهم لايتساوون فى الاستعدادات الجسمانية والعقلية والنفسية . قال تعالى : {**والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون**}[٤].

ثم إنه يجعل التمايز فى الدخول ابتلاء واختبارا {**وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم**}[٥])[٦].

الثانى عشر : ثم يقال ماهو الدافع الذى ذكره ماركس لتقسيم المجتمعات إلى طبقتين متصارعتين . إنه الإقتصاد مع أن هذا لايسلم فإن هذا الصراع الطبقى قد يكون سببه الإقتصاد ، وقد يكون سببه السياسة ، وقد

---

(١) سورة الزخرف : (٣٢) .

(٢) انظر : إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (١٨١) ، الاتجاهات الفكرية المعاصرة (١٨٩) .

(٣) البخارى بفتح البارى (٨٦/١٢) كتاب الحدود ، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع .

(٤) سورة النحل : (٧١) .

(٥) سورة الأنعام : (١٦٥) .

(٦) انظر الاتجاهات الفكرية المعاصرة (١٨٩) .

يكون سببه الدين ، وقد يكون سببه الجيش[١].

الثالث عشر : أن ماركس قد اعتبر هذا الصراع صراعا ثوريا عنيفا بين العمال والرأسماليين ، ولكن هذا غير صحيح ، فإن الواقع المشاهد يدل على أن العامل فى النظام الرأسمالى قد حقق الكثير من حقوقه السياسية والإقتصادية والإجتماعية .

الرابع عشر : أن التاريخ عرف صراعا غير ماذكره ماركس ، فالتاريخ يبين لنا أن الصراع داخل الطبقات لايبدو دائما صراعا بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا . ففى بريطانيا مثلا نجد الطائفة العالية الماهرة من الطبقة العاملة Skilled Workmen كثيرا ماتقوم بمقاومة مطالب جمهور صغار العمال ، وكثيرا مايكون الصراع بين العمال وأرباب العمل من جهة ، وبين المستهلكين الذين يشكون ارتفاع أسعار الحاجيات من جهة أخرى ، كذلك الصراع بين القوميات أو مختلف الأمم[٢].

ويضاف إلى ذلك الصراع بين رجال الصناعات وأصحاب الأملاك الزراعية ، فهذا الصراع يبدو فى صورة نزاعات برلمانية بين حزب المحافظين والأحرار فى بريطانيا مثلا . فكل منهما يعمل على حمل البرلمان الانجليزى الموافقة على قوانين ضد مصالح فريق الحزب الآخر ، وذلك لصالح الطبقة العاملة ليكسب تأييدها ، وفات ماركس الصراع الشديد بين الدول الرأسمالية بسبب المنافسة الخارجية حول المستعمرات (مناطق النفوذ)[٣].

فهذا الأمر الأول المتعلق بإلغاء الطبقات وإقامة طبقة البروليتاريا وقد تبينا بطلانه وعدم تحققه ، بل إن الواقع السوفييتى كان من أكثر المجتمعات البشرية فى هذا العصر طبقية ولاغرابة لوجود الدكتاتورية والتسلط .

---

(١) انظر الإسلام ومبادىء نظام الحكم (٢٣٠) ، د. عبد الحميد متولى ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) انظر المرجع السابق (٢٣٣-٢٣٤) .

(٣) انظر المرجع السابق (٢٣٤-٢٣٥) .

وبذلك ينهار هذا المبدأ ويتبين فساد النظرية الماركسية ، لأن ماركس عول كثيرا على هذا المبدأ .

ويرى الشيوعيون أن القضاء على الطبقات سيؤدى إلى تحقيق المساواة بين الناس . ونأتى لبيان بطلان ذلك الزعم .

ثانيا : المساواة نقض دعواهم :

ومن الأمور التى قالت بها الشيوعية تحقيق المساواة ، فإذا زالت الطبقات من المجتمع عاش الناس سواسية ، ولن تتحقق هذه المساواة إلا إذا تم القضاء على الملكية الفردية التى هى سبب الشرور والظلم كما زعم الشيوعيون ، ويرون أن المساواة تنصرف بادىء ذى بدء إلى الأجور ، حيث أعلنوا أنه لابد من التساوى فيها ، وأشار لينين إلى أنه ينبغى أن ينظم الإقتصاد الوطنى : (على أن لاتزيد رواتب الخبراء الفنيين والمراقبين والمحاسبين ، شأنهم شأن جميع الموظفين ، عن "أجرة العامل" ، وذلك تحت رقابة وقيادة البروليتاريا المسلحة ـ هذا هو هدفنا المباشر)(١).

إن قضية المساواة فى الأجور وغيرها أمر يتعارض مع الفطرة الإنسانية وبالتالى فلايمكن تحققه وهو زعم باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : أن هذه النظرية تعارض الفطرة الإنسانية حيث إنها (تصادم الطبيعة البشرية المتفاوتة بين الناس فى الحلقة ، وفى القوى والخصائص ، التى ركب الله عليها الإنسان ، فإن الناس خلقوا مختلفين فى عقلياتهم ، وعواطفهم ، وإحساساتهم ، وتركيب أجسامهم ، والقوى المادية التى يتمتعون بها ، وإنتاجهم ، فكيف إذن نريد أن نسوى بينهم فى كل شىء وقد خلقهم الله متفاوتين؟)(٢).

---

(١) الدولة والثورة (٥٣) .

(٢) الماركسية بين النظرية والتطبيق (٨٣) .

الوجه الثانى : أن فى هذه الدعوة فتحا لباب الكسل حيث يستلزم (إما تقليل جهود المجدين ، وإما اقتطاع الجزء الذى يزيدون به على الخاملين . وكلا الأمرين غير سليم ، لأن تقليل جهود المجدين يفوت على الأمة ربحا مؤكدا ، ويقلل الإنتاج فيها ، وأما اقتطاع الزائد من دخلهم فهذا يضعف رغبتهم فى العمل ، وليس هذا من العدل فى شىء)[١].

ونتيجة لمحاولة تطبيق هذا المبدأ شاعت روح الخمول والكسل فى الدولة السوفيتية (وشعر المسؤولون بنقص الإنتاج يهدد الدولة بالمجاعة والإنحلال ، ولم ينفع معه إشراف ولاإرهاب ، مما جعل ستالين يقرر هذا فى صراحة فى مؤتمر عقد سنة ١٩٣١م لرجال المال والإقتصاد المشرفين على الإنتاج فى البلاد ويقول : "إن سير التقدم قد تعثرت خطاه نظرا للطريقة التى يسير عليها العمال من إهمال وتكاسل" .

وأرجع ستالين ذلك إلى فكرة المساواة فى الأجور التى انقلب عليها بعد أن قامت الدولة على أساسها ويقول : "إذا أردنا المقدرة الصناعية فلابد أن يكون الأجر على درجات تحدد الفروق بين العامل الحاذق وغير الحاذق تحديدا دقيقا ، ويجب أن يرفع الأجر لابحسب حاجة العامل ، بل بحسب ماأتم من عمل" .

وفى سنة ١٩٣٤م قال : "إن هؤلاء القوم يحسبون أن الإشتراكية تستلزم المساواة فى مطالب العيش لكل فرد من أفراد المجتمع ، ألا ماأسخفه من رأى يخرج عن فكرة مهوش شتيت ، إن المساواة التى نادوا بها أضرت صناعتنا أكبر الأضرار)[٢].

لقد رأى العمال فى الاتحاد السوفييتى (أن نتيجة العمل واحدة ، فالمجتهد مثل الكسول فى الأجر والذى يفنى زهرة حياته وعصارة أفكاره ، كالذى يعمل عملا بسيطا لايبذل فيه أى مجهود . والنتيجة واحدة مادام

---

(١) حكم الإسلام فى الإشتراكية (٦٩) ، وانظر الشيوعية وموقف القرآن الكريم منها (١٧٣) .

(٢) نقلا من كتاب الماركسية بين النظرية والتطبيق (٨٤) .

الكل يأخذ حسب حاجته ، وإن لم يعمل مايتناسب مع هذه الحاجة!!

فهل ينتظرون من مثل هذا المجتمع الذى يظله هذا المبدأ أن يعمل ويجد؟! إن الذكى يجد نفسه كالغبى ، وربما أقل ، والعملاق كالقزم ، وربما أسوأ ، فهل تنتظر من الذكى أو العملاق أن يستغل ذكاءه وقوته فى خدمة الدولة؟ كلا!! إن الدولة كلها لتسير فى هذه الحالة بقوة أضعف وأغبى رجل فيها ، وسوف تفقد الكفايات ، وتفقد العمالقة ، ويموت فيها العباقرة . ولاغرابة فى هذا ، فالقانون الذى يصادم الطبيعة البشرية هو الذى يسود ويتحكم فى الناس)[١].

الوجه الثالث : أن واقع الاتحاد السوفييتى يدل على وجود التفاوت الشديد فى الدخول .

فمثلا (طبقة المفكرين وعددها نحو ١٣٪ من السكان ولها نحو ٣٢٪ من دخل الدولة وطبقة الصناع ولها من الدخل القومى ٣٢٪ وطبقة الزراع وعددها ٥٤٪ ، ولها من الدخل ٣٢٪ ، وطبقة المسخرين الذين لم يرضوا بالشيوعية وعددها ٩٪ ولها من الدخول ٣٪ . لقد عجز الشيوعيون عن تطبيق المساواة فى المال ومايزال الناس كما أراد الله لهم متفاوتين فى الدخول ، منهم الغنى والفقير والمكثر والمقل ...)[٢].

وبالتالى فإن الفوارق فى المجتمع الشيوعى موجودة كوجودها فى المجتمع البورجوازى أو أشد[٣].

ثم إن مبدأ المساواة لايمكن تطبيقه مع وجود الملكية الفردية!! والشيوعية ومنذ سنواتها الأولى أقرت جوانب عديدة منها ، وهذا الإقرار وإن كان جزئيا ينفى أن يكون مبدأ المساواة ممكن التحقق فى عالم الواقع .

---

(١) الماركسية بين النظرية والتطبيق (٨٤) .

(٢) الشيوعية وموقف القرآن الكريم منها (١٧٢-١٧٣) ، وانظر : الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٥٦) ، الإنسان بين المادية والإسلام (١٣١) ، وذكر أن طبقة المهندسين لها امتيازات خاصة عن غيرها .

(٣) انظر أسس الإقتصاد (٨٥) .

الوجه الرابع : أن الواقع يرفض تطبيق هذا المبدأ نظرا لتفاوت الناس فيما بينهم فى أمور كثيرة فهى دعوى زائفة لايمكن تطبيقها .

يقول اليكس كاريل : (وهناك غلطة أخرى تعزى إلى اضطراب الآراء فيما يتعلق بالإنسان والفرد ، وتلك هى المساواة الديمقراطية ... إن هذا المذهب يتهاوى الآن تحت ضربات تجارب الشعوب ، ومن ثم فإنه ليس من الضرورى التمسك بزيفه . إلا أن نجاح الديمقراطية قد جعل عمرها يطول إلى أن يدعو للدهشة . فكيف استطاعت الإنسانية أن تقبل مثل هذا المذهب لمثل هذه السنوات الطويلة؟ إن مذهب الديمقراطية لايحفل بتكوين أجسامنا وشعورنا.. إنه لايصلح للتطبيق على المادة الصلبة وهى الفرد .. صحيح أن الناس متساوون ، ولكن الأفراد ليسوا متساوين ، فتساوى حقوقهم وهم من الأوهام .. ومن ثم يجب ألا يتساوى ضعيف العقل مع الرجل العبقرى أمام القانون ... كماأنه لاحق للأغبياء المجردين من الذكاء ، ومشتتى العقل غير القادرين على الانتباه أو بذل الجهد ، فى الحصول على التعليم العالى ... ومن خطل الرأى أن يعطوا قوة الانتخاب نفسها التى تعطى للأفراد مكتملى النمو ... كذلك فإن الجنسين لايتساويان ، فإهمال انعدام المساواة أمر خطر جدا .. لقد ساهم مبدأ الديمقراطية فى إنهيار الحضارة بمعارضته نحو الشخص الممتاز ... إذ من الواجب احترام مبدأ عدم تساوى الأفراد ، صحيح ، أن المجتمع العصرى بحاجة إلى القوى والصغير والمعتدل والمتوسط ولكن يجب ألانحاول تربية الطبقات الأسمى بنفس الوسائل التى نستخدمها فى تربية الطبقات الأسفل .. لقد أدت مساواة الناس طبقا للمثل الأعلى للديمقراطية إلى تغلب الضعفاء ففى كل مكان يفضل الضعفاء على الأقوياء ولهذا يتلقون كل مساعدة وحماية ، وكثيرا مايكونون موضع الإعجاب وهم ، كالمريض والمجرم والمجنون يستدرون عطف الجمهور .

إن مبدأ المساواة ، وحب الرمز ، واحتقار الفردية مسئولة إلى حد كبير عن إنهيار الفردية ، ولما كان من المستحيل الارتفاع بالطبقات الدنيا ، فقد كانت الوسيلة الوحيدة لتحقيق المساواة الديمقراطية بين الناس هى

الانخفاض بالجميع إلى المستوى الأدنى . وهكذا اختفت الشخصية)[١].

إن التطبيق الفعلى لهذه المساواة ترفضه فطرة الإنسان إذ أن كل إنسان له من الرغبات والميول مايختلف عن الآخر . يقول الجنيدل : إن (هذه المساواة التى يلهجون بها لاوجود لها من الناحيةالتطبيقية ، بل هى مجرد أوهام زينتها أفكارهم الآسنة ، وذلك أن الله لما خلق البشر جعلهم يتفاوتون فى القوى الجسمية والاستعدادات العقلية ، وهم فى الوقت نفسه يتفاوتون فى إشباع حاجاتهم . فالمساواة بينهم مستحيلة الوقوع لوفرضنا جدلا أن الدولة تستطيع أن تساوى بين الأفراد فى حيازة المال والسلاح فإنها لايمكن أن تساوى بينهم فى فطرة كل منهم واستهلاكه فبعضهم يستنفده وبعضهم يختزنه وهكذا وهذه إرادة الله فى خلقه فى التفاوت بينهم)[٢].

الوجه الخامس : اعترافهم بأن من أسباب التأخر والتكاسل وقلة الإنتاج ورداءته مبدأ المساواة ، ومر معنا قول ستالين ورفضه لهذا المبدأ[٣].

وجاء فى كتاب النظم الإقتصادية المعاصرة عن الشيوعيين قولهم :

(لاينبغى أن يفهم من ذلك أننا نهدف إلى خلق جيل من المواطنين يتساوون إقتصاديا فى كافة الأمور ، فالمساواة التامة تهدر الطبيعة بين الناس والناس مختلفون فى قدراتهم الإنسانية وبالتالى يختلفون فيما تعكسه هذه القدرات من آثار على كل منهم ، فالمساواة لاتهدف إلى طبع الناس جميعا بطابع واحد ، ورسمهم بصورة متشابهة تماما .

وإنما المساواة الحقة هى حماية الفوارق الطبيعية بين الناس ، ومصادرة الحواجز البيئية المصطنعة . ومعنى هذا أن تقوم الحياة المادية فى ظل الإشتراكية على أساس تذويب الفوارق المادية بين الطبقات وانعدام الإنقسامات الإقتصادية التى تحول دون إنطلاق القوى الفردية الخلاقة ،

---

(١) الإنسان ذلك المجهول (٣٠٦-٣٠٧) .

(٢) التملك (١٤١) .

(٣) راجع (١٠٥٩) .

وبروز الكفايات الطبيعية والاستعدادات الفنية والعقلية بين الجماهير)[١].

الوجه السادس : الاختلافات الشديدة بين الناس وكذلك ماحواليهم من أوضاع كلها دالة على أن قضية المساواة لاتستقيم . يقول برنارغروتويزن:

(إن الطبيعة تتحلل إلى تنوع غير متناه ، وهى أبدا متموجة ومختلفة فى كل لحظة عن نفسها "مامن ذرة تشبه ذرة أخرى ومامن ذرة تشبه نفسها لحظة واحدة" وكذلك الأمر فى حياة الناس ، "ففى كل قارة يختلف قطر عن الآخر ، وفى القطر الواحد اختلاف كل ولاية عن الأخرى ، ثم اختلاف كل مدينة عن أختها فى الولاية ، واختلاف أسرة عن أسرة فى المدينة الواحدة ، وفى الأسرة الواحدة يختلف كل فرد عن الآخر ، وفى الفرد نفسه يكون لكل لحظة سيماؤها وتعبيرها" وليس فى الجنس البشرى كله شخصان بينهما أدنى تماثل ، وفى الحقيقة لن يصل إنسان أبدا إلى تفهم إنسان آخر ، وإننا لنلاحظ بعض الفوارق بين أحكام الناس ، لكن هناك فروقا لانراها هى أكثر ألف مرة مما نرى ، فلكل امرىء طريقته فى الرؤية ، وكل إنسان يرى الأمور ويرويها بشكل يختلف فيه عن سواه ، وكل فرد يبدل وجهة نظره باستمرار . والنفس ذاتها لاتشبه نفسها فى مراحل الحياة المختلفة ، فكل شىء يتبدل باستمرار فى الشخص الواحد نفسه)[٢].

ويقول اليكس كاريل : (يميز الأفراد كل منهم عن الآخر بسهولة بواسطة تقاطيع وجوههم ، وإشاراتهم ، وطريقتهم فى المشى ، وصفاتهم العقلية والأدبية الخاصة ... وكذلك فإن خطوط أطراف الأصابع مميزات قاطعة للفرد ومن ثم فإن بصمات الأصابع هى التوقيع الحقيقى للإنسان)[٣].

وبعد أن سرد الاختلافات وتميز كل إنسان عن الآخرين قال : (وهكذا فإن لكل إنسان تاريخا يغاير الآخرين جميعا)[٤].

---

(١) (٢٣٨-٢٨٤) ، وانظر نشوء وإنهيار الامبراطورية الشيوعية (١٢٤-١٢٥) .
(٢) فلسفة الثورة الفرنسية (٣٠-٣١) ، وانظر (٣٤-٣٥) .
(٣) الإنسان ذلك المجهول (٢٧٢) .
(٤) المرجع السابق (٢٧٦) ، وانظر (٧٧٧-٧٧٨) .

الوجه السابع : يدعون مساواة المرأة بالرجل ، فيقول لينين :

(إن وضع المرأة يبين بوضوح خاص الفرق بين الديمقراطية البرجوازية والديمقراطية الإشتراكية ، ويجيب بصورة واضحة عن السؤال المطروح إن المرأة لاتنال كامل الحقوق فى أية جمهورية بورجوازية "أى حيث تقوم الملكية الخاصة للأرض ، والمصانع ، والمعامل ، والأسهم ...الخ) حتى ولو كانت أوفر الجمهوريات ديمقراطية ولافى أى مكان فى العالم ، حتى ولافى أى بلد من أكثر البلدان تقدما . وهذا بالرغم من مضى أكثر من قرن وربع قرن على الثورة الفرنسية الكبرى (البورجوازية الديمقراطية) .

إن الديمقراطية البرجوازية تعد ، قولا ، بالمساواة والحرية . أما فعلا فإن أية من الجمهوريات البرجوازية ، حتى أكثرها تقدما ، لم تمنح نصف البشرية النسائى ، بحكم القانون ، المساواة التامة مع الرجال ، ولاالحرية من وصاية الرجال واضطهادهم .

إن الديمقراطية البورجوازية هى ديمقراطية التعابير المفخمة ، والأقوال المهيبة ، والوعود الطنانة ، والشعارات المضخمة عن الحرية والمساواة ، ولكنها تخفى ، بالفعل ، انعدام الحرية والمساواة للنساء ، وانعدام الحرية والمساواة للشغيلة والمستثمرين .

إن الديمقراطية السوفيتية ، أو الإشتراكية ، تكنس التعابير المفخمة والكاذبة ، وتعلنها حربا لاهوادة فيها على رياء (الديمقراطيين) ، الملاكين العقاريين ، الرأسماليين ، أوالفلاحين المتخمين الذين يسمنون من المضاربة على فوائض الحبوب ، على حساب العمال الجياع وفليسقط هذا الكذب الشنيع! فلايمكن أن تكون ، ولم تكن قط ، ولن تكون يوما(مساواة) بين المضطهدين ، والمضطهدين بين المستثمرين ، والمستثمرين ولايمكن أن تكون ، ولم تكن قط ، ولن تكون يوما (حرية) حقيقية طالما لم تتحرر المرأة من الامتيازات التى يكرسها القانون للرجل ، وطالما لم يتحرر العامل من نير الرأسمال ، طالما لم يتحرر الفلاح الكادح من نير الرأسمالى والملاك

العقارى والتاجر)[١].

فكما يظهر من هذا النص ، نرى أنهم يدخلون فى مبدئهم هذا حتى النساء ، ويساوون المرأة بالرجل وهذا يتعارض مع خلق المرأة وتكوينها مقارنة بالرجل .

(أ) الاختلاف فى التكوين الجسمانى ، بل وفى أدق جزئيات ذلك التكوين . يقول اليكس كاريل : (إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لاتأتى من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، ومن وجود الرحم والحمل ، أومن طريقة التعليم . إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك .. إنها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محددة يفرزها المبيض ، ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليما واحدا ، وأن يمنحا قوى واحدة ومسؤوليات متشابهة ، والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيرا عن الرجل فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها ... والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها . وفوق كل شيء ، بالنسبة لجهازها العصبى ، فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين مثل قوانين العالم الكوكبى ... فليس فى الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها . ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هى . فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعا لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الذكور ، فإن دورهن فى تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال ، فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة)[٢].

(ب) **دعوى مساواة المرأة للرجل تأباه الفطرة السليمة والعقول السوية :**

وذلك لـ(تنوع الخصائص والاستعدادات الفطرية ومقتضياتها : على الرغم من كل الزوابع المصنعة ، التى يجلب رياحها وموادها ويثيرها أعداء الإسلام ، حول موضوع المرأة وحقوقها ومساواتها بالرجل مساواة تامة ، يجد الباحثون عن أحوال المرأة فى الإسلام صورا رائعة من صور العدل

---

(١) مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (٣٢-٣٣) .
(٢) الإنسان ذلك المجهول (١٠٨-١٠٩) .

والتكريم والإنصاف ، فلم يحرمها الإسلام حقا يقتضيه تكوينها الفطرى ، ولم يكلفها واجبا لاتطيقه ، ولم يبعدها عن دائرة المسؤولية الشخصية والمسؤولية الإجتماعية ، ولم يجعلها بمعزل عن التمتع بالحقوق المدنية التى تؤهلها لها استعداداتها الفطرية الذاتية ، وظروفها الإجتماعية .

إلا أنه لما كان للمرأة طائفة من الخصائص الجسدية والنفسية ، تخالف فيها من بعض الوجوه الخصائص الجسدية والنفسية الممنوحة للرجل بوجه عام ، كان من كمال نظام الإسلام أن يلاحظ هذه الخصائص ، ويقرر لها طائفة من الأحكام تناسبها ، لأن التسوية فى الأحكام من كل وجه مع الاختلاف فى الخصائص نقص لاترتضيه العقول السليمة ، فضلا عن أن تقبل به الشرائع الربانية الحكيمة . ومن يلتزم هذه التسوية من كل الوجوه طردا وعكسا ، يجب عليه حينما يضع الأنظمة الوضعية ، أن يقرر منح الرجل إجازة أبوة كما يقرر منح المرأة إجازة أمومة ، وأن يلغى فى التعليم مبدأ التخصص بحسب الاستعدادات الفطرية ، ويجعل النساء والرجال جميعا شركاء فى الفنون النسوية ، وفى صناعات الحدادة والنجارة والأعمال الثقيلة الشاقة ، وأن يحمل المرأة مسؤولية الكسب والنفقة كما يحمل الرجل ، ويحمل الرجل مسؤولية إرضاع الأطفال وتدبير شؤونهم ، وأن يهمل القوامة فى الأسرة ويجعلها نزاعا مستمرا بين الرجل والمرأة ، أو يجعلها على التناوب اليومى أو الأسبوعى أو الشهرى أونحو ذلك من الأمور التى تضطرب فيها الحياة ، ويفسد فيها نظام المجتمع الإنسانى وجماله .

إن فكرة التسوية التامة فى كل الأمور بين الرجل والمرأة ، قد يروج لها مضلل يحاول أن يفسد أوضاعا إجتماعية سليمة ، ولكن لايطبقها على نفسه أو أمته إنسان عاقل يفهم الخير ، ويريده لنفسه ولأمته)[١].

وقد اعترف بعض العلماء السوفييت بعدم تحقق تلك المساواة بين الرجل والمرأة رغم كل مابذلته الدولة من أجل ذلك حيث قال أنطون نميلاف Anton Nemilov وهو شيوعى خالص العقيدة ، من علماء الطبيعة :

(إذا قيل فى هذه الأيام : إن المرأة يجب أن تمنح فى دائرة التمدن حقوقا محدودة ، لم يؤيده من الرجال إلا الأقل . ونحن بأنفسنا ممن يخالفون

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة (٥٦٢-٥٦٣) .

هذا الرأى . ولكن ينبغى ألا نخدع أنفسنا بزعم أن إقامة الرجل والمرأة فى الحياة العملية أمر هين ميسور . الحق أنه لم يجتهد أحد فى الدنيا لتحقيق هذه المساواة بين الصنفين ، مثل ماجتهدنا فى روسيا السوفيتية . ولم يوضع فى العالم من القوانين السمحة البريئة من التعصب ، فى هذا الباب مثل ماوضع عندنا . ولكن الحق ، مع ذلك كله ، أن منزلة المرأة قلما تبدلت فى الأسرة...)[1].

ويقول : (لايزال تصور عدم مساواة الرجل والمرأة - ذلك التصور العميق - راسخا ، لافى قلوب الطبقات ذات المستوى الذهنى البسيط ، بل فى قلوب الطبقات السوفيتية العليا أيضا . بل النساء أنفسهن قد بلغ من تأثير هذا التصور فى نفوسهن ، أنهن إذا عوملن معاملة المساواة الكاملة مع الرجال ، يعددن ذلك حطا من مكانة أولئك ، ويجدن لهم فيه معانى التخنث ولو أننا نتتبع فى هذا الأمر أفكار عالم طبيعى أو مصنف أو طالب أو تاجر أو شيوعى خالص العقيدة ، لانكشف لنا عن غير بعد ، أنه لايرى المرأة كفئا له أو ندا يماثله ، وكذلك إن نظرنا فى رواية من الروايات العصرية ، مهما كان مبلغ كاتبها من حرية الفكر ، فلابد أن تقع فيها على عبارات تنم على هذا التصور بشأن المرأة ...

[و]السبب فى ذلك أن المبادىء الإنقلابية تصطدم فى هذا النظام بأمر واقع هام ، هو أنه لامساواة بين الجنسين باعتبار علم الأحياء (Biology) ولم تكلفهما الفطرة بأعباء سواء)[2].

وقد قرر الإسلام فضل الرجل على المرأة . قال تعالى : {**بما فضل الله بعضهم على بعض**}[3].

---

(١) The Biologicol Tragedy of Woman
وقد أثبت فى كتابه هذا فى حوالى مئتى صفحة منه عدم المساواة الفطرية بين المرأة والرجل بتجارب العلوم الطبيعية ومشاهداتها ونشرت ترجمة هذا الكتاب باللغة الانجليزية فى لندن ١٩٢٣م . نقلا من كتاب الحجاب (٢٢٩) .

(٢) نقلا من كتاب الحجاب (٢٢٩-٢٣٠) .

(٣) سورة النساء : (٣٤) .

وهـذا الذى قرره الإسلام ، وهو الفرق بين الرجل والمرأة تدل عليـه مختلف العلوم .

(فهذا علم الأحيـاء (Biology) قـد أثبتـت بحوثه وتحقيقـاته أن المرأة تختلف عن الرجل فى كل شىء من الصورة والسمت والأعضاء الخارجية إلى ذرات الجسـم والجواهـر الهيولينيـة (البروتينية) لخلاياه النسيجيـة فمـن لدن حصول التكوين الجنسى فى الجنين ، يرتقى التركيب الجسـدى فى الصنفين فى صورة مختلفة . فهيكل المرأة ونظـام جسمهـا يركـب كلـه تركيبـا تستعـد به لولادة الولد وتربيته . ومـن التكـوين البدائى فى الـرحم إلى سـن البلـوغ ، ينمـو جسم المرأة وينشأ لتكميل ذلك الاستعداد فيها . وهـذا هو الذى يحدد لها طريقها فى أيامها المستقبلة)[١].

وقد كانت القسمة بين الرجل والمرأة بما يتناسب مع تكوينهم :

فـ(١) إلى الـرجل تكون عيالة الأسـرة ورعايتها وحمايتهـا ، والقيـام بما هو عسير وشـاق مـن خدمات التمـدن فيكون تعليمه وتربيتـه على النحـو الذى يجعله أنفع مايكون لهذه المقاصد .

(٢) وإلى المرأة تكـون تربية الأولاد وواجبات البيـت ، والعمل على جعل الحيـاة المنزلية بحبوحة أمـن ودعة وراحة . فتحلى بأحسـن مايكون من التربية والتعليم لأجل قيامها بهذه الخدمات .

(٣) ولاستبقاء نظام الأسرة ووقايته من الفوضى والشتـات ، لابد أن يجعل لأحد أفـراد الأسـرة الحكـم والأمـر على سـائرهــم ، فى ضمـن حدود القـانون ، حتى لاتظل الأسـرة كقطيع من الغنم بلاراع . وذلـك الفـرد الآمـر لايمكـن أن يكون مـن غير صنـف الرجال . لأن عضـو الأسـرة الـذى تكون حالته العقلية والنفسية عرضة للتغير ، مـرة بعد أخرى ، فى أيام المحيض وفى زمان الحمل ، لايصلح أبدا لاستعمال سلطة الحكم والأمر .

---

(١) الحجاب (٢٠٣) .

(٤) يجب أن تقرر فى نظام التمدن التحفظات اللازمة لإدامة هذه القسمة والتنظيم فى وظائف أفراد الأسرة ، حتى لايستطيع السفهاء أن يخلطوا بحماقتهم بين دوائر أعمال الرجل والمرأة ، فيدخلوا الفوضى على هذا النظام التمدنى الصالح)[١].

وقبل هذا فإن الله تعالى هو الذى خلق الخلق ، وهو أعلم بما يصلحهم ويحقق لهم مصالحهم . فعدم المساواة بين المرأة والرجل (لايعد كسرا لمبدأ المساواة ، بل لكل امرىء ـ من الرجال والنساء وفق قدرته الجسدية وقدراته مكانة عند الله ، وهو مالايعد دليلا على عدم المساواة بينهما فى الحقوق والواجبات ، كما أن الضرورة القاضية باختلاف أفراد الأمة إلى حاكم ومحكوم لاتعنى نفى المساواة أيضا ، مادامت المساواة قائمة فى أصل الحرية والكرامة الإنسانية)[٢].

إن دعوة مساواة المرأة بالرجل دعوى مغرضة ، تنم عن نفسية حاقدة على كل فضيلة ، وفرق بين الدعوة إلى مساواتها فى العدل والتكريم والإنصاف ، وأمور الفطرة ، والدعوة إلى مساواتها فى كل شيء مع الرجل فقد جعل الله تعالى لكل واحد منهما مجال اختصاصه[٣].

وقد اعترف المفكرون السوفييت بأنه على الرغم مما فعله السوفييت من أجل تحقيق قضية المساواة لم يؤت ثماره[٤].

<u>الوجه الثامن</u> : تراجعهم عن هذا المبدأ ، وإعلان التفاوت فى الأجور وقد سجل ذلك الدستور السوفييتى حيث ينص على أنه : (يؤخذ من كل وفقا لكفايته إلى كل وفقا للعمل المنجز)[٥].

---

(١) الحجاب (٢١٧-٢١٨) .
(٢) ضمانات الحرية (١٢٤) .
(٣) انظر أجنحة المكر الثلاثة (٥٦٢-٥٦٣) .
(٤) انظر الحجاب (٢٢٨-٢٢٩) ، وانظر (٢٣٠،٢٦٠-٢٦١) .
(٥) الدستور السوفييتى (٤٤٨) ، فؤاد شبل ، نقلا من كتاب الماركسية بين النظرية والتطبيق (٨٥-٨٦) .

فانقلب الشيوعيون على هذا المبدأ نظرا لاصطدامه مع الواقع وإثارة السلبية على العملية الإقتصادية .

الوجه التاسع : أن الشيوعية حاولت فرض نظام المساواة بالقوة ، ومع ذلك فإن واقع النظام دلل على أن هذا مخالف للفطرة الإنسانية ، فلم يكن العامل يحصل على نفس أجر المهندس ، ولم يكن أجر الجندى كأجر الضابط (ثم جاء اليوم الذى انهارت فيه المساواة حتى فى صفوف العمال أنفسهم ، بعد أن كانت منهارة مابين العمال وغيرهم من العاملين)[١].

فكان واقع الاتحاد السوفييتى مكذبا لهذا المبدأ.

إذ أنه (فى سنة ١٩٤٣م كان يدفع للجندى الروسى ١٠ روبلات فى الشهر مقابل ١٠٠٠ روبل يتقاضها الملازم ، هذا بينما كانت نسبة راتب الجندى إلى الضابط فى الجيش البريطانى إلى ٤ ، وفى الجيش الأمريكى إلى ٣ ولكنها كانت فى الجيش الأحمر إلى ١٠٠ ، وهذه النسبة لم تتغير إلى يومنا هذا أما البزات العسكرية فمختلفة ، والجندى الروسى لايلبس مايلبسه الضابط ، بل إن مرسوم ٦ يناير/كانون الثانى ١٩٤٣م قد أعاد للضباط الشريط المقصب - اسبليطة - الذى كان يوضع على كتف السترة العسكرية للضباط فى العهد القيصرى ، والذى كان الشيوعيون قد ألغوه والضباط الروس بعد هذا تؤدى لهم التحية العسكرية من قبل الجنود ، كما أن لهم نواديهم الخاصة "والميسات" التى لايدخلها غيرهم ، ويقوم الجنود بخدمتهم أى أن مايسمى بنظام جنود المراسلة لايزال ساريا فى روسيا)[٢].

الوجه العاشر : أن النظام الشيوعى تراجع فى قضية مبدأ المساواة وأقر الفرق حسب العمل وأباح للعمال القادرين على زيادة عملهم بعمل إضافى مقابل أجر إضافى يستحقه ، وهذا الذى يتفق مع الفطرة الإنسانية ، فالذى يبذل جهدا أكبر ، لاشك أنه يرقب مردودا أعلى وهكذا ، فكيف يتساوى

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة (٤٣٤) .

(٢) الشيوعية منشأ ومسلكا (٢٠٥-٢٠٦) .

الناس فى الأجور وهم يتفاوتون فى مقدار مايبذلون ، إن هذا لايرضى أدنى الناس عقلا ، ناهيك عن من استنار وعيا ومن قبل دينا . يقول كاونتس : (لاجدال فى أن الطبقة المستنيرة الجديدة تشغل مركزا ممتازا فى المجتمع السوفييتى . فلقد ألغى الحزب منذ زمن طويل مبدأ المساواة فى الأجور ونبذه ووسمه بأنه "نزعة للمساواة فاسدة" ...)[١].

وهكذا نرى أن هذا المبدأ لم يتحقق ولايمكن تحقيقه . وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن الإسلام أقر مبدأ المساواة ، كما أقر التفاوت فى بعض الأمور نظرا لاختلاف الناس فيما بينهم .

ثانيا : أن الإسلام أقر مساواة المرأة بالرجل إلا بعض مايستثنى بسبب طبيعة المرأة وتكوينها .

ثالثا : أن مبدأ المساواة بالصورة التى أرادها الشيوعيون لايمكن تحقيقه أبدا نظرا لأنه يخالف النصوص الشرعية والمسائل الفطرية ، والحقائق العلمية التى تثبت التفاوت بين الخليقة .

رابعا : أن الدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل فى كل شىء ليس المقصود منه تكريم المرأة أو إعطائها حقوقها ، بقدر ماهى دعوة لإخراجها من دروب الفضيلة إلى الإنحطاط فى مسالك الرذيلة .

خامسا : أن الدعوة إلى المساواة فى الأجور وغيرها التى نادت بها الشيوعية لم تتحقق فى الاتحاد السوفييتى فالواقع كذب ذلك المبدأ وحكم عليه بالبطلان . وبقى التفاوت قائما فى الأجور وغيرها . وهكذا ينهار جزء مهم من أجزاء الإقتصاد الشيوعى ويتبين بطلانه وزيفه ومصادمته للواقع مما يدل على أن النظرية الماركسية كانت أفكارا خيالية بينما كانت سياط الواقع تدفعها بقوة نحو الزوال والإنهيار .

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢٢٤) .

كفالة الدولة :

اشترطت الدولة السوفيتية لكى تحقق الرخاء للمواطن أن يعمل واستبعدت من حساباتها كل العاطلين أيا كان السبب فى ذلك ، وأقامت التوزيع على مبدأين كما جاء عن منظرى الماركسية ، هما :

(أ) فى المرحلة الإشتراكية :

(من كل حسب كفاءته ولكل حسب عمله)[١].

(ب) فى المرحلة الشيوعية :

(من كل حسب كفاءته ولكل حسب حاجته)[٢].

(أ) **المبدأ الإشتراكى :**

من حيث الناحية النظرية فإن ذلك هو العدل . فكل أحد يبذل مايستطيع من الجهد فلاتكلف نفس إلا وسعها ، ثم بعد ذلك يكون الجزاء على قدر العمل .

والسمات الرئيسية للإنتاج الإشتراكى هى :

(**أولا** : أنه إنتاج جماعى يشبع حاجات المجتمع ككل ، أى إنتاج الحاجات المادية الضرورية للمواطنين ، دون تفرقة بين نصيب فئة من فئات المجتمع ، وفئة أخرى .

وثانيا : أنه إنتاج هادف وبناء على خطة مدروسة ، تضمن استخدام جميع الموارد القومية المادية والبشرية بطريقة عملية وعلمية ، لكى تحقق الخير لمجموع الشعب .

وثالثا : أن هناك أولويات فى القيام بالمشروعات الإنتاجية .

ورابعا : أن الإنتاج الإشتراكى لايهدف إلى تحقيق الربح ، بقدر مايهدف إلى إشباع رغبات المجتمع ، فى ظل الخطة الإشتراكية الموضوعة)[٣].

---

(١) المعجم (٣٦٢) .

(٢) المرجع السابق (٣٦٣) .

(٣) النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٧١) وانظر مابعدها .

ونأتى الآن لبيان بطلان وفساد ذلك المبدأ من حيث الواقع الإشتراكى.

أولا : أن (هذا المبدأ يأخذ بالتناقض مع الطبيعة اللاطبقية للمرحلة الإشتراكية ، منذ أن يوضع موضع التنفيذ . فإن الأفراد يختلفون فى أعمالهم تبعا لاختلاف كفاءاتهم ، ولنوعية العمل ودرجة تعقيده . فهذا عامل لايطيق من العمل ست ساعات ، وذلك عامل أقوى منه بنية ، يستطيع أن يعمل عشر ساعات فى كل يوم ، وهذا عامل موهوب يملك من القريحة والنباهة مايجعله يدخل تحسينات على طريقة الإنتاج ، وينتج ضعف ماينتجه الآخرون وذلك عامل لم يواته الحظ ، قد خلق للتقليد لاللإبتكار . وهذا عامل فنى مدرب يمارس إنتاج الأجهزة الكهربائية الدقيقة ، وذاك عامل بسيط لايمكن أن يستخدم إلا فى حمل الأثقال ، وثالث يعمل فى الحقل السياسى ويتوقف على عمله مصير البلاد كلها .

واختلاف هذه الأعمال يؤدى إلى تفاوت القيم التى تخلقها تلك الأعمال .

وليست هذه الألوان الصارخة من التفاوت بين نفس الأعمال ، أو القيم الناتجة عنها ، مستمدة من واقع إجتماعى معين ، بل إن الماركسية نفسها تعترف بذلك ، إذ تقسم العمل إلى : بسيط ومركب ، وترى أن قيمة ساعة عمل مركب شديد التعقيد ، قد تفوق بأضعاف قيمة ساعة من العمل البسيط)(١).

(والمجتمع الإشتراكى إذ يواجه هذه المشكلة ، لايوجد أمامه إلا سبيلان للحل :

---

(١) إقتصادنا (٢٢٨-٢٢٩) .

أحدهما : أن يحتفظ بمبدأ التوزيع القائل : (لكل حسب عمله) ، فيوزع الناتج على الأفراد بدرجات مختلفة ، وبذلك ينشىء الفروق الطبقية مرة أخرى ، فيمنى المجتمع الإشتراكى بالتركيب الطبقى بأسلوب جديد .
والآخر : أن يستعير المجتمع الإشتراكى من الرأسمالى طريقته فى اقتطاع القيمة الفائضة ، على رأى ماركس ، فيساوى بين جميع الأفراد فى الأجور)(١).

وعلى هذا الأساس فإن الشيوعية إذا طبقت هذا المبدأ تكون قد اعترفت بالطبقات والتفاوت فى الأجور ، وبالتالى أبطلت كل المبادىء المبنية على زوال الطبقات .

وإن عملت على تطبيق مبدأ المساواة فى الأجور وسوت بين العمل البسيط والمركب ، وبين العامل الموهوب ومن عداه فإنها بذلك تكون قد انحرفت وكفرت بالنظرية الماركسية ، وكلا الخيارين ضد الشيوعيين ، وقد اعترفوا بهذه التناقضات والإشكالات الواردة على هذا المبدأ(٢). ومنها مسألة الأجور حيث قالوا : (إن المفهوم الصحيح لمبدأ المساواة فى البناء الإشتراكى هو إلغاء الفوارق غير الطبيعية بين الناس ، أى إلغاء فوارق الثروة والجاه بحيث يصبح الناس متساوين ، فى الحياة الإقتصادية . ثم حماية مايظهر من كفايات طبيعية فى الذكاء والخلق والإبتكار بل وتشجيع هذه الكفايات ماديا فى صورة اختلاف فى الأجور الممنوحة للعاملين ، دون أن يؤدى ذلك إلى وجود طبقة من المواطنين تعلو أجورها جدا عن أجور الباقين .

فمن المسلم به فى ظل المجتمع الإشتراكى أن يدفع للذين يرتفع مستوى مهارتهم فى العمل أجورا أعلى من غيرهم الذين يقلون عنهم مهارة وخبرة . بل من غير المعقول أن يدفع المجتمع الإشتراكى أجورا متساوية لجميع

---

(١) إقتصادنا (٢٢٩) وانظر مابعدها .
(٢) انظر النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٧٩-٢٨١) .

العاملين ، حتى ولو اختلف مقدار النفع العام من الخدمة التى يؤديها كل منهم)(١).

ويظهر بهذا أنهم ينقضون مبدأ المساواة فى مرحلتهم الأولى ويحكمون عليه بالبطلان لأنه لايحقق العدالة المطلوبة بين العمال لوجود الفارق بينهم .

ثانيا : أن هذا المبدأ لم يطبق فى واقع الحياة فى الاتحاد السوفييتى فكان الواقع يناقضه .

يقول فارغا : (إن المبدأ النظرى للإشتراكية "من كل فرد حسب امكاناته ولكل فرد حسب عمله" .

قد أفسد منذ فترة طويلة فعمل المواطنين العاديين لايكافأ كما يجب ولو أنهم أظهروا كفاءات غير عادية ، وقاموا بمهامهم على أفضل شكل ، وبعكس ذلك فإن عمل أصحاب الامتيازات يكافأ بسخاء ، وأحيانا بتبذير حتى ولو أنهم لم يظهروا أى كفاءة خاصة ، أو أنهم كانوا مخربين بمظاهرهم ومعاملاتهم الورقية البيروقراطية وقد أوجد هذا كله تضاربا فى حياة مجتمعنا)(٢).

بل إن العمال يقومون بالعمل دون مقابل خدمة للحزب أو الدولة التى يمثلها الحزب . وبالتالى فإن مبدأ الإشتراكية ينقضه واقع الاتحاد السوفييتى حيث إن العامل لايأخذ القدر الذى ينبغى تجاه مايقدمه من عمل.

ثالثا : أن هذا المبدأ يتجاهل بقية الطبقات أو الأفراد الذين لايقدمون عملا ، وليتهم استثنوا المرضى أو أصحاب البلايا ، أو الغير قادرين على العمل بسبب العجز أو غيره . فالمبدأ عندهم أن "من لايعمل لايأكل" .

يقول البهى الخولى : (خبرونا عن ذلك المريض الذى لايستطيع أن يعمل ، ماذا سيكون شأنه؟ أيضيع حقه لأنه مريض؟ أو بعبارة أصح ، أيموت من الجوع لالشىء إلا المرض أقعده عن العمل ...؟) .

---

(١) النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٨٤) .

(٢) الإشتراكية فى التطبيق (١٠٥) ، نقلا من كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٢٧) .

(وذلك الشيخ الفانى الذى صيرته الشيخوخة إلى مثل حال المريض ماذا يكون أمره إنه غير قادر على العمل الذى هو قانون هذه المائدة ، وهو المسوغ الشرعى للأكل منها ، أيضيع حقه لأنه غير قادر على العمل الذى هو قانون هذه المائدة ، وهو المسوغ الشرعى للأكل منها ، أيضيع حقه لأنه غير قادر على العمل؟ وذلك اليتيم الضائع ، ذلك الذى نزلت به الجوانح فجأة ، فذهبت الآفات بزرعه ، أو الأوبئة بماشيته ، أو الظروف بماله وتجارته فوجد نفسه على التراب ، ماذا يكون من شأنه؟ إنها حالات تنزل صاحبها حتما فى منزلة المريض ، غيرا لقادر على شىء فما حكم هؤلاء؟)(١).

رابعا : أن هذا المبدأ يقوم على الخداع .

يقول د. البهى : إنه (شعار إنسانى جذاب وخادع .

أما أنه إنسانى جذاب : فلأن الفرد الذى يبذل أقصى جهده فى الإنتاج له ولغيره من المجتمع ، ولايأخذ منه بعد ذلك إلا بقدر مايحتاج منه فقط ، هو إنسان تمكنت فى نفسه (روح) المشاركة الجماعية ، وهى الروح الإنسانية .

وأما أنه خادع : فلأن الفرد الذى يطلب له ومنه أن يفكر بالله وبالمثل والقيم العليا ، ولايؤمن إلا بالمادة والمنفعة المادية - كما تطلب الماركسية اللينينية - يستحيل عليه أن ينتج حسب طاقته ولايأخذ مما ينتج سوى القدر الخاص بحاجته .

... يستحيل عليه أن ينتج حسب طاقته ، لأنه يعلم مسبقا أن عائد إنتاجه ليس له وحده ، وقد طلب إليه أن يؤمن بالمنفعة المادية وحدها .

وهو إذ يقدر له أجر من الدولة دون طاقته فى الإنتاج ، لايعطى إذن للدولة من العمل ومن طاقته فى الإنتاج إلا بقدر مايأخذ منها من أجر أو أقل .

(١) الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (٢٦-٢٧) .

وهنا يكون شعار العامل العملى : (العمل على قدر الأجر ، أو الإنتاج حسب تقدير الأجر ...)[١].

(عندما اتضح خداع هذا الشعار الماركسى واستحال تحقيقه فى تجربة الماركسية فى روسيا وشرق أوروبا .. استحدث النظام الشيوعى ماأسماه "بالحافز الفردى فى الإنتاج" وهو نسبة زيادة أجر العامل ، تعطى له سنويا حسب زيادته فى الإنتاج المقنن للمستوى المتوسط للعامل ، والحافز الفردى يدل على أن العامل لم يستجب لشعار الشيوعية فى نظام الماركسية اللينينية : (من كل على قدر طاقته ...) إذ لديه طاقة متوفرة لم يستخدمها فى الإنتاج بعد ، ومن ثم قدر له حافز فردى مادى آخر يدفعه إلى استخدام تلك الطاقة المتوفرة ـ بعد أداء العمل فى نظير الأجر المقدر أولا ـ فى زيادة إنتاجه)[٢].

سادسا : أن هذا المبدأ لن يكون مثمرا إلا مع وجود الوازع الدينى[٣].

وهكذا يتبين أن مبدأ التوزيع فى المرحلة الإشتراكية لم يكن بالإمكان تحقيقه لاختلافه مع الفطرة الإنسانية ، لأن كل من يبذل جهدا يريد أن يكون المردود على قدر جهده ، كما أنه يشعر بالظلم إذا كان الأقل منه عملا أو موهبة يأخذ بنفس القدر الذى يأخذه . وبعد هذا نأتى إلى المبدأ الشيوعى .

---

(١) تهافت الفكر المادى التاريخى (٤٨) .
(٢) المرجع السابق (٤٩-٥١) .
(٣) انظر الإسلام وحقوق الإنسان (٤٠٤) .

المبدأ الثانى فى التوزيع

وهو المبدأ الذى سيطبق فى المرحلة الشيوعية :

(من كل حسب كفاءته ولكل حسب حاجته) .

يقول ماركس : (فى الطور الأعلى من المجتمع الشيوعى ، بعد أن يزول خضوع الأفراد المذل لتقسيم العمل ويزول معه التضاد بين العمل الفكرى والعمل الجسدى ؛ وحين لايبقى العمل مجرد وسيلة للعيش بل يغدو الحاجة الأولى فى الحياة ، وحين تتنامى القوى المنتجة مع تطور الأفراد من جميع النواحى وحين تتدفق جميع ينابيع الثروة الجماعية بفيض وغزارة ، - حينذاك فقط ، يصبح بالإمكان تجاوز الأفق الضيق للحق البرجوازى تجاوزا تاما ، ويصبح بإمكان المجتمع أن يسجل على رايته : "من كل حسب كفاءته ولكل حسبا حاجاته")(١).

يقول كورنفورث : (والانتقال من الإشتراكية إلى الشيوعية يمكن صياغته على أبسط نحو بالقول أنه الانتقال من مجتمع يحكمه مبدأ "من كل بقدر قدرته ، ولكل بقدر عمله" إلى مجتمع يحكمه مبدأ "من كل بقدر قدرته ولكل قدر حاجته" ، فحين يتم عن طريق التطور العقلانى المخطط واستخدام التكنيك إنتاج وفرة كل شىء يحتاجه الناس ، يمكن تطبيق المبدأ الشيوعى)(٢).

وهذا مبدأ باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : أن المجتمع السوفييتى لم يصل لهذه الدرجة حيث انحرف قبل الوصول إليها وذلك لعدم إمكانية تطبيقها ، ناهيك عن أن المرحلة السابقة لها لم تطبق ، فكيف بهذه ، وهى مرحلة تكاد تكون خيالية بالنسبة لسابقتها .

---

(١) نقلا من كتاب الدولة والثورة (١٠١) .

(٢) دفاعا عن الماركسية (٣٠١) .

الوجه الثانى : أن هـذا المبدأ يعـارض الفطرة ويصادمهـا ، وذلك لأن الاختلاف وارد بين الناس فى العطاء من حيث العمل وكـذلك فى الأخذ لأن حاجيات الناس أيضا تختلف فمن يكون عنده أمر ضرورى قد لايكون كذلك عنـد غيره وهكـذا .. ولأجل هـذا اعترف الشيـوعيون بأن هـذه الاختلافـات ستبقى فى الشيوعية ، فجاء فى المعجم :

(إن مبدأ التوزيع الشيوعى بعيد كل البعد عن نزعـة التقشف والزهد وتعـادلية الاحتياجات والمصالح الحياتيـة للناس كما يزعم[1] خصوم الشيوعية العلمية ، فهو لايبشر بتكافؤ الاحتياجات ، بل بتكافؤ فرص وشروط تلبيتها ، فالناس يتباينون من حيث العمـر والجنس والعمل ومحل الإقـامة والخصائص البدنية والنفسية والقابليات والميول والاهتمامات .

وتظـل هذه الفروق قائمة فى ظـل الشيوعية أيضا ، لـذا فإن احتياجات الناس لايمكن أن تكون متطابقة)[2].

الوجه الثالث : اعترافهم بأنهم يجهلون كيف ستسير البشـرية إلى تحقيق ذلك الهدف .

يقـول لينين : إن (الديمقراطيـة لاتعنى غير المساواة الشكليـة . فما إن تحقق مساواة جميع أعضاء المجتمع حيال تملك وسائل الإنتـاج ، أى لامناص من مسألة السير إلى أبعد ، مـن المسـاواة الشكليـة إلى المسـاواة الفعليـة إلى تحقيـق قاعدة : "من كل حسـب كفاءته ولكل حسب حاجاته" ونحن لانعـرف ولايمكننـا أن نعـرف عبر أية مـراحل . وعن طريق أية تدابير عمليـة ستسير البشـرية نحو هـذا الهدف الأعلى . ولكـن مـن المهم أن نتفهـم مـدى بطلان الفكـرة البرجوازية الشائعة التى تزعم أن الإشتراكيـة شىء ماميت ، جامد ، ثابت لايتغير ، فى حين أن حركـة التقـدم السـريع فى جميـع ميـادين الحيـاة

---

(١) لابد وأن يجعلوا هذا هو فكر المقترحين عليهم ، وهو كـذلك بالفعل لأنهم جعلوا ذلـك المبـدأ مبدأ أساسيا فى شيـوعيتهم ، فلمـاذا يعتبرون مـاتفضى إليـه أقوالهم مزاعم من الأعداء .

(٢) (٣٦٤-٣٦٥) .

الإجتماعية والفردية ، الحركة الجماهيرية فعلا وحقا التى تشترك فيها أكثرية السكان ثم جميع السكان لاتبدأ فى الحقيقة إلا مع الإشتراكية)(١).

الوجه الرابع : أن هذا المبدأ أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة ، فإن الإنسان لن يصل لدرجة أن يعمل ويبذل طاقته كلها ثم لايأخذ إلا جزءا يسيرا بقدر حاجته ، ثم يترك باقى مردود إنتاجه لغيره كى ينعم به .

يقول الأستاذ محمد قطب : (ومقتضى هذا المبدأ إن الناس فى ظل التطبيق الشيوعى سيرتفعون بمشاعرهم وسلوكهم إلى صورة مثالية تجعل كل إنسان يبذل أقصى مافى طاقته من جهد من تلقاء نفسه دون ضغط عليه ، ولاإلزام ولكن من جراء حبه للنظام وللمزايا التى يحققها له وشعوره بالاستقرار والطمأنينة والسعادة فى ظله ، وفى الوقت ذاته لايأخذ من الإنتاج الذى يشارك فيه الجميع ، كل بحسب طاقته - إلا بمقدار مايحتاج إليه فحسب فلايزيد عن الحاجة بدافع الجشع والطمع الناشئين أساسا من الحياة فى مجتمع طبقى يمارس الملكية الفردية والصراع الطبقى . فإذا زالت الأسباب زالت الأعراض .. أى أنه إذا ألغيت الملكية الفردية وألغيت الامتيازات الطبقية بإزالة الطبقات كلها إلا الطبقة الكادحة فإن الجشع والطمع يزولان من نفوس الناس بزوال الأسباب الدافعة إليهما ، وعندئذ يأخذ كل إنسان من الإنتاج العام بقدر مايحتاج إليه فحسب ويترك الباقى للمحتاجين غيره من الناس)(٢).

ولاشك أن هذا حلم جميل أن يصل الإنسان إلى هذه الدرجة حيث يعمل وينتج ثم يترك باقى إنتاجه لغيره من الناس لقناعته وعدم شحه ، ولكننا نتساءل مالذى سيدفع الشيوعيين إلى ذلك هل هو مذهب دينى أم جزاء آخر ينتظرهم؟

---

(١) الدولة والثورة (١٠٥-١٠٦) ، وانظر : المعجم (٣٦٥) ، فوق أطلال الماركسية (٩٥) .

(٢) مذاهب فكرية معاصرة (٤٢١) ، وانظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٣٣-٣٤) .

إن الشيوعية لو استمرت فى إعطاء الوعود للإنسان الشيوعى لربما أمكن القول بأنه سيوجد فى المجتمع الشيوعى من يفعل ذلك ولكنها وقفت بالإنسان إلى هذه الدرجة ، فكيف يقوم الإنسان بعد ذلك بدفع مازاد عن حاجته وهو لايرقب وعدا آخر لهذا العطاء . ويمكننى القول مطمئنا بأن ذلك يقع من الإنسان المسلم عنيت أن يبذل مازاد عن حاجته لأنه يرقب جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

الوجه الخامس : بعد أن عجز الشيوعيون عن تطبيقه قاموا بالتبرير لذلك العجز ، وذكروا أن ذلك يكون فى مرحلة لاحقة لم يصل إليها الاتحاد السوفييتى بعد ، وقالوا بأنهم مشغولون عن تحقيقه بمقاتلة الأعداء وهذا يتطلب توجيه جزء من الإنتاج إلى إنتاج حربى لمنع الأعداء من الانتصار عليهم ، وهذا يؤثر فى زيادة الإنتاج الذى يكفى كل احتياجات الناس[1].

الوجه السادس : أن هذا المبدأ يقوم على التخيلات والأوهام حيث ظنت الشيوعية بأن الإنسان سيقوم بكل مافى وسعه وطاقته دون أن يكون هناك رقيب عليه ، كما أن الشيوعيين ظنوا أنهم سيقضون على نوازع الإنسان وفطرته فى حبه للاستزادة وخاصة فى مادياته .

لقد أضحى هذا المبدأ حلما ، ولم ير النور يوما ، ولن يراه لأنه مصادم للفطرة الإنسانية ، ولايمكن الوصول إليه إلا بعد أن تمر البشرية على رأى الشيوعية بمراحل عديدة . وهاهى الشيوعية تذهب إلى مثواها الأخير دون أن تحقق شيئا من هذه الأحلام .

وأين هؤلاء من مبدأ الإسلام وتشريعه فى توزيع الإنتاج ، فإن للعامل حقه الذى يرضيه ، ولصاحب رأس المال مايرضيه، وكل منهم له بقدر ماقدم لايظلم أحد ، ولايجحف فى حق أحد . فالعدالة متحققة وكل يأخذ قدر مايبذله . ذلك دين الله تعالى . ومن هنا لاينبغى أن ننظر لما يحدث من استغلال أو سوء تصرف أو اجحاف فى حق العامل أنه بسبب الملكية الفردية

---

(١) انظر مذاهب فكرية معاصرة (٤٢١) .

بل بسبب النفس الإنسانية التى جبلت على الطمع والجشع إذا لم تضبط بضوابط الشريعة .

وبسبب هذه النظرة من ماركس واعتقاده أن سبب الظلم هو الملكية الفردية صب جام غضبه عليها ، وأخذ فى التنظير لبيان استغلال الرأسماليين للعمال من خلالها ، وجاء بنظرية فائض القيمة ، والتى تعتبر من أهم مرتكزات النظرية الإقتصادية الماركسية .

المبحث الثالث
نظرية القيمة وفائض القيمة

من أهم الجوانب والمرتكزات فى المذهب الإقتصادى الشيوعى نظرية القيمة والقيمة الزائدة . وهذه النظرية رتب عليها ماركس قوانين عديدة تؤدى فى النهاية إلى زوال الفكر الرأسمالى . ومع أن النظرية قد ارتبطت بماركس ومذهبه الإقتصادى ، إلا أن هناك فلاسفة سبقوه إلى القول بها مثل ريكاردو ، وآدم سميث[١].

ويعرف ريكاردو قيمة العمل فيقول : (إن قيمة البضاعة .. ترتبط بمقدار العمل الضرورى من أجل إنتاجها ، وليس بمقدار المكافأة الأكثر أو الأقل ارتفاعا التى تدفع لقاء ذلك العمل)[٢].

وعلى هذا فإن قيمة السلعة تكون على قدر العمل المبذول فى إنتاجها كما يرى ريكاردو . وقد استفاد ماركس من هذه النظرية ـ وقلنا بأنه اعتمد الإقتصاد الانجليزى مصدرا له فى فكره ـ وطورها وغير فيها . يقول لينين :

---

(١) انظر : إقتصادنا (١٧٦) ، الإشتراكية العربية (١٢٥) ، النظم الإقتصادية المعاصرة (١٧٥-١٧٦) .
ويقول انجلز : (طالما أن الإشتراكية الحديثة على اختلاف اتجاهاتها تنطلق من الإقتصاد السياسى البرجوازى فإنها تربط نفسها ، ربطا محصورا بنظرية القيمة لريكاردو . إن الافتراضين اللذين خرج بهما ريكاردو عام ١٨١٧م فى بداية كتابه المبادىء وهما :
١ ـ أن قيمة أى سلعة تحددها ، فقط بشكل قاطع ، كمية العمل اللازمة لإنتاجها .
٢ ـ وأن منتوج العمل الجماعى الكلى مقسم بين طبقات ثلاث : طبقة مالكى الأرض ويمثلون (الريع) ، وطبقة الرأسماليين ويمثلون الربح ، وطبقة العمال ويمثلون (الأجور) ، فقد استخدما منذ ١٨٢١م فى انجلترا للوصول إلى نتائج إشتراكية وبغض النظر عن مثل هذه القطعية والحتمية ، فإن هذا الأثر الذى اختفى الآن تقريبا ، والذى كان ماركس أول من أعاد اكتشافه ظل دون أن يتجاوزه أحد حتى ظهور "رأس المال") . من مقدمة انجلز ، بؤس الفلسفة (٤-٥).

(٢) نقلا من كتاب انتى دوهرنغ (٢٣٣) .

(بعدما لاحظ ماركس أن النظام الإقتصادى يشكل الأساس الذى يقوم عليه البناء الفوقى السياسى ، أعار انتباهه أكثر ماأعاره لدراسة هذا النظام الإقتصادى .

ومؤلف ماركس الرئيسى (رأس المال) مكرس لدراسة النظام الإقتصادى فى المجتمع الحديث ، أى الرأسمالى .

لقد تكون الإقتصاد السياسى الكلاسيكى ماقبل ماركس فى انجلترا ، وكانت أكثر البلدان الرأسمالية تطورا . فقد درس آدم سميث ودافيد ريكاردو النظام الإقتصادى فسجلا بداية نظرية القيمة ـ العمل .

وواصل ماركس عملهما . فأعطى هذه النظرية أساسا علميا خالصا وطورها بصورة منسجمة إلى النهاية . وبين أن قيمة كل بضاعة مشروطة بوقت العمل الضرورى إجتماعيا لإنتاج هذه البضاعة وحيث كان الإقتصاديون البرجوازيون يرون علاقات بين الأشياء (مبادلة بضاعة ببضاعة أخرى) ، اكتشف ماركس علاقات بين الناس . إن تبادل البضائع يعبر عن الصلة القائمة ، بوساطة السوق ، بين المنتجين المنفردين . والمال (النقد) يعنى أن هذه الصلة تزداد وثوقا ، جامعة فى كل واحد لايتجزأ كل حياة المنتجين المنفردين الإقتصادية . والرأسمال يعنى استمرار تطور هذه الصلة : فإن قوة عمل الإنسان تغدو بضاعة . فالأجير يبيع قوة عمله لمالك الأرض ولصاحب المصنع وأدوات الإنتاج .

والعامل يستخدم قسما من يوم العمل لتغطية نفقات إعالته وإعالة أسرته (الأجرة) ؛ ويستخدم القسم الآخر للشغل مجانا ، خالقا للرأسمالى القيمة الزائدة ، التى هى مصدر ربح ، مصدر إثراء للطبقة الرأسمالية)[1].

---

(١) مصادر الماركسية (٦-٧) ، وانظر : إقتصادنا (١٧٨-١٧٩) ، الإشتراكية العربية (١٢٦) .

القيمة وفائض القيمة :

إن هذا القانون يشتمل على أمرين :

الأول : أن العمل هو أساس القيمة .

الثانى : أن فائض القيمة هو العمل الزائد الذى يكون من نصيب الرأسمالى .

يقول لينين : (إن نظرية القيمة الزائدة تشكل حجر الزاوية فى نظرية ماركس الإقتصادية)(١).

وهاتان النظريتان وضعتا لتدعيم مذهب ماركس الفلسفى .

فما هى نظرية القيمة عند ماركس؟

يقول ماركس : (إن السؤال الأول الذى ينبغى أن نطرحه هو : "أى شىء هى قيمة البضاعة وبماذا تحدد؟"

قد يبدو للوهلة الأولى أن قيمة البضاعة شىء نسبى تماما ، لايمكن تحديده إذا لم ينظر إلى البضاعة فى علاقاتها مع جميع البضائع . فنحن ، بالفعل ، حين نتحدث عن القيمة التبادلية لبضاعة ، إنما تكون فى ذهننا الكميات النسبية التى يمكن بها تبادل هذه البضاعة مقابل جميع البضائع الأخرى . ولكن يرد هنا هذا السؤال : كيف تحدد النسب التى يجرى بها تبادل البضائع بعضها ببعض؟ إننا نعلم ، بالتجربة ، أن هذه النسبة متنوعة تنوعا لانهاية له . فإذا أخذنا بضاعة ما ، كالقمح مثلا ، نجد أن مكيالا من القمح يبادل بمختلف البضائع الأخرى بنسب لاتكاد تكون لها نهاية ، بيد أنه لما كانت قيمته تظل هى هى فى جميع هذه الحالات ، بصرف النظر عما إذا كان التعبير عنها بالحرير ، أم بالذهب ، أم بأية بضاعة أخرى ، فإن هذه القيمة لابد أن تكون شيئا متميزا عن تلك النسب المختلفة التى بموجبها يجرى تبادله مقابل بضائع أخرى ، وشيئا مستقلا عنها . لابد أن تكون ثمة إمكانية للتعبير عنه بشكل متميز عن هذه المعادلات المختلفة بين مختلف البضائع .

---

(١) مصادر الماركسية (٧) .

وبعـد : حين أقـول إن مكيـالا مـن القمح يبادل مقـابل الحديد بنسبـة معينـة ، أو أن قيمـة مكيال واحد مـن القمـح يعبر عنهـا بكميـة معينـة من الحديد ، فإنما أقول بذلك أن قيمة القمح ومعادله من الحديد مساويان لشيء ثالـث ما ليس قمحا ولاحديدا ، مـادمت انطلق من أنهمـا يعبران عـن مقدار واحد بعينـه بشكلين مختلفين . ولذلك فإن كلا من هاتين البضـاعتين ، سواء القمـح أم الحديد ، لابد أن تكون ، بصورة مستقلة عـن الأخرى ، آيلة إلى ذلك الشيء الثالث الذى يؤلف مقياسهما المشترك)[١].

ويقـول : ("مـاهو الجوهـر الإجتمـاعى المشترك لجميـع البضـائع" "إنه العمل ")[٢].

ويضيـف : (إذن فكمية العمل وحدها ، أو وقت العمـل الضرورى ، فى مجتمع معين ، لإنتاج صنف ما ، هى التى تحدد كمية القيمة) .

ويرى أن كـل سلعة تنتج فى وقـت متساو فقيمتهـا متسـاوية ، وحال التفاوت إنما هو بسبب التفاوت فى وقت العمل ، فيقول :

(البضـائع التى تتضمـن كميـات متسـاوية من العمـل ، أو التى يمكـن إنتـاجها فى وقت متساو ، لها بالتالى ، قيمة متساوية ، إن قيمـة بضاعة ما ، بالنسبـة إلى قيمـة كـل بضـاعة أخرى ، هـى على مثـل نسبـة وقـت العمـل الضرورى لإنتاج هذه ، إلى وقت العمل الضرورى لإنتاج تلك)[٣].

ويقـول : (قيمـة قوة العمـل ، شـأنها فى ذلك شـأن قيمـة أية بضاعة أخرى ، تحدد بكمية العمل الضرورى لإنتاجها)[٤].

ويقـول : (إن مايبيعه العامل ليس عمله مباشرة ، بل قـوة عمله التى يضعها مؤقتا تحت تصرف الرأسمالى)[٥].

---

(١) الأجور والأسعـار والأرباح (٣٣-٣٤) ، دار التقـدم ، مـوسكو ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

(٢) المرجع السابق (٣٤-٣٥) .

(٣) رأس المال (٥٠/١) .

(٤) المرجع السابق (٥١/١) .

(٥) الأجور والأسعار والأرباح (٤٦-٤٧) .

وعلى هذا الأساس فإن ثمن السلعة يقدر بمقدار مابذل فيها من عمل ، فكلما زاد الوقت فى إنتاج السلعة زاد ثمنها . وفى هذا مدخل على ماركس حيث إن العامل الكسول سيأخذ وقتا أطول من الآخر فى إنتاج سلعته ، وعلى هذا فإن السلعة المنتجة من قبله ستكون ذات مردود أكثر من السلعة التى أنتجها العامل النشيط قياسا على الوقت!!

يقول ماركس : (كيف تقاس كمية العمل؟)

ويجيب : (بالزمن الذى يستغرقه العمل ، بالساعات ، بالأيام ، ...الخ)[1].

نظرية فائض القيمة :

بعد أن عرض ماركس نظريته عن القيمة ، وأبان بأنها تحدد حسب العمل المبذول فى إنتاج السلعة ، قام بتوضيح الشق الثانى من نظريته وهى فائض القيمة ، ومفادها أن الرأسمالى يستغل العامل ويحصل على إنتاج لايأخذ العامل مقابله شيئا .

ونترك ماركس يتحدث عن نظريته هذه ، حيث قال : (إن قيمة قوة العمل تحددها كمية العمل الضرورية للإبقاء عليها أو لتجديد إنتاجها ، فى حين أن استخدام قوة العمل هذه ليس له من حدود غير طاقة العامل على العمل وقوته الجسدية . والقيمة اليومية أو الأسبوعية لقوة العمل هى شىء متميز كل التميز عن الإنفاق اليومى أو الأسبوعى لهذه القوة ، مثلما يتميز العلف الذى يحتاج إليه الحصان كل التميز عن الوقت الذى يستطيع فيه حمل فارسه . فإن كمية العمل التى تحدد قيمة قوة عمل العامل لاتؤلف البتة حدا لكمية العمل التى يمكن أن تقوم بها قوة عمله . فلنأخذ ، مثلا ، غزالنا . لقد رأينا أنه ، من أجل تجديد إنتاج قوة عمله يوميا ، يجب عليه يوميا أن يجدد إنتاج قيمة قدرها ثلاثة شلنات ، وهو يحقق هذا باشتغاله ست ساعات كل يوم . ولكن هذا لايجعله عاجزا عن العمل يوميا ١٠ ساعات أو ١٢ أو أكثر . بيد أن الرأسمالى ، بدفعه القيمة اليومية أو الأسبوعية

---

(١) الأجور والأسعار والأرباح (٣٥) .

لقوة عمل الغزال ، قد اكتسب حق استخدام قوة عمله طيلة اليوم كله أو الأسبوع كله . وعلى هذا فإن الرأسمالى يرغم الغزال على الشغل مدة لنقل هى ١٢ ساعة فى اليوم . فبالإضافة إلى الساعات الست الضرورية للتعويض عن أجرته ، أو قيمة قوة عمله ، سيشتغل العامل ست ساعات أخرى ، أسميها ساعات العمل الزائد ، مع العلم أن هذا العمل الزائد سيتجسد فى قيمة زائدة ونتاج زائد . فإذا كان غزالنا ، مثلا ، يضيف إلى القطن بشغله ست ساعات فى اليوم قيمة قدرها ثلاثة شلنات هى المعادل المضبوط لأجرته فإنه بشغله ١٢ ساعة فى اليوم يضيف إلى القطن قيمة قدرها ستة شلنات ، وينتج كمية زائدة مناسبة من الغزول . ولما كان قد باع قوة عمله للرأسمالى فإن كل القيمة التى أوجدها ، أو كل النتاج الذى صنعه ، ملك للرأسمالى الذى يملك Pro Tempore قوة عمله . وعلى هذا ، فإن الرأسمالى ، بتسليفه ثلاثة شلنات ، سيحقق قيمة قدرها ستة شلنات ، إذ أنه بتسليفه القيمة التى تتبلور فيها ساعات العمل الست ، سيحصل بالمقابل على قيمة تتبلور فيها ١٢ ساعة عمل . وإذا ماكرر الرأسمالى هذه العملية يوميا فإنه سيسلف يوميا ثلاثة شلنات وسيحصل يوميا على ستة شلنات ، سيستخدم نصفها لدفع أجور جديدة ، ويؤلف النصف الآخر القيمة الزائدة التى لايدفع الرأسمالى أى معادل لها . على هذا النوع بالضبط من التبادل بين الرأسمال والعمل يقوم الإنتاج الرأسمالى ، أو نظام العمل المأجور ...)(١).

ويقول : (إن جزءا فقط من العمل اليومى للعامل يدفع ثمنه بينما يظل الجزء الآخر غير مدفوع الثمن ، ومع أن هذا العمل بالذات غير المدفوع الثمن أو العمل الزائد هو الذى يؤلف الأساس الذى تتكون منه القيمة الزائدة أو الربح ، فإنه يبدو كأن العمل كله عمل مدفوع الثمن)(٢).

ومن هنا فإن ماركس يضع لنا هذا التعريف للقيمة الزائدة حيث قال

---

(١) الأجور والأسعار والأرباح (٤٩) .

(٢) المرجع السابق (٥١-٥٢) ، وانظر (٥٣-٥٤) حيث ضرب ماركس الأمثلة على ذلك الاستغلال من قبل الرأسمالى للعامل .

(يمكن أن يسمى العمل الزائد الذى يستمد منه القيمة الزائدة عملا لم يدفع ثمنه)[١].

ويقول : (إن سر قوة رأس المال السياسية كله قائم فى هذا الواقع البسيط ، وهو أن رأس المال يتصرف بكمية معينة من عمل الآخرين ، لايدفع ثمنها)[٢].

وقد أفاض ماركس ومن بعده من الشيوعيين فى شرح هذه النظرية ، ولاغرابة فى ذلك لأن فكرهم قائم أساسا على محاربة الرأسمالية ، وإسقاطها ، ومن هنا رتبوا عددا من القوانين بناء على هذه النظرية[٣] تدل على استغلال الراسمالى وهى :

(١) قانون تجميع رأس المال .

(٢) قانون تراكم رأس المال .

(٣) قانون زيادة البؤس والفقر[٤].

أولا : قانون تجميع رأس المال :

ومفاد هذا القانون كما يراه ماركس :

(أن زيادة رأس المال الثابت ، ونقص رأس المال المتغير يؤدى إلى نقص نسبة الربح ، لأن العمل أى "رأس المال المتغير" هو مصدر القيمة الوحيدة عنده . والمنافسة القائمة تؤدى إلى زيادة تشغيل الآلات التى توفر العمل ليضمن فائض قيمة نسبيا ، وبالتالى مزيدا من الربح .. ويدلل ماركس رياضيا على أن رأس المال المتغير هو وحده أساس القيمة ، حتى أنه إذا

---

(١) رأس المال (٤/٧٥٧) .

(٢) المرجع السابق (٤/٧٥٧) .

(٣) لمزيد عن هذه النظرية انظر : مصادر الماركسية الثلاثة (٣٥-٣٦) ، الإشتراكية (٢٨-٢٩) ، المذاهب الإقتصادية الكبرى (٩٦) ، الفكر الماركسى (١٤).

(٤) والقوانين الأساسية التى تحرك التطور الرأسمالى هى : السعى وراء الربح ، المنافسة ، التمركز ، الاتجاهات نحو انخفاض معدل الربح . انظر شرح هذه القوانين فى كتاب الإشتراكية (٢٣-٢٨) ، بورجان .

حدثت ابتكارات إلى توفير العمل ، فإن ذلك سيكون له نتيجة واحدة هى انخفاض فائض القيمة التى يحصل عليها الرأسمالى .. وكل ماهنالك أن المنتج الذى استخدم الابتكارات لأول مرة تكون لزيادة التركيب العضوى لرأس المال بالنسبة له نتائج تختلف عن آثارها فيما يتعلق بطبقة المنتجين عموما ... فهو ينتج كمية أكبر من السلع بنفقات أقل من متوسط النفقات السائد فى السوق ، ويبيعها بالثمن الذى ينبنى على نفقات المنتجين الآخرين ، ولهذا يحصل المنتج على دخل احتكارى يضاف إلى فائض القيمة المستغل أولا .

ولكن سرعان ماتعمل المنافسة على تعميم وسيلة الإنتاج الجديدة ، ومعنى ذلك أن تنخفض النفقات عموما لدى جميع المنتجين ويصبح كل منتج فى نفس حالة المنتج الأول ، فتنخفض الأسعار إلى الحد الذى تباع فيه السلع بقيمة مابذل فيها من عمل أى من رأس مال متغير .. ورأس المال المتغير قد نقص على مدار المجتمع لأن الاختراعات الجديدة وفرت القوة العاملة ، ومعنى ذلك لديه أن فائض القيمة الذى سيحصل عليه المنتجون سيقل .. ولذلك يقرر ماركس وجود قانون تميل نسبة الأرباح تبعا له إلى الانخفاض نتيجة لزيادة التركيب العضوى لرأس المال وتنافس المشروعات والتقدم الفنى ..)(١).

ثانيا : قانون التراكم الرأسمالى :

رغبة الرأسمالى فى زيادة ثروته ومايننتج عن ذلك من تراكم هى رغبة أصيلة فى المجتمع الرأسمالى ، وتنبع من طبيعة تركيب هذا المجتمع .

يقول ماركس : (إن معنى التراكم عند الرأسمالى أن يغزو عالم الثراء الإجتماعى ، وأن يزيد من كتلة البشر الذين يستغلهم ، وبذلك يوسع دائرة نفوذهم وسطوته المباشرة وغير المباشرة)(٢).

---

(١) حوار مع الشيوعيين (١٧٩) ، وانظر الاتجاهات الفكرية المعاصرة (١٩٩) .
(٢) الإشتراكية العربية (١٢٩) .

ومن هنا يحاول الرأسماليون أن يقضى كل منهم على الآخر ، إذ تقضى المشروعات الكبيرة على المشروعات الصغيرة مما يؤدى إلى زيادة التراكمات الرأسمالية لدى المشروعات الكبيرة . ووجود الأزمات ـ وهى ظاهرة ملازمة للنظام الرأسمالى ـ ومما تؤدى إليه من بطالة تجعل هناك دائما مايسميه ماركس (الجيش الاحتياطى للبضاعة) الذى يؤدى دائما إلى إبقاء أجور العمال منخفضة نتيجة هذا العرض الزائد المستمر لقوة العمل .

وانخفاض الأجور يساعد بدوره على زيادة فائض القيمة وبالتالى يؤدى إلى زيادة التراكم الرأسمالى(١).

ولاشك أنه بزيادة الآلية فى الإنتاج يتم الاستغناء عن عدد من العمال يضافون إلى جيش العاطلين .. وزيادة الآلية ، تخفض نفقات الإنتاج .. ونتيجة المنافسة الحرة ينخفض سعر السلعة عن ذى قبل ، ويترتب عليه انخفاض ربح الرأسماليين مما يحفزهم لتشغيل من لم يطردوا من العمل ساعات أكثر ، ويشغلون النساء والأطفال بأجور منخفضة ، وأخيرا يتكتلون لفرض أسعار احتكارية ، وللتحكم فى السوق ، وهذا كله يؤدى إلى تراكم رأس المال فى أيديهم(٢).

ويؤدى هذا بالطبع إلى بؤس طبقة العمال .

يقول ماركس : (إن التناقض المستمر فى عدد الرأسماليين الذين يستغلون ويحتكرون . جميع مميزات عملية التحويل هذه يقوم إلى جانبه نمو فى البؤس الجماعى والاضطهاد والاستعباد . والتحقير والاستغلال ، ولكن تنمو معه أيضا ثورة الطبقة العاملة ، وهى طبقة تتكاثر فى العدد على الدوام وينظمها ويوحدها النظام الآلى لعملية الإنتاج الرأسمالى نفسه)(٣).

---

(١) انظر : الإشتراكية العربية (١٢٩) ، حوار مع الشيوعيين (١٧٩) .
(٢) انظر حوار مع الشيوعيين (٣٢) .
(٣) المرجع السابق (١٨٠) .

ثالثا : قانون زيادة البؤس (الفقر) :

يقول ماركس : (كلما زادت الثروة الإجتماعية وزاد تشغيل الرأسمال وزاد نطاق نموه وطاقته ومن ثم كلما زاد عدد العمال وزادت إنتاجية عملهم زاد جيش الصناعة الاحتياطى ، فنفس الأسباب التى تدعم طاقة رأس المال وتوسعه تزيد أيضا من قوة العمل المتاحة له . لذلك يزداد الحجم النسبى لجيش الصناعة الاحتياطى ... وينبنى على ذلك إذن أنه بقدر مايتراكم فى رأس المال تزداد حالة العامل سوءا ... تراكم فى البؤس ليقابل التراكم فى رؤوس الأموال ، فتراكم الثروات فى قطب هو إذن فى نفس الوقت تراكم البؤس وآلام العمل والعبودية والجهل .. فى القطب المقابل)(١).

(وهكذا يرى كارل ماركس أنه فى الوقت الذى تتراكم فيه ثروات الرأسماليين يزداد بؤس العمال بصفة مضطردة ومنتظمة . ويرى ماركس أن قانون الإملاق أو الإفقار المطلق هو قانون عام فى النظام الرأسمالى)(٢).

الأزمات :

(يرى كارل ماركس أن طبيعة النظام الرأسمالى تؤدى حتما وبالضرورة إلى أن تعتوره أزمات دورية ناجمة عن طبيعة النظام نفسه ومايحمله من تناقض بين جماعية الإنتاج وفردية التملك ومايؤدى إليه من فوضى فى العملية إلى حدوث أزمات دورية تهز كيان النظام كله)(٣).

وبعد هذا العرض لنظرية القيمة وفائض القيمة نصل إلى التالى :

أولا : أن قيمة السلعة تقدر بكمية الوقت الذى تستغرقه فى إنتاجها .

---

(١) نقلا من كتاب الإشتراكية العربية (١٢٩-١٣٠) .

(٢) الإشتراكية العربية (١٣٠) ، وانظر : حوار مع الشيوعيين (١٣٣) ، الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١١٥) ، وانظر فى هذه القوانين مجتمعة : النظم الإقتصادية المعاصرة (١٧٠) ، إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٠٤-٢٠٥) ، إقتصادنا (٢٠٥-٢٠٧) .

(٣) الإشتراكية العربية (١٣٠) .

ثانيا : أن الأسعار المتفاوتة بين السلع إنما هو بسبب تفاوت كمية العمل .

ثالثا : أن النظام الرأسمالى يقوم على استغلال العمال وإذلالهم .

رابعا : أن الرأسمالى يحقق ربحا لايدفع مقابله شيئا وهو (القيمة الزائدة) .

خامسا : أن هذا الاستغلال من الرأسمالى وحصوله على ذلك الربح بدون مقابل ، يتولد عنه مجموعة من القوانين تؤدى فى النهاية إلى تقويض النظام .

بطلان هذه النظرية :

(أ) **القيمة** : وبيان بطلانها بالوجوه التالية :

الوجه الأول : إن الواقع يبطل هذه النظرية ، ولايمكن التسليم لما جاء به ماركس من أفكار حولها ، لأن كثيرا من الأمثلة تنقض هذا الفكر .

يقول الصدر : (لنأخذ الأرض مثالا لهذا التناقض ، بين القانون والواقع . فالأرض تصلح ـ دون شك ـ لإنتاج عدد كبير من الحاصلات الزراعية ، أى لعدد كبير من الاستعمالات البديلة فيمكن أن تستعمل الأرض فى زراعة الحنطة ، كما يمكن أن تستخدم ـ بدلا عن الحنطة ـ فى إنتاج القطن والرز وهكذا . ومن الواضح أن الأراضى ليست متشابهة فى كفاءتها الطبيعية ، فهناك من الأراضى مايكون أكثر كفاءة فى فرع معين من فروع الإنتاج الزراعى ، كإنتاج الرز مثلا . وهناك ماهو أكثر كفاءة لزراعة الحنطة أو القطن .

وهكذا تتمتع كل أرض باستعداد طبيعى ، يرشحها لفرع معين من فروع الإنتاج . ويعنى هذا أن كمية معينة من العمل إذا أنفقت على زراعة الأرض ، فى حالة تقسيمها على فروع الإنتاج الزراعى تقسيما صحيحا ، واستخدام كل أرض فيما هى أصلح له ... تنتج مقادير مهمة من الحنطة والرز والقطن ، بينما لو صرفت نفس تلك الكمية المعينة من العمل

الإجتماعى ، فى حالة توزيع سىء للأرض على فروع الإنتاج ، واستخدام كل أرض فى غير ماهى أجدر به .. لما أمكن الحصول إلا على جزء من تلك المقادير المهمة . فهل نستطيع أن نتصور أن هذا الجزء من الحنطة مثلا ، يساوى ـ من الناحية التبادلية ـ ذلك المقدار المضاعف ، الذى ينتج فى حالة توزيع الأرض ـ على فروع الإنتاج ـ توزيعا صحيحا .. لالشىء إلا لأنه يساويه فى كمية العمل الإجتماعى المتجسد فيه؟! وهل يسمح الاتحاد السوفييتى ـ القائم على أساس ماركسى ـ لنفسه أن يساوى فى التبادل بين هاتين الكميتين المختلفتين بوصفهما تعبيرا عن كمية واحدة من العمل الإجتماعى .

إن الاتحاد السوفييتى ، وأى دولة أخرى فى العالم ، تدرك عمليا ـ دون شك ـ مدى الخسارة التى تحيق بها من جراء عدم استخدام كل أرض فيما هى أكثر صلاحية له .

وهكذا نعرف أن الكمية الواحدة من العمل الزراعى قد تنتج قيمتين مختلفتين ، تبعا للطريقة المتبعة فى تقسيمها على الأراضى المتنوعة .

ومن الواضح ـ فى ضوء ذلك ـ أن القيمة المضاعفة ، التى تحصل من استخدام كل أرض فيما هى أكثر صلاحية له .. ليست نتيجة للطاقة التىأنفقت فى الإنتاج ، لأن الطاقة هى الطاقة ، لاتتغير ، سواء زرعت كل أرض بما هى أصلح له أم زرعت بغيره ، وإنما هى ـ القيمة المضاعفة ـ مدينة للدور الإيجابى الذى تلعبه الأرض نفسها فى تنمية الإنتاج وتحسينه)(١).

ومن الأمثلة على رد هذا الزعم وبيان أن القيمة لاتحدد من خلال كمية العمل .

١ ـ (أمضى كل من (أ) و(ب) وهما فنانان تشكيليان عشر ساعات فى وضع لوحتين ، بيعت الأولى منهما بثلاثين جنيها ، بينما بيعت الثانية بعشرة آلاف جنيه ، علما بأن عدد الساعات التى أمضاها الرسامان المذكوران آنفا

(١) إقتصادنا (١٨٤-١٨٥) .

هو نفس عدد الساعات التى أمضاها الرسام العالمى الشهير (x) فى رسم لوحة بيعت بمليون جنيه)[١].

٢ - (يعمل (أ) ، (ب) ، (ج) ، (د) منذ عشر سنوات على أربع آلات متماثلة - تماما - بأحد المصانع . ورغم أن سنهم واحدة ، وعدد سنوات خبرتهم واحدة ، وتلقوا جميعا برنامجا تدريبيا واحدا فإن المشرف عليهم فى المصنع يقول : إننا لو قدرنا إنتاج (أ) بمائة وحدة قياسية ، فإن إنتاج (ب) هو فى المتوسط تسعون ، وإنتاج (ج) ثمانون ، وإنتاج (د) سبعون . وهو يرجع ذلك لاختلاف فى درجة الانتظام والذكاء والقدرة البدنية ومدى الاستفادة من الخبرة المكتسبة)[٢].

٣ - (تقدر قيمة إنتاج مليون عامل سوفييتى يعملون فى صناعة البترول فى "باكو" والناجمة عن ساعات عمل مقدارها مائة وخمسون مليون ساعة شهريا بسبعين ضعفا بالمقارنة بإنتاج مليون عامل سوفييتى يعملون فى زراعة القطن والناجم عن ساعات عمل مماثلة تماما ، وذلك مع تحييد دور العمل الميت "الآلات وماشابهها")[٣].

ولو تأملنا هذه الأمثلة لوجدنا أنها تبطل زعمهم القائل بأن السلعة تحدد قيمتهامن خلال العمل المبذول فيها ، إذ أن القيمة ترجع أحيانا لعوامل أخرى غير العمل .

الوجه الثانى : من أكثر الأمور إبطالا للنظرية الماركسية عن القيمة (النفط) فقيمته أكثر من العمل المبذول فيه . يقول حجى : إن (قيمة النفط لايمكن أن تعود لمقدار أو كمية العمل المبذول فى استخراجه كما يقول

---

(١) تجربتى مع الماركسية (١٣١) .
(٢) المرجع السابق (١٣٢) .
(٣) المرجع السابق (١٣٢) وانظر مابعدها .

ماركس ، علما بأن "ماركس" يرفض بشدة اعتبار الطبيعة مصدرا للقيمة ، ويقول إن عمل الإنسان لابد أن يضاف لعمل الطبيعة لإعطائها (قيمة) . ولكن هل يتفق هذا التحليل مع واقع النفط؟ ... وهل ترجع قيمة النفط فى السوق العالمية لقانونى العرض والطلب والمحددين هنا بعامل الاحتياج الماس للنفط لاستمرار عجلة الحضارة الحديثة فى الدوران؟ أم أن هذه (القيمة) ترجع لعدد ساعات العمل الذى يبذله مستخرجو النفط فى استخراجه؟

لانظن أن بمقدور أحد أن يتبنى التعليل الأخير فى الفقرة السابقة ، فمن المؤكد أن "قيمة" النفط فى الأسواق تفوق - بمراحل عديدة - قيمة كل من العمل المباشر المبذول فى استخراجه والعمل الميت أو المتراكم والمتمثل فى الآلات المستعملة فى استخراجه . وسنضرب أمثلة تؤكد أن قيمةالنفط لاترجع مطلقا لمقدار العمل المباشر أو الميت المبذول فى استخراجه .

* يبذل عادة نفس العمل والجهد ، وتستعمل نفس الآلات فى حفر بئرين للنفط ، ولكن أحدهما تنتج عشرة آلاف برميل فى اليوم ، بينما لاتنتج الأخرى سوى خمسمائة برميل فى اليوم . فهل الدور الفعال فى إيجاد (القيمة) هنا منسوب للعمل أم للطبيعة؟

* قيمة برميل النفط الخام المستخرج من بحر الشمال (بين بريطانيا والنرويج) هى نفس (قيمة) برميل النفط الخام المستخرج من آبار النفط بالسعودية والكويت والإمارات العربية ، رغم أن تكلفة الأول والمستخرج من آبار بحرية (Off shore oil wells) تعادل خمسة أضعاف تكلفة استخراج الثانى والمستخرج من آبار أرضية (On shore) أيرجع التساوى فى القيمة هنا لتساوى الاحتياج فى السوق العالمية لكل منهما؟ ... أم يرجع للعمل المبذول فى كل منهما - رغم اختلاف كمية هذا العمل؟ ... لاريب أن الإجابة الأولى هى الإجابة الوحيدة الممكنة والمعقولة .

* يستخرج النفط فى بعض الحقول بولاية كالفورنيا الأمريكية وببعض مناطق الخليج العربى دون تدخل من الإنسان ، حيث يتواصل الإنتاج منذ

عشرات الأعوام بواسطة مضخة مثبتة على رأس البئر ، وذلك بسبب قوة الضغط التى يخرج بها النفط من مواسير الإنتاج ، بينما يكون هذا الضغط فى تكوينات جيولوجية أخرى ضعيفا جدا مما يحتم عمل عمليات حقن (Injection) لتحل محل الضغط الطبيعى فى الحالة الأولى (وهو ماحدث بعد سنوات قليلة بحقول خليج السويس المصرية مثل حقل مرجان وحقل يوليو بمنطقة رأس غارب) .

وفى الحالتين آنف ذكرهما لايوجد أى فارق بين قيمة برميل النفط المستخرج من هذه البئر أو تلك ، أفلا يعنى ذلك أن القيمة هنا ترجع لعوامل أخرى غير العمل المبذول ، وقد اختلفت ـ كما هو جلى ـ كميته من حالة لأخرى)[١].

(إن هذه الأمثلة والتى تدور حول (النفط) الذى لاجدال فى كونه عصب "الإنتاج" فى زمننا هذا ، إنما تؤكد أن تعاظم منفعة النفط والطلب عليه (بسبب تلك المنفعة) قد ألغيا دور "العمل المبذول فى استخراج النفط" فى تحديد قيمته)[٢].

<u>الوجه الثالث</u> : أن العمل عنصر غير متجانس ، فهو متفاوت حسب الجهود المختلفة والمواهب والاستعدادات الذاتية .

يقول حجى : (ومما لاشك فيه أن مجالات أخرى عديدة فى مجالات الأعمال الحديثة كالهندسة المعمارية والديكور والتصميمات الصناعية إنما تعتمد "القيمة" فى دوائرها على أشياء أخرى إلى جانب العمل ، بل وأكثر أهمية منه مثل الموهبة والاستعداد الذاتى والاستفادة الخاصة من

---

(١) تجربتى مع الماركسية (١٣٣-١٣٥) .
(٢) المرجع السابق (١٣٥) .

التدريب[١]. ومن أبرز هذه المجالات "مجال السياحة" فهل يمكن أن يفسر الدخل القومى من السياحة لدول مثل أسبانيا وايطاليا والمغرب وتونس ولبنان "قبل الكارثة" ومصر بالعمل؟ ... وماهو العمل الذى يكمن وراء دخل مصر من زيادة السياح العالميين لمعبد أبى سنبل وآثار الأقصر وأسوان وأهرامات الجيزة وأبى الهول والمتحف المصرى؟ ومن المصادفات الغريبة أن أى تعليل ماركسى للقيمة فى هذا المثال الأخير سيكون داحضا لذاته بذاته ، لأن "العمل الميت" الكامن فى هذه الآثار والذى ورثناه عن قدماء المصريين والذى قد يتمسك الإقتصادى الماركسى به كمصدر لقيمة هذه الآثار وماتجلبه من دخل ، هو من نوع "العمل الفنى" الذى لاينطبق عليه أصلا التنظير الماركسى للقيمة بالرجوع لكمية العمل المبذول فالمحك هنا ليس هو "كمية العمل" وإنما "نوع العمل")[٢].

ويقول الصدر : إن العمل (عنصر غير متجانس ، يضم وحدات من الجهود مختلفة فى أهميتها ، ومتفاوتة فى درجتها وقيمتها . فهناك العمل الفنى الذى يتوقف على خبرة خاصة ، والعمل البسيط الذى لايحتاج إلى الخبرة العلمية والفنية . فساعة من عمل الحمال تختلف عن ساعة من عمل المهندس المعمارى ، ونهار من عمل الصانع الفنى الذى يبذله لإنتاج محركات كهربائية يختلف ـ تمام الاختلاف ـ عن عمل العامل الذى يحفر السواقى الصغيرة فى الحديقة)[٣].

كذلك يقال : هناك (العوامل الذاتية الكثيرة ـ التى تؤثر على العمل ـ باعتباره صفة إنسانية ـ فتحدد أهميته ودرجة كفايته ، كما تحدد الجهد النفسى والعضوى الذى يتطلبه. فالاستعداد الطبيعى العضوى والذهنى للعامل

---

(١) الاستفادة من التدريب غير التدريب ، فالأولى (ذاتية) والثانية (موضوعية) ، بمعنى أنه وإن جاز اعتبار التدريب عملا ، فإنه لايمكن اعتبار الاستفادة الخاصة من التدريب كذلك بسبب جوهرها الذاتى أو الشخصى .

(٢) تجربتى مع الماركسية (١٣٥-١٣٦) .

(٣) إقتصادنا (١٨٨) ، وانظر معالم الإشتراكية العربية (١٢٣) .

ومدى رغبته فى النبوغ والتفوق على الآخرين ، ونوعية مايختلج فى نفسه من عاطفة بالنسبة إلى العمل ، يجعله يقبل عليه مهما بلغت مشقته ، أو يعرض عنه مهما خف عبؤه ، ومايشعر به من حيف وحرمان ، أو ماينعم به من حوافز تدفعه إلى التفنن والإبداع ، وماتحيط به من ظروف تدعه فريسة لعوامل السأم والضجر ، أو تبعث فى نفسه شيئا من قوة الأمل والرجاء ... كل هذه الأمور تعتبر من العوامل التى تؤثر على نوعية العمل وتحدد قيمته)[١].

الوجه الرابع : أن الأشياء ذات القيمة ليست نوعا واحدا بل مختلفة .

يقول العطار : (أما أن الأشياء ذات القيمة نوع واحد فهو خطأ كبير لأن الأشياء نوعان إن لم تكن أنواعا .

أول هذه الأنواع وأشيعها : هو ذلك الذى يعطيه المعطى فيفقده ، ويأخذه الآخر ويربحه ، ومثاله الذهب والفضة والعملة ، ومثاله الطيبات المادية من مطعوم ومشروب وملبوس ومركوب .

والنوع الثانى على عكس النوع الأول ، يعطيه المعطى ويأخذه الآخذ فيزداد المعطى منه ، ويستفيد الآخذ الفائدة التى يربحها ، كالآداب والعلوم والفنون ، ومثل النصح والتوجيه)[٢].

(والنوع الثالث : ربما كان خفيا لايبدو إلا لعين المدقق ، وأعنى به ذلك النوع من القيمة الذى يعطيه المعطى فلايفقده ، بل يزداد رصيده منه بالإعطاء ، ويأخذه الآخر فلايربح بأخذه شيئا ، مثال ذلك خبرة الطبيب وعلمه فى علاج المريض أو فى جراحته ، يعطيها الطبيب مريضه فلاتنقص خبرته ، بل تزيد ، ويأخذها الآخذ المريض فلايأخذ شيئا من الخبرة والعلم ، وإن انتفع من نتيجتها شفاء من داء ، وربما استفحل الداء ، وربما مات

---

(١) إقتصادنا (١٨٨) ، وانظر مابعدها فقد ذكر بعض اعتراضات الماركسية ، وأبان بطلانها من خلال الواقع .

(٢) الشيوعية (٩٤) .

المريض ، فإن نتيجة الخبرة شيء مختلف عن الخبرة نفسها ، ولذلك نقول إن الطبيب يستفيد خبرة فوق خبرته، ولايستفيد المريض من خبرة الطبيب شيئا من نوع الخبرة وإن انتفع بنتيجتها حينما يغنم الشفاء .

فإذا كانت أنواعا ثلاثة تختلف فى اللباب والجوهر كل هذا الاختلاف المبين ، فكيف يقال أو يجوز أن يقال : إن مرد القيمة فيها جميعا واحد هو الجهد الإنسانى المبذول فيها؟ هذه واحدة .

والثانية أن ماركس يوحد بين الشىء القيم والجهد المبذول فيه ، وهما شيئان مختلفان أشد الاختلاف ، ولايلتقيان إلا فى حالات الإنسان السوى الذى لايعانى من العاهات والأمراض ، ولكن ، هب أن مجنونا يبذل جهدا كبيرا فى نقل الماء من النهر إلى النهر نفسه كساقية جحا المشهورة ، أو هبه يمزق ثوبه ثم يخيط مامزقه ، أيكون لجهده هذا قيمة؟ ثم هب هذا المجنون قد وقع على درة ثمينة وجدها لقى فى التراب ، أيقلل من قيمتها أنه وجدها لقطة بغير جهد بذله فيها؟ إن الشىء القيم والعمل المبذول فيه شيئان مختلفان والتوحيد بينهما خطأ مبين . ربما كان العمل عاملا من عوامل القيمة فى الشىء القيم ، فهذا شىء لانكران له مادام العمل من النوع القيم الذى يزيد فى قيمة الشىء المبذول فيه ، أما القول بأنه المرجع الوحيد للقيمة فخطأ واضح لامراء فيه)[١].

ومن هنا فهم يخلطون بين القيمة والثمن . فمثلا :

(الماء فى البحر أو النهر أو العين أو البئر لاثمن له إذا أخذته ، أما الماء الذى يستقه السقاء ويحمله إليك فلابد له من أجر عمله ، وأنت لاتعطيه ثمن الماء ، ولكن أجر عمله فى الإستقاء والنقل) .

(فأجر العمل شىء وثمن هذا الشىء شىء آخر ، وهما مختلفان ، يختلف أحدهما عن الآخر ، وهما يختلفان عن القيمة التى هى شىء ثالث غيرهما . ولهذا قد توجد القيمة حيث لاعمل ولاثمن مثل قناع أخناتون ،

---

(١) الشيوعية (٩٤-٩٥) .

وقد يوجد العمل ولاقيمة مثل هذيان المجنون ، وقد يوجد الثمن ويزداد وينخفض ولاقيمة هنا وهناك كتمائم السحرة ورقى المشعوذين بين الأقوام المتخلفين)[١].

الوجه الخامس : إن النظرية هذه تغفل عن كثير من الأمور التى تدخل فى تحديد القيمة مع العمل .

ومن ذلك :

(١) تكاليف الإنتاج .

(٢) مدى منفعة السلعة وفائدتها .

(٣) شعور المستهلك بالحاجة لهذه السلعة .

(٤) مصادر الطاقة الطبيعية[٢].

الوجه السادس : أن النظرية عجزت عن تفسير بعض الأمور ومن ذلك:

(أ) (الأشياء التىلم ينفق فيها أى عمل كالذهب والمعادن الثمينة) .

(ب) (الفارق بين السلعتين مع التساوى فى العمل) .

(ج) (كذلك لاتفسر لنا اتفاق بعض السلع فى القيمة مع إختلاف قدر العمل المبذول فيها)[٣].

وبهذا يثبت بطلان زعم الماركسية فى أن قيمة السلعة تكمن فى مقدار العمل المبذول فيها .

(ب) **فائض القيمة** :

وبيان بطلانها من وجوه :

الوجه الأول : أن هذه النظرية تقوم على أساس أن الرأسمالى دائما يربح ، علما بأن ذلك أمرا ليس مطردا فالربح والخسارة واردان .

---

(١) الشيوعية (٩٦-٩٧) .

(٢) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢١٦) .

(٣) المرجع السابق (٢١٧) .

يقول حجى : (وفى اعتقادنا أن مافى هذا التنظير من "السياسة" أضعاف مافيه من "الإقتصاد" ، وهذه هى زلة الإقتصاد الماركسى برمته . فإذا كانت زلة نظرية القيمة الماركسية هى فى قصرها القيمة على العمل الإنسانى ونفيها لأى مصدر آخر كالطبيعة أو الموهبة أو المهارة أو التنظيم ؛ فإن زلة نظرية فائض القيمة هى فهمها الضيق لدور الرأسمالى أو رب العمل : فقد انطلق كارل ماركس من نقطة اعتبرها مسلمة من المسلمات الثابتة ، وحقيقةلاريب فيها ، وهى أن (الرأسمالى) لايعمل شيئا! ولاريب أن هذا القول يخالف المنطق والواقع معا : من جهة فإن نظرية فائض القيمة الماركسية قد بنيت على أمر يخالف الواقع تماما ، وهو افتراض ربح الرأسمالى دائما . وانطلاقا من هذا الافتراض جنح ماركس إلى اعتبار مايحصل عليه رب العمل - وهو مايزيد على مايدفعه للعمال مقابل شرائه لقوى عملهم - هو قيمة فائضة يحصل عليها باستغلاله للعمال الذين من خصائصهم ... أنهم ينتجون أكثر مما يأخذون ويستهلكون .

ولاريب أن هذا الافتراض ، افتراض خاطىء لأنه مبنى على تثبيت فرضية ربح الرأسمالى أو رب العمل ، وهو تثبيت لاأساس له من الصحة ، فمن المؤكد أن رب العمل قد يربح وقد يخسر ، فبماذا يفسر الإقتصادى الماركسى حالة خسارة رب العمل عند وقوعها؟ ولماذا لايفسر ربحه بأنه تطبيق لمبدأ مغانم الأعمال التجارية ومغارمها؟)[١].

الوجه الثانى : أن هذه النظرية نظرت إلى السلعة بحد ذاتها وكأنها موجودة تلقائيا فتناست صاحب العمل ودوره الفكرى والتنظيمى من حيث الإدارة والفهم لذلك المنتوج ، وتناست الآلات والأدوات التى تستخدم فى إنتاج تلك السلعة . والجهد الذى يبذله صاحبها فى صيانتها والمحافظة عليها وماإلى ذلك .

---

(١) تجربتى مع الماركسية (١٣٦-١٣٧) .

وقد تستقيم نظريتهم لو أن السلعة أوجدت نفسها بنفسها!! كما قالوا عن الطبيعة ، ولكن لن يقبل منهم ذلك لأنه مشاهد!! محسوس حسب نظرياتهم!!

يقول حجى : (وهل "العمل" هو فقط العمل اليدوى المباشر للشغيلة أما التنظيم والإدارة والعمل الذهنى فليسوا من قبيل العمل؟! .

لاريب أن نظرية فائض القيمة تفترض ـ بشكل لايقبل الجدل ـ نفى صفة العمل عن التنظيم والإدارة ، وهما جوهر دور رب العمل ، بالإضافة إلى دور العمل الميت "المحل والمكان والآلات" والذى وإن كان الماركسيون يقرون بمساهمته فى العملية الإنتاجية إلا أنهم لايوافقون عليه هنا ، لأنه فى نظرهم من قبيل عمل الغير الذى آل للرأسمالى بالميراث والذى يرفضه الماركسيون كما هو معلوم!) .

ويضيف : (ونحن نتساءل : هل يمكن لإنسان خبر التجارة والأعمال والصناعة فى مجالاتها المتقدمة أن ينكر دور التنظيم والإدارة والتسويق ، ومايلعبه الاستعداد الخاص والمهارة الذاتية فيها من فارق كبير بين يباعد مابين النجاح والفشل؟ ـ والإجابة عندنا ـ وعند كل دارسى علوم الإدارة والتنظيم ـ لايمكن أن تكون إلا بالنفى)(١).

ويقول حسين أبو الحسن : (وماركس فى نظريته هذه ، لم ينتبه ـ عن قصد أو غير قصد ـ إلى نقطتين مهمتين :

أولا : ضرورة تحديد قيمة عمل الآلات والأدوات التى تساهم فى الإنتاج والتى يصبح لها قيمة معينة عندما تنتج وتعمل . وعندها لابد من احتسابها من مجمل قيمة السلع المنتجة .

وثانيا : فيما يبذله صاحب العمل من قوة عمل "قد لاتكون جسدية ولكن عقلية ونفسية" تتمثل فى تسييره للعمل وإشرافه على إدارته وتصريف الإنتاج وتحضير المواد المحولة إضافة إلى تحضيره وتجهيزه لوسائل الإنتاج

---

(١) تجربتى مع الماركسية (١٣٧-١٣٨) .

وعناصره . وهنا لابد من أن تعطى هذه القوة من قيمة إنتاجية معينة يجب أن تحتسب من مجمل القيمة الزائدة)(١).

الوجه الثالث : أن علماء الإقتصاد رفضوا هذه النظرية وانتقدوها ، بل جاء ذلك حتى عن طريق الإشتراكيين أنفسهم ، فهذا مؤسس الحزب الإشتراكى الديمقراطى الألمانى برنتشين يقول : (إن نظرية فائض القيمة تعتبر بتأسيسها على نظرية ماركس فى القيمة صيغة تقوم على افتراض أثبت العلم الإقتصادى بطلانه)(٢).

ويقول برتراند راسل : (إن نظرية فائض القيمة ليست مساهمة فى النظرية الإقتصادية بقدر ماهى ترجمة الكراهية إلى تعبيرات مجردة وصيغ رياضية)(٣).

الوجه الرابع : أن الواقع التطبيقى يرفض هذه النظرية ويصادرها كما صادر بقية المبادىء الماركسية ، وإن كان فى أوقات مختلفة . وإذا كانت الرأسمالية استغلت العامل ، فإن الحزب الشيوعى قد بالغ فى ذلك الاستغلال ... فهل استطاعت الشيوعية - وهى تطبق الأفكار الماركسية بما فيها نظرية القيمة الزائدة الاستغلالية التى أرادوا القضاء عليها - أن تحقق للعامل ماوعدته به؟!! .

يقول فارغا : (إن كل ماصنعه النظام الشيوعى وسفك فى سبيله الكثير من الدماء هو أن فائض القيمة قد تحول من جيوب الرأسماليين إلى جيوب الأقطاب من رجالات الحزب ، وأما العمال فلم يأخذوا حتى الحد الأدنى من الأجور)(٤).

فيذهب فائض القيمة إلى أعضاء الحزب ، وإلى من يمد يده لمساندته

---

(١) معالم الإشتراكية العربية (١١٦) ومابعدها ، وانظر (١٠٧-١٠٩) ، ولمزيد انظر تجربتى مع الماركسية (١٣٨-١٣٩) .

(٢) نقلا من كتاب تجربتى مع الماركسية (١٢٩) ، وانظر الماركسيات بعد ماركس (٢٤-٢٥) .

(٣) طرائق الحرية ، نقلا من كتاب تجربتى مع الماركسية (١٣٠) .

(٤) الإشتراكية فى التطبيق (١٧) ، نقلا من كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٢٠).

والترويج لـه ، ويستخدم فائض القيمة فى السيطرة على المجتمـع ونشر الفكر الشيوعى ، وإعداد الشيوعيين وتربيتهم على مبادىء ماركس ولينين .

يقول فارغا : (ولما كان من المتعذر الحصول على قروض من الخارج ، فقـد كـان لامناص من ابتزاز تلـك الموارد المالية مـن السكـان ، لاعن طريق القروض الداخلية فحسب ، وإنما أيضا وقبل كل شىء عـن طريق الاستغلال المبـاشر لعمـل العمـال والفلاحين والمستخـدمين . لقـد اقتضـى نشـوء النظام الـرأسمالى "تراكما شخصيا" ، كـذلك اقتضى نشوء الإشتراكيـة فى بلد متأخر ومفلـس مرحلة مماثلة . وقد كـان لقانون تملك الدولـة لفائض القيمة دوره المباشر فى الصناعة .

أكـد ستالين عن خطل فى كـراسته "الأسس الإقتصـادية للشيـوعية" أن مقـولة القيمة لايعود لها مـن وجود فى ظل النظام الشيـوعى . وكـان يقصد "القيمة التبادلية" المتحققة فى العلاقات البضاعية . وفى الـواقع ، ومهما تكن الطـريقة التى تتظاهر بها قيمـة الناتج ، فإنها تقاس بكميـة قوة العمل المنفقة لإنتـاجه ، وعليـه ثمة ارتباط مـوضوعى تماما بين العمل وبين نتـائجه المادية .

لهـذا بالتحديد لايمكن البتـة لفائض القيمة أن يزول ويضمحـل ، فلو علم المجتمع فى ظل النظام الشيوعى عن حساب سعر كلفـة إنتاج هذا الناتج أو ذاك ، لألقـى بنفسـه فى سـديم مـن الفـوضى الإقتصـادية . ففـى جميـع مراحل الإنتاج الإجتماعى لاتظل القيمة التبادلية للناتج هى وحدها القائمة ، بل يظـل قائما معها فائض القيمة المتولدة فى سيرورة الإنتـاج . وكلما احتوى العمل الإنتاجى على المزيد من العمل الفكرى والعلمى والتقنى ، خلق المزيد من النواتج التى يتجاوز سعـرها نفقـات إعـادة تكوين قـوة عمـل العـامل ، وكـذلك النفقـات التىيعيـد عـن طـريقها مـالك المنشأة الإشتراكيـة ، إنتـاج رأسماله ، وإذا كان الناتج يحظى بطلب مناظرة فى المجتمـع ، ارتدت المسألة كلهـا إلى مـايلى : فى أى أيد يبقـى فائض القيمة؟ أفى يد العـامل نفسـه إذا كان هو المقاول الصغير أم فى أيدى زمـرة الملاك الـذين يشغلـون العـامل : روابط صغار من المنتجين ، أو المقاول الخاص الكبير فى الدولة البرجوازية ، أو أخيرا الدولة الإشتراكية؟

إن الحالـة الأخيرة هـى القـائمة فى المجتمـع السـوفييتى ، فى صنـاعته الكبيرة . فالدولة المركزة المساسة من قبل الحزب والبيروقـراطية ، تتملك ، من خلال تحقيقها قيمة الناتج فى تجارة الـدولة التـابعـة لهـا ، فـائض القيمة الـذى ينتجـه عمل العمال وتستخـدمه لسـد حاجاتها ، أى فى المقـام الأول لتطـوير الإقتصـاد القـومى المشـرك ، وكـذلك لـزيادة الامتيـازات المادية لأرستقـراطية الحزب والبيروقـراطية ، على هذا يمكن لفـائض قيمة الدولة أن يتحقق بطريقتين :

(أ) بضبط أجر العمال والمستخدمين ،

(ب)بضبط أسعار المنتجات المباعة فى مخازن الدولة . وفى كلتا الحالتين يتحقق ربح الدولة والفئة الحاكمة على حساب العمال والمستخـدمين . فأسعار سوق الدولة محدد بمعدل الحد الأقصـى المحقـق ، وغير المحقـق أحيـانا ، والمضاعف عدة مرات ، والمتجاوز أحيانا على نطاق واسـع جدا نفقات العمل الفعليـة التى تكلفتهـا الدولـة لإنتـاج تلك المنتجات . ويتلقـى الشغيلـة مـن جانبهـم أجر الحد الأدنى الـذى لايكـاد يسمح لهم بحكـم أسعـار المنتجـات ، بأكثر من سد رمقهم . وكانت نتيجة ذلك إذلال الشغيلة معنويا ، ودفعهم فى كثير مـن الأحيان إلى البحـث عن وسائل إضافية للعيـش ، وإلى الجمـع بين استخدامات متعددة ، وأحيانا إلى انتهاك القانون)[١].

وإذا كـان الماركسيون يعتبرون الـربح هو القيمة الـزائدة التى يأخذها الرأسمالى فإن واقعهم قد دل على أنهم استغلوا أكبر قدر من الربح لمصالحهم فكيـف يحرمـونه على الرأسماليين ويبيحـونه لأنفسهم ، إن الـواقع فى الاتحاد السـوفييتى قد دل على فساد الفكـر وعدم إمكانية تطبيقـه فى الحيـاة اليومية .

فمثلا (مصنع زيرزينسكى الذى يقع فى مدينة إيفانوفو Ivanovo معقل صناعة النسيج فى الاتحاد السوفييتى ، وهو يعتبر أكبر مصنـع للغزل فى البلاد وتقـول إحصائيات هذا المصنـع لسنة ١٩٥٦م : أن الأرباح التى تحققـت بعـد

---

(١) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٥٦-٥٨) .

دفع أجور العمال والمصاريف الأخرى بلغت أربعين مليون روبل ، ونقل جزء من هذا المبلغ إلى صندوق المديرين ، بينما نقل ٣٦ مليون روبل إلى الخزينة الحكومية ، أى : أن الحكومة حصلت على تسعين فى المائة من أرباح هذا المصنع وحده)[١].

ويقول وحيد الدين خان : (يأتى نحو خمسين فى المائة من الميزانية المركزية للاتحاد السوفييتى من أرباح المصانع والمنظمات الإقتصادية ، وقد حددت ميزانية ١٩٥٧م هذه الأرباح بمبلغ ١٥٦ بليون روبل ، ومثل هذه الدخول ضرورية فى نظرى لإدارة أى نظام حكومى ، ولكنه ليس إلا صورة جديدة للنهب الجارى فى البلاد الرأسمالية ، عندما ننظر إليه من منظار "القيمة الزائدة" وهذا النظام ليس إلا استبدال نظام استغلالى بآخر من منظور الماركسية)[٢].

الوجه الخامس : أن الاتحاد السوفييتى أضحى دولة رأسمالية فى فئة من الناس تحاول أن تطبق الشيوعية على غيرها ، ويصور أندريه جيد الاتحاد السوفييتى كيف أضحى دولة برجوازية ممثلة فى الحزب الشيوعى ، وأنه قد قام على خداع العمال والتغرير بهم ، فيقول :

(وإنى لأشهد اليوم فى الاتحاد السوفييتى بوادر "بورجوازية" جديدة تنمووتتطور من بين صفوف هذه الجماهير التى لم تجرب بعد ، وأرى فيها العيوب والمساوىء ذاتها التى لدينا ، إذ لم تكد ترتفع فوق مستوى الفاقة حتى أضحت تحتقر الفقراء ودبت عقارب الغيرة فى نفوس أفرادها ، واستولت على المتع والمناعم التى كانت محرومة منها أمدا طويلا ، وأمست تعرف كيف تظفر بها ، وكيف تحفظها وتصونها ، فلاتفلت من أيديها ، فهل هؤلاء القوم حقا هم الذين صنعوا الثورة؟؟

---

(١) نقلا من كتاب سقوط الماركسية (١٦٦-١٦٧) .
(٢) المرجع السابق (١٦٧) .

كلا . وأيمن الحق ... إنهم فى الواقع معاشر الذين استغلوها لمنفعتهم ، وأحالوها إلى مصلحتهم ، بدوافع الأنانية وحب الذات ، وقد يكونون إلى الآن أعضاء فى الحزب الشيوعى ، ولكنهم لم يعودوا شيوعيين فى أطواء جوانحهم ، وأعماق قلوبهم .

ولست ألوم الاتحاد السوفييتى على أنه أخفق فى تحقيق أكثر مما قد حقق . لأنى أعتقد أنه لم يكن فى الإمكان أحسن مما كان ، لأن البلاد بدأت من درك سحيق ، وكانت قبل الثورة فى أعمق وهدة ، ولكنى ألومه على مدى الخدعة التى استمرأها ، والدعوى الضخمة بأن الحالة فى روسيا مما يحسد عليه ، وتطيب النفس له ، فإن زعما كهذا من البلد الذى كان مناط آمالى ، ومعقد إيمانى ، أليم لنفسى محزن لخاطرى .

وألوم الشيوعيين فى فرنسا، وفى كل مكان كذلك ؛ ولست بلائم أولئك الذين خدعوا لحسن نيتهم ، وسلامة طويتهم ، وإنما أنا لائم الذين كانوا يعرفون أكثر من سواهم ، أو الذين كان أولى بهم أن يعرفوا ، ولكنهم أبوا إلا أن يكذبوا على العمال فى الخارج ويغرروا بهم ، وإن ظلوا طيلة الوقت يلتمسون تحقيق أهداف سياسية .

ألم يئن للعمال خارج روسيا السوفيتية أن يدركوا أن الحزب الشيوعى أضلهم وغرر بهم ، كما أضل من قبلهم العمال فى روسيا ذاتها؟؟)(١).

ويقول : (ولن يحول بينى وبين الصراحة شىء ، ولاالولاء الحزبى ذاته لأنى ؛ أضع الحق فوق الأحزاب ، وأعلم حق العلم أنه ليس فى التعاليم الماركسية شىء يقال له "الحق" أو الحق المطلق على الأقل ؛ وإنما الحق فى تقديرها نسبى ، ولكنى أعتقد مع ذلك أنه من الإجرام فى أمر خطير كهذا تضليل الناس والتغرير بهم . ومن الأمور الواجبة بغير إبطاء أن ينظر الناس

(١) المعبود الذى هوى (٢٥٢-٢٥٣) .

إلى الأمور كما هى ، لاكما يودون أن تكون ، وكما كانوا يرجون .

إن الاتحاد السوفييتى قد خدعنا فى أعز أمانينا ، وبين لنا كيف يمكن أن تزل بالثورة الصادقة البريئة القدم فى الرمال الخادعة . والسباسب اللينة الكاذبة .

إن المجتمع "الرأسمالى" قد عاد فاستقر ، وقام طغيان جديد مكانه ، طغيان رهيب ماحق مستغل توافرت فيه كل مافى العبودية من حقارة ومهانة وذل ...)"(١).

ويبين أندريه جيد أن اختفاء الرأسمالية من الاتحاد السوفييتى لم يعط العمال خيرا أو نفعا ، بل بالعكس ، فيقول :

(لم يعد اختفاء "الرأسمالية" من روسيا على العمال فيها بخير أو نفع ، ولم يسق إليهم الحرية التى كانوا لها ناشدين ، فلتدرك الطبقات الكادحة فى خارج الاتحاد السوفييتى هذه الحقيقة كل الإدراك . ولست أنكر أنهم لم يعودوا ألعوبة فى أيدى أصحاب رؤوس الأموال وحملة الأسهم والسندات يستغلونهم كيف يشاءون ، ولكن الواقع أن الاستغلال ، لايزال قائما ، وإنما أصبح مقرونا بأعجب الوسائل وأمكرها وأشدها التواء بحيث لم يعد القوم يعرفون من هم الملومون فيه ومن هم الذين يؤاخذون عليه ، فإن معظم أفراد الطبقة الكادحة يعيشون تحت مستوى الفاقة ، بينما أتاحت أجورهم التى لاتسمن ولاتغنى من جوع الفرصة لزيادة مكاسب العمال "الممتازين" أومعاشر الخانعين المسلمين بكل مايطلب منهم ، القائلين "نعم" فى كل شيء ، ولايسع المرء إلا الدهشة من فرط الاستخفاف الذى يبديه أهل السلطان نحو الذين من دونهم والخنوع والذل اللذين يظهرهما هؤلاء لأولئك ، أو دعنى

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٥٣-٢٥٤) .

أقل : اللـذين يبديهما الفقـراء ومعـاشر المكدودين ، وأنا أسلم جدلا بأنه لم تعد فى روسيا طبقات ولافوارق ، ولكن الواقع أن فيها فقراء ، بل إنهم فيها الكثرة البـالغة ، وكنـت أرجو ألاأجد منهـم أحدا ،أو بعبـارة أصح ، لقـد ذهبت إلى روسيا لكيلا أجد للفاقة فيها أثرا ... ولكـن الفاقة هناك يعبس فى وجههـا ، وتقـابل بالإعراض والتجهـم والإشمئزاز ، حتى ليخيـل للمـرء أنها الفـاقة الأثيمـة الناشئة فى أحضـان الإجرام ، فلاتثير شفقـة ، ولاتبعـث على العطـف والإحسـان ، بل ينظـر إليهـا بعين الإزدراء والإحتقـار ، ومـاأولئك الذين يتراءون متكبرين مزهوين إلا الذين اشتروا كبرياءهـم وتوفيقهم بثمن هذه الفاقة العامة ، وعلى حساب هذا الفقر الشامل)(١).

ويقول وحيد الدين خان : (إن روسيا الإشتراكيـة تزخر بكل الأشياء التى اعتبرها ماركس "نتيجة للمجتمع الرأسمالى")(٢).

الوجه السادس : أننا لو عقدنا مقارنة بسيطة بين عمال الاتحاد السوفييتى والعمـال فى أوروبا الغربية تحت الأنظمـة الرأسمالية لـوجدنا الفـارق الكبير واضحا .

فى احترام العـامل والمحافظة على حريته الشخصية ، وتوفير الحاجيـات له ، والإهتمام بمسكنه وحصـوله على مقـابل لجهـده ، وحريتـه فى الإنتـاج والتنقـل ومشاركته الفعلية فى أحداث بلاده السياسية ، وإضـرابه الفعلى عن العمـل الذى تقره الأنظمة هنـاك . أما فى النظام الشيـوعى ، فلايكاد العامل يجد مـايسد رمقـه رغم استهلاك قـواه فى العمل من أجل الحزب والـدولة ، فيـذهب جهده لغيره ، وماعليـه إلا أن يعمل ليأكل فقـط وإلا مات جوعا ، والإقتصـاد الماركسـى يقـوم على "سنفعـل" ، "سيكـون عنـدنا" ، "وعلى

(١) المعبود الذى هوى (٢٣٧-٢٣٨) .
(٢) سقوط الماركسية (١٣) .

المشروعات الخماسية والسداسية المنتظرة" ، ولكنه لايقوم على أساس "إننا نفعل" أو "لدينا الآن"(١). فالشيوعية تتحول إلى مخدر وأفيون للعمال والفلاحين حيث تعدهم بالغد المشرق والمستقبل الأفضل ، ولكن الغد لاياتى إلا بمزية البؤس والفقر .

إن الواقع التطبيقى للنظام الشيوعى يخالف كل ماجاء من ادعاءات تحقيق الحرية والمساواة والسعادة للعمال والموظفين والتشريعات الشيوعية أصبحت كنظام الإقطاع فى أوروبا حيث كان الفلاح ملكا لصاحب الأرض ، لايجوز أن يغادرها إلا بإذنه ولايحصل على أكثر من المأكل والمشرب(٢).

أما القوانين التى رتبها ماركس على ذلك ، فكذلك لايسندها الواقع ولاتستقيم نظرا لأن الأساس الذى بنيت عليه منهار فمثلا :

القانون الأول : تجميع رأس المال :

يرفضه الواقع .

يقول حجى : (إن السنوات التى تفصل بيننا وبين زمن ماركس قد أثبتت خطأ هذه القوانين بشكل بين لالبس فيه . فبينما تنبأ ماركس بأن تطور النظام الرأسمالى سيدفع الرأسمالى إلى الإعتماد على الآلات والإستغناء عن العمال ، فإن قرنا كاملا من الزمان أكد أن حاجة أرباب الأعمال - فى النظم الراسمالية - للعمال قد ازدادت عما كانت عليه عشرات المرات ، وأن فرص العمل التى يتيحها النظام الرأسمالى - الآن - للعمال هى أضعاف أضعاف ماكان يتيحها فى زمن ماركس .

أما ظاهرة البطالة فى المجتمعات الرأسمالية ، فهى - فى جوهرها - تسمية للأشياء بأسمائها ، فعوضا عن البطالة المقنعة المتفشية فى كل النظم

---

(١) من أقوال ريمون آر ، أفيون المثقفين (١١٤) ، نقلامن كتاب إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٢٢) .

(٢) انظر إنهيار الشيوعية أمام الإسلام (٢٢٢) .

الإشتراكيـة ، حيث يوفر مكـان لكل إنسان فى أحد المكـاتب أو المصـانع أو مزارع الدولة ، دون أن يعنى ذلـك مشـاركة الكل فى العمـل ؛ عـوضا عـن ذلك فإن النظم الرأسمالية تسمى الأشياء بأسمائها وتعترف بنسبة من البطالة وتحيـط العاطلين عن العمل بضمانات قانونية وإجتماعيـة تكفل حدا أدنى من الدخل يربو على معظم العمال فى النظم الإشتراكية)[١].

إن حتميـات ماركس تنهار أمـام الواقع والتجربة فقـانون تجميع رأس المال المتغير "العمل" هو وحدة أساس القيمة ، وأن نقصـه نتيجة الابتكارات الحديثة يؤدى إلى نقص نسبة الربح فيشتد الصراع ويسرع المجتمع إلى نهايته المحتومة ، وهذا الاستنتاج منبثق من سلبية الإدارة الإنسانية وسيادة الظروف المادية . وقـد كـان الإنسان بواقعـه قـادرا على تفادى النهـايات التى تنبأ بها ماركس فحيثما خيم شبحها على بعـض المجتمعـات نشطـت الإرادة الإنسـانية ووضعت شروطا أفضل للعمل وسنت قوانين إقتصادية وإجتماعية ، وأصبحنا نرى أمثلـة لـدول بلغـت شـأوا بعيـدا فى تجميـع رأس المال كـألمانيا ودول اسكنـدناوه فلم تتحقـق نبوءة مـاركس فى طـرد العمال وانخفـاض الأرباح بل كانت النتائج خلاف ماصور ماركس ، فكانت تلك الدول بحاجة إلى الأيدى العاملة وبهذا يظهر واقع جديد خلاه نبوءة ماركس[٢].

انيا : قانون تراكم رأس المال :

لقـد اعتبر ماركس أن عدد العمـال سيأخذ فى الازدياد وينكمـش عـدد الرأسماليين ولكن الواقع كذب ذلك .

---

(١) تجربتى مع الماركسية (١٤٠) .
(٢) انظر حوار مع الشيوعيين (١٨٤) .

يقـول حجى : (أما قانون تراكم رأس المال ، والـذى مفاده ـ حسب قول ماركس ـ أن عدد الرأسمـاليين سيأخذ فى الإنكمـاش وسيـأخذ عـدد الأجراء فى التزايد ؛ فمردود عليه بأن الواقع يؤكد أن طبقـة أرباب الأعمال أو الـرأسماليين تزداد عـددا واتسـاعا بشكـل مطـرد فى البلـدان الصنـاعية الـرأسمالية ، وأن الانتقـال لايتم فى القمـة للقاع ، وإنما مـن القـاع للقمة .

والجدير بالذكر هنا أن البراهين على بطلان قانون تراكـم رأس المال لم يتـأخر ظهورها إلى مابعد وفاة كارل ماركس (سنة ١٨٨٣م) وفـردريك انجلز (سنة ١٨٩٥م) ، ففى بريطانيا التى كان يقيم كارل ماركس فيها بصفة دائمة فى ذلـك الـوقت ، صدر فى سنة ١٨٦٢م قـانون الشـركات الانجليزى الـذى أدى لتضاعف عدد الشركات والمشاريع الخاصة عشرات المرات ، وذلـك بخلقه نمط الشـركات المسـاهمة ، وهى شـركات أوجدت فئـة جديدة مـن الـرأسماليين الـذين لايديرون مشـاريعهم وإنما يوكلـون بهذه المهمـة لخبراء يؤجرون على ذلـك ؛ وهو مـاأدى بالفعـل إلى عكس مضمون قانون تراكـم رأس المال)[١].

ثالثا : قانون زيادة البؤس والفقر :

ذكر ماركس أن العمال نتيجة ذلك الاحتكار وتجمـع رأس المال فى يد طبقـة واحدة سيؤدى إلى فقر الطبقـة العاملة وزيادة بؤسهـا . غير أن الواقع الرأسمالى أبطل تلك المقولة وثبت فى ذلك المجتمع خلاف مـاتنبأ به ماركس بينمـا حقت نبؤة ماركس على العامل فى ظل الأنظمة الشيـوعية المعتمدة على الأفكار والمبادىء الماركسية .

وبالنظر لحال العمال فى المعسكرين الرأسمالى والشيوعى يظهر جليا أن هذه النظرية لم يكن لها حظ فى الصدق أو مجرد الاقتراب منـه . حيث حصل العـامل فى الـدول الرأسماليـة على كثير مـن الحقوق السيـاسية والإقتصـادية

(١) تجربتى مع الماركسية (١٤١) ، وانظر حوار مع الشيوعيين (١٨٥-١٨٧) .

والإجتماعية ، بينما كان العامل فى الاتحاد السوفييتى يفتقر لأبسط الحقوق[١].

(٤) الصراع والثورة :

وبناء على ماسبق من قوانين ونتيجة لهذا القانون كان لابد من حدوث الصراع والتصادم بين العمال والرأسماليين[٢]. واعتبر ماركس أن الثورة أساسية فى قيام الدكتاتورية البروليتارية ، وأن السبب فى هذا الصراع هو الطبقة الرأسمالية .

حيث (نسج ماركس خيوط هذا الاتهام من نظرية فائض القيمة . ذلك أن فائض القيمة الذى يستولى عليه الرأسماليون بأكمله والذى كان يجب أن يذهب إلى العمال هو السبب الأصلى للصراع . فطالما استولت فئة صغيرة من المجتمع على خيرات هذا المجتمع "ممثلة فى فائض القيمة" ولم تجد فئة العمال التى تمثل الأكثرية إلا أجر الكفاف فلابد أن يكون هناك صراع ولابد أن تزيد الهوة التى تفصل بين الطبقتين نتيجة لهذا الصراع)[٣].

وعلى كل هل كانت الثورة هى العلاج الناجع لظلم الرأسمالية؟!! إن واقع الدول الغربية التى لم تأخذ بهذه السياسة أو الفكرة ـ بل إن واقع الأحزاب الإشتراكية ، الديمقراطية ، التى رفضت ذلك المسلك ـ قد حققت أكثر مما حققته الثورة ضد الرأسمالية .

ثم ننظر إلى الثورة البلشفية التى قامت ضد النظام الاستغلالى هل حققت للعامل ماكانت تدعيه؟

---

(١) انظر عن هذا القانون وبيان فساده وعدم مصداقيته : تجربتى مع الماركسية (١٤٢-١٤٣) ، حوار مع الشيوعيين (١٨٧-١٨٨) ، هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٨١) ، الكيد الأحمر (١٦٦-١٦٧) ، السرطان الأحمر (٩٢) ، الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٩٥-١٩٦) .

(٢) انظر ماذكره لينين فى كتابه إفلاس الأممية الثانية (١١-١٢) .

(٣) النظم الإقتصادية المعاصرة (١٧٠) .

إن الواقع السوفييتى يبطل ماادعت الماركسية تحقيقه للعامل .

وأما قوله بعد ذلك أن الرأسمالية تطمح إلى الاستعمار فإن ذلك بالنسبة لنا يصدقه الواقع ، ولكن هل الشيوعية سلمت منه؟ فنحن لاننكر أن الراسمالية قائمة على المنفعة المادية البحتة ، وكذلك المذهب الماركسى إنما قام على المادة أساسا . بل واعتبرها الإله ، فالنتيجة إذا واحدة . أما أن تكون الماركسية ، أو النظرية الشيوعية تحارب الاستعمار فإنا نسأل ماهذا الذى قامت به الشيوعية منذ قيامها فى الاتحاد السوفييتى مباشرة ، بل بعد ذلك بأشهر معدودة؟ حيث ثم اضطهاد المسلمين والاستيلاء على أراضيهم ومصادرة ممتلكاتهم[١].

ثم اتجهوا بعد ذلك إلى أوروبا الشرقية فاحتلوا بولونيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وألمانيا والبانيا وبولندا ، ولم يكتفوا بذلك فسيطروا على اليمن الجنوبى وأثيوبيا وكانت نهاية المطاف الاحتلال لأفغانستان .. فكيف يقال بأن الرأسمالية استعمارية ، والشيوعية تريد القضاء على ذلك الاستعمار . إن هذا الفعل من الشيوعية دليل قاطع على أن النظرية الماركسية كانت أوهام وتخيلات فى ذهن ماركس ، وحق لنا أن نسميها "إشتراكية أو شيوعية طوباوية" لاعلمية كما قال أصحابها .

وفى خضم هذه النظريات الماركسية وكذلك الرأسمالية أصبح اختيار أصحابها لها وتمسكهم بها كما يذكر جورج سول مسألة ذوق ، نظرا لتناقضاتها الواضحة .

حيث قال : إن (المرء لايمكن أن يعتنق أو يتعلق بجميع هذه المذاهب فى وقت واحد ، ذلك أن الكثير من آرائها ومعتقداتها يناقض بعضه بعضا .

---

(١) راجع فصل الحريات (٧٦٣) ومابعدها .

ويبدو أن بعض المتحمسين يختارون نظرية أو أخرى كأنما الاختيار مسألة تتعلق بالذوق ...)(١).

ويقول : (ومن سوء الحظ أن الكثيرين من أتباع المذاهب يخطئون ، إذ ينظرون إلى النظم المنطقية على أنها تمثل حقيقة نهائية وشاملة ، كما يصرون على أن من الضرورى أن يطيع الغير المبادىء التى تستهويهم . وهم يخطئون كذلك إذ يظنون أن رأيا تتعلق به أذهانهم مهما بدا رائعا وجميلا ، يمكن أن يكون صورة للعالم الخارجى . إننا لانستطيع أن نقدر مبلغ الشقاء الإنسانى الذى أحدثه أولئك الذين ليس فى وسعهم أن يمدوا أبصارهم إلى أبعد من الآراء التى يؤمنون بها)(٢).

وهكذا فإن المذهب الماركسى لايخرج عن هذه المذاهب التى قامت على النظريات والتنبؤات التى لايدعمها دليل ولايصدقها واقع ، ومن هنا كان الانتقاد الشديد لهذه النظرية وكذلك للمؤلفات التى تحدث فيها ماركس عن نظرياته الإقتصادية(٣).

إن واقع الدول الإشتراكية يكذب النظريات الماركسية ويبطلها بكافة الوجوه التى جاءت بها ، فأوضاع العمال تحت الحكم الشيوعى أسوأ منها تحت النظام الرأسمالى . وكذلك الإنتاج فى الدول الراسمالية أكثر منه فى الدول الإشتراكية ، بل لو شئنا لقلنا وأكثر منه كفاءة فى مجال التصنيع . وكذلك الحريات فى الرأسمالية ، قد وجدت وتوفرت بقدر كبير فيما يخص النظام الإقتصادى (بل وصلت إلى درجة الإفراط المذموم) . كما يدل واقع البلاد الإشتراكية على الفشل الذريع الذى منيت به من جراء سياساتها الإقتصادية القائمة على الأفكار الماركسية .

---

(١) المذاهب الإقتصادية الكبرى (٢١٧) .

(٢) المرجع السابق (٢١٧-٢١٨) .

(٣) انظر بعض مانقله حجى فى كتابه تجربتى مع الماركسية (١٤٤) .

يقـول حجـى : (مما لاشك فيه أن الـوضع الإقتصادى فى البلـدان الإشتراكيـة ، سـواء تلـك التى تطبـق ديكتـاتورية البروليتـاريا على أسـاس النموذج أو النمط السوفييتى ، أو بلدان العالم الثالـث ، مثل مصر الناصرية والدول التى حذت حذوها ـ لاينبىء إطلاقا بإمكانية تحقيـق أية وفرة إنتاجية تكفل المجتمع الشيوعى الذى تخيله ماركس .

ولاريب أن (بؤس) الإقتصـاد الإشتراكـى لايعـد بأى انفـراج حاد مستقبلى ...

ولاريب أن الـذين فرطوا فى "الحريات العامـة" مـن أجل وضعيـة إقتصادية أفضل ، قد اكتشفوا أنهم فرطوا فى الأمرين معـا وبدرجة واحدة . وإذا كـان الإشتراكيون يتشدقون منذ سنوات بأن الحرية الحقيقيـة هى الحرية الإقتصـادية والإجتماعية وليسـت الحرية السياسية ، فـإن نماذج نظمهـم تؤكد أنهـم قـد أقاموا نظما خالية مـن الحرية الإقتصـادية والسيـاسية والإجتمـاعية معا)[١].

ويقـول : (فلـو كانت روايات الشيـوعيين فى كـل مكـان عن نجاحات الإقتصـاد الإشتراكـى حقيقيـة فعليـة ، فمـن المؤكـد أن الحرية الإقتصـادية والإجتمـاعية التى يعتبرها الماركسيون الجوهر الحقيقـى للحرية هى أمر متوفر فى المجتمعات الإشتراكية ، ومن المؤكد أن الحرية السياسية التى تتبع فى رأى الماركسيين الحرية الإقتصادية والإجتماعية هى أيضا أمر متحقق فى المجتمعات الإشتراكيـة . وإذا افترضنا جدلا صحـة المقولتين آنف ذكـرهما ، فبماذا نعلل ضرب النظم الإشتراكية للأسـوار حول شعوبها ، وإحاطتهـم بالقيود العديدة التى تحول بينهـم وبين السفر والانتقال لرؤية العالم الآخر ، العـالم الرأسمالى المتخـم بالاستغلال والمظـالم والطبقيـة؟ وهـل يعقـل أن تترك نظـم الجحيم "الراسمالى" الرقيق البروليتارى فيها ينطلق ليرى العالم بأسـره ، ويرى ـ فيما يرى ـ فـردوس العمـال فى الـدول الإشتراكيـة ، وأن تفعـل نظـم الفردوس

---

(١) تجربتى مع الماركسية (١٤٦) .

العمالى النقيض : فلاتترك أبناءها ليروا بأعينهم مظالم وعبودية المجتمعات الرأسمالية ؟!!)[١].

إن الواقع الذى يعيشه العامل فى الاتحاد السوفييتى ودول أوربا الشرقية يبطل مزاعم الماركسية ، ودعاوى الثورة البلشفية من أساسها . ذلك أنه لم يتحقق ولاجزء من نبؤة من نبؤات ماركس التى أقام فكره الإقتصادى عليها . وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن أفكار ماركس الإقتصادية إنما قامت على تنبؤات وخيالات كذبها الواقع ورفضها جملة وتفصيلا .

ثانيا : أن الأفكار الماركسية الإقتصادية التى قامت على حتمية زوال الرأسمالية لكونها تقوم على الاستغلال كذبها واقع الدول الرأسمالية وهذا لاينفى وجود الظلم الذى أشار إليه ماركس .

ثالثا : أن الأفكار الماركسية الإقتصاديية والتى قامت الثورة البلشفية بتطبيقها فى روسيا أدت إلى فشل الإقتصاد السوفييتى وتأخره مما أدى إلى عدم وثوق الناس فى النظريات والأفكار الماركسية ، خاصة وأن كل الوعود قد بددتها الحقيقة . وهكذا غدا النظام الإقتصادى الشيوعى أحد العوامل التى أدت إلى سقوط الشيوعية والتعجيل بإنهيار الاتحاد السوفييتى . حيث كان يرغب الشعب فى الحصول على أبسط مقومات الحياة من غذاء وكساء . وهذا يدعونا لإيجاز أهم أسباب فشل النظام الإقتصادى الشيوعى .

أولا: مصادمة هذا النظام للفطرة الإنسانية بقضائه على الملكية الفردية .

ثانيا : مصادمته للواقع وفساد نبوءات ماركس النظرية التى بناها على تصورات وخيالات كان لواقعه الأليم الذى عاشه أثرا فيها .

ثالثا : أن ماركس قصد بهذه النظريات الدعم لمذهبه السياسى والفكرى أكثر منه اهتماما بالجانب الإقتصادى لأنه لو أراد ذلك لكان هناك أفضل مما ذهب إليه .

---

(١) تجربتى مع الماركسية (١٤٧-١٤٨) .

يقول حجي : (فماركس ليس إقتصاديا بأى شكل من الأشكال ، وتسلسل كتابات ماركس تاريخيا يثبت أنه لم يتطرق للإقتصاد إلا تحت ضغط الضرورة التى كانت تلزمه بإضفاء صفة العلمية على مذهبه ، ودعمه بالشق الإقتصادى ، كيلا يظل طورا من أطوار الفلسفة التى أنتجها الهيجيليون اليساريون ...)(١).

رابعا : قام النظام الشيوعى بالقضاء على الفرد فى حريته الإقتصادية وحرمه من الحوافز الفردية ، ولم يطعمه إلا مايسد جوعته فى حين حرمه من أن يأخذ الحق الذى يوازى عمله ، ممأدى إلى تدنى مستوى الإنتاج والقضاء على ملكة الإبداع والاختراع .

خامسا : قامت الشيوعية بإيغال صدور العمال ضد الرأسماليين ، فقام مقام الحب والإخاء العداوة والبغضاء . ولاشك أن فى هذا فساد كبير يحطم العلاقات ويجعلها مبنية على الغش والخداع ، وعدم الإخلاص من قبل العامل لصاحب العمل .

وأراد الشيوعيون بذلك الإبقاء على موالاة العمال لهم .

سادسا : الأهمية الكبيرة التى أعطيت للعامل الإقتصادى وربطهم الأخلاق والأفكار ونظام الأسرة بالتطورات الإقتصادية (سلبا) . وهذا فيه مصادمة للفطرة الإنسانية ، ومخالفة للسنن الإلهية الشرعية .

وإذا كان النظام يقوم على هذا الأساس فإن إنهياره محتوم وزواله وذهاب ريحه سنة إلهية جارية ، كما أن الشيوعيين بإعطائهم هذا العامل كامل التصرف فى الحياة الإنسانية تناسوا العوامل الأخرى ، وفى هذا مغالطة للواقع البشرى . حيث وجدت العوامل المؤثرة الأقوى من الإقتصاد مثل المعتقدات الدينية(٢).

---

(١) تجربتى مع الماركسية (١٤٤-١٤٥) ، وانظر الشيوعية (٨٩) .

(٢) انظر عن أهمية العوامل الأخرى نظام الحكم فى الإسلام (٢١٨-٢١٩) وانظر (٢٢٠) ومابعدها ، وانظر (٢٧٩) .

سابعا : التخلف الزراعى والصناعى الذى كان يعيشه الاتحاد السوفييتى مما كان له أكبر الأثر فى سخط الشعب حيث كانت الزراعة السوفيتية متأخرة مما جعل السوفييت يستوردون القمح من الولايات المتحدة الأمريكية ، وكذلك فى الأعم الأغلب لكل المستوردات[1].

ثامنا : أن الإقتصاد الموجه الذى انتهجه الاتحاد السوفييتى القائم على التأميم ومصادرة الملكية الفردية قد أخفق فى التطبيق مما جعل العمال مسحوقين تحت وطأة الحزب ونظامه فى حين كان أعضاء الحزب ومن لف لفيفهم يتنعمون بأطيب أنواع المأكولات والمساكن والمركوبات والمستشفيات . والعامل يكدح ولايلقى إلا اليسير بل الجزء القليل من اليسير وماتبقى من إنتاجه وعمله يذهب لقمة سائغة سهلة إلى الحزب ودهاقنته . فأصبح الاحتكار ديدن لهم ، والإسراف والتبذير شعار لهم ، ويفعلون كل مايريدون إذ لارقيب عليهم .

تاسعا : لقد كلف تطبيق الإقتصاد المدار الشىء الكثير ، فكم هم القتلى فى سبيل تطبيق المزارع الجماعية ، وكم هم الذين حملوا الحقد والكراهية للنظام منذ قيامه بعد أن صادر منهم ممتلكاتهم ، ورغم علم الماركسيين المنفذين للأفكار فى أرض الاتحاد السوفييتى بأن هذا النظام الإقتصادى مخالف لما فى قلوب الناس وتوجهاتهم بدليل أنهم فرضوه بالقوة وعاقبوا كل من وقف فى طريقهم ، إلا أنهم كانوا مصرين عليه وعلى تطبيقه ، وذلك ليضمنوا بقاءهم فى الحكم وليجعلوا الأمور بأيديهم ويسيرونها فى تحقيق مصالحهم .

عاشرا : أن المذهب الإقتصادى الشيوعى قام على فكرة أن من لايعمل لايأكل ، وفى هذا إجحاف كبير فى حق الإنسان العاجز والمريض . وفى ذلك

---

(١) انظر الفشل الكبير (٣٣٢-٣٤٨) . ولمزيد عن ذلك انظر : الإسلام وحقوق الإنسان (٤٠٩-٤١٠) ، لماذا رفضت الماركسية (١٧) ومابعدها ، مصطفى محمود ، دار العودة ، بيروت ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .

إخراج للمرأة لمشاركة الرجال فى العمل ومايترتب على ذلك من كوارث أخلاقية ، وكذلك فواجع أسرية بسبب خروج الزوج والزوجة من المنزل ، وتسليم الأطفال للمحاضن والملاجىء التابعة للدولة .

وأين هذا من الإسلام؟ الذى اهتم بالإنسان حال مرضه وعجزه وأوجب النفقة له ، وكذلك حفظ المرأة ، ودعا إلى بقائها فى بيتها ووجوب النفقة عليها .. بل إن عبادتها فى بيتها خير لها من أن تعبد ربها فى المسجد ، وماذلك إلا للحفاظ عليها وصونها ، مع إيصال حقوقها إليها وهى مطمئنة فى بيتها لتحافظ على أسرتها وتربى النشء لكيونوا أسوياء خداما لدين الله تعالى .

الحادى عشر : الجوع الذى جعل من الفرد فى الاتحاد السوفييتى والبلدان الشيوعية يفرغ لنفسه ساعات يومية لكى يصطف فى الطوابير من أجل الحصول على أقل الضروريات والحاجيات ليأكل هو ومن يعول ، مما جعل الفرد فى هذه الأنظمة ينقم على الفكر كله ، ويتيقن بأن الإقتصاد لايفى حتى بحاجيات الإنسان وضرورياته ، فأثبت الإقتصاد الشيوعى بنظرياته الخرافية فشله الذريع فى عدم قدرته على توفير الطعام والشراب لمن يعيش فى ظله وهل بعد انعدام هذين الأمرين من حياة أو تطلع ؟!!

إن هذا الجوع هو الذى فجر الثورة ضد النظام ، وهذا الجوع هو الذى أفقد النظريات بريقها ، وهذا الجوع هو الذى حكم على الإقتصاد الإشتراكى فى عالم الواقع بالإنهيار .

وقد مرت البلاد بويلات عديدة منها السيطرة القيصرية ، ثم الثورة البلشفية ، والحرب الأهلية ، والحرب العالمية الأولى والاهتمام بالتسليح الحربى على حساب الطعام ، والحرب العالمية الثانية ، ومن بعد الحرب الباردة وهكذا عاشت هذه الدولة فى أوضاع سيئة جعلت الشعوب التى تقطن الاتحاد السوفييتى لاتعرف للحياة الرغيدة سبيلا بل لاتعرف لحياة الكفاف طريقا .

فأدى ذلك الفشل ، وذلك التأخر إلى سخط الشعب ونقمته ونفوره من الفكر الماركسى ، والتطبيق اللينينى فكان لابد من الثورة ضده ، والعمل على إسقاطه واستبداله بما يحقق للشعب رغباته ، فكان إنهيار الإقتصاد وفشله أحد الأسباب فى سقوط الشيوعية .

أثر فشل الإقتصاد الشيوعى فى إنهيار الاتحاد السوفييتى وفكره :

إن ردة الفعل الطبيعية للظروف الإقتصادية المنهارة هى النقمة والخروج ضد هذا النظام والفكر ، وبالفعل حدث ذلك وأخذ الشعب يعبر عن حريته وإرادته التى سلبت منه عقودا من الزمن حيث بدأ (يرتفع صوت الأنين المكتوم فى النفوس طوال سنوات وسنوات لينطلق فى هتاف هادر فى أكبر ميادين موسكو : "لانريد الشيوعية ، ولانثق بالحزب الشيوعى"!!)(١).

وعبر الشعب عن سخطه على النظام وقادته ، حيث انكشفت الوعود وبان زيفها ، وكان لفشل الإقتصاد ، والجوع الناجم من أثر هذا الفشل أثر على جميع شعوب الاتحاد السوفييتى ويستثنى من ذلك أعضاء الحزب .

إن النظرية الماركسية الإقتصادية أبطلها الواقع ، ثم إن الواقع شهد على تناقضها وعدم مصداقيتها ، فقامت على الدعوة إلى المساواة ، وإلغاء الطبقات بعد القضاء على الملكية . فصادمت الفطرة الإنسانية بنظرياتها الإقتصادية ، ثم جاء الواقع وأراد أن يستأصل تلك الفطرة بالقوة ، فكان مصيره الفشل .

وادعت النظرية الماركسية بأنها ستلغى الطبقات .. غير أن الواقع التطبيقى كان أبلغ رد على بطلان ذلك الزعم وعدم تحققه ، لأن الله تعالى جعل التفاضل بين عباده ، وادعت النظرية الماركسية تحقيق المساواة .. إلا أن واقع الاتحاد السوفييتى قد جعل المساواة بعيدة المنال وكانت الفروق بين أفراد الشعب والتفاوت بارزة للعيان بل إن الفروق وعدم التساوى كانت موجودة حتى بين أعضاء الحزب .

ونظرا لفشل النظريات التى رتبت على القضاء على الملكية الفردية فإن كثيرا من المفكرين أعطوا التفسيرات لما يحدث فى الاتحاد السوفييتى من خلال تأخر وفشل النظام الإقتصادى وسوء الحالة المعيشية التى كان يعيشها الشعب السوفييتى . فالطوابير التى كان يراها الإنسان السوفييتى من أجل الحصول

---

(١) نقلا من كتاب كارل ماركس وداعا .. أم خداعا (٥٤) .

على أبسط مقومات الحياة جعلته يعتقد إفلاس النظرية الماركسية ، والسياسة السوفيتية القائمة عليها ، وسكت عقودا من الزمن ولم يكن باستطاعته الاستمرار على هذا الضغط والكبت وقلة العيش فثارت الجموع ضد الفكر والنظام القائم عليه فأعلن القادة التراجع كل بحسبه إلى أن جاء غورباتشوف ورأى أن زمام الأمور آخذ فى الإنهيار فطرح سياسته الجديدة . وقد ذكر فلاديمير بوكوفسكى أنه حتى بعد السياسة الجديدة فإن آثار السياسة القديمة كانت ذات آثار إلى وقتنا الحاضر .

(فالإقتصاد لديهم أقل إنتاجية .. طوابير الحصول على مواد الطعام الضرورية تزداد طولا وتدافعا .. البضائع تزداد ندرة . لقد أصبح واضحا أن "التعامل الجديد" للدولة يهدف إلى الحرص على إنقاذ "الإشتراكية" ، لكنه لم ينجح فى استثارة حماس الشعب الذى يقع عليه عبء تحسين الدخل . ومع ذلك ، فإن مايبدو غير كاف فى المجال الإقتصادى ، هو فى نفس الوقت دعامة للإبقاء على السياسة وقيادتها . فالإمبراطورية السوفيتية تواجه عاصفة مدمرة . إن شعوبها الممتدة من البلطيق إلى القوقاز ، ومن الدانوب إلى سيبيريا ، والتى ظلت حبيسة مقهورة طوال عشرات السنين ، بدأت تنهض مطالبة باستقلالها القومى . وحتى فى جمهورية روسيا ذاتها ، أظهرت الانتخابات الأخيرة - رغم كل المحاولات لتوجيهها أن الاتجاه الغالب عند الذين أعطوا أصواتهم ، يميل نحو رفض سيطرة الحزب الشيوعى)(١).

إن الشيوعية الماركسية فكرة أرضية ، سطرتها نفسية حاقدة ، وعقلية لم تتجاوز الحدود المادية .

ومن هنا جاءت قاصرة عن تحقيق السعادة للإنسان فى ظلها . وهذا مصير كل نظام أرضى حيث المحدودية ، والرغبات والتوجهات الذاتية تكون هى المسيطرة عليه .

---

(١) كارل ماركس وداعا .. أم خداعا (٨٤) .

وإذا كـانت الشيوعية فاسدة فى أفكـارها ومنها الأفكـار الإقتصادية فإن النظـام الرأسمالى هو الآخر يقـوم على الاستغلال ، وبالتـالى أخفقت الأنظمة الأرضيـة فى تحقيـق السعادة للإنسـانية . يقـول فتحـى يكـن : لقـد (أخفقت النظريات المستوردة ـ رأسمالية وإشتراكية ـ فى إيجاد مجتمـع الكفاية والعدل وتأمين الاستقـرار والرفاه لهذا الإنسان فى أية بقعة مـن بقاع العالم .. بل إن هذه المذاهب والنظم الوضعية زادت مشكلات البشرية تعقيدا ، ولم تقدم بين يدى تجاربها الكثيرة المتلاحقة تجربة واحدة يمكن اعتبارها ناجحة!!

فـالدول التى تمارس تجارب "التطبيـق الماركسـى" مثقلـة بالأزمـات والتنـاقضات فى مجالى التخطيـط والتنفيـذ وفى كـل مجال ؛ فمشكلات التـأميم ومشكلات التمـوين ومشكلات الغلاء ومشكلات الطبقـات وغيرهـا أصبحـت من الظواهر البارزة فى تلـك المجتمعات .. كذلك الـدول التى تمارس تطبيـق (النظام الحر) هى الأخرى غارقة فى طوفان مشاكلها الإجتمـاعية والإقتصادية كمشكلات الاحتكـار والبطـالة والـربا والتسلـط الفـردى وغير ذلـك مـن المشكلات التى لاحصر لها ولاعد .. ذلك أن هذه المذاهب والنظم الإجتماعية والإقتصادية لم تحاول الارتفاع بحلولها وتصوراتها فوق "الـواقع المادى" لأنها جزء منه ومظهر من مظاهره وفاقد الشىء لايعطيه ...)(١).

إن كلا النظـامين فيه مشكلات ومعضلات وذلـك لـوجود الانحراف فى التصور العقدى والتشريعى ، ولم يبق إلا الإسلام ونظـامه الصالح لكل زمان ومكـان ، ولكـل أحد كائن مـن كـان ، لأنه دين الله تعـالى الـذى ارتضاه لنفسه .

ولأن أحكـامه كلهـا تتلاءم مـع الفطـرة الإنسانيـة ، وتسير مـع السنة الـربانية فلاغرابة بعد ذلك أن جاءت التصـريحات على ألسنـة علماء الإقتصاد والكتـاب والمفكـرين مـن شرقيين وغـربيين والتى تعلـن عـن فشـل النظامين الشيوعى والرأسمالى .

---

(١) حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام (٤) .

حيث عقد مؤتمر الاتحاد الدولى للكتاب من الفترة ١٥-٢٠ يناير ١٩٨٦م فى نيويورك وحضره سبعمائة كاتب ومفكر من خمس وأربعين دولة غربية وشرقية ، ويقال أنه لأول مرة يجتمع هذا العدد الضخم من الكتاب وهو المؤتمر الثامن والأربعون منذ أسس الاتحاد الدولى للكتاب سنة ١٩٢١م بلندن وكان الموضوع خيال الكاتب وخيال الدولة .

وقد جاء على لسان الكاتب الألمانى جونتز جراس :

(إن حياتنا المعاصرة تتميز بفشل الايديولوجية الحاكمة ، بإفلاس كل الوعود البراقة ، التى منتنا بها الحكومات ، ولقد أصبح واضحا الآن مدى الإرهاق والعنت الذى تعانيه الدول الشيوعية داخل أسوار السجن الرهيب الذى حبست نفسها فيه ، رغم أنها لاتزال تحتفظ بقوتها المادية فى تزايد مستمر ، كما أصبح واضحا من الجانب الآخر مدى ماتعانيه الرأسمالية المنهكة وهى تتخبط من أزمة إلى أزمة أخرى ، إن أى إنسان لايزال يعتقد أن أسلوب الحياة فى أمريكا هو الأسلوب الأمثل ، لابد أن يكون إنسانا غبيا أو منافقا أو أعمى ، حتى يتغابى عن الفقر المدقع الذى يطحن بعض أحياء أمريكا ، والمجاعة التى تهدد العالم)(١).

ويقول هاين مولر وهو كاتب من ألمانيا الشرقية :

(إن الحلم الأمريكى يبدو بعيدا عن الواقع مثل الحلم الشيوعى تماما ، أنتم تؤمنون بالمال ، ونحن نؤمن بالمذهب ، ولذا فإن كلينا يرزح تحت حلم ثقيل)(٢).

لقد شكل التخلف الإقتصادى شرخا فى البناء الشيوعى ولن يتم إصلاحه إلا بإصلاح الأصل الفاسد الذى بنيت عليه الأفكار الإقتصادية الشيوعية فـ(حين فشلت الثورة البلشفية الشيوعية الحمراء) فى تحقيق الغاية من قيامها ، وغدت (الجنة الموعودة) سجنا رهيبا لايطاق ، وحياة ضنكا

---

(١) وسقطت الماركسية (٤٧-٤٨) .
(٢) المرجع السابق (٤٨) .

ملؤها البؤس والشقاء .. وغدا (السلام والعدالة) شعارات حمراء ملطخة بالدماء ، شأنها شأن الشعارات الكاذبة المزيفة التى يرفعها (الغرب) لإخفاء حقيقته وتغطية جرائمه وخداع الرأى العام العالمى .. عند ذلك بدأ التشقق فى (الجسم الشيوعى) ، وانفجرت فى أنحائه القروح وعمت أجزاءه الجيوب والجروح .. وهذه هى النهاية المنتظرة والمصير المحتوم لكل الاتجاهات المادية والأنظمة الوضعية والفلسفات البشرية)[١].

هذا بالنسبة للاتحاد السوفييتى وكذلك كان الأمر فى الدول الشيوعية الأخرى حيث التخلف الإقتصادى والإنهيار فى مقوماته[٢].

وهكذا غدا إنهيار الإقتصاد الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى أحد الأسباب الرئيسية فى سقوط الشيوعية .

ولاغرابة فى ذلك حيث قام الفكر الشيوعى بمصادمة الفطرة الإنسانية ، وبمخالفة السنة الربانية ، فى كونه تعالى خلق الخلق وجعلهم متفاضلين فيما بينهم ، ومتنافسين فى إعمارها ، ومن هنا حقت السنة الإلهية فى تفريق جمعهم ، وذهاب ريحهم ، وتفرقهم ، وذلك جزاء الظالمين .

وبعد هذا العرض السابق نصل إلى التالى :

أولا : أن النظام الإقتصادى الشيوعى نظام بشرى قاصر صادم الفطرة الإنسانية ، وخالف السنن الكونية فكان لابد من زواله وزوال النظام القائم عليه .

ثانيا : أن تراجع زعماء الثورة البلشفية فى إقرار الملكية الفردية دليل على فساد النظرية الماركسية .

ثالثا : أن واقع الاتحاد السوفييتى كان يهدم الأفكار الماركسية برمتها بما فى ذلك مبادىء الإقتصاد .

---

(١) حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام (٣٧) .

(٢) انظر عن ذلك الإصلاح الإقتصادى فى الدول الإشتراكية (٢٩٩،٣١٤،٣٤٢، ٣٦٣-٣٦٤) .

رابعا : أن الشيوعية بنظريتها الإقتصادية ، وواقع الاتحاد السوفييتى التطبيقى لها كانا متناقضين مما أدى إلى عدم الثقة فيها .

خامسا : أن الواقع التطبيقى للأفكار الماركسية أبرز فساد نبؤاتها وتخرصاتها التى نادت بها ، حيث لم تحقق طبقة العمال شيئا مما وعدت به ، ولم تسقط الرأسمالية كما قررته الماركسية .

وزيادة فى بيان فساد النظام الإقتصادى الشيوعى نلمح بصورة مختصرة عن النظام الإقتصادى فى الإسلام .

المبحث الرابع
مميزات النظام الاقتصادى الإسلامى

إن من أعظم مايميز شرائع الإسلام شمولها لجميع جوانب الحياة ، سواء منها الإجتماعية أم السياسية أم الإقتصادية ، فليس هناك أمر صغير ولاكبير إلا والإسلام له حكمه فيه إما نصا أو إلحاقا ، يقول الإمام ابن القيم:

(إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وهى عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها)(١).

ومن الجوانب التى اهتمت بها الشريعة الإسلامية ، القضايا الإقتصادية ومايتعلق بها من المكاسب والأرباح ، وكذلك المطاعم والمشارب . إذ أن الحياة لاتستقيم إلا بذلك ، والإعمار لايكون إلا به ومن هنا فإن الاهتمام به اهتمام بالإنسان ذاته ووصولا به إلى تحقيق سعادته . ولأجل ذلك حث الإسلام على العمل والاستزادة من الرزق للاستعانة به على طاعة الله تعالى وإقامة أوامره . ولايكون ذلك إلا بالعمل والمثابرة والصبر وبذل الجهد من أجل الوصول إلى تحقيق الرغبات فى إطار الحدود الشرعية من حيث العمل وماسينتج ذلك العمل . ولاشك أن النظام الإقتصادى الإسلامى يتميز عن غيره من الأنظمة الأخرى . ولاغرابة ، فإن هذا النظام هو من العالم بما يصلح أحوال الناس وبما يعود عليهم بالنفع وبما يحقق لهم مايطلبونه ، ولأجل ذلك تميز عن غيره وسيظل كذلك إلى قيام الساعة ، فهو شرع الله وحكمه **{ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون}**(٢).

---

(١) إعلام الموقعين (٣/٣) .

(٢) سورة المائدة : (٥٠) .

مميزات الإقتصاد الإسلامى :

ويمكننا أن نوجز مميزات الإقتصاد الإسلامى فى التالى :

أولا : أن المالك الحقيقى للمال ولكل مامن شأنه أن يكون محركا ودافعا للإقتصاد هو الله تعالى . قال تعالى : {**ولله مافى السموات ومافى الأرض**}(١).

فالمال ملك لله تعالى والأفراد مستخلفون فى هذا المال(٢).

ثانيا : أن النظام الإقتصادى الإسلامى نظام ربانى له أصوله الثابتة المستمدة من الكتاب والسنة ولايمكن تبدلها أو تغيرها إذا كانت من نوع الأحكام الثابتة .

وبالتالى فإن (الإقتصاد الإسلامى جزء من نظام الإسلام الشامل : إذا كان الإقتصاد الوضعى ـ بسبب ظروف نشأته ـ قد انفصل تماما عن الدين فإن أهم مايميز الإقتصاد الإسلامى هو ارتباطه التام بدين الإسلام عقيدة وشريعة)(٣).

ثالثا : استقلال الإقتصاد الإسلامى وتشكيله وحدة قائمة بذاته ، فلايطلق عليه إلا الإقتصاد الإسلامى لارأسمالية الإسلام ولاإشتراكيته .

رابعا : ضمان حد الكفاية لكل فرد فى المجتمع الإسلامى .

وهو يضمن بهذا التكافل الإجتماعى .

(والأمة الإسلامية مسؤولة عن الفقراء ، والمساكين والجياع والمعسرين والمحرومين ، وقد أوجب القرآن الاهتمام بأمر هؤلاء وأولئك بالمساعدة المادية والأدبية والأخذ بيدهم ، فضلا عن أنه واجب لذاته بغض النظر عن أى اعتبار فإنه من شأنه أن يشعرهم بقيمة الحياة والحق والتضامن . وأن يجعلهم أعضاء يافعين فى المجتمع . كما أنه فى هذا مظهرا من مظاهر التعاطف والتراحم والتضامن الذى لاتوطد الوحدة الإجتماعية إلا به)(٤).

---

(١) سورة آل عمران : (١٢٩) .

(٢) انظر الفكر الماركسى (٧٩) ، التطور والثبات فى حياة البشرية (٢٤١) ومابعدها ، أوضاعنا السياسية (٤٥) ومابعدها .

(٣) النظام الإقتصادى فى الإسلام (١٨) .

(٤) الفرد والمجتمع فى الإسلام (٤٣) .

وقــد اهتم الإسلام بتحقيــق هــذا الأمـر بجوانب عــديدة منهـا الـزكاة والإرث حيــث يستطيـع الإنســان من خلال هذه الأبواب ضمـان حد كفـايته مضافا إلى هذا مايجب على الدولة من ضمان معيشة الأفراد .

ومبدأ التكافل يتحقق عن طريق الزكاة حيث (تضمن الدولة لكل فرد فيهـا مستـوى لائقا للمعيشة، بحيـث إذا حال الفقر أو المرض أو الشيخـوخة دون تحقيــق هــذا المستوى تكفلـت الـدولة ـ عن طريق الـزكاة ـ بتحقيقـه . وهــذا المستــوى ـ اللائق للمعيشــة هــو ماأطلق عليه الفقهـاء المسلمـون "حد الكفاية" تمييزا عن "حد الكفاف")[١].

كما أن للزكاة آثارا عظيمة وفوائد جمة منها :

(١) التقليل من التفاوت الطبقى .

(٢) الحفاظ على أمن الدولة[٢].

(٣) الإحساس بالفقراء والعطف عليهم .

(٤) طلب الأجر والثواب من الله تعالى .

(٥) البركة والنماء فى المال .

ومن هنا حقق الإسلام مبدأ العدالة الإجتماعية على أكمل وجه حقيقة لاإدعـاء ، يقـول ليـودوروش (لقـد وجدت فى الإسلام حل المشكلتين اللتين تشغلان العـالم ، الأولى قـول القرآن {**إنمـا المؤمنون أخوة**}[٣]، فهذا أجمل مبادىء الإشتراكية ، والثانية "فرض الزكاة على كل ذى مال")[٤].

<u>خامسا</u> : وممـا يتميز به الإقتصـاد الإسلامـى الـواقعيـة والأخلاقيـة .

يقول الصدر : (فهو إقتصاد واقعى فى غايته ، لأنه يستهدف فى أنظمته وقــوانينه الغـايات التى تنسجـم مـع واقـع الإنسـانية ، بطبيعتهـا ونوازعهـا وخصائصها العامة ، ويحاول دائما أن لايرهق الإنسانيـة فى حسابه التشريعى ،

---

(١) النظام الإقتصادى فى الإسلام (١٠٠) ، وانظر إشتراكيتهم وإسلامنا (١٤٤) .

(٢) انظر النظام الإقتصادى فى الإسلام (١١٦-١١٧) .

(٣) سورة الحجرات : (١٠) .

(٤) نقلا من كتاب إشتراكيتهم وإسلامنا (١٣٦) .

ولايحلق بها فى أجواء خيالية عالية فوق طاقاتها وإمكاناتها .. وإنما يقيم مخططه الإقتصادى دائما على أساس النظرة الواقعية للإنسان ، ويتوخى الغايات الواقعية التى تتفق مع تلك النظرة)[١].

ويقول : (والصفة الثانية للإقتصاد الإسلامى ، وهى الصفة الأخلاقية تعنى - من ناحية الغاية - : أن الإسلام يستمد غاياته التى يسعى إلى تحقيقها فى حياة المجتمع الإقتصادية ، من ظروف مادية وشروط طبيعية مستقلة عن الإنسان نفسه ، كما تستوحى الماركسية غاياتها من وضع القوى المنتجة وظروفها .. وإنما ينظر إلى تلك الغايات ، بوصفها معبرة عن قيم عملية ضرورية التحقيق من ناحية خلقية)[٢].

سادسا : جمع الإقتصاد الإسلامى بين نوعين من الملكية : الملكية الخاصة ، والملكية العامة ، وبالتالى فلاحاجة للقول بأنه نظام إشتراكى أو رأسمالى ، وقد حقق غاية التوازن فى ذلك فلامصلحة الفرد ضد الجماعة ولاالجماعة ضد الفرد[٣].

وقد كانت هذه الإزدواجية من المسائل المهمة التى أشار إليها القرآن الكريم ، حيث إن الأمة الإسلامية تعتمد (على النشاط الفردى والجماعى ، وهذا النشاط الفردى هو الذى أدى إلى رقى العالم ، وإلى ظهور المخترعين . ويشير القرآن الكريم إلى النشاط الجماعى بقوله تعالى : ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى**﴾[٤]، والبر كل ماهو خير للفرد والجماعة ، وإلى النشاط الفردى تشير الآية الكريمة فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿**وأن ليس للإنسان إلا ماسعى**﴾[٥]، ويقول سبحانه : ﴿**كل امرىء بما كسب رهين**﴾[٦])[٧].

---

(١) إقتصادنا (٢٨٨) .
(٢) إقتصادنا (٢٨٩) .
(٣) انظر : نحو إقتصاد إسلامى (٢١) ، النظام الإقتصادى فى الإسلام (٢٧) ، ضمانات ضمانات الحرية (١٢٢) .
(٤) سورة المائدة : (٢) .
(٥) سورة النجم : (٣٩) .
(٦) سورة الطور : (٢١) .
(٧) الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٢٠٧) .

وقد فطر الإنسان على الأمرين ، فمن ذهب ليذهب بواحدة منها يكون قد أخطأ الطريق ، وحكم على نفسه مثل الآخرين بالهلاك[١]. وبإقرار الإسلام لنوعى الملكية يكون قد حقق التوازن ، وماتطلبه الفطرة الإنسانية ، وهو خير من كل المذاهب الأرضية[٢].

سابعا : تحقيق الحرية الإقتصادية بكل أبعادها مع منع الإضرار بالغير أو بالنفس ، أو أن يكون طريق الكسب حراما ، أو الإنفاق فى حرام .

كما جعل النظام الإسلامى للفرد الحرية المطلقة فى التعاقد شريطة أن لاتكون شروط العقود محرمة أو مخالفة لما فى كتاب الله تعالى أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ويدخل فى هذه الحرية حرية التملك والتصرف فيما يملك واختيار العمل الذى يريد ، وإنتاج السلعة التى يحتاجها أو يريدها تحقيقا للمصلحة الخاصة والعامة .

ومن هنا حث الإسلام على الكسب والعمل وهذا الطريق هو طريق الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، فنوح عليه السلام كان نجارا ، وإدريس عليه السلام كان خياطا ، وإبراهيم عليه السلام كان بزازا ، وداود عليه السلام كان يصنع الدروع وزكريا عليه السلام كان نجارا ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان يرعى الغنم[٣].

وعلى هذا فإن الإسلام أباح الكسب وعدد طرقه، ونوع أساليبه ، وجعل لذلك قيودا حتى لايطغى جانب على آخر . (والمكاسب أربعة : الإجارة ، والتجارة ، والزراعة ، والصناعة . وكل ذلك فى الإباحة سواء عند جمهور الفقهاء رحمهم الله)[٤].

---

(١) انظر نظرات إسلامية فى الإشتراكية الثورية (٧٠-٧١) .

(٢) وعن الملكية العامة انظر ماذكره الصدر فى كتابه إقتصادنا (٤٣٦-٤٣٨) .
وعن تطرف المذهبين الرأسمالى والإشتراكى فيها أنظر (٥٢٧-٥٢٨) .

(٣) انظر الإكتساب فى الرزق المستطاب (١٩-٢٠) ، محمد بن الحسن الشيبانى ، تحقيق محمود عرنوس ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

(٤) الإكتساب فى الرزق المستطاب (٤٠) .

وبهذا نجد الإسلام يحقق التوازن فهو لايمنع التملك ، ولايحرم الإنسان من السعى لأجل الاكتساب ، وفى الوقت ذاته لايعطى الفرد كافة التصرفات بل يقيدها بعدم الضرر بنفسه أو بالآخرين(١).

فأقر الإسلام الحرية واعتبرها ركنا أساسيا من أركان الإقتصاد(٢)، وأحاطها بقيم معنوية وخلقية تجعل من الحرية الإقتصادية أداه خير للإنسانية كلها(٣).

وهذا التقييد للحرية ومنع الإنسان من بعض الأساليب فى الاكتساب هو مما يتفق مع الفطرة الإنسانية .

ثامنا : مما يميز الإقتصاد الإسلامى ارتباط المعاملات فيه بمسألة الحلال والحرام ، والعقاب والثواب(٤). فهو يرفض الظلم واستغلال الآخرين ، وبالتالى يحافظ على المجتمع فى تماسكه ووحدته ويحميه من عوامل الانقسام(٥).

تاسعا : يقوم النظام الإقتصادى الإسلامى بتأمين فرص العمل والتكافؤ فيها .

عاشرا : الحث على التنمية الإقتصادية الشاملة(٦).

الحادى عشر : أن النظام الإقتصادى يحرم تجمع المال فى يد طبقة واحدة دون أن يكون للأخرى حق فيه ونعنى بذلك الحق الشرعى ، حتى لايكون ذلك سببا فى اضطهادهم والتسلط عليهم ، لأن هذا الاحتكار وتجمع

---

(١) انظر من أين نبدأ (١٥٨-١٦٠) ، وتحدث عن أصل الحرية فى الإسلام واختلافها عن النظام الرأسمالى ، كما أبان مصادمة النظام الإقتصادى الشيوعى للفطرة الإنسانية بمنعه حق التملك .

(٢) انظر فلسفتنا (١٥) .

(٣) انظر إقتصادنا (٢١٣) .

(٤) انظر الاكتساب فى الرزق المستطاب (٣٨-٣٩) .

(٥) انظر الفكر الماركسى (٧٨-٨١) .

(٦) انظر نحو إقتصاد إسلامى (١٤) .

المال فى يد فئة دون أخرى يؤدى إلى الترف والانغماس فيه وبالتالى ظهور التمايز وانتشار الفساد(٢).

ويراعى الإسلام فى مسألة الإنفاق التوازن فلاإسراف ولاتقتير . وإذا روعيت الأصول الشرعية فى الانفاق والاكتناز فإنه ينتج عن ذلك المصلحة للفرد والجماعة . وقد وردت عدة آيات تدل على هذا التوازن .

قال تعالى : **{والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما}**(٣).

وقال تعالى : **{ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا}**(٤).

وقال تعالى : **{وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولاتبغ الفساد فى الأرض إن الله لايحب المفسدين}**(٥).

فيحرم الإسلام السرف والتقتير لأن مضارهما كبيرة ، ومفاسدهما عظيمة(٦). وماحرم الإسلام شيئا إلا وفيه شر وماأمر بشىء إلا والخير فيه .

وعلى هذا فإن الإسلام قد تميز بما يصلح الإنسان ويوافق فطرته ويشبع غريزته ، على خلاف المذاهب الأرضية كلها . ومن هنا فلايستقيم لأولئك المفكرين أو المنخدعين بدعواهم أن الإسلام نظام إشتراكى أو رأسمالى

---

(٢) انظر الفكر المادى فى ميزان الإسلام (١٣٢) .
(٣) سورة الفرقان : (٦٧) .
(٤) سورة الإسراء : (٢٩) .
(٥) سورة القصص : (٧٧) .
وعن هذا التوازن وتحققه فى الإسلام انظر كتاب الإسلام دين الفطرة (١٤٨-١٥٧).
(٦) انظر النظام الإقتصادى فى الإسلام (٨٩) .

ونسى هؤلاء (أو تناسوا) حقائق كثيرة منها :

(١) أن الإسلام أقدم ظهورا وتطبيقا من هذه المذاهب الوضعية .

(٢) أن الإنصاف هو أن يقدم الإسلام بصورة متكاملة عند المقابلة مع غيره[١].

ويبين د. على جريشة فساد هذا القول وبطلانه فيقول :

(ودعوة هؤلاء وأولئك أو دعواهم مرفوضة غير مشكورة!

أولا : لأن طبائع الأشياء ترفض النقل الأعمى! فإن النبات يأخذ بالاختيار ، فيتخير النخيل من عناصر التربة مالايتخيره شجر البرتقال ، والإنسان ـ الذى تميز بالإرادة ـ أولى بذلك الاختيار ، ومن ثم كان النقل الأعمى مصادما لقدرة الاختيار لدى الإنسان !

ثانيا : لأن الأصالة ترفض النقل الأعمى! إن الأمم الأصيلة تعتز بتراثها ، وترفض أن تلقى به لتنقل عن غيرها مايمحو شخصيتها ويقضى على استقلالها ...

ثالثا : ماعندنا خير وأبقى بشهادة الكثيرين . ممن يريدون النقل عنهم وبتحقيق العالمين لنهضة أوروبا ينكشف الأمر ، وينجلى . إنهم أخذوا عنا الحضارة ، فبدأوا حيث انتهينا . وبنوا على ماأقمنا ، فارتفعوا ببنائهم ، ونحن وقعنا حيث انتهينا ، فتقدم الناس وتأخرنا ، ثم عدنا للوراء خطوات وخطوات ، وتركنا اللب الذى أخذوه ، وجرينا وراء القشور التى ابتدعوها فزاد الضلال ، وزاد الانحلال!!

رابعا : سراب الشيوعية قد انكشف ، بعد تراجعاتها الكثيرة فى مجال النظرية : فى صدد التفسير المادى للتاريخ وفى مفهوم المادة ذاته ، وبعد تراجعاتها الكثيرة فى مجال التطبيق ، بعدولها الجزئى عن إلغاء الملكية ، وبعدولها المرحلى عن إلغاء الأسرة ، وبعدولها المرحلى (التكتيكى) عن الهجوم على الدين بأخذها عن الراسمالية بالحوافز وبمهادنتها للرجعية فيما سمى بالوفاق ، ثم بيأسها الشديد فيما بينها .

---

(١) انظر الإسلام لاشيوعية ولارأسمالية (٤-٦) .

ثم بما أحدثته فى البلاد التى دخلتها من تخلف تميزت به عن قريناتها : فألمانيا الشرقية غير ألمانيا الغربية ، والاثنتان شعب واحد ، لكن الأول حكمته الشيوعية ، والثانى حكمته الراسمالية ..!

ثم بما أحدثته فى البلاد التى فرضت نفسها عليها ، مثل بولندا سنة ١٩٥٦م ، وتشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨م ، ومن قبل ذلك فى بلاد المسلمين التى ضمت قسرا وقهرا لسادة الكرملين)[١].

إن الإقتصاد الإسلامى يعطينا مافى الفكرة الإشتراكية وزيادة عليها ويعطينا مافى الراسمالية وأكثر منها مع أنه يتجنب المزالق والمهالك التى تقع فيها تلك المذاهب .

وإن مما يؤسف له أننا فى عالمنا الإسلامى إلا مارحم ربك وقليل ماهم لاينظرون إلا إلى تجربتين هما الرأسمالية والإشتراكية .

(ولانكاد نتصور أن هناك حلا آخر .. فإذا وجدنا أن كلا التجربتين لاتصلحان لنا ، بدأنا نبحث عن حلول وسطى بين المدرستين ، وبدأنا نصنع منهما تركيبة ملائمة .

ولو نظرنا إلى الإسلام لوجدنا فيه نبعا من الأفكار والحقائق تسبق النظامين تقدما ومعاصرة ، ولوجدنا كل ماحسبناه جديدا فى الإشتراكية العلمية هو أمر قديم ثلاثة عشر قرنا فى الإسلام ...)[٢].

ومما يزيد الطين بلة أن هذه الدعاوى التى ظهرت بإشتراكية الإسلام ورأسماليته ، ظهرت فى وقت يعترف الأعداء بأن النظام الإقتصادى الإسلامى هو الذى سيحل مشاكل العالم الإقتصادية وهو الإقتصاد الراجح حيث يقول أحد علماء الإقتصاد الفرنسى وهو جاك أوسترى : (إن طريق الإنماء الإقتصادى ليس محصورا فى المذهبين المعروفين الرأسمالى والإشتراكى ، بل

---

(١) الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام (٣٧٨-٣٨٠) .
(٢) الإسلام دين الفطرة (٦٧) .

هناك مذهب إقتصادى ثالث راجح هو المذهب الإقتصادى الإسلامى)[١].

ويؤكد المستشرق الفرنسى رايموند شارل (أن الإسلام رسم طريقا متميزا للتقدم فهو فى مجال الإنتاج يمجد العمل ويحرم كافة صور الاستغلال وفى مجال التوزيع يقرر قاعدتين لكل تبعا لحاجته كحق إلهى مقدس تكفله الدولة لكل فرد . ولكل تبعا لعمله مع عدم السماح بالتفاوت الشديد فى الثروات والدخول)[٢]. وهكذا شهد الأعداء بفضل نظام الإقتصاد الإسلامى ويظل هؤلاء على تصوراتهم وآرائهم .

إن النظام الرأسمالى والإشتراكى غير صالحين للتطبيق لتعارضهما مع الفطرة الإنسانية والمصلحة الخاصة والعامة .

ومن هنا فلالقاء بين الإسلام والمناهج الأرضية التى تستمد أصولها من الآراء البشرية والتصورات الأرضية . يقول د. على عبد الحليم : (فلاالنظام الراسمالى أو الحر - كما يقولون - ومايعيش فى ظله من ديمقراطيات ، ولاالنظام الشيوعى أو الإشتراكى ومايعايشه من حتميات وصراعات ، ولاالفلسفات القائمة على أساس المبالغة فى تقدير قيمة الإنسان وتفضيله على الدولة ولانظيرتها التى تبالغ فى سحق الإنسان وإهدار حقوقه باسم الدولة ، لاهذه الأنظمة ولاتلك يمكن أن تتفق مع الإسلام ومنهجه العادل الحكيم فى تحقيق مصلحة الناس أجمعين وغرس الفضائل والآداب فى نفوسهم ووضع الإنسان والدولة كل منهما فى حجمه الصحيح ، ووضعه السليم . ومن هنا يكون العداء والصراع بين هذه النظم والنظريات وبين الإسلام)[٣].

---

(١) نقلا من كتاب النظام الإقتصادى فى الإسلام (١٣-١٤) .
وانظر : شهادتى للتاريخ (٢٣٦) ، هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (١٠) ، نظرات إسلامية فى الإشتراكية الثورية (١٩) .

(٢) النظام الإقتصادى فى الإسلام (١٤) .

(٣) الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام (١٤٨) .

وبعد : أفلايعود أولئك المهزومون إلى تطبيق شرع اللــه تعالى وإبقائه بعيـدا عـن نوازع نفوسهم ومكـامن ضعفهم التى يحاولـون إحراز النصـر من خلال إلحاق الأوصـاف والألقـاب بالنظـام الإسلامـى ككـل ـ والإقتصـادى خاصـة ـ بالأفكـار الوضعية ، فإن النظـام الإقتصادى فى الإسلام نظـام ربانى يحصـل مـن تطبيقه كل ماترجوه البشـرية من سعادة وفيـه القضـاء على كافة المعضلات والمشكلات الإقتصـادية ، التى أثقلـت كـواهـل دول العـالم قـاطبة لانتشار مايسخط الله تعالى ، فانتشر الربا وحل الحرام محل الحلال ، وأكلـت الأمـوال ظلما ، وكان الاحتكـار المذموم ، وكذلك الظلم الفـاحش لكـل من عجزت قوته فى أخذ حقه ، وكل هذا بسبب البعد عن صراط الله المستقيم .

وبهـذا يتبين أن الخلاص للأمم هو فى أخذها بما شـرعه الله تعالى لأنه جل وعلا عليم بما ينفعهم ويصلح لهم فى كل زمان ومكان .

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن النظـام الإقتصـادى الإسلامـى نظـام إلهـى يستمـد أصـوله وقواعده مما قرره الخالق جل وعلا .

ثانيا : أن الإقتصـاد الإسلامـى اشتمـل على كل خير ورد فى المذاهـب الإقتصادية الأرضية ، وابتعد عن كل شر فيها مهما صغر .

ثالثا : أن الإقتصاد الإسلامى إقتصاد مستقل له خصائصه ومميزاته التى ينفرد بها عن كل المذاهب والأنظمة الأخرى .

رابعا : إن مـن أهـم مايميز الإقتصـاد الإسلامى ارتبـاطه بمسـألة الحلال والحرام .

خامسا : توافـق المذهـب الإقتصـادى الإسلامى مع الفطـرة البشـرية .

وبهـذه اللمحـة المختصرة عـن النظـام الإقتصادى فى الإسلام يتبين لنـا بوضـوح فشـل النظرية الإقتصـادية الماركسية ، وعجزهـا عـن تحقيق مايطلبه الإنسان ، لأنها قامت أساسا على مصادمة فطرته ، ومنعه من حقوقه ومع هذا وعدته بتحقيق ماتصبو إليه نفسه ، وتنبأت لهذا الإنسان بواقع شيوعى يحقق

فيه كل ماأراد غير أن الواقع أبرز فساد هذه النبؤة وغيرها ، حيث لم يحقق الإنسان تحت النظام الشيوعى شيئا مما وعد به ، فأصبح الواقع المحك الحقيقى لكشف زيف النبؤات والوعود الشيوعية . وهذا ماسنعرض له فى الفصل التالى بحول الله تعالى وقوته .

الفصل الرابع
فساد تنبؤات الشيوعية وبطلان نظرياتها

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد

المبحث الأول : فساد نبؤات الماركسية ، وأثر ذلك .

المبحث الثانى : إبطال العلم للأفكار الماركسية .

المبحث الثالث : بطلان القول بأزلية المادة وقوانينها الجدلية

المبحث الرابع : بطلان المادية التاريخية .

الفصل الرابع
فساد تنبؤات الشيوعية وبطلان نظرياتها

تمهيد :

إن النظرية الماركسية قامت على عدة تنبؤات وتصورات ، ولعل هذا الأسلوب هو الأسلوب الأمثل فى التأثير على الناس من أجل ازدياد عدد الأتباع وتطلعهم لهذه الآمال والأحلام التى رتبتها تلك النبؤات .

وقد أكثر ماركس من تنبؤاته بدء من تفجير الثورة إلى أن يعيش الناس بلادولة حيث ارتقى الإنسان إلى درجة لم يعد معها فى حاجة إلى وجود قوة توجهه أو تضبط تصرفاته . ولم تكتف الماركسية بأنها أقامت فكرها على مجموعة من التنبؤات ، بل وصادمت الحقائق العلمية ، وجاءت بالأفكار التى تردها البراهين العقلية ناهيك عن الأدلة الشرعية . ولأجل ذلك أعنى قيامها على النبؤات ، ومصادمتها للحقائق العلمية . كان الواقع هو المحك الأول لاختبار صدق هذه الأفكار من عدمه . ولو أن الواقع أثبت صدق هذه النبؤات لحققت الدولة الشيوعية (الاتحاد السوفييتى) الشيء الكثير من جراء تطبيق الفكر الماركسى فيها ، لأن تلك النبؤات حملت أحلاما ـ وخاصة لطبقة العمال والتى بالفعل كانت تعيش حالة سيئة نظرا لاضطهادها واستغلالها ـ لو تحققت لانتشرت الفكرة الشيوعية بدون إراقة دماء ، وبدون عناء فى حمل الناس على التصديق بها .

هذا بالإضافة إلى أن الأفكار المادية والقوانين الجدلية التى رتب ماركس كثير من أفكاره عليها قد صادمت هى الأخرى الحقائق العلمية . فأدى ذلك إلى تشكك الأتباع وخاصة المفكرين منهم . فى مصداقية ذلك الفكر وبدأ الخلاف بين لينين وبعض هؤلاء الذين رأوا أن الواقع يصادم تلك النبؤات ، ورد عليهم لينين واتهمهم بأصحاب النزعة التحريفية . ومن هنا أدى فساد النبؤات الماركسية ومصادمتها للحقائق العلمية إلى عدم

الـوثوق بهـا والتراجع من قبـل كثيرين عـن الإيمان بهـا حيـث ولـدت تلك المصادمة فى نفوس الأتباع التذبذب والشك ، كما شكلت مادة خصبة لأعداء الفكـر فى الإصـرار على عـدائهـم ، واستغلال ذلـك فى بيـان فسـاد النظـرية الماركسيـة ، وكذلك فى التنبؤ بفشل الشيوعية حيث قـامت على مجرد تنبؤات كذبها الواقع ، وأفكار صادمهـا العلم . ونعرض فى هـذا الفصـل لهذه الأمور بشىء من التفصيل .

المبحث الأول
فساد نبؤات الماركسية

قامت الماركسية على مجموعة من التنبؤات ، كان الواقع لها بالمرصاد حيث كذبها وصادمها وماكان للإنسان أن يؤمن بفكر نظرى ويكفر بواقعه المشاهد المحسوس (كما هى قاعدة الماركسية) . ومن أهم هذه النبؤات :

أولا : أن الثورة التى هى حتمية تاريخية ، ستكون فى إحدى الدول المتطورة صناعيا والتى بلغت فيها المرحلة الرأسمالية الدرجة الأخيرة من التطور والاستغلال ، ووقع اختيار ماركس وانجلز على بريطانيا أو فرنسا أو المانيا كى تنطلق منها الثورة وذكر أنه لايمكن أن تقع فى بلد متخلف .

يقول انجلز : (تسيطر البروليتاريا سياسيا بشكل مباشر فى انجلترا حيث يشكل البروليتاريون غالبية السكان . بينما تسيطر بشكل غير مباشر فى فرنسا والمانيا حيث غالبية السكان لاتقتصر على البروليتاريين وإنما تشتمل أيضا على الفلاحين الصغار والبرجوازيين الصغار الذين لم يستكملوا بعد عملية التحول إلى بروليتاريين)(١).

فكانت هذه النبؤة . غير أن الواقع كذبها وأبطلها ، حيث انفجرت الثورة فى بلد متخلف لم يصدق عليه من نبؤة ماركس شيئا .

يقول وحيد الدين خان : (وقعت الثورة الشيوعية فى روسيا ـ أول ماوقعت ـ بدلا من أن تقع فى البلدان الرأسمالية الراقية ، كانجلترا ، والمانيا وفرنسا . وكانت روسيا بلدا زراعيا متخلفا ، وكانت نسبة العمال بها قليلة ، بالمقارنة مع النسبة التى حددها ماركس لوقوع الثورة الإشتراكية فى بلد ما . وكان العمال لايشكلون إلا عددا ضئيلا من عدد السكان فى روسيا . فكانت غالبية السكان بها تملك قطعا أرضية صغيرة تزرعها . ولم يكن قد نشأ فى روسيا "التناقض الطبقى" الذى يقود إلى الثورة الإشتراكية ، فلم تكن روسيا

---

(١) تعاليم الماركسية (٣٠) .

قد تحولت ـ بعد ـ إلى دولة صناعية بمعنى الكلمة ، وكان بها إقطاعيون وصغار الفلاحين . وطبقا لهذا الواقع ، كانت روسيا تبعد عن الثورة الإشتراكية ، "مرحلة كاملة" ، فكانت روسيا لاتزال فى مرحلة "الإقطاع" بينما كان يجب عليها أن تعبر مرحلة "الرأسمالية" لكى تصل إلى مرحلة الإشتراكية .

وبعبارة أخرى : لم تكن نشأت فى روسيا الأحوال ، التى تدفع طبقتين إلى الصدام ، فتقع الثورة نتيجة هذا الصراع . ولذلك كان أعضاء "الدولية الثانية" يرون أنه (لايمكن للطبقة العمالية ولاينبغى لها أن تحصل على مقاليد السلطة ببلد ما ، مالم تشكل هذه الطبقة أكثرية به)(١).

ويقول العقاد إن ماركس (كان يقول إن أمم الصناعة الكبرى هى الأمم المعرضة لظهور الشيوعية فيها فإذا بالأمر ينقلب من النقيض إلى النقيض ، وإذا بالشيوعية تظهر بين الأمم على قدر خلوها من الصناعة الكبرى)(٢).

ومما يزيد فى بيان بطلان هذه النبؤة وزيفها أن الدول التى تنبأ ماركس بوقوع الثورة فيها يعتبر الأحزاب الشيوعية فيها أضعف الأحزاب الشيوعية فى دول أوروبا الغربية ، يقول حسين أبو الحسن : (يتنبأ ماركس ويحتم بأن الثورة الإشتراكية ستصيب أول ماتصيب واقع المانيا وثم بريطانيا وذلك لأن مجتمعهما قد وصلا إلى قمة المرحلة الرأسمالية وأن التناقض بين قوى علاقاتها الإنتاجية "الرأسمالية" وبين القوى المنتجة "العمالية" قد نضج تماما فأصبحت عملية انتقال هذين المجتمعين من المرحلة الرأسمالية إلى المرحلة الإشتراكية أمرا حتميا "شاء الشيوعيون ذلك أم أبوا" . فيمر أكثر من مائة وعشرين عاما على تنبؤ ماركس الحتمى ولما ينتقل مجتمعا المانيا وبريطانيا من مرحلتيهما الرأسمالية إلى المرحلة الإشتراكية ، بينما حدث العكس من ذلك ، إذ يعتبر حزبا الشيوعيين فى هذين البلدين من أضعف

---

(١) سقوط الماركسية (٦٧) ، وانظر الإشتراكية العربية (١٤٢-١٤٣) .
(٢) لاشيوعية ولااستعمار (١٧) .

أحزاب الشيوعية فى دول أوروبا الغربية . فلماذا لم تحدث معجزة ماركس الحتمية ويتحقق تنبؤه العلمى ؟)[١].

وأما الجزء الشرقى من المانيا فإن الشيوعية فيه فرضت بالقوة ومن خارج أرض الدولة فلاتصدق عليها النبؤة الماركسية . ومما يزيد فى كشف بطلان هذه النبؤة ، وأن الماركسية اصطدمت بالواقع نظرا لأنها قامت على أوهام وتخرصات هو أن الثورة الشيوعية ماوقعت إلا فى بلد متخلف لايمكن بحال أن تنفجر منه الثورة حسب التنظير الماركسى . فسقطت "حتمية الوقوع" . يقول العطار : (كان من تكهنات ماركس الحتمية الوقوع كما يدعى أن الشيوعية تولد وتحيا وتسود فى الدول الصناعية . وكلمة "حتمية الوقوع" من لوازم الماركسية ، فكل ماتدعيه حتمى الصواب وكل ماتتكهن به حتمى الوقوع لامحالة ، فهى تتكهن بأن الشيوعية توجد حتما فى الدول الصناعية الكبرى مثل انجلترا وفرنسا والمانيا ونفى ماركس قيام الشيوعية فى الدول الزراعية والدول المتخلفة وكذب الواقع النظرية الماركسية ، وكهانة ماركس ...)[٢].

كما أن الثورة قامت على يد الفلاحين وليس على يد الصناعيين . يقول العوف : (فهو ـ أى ماركس ـ قد تنبأ بأن الدولة الشيوعية الأممية نتيجة للنضال الطبقى ، ستتأسس على أيدى العمال فى البلاد الألمانية ، وستنطلق منها إلى بلاد أخرى ، ولكن نبؤته هذه لم تتحقق بل تحقق ـ مبدئيا ـ عكسها إذ أن الدولة الشيوعية الأولى تحققت فى روسيا ، التى كانت أبعد ماتكون عن قبول الشيوعية فى ذهن ماركس كما أن الذين قاموا بها ، لم يكونوا عمالا صناعيين ، كما توهم بل كانوا فلاحين زراعيين ، وهم الفلاحون الروس لاالفلاحون الألمان أيضا)[٣].

---

(١) معالم الإشتراكية العربية (٦٤) ، وانظر الفكر المادى فى ميزان الإسلام (١٣) .
(٢) الشيوعية (٧٧) .
(٣) إشتراكيتهم وإسلامنا (٢٣) ، وانظر : كارل ماركس وداعا .. أم خداعا (٢٩-٣٠) الماركسية بين النظرية والتطبيق (٢٠) .

ثم إن الأمر لم يقتصر على الواقع السوفييتى فى رده على هـذه النبؤة ، بل إن البلـد الثانى فى الشيـوعية وهى الصين . كان ظهـور الفكـر الشيوعى فيهـا تكـذيبا لنبؤة ماركس وبيـانا لفسـاد نظريته وحتميـاته . ويصـور أحمد حسين حدوث الثـورة فى الصين ـ وأنه يبطل النبؤة الماركسيـة ، وأن الثورة قامت على يد الفلاحين وليس على يد العمال ، وأن الشيـوعيين الصينيين قد انقسمـوا بسبب فساد تلك النبؤة ـ فيقول : (هذا هـو الذى حدث فى الصين حيث بدأت الحركة الشيوعية بين صفوف الفلاحين . بزعامة ماوتسى تونج ، وظلـت كـامنة محصورة حتى واتتهـا ظـروف معينة فانتصـرت واستـولت على مقـاليد السلطـة ، وكـان الـذى أعـانها على ذلك فى الـواقع هـم الأمـريكان "الـرأسماليون" وليـس الـروس "الإشتراكيـون" فقـد غـزت اليـابان الصين واستـولت على أهـم أجزائهـا ، فـراح الصينيـون يقـاومـونها فى الـداخل ، وحدث أن اعتـدت اليابان على أمـريكا واشتبكت الدولتـان فى حرب طاحنة فأسرعت أمريكا تمد الشعب الصينى بكـل مـايساعده على القتـال ، وأمـدت الشيوعيين فيمن أمدت بالسلاح والمال ، وقرب نهاية الحرب كان الشيوعيون تحت زعامة ماوتسى تونج قد أصبحوا أكبر قوة فى الصين، فقد كان ماوتسى تونج يوزع الأرض على الفلاحين فى كـل مكان يدخل إليـه ، فالتفت حوله قلوب الملايين من الفلاحين ، وحاولت أمريكا أن توقـف هذا المد ، فوقفت إلى جوار كاى شيك ، ولكن الأوان قد فات ، واستـولى ماوتسى تونج على السلطـة ودخلـت جيـوش الفلاحين إلى شنغهـاى وغيرهـا مـن مـدن الصين الصنـاعية الكبرى لتحـرر البروليتـاريا الصنـاعية ، ومـن اللطيـف أن زعماء الشيـوعيين الصين الأوائل تمسكـا منهم بالتعاليم الماركسيـة ، لم يتصوروا أبدا أن تبدأ الشيوعية فى صفوف الفلاحين فانقسموا على ماوتسى تونج ، وذهبوا إلى شنغهـاى ليبدأوا منها الثـورة الإشتراكية ، ولم ينظـر ستـالين إلى شيوعى الصين نظـرة جديدة أبدا ـ وكـان حليفـا لكـاى شيك ضـدهم ـ إلا بعـد أن انتصـر مـاوتسى تونج فاضطر ستـالين للاعتراف به على مضـض ، وقـد رأينا كيف عاد فسحب خبراءه ومعوناته عن الصين . والذى يعنينـا أن الأمور قد

سارت فى الصين كما سارت فى كل عصور التاريخ فى الاتجاه الذى يرسمه رجل موهوب يصل إلى السلطة عن أى طريق وبمساعدة عناصر متناقضة حتى إذا وصل إلى السلطة نظم الدولة طبقا لمعتقداته أو بالأحرى طبقا لمصلحته . وهكذا تكون حسابات ماركس قد أخفقت بالجملة)[١].

وهكذا يثبت الواقع (أن أكبر ثورتين إشتراكيتين فى النصف الأول من القرن العشرين ـ ثورة روسيا وثورة الصين ـ قامتا فى بلدين لايرشحهما التحليل الماركسى للثورة)[٢].

بل يمكن القول إن الدول المتطورة ترفض الفكر الماركسى ، بينما تحتضنه الدول أو المجتمعات المتخلفة والتى لم تنضج بعد ظنا منها أن فيه الخلاص مما هى واقعة فيه . يقول دجيلاس : (إن الماركسية لم تستطع أن تنفذ إلا إلى البلدان المتخلفة صناعيا ، مثل روسيا بادىء ذى بدء ، ومن ثم إلى الصين ، وذلك عن طريق هيمنة العقيدة الشيوعية . أما فى البلدان المتطورة المماثلة لألمانيا ، حيث بلغ سير التقدم السياسى والتطور الإقتصادى مرحلة مهمة ، فلم يكن هناك أى مبرر للثورة ، ولم تستطع الملامح الثورية للتعاليم الماركسية ، أن تجد لها مكانا ، فى وقت سيطرت فيه الأفكار الديمقراطية الإصلاحية . وعلى هذا الأساس نجد أن التقدم الإجتماعى الإقتصادى المشفوع بالتطور الفكرى قد أدى إلى إحداث انشقاق حاد فى قلب الحركة الإشتراكية الأوربية . فلقد قاد واقع التطورات فى الأوضاع السياسية والإقتصادية ـ بصورة تقريبية ـ إلى اختلاف فى آراء واضعى النظريات الإجتماعية ، انطلاقا من دراستهم وتفسيرهم للواقع بطريقة نسبية ، وكان لتحزبهم السياسى ونظرتهم الخاصة الدور الأكبر فى ذلك . وهكذا ، اختلفت آراء لينين فى روسيا وبرنشتاين فى المانيا ، كقطبين متباعدين ، نتيجة

---

(١) إفلاس الماركسية (٣٥-٣٦) ، وانظر : هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٦٩) ، المادية والروحية فى الميزان (٦٣-٦٤) ، حذار .. لاهم تقدميون ولاعلميون ولاموضوعيون (١٧-١٨) ، الفكر الماركسى (٧٥) .

(٢) الإشتراكية العربية (١٤٢) .

لاختلاف التطورات الإجتماعية والإقتصادية ، فى كل من بلديهما . ولم يبق بصورة تقريبية ، أى شىء من الماركسية الأصلية ، فقد انتهت فى الغرب أوهى أوشكت على لفظ أنفاسها الأخيرة ، أما فى الشرق فلم يبق منها سوى ملامح فلسفية ضئيلة ، مرتبطة بالمادية الجدلية وبنزعتها الحتمية ، نتيجة لإقامة الحكم الشيوعى فيه)[١].

ونظرا لكون نبؤة ماركس أخطأت فى مكان اندلاع الثورة ، ماكان من لينين إلا أن قام بتبرير تخلف تلك النبؤة عن الواقع[٢].

وكانت حجته أن الماركسية ليست شيئا جامدا ، ومن هنا افتتح لينين التراجع والتغيير فى تطبيق الأفكار الماركسية .

إن الثورة لاتقع حيث تطور وسائل الإنتاج ، وإنما تقع فى المكان الذى توجد فيه دواعى انفجارها حيث الاستغلال والظلم .

يقول العقاد : (إن حركات الثورة التى نشبت فى روسيا وماماثلها كانت تنشب فيها بعنوان من العناوين غير الشوعية لو لم يولد كارل ماركس ولم ينتشر بين أتباعه مذهب يسمى بالفلسفة المادية أو الإشتراكية العلمية ، فماكان حتما لزاما أن يشيع فى روسيا مذهب رجل ولد فى المانيا ودرس مذهبه فى انجلترا وجمع مؤتمراته فى سويسرا أو بلجيكا أو بلاد الشمال ، وكل عنوان صالح لالصاق اسمه بالحركة الثورية متى هزلت الحكومة وتجمع الثوار المتمردون فى مكان واحد ، فإذا كانت للشيوعية مزية فى هذا الباب على سائر الدعوات فمزيتها أنها غنية عن المجهود العقلى فى إقناع المتمردين المتذمرين بالاستماع إليها ، فإنه مامن مذهب من المذاهب الثورية إلا وهو فى حاجة إلى بعض المجهود العقلى لتعليم المبادىء وبث العقائد وتقرير الآراء إلا الشيوعية .. فهى على نقيض ذلك لاتحتاج إلى مجهود للإقناع بل إلى

---

(١) الطبقة الجديدة (٢٤-٢٥) ، وانظر : نظرات إسلامية فى الإشتراكية الثورية (٣٣-٣٤) ، المذاهب الإقتصادية الكبرى (١٠٤) .

(٢) انظر : الإصلاح الإقتصادى فى الدول الإشتراكية (٤٨) ، الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٩-١٠) .

إسقاط كل مجهود وإعفاء الذهن من كل إقناع ، فلاوازع ولاعرف ولارياضة للفكر أو للخلق على سنة متبعة ولامبدأ مرعى ولاصفة مطلوبة . بل المطلوب كله نكسة إلى حالة البهيمية السائمة أو إلى شر من حالة البهيمية السائمة ، لأن البهيم فى القطيع يدين ببعض الموانع ويحجم عن بعض الدوافع وليس للشيوعى مانع يمنعه ولادافع يحجم عنه ، إلا أن يكون مانع القيد ودافع السوط والعصا)(١).

ثم إن الدولة التى تنبأ ماركس بقيام الإشتراكية فيها بقيت رأسمالية إلى هذه اللحظة(٢)، بينما كان المد الشيوعى ينحسر قبل أن يصل إلى تحقيق شيء من نبؤاته(٣).

فهذه واحدة من التنبؤات ولربما كانت من أبلغ الردود على فساد فكر ماركس فى اعتقادى لأنها قد حكمت على الفكر من بداية أمره فلربما لو قامت الثورة الإشتراكية فى بلد متقدم صناعيا لحقق الفكر شيئا من النجاح ، ولكن قيامه فى بلد لم يكن يخطر على بال ماركس أن تقوم فيه الثورة لهو دليل على أن ماركس كان حالما ، وكفى بهذا إيغالا فى زيادة الشك لدى المفكرين وأصحاب العقول السليمة فى رد هذا الفكر ، وعدم الإذعان له نظرا لفساد نبؤته وتصادمها مع الواقع .

<u>ثانيا</u> : من النبوءات والحتميات التى قال بها ماركس : انتصار طبقة البروليتاريا كحتمية تاريخية . ولكن الواقع كذب ذلك حيث كان الأمر كله بيد الحزب ، وكانت الدكتاتورية كلها للحزب وأصبحت طبقة البروليتاريا (بعد الثورة مضطهدة ومستغلة من قبل طبقة جديدة لم يتنبأ بها ماركس أبدا هذه الطبقة تمارس الامتيازات التى للطبقة البرجوازية فى المجتمع

---

(١) لاشيوعية ولااستعمار (١٩) ، وانظر (١٨) ، وانظر الإشتراكية العربية (١٤٢-١٤٣).
(٢) انظر التطور والثبات فى حياة البشرية (١١٦) .
(٣) انظر وسقطت الماركسية (٦١-٦٢) .

الرأسمالى)[١].

بل إن الثورة البلشفية تنكرت للعامل وسلبته الحرية ، وسخرته للعمل والإنتاج وكأنه ترسا فى آلة[٢].

ثالثا : التنبؤ بازدياد حال العمال بؤسا وفقرا .

وهذه نبؤة كذبها الواقع من جانبين حال العمال فى روسيا ، وحالهم فى الدول الرأسمالية ، حيث إن حال العمال فى الدول الرأسمالية التى تقر الملكية الفردية لم يزدد سوءا بل بالعكس كان حالهم من أحسن إلى أحسن وخاصة إذا ماقورن حالهم بحال العمال فى البلاد التى تطبق الفكر الإشتراكى يقول دجيلاس : (أما فيما يخص نظريات ماركس حول تردى أوضاع الطبقة العاملة وإزدياد فقرها ، فإن التطورات اللاحقة للمجتمعات التى أوحت إليه بنظرياته هذه ، قد أثبتت بطلانها . إلا أنها أثبتت صوابها ، كما يقول هيوستون واتسون فى كتابه "من لينين إلى مالنكوف" : ليس فى أوروبا الغربية وإنما فى مجموعة بلدان أوروبا الشرقية ، فى ظل الشيوعية . فلقد اختلفت الصورة تماما : فالأوضاع المتردية التى كانت تعانيها انجلترا قد تبدلت تماما بعد ماركس وانجلز وأصبح الفقر مستشريا بشكل مروع ومثير للرهبة والفزع فى روسيا والبلقان وآسيا . فلقد أدت التطورات التكنولوجية فى الغرب ، وتطور القدرة الإنتاجية ، إلى تحسن أوضاع الطبقة العاملة ، واتجهت الأنظار للنضال من أجل الإصلاح الإجتماعى ولرفع مستوى المعيشة مع الأخذ بأنظمة الحكم البرلمانية . حتى باتت "المثل الإنقلابية" و"المبادىء الثورية" مجرد خرافة يثيرها أصحاب المخيلات المريضة والنوايا الخبيثة . بينما استطاعت الشيوعية أن تنفذ إلى قلب بعض البلدان غير المتطورة صناعيا مثل روسيا ، مستغلة تخبط هذه الدول فى سبيل حل مشاكلها

---

(١) من كلام سنتياجوجور بللو الشيوعى الأسبانى ، نقلا من كتاب مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية (١٢٥) .

(٢) انظر هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (١١٩) .

الإقتصادية ولاسيما فى مجال التصنيع السريع . وبذلك استطاعت جرثومة الماركسية أن تنتقل فى عهد الرأسمالية ، من الغرب المتطور صناعيا إلى بلدان الشرق المتخلفة فى تطورها الصناعى ، مثالها كل من روسيا والصين . ولقد حدث هذا فى وقت توحد الحركات الإشتراكية وارتباطها بجهاز مركزى باسم الأممية الثانية)[١].

إن الواقع كذب هذه النبؤة كغيرها من النبؤات ، وأدى ذلك إلى خطأ الأفكار المترتبة عليها ، يقول بوير : (إن أفكار ماركس عن الرأسمالية وتطورها خاطئة تماما ، وبالتالى ففكرته عن ضرورة القضاء على الرأسمالية وإحلال الإشتراكية محلها لابد أن تكون خاطئة لأنها تقوم على مقدمات خاطئة)[٢].

والذى دفع ماركس للاعتقاد ذلك هو الحالة العرضية التى شهدتها بعض الدول فى بداية التصنيع[٣]. حيث تضخمت الثروات فى يد أصحاب الأعمال ، وأدى ذلك إلى حالة من العوز والحرمان بالنسبة لطبقة العمال .

وهذه عادةماركس حيث يعمم الأحكام متى ماتوفرت فى جزئيات أو مراحل محددة . على خلاف أصول المنهج العلمى . هذا بالإضافة إلى أن النبؤة كانت فاسدة .

وهذا الفساد هو ماحدا ببرنشتين وغيره أن يعيدوا النظر فى الفكر الماركسى ، حيث لاحظ برنشتين أن المجتمع الرأسمالى كما هو ولم توجد الأزمات التى تعصف به ، كما لاحظ أن طبقة العمال لم تزدد بؤسا بل بالعكس تماما (هذان الأمران اللذان لاحظهما برنشتين واللذان يكذبان التحليل الماركسى استوقفا نظر برنشتين وجعلاه يعيد التفكير فى الأمر كله)[٤].

---

(١) الطبقة الجديدة (٢٦) ، وانظر الفكر الماركسى (٧٥) .
(٢) نقلا من كتاب دفاعا عن الماركسية (١٧٠) .
(٣) انظر هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٦١) وانظر مابعدها .
(٤) الإشتراكية العربية (١٤٨) .

(ورأى أن الديمقراطية البرلمانية هى خير وسيلة للعمال نحو تحقيق أهدافهم)[١].. كما أنه اعتقد بأن (مذهب ماركس مازال يحتفظ فى جوهره بشىء من الخيالية)[٢].

إن فساد النبؤة وتكذيب الواقع لها قد جعل الإنسان الشيوعى - وخاصة المفكرين - يعيش فى إزدواجية من التفكير . وهذا ماجعل الفكر الماركسى يفقد بريقه فى نفوس الأتباع والمؤيدين .

رابعا : من نبؤاته :

أن الصراع سيقع بين البروليتاريا والبرجوازية فى الدول الرأسمالية . وينتهى هذا الصراع بالثورة الإشتراكية . ولكن الذى حدث فى الدول الرأسمالية هو التقارب بين الطبقات الإجتماعية . بينما كان الصراع على أوجه فى الدول الشيوعية ، وعلى سبيل المثال مابين روسيا والصين . ثم إن الصراع ليس بالضرورة أن يكون بين طبقتين مختلفتين ، بل قد يقع بين الرأسمالى ومن على شاكلته ، كما يقع الصراع بين القوميات المختلفة مما يدل على أن الإقتصاد ليس هو السبب الوحيد فى الصراع هذا علاوة على أن الواقع قد كذب النبؤة .

خامسا : من نبؤاته زوال الطبقات من المجتمع .

ولكن هذا لم يحدث ولن يحدث لمخالفته مقتضى الفطرة الإنسانية ، والسنن الربانية . هذا بالإضافة إلى أن واقع الاتحاد السوفييتى قد كذب هذه النبؤة وحكم عليها بالبطلان . حيث أصبح التمايز الطبقى فى المجتمع السوفييتى أكثر منه فى أى مجتمع آخر[٣].

يقول العقاد عن ماركس : (كان يقول إن إلغاء رأس المال يقضى على أسباب الاستبداد ويمنع تعدد الطبقات فإذا بالغاء رأس المال فى روسيا

---

(١) الإشتراكية العربية (١٤٩) .

(٢) إصلاح اجتماعى أم ثورة (٦١) ، وانظر (٨٨) .

(٣) ومر معنا إيضاح ذلك بالتفصيل فى فصل الإقتصاد (١٠٢٠) ومابعدها .

ينتهى إلى استبداد يتحكم فى السياسة والثروة العامة والخاصة ويتحكم فى الأرواح والأقدار ، ويخرج للمجتمع طبقة من الحكام أقوى من الطبقة المعاصرة لها فى كل أمة من أمم رأس المال)[١].

ويقول دجيلاس : برزت (فى صلب المجتمع الشيوعى طبقة جديدة لم يسبق للتاريخ أن رأى مثالا لها)[٢].

سادسا : من نبؤاته :

أن الفوارق ستزول بين المدينة والريف ، وبين العمل الفكرى والعمل اليدوى . غير أن الواقع أثبت بقاءها بل وتعمقها وتأصلها[٣].

سابعا : ومن نبؤاته : وجود المرحلة الشيوعية الأخيرة بعد مرحلة الإشتراكية ، وانتشارها فى جميع أرجاء المعمورة . يقول انجلز : (لم يعد بمكنة الثورة الشيوعية أن تكون ظاهرة محدودة بالحدود الوطنية . وإنما هى ستندلع فى كل البلدان المتمدنة فى آن واحد ، أى فى انجلترا وأمريكا وفرنسا والمانيا على الأقل)[٤].

ويقول لينين : (إن انتصار السلطة السوفيتية فى العالم كله قضية مؤمنة والمسألة كلها مسألة وقت)[٥].

إلا أن الواقع كان لهم بالمرصاد ، فلم تتحقق الشيوعية فضلا عن أن تعم أرجاء المعمورة .

ثامنا : ومنها زوال الدولة .

وهذه نبؤة يكذبها الواقع الشيوعى ، كما يكذبها الواقع الدولى . بل إن الشيوعيين أنفسهم لو لم يكن لهم دولة لما بقيت الشيوعية فى الاتحاد

---

(١) لاشيوعية ولااستعمار (١٧-١٨) ، وانظر : الطبقة الجديدة (٥٤) ، الفكر الماركسى (٧٤) .
(٢) الطبقة الجديدة (٥٤) .
(٣) انظر المرجع السابق (٥٣-٥٤) .
(٤) تعاليم الماركسية (٣٣) .
(٥) ماهى سلطة السوفييت (٣٨) .

السوفييتى هذه الفترة . ومما يذكر هنا أن الدولة الشيوعية الكبيرة أصبحت عدة دول!!!

هذا عدا المبادىء التى نادى بها ماركس ورأى أن بعضها سيتحقق نتيجة لحتميات تاريخية أو ظروف سابقة عليها غير أنها كلها كان الواقع بخلافها وسير الأمور بالاتجاه المعاكس لها . وواقع الاتحاد السوفييتى خير مثال على ذلك . فرغم مابذله قادة الثورة البلشفية من أجل تطبيق الفكر الماركسى فإنهم لم يفلحوا ، ولم يحققوا شيئا من ذلك نظرا لمصادمة الواقع لتلك النظريات والنبؤات[(١)] القائمة على خيال ماركس . فكان واقع الاتحاد السوفييتى هو المحك لهذه النبؤات وقد أبان ذلك الواقع بطلان الأفكار الماركسية .

يقول ماندل : (إن أزمة السستام التى تعصف بالاتحاد السوفييتى هى أفضل برهان على أن بناء الإشتراكية هو أبعد من أن يكون قد أنجز وذلك خلافا لتأكيدات ستالين)[(٢)]. والذى كان يرى أن الشيوعية تحققت فى عهده غير أن المفكرين الشيوعيين كانوا يرون عدم إمكانية تحقق الشيوعية على الأصول الماركسية ، نظرا لتناقضاتها ومصادمتها للواقع ، ومن هنا قال فارغا (إن الشيوعية لن ترى النور فى الاتحاد السوفييتى لافى عشرين سنة ولافى مائة سنة مادامت الأمور مستمرة على استمراريتها)[(٣)].

يقول دجيلاس : (لقد دلت الأحداث المتتالية على مدى بعد تنبؤات ماركس فى تطابقها مع الواقع القائم ، كما أثبتت - فى الوقت نفسه - وبشكل أكثر وضوحا ، خطل آراء لينين وكتاباته ، فى قضية خلق مجتمع لاطبقى ينعم بالحرية ، عن طريق الأساليب الإرهابية لديكتاتورية الحزب الشيوعى)[(٤)].

---

(١) انظر إشتراكيتهم وإسلامنا (٥٣-٥٤) .
(٢) الاتحاد السوفييتى إلى أين فى ظل غورباتشوف (٧٦) .
(٣) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٧) المقدمة .
(٤) الطبقة الجديدة (٤٨) .

وهكذا غدا الواقع يبطل كل النبؤات والأوهام الماركسية ، وقد أدى ذلك إلى آثار كثيرة وإن كان ظهورها قد تأخر قليلا ، بسبب التسلط من الحزب الشيوعى السوفييتى على رقاب شعوبه .

أثر فساد النبؤات :

كان لفساد النبؤات الماركسية ومصادمة الواقع لها آثارا كثيرة منها :

أولا : أصبحت العقيدة الشيوعية الماركسية فلسفة تجاوزها الزمن ، وباتت متخلفة بالنسبة لتطور الحياة ومعطيات العصر الحديث ، كما أن حتمياتها قد أبطلها الواقع مما كان له ردة فعل فى نفوس معتنقيها وأتباعها والمتحمسين لنشرها[١].

ثانيا : بعد أن أفلست الماركسية فى نظرياتها وأبطلها الواقع انقلبت الثورة البلشفية التى قامت على الفكر الماركسى إلى نظام دولة لها سياستها التى تخالف الأيديولوجية الشيوعية .

يقول قدرى قلعجى : إن (الشيوعية منذ قام الاتحاد السوفييتى لم تعد عقيدة فلسفية أو مذهبا فكريا ، بل انقلبت إلى نظام دولة تشرف على انتشار هذه العقيدة ، وتضع لها الخطوط التى تتفق مع أغراضها وترسم لها الحدود التى تتلاءم مع مصالحها . فلم يعد للمفكر الشيوعى وجود ، لأن الفكر أصبح أداة فى يد السلطة السوفيتية تكيفه أو يكيف نفسه وفقا لأهداف لاعلاقة لها بالفكر والعقيدة .

لقد تحولت الفلسفة إلى دولة ، وغدا معتنقوا فلسفتها جنودا لديها ، وتخلت هذه الفلسفة عن روحها : كانت تجادل فباتت تأمر ، وكانت تناقش لتقنع فغدت تأمر لتطاع ، لم تعد الشيوعية عقيدة فلسفية ونهجا للإصلاح ، وإنما غدت مفهوما للسلطة ، وسبيلا إلى الحكم ، وسلاحا يتذرع به الطغاة والمنحرفون والمرضى لاحتكار أسباب القوة ، وممارسة ألوان الاستبداد ، تحت ستار من العصمة العقائدية ، وفى ظل هالة من العلم المزيف)[٢].

---

(١) انظر عن التراجع فى الحتميات سقوط الماركسية (٩٠-٩١) .

(٢) تجربة عربى فى الحزب الشيوعى (٢٨) .

ثالثا : أن فساد النظرية الماركسية ومصادمتها للواقع نتيجة طبيعية ، لأنها من وضع العقلية البشرية القاصرة ، وهذا جعل الشكوك تتسرب إلى نفوس معتنقيها وبالتالى التراجع عن التشدد فى المطالبة بتطبيقها إلى أن كان فى نهاية المطاف ضمن أحد الأسباب التى عجلت بسقوطها .

يقول يكن ومنى حداد : (إن أول مايجب أن يدركه الشيوعيون وغير الشيوعيين أن وضعية الفلسفة الشيوعية ووضعية أنظمتها ونظرياتها تقع فى مقدمة الأسباب والعوامل التى أوصلتها إلى الفشل فالانهيار .. إن عامل "الوضعية" فى أية نظرية وفلسفة .. عامل "المحدودية" فى أى منهج أو تشريع .. عامل "البشرية" فى أى نظام أو قانون .. إن هذا العامل هو جرثومة فناء هذه الفلسفات والنظريات والمناهج والتشاريع والأنظمة والقوانين بدون إستثناء ...)(١).

رابعا : ومن الآثار التى نجمت عن ذلك الفساد اضطرار القيادة الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى إلى التراجع عن أفكار ماركس والإعلان أن أفكاره ليست عقيدة جامدة لايمكن الخروج عليها ، وأدى هذا بدوره إلى عمليات الترقيع للفكر والابتعاد عنه بقدر مايحقق المصلحة إلى أن أدى ذلك الفساد للنبؤات ومصادمة الواقع والحقائق العلمية مجتمعا مع بقية الأسباب إلى إنهيار الشيوعية .

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن الفكر الماركسى قام على مجموعة من النبؤات والتخيلات .

ثانيا : أن الواقع التطبيقى للأفكار الماركسية ، قد خالف ماتنبأت به النظرية .

---

(١) البيريسترويكا من منظور إسلامى (٣٩) ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع .

ثالثا : أن واقع الدول الرأسمالية أبطل المزاعم الماركسية وفى ذلك دليل على فسادها وأنها ماقامت إلا على خيالات وأوهام كان لحياة ماركس وبيئته أثر فيها .

رابعا : أن النتيجة البدهية لقيام الماركسية على مجرد التنبؤات والتصورات أن تكون كذلك مصادمة للحقائق والبراهين العلمية لأن العلم لايبنى على مجرد التوهم وبالتالى كان العلم يبطل ويرد الفكر الماركسى ، وهذا ماسنعرض له فى المبحث التالى .

المبحث الثانى
إبطال العلم للأفكار الماركسية

قامت الفلسفة الماركسية على المذهب المادى الذى ينكر وجود الإله ، وكانت الحياة الأوربية تساعد على قيام مثل ذلك الفكر ورواجه(١)، كما أن الكنيسة قد ساهمت فى ذلك بفعالية كبيرة ، وفى هذه البيئة نشأ ماركس ، واستقى أفكاره منها فلاغرابة فى أن أصبح من أشهر الماديين فى العصر الحديث إن لم يكن أشهرهم . ويرى الماركسيون أن ماركس وانجلز قد مروا بفترة تقصى علمى وبعد نضجهما وصلا إلى المادية والإلحاد(٢). ومن هنا تميزت أفكار ماركس وانجلز بأنها علمية حيث اختلفت عن بقية الفلسفات جذريا(٣).

بل إن ماركس قام بنقد النظريات السابقة عليه ، لالإصلاحها بل لأنها قصرت فى خدمة أهدافه الإلحادية(٤). حيث كانت النظريات التى أخذ منها وتأثر بها فى بعض جوانبها تهدم أقواله وفكره الذى يقوم على إنكار الإله ، وعدم ثبات الدين والأخلاق ، وأن المجتمع يسير حسب قوانين محددة وحتميات تاريخية لايخرج عنها(٥). ومن هنا فإن الماركسية قامت فى هذا الجانب على التالى :

(١) إنكار وجود الخالق جل وعلا .
(٢) أن المادة هى الأصل وأنها أزلية أبدية .

---

(١) لمزيد عن ذلك انظر الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٢٨٥-٢٨٧) ، وانظر الإنسان بين المادية والإسلام (٢٥،١٦) .
(٢) انظر الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٣٩،٣٧) .
(٣) انظر المرجع السابق (٦٣) .
(٤) عن بعض هذا النقد انظر المرجع السابق (١٩١-١٩٢) .
(٥) انظر ماذكره د. محمد البهى عن مادية ماركس فى كتابه الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٢٧٩-٢٨١) .

وقبل أن نبين بطلان تلك المزاعم لابد من التذكير بأن الشيوعيين الماركسيين يعتبرون شيوعيتهم شيوعية علمية ، وبتطبيق الأفكار الماركسية وعرضها على الحقائق العلمية نجد البون الشاسع بين العلم والفلسفة الماركسية يقول د. رؤوف شلبى أن (تسمية الماركسية بالعلمية خطأ مقصود ، فالعلم لايعرف الحتمية .. وإلا لما تقدم العلم التجريبى على نظرية قديمة إلى نظرية أخرى تفوقها أو تكملها ...)[١].

هذا بالإضافة إلى أن علماء النقد العلمى يرون (أن كل نظرية يخالفها الواقع تصبح عندئذ غير علمية ، ويجب أن تطرح فى سلة المهملات)[٢].

وكلمة العلمية التى استخدمتها الماركسية (خداع شديد تعنى الواقع المادى وحده وليست تعنى العلمية فى المنهج الذى يقوم على استخلاص النتائج من التجربة الحقيقية)[٣].

وبعد هذا نأتى إلى بيان بطلان الأفكار المادية الماركسية .

---

(١) التضليل الماركسى (١٨٤) نقلا من كتاب الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٩٧) .
(٢) نظرات إسلامية فى الإشتراكية الثورية (٣٣) .
(٣) هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (١٠٢) .

أولا : وجود الإله .

إن هذه الحقيقة أكبر من أن يدلل عليها فشهدت بذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة . كما أن الأدلة العقلية والبراهين العلمية قد أثبتت وجود الخالق جل وعلا ومر معنا شيئا من ذلك(١).

وهو سبحانه وتعالى الأول الذى ليس قبله شيء والآخر الذى ليس بعده شيء ، قال تعالى : {**هو الأول والآخر والظاهر والباطن**}(٢)، كما أن العلم أثبت (أن المادة ليست وجودا قائما بذاته ومتحركا من ذاته وخالقا لذاته ومتطورا بذاته ، وإنما هى وجود مادى جامد غير متحرك بذاته ـ معلول لغيره فى حركته وتطوره ـ وإن كان يملك إمكانات تطورية غير متحققة بالفعل إنما يلزمه ذلك التأثير الخارجى أو العلة الخارجية التى تعمل على دفعه ليتحول إلى صورة جديدة ونوعية أخرى تتميز بخصائص ومواصفات جديدة .

وليس الكون فى النتيجة إلا مجموعة أشياء الطبيعة من حجر وشجر وحيوانات وجبال وأجرام وبحار وإنسان الخ ... وإن كل شيء من أشيائها محسوس فمحدود فمحدد فله بداية وله نهاية ، وطالما أن كل شيء محسوس له مقاييس طولية وعرضية وعامودية تحدد حجمه ، فيعنى أن له وجودا معينا يتمثل فى أن له أولا وله آخرا ، أى أن له بداية وله نهاية ، أى أنه محدث لم يكن ثم كان وسيزول . وبما أن لكل محدث محدث فالشيء ـ إذن ـ له محدث أحدثه وأوجده . فنقول إن الفخارى هو الذى أحدث صورة "الإبريق" . فالابريق محسوس ، له حجم معين ، وله أول وآخر ، فلم يكن ثم كان وسيزول . وبالتالى فإن له صانعا صنع صورته ونظمه بالشكل الذى أصبح عليه . وهكذا فالكون محدث مصنوع لم يكن ثم كان وسيزول ، طالما أن أشياءه محسوسة ملموسة خاضعة للمعرفة الحسية ، ومحدودة بأحجام معينة.

---

(١) راجع (٥٦٣) ومابعدها .

(٢) سورة الحديد : (٣) .

وعندما نعلم أن كل محدود هو محدث مصنوع فهو محتاج ناقص - أى أنه محتاج لمن يوجده ويصنعه وتنقصه إمكانات وجوده بالذات وإمكانات تطوره ذاتيا وإمكانات معرفته المطلقة - فيعنى أن الكون ناقص محتاج لغيره فى الوجود والتطور)(١).

ثانيا : أزلية المادة .

يعتقد الماركسيون أن المادة أزلية أبدية فهى أصل الوجود ، لاتفنى ولاتبيد ، يقول ماركس : (لايمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة فإن هذه المادة هى جوهر كل التغيرات)(١).

وهذا الاعتقاد باطل وبيان بطلانه من وجوه :

الوجه الأول : أن الله تعالى هو الخالق لهذا الكون المدبر لأمره ، وأن كل الموجودات مفتقره له جل وعلا ، وقد ثبتت هذه الحقيقة بنص كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم بالبراهين العقلية والعلمية . هذا بالإضافة إلى واقع الشيوعيين فى الاتحاد السوفييتى ، ومآلت إليه دولة الشيوعية والإلحاد .

الوجه الثانى : ادعت الماركسية أنها لاتؤمن إلا بالمحسوس لأنه هو المشاهد ، ولأن العلم يثبته . وتوصلوا من خلال ذلك إلى إنكار وجود الإله لعدم خضوعه للمشاهدة .

فيقال لهم إن عدم إيمانكم بالإله لهذه الحجة ، يوقعكم فى الكفر بالمادة التى هى الأصل عندكم . فيقال لهم كيف هو شكل المادة؟! ومالونها؟! إن الماركسيين قد عجزوا عن الإجابة وسوف يعجز كل أحد اعتقد اعتقادهم ذلك .

---

(١) معالم الإشتراكية العربية (١٧١-١٧٢) .
(٢) نقلا من كتاب فلسفتنا (٣٧١) .

ثم يقال لهم من أين لكم أن المادة أزلية فإن ذلك بحد ذاته إيمان بما ليس عليه دليل حسى أوبرهان ، وهذا يلزم الماركسيين بلوازم فى جوهر معتقدهم .

يقول نوفل : (إن العجز عن تصور الشيء أو تصور أزليته ، ليس فى حد ذاته برهانا على أن الشىء غير موجود . وإلا لأنكر الماديون أنفسهم وجود المادة لعجز العقل البشرى عن تصور أزليتها!)(١).

الوجه الثالث : أن مقولة أزلية المادة لاتستند على برهان علمى بل إن العكس هو الصحيح حيث إن الحقائق العلمية ترفضها .

كذلك الأدلة الحسية تمنع صدقها فمن ذلك :

(أ) (أن شمسنا هذه وهى من الشموس الطاعنة فى السن ، لايمكن أن يزيد عمرها عن خمسة آلاف مليون سنة ، حسب تقدير العلامة "ميلن" وربما كان ـ حسب مايقول العلماء ـ أقل من ذلك بكثير . فلماذا لم يكن عشرة آلاف ، أو مائة ألف مليون، مثلا؟

واحدة من اثنتين :

إما أن المادة التى تطورت حتى صارت إلى هذه الشموس محدثة ، غير أزلية ، فمن أحدثها؟

أو أن تطور المادة بدأ يحدث قبل مدة معينة من الزمان طالت ، أم قصرت ، فالانطلاقة الأولى لعملية التطور حادثة غير أزلية ، فمن أحدثها ، أو سبب حدوثها . الاحتجاج بالحركة الدفعية التى تقع من أجزاء المادة بطبعها ، كالدفع والجذب ، احتجاج فى غير موضعه ، فإن هذه الحركة مرتبطة بالمادة . فإذا كانت المادة أزلية ، فهى أزلية معها ، فلماذا تأخر تأثير هذه الحركة ـ الأزلية ، جدلا؟ إن شمسا من أقدم الشموس لم يمض على ميلادها أكثر من خمسة آلاف مليون سنة . أما الاحتجاج بما يسمونه

---

(١) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين (١٢٧) .

"المصادفة" هنا فى هذه الحالة وأمثالها ، فهو سذاجة ينكرها العلم ، وتخايل لايقره أكثر العلماء ،وافتراض بحت لايقوم على صحته دليل)(١)(٢).

(ب)أن المادة لايتوقف وجودها على نفسها ، كما أنه لايمكن أن تتحول بذاتها بل لابد لها من مؤثر خارجى ، وهذا يبطل أن تكون المادة أساس كل شىء وبالتالى يبطل زعمهم القائل بأزليتها . يقول د .صابر طعيمة (والمادة حجر الزاوية فى المبادىء الماركسية . ومع أن المادة التى يعللون بها كل مايذهبون إليه . أعسر فهما وأغمض أمرا من معظم المسائل التى ينكرونها . فضلا عن إنكارهم لكل ماهو وراء المادة ، فإن الماركسيين لايجيبون بشىء أمام سؤال يوجه إليهم عن وجود المادة نفسها . فإذا ماقيل لهم ماتقولون فى أنه على ضوء ماتعتقدون . بالنقيض والصيرورة وبالانتقال من الكم إلى الكيف فإن المادة لايمكن أن يكون وجودها ذاتيا متوقفا على ذاتها مستغنية فى وجودها عن غيرها بدليل التغير وإذا فهى حادثة ، والقول بأزليتها باطل والقول بالنقيض أيضا باطل بدليل بعض مظاهر المادة التى يؤمنون بها ، فبعض العناصر . تتحد مع بعضها وتتفاعل مع غيرها . فذرتان من الأيدروجين الثقيل مع ذرة الأوكسجين تنتج ماء . والنار لاتحرق إلا إذا كانت مادة الإحراق قابلة للإحتراق . فالعناصر هنا تتكامل ولاتتناقض كما يزعمون؟ . هذا والقول بأن المادة تتحول بفعل التناقض من حالة إلى حالة يدل على أنه لابد من القول بمؤثر خارجى . وهذا يدل على حدوثها ونقض قولهم بالأزلية المادية)(٣).

---

(١) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين (١٢٨-١٢٩) .

(٢) وقد مر معنا الحديث عن اثبات وجود الخالق جل وعلا ونفى المصادفة عن خلق هذا الكون (٥٧٣-٥٧٧) .

(٣) الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٧٤) ، وانظر حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام (١٤) .

الوجه الرابع : أنه (لو صح أن المادة هى ينبوع الروح ومايتفرع عنها ، لقضى العقل ، بحكم البديهة ، أن يكون الإنسان أسبق إلى فهم الروح وعناصرها وأسرارها ، منه إلى فهم المادة وذراتها وجزئيات تلك الذرات وكهاربها . ذلك لأن العقل إذا أدرك أصل الشىء وحقيقته ، فهو أحرى أن يدرك ثمراته وفروعه ، بجهد أقل وطريقة أقصر . ولاريب أن أحدا من العقلاء لايستطيع أن يتصور أن رجلا من الناس أتيح له أن يفهم ذات الشجرة فى جذورها وطبيعتها وتحليل كل أجزائها ودخائلها ، حتى إذا رأى الثمر فى أعلاها ، استغلق عليه سبيل المعرفة به فلم يفهم منه ظاهرا ولاباطنا ، وبقى ـ وهو فرع للشجرة التى أدرك دخائلها ـ سرا غامضا لم يهتد منه إلى شىء!...

هل من العقلاء من يصدق هذه الفرضية العجيبة؟

إن الأعجب من هذا أنها ليست فرضية!.. إذ هى حال هؤلاء الماديين أنفسهم ... يقولون إن الروح وماتستتبعه من إحساس وفكر ، من ثمرات المادة ومعطياتها ؛ فيجب بمقتضى ذلك أن يدركوا من الروح قدر الذى أدركوه من المادة وذراتها ، على أقل تقدير . وهذا مالايرتاب فيه عاقل ، ولكنهم يعترفون بأنهم إلى هذه الساعة التى هم فيها لايعلمون شيئا عن الروح . بل يزيدون الأمر تأكيدا ، فيقررون أن العلم ذاته لايستطيع أن يقول شيئا عن الروح .

نعم ... إن أئمة المادية الديالكتيكية أنفسهم يقررون هذا الواقع ويعترفون به!...)[1].

وعلى هذا فهم آمنوا بشىء لم يروه ولم يستطيعوا وصفه . وهذا يتعارض مع عقيدتهم القائمة على عدم الإيمان إلا بما هو محسوس .

---

(١) نقض أوهام المادية الجدلية (١٠٩-١١٠) .

الوجه الخامس : أن العلم أثبت أن هذا الكون لايمكن أن يكون أزليا فمن ذلك ماجاء عن الدكتور ادوارد لوثر حيث قال أن (العلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لايمكن أن يكون أزليا ، فهنالك انتقال حرارى مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ، ولايمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة . ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيموية أو طبيعية ، ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها فى هذا الكون . ولما كانت الحياة لاتزال قائمة ، ولاتزال العمليات الكيموية والطبيعية تسير فى طريقها ، فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لايمكن أن يكون أزليا ، وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط فى الوجود . وهكذا توصلت العلوم ـ دون قصد ـ إلى أن لهذا الكون بداية . وهى بذلك تثبت وجود الله ، لأن ماله بداية لايمكن أن يكون قد بدأ نفسه ولابد له من مبدىء ، أو من محرك أول ، أو من خالق ، وهو الإله)[١].

ويقول المهندس : جورج هربت بلونت George Herbert Blount :

(الأدلة الكونية تثبت : أن العالم متغير ، إذا فليس أزليا أبديا ، لذلك فالضرورة الكونية تلجئنا إلى الإعتقاد : أن هناك ـ وراء الكون المادى ـ حقيقة سرمدية عالية ، بإرادته وحكمته اللانهائية يتغير الكون على نظام بارع..).

ويقول : أوسكار لنوبرايونر Oscar Leo Brauer : (هناك فرضيتان بالنسبة للأجرام السماوية :

(١) إنها لابدء لها ، أى أزلية .

(٢) إنها مخلوقة حادثة .

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم (٣٣) .
وانظر الإسلام يتحدى (٧٤) ولمزيد من الأمثلة انظر مابعدها .

إن الفرضية الأولى ساقطة مردودة ، حيث المادة متغيرة ، تنمو وتتسع ثم العلوم الطبيعية - على دقة عميقة - تقدر بداية كل جسم .. إن العلوم باستطاعتها أن تثبت : أن الكون مخلوق طاقة وحكمة عالية ولكنها لاتستطيع أن تبين الكيفية العجيبة المرموزة والقوانين الطبيعية وعللها كما هى بحق...)(١).

الوجه السادس : أن هذه الدعوة مبنية على أوهام وخرافات وذلك لتتفق مع ماقامت عليه الشيوعية من محاربة الأديان ومعاداتها ، وخصوصا الإسلام .

فإن أزلية المادة وبالتالى الكون يعارضها ماجاء فى كتاب الله تعالى حيث أبان الحق سبحانه بداية هذا الكون وخلقه للسموات والأرض بما فيهن كما أن سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم تبطل ذلك الزعم حيث جاء الإخبار عن خلق الكون فى نهايته إذا شاء المولى جل وعلا .

الوجه السابع : أن العلم نقض الأقوال السابقة عن المادة فبعد أن كانت وحدة متكاملة جاءت الاكتشافات العلمية الحديثة وجعلت منها مجموعة ذرات حيث فجرت الذرة وأصبحت تتكون من عدة جزئيات .

يقول ادنجتون : (إن المادة مركبة من بروتونات والكترونات . أى شحنات موجبة وسالبة من الكهرباء)(٢).

وعلى هذا فقدت المادة خواصها وفقدت قدسيتها التى كانت لها .

الوجه الثامن : الخلاف الذى وقع بينهم فى أيهما أسبق المادة أم الفكر ثم الحكم للمادة بالأسبقية دون علم ودون رؤية ، وهذا يخالف منطقهم القائل بأنهم لايؤمنون إلا بالمحسوس .

يقول د. صفوت : (ثم من أين أتاكم القول بأسبقية المادة فى الوجود على الفكر أنتم قوم لاتؤمنون إلا بالعلم القائم على الملاحظة والتجربة

---

(١) نقلا من كتاب الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٢٣٦-٢٣٧) .
(٢) هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٩٧) .

والمشاهدة وقولكم بأسبقية المادة على الفكر رجما بالغيب وأنتم لاتعترفون بالغيب ...)[١].

وعلى هذا الأساس لايوجد دليل علمى على أسبقية المادة على الفكر فهم لم يشهدوا كيف بدأ الخلق حتى يحكموا هذا الحكم ويقطعوا هذا القطع ثم إنهم لايؤمنون إلا بما هو خاضع للتجربة العلمية القائمة على الحس والملاحظة والمشاهدة وهذا الموضوع لايخضع لذلك ـ بل هو غيب من الغيب الذى لايؤمنون به ـ فيقال لهم إما أن لاتؤمنوا بما هو غيب لايدرك بالحس فلامعنى إذا لأن تحكموا بأسبقية المادة على الفكر ، لأن هذا أمر لم تشاهدوه وإما أن تؤمنوا بما هو غيب لايدرك بالحس فعليكم أن ترفضوا إذا المذهب المادى الذى هو أساس مذهبكم الماركسى[٢].

هذا بالإضافة إلى أن العلم أثبت (أن هناك جانبا غيبيا وراء مقررات الذرة والكهربائية والجاذبية وغيرها لايستطيع العلم أن يصل إليه وليس له إلا أن يسلم به مما يؤكد أن وراء هذا العالم المادى عالما آخر أكبر وأعظم ، وأن مراجعات علماء التجريب ومقايساتهم كلها تكشف وتؤكد أن وراء هذا العالم قوةكبرى تديره ساعة بعد ساعة وتحفظه لحظة بعد لحظة من أن ينفرط عقده وصدق الله العظيم حيث يقول : {**الله يمسك السموات والأرض أن تزولا**}[٣])[٤].

ثم ماهى المادة؟ وهل تشاهد أو يمكن أن تحس؟ إن المادة مجهولة لايمكن فهمها أو تفسيرها ، ومن هنا كيف تفسر ماعداها أو تكون مؤثرة فيه يقول العقاد : إن (المادة نفسها غير مفسرة وغير مفهومة ، فهى من باب أولى لاتفسر ماعداها ولاتزال سرا من الأسرار يتطلب منا الفهم ولايدنينا من فهم غيره . كان "المادى" قبل مائة سنة يخبط الأرض بقدمه ويقول"هذه الحقيقة

---

(١) الفكر الماركسى (٣١) .
(٢) انظر المرجع السابق (٦٥) .
(٣) سورة فاطر : (٤١) .
(٤) هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (١٠٠) .

التى تستند إليها وأما ماعداها من الآراء المثالية والعقائد الروحية فهى خيال أو ضلال" .

فاليوم يعلم أن مادة الأرض التى يخبطها بقدمه أبعد حقيقة وأعسر فهما من كل مايقال عن الروحيات والمثاليات . ماهى هذه المادة؟ هل هى لون؟ هل هى جسم؟ هل هى ثقل؟ هل هى امتداد؟

لا .. إن اللون عارض من عوارض النور والنظر يتغير على حسب الإضاءة وعلى حسب العين التى تراه .

والجسم كله ذرات تنشق فتتحول إلى اهتزاز فى الأثير ، ولايدرى أحد ماهو الأثير . لأنه شىء لاطعم له ولاجرم ولاحركة ولافرق فى المدلول عند عارفيه بين كلمة الأثير وكلمة الفضاء ، والثقل لاوجود له خارج نطاق الجاذبية ، والامتداد شىء لايفهم لأنه لايتناهى فى القصر ولايتناهى فى الطول سواء نظرنا إلى امتداد الزمن أو امتداد المكان ...) .

(والفيلسوف الذى يدق الأرض بقدمه ويتوهم أنه وضعها على حقيقة الحقائق ليس له رأس أصح من تلك القدم فى فهم حقائق الأشياء)[١].

ثم لو سلمنا بذلك وهى أن المادة أسبق من الفكر كما يقولون فكيف يتسنى للفكر أن يحيط بالمادة ويوضحها ويكتشف عملها وقوانينها . كيف يحيط المصنوع بصانعه . إن هذا يتعارض مع أبسط الحقائق العلمية والمنطقية يقول الخفاجى : (إن الحواس هى أبطأ أدوات المعرفة ، ولذلك يشترك فيها الحيوان وبعض النبات مع الإنسان فى إدراك البيئة المادية من حوله . ثم لم يكن مفر من العقل كأداة أرقى فى المعرفة حتى انتهت به رؤيته للمادة إلى حافة الأثير عندما خرج عن كل صفة معروفة من صفات المادة ولم يبق إلا حسبة رياضية لها دلالة كبرى وهى أن الإنسان ليس من صنع المادة لأن المصنوع لايحيط بصانعه ، والإنسان قد أحاط بصورة المادة وخرج بها إلى دائرة أوسع منها هى دائرة الأثير .. بل إلى عمليات رياضية فكرية فى قدرة

---

(١) لاشيوعية ولااستعمار (١٥-١٦) .

الإنسان أن يحتويها ، وهذا لايتأتى إلا إذا كان فى طبيعة الإنسان شيء يعلو على مكونات المادة .. شيء مفارق لكل خصائصها المعروفة .. وإذا تحولت المادة إلى حسبة رياضية يحتويها الفكر ، فإن ذلك يجعل المنطق القائل بأن المادة أسبق فى الوجود على الفكر فى مأزق علمى شديد التناقض مع معطيات العلم الجديد . وفى مأزق أشد حرجا مع مسلمات الماركسية التى قامت على أساس صحة هذا الافتراض ومالرتبط به بعد ذلك من مصالح سياسية كبرى ، ومأشد محنة العالم حيث يقف حائرا بين دواعى السياسة وأمانة العلم)[١].

الوجه التاسع : التراجع بعد ذلك فى رأيهم القائل بأسبقية المادة خاصة بعد قولهم بنظرية التطور (ونسوا بذلك أن تنازلهم عن الإصرار على أن المادة أولا سيفقدهم المقدرة على أن المادة هى المؤثر الحاسم فى عملية التطور وأن ذلك مقدمة لمزيد من التراجع ...)[٢].

الوجه العاشر : أن اعتراف الماركسيين بوجود الفكر وهو عندهم يعنى النشاط المعنوى للإنسان الذى يشمل آراؤه ومعتقداته وعواطفه وانفعالاته وكل مالايخضع للتشريح المادى فى الإنسان يعتبر اعتراف بوجود ما هو مجرد عن المادة[٣]، وبالتالى يناقضون أنفسهم حيث آمنوا بما ليس محسوسا ولامشاهدا .

هذا بالإضافة إلى أن إنكار مالايدرك بالحس يتعارض مع النتائج العلمية ، والماركسية تدعى الإيمان بالعلم ونتائجه ، فالعلم أثبت وجود أشياء من حولنا لايدركها الحس ، فالميكروب لايرى إلا بالميكروسكوب ولم يكتشف إلا بعد اختراع هذا الجهاز فهل يعنى ذلك أن الميكروب قبل اكتشاف الجهاز غير موجود؟[٤]زد على هذا أن هناك حقائق علمية تم الكشف عنها مؤخرا

---

(١) حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون (٧٥) .
وانظر هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٩٨-٩٩) .
(٢) حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون (٧٦-٧٧) .
(٣) انظر الفكر الماركسى (٦٤) .
(٤) انظر المرجع السابق (٦٦) .

فهل يعنى هذا عدم وجودها قبل إدراكها أو اكتشافها؟!!

الوجه الحادى عشر : أن العالم له بداية ، وإذا لم يكن كذلك فسيكون هناك سلسلة لامتناهية يمنعها العقل .

يقول كانط : إن (للعالم بداية فى الزمان وهو أيضا محصور بحدود فى المكان . إذ لو سلمنا أن لابداية للعالم فى الزمان فسيكون ثمة أزلية منصرمة حتى كل لحظة معطاه ، وبالتالى سلسلة لامتناهية من حالات متتالية للأشياء فى العالم والحال ، أن لاتناهى السلسلة يقوم بالضبط على أن هذه السلسلة لايمكن أن تنجز البتة بتأليف متتال . فسلسلة لامتناهية منصرمة فى العالم هى إذن مستحيلة ...)(١).

الوجه الثانى عشر : أن هذا الكون بكل مافيه يدل على أنه ليس أزليا وأنه مفتقر إلى إله متصرف حكيم قادر . يقول غانم عبده : (على أن كون العالم ليس أزليا يكفى لاثباته مايشاهد فيه من ربيع وصيف وشتاء وخريف ومن تلبد غيوم وصفاء أجواء ، ومن برق ورعود وريح عاصف ونسيم عليل ومن موت وحياة ، ومن انتقال الحبة إلى زرع وإلى هشيم ، والغرسة إلى شجرة وإلى خشب وأحطاب ، والماء إلى بخار أو جليد ، ومن انتقال النطفة إلى جنين إلى طفل إلى شاب إلى شيخ هرم ، والبيضة إلى كتكوت إلى دجاج إلى طعام يأكله الناس ، إلى غير ذلك مما يحدث فى العالم ككل ومايحدث فى كل جزء من أجزائه . فإن هذا كاف للبرهان على أن العالم حادث بوصفه كلا ، وأنه حادث بكل جزء من أجزائه ، وكونه حادثا يعنى أنه ليس أزليا أى أن له أولا قد ابتدأ منه ، وهذا يعنى أنه مخلوق لخالق . فكونه له ابتداء معناه أنه كان معدوما ووجد ، وكونه قد وجد من عدم يحتم أن له موجدا أوجده . وهذا كاف لإثبات وجود الخالق ، لأن وجود مخلوق لخالق يعنى حتما وجود الخالق ، وبذلك ينقض ماذهب إليه بعض الناس فى العصر القديم من أن العالم أزلى قديم ، ويثبت أن العالم مخلوق لخالق ، وبذلك

---

(١) نقد العقل المحض (٢٢٧) .

يثبت وجود الخالق)[١].

الوجه الثالث عشر : أن مانشاهده الآن ونسمعه ونقرأه قد كذب هذا الزعم فإن الإقرار بوجود الإله جل وعلا أصبح أمرا لايقبل الجدال ولاالنقاش . وإن وجد شواذ فأين هم من هذا الخضم ـ على مختلف مشاربهم ـ الذى لم يعد يقبل تلك الآراء عن الإله أوالمادة .

وأخيرا نقول لهؤلاء إن واقع الاتحاد السوفييتى ـ الذى حاول حمل الناس على الإيمان بأن لاإله والمادة هى الخالقة ـ يدل على نسف هذه العقيدة وإبطالها جملة وتفصيلا[٢].

وبعد هذا العرض لرد زعمهم عن أزلية المادة والحكم المترتب عليها وهى أزلية الكون نصل إلى التالى :

أولا : بطلان زعمهم ذلك بالأدلة الشرعية والعقلية والعلمية .

ثانيا : أن سقوط الاتحاد السوفييتى القائم على المزاعم المادية قد حكم عليها بالبطلان والفشل .

ثالثا : أن واقع الشيوعيين الماركسيين وبعض أفكارهم الواردة عنهم تدل على إبطال ذلك الزعم وتبين أنه مجرد فكرة ظن ماركس وأتباعه أنها ستلقى القبول والرواج ولكن خيب ظنهم الواقع ومن قبل فطر الناس التى تؤمن بخالقها وتقر بوجود بارئها .

رابعا : ثبت بهذا أن الماركسية لاتقوم على أصول علمية وأن العلمية التى ادعو ليست إلا ستارا من أجل نشر أباطيلهم ومما يؤكد ذلك إبطال العلم لقوانين الجدل ، وهذا ماسنتعرف عليه فى المبحث التالى .

---

(١) نقض الإشتراكية الماركسية (٣٦-٣٧) .

(٢) لمزيد عن إبطال مزاعم الماركسيين والماديين انظر نقض أوهام المادية الجدلية ، وعلى سبيل المثال (١٣٨-١٤٨) .

المبحث الثالث
إبطال قوانين الجدل

رتب ماركس كثيرا من أفكاره على أساس قوانين الجدل ، وقد أفاد ماركس ممن قبله بالنسبة لهذه القوانين وخاصة هيغل[١]، على أن الأخير لم يستخدمها كاستخدام ماركس لها الذى مسخ مثالية هيغل واستعاض عنها بمادية فيورباخ فأصبح مفكرا ماديا ديالكتيكيا[٢]. ومثلت الجدلية ركيزة أساسية فى الفلسفة الماركسية ولكنها جدلية تخدم الفكر الماركسى ومن هنا انتقد ماركس الفلسفات السابقة عليه ، ولأجل ذلك اعتبر الماركسيون أن الماركسية (انقلاب ثورى فى نظرية المجتمع وبداية لحقبة جديدة ومختلفة نوعيا فى الفلسفة)[٣]. وتقوم المادية الجدلية الماركسية على إنكار الإله ومايتفرع عن ذلك من أمور كالنبوءات والمعاد ...الخ ومر معنا عرض قوانين الجدل[٤]، ونأتى الآن لنبين بطلانها .

أولا : قانون التناقض :

والقصد منه كما يصوره ستالين (أن كل أشياء الطبيعة وحوادثها تحوى تناقضات داخلية . لأن لها جميعها ، جانبا سلبيا ، وجانبا إيجابيا ، ماضيا وحاضرا . وفيها جميعا عناصر تضمحل أو تتطور . فنضال هذه المتضادات هو المحتوى الداخلى ، لتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية)[٥]، وهذا القانون يعتبره ماو (القانون الأساسى الأهم فى الديالكتيك المادى)[٦].

---

(١) انظر عن ذلك معالم الإشتراكية العربية (١٤١-١٤٣) .
(٢) انظر عن ذلك الإشتراكية على مشارف القرن الواحد والعشرين (٦٧) .
(٣) الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١/٧-٨) .
(٤) راجع (٤٣٧-٤٤٥) .
(٥) نقلا من كتاب فلسفتنا (٢٥٤) ، وانظر الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٢٧) .
(٦) نقلا من كتاب فلسفتنا (٢٥٤) .

وهـم بهذا القانون يريدون الوصول إلى تفسير المراحل التى مـرت بها البشـرية ووصلـت إلى الرأسمـالية ، حيث إن كل نظـام كـان يحمل تناقضا ذاتيا يؤدى فى النهاية إلى خلق مجتمع جديد وفكر جديد ، وهذا مايوجد فى الـرأسمالية أيضـا حيث يقول انجلـز : (لما كـان الإنتـاج الـرأسمالى مـرحلة إقتصـادية انتقـالية فهو ملىء بالتنـاقضات الباطنة التى تتطـور وتتضـح بصورة مطردة مع تطورها)[١]. وهذا القانون باطل ، وبيان بطلانه من وجوه :

الـوجه الأول : بادىء ذى بدء نقـول إنه مـن المسلمـات بأن الصـراع موجود . وهذه حقيقة ثابتـة ، غير أنه يوجد فى بعـض الجوانب دون غيرهـا لاكما زعمت الماركسية بأنه موجود فى كل شىء .

يقول المدرسى : (لاشك فى وجود صراع فى هذه الـدنيا ، ولكنه ليس صراعا فى الوجود كله ، وإنما هو صراع الإرادات البشرية ، أى صراع الحق والبـاطل ، صراع الهوى والعقـل . وهو صراع خاص بالبشـرية . أما أشياء الحياة الأخرى ففيها التعاون وليس التناقض .

هل الشمس تتناقض مع القمر؟ مع بقية النجوم؟

هل الماء ، يتناقض مع التراب ويتصارع معه؟

هل النباتات تتصارع مع الهواء؟

إن كل مافى الكون يدل على تعاون عميق بين أجزائه مـن أصغر ذرة إلى أكبر مجرة .

ضـع نواة شجـرة فى داخل التراب ، ثم لاحظ بالميكـروسكوب مـاذا تعمـل الذرات الموجودة هناك ، وكيف تتعاون كل قـوى الطبيعة مع بعضها البعض لإنمائها ، ترى أين هو الصراع ، والتناقض فى ذلك؟)[٢]

---

(١) فى الاستعمار (٣٦٢) .

(٢) نقد النظرية الماركسية (٢٧-٢٨) .

والأمثلة التى ترد على ذلك الزعم كثيرة ويضرب د. الصدر العديد منها ويبين أن كل نفى لايناقض أى إثبات كما أن كل إثبات لايتعارض مع كل نفى فيقول :

(إن كل نفى لايناقض أى إثبات ، وكل إثبات لايتعارض مع كل نفى ، وإنما يتناقض الإثبات مع نفيه بالذات لامع نفى إثبات آخر ، ووجود الشىء يتعارض بصورة أساسية مع عدم ذلك الشىء ، لامع عدم شىء آخر . ومعنى تعارضهما أنهما لايمكن أن يتوحدا أو يجتمعا . فالمربع ذو أربعة أضلاع ، وهذه حقيقة هندسية ثابتة ، والمثلث ليس له أربعة أضلاع ، وهذا نفى صحيح ثابت أيضا ، ولاتناقض مطلقا بين هذا النفى وذاك الإثبات ، لأن كلا منهما يتناول موضوعا خاصا ، يختلف عن الموضوع الذى يتناوله الآخر . فالأضلاع الأربعة ثابتة فى المربع ، ومنفية فى المثلث فلم ننف ماأثبتنا أو نثبت مانفينا . وإنما يوجد التناقض إذا كنا نثبت للمربع أضلاعا أربعة ، وننفيها عنه أيضا ، أو نثبتها للمثلث وننفيها عنه فى نفس الوقت .

وبهذا الاعتبار نص المنطق الميتافيزيقى ، على أن التناقض إنما يكون بين النفى والإثبات الموحدين فى ظروفهما . فإذا اختلفت ظروف النفى مع ظروف الإثبات ، لم يكن الإثبات والنفى متناقضين . ولنأخذ عدة أمثلة للنفى والإثبات المختلفين فى ظروفهما :

(أ) الأربعة زوج . الثلاثة ليست زوجا . فالنفى والإثبات فى هاتين القضيتين ، لاتناقض بينهما ، لاختلاف كل منهما عن الآخر بالموضوع ، الذى يعالجه . فالإثبات تعلق بالأربعة ، والنفى تعلق بالثلاثة)(١).

(ب)(الإنسان سريع التصديق حال الطفولة . الإنسان ليس سريع التصديق فى دور الشباب والنضج . فقد تعلق النفى والإثبات فى هاتين القضيتين بالإنسان . ولكن كلا منهما له زمانه الخاص ، الذى يختلف عن زمان الآخر ، فلايوجد تناقض بين النفى والإثبات)(٢).

(١) فلسفتنا (٢٥٩) .
(٢) المرجع السابق (٢٦٠) .

وكذلك الازدواجية لاتعنى التناقض والصراع والتصادم فالليل والنهار والذكر والأنثى ، والسالب والموجب ، تعنى التكامل والانسجام لاالتعارض والصراع والخصام أما عند الماركسيين فالأمر يختلف[١].

الوجه الثانى : أن الحقائق العلمية والأمثلة الواقعية تبطل هذا القانون يقول حسين أبو الحسن : (أما اعتبار "المادية الديالكتيكية" أن الشىء ينطوى على تناقضات فى داخله أى على إثباته كبذرة وعلى نفيه كنبتة غير صحيح بتاتا : فالبذرة إما أن تكون بذرة أو أن تكون نبتة ، أما أن يجتمع الوجودان والحركتان فى آن معا . فتكون بذرة ونبتة ، فهذا لايقبله أى عقل وخاصة "عقل الفلاح المزارع الذى رفضه ماركس فى أن تكون لديه القدرة الثورية التى يتميز بها العامل البروليتارى لوحده" .

فالتناقض إذن غير موجود بتاتا ، فالبذرة حركة موجودة بالفعل ، ولكن إمكانية تحولها إلى نبتة موجودة بالفعل ، وإنما هى ممكنة بالقوة . فإذا كان هنالك من تناقض ... فمع من ستتصارع البذرة؟ مع نفسها لتتفجر وتتندثر؟ أم مع النبتة التى لم يظهر وجودها بعد؟

فلايمكننا أن نستسيغ فكرة التناقض الدائم داخل الشىء بين إثباته ونفيه ، والحركة ليست ترجمة للصراع الداخلى داخل الشىء . والحقيقة أن الحركة عبارة عن تطور أو سير تدريجى للوجود ، "ولذلك حدد المفهوم الفلسفى (الميتافيزيقى الإلهى) للحركة بأنها خروج الشىء من القوة إلى الفعل تدريجيا" ، بمعنى أن تحول أو تغير البذرة إلى شكل نبتة هو عبارة عن حركتها التى تمثلت فى انتقال صورتها الأولى إلى صورة ثانية جديدة .

وليس ضروريا أن يفنى وجود المادة الأولى لتظهر المادة الثانية والثالثة الخ ... حسب ماتراه الديالكتيكية من أن نفى النفى هو الذى ينفى الإثبات وينفى نفيه (نفى الإثبات) فيلغى الوجود الأول أو الصورة الأولى ليحل محله وجود ثانى أو صورة ثانية ...)[٢].

---

(١) انظر الفكر الماركسى (٧١-٧٢) .

(٢) معالم الإشتراكية العربية (١٥٣-١٥٤) ، وانظر إقتصادنا (٥٧-٥٨) .

الوجه الثالث : أن الأبحاث العلمية المتطورة تبطل المقولات المادية الجدلية .

ومن ذلك قضايا الذرة : حيث أثبت العلم أنها مركبة ، ومؤلفة من بروتونات ونترونات ، وإن الالكترونات كهارب ذات شحنات سالبة ، وأن البروتونات كهارب ذات شحنات موجبة ، وعدد الالكترونات فى أية ذرة يساوى تماما عدد البروتونات . أى أن الشحنة الموجبة فى أية ذرة تساوى الشحنة السالبة ، ولذلك فالذرة من وضعها الطبيعى وحدة متزنة ومستقرة خالية من الصراع والتناقض الباطنى[١].

ومن ذلك أن العلماء كانوا (يعتقدون أن الطبيعة قائمة على عنصرين هامين هما : الطاقة والمادة ، واعتبروا المادة شيئا خاملا ملموسا يمكن تمييزه بشىء اسمه "الكتلة" اعتبروا الطاقة شيئا نشيطا بدون كتلة . وبذلك أصبح السكون نقيض الحركة ، والمادة نقيض الطاقة . ثم أثبت العلم وحدة الطاقة والمادة ، وأن المادة ليست إلا طاقة مركزة ، وأن الطاقة مادة لاتحتاج لكى نقول عنها أنها طاقة إلا أن تسير بسرعة الضوء . وبذلك زال ماكنا نتصور أنه تناقض)[٢].

ومنه أيضا ماكان يعتقد بأن (المادة الخفيفة تعتبر نقيض المادة الثقيلة ، والسائل يعتبر نقيض الجامد ، والأبيض نقيض الأسود ، والحار يعتبر نقيض البارد ، ومايطفىء النار يعتبر نقيض مايزكيها ، ثم جاء العلم فأثبت أن المادة تتحول من الخفيف إلى الثقيل وبالعكس ومن السائل إلى الجامد وبالعكس ، وأن كل نوع من المادة يتحول إلى نوع ثان ، ولايتطلب هذا أكثر من تعديل عدد وترتيب عناصر الذرة من الكترونات وبروتونات)[٣].

---

(١) انظر معالم الإشتراكية العربية (١٦٥) .
(٢) المرجع السابق (١٦٧) .
(٣) نقلا من المرجع السابق (١٦٧) .

(وإذا أثبت العلم ، وعرفنا أن الذرة خالية من التناقض الباطنى ، وأن الطبيعة فى كل أشكالها عبارة عن ذرات ، نكون قد عرفنا - علميا - أن الطبيعة أو المادة لاتنطوى فى باطنها على تناقضات ولايدور داخلها صراع ، وبذلك لم يعد من الممكن القول بأن حركة المادة جدلية . فتطبيق الجدل فى عالم الذرة يعنى أن الذرة ذاتها تحتوى على نقيضين متصارعين داخلها ، وهذا ماينفيه علمنا بتركيب وحركة الذرة . ولم نعد فى حاجة إلى الجدلية لتفسير تحول المادة من نوع إلى نوع ، لأن العلم أثبت أن تحول المادة إلى تركيبات مختلفة يتم عن طريق اندماج الذرات . ويتطلب ذرتين على الأقل تكون درجة تشبعها مختلفة لتندمجا فتصبح الذرتان ذرة واحدة من نوع ثالث ، ولابد من هذا التأثير الخارجى ، أى تأثير ذرة على ذرة أخرى لتتم عملية التحول . وهذا لايتفق مع قانون الجدل الذى يقوم على أساس التحول من الباطن) .

إذن ، لقد انتهت أسطورة التفسير الجدلى الماركسى للمادة وحركتها . وانتهى بذلك كل ماأقامته الماركسية من مقولات وحتميات فرضتها على المادة وعممتها على المجتمعات البشرية)[١].

الوجه الرابع : أن القول بهذا القانون يلزم الماركسيين بأن يحكموا على مجتمعهم الشيوعى بأنه ليس نهاية المطاف لأنهم يقولون بوجود الصراع والتناقض المستمر . إلا أنهم اعتبروا هذا المجتمع (الشيوعى) هو آخر المجتمعات وأعلاها ومن هنا أوقفوا هذا الصراع والتناقض فى المجتمعات ولاندرى كيف تم إيقافه!!! مما يدل على أن الماركسية تعج بالمتناقضات ولعله لتناقضها حكمت بالتناقض على كل شىء .

يقول الصدر : (إن طريقة الماركسية فى التحليل التاريخى ديالكتيكية ولكن مضمون الطريقة يناقض الديالكتيك . لأن الماركسية تقرر من ناحيتها أن التناقض الطبقى الذى يعكس تناقضات وسائل الإنتاج ، وعلاقات الملكية

---

(١) نقلا من معالم الإشتراكية العربية (١٦٨) .

هو الأساس الرئيسى الوحيد ، للصراع فى داخل المجتمع . وليست التناقضات الأخرى ، إلا نابعة منه . وتقرر فى نفس الوقت ، أن القافلة البشرية سائرة - حتما - فى طريق محو الطبقية ، من المجتمع إلى الأبد . وذلك حين تدق أجراس النصر ، للطبقة العاملة ، ويولد المجتمع اللاطبقى وتدخل الإنسانية فى الإشتراكية والشيوعية . فإذا كانت الطبقة وتناقضاتها ، ستزول فى تلك المرحلة من حياة المجتمع ، فسوف ينقطع عنه المد التطورى وتنطفىء شعلة الحركة الأبدية ، وتحصل المعجزة التى تشل قوانين الديالكتيك عن العمل . وإلا فكيف تفسر الماركسية حركة الديالكتيك فى المجتمع اللاطبقى ، مادام التناقض الطبقى قد لاقى مصيره المحتوم ، ومادامت حركة الديالكتيك لاتوجد إلا على أساس التناقض؟! ... فبإمكاننا أن نسأل ماركس : هل سوف تكف قصة الأطروحة ، والطباق ، والتركيب ، عن العمل ، بعد ذلك ، بالرغم من قوانين الديالكتيك العامة؟ أو أنها ستستأنف ثالوثا جديدا؟ وإذا كانت ستستمر ، فسوف تكون الملكية الإشتراكية هى الأطروحة فما هو النقيض الذى ستلده وتنمو بالاندماج معه؟ يمكننا أن نفترض أن الملكية الشيوعية هى النقيض ، أو النفى الأول للإشتراكية ، ولكن ماهو نفى النفى (التركيب)؟ إن الديالكتيك سوف يبقى حائرا ، بإزاء تأكيد الماركسية على أن الشيوعية هى المرحلة العليا من التطور البشرى)[1].

وهذا من أقوى مايرد به على الماركسيين فى زعمهم القول بالتناقض لأنه يلزمهم بلوازم كثيرة لايجد الشيوعيون لها جوابا .

الوجه الخامس : من القضايا التى أرادها الماركسيون من وراء هذا القانون هو القول بالوجود الذاتى ليبطلون الافتقار ليتناسب ذلك مع مذهبهم المادى الإلحادى علما بأن إيجاد الشىء نفسه بنفسه محال لافتقاره هو إلى

---

(١) إقتصادنا (٦٠-٦١) ، وانظر : نقد النظرية الماركسية (٢٨-٢٩) ، سقوط الماركسية (٦٢) ، الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى (٣٢٣) ، وانظر (٢٨٢-٢٨٣) ، وقال : (هنا يصمت المبدأ ، وتتحدث الرغبة ...) ، الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٧٩-٨٠) ، المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٣٢) .

موجد . كما أن هذا الكون لايمكن أن يكون قد وجد صدفة لما فيه من علامات ظاهرة على الاتقان والإبداع . يقول أبو الحسن إن (الخلق الذاتى للشيء الذى ابتدعته المادية الديالكتيكية فى وجود التناقض الدائم والمستمر بين "الإثبات والنفى" ليس له أى وجود على الإطلاق . لأن الشيء لايخلق نفسه ولايطور ذاته بذاته ، وإنما تكمن فى مميزاته وخصائصه إمكانات وقوى تستطيع أن تنتقل إلى حيز الفعل والوجود المحقق إذا توفرت عوامل خارجة عنه)(١).

الوجه السادس : أن القول بالتناقض الحتمى يبطله الواقع ، ويحيله إلى مجرد نظرية لاتصدق . ويقال لهم إن هذه المقولة وهى التناقضات فى الطبيعة (مجرد فرض نظرى . إذ ثبت أنه ليس كل شيء يوجد فيه حياة وفناء معا . وهذا وحده يثبت أنه ليس كل شيء يحوى تناقضات ، وأيضا فإن كون الأشياء تولد وتموت وتفنى وتوجد لايعنى أن هذا تناقضا لازما لها . فالجسم الحى فيه خلايا تولد وخلايا تموت ، غير أن ذلك لايعنى وجود تناقض فى الجسم الحى ، ثم إن الأجسام غير الحية يحصل فيها فناء ولكنه لاتحصل ولادة ، أى لايحصل وجود . ولهذا فإن مايسمى بالتناقضات ليس ملازما للأشياء والحوادث . أما بالنسبة للأشياء فظاهر فى الأجسام غير الحية ، فإن الماء إذا ترك كما هو قد ينقص ولكنه لايزيد ، ولايحصل فيه لاسالب ولاموجب ، ولاتحصل فيه تناقضات . والرمل إذا ترك كما هو لايلاحظ عليه وجود تناقضات . وأما الحوادث فإن عمليات البيع تجرى دون حصول أى تناقض فيها أى فى إجراء العقد ، وعملية الصلاة تحصل دون أى تناقض فيها . فالإدعاء بملازمة التناقضات للأشياء والحوادث إدعاء باطل)(٢).

وهكذا يتبين بطلان القانون الأول من قوانين الجدل ، وقد أرادت الشيوعية من وراء هذا القانون تحقيق مصالحها وإيهام الناس أن الوصول

---

(١) معالم الإشتراكية العربية (١٥٦) .
(٢) نقض الإشتراكية الماركسية (٩٥) .

إلى الشيوعية حتمية تاريخية ستتحقق ، وبفساد وإنهيار هذا القانون تكون القوانين الأخرى أسرع فى الانهيار وبالتالى ينهار البنيان الجدلى الماركسى ، ومن ثم مابنى عليه من فكر . ونأتى لبيان بطلان القانون الثانى من قوانين الجدل .

ثانيا : قانون التطور :

وهو مبنى على القانون السابق من حيث إن التناقض يوجد حالة جديدة متطورة ، وفكرة التطور هذه للأشياء ليست حديثة بل وجدت فى أزمان غابرة وإن كان التوجه فيها على مشارب مختلفة[١]. إلى أن اتخذ المذهب - إدعاء - صفة العلمية على يد داروين فى العصر الحديث . وأثرت هذه النظرية فى الحياة الأوربية تأثيرا بالغا خاصة بعد اصطدام الكنيسة مع النظرية[٢].

وقد اهتم ماركس بهذا القانون واعتبر أن كل مرحلة من مراحل التاريخ يكون فكرها مناسبا لوسائل إنتاجها . يقول ماركس فى رسالة بعث بها إلى ف.انتكوفا : (ماهو المجتمع ، مهما كان شكله؟ إنه نتاج عمل الناس المتبادل . هل الناس أحرار أن يختاروا لأنفسهم هذا الشكل أو ذاك من أشكال المجتمع؟

كلا مطلقا . افترض حالة من التطور خاصة فى القوى المنتجة للإنسان وعندها سوف تحصل على شكل خاص للتجارة والاستهلاك . افترض مراحل خاصة من التطور فى الإنتاج ، وعندها سيكون للتجارة والاستهلاك دستور إجتماعى مماثل وتنظيم للأسرة وأنظمة للطبقات ، وبكلمة ، مجتمع مدنى مماثل افترض مجتمعا مدنيا خاصا وسوف تحصل على شروط سياسية خاصة هى التعبير الرسمى فقط عن المجتمع المدنى)[٣] .

---

(١) انظر : نقد النظرية الماركسية (١٨) ، الفكر الماركسى (١٩) .
(٢) انظر التطور والثبات فى حياة البشرية (٦) .
(٣) بؤس الفلسفة (١٧٢) ، وانظر الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٦٤) .

ولايفوتنا هنا التنبيه على أن ماركس أخذ نظرية التطور مصدرا له ، ولم يقف بها عند الحدود التى انتهى إليها داروين ، بل طبقها على كل شىء[١].

ويهدف الشيوعيون من وراء هذا القانون إلى عدة أمور من أهمها :

أولا : نفى الحقيقة المطلقة ، لأن الحقيقة إذا كانت فى حركة ونمو دائمين فلاتوجد حقائق ثابتة بأشكال مطلقة وبالتالى تتهدم الحقائق الميتافيزيقية .

ثانيا : (نفى الخطأ المطلق فى سير التطور العلمى فالتطور العلمى فى عرف الديالكتيك لايعنى أن النظرية السابقة خطأ بصورة مطلقة ، بل هى حقيقة نسبية ، أى أنها حقيقة فى مرحلة خاصة من التطور والنمو)[٢].

ثالثا : من أهم ماأراد الماركسيون الوصول إليه من وراء هذا القانون هدم الأفكار الدينية والأخلاق والقيم ، واعتبارها متغيرة حسب وسائل الإنتاج .

وبعد هذا نصل إلى بيان بطلان ذلك القانون . وبيان بطلانه من وجوه:

الوجه الأول : تناقضهم حيث يثبتون أن الطبيعة كل واحد مترابط ويقولون بتغير قوانين المجتمع ومع ذلك فهناك القوانين التى لايطرأ عليها التغير كالماء والهواء .

يقول وحيد الدين خان : (والسؤال الذى نشأ هنا هو أن قوانين العلوم الطبيعية دائمة ثابتة على حالة واحدة ، فإذا كانت الطبيعة كلها واحدة ـ كما تقول به الماركسية ـ فلم تتغير قوانين المجتمع بينما لايطرأ تغير ما على قوانين الهواء والماء؟! إنه يجب أن تبقى قوانين المجتمع ـ أيضا ـ على حالة واحدة . إن هذا السؤال يكشف عن حقيقة لم يكن ماركس يرغب فى

---

(١) انظر : انتى دوهرنغ (١٦٨) ، جهود المفكرين المسلمين فى مقاومة التيار الإلحادى (٢٠١-٢٠٢) .

(٢) فلسفتنا (٢٥٢-٢٥٣) .

تعريفها أو الاعتراف بها ... فهى تعنى أن ماهو موجود فى الحاضر سيستمر فى المستقبل ، ولكن ماركس كان يرغب فى تغير الأحوال وإحلال النظام البروليتارى محل النظام الرأسمالى . ولذلك تقدم - بدون روية - بدعوى حتمية زوال الرأسمالية ، وحتمية صعود نجم البروليتاريا . وهنا ثار السؤال حول الوسيلة التى ستحقق هذا التحول ، وكيف يمكن تغير المجتمع البشرى فى حين لاتتغير قوانين الطبيعة الأخرى؟! فالأحرى أن نظام الملكية سيظل قائما باقيا تماما كما يضطر الإنسان إلى تنفس الهواء فى ظل قانون طبيعى لاسبيل إلى تغييره)[١].

الوجه الثانى : أن قانون التطور لايمكن إنكاره بالكلية . كما لايمكن اعتباره داخلا فى كل شىء حيث إن هناك الحقائق الثابتة التى لايمكن أن تتغير .

يقول المدرسى : (إن قانون التطور لاينكره المنطق الإلهى ، بل يؤكده وهو ينسجم مع العقل والتجربة ، ولكن بشرطين أساسيين :

الأول : أن يربط التطور بالإرادة البشرية . فالأمور سواء منها الإجتماعية أو السياسية ، أو العلمية تتطور إذا أراد الإنسان ذلك)[٢].

(وهنا محل اختلاف بيننا وبين الماركسيين : إنهم يلغون إرادة الإنسان ، ويعتبرون التغيير وفق مايقولون تغييرا جبريا ، حتميا ، لاإراديا .

وقد رأينا فى كثير من المناطق أن منطقهم تعرض لنكسة بسبب إرادة الإنسان .

إن ماركس تنبأ ، بالاعتماد على الحتمية التاريخية ، بأن الثورة الشيوعية لن تندلع من مجتمع متخلف ، وإنما من مجتمع صناعى رأسمالى ، فى انجلترا والمانيا . فكذبت نبوءته ، وخرجت الشيوعية من مجتمع زراعى متخلف مثل الصين .

---

(١) سقوط الماركسية (٦١) .
(٢) نقد النظرية الماركسية (١٨-١٩) .

وتنبأ أيضا باتساع شقة الخلاف بين البرجوازية والبروليتاريا فى الدول الرأسمالية بشكل مضطرد إلى أن يتفاقم الوضع إلى ثورة تقلب النظام الرأسمالى كله ، ولكن الذى حدث فى المجتمعات الرأسمالية كان العكس ، وهو مزيد من التقارب بين الطبقات . وتنبأ بأشياء كثيرة ولكنها لم تحدث ، لسبب بسيط هو أنه نسى العامل الإرادى ، وأن الإنسان لاتجوز فيه الحتمية لأن الناس ليسوا كرات بلياردو تتحرك بحتمية قوانين فيزيائية ولكنها مجموعة إرادات حرة تدخل فى علاقات معقدة يستحيل فيها التنبؤ بناء على قوانين مادية وأصدق مثل على كذب دعوى الحتمية ، هو ثورة الإنسان على واقعه ، بدل الخضوع له)[١].

هذا عن الأساس الأول وعن الثانى يقول : (إن التطور ليس فى كل شىء ، فالأفكار والمعرفة البشرية والحقائق العلمية ثابتة .

إن التطور محصور بالمادة ، فى حدود إرادة الله [ثم] إرادة الإنسان ، ولكن الماركسية تعممه على كل شىء حتى على الأفكار ... ربما وقعت الماركسية فى هذه الغلطةالكبيرة لكى تفسر ظهور الأديان وفق فلسفتها الطفولية .

ولكن الحقائق الدامغة ، كلها جاءت لتفند هذا الأمر وإليك بعضها :

أولا : هناك سلسلة من الأصول الفكرية الثابتة التى لايشكك فيها إلا صاحب عقلية الغاب ، وهى غير قابلة للتغيير والتبديل ، ككثير من المسائل الرياضية ، والفيزيائية ، وماشابه ذلك .

فهل يمكن أن تتغير المعادلة الرياضية التى تقول : إن حاصل جمع عددين متساويين يساوى ضعف أحدهما ، مثل : ٤ + ٤ = ٨ ؟ هل يمكن تبدل النتيجة إلى ١٢ مثلا؟

أم هل يمكن أن تتبدل قوانين انعكاس الضوء ، وقوانين انتشار النور وقوانين الجاذبية ، وقوانين تركيب الأوكسجين ، وقوانين الحرارة؟ ...الخ)[٢].

---

(١) نقد النظرية الماركسية (١٩-٢٠) .
(٢) المرجع السابق (٢٠-٢٢) .

ومن هنا يثبت أن هناك حقائق عديدة ثابتة لايمكن بحال تطرق التطور إليها .

الوجه الثالث : أن الماركسية تؤمن بأشياء ثابتة لايمكن أن تتغير فقالت بالحتميات التاريخية كما قالت بأن قانون التطور ذاته ثابت لايتغير ، وبالتالى يقعون فى تناقض واضح فى فكرهم .

يقول المدرسى : (إن الماركسية تعتمد على "قانون التطور" كأصل ثابت لايمكن أن يتغير .

إذن فهى تعترف بوجود قوانين ثابتة ، ويكون البحث حينئذ فى معرفة "ماهى القوانين الثابتة؟" لافى وجود القوانين الثابتة أى : هل هناك قوانين ثابتة؟ ولو اعتبرت الماركسية نفس "أصل التطور والحركة" خاضعا للحركة والتطور باعتباره نتيجة فكرية ، والنتائج الفكرية متطورة لأنها مادية ، فإنه يعنى أن أصل الحركة والتطور ليس أصلا ثابتا ، وأنه قد يتبدل إلى "أصل الثبوت الجمود" بدل "أصل التطور والحركة" ـ بحكم التطور إلى الضد ـ

وهذا يقتضى أن تكون الحقائق التى كانت متطورة بالأمس ثابتة اليوم .

وفى كلا الحالين تكون الماركسية مضطرة إلى الاعتراف بوجود حقائق ثابتة!.

والواقع فإن الماركسية حينما آمنت بهذا "الأصل" الواهى ، فإنما فعلت ذلك لكى تستند إلى "شىء ما" فى نسف القيم الدينية والأخلاقية ، لأنها فسرت الحقائق الدينية بأنها نتائج الفكر ، ومادام الفكر هو بحد ذاته نتيجة للمادة ، والمادة متطورة غير ثابتة ، فالحقائق الدينية يجب أن تتغير ، ولاتبقى ثابتة)(١).

وقد نسيت الماركسية (وهى تتبنى هذا الأصل ، أنها تضع مسمارا فى نعش نظريتها ، لأن الماركسية ـ بناء على هذا ـ أيضا يجب أن تتغير ،

---

(١) نقد النظرية الماركسية (٢٣-٢٤) .

وتتبـدل ، لأنهـا هى الأخرى نتيجـة فكرية ، والفكر نتيجـة مـادية ، والمادة متطورة . فكيف تطالبنا الماركسية بالكفر بالقيم ، والعقائد ، والقواعد الدينية وتطـالبنا بالإيمان ـ حتى الأبد ـ بقيمهـا ، وعقائدها ، وقـواعدها . هل تؤمن بأنهـا نتيجة "الوحى" الذى لايتغير ، وأن ماجاء به الـدين هو نتيجة الفكر؟ أم ماذا؟

ثم إذا كانت الماركسية تؤمن بأن "القيم الأخلاقية" تتطور ، وعلينا أن لانؤمن بها دائمًا ، فهل تستطيع أن تقول لنا كيف نثق مثلا بالنظـم التى تتبنى الماركسية فى علاقاتنا معها؟

إن "الصـدق" و"الإلتزام بالحق" و"عون الضعيف" كلهـا خرافات ، أو نتـائج فكرية قابلة للتطور فى رأى الماركسيـة ، فكيـف نستطيـع أن نعرف أن هذا الحزب الماركسى أو النظـام الماركسـى "صـادق" فى مـوقفه وأنه "ملتزم" بمسـؤولياته ، واتفـاقياته ، وأنه مستمـر فى دعـم "الضعيـف" ، وكيـف نثـق به؟)(١).

فكيـف تكون العقائد والأفكـار والقيم والأخلاق كلهـا متغيرة ، بينمـا تظـل الأفكـار والقـوانين الماركسيـة ثابتـة وهم يرون أن التطـور يقـع كـل شىء؟!!! إن هذا تناقض مع الذات ، وتحكم بغير دليل .

الوجه الرابع : أن الماركسية وقفت فى تطبيق قانونها هذا إلى حد معين وهى بهذا تكون حكمت على نفسها بأحد أمرين إما بزوالها واستبدالها بنظام آخر ، وإما بفساد فكرها وتناقضه .

يقـول د. جمعـة الخولى : (حسـب قـانون التطـور ـ واختفـاء القـديم ونشـوء الجديد .. وأن الشيـوعية ستحـل محل الرأسماليـة ، فـإن الشيوعية ـ أيضا سوف تنهار ويسقط مجتمعها فى مجتمع مقابل له ، ويحل نظام آخر محلها وبذلـك تسقط فكرة عمومية قـوانين الجدل وحتميتها فهـل توقع ذلك زعماء الماركسيـة وقـالوا به ، أم أنهـم طبقوا ذلك على غيرهـم ونسـوا أنفسهم إن

---

(١) نقد النظرية الماركسية (٢٣-٢٤) .

كانوا نسوه دل على فساد نظـــريتهم وإن كـانوا أقـــروا به دل على خطـأ نبؤتهم)[١].

وفى كلا الحالين الشيـوعيـة متهمة . فإما أن يوقفـوا القـانون عند حد معين وإمـا أن يقولوا به وبالتالى ماهو المجتمع الذى سيعقـب الشيوعية؟ إن الأحداث التاريخية أثبتت فساد هذا القانون وكان واقع الاتحاد السـوفييتى من أكبر البراهين الدالة على بطلانه فأين هى الشيوعية؟!!

الوجه الخامس : أن الماركسيـة لم تكتـف بتطبيـق مبــدأ التطـور على الأشيـاء الحسية بل تجاوزت إلى الأشيـاء المعنوية . ومـن هنـا كانت تنظر إلى عدم ثبات الأخلاق والقيم ، وهـذا يتمشـى مع مبادئهم القـائمة على الإباحيـة وإحلال الرذيلة مكان الفضيلة .

ومـن هنا يقال للشيوعيين ومـاذا عن الأخلاق الشيـوعية؟! هل ستقف عنـد حد معين أم أن المجتمع سيعرف أخلاقا غيرها؟!! ثم هـل الأخلاق التى ناديتم بها - من غش وخداع وكذب وهى أخلاق المرحلـة العليا التى تنشدها البشـرية - مسلمـة لـدى الناس؟ إنهـا عنـد كثير من العقلاء دون النظـر إلى دينهـم ، تعتبر تراجعـا بالقيم والأخلاق إلى درك بعيــد . فــالناس بفطـرهم لايرون أنهـا أخلاقـا تطـورية بل هـى انحدار إلى مصاف الأخلاق الحيـوانية البهمية . فأين التطور؟!!

وهو على رأى الماركسيين من الأدنى إلى الأعلى!!

هــذا فى حال التسليم جدلا بوقـوع التطـور فى المعــانى ، وإلا لايصح وقـوعه فيها فإذا علمنا أن الكل أكبر من الجزء ، فهل تتغير تلـك الحقيقة فى يوم مـن الأيام؟!! وإذا علمنـا أن الواحد نصف الإثنين فهـل يمكن أن يلحق التطور بتلك الحقيقة وتختلف؟!! وإذا علمنا أن الصدق والعدل والحق صفات حميـدة فهـل تصبح فى يوم مـن الأيام صفـات قبيحة؟!! إن هـذا لايقـول به عاقل ، ولايصح إلا فى أذهان الشيوعيين إدعاء لاحقيقة .

---

(١) الاتجاهات الفكرية (١٨٨) .

الوجه السادس : أن الماركسية اعتبرت أن التطور يحدث بصورة مفاجئة وبطريق القفزات من حال إلى آخر وهذا أصل باطل تبطله الحقائق العلمية والبراهين الواقعية . والأمثلة على فساده كثيرة منها :

(أ ـ أن الماركسية تتجاهل فى هذا الأصل العلم والتجربة والواقع الملموس .

مثلا ـ مثال البيضة التى تتحول إلى فرخة ، والماء الذى يتحول إلى البخار : كلنا يعلم أن الحرارة الخارجية ، لاتناقضات المحتوى الداخلى ، هى السبب فى تحول البيضة إلى الفرخة ، ولولا الحرارة الخارجية لبقيت على حالها .. وكذلك فى الماء .. فإن الحرارة الخارجية هى سبب تحولها إلى بخار ، ولولاها لبقى الماء ماء ..

وبما أن فى إمكان الإنسان أن يمنع من قفزات التطور بمنع العوامل الخارجية المؤثرة ، فإن بإمكانه منع قفزات التطور الحتمية ، فلاتكون هذه القفزات إذن قانونا أساسيا فى الطبيعة .

ب ـ أن الثورة ـ وهى التغيير والتحول ـ فى الإنسان نفسه ـ وهو مصب الفكر الماركسى ـ ليس لسبب صراع داخلى فى اللاشعور ـ مثلا ـ بل بسبب صراع خارجى فى المجتمع الاستغلالى ..

فهل ياترى أن الذين يثورون على واقعهم يفعلون ذلك لوجود صراع نفسى فيهم ، أم لوجود صراع مع قول الاستغلال؟

ج ـ أن مشكلة الماركسية تكمن فى نقطتين أساسيتين :

الأولى : إنها تريد أن تكون شمولية تجارب على كل شىء ، وتفتى فى كل شىء ، من علم التاريخ ، إلى وجود الإنسان ، ومن قوانين الحرارة إلى حركة سير المجرة .

وهذا شمول مقصود فى النظرية ، حتى يكون تابعها ممثلا بكل غث وسمين ، فلايكون فيه فراغ لرأى مخالف ، أو وجهة نظر منافسة ، وبذلك يتم تعبئته بشكل كامل للأغراض المختلفة .

الثانية : إن الماركسية تأخذ مثالا واحدا من التاريخ ، أو من أشياء الحياة ، ثم تبنى عليه حكما كليا عاما شاملا فى كل شىء .

مثال البيضة والفرخة ، ومثال الماء والبخار ، فبالإضافة إلى أنهما كانا باطلين ، فهما مثالان فقط حدث فيهما انقلاب مفاجىء - حسب فهم الماركسية - ولايجوز أن نجعلهما مصدرا لحكم كلى ، ونبنى عليهما أمورا إجتماعية ، وفلسفية وإنسانية . لأن ذلك تجاهل لأكثر التحولات التى تقع بصورة تدريجية كالأمور التالية :

١ - "نمو الإنسان" من جنين ، إلى طفل ، إلى شاب ، إلى كهل ، إلى شيخ . كل ذلك يحدث بصورة تدريجية وليس قفزية .

٢ - التحولات الطارئة على الأشجار والنباتات وماشابه ذلك .

٣ - التحولات التى مرت بها العلوم التجريبية كالطب والهندسة وأمثال ذلك .

٤ - على فرض قبول نظرية الإنقلاب المفاجىء ، فإن قبولها عن طريق العوامل الداخلية تكذبه الحقائق التاريخية لنفرض أن تحولات حدثت فى "علم الفلك" ولكن حتما لم يكن ذلك بفعل التناقضات الداخلية ، بل لاختراع الآلات والمراصد الحديثة .

د - لاشك أن الماركسية إنما يعنيها فى هذا الأصل "الوجه الإجتماعى" لها ، فهى تريد أن تفسر حركة التاريخ على أساس التطور حسب التناقضات الطبقية . وتريد أن تقول : أن الماركسية تسعى لإذابة التناقضات وصنع مجتمع لاطبقى ، متساو ..

وهى بذلك تناقض "حركية الحياة" فالنتيجة الطبيعية لهذا التصور الخاطىء هو وصول البشرية إلى مرحلة السكون والجمود بعد القضاء على صراع الطبقات لأن هذا الصراع - حسب النظرية الماركسية - هو عامل التطور والحركة ، فإذا قضى على هذاالصراع وانعدمت الطبقية فلامبرر - بل ولاإمكانية - للتطور والحركة .

هـ - إذا كان التناقض الداخلى هو علة العلل فى التطور ، فلماذا جمدت الأنظمة الماركسية هذا التناقض فى المجتمعات التى تحكمها؟

لماذا تمنع من انتشار الفكر الإسلامى مثلا؟

إن أكبر خطأ ارتكبته الماركسية بحق البشرية ، هو أنها اتخذت الديالكتيك حقيقة مطلقة ولانهائية للعالم ، وتبنته الدولة مذهبا رسميا ، واعتبرته فوق كل جدال ، ومناقشة ، وجعلته المرجع الأعلى الذى يجب إخضاع كل علم ومعرفة له ، وضرب كل فكر وجهة لاينسجم معه ، ولاينطلق منه . وهكذا أصبحت المواهب ، هنالك أسيرة قنوات معينة ، لايجوز أن تنطلق منها .

وبذلك : قتل الفكر الإنسانى ، يوم قتلت الحرية فى إيمان الإنسان بما يراه صحيحا!)[١].

<u>الوجه السابع</u> : يرى الشيوعيون أن التطور يكون من الأدنى إلى الأعلى ومن الأسوأ إلى الأحسن ، ولكن هذه مقولة تبطلها الحقائق العلمية أيضا كما أنه ليس بالضرورة أن يكون الإنتقال من السىء إلى الأحسن والعكس صحيح . وقد يكون مجرد تغير ليس إلا . ويبين غانم عبده ذلك فيقول عن التغير : (قد يكون من حال إلى حال أحسن ، وقد يكون إلى حال أسوأ ، ففى غير الكائن الحى من الجمادات تختلف التغيرات . فتعفن الخبز انتقال من حال حسنة إلى حال سيئة ، وتفتت الأحجار إنتقال من حال حسنة إلى حال سيئة وفى الكائن الحى من إنسان وحيوان ونبات تختلف كذلك التغيرات ، ينتقل الطفل فى النمو من حال حسنة إلى حال أحسن ، ومثله نبتة الزرع ، وصغار الحيوان ، ولكن إنتقال الإنسان من الشباب إلى الهرم إنتقال من حال حسنة إلى حال سيئة فالتغير موجود فى

---

(١) نقد النظرية الماركسية (٣١-٣٥) .
وانظر شيئا من هذه الآراء فى كتاب نقد أصول الشيوعية (٧١-٧٣) ولعله رجع إلى المرجع السابق ولكن دون إشارة .

غير الكائن الحى وفى الكائن الحى ، ولكنه مجرد انتقال من حال إلى حال بغض النظر عن الإنتقال إلى الحسن أو إلى السىء . فما يقولونه أن الشىء يتطور بمعنى ينتقل إلى حال أحسن كلام باطل بالمشاهدة ، فإن الذى يحصل هو مجرد تغير ، إما إلى أحسن وإما إلى أسوأ ... والماء نفسه الذى جاؤا به للتدليل على نظريتهم هذه يكذب هذه النظرية ، فإن الماء عندما يتحول إلى بخار يمكن أن يكثف ويبرد ، وبذلك يرجع إلى كيفيته الأولى أى إلى الماء ؛ وهذا ليس تغيرا صاعدا ، ولاإلى أحسن بل رجوع إلى الصورة الأصلية . وعليه فإنه ليس دائما الجديد يكون حسنا ، كما أنه ليس دائما يكون سيئا . وليس القديم يكون دائما سيئا ، كما أنه ليس دائما يكون حسنا ، فكون الشىء جديدا لايعنى أنه حسن أو سىء ، وإنما يعنى أنه جديد ليس غير ، وكون الشىء قديما لايعنى أنه سىء أو حسن ، وإنما يعنى أنه قديم ليس غير ...)[١].

ويقول : (ثم إن التغير فى الأشياء ليس حتميا أن ينقلها إلى أشياء أخرى غير الأولى ، بل هو قد ينقلها إلى أشياء غير الأولى وقد تبقى رغم التغير هى عينها الأشياء الأولى لم تتغير ويستحيل أن تتغير مهما حصل فيها من عوامل التغيير ... فمثلا الحديد لايمكن لأية عملية أن تحوله إلى ذهب ، والحصان لايمكن لأية عملية أن تحوله إلى جمل ... وهكذا ملايين الأشياء التى يستحيل أن تتحول إلى شىء آخر غير ماهيتها . وعليه فإن القول إن النباتات والحيوانات وبالتالى الإنسان هى كلها نتاج تطور يجرى منذ ملايين السنين ، هذا القول قول فاسد يكذبه الواقع)[٢].

ومما يرد به عليهم واقع بعض الأمم ومن ذلك الأمة المسلمة حيث كانت فى أول أمرها فى غاية القوة ، لتمسكها بدين ربها تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم بعد أن ابتعدت عن ذلك أصابها الهوان والذل

(١) نقض الإشتراكية الماركسية (٨٩-٩٠) وانظر مابعدها .
(٢) المرجع السابق (٩٢-٩٣) ، وانظر (٩٤-٩٥) .

ووقعت فريسة سهلة لأعدائها . فلو كان الأمر يسير حسب قانون ماركس التطورى لما كان هذا التراجع . وبهذا يتبين لنا بطلان هذا القانون وعدم تحققه ، وإن صدق على جزئيات صغيرة لاتكاد تذكر فإن هناك من الكليات والبدهيات ماتجعله رمادا تذروه الرياح .

ثالثا : قانون الحركة :

والحركة عبارة عن صورة استمرارية الصراع والاستقبال بين الإثبات والنفى . والحركة داخلة فى كل شيء . يقول ماركس : (كل ماهو موجود ، كل ماهو حى على الأرض أو تحت الماء ، يوجد ويحيا بنوع من الحركة فقط وهكذا فحركة التاريخ تنتج العلاقات الإجتماعية ، والحركة الصناعية تقدم المنتجات الصناعية ...الخ)[١].

وهذا القانون يدين الماركسية وهو قانون باطل على تصورها .

ونوجز ذلك فى الوجوه التالية :

الوجه الأول : اعترافهم بالعجز عن فهم بداية هذه الحركة - مما يدل على أن الماركسية إنما قامت على ضرب من الأوهام والتخيلات وأنها بعيدة عن الحقائق العلمية - حيث جاء عنهم (من المتعارف عليه تقليديا أن علم الطبيعة الميكانيكى ، عامة ، عاجز عن تفسير نشوء وبداية الحركة)[٢].

الوجه الثانى : أن هذا القانون يستلزم الإيمان بالله تعالى أو الإيمان بالإله - وهذا مالاتريده الماركسية - لأن هذه الأشياء متحركة ، وعلى هذا الأساس فهى بحاجة إلى محرك لها . ولايمكن استمرار الوضع كذلك وإلا لزم منها لتسلسل الممتنع . فتعين وجود محرك لها قادر على كل شيء .

الوجه الثالث : أن قولهم بأن المادة تتحرك تعميم خاطىء لادليل عليه فلايمكن القول بأن المادة كلها تتحرك أو تتغير وإن كان فى المادة حركة

---

(١) بؤس الفلسفة (١٠٠) ، وانظر مصادر الماركسية (٢٠-٢١) .

(٢) تاريخ الديالكتيك الفلسفة الكلاسيكية الألمانية (٣٩) .

بلاريب إلا أن ذلك لايعنى أن كل مافيها يتحرك .

الوجه الرابع : أن الماركسيين يرون أن الحركة تحدث داخل المادة فهى معلولة لنفسها بنفسها وليست لعلة خارجة عنها . وهذا إدعاء يكذبه الواقع حيث إن كثيرا من الموجودات تأتى حركتها من الخارج ، وهم أرادوا بذلك القانون إنكار وجود الإله غير أن هذه الحقيقة وغيرها من الحقائق الواقعية والبراهين العلمية التى لايسع الماركسية أن تجابهها تبطل ذلك الزعم . ولكون هذا القانون شديد التلازم مع سابقه فإن ماقيل فى إبطال قانون التطور إبطال لهذا القانون . إذ أن التطور لايكون إلا عن طريق الحركة .

رابعا : قانون الترابط :

ويعنون به أن أجزاء الطبيعة ترتبط بعضها ببعض ، والحوادث التى تقع فيها مرتبطة ببعضها بعضا .

فـ(لـديالكتيك لايعتبر الطبيعة تراكما عرضيا للأشياء ، أو حوادث بعضها منفصل عن بعض ، أو أحدها منعزل مستقل عن الآخر ، بل يعتبر الطبيعة كلا واحدا متماسكا ، ترتبط فيه الأشياء والحوادث ارتباطا عضويا ، ويتعلق أحدهما بالآخر ، ويكون بعضها شرطا لبعض بصورة متقابلة . لذلك يعتبرون أن أى حادث من حوادث الطبيعة لايمكن فهمه إذا نظر إليه منفردا بمعزل عن الحوادث المحيطة به)[١].

ويهدف الشيوعيون من وراء هذا القانون إلى إنكار الإله إذ أن أى حادث لايمكن تفسيره إلا من خلال الواقع .

كذلك رغبتهم فى ربط الحركات العمالية فى العالم بعضها ببعض . هذا بالإضافة إلى ربطهم بين مافى المجتمع من فكر دينى أو إقتصادى أو سياسى ، أوظلم واستغلال بالدين ليسهل عليهم الوصول إلى غاياتهم وتحقيق مآربهم فى القضاء عليه ، وهذا القانون يلزم منه لوازم لاتريدها الماركسية ، كما أن الحقائق العلمية تبطله حسب تصورها ، ونوجز ذلك فى الوجوه التالية :

---

(١) نقض الإشتراكية الماركسية (٧٤-٧٥) ، وانظر نقد أصول الشيوعية (٧٣-٧٤) .

الوجه الأول : أن الماركسية ترى الترابط بين كل شيء لتدعم توجهها الفلسفي ، ولتبعد كل فكر قد يوصل إلى الإعتراف بوجود إله لهذا الكون . ونحن لاننكر وحدة الكون والحياة والإنسان وسيرها ضمن سنن إلهية قدرها المولى جل وعلا ولكن ورغم هذه الوحدة إلا أن لكل شيء قوانينه التي تحكمه وتخصه دون الآخر ، وكل هذه القوانين تخضع في نهاية المطاف لتوجيه الخالق جل وعلا لها .

الوجه الثاني : أن القول بهذا القانون دليل قاطع على وجود الإله الخالق لهذا الكون . كما أن فيه نفي لمبدأ المصادفة في الخلق ، حيث إن هذا الترابط والانسجام لايمكن أن يكون وجد صدفة ، من دون موجد حكيم قادر جعله في هذا النسق من الترابط والإبداع .

الوجه الثالث : أن الواقع والحقائق العلمية تبطل هذا القانون وإن كان الكون كله يسير في نظام بديع منتظم . يقول غانم عبده عن هذا القانون إنه مجرد فرض (فإن الطبيعة هي مجموع الأجرام ومجموع النظام الذي تسير عليه ، وبالنسبة لكوكب الأرض التي نعيش عليها هي عبارة عن القوانين التي تسير الأرض ومافيها من قابليات الحياة مع الأرض والأشياء التي عليها . فهذه الطبيعة أي الأشياء وقوانينها كل متماسك الأجزاء من حيث الكون كله ، ومن حيث الأرض كلها ، ومن حيث كل كوكب بوصفه كلا . أما من حيث كل كوكب ، ومن حيث الأرض بالذات ، فإنها في أشيائها الخاصة بها وقوانينها الخاصة بها غير مرتبطة بغيرها ، بل هي من هذه الجهة منعزلة عن غيرها وتعيش في وسط يتعلق بها وحدها من أشياء وقوانين وإن كان ذلك يجري ضمن الإطار العام الجامع للكون . وكذلك الأشياء التي على الأرض مع قوانيننا فإنها من حيث كل شيء فيما يتعلق به منفردة عن غيرها ، ولكل شيء قوانين خاصة به ، وغير مرتبط بغيره ، وإن كان ذلك يجري ضمن قوانين الأرض ثم ضمن قوانين الكون ، وهذا فيما يتعلق بالكوكب وبالأرض بالذات قد ظهر جليا بشكل ملموس بعد رحلات الفضاء حيث قد ثبت انقطاع الوزن عند وصول الشخص إلى مكان تعادل الجاذبيات

فلم تعد جاذبية الأرض تؤثر عليه ، إذ فى النقاط التى تتعادل فيها جاذبية كوكبين أو أكثر تنعدم الجاذبية فيكون الشخص كأنه خرج من جاذبية الأرض فلم تعد قوانينهم تؤثر عليه ، وهذا يعنى أن للأرض قوانين خاصة بها غير مرتبطة أى القوانين بغيرها أى بغير الأرض من الكواكب ، وتجرى بشكل منفرد ، وإن كان لها قوانين أخرى مرتبطة بغيرها من الكواكب . فكل كوكب مرتبط مع غيره بقوانين ، ومنفصل عن غيره بقوانين خاصة به غير مرتبطة بغيره . وهو فيما يتعلق بالأشياء والحوادث على الأرض واضح ملموس ، فالزلازل فى إيران لم يتأثر بها العراق ، والبراكين فى جهة لاتتأثر بها جهة أخرى لم يصل إليها تأثيرها . ومايجرى على الحيوان لايجرى على الإنسان ، فالحيوان يمشى على أربع ، ويفقد الإدراك العقلى ، ويعيش حسب الطاقة الحيوية من غرائز وحاجات عضوية ، والإنسان يمشى على رجليه ويستعمل يديه على خلاف استعمال رجليه ، ويملك الإدراك العقلى ، وسلوكه فى الحياة إنما هو حسب مفاهيمه وليس حسب غرائزه وحاجاته العضوية فحسب ، وماعليه الجمادات غير ماعليه الكائن الحى فالجمادات لاتحتاج إلى غذاء والكائن الحى يحتاج إلى غذاء ، والجمادات لاتحس وبعض الكائنات الحية تحس ، والجمادات ليست لديها طاقة حيوية من غرائز وحاجات عضوية . وبعض الكائنات الحيوية لديها طاقة حيوية من غرائز وحاجات عضوية . ثم إن الإنسان نفسه يسير فى الحياة من حيث الخلق على قوانين واحدة ولكنه يسير فى معيشته وعلاقاته على أنظمة مختلفة ، وهو يتمتع بالاختيار التام لما يريد من نظام ، ومن تفكير ومن عيش . وليس مرتبطا بالطبيعة ارتباطا جبريا ، وليست هى التى تسيره فى عيشه ، بل والذى يسير من نفسه مختارا . ومن هنا كانت هذه النقطة مجرد فرض . فإنهم لما رأو أن الكون متماسك الأجزاء من حيث سيره ضمن قوانين معينة ، وأن كوكب الأرض متماسك الأجزاء من حيث سيره ضمن قوانين معينة ، قالوا أن الطبيعة كل متماسك الأجزاء ، ونسوا أن هذه الكلية إنما هى فى الكلية أى من حيث الكون كله ، أى من حيث كليته أو من حيث كلية الشىء .

أمـا مـن ناحية الأمور الخاصـة بالأشياء فإنها متميزة عـن غيرهـا ، ومنفردة ، فالأرض متميزة عن الزهرة ومنفـردة وغير مـرتبطة ارتبـاطا حتميـا بقـوانينها الخاصـة ، والحديد متميز عـن الـزئبق ومنفـرد عنه وغير مـرتبط به ارتبـاطا حتميـا فى قـوانينه الخاصـة مـع أن كلا منهمـا معدن ، والإنسـان متميز عـن الحيـوان وغير مرتبط به ارتبـاطا حتميا فى قوانينه الخاصـة مع أن كلا منهما حيـوان وهكذا .. فالارتباط الحتمى فى كل شىء بين أجزاء الكـون ومايحويه غير موجود ، بل الموجود هو الارتباط العام فقط ...) .

ويقـول : (ثم إنه ليـس كـل مـافى الوجود المدرك المحسـوس مـرتبطا بالآخر ، أى ليـس الشىء محاطا بكل شىء فى الوجود ، فقـد تكتنف الشىء أشيـاء ولاتكتنفه أخرى ، والأشيـاء التى تكتنفه ليس دائمًا وجودهـا شرطا فى بقائه ، فقد تكون شرطا لذلك وقد لاتكون . فالإنسان يكتنفه الضوء ويكتنفه الهواء ، ومن شروط حياته الماء والغذاء ولكن لاعلاقة له بالزهرة ولابالمريخ وليـس معدن النحاس شرطا من شروط حياته ولاالزئبق شـىء لايحيا بدونه . وبهـذا يبرز أن الإنسان مرتبط بأشياء فى الكون وغير مـرتبط بأشياء أخرى ، وأن الأشيـاء التى يرتبط بهـا منها مايكتنفه وضرورى لحيـاته ومنها مايكتنفه وليـس ضروريا لحياته ، وقـل مثل ذلك فى الحيوان والكـواكب والجمـادات وغير ذلـك . وهـذا يعنى أنه ليـس كل مافى الوجود مـرتبطا بعضـه ببعض ، ومـادام ليس مرتبطا به فليـس هو جزءا من ذلك الشىء ، وبالتـالى لايشكـل وإياه كلا ، فيكون اعتبار الطبيعة كلا ، واعتبار كل جزء منها متعلقا بالآخر مخالفا لواقع ماعليه الأشياء فى العالم ومخالف لواقع الوجود المدرك المحسوس.

والإنسـان وإن كان الماء شرطا من شروط حياته ؛ ولكنـه أى الإنسان ليـس شرطا من شروط بقاء الماء مـاءا ، والهواء وإن كـان يكتنف الإنسان ، ولكن الإنسان لايكتنف الهواء ووجود الإنسان وعدمه ليس شرطا من شروط بقاء الهواء ، وقل مثل ذلك فى الحيوان والشمس والجبـل وغير ذلك ، فإنها فى الأشيـاء التى ترتبـط بهـا ليـس حتميا أن تكون تلـك الأشيـاء مرتبطة بها أيضـا ، فلايكـون كل من هذه الأشيـاء المرتبطـة متوقفـا بقـاؤه على الآخر .

وبالتـالى لايكون فهمه متوقفـا عليه بل يمكن أن يكون فهمـه منعـزلا عما هو مرتبط به ، فيمكن فهم الإنسـان منعزلا عن الماء ولو ان يكتنفـه ويمكـن فهم الماء منعزلا عن الإنسان ، ويمكن فهم الشمس منعزلة عـن الإنسان ويمكن فهم النبات منعزلا عن الهواء وهكذا ... وعليه يكون من الخطأ القول أنه لايمكن فهم الشىء إذا نظر إليه منفردا بمعزل عن الأشياء المحيطة به ...)(١).

وبهذا يتبين بطلان القانون القائل بالترابط الحتمى وغير المنفصل نهائيا.

وبعد هذا العرض لقوانين الجدل نصل إلى التالى :

أولا : أن هذه القوانين كما صورها ماركس والماركسية من بعده يبطلها العلم ، وإن صـدقت فى بعـض الجوانب فهـى تلـك الجوانب التى لاتريدهـا الماركسية منها .

ثانيا : أن الهـدف مـن هـذه القـوانين خدمـة الاتجاه الفلسفـى المادى الماركسى القائم على إنكار الإله واعتبار الأفكار الدينية ، والقيم الأخلاقية ، انعكاسات لأوضاع محددة فرضتها العلاقات الإقتصادية .

ثالثا : أن هـذه القـوانين فيهـا إبطال لبعض مزاعم الماركسيين شعـروا بذلك أم لم يشعروا .

رابعا : أن هذه القوانين زادت من بيان تناقض الفكـر الماركسى ودلت فى الـوقت ذاته على أنها مجرد خيـالات ، أراد ماركس بهـا سوق البشرية إلى مزالق الإلحاد والإباحية .

خامسا : أن واقـع الاتحاد السـوفييتى فيـه أبلغ دليـل على بطلان هـذه القوانين منذ قيام الثورة البلشفية إلى أن سقطت الشيوعية حيث لم يكن لهذه القوانين أى دليل يصدقها بل كان العكس من ذلك ، وفى هـذا إبطال لمزاعم الماركسيين بصحة هذه القوانين وحتميتها .

سادسا : أرادت الماركسيـة أن تفـرض هذه القوانين على كـل شىء ولم تقتصر فيها على جانب دون آخر فأخضعت الحياة البشرية كلها لهذه القوانين فكـانت الأحداث والوقائع والبراهين لها بالمرصاد ممـا زاد بيان كذبها وعدم تحققها ويظهر ذلك فى إبطال الجانب الآخر من الفلسفة المادية الماركسية وهى (المادية التاريخية) . وهذا ماسنعرض له فى المبحث التالى إن شاء الله تعالى .

---

(١) نقض الإشتراكية الماركسية (٨٢-٨٧) .

المبحث الرابع
بطلان المادية التاريخية

تعتبر المادية التاريخية بيت القصيد فى الفلسفة الماركسية وذلك لأن قوانين الجدل أوالمادية الديالكتيكية طبقت على المجتمع البشرى وهذا ماكانت تهدف إليه الماركسية وهو إخضاع الحياة الإجتماعية والأفكار والقيم والأخلاق لهذه القوانين من أجل تحقيق الغايات ، والمادية التاريخية نتاج ماركس ، وإن كانت صورة المذهب قدوجدت منذ القدم كما ذكر ذلك بوير(١)، وهذا المذهب يقوم على الحتميات التاريخية التى يرى ماركس وجوب تحققها وعدم الخروج عليها حيث قال : (إذا ماكتشف مجتمع من المجتمعات قانونه الطبيعى الذى يعين حركته ، فلن يمكنه ذلك من تخطى المراحل الطبيعية لتطوره أو حذفها من الوجود بجرة قلم . ولكن فى استطاعته أن يفعل شيئا واحدا : هو التقليل من آلام الوضع والتقصير من مدتها)(٢).

ويعتقد ماركس أن هذه المادية التى جاء بها هى المادية الوحيدة الصحيحة ومن هنا أخذ ممن سبقه بقدر مايخدم مذهبه وانتقد بقية آرائهم التى تخالف فكره(٣).

ويرى ماركس والماركسيون من بعده أن المادية التاريخية لها ثلاث مقدمات وهى الأفراد الواقعيون ، نشاطهم ، الظروف المادية لوجودهم(٤). ومن هنا كانت المادية التاريخية تطبيق لقوانين الجدل على تاريخ المجتمعات الإنسانية(٥).

---

(١) انظر كلامه فى كتابه عقم المذهب التاريخى (١٨٩-١٩١) .
(٢) نقلا من المرجع السابق (٦٧) ، وانظر (٦٨) .
(٣) انظر عن ذلك النظرية المادية فى المعرفة (٣٤٧) ومابعدها .
(٤) انظر الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (٢٠٧) .
(٥) انظر عن ذلك جهود المفكرين المسلمين المحدثين فى مقاومة التيار الإلحادى (٢٠٣-٢٠٤) .

واعتبر مـاركس أن قـوى الإنتـاج وعلاقاته هى التى تحدد نمط التفكير والأخلاق فى كل مجتمع ، ولايمكن لأحد أن يقيم أفكارا أو أخلاقـا من تلقاء نفسه بل هو محكوم بتلك القوى(١).

يقـول بليخانوف : (إن الوضع الإقتصادى لشعب مـا ، هو الذى يحدد وضعـه الإجتمـاعى ، والوضـع الإجتماعى لهذا الشعـب يحدد بدوره وضعـه السياسى والدينى ، وهكذا دواليك ...)(٢).

وعلى هـذا الأساس فإن المجتمـع من خلال تطبيق هـذه القوانين عليه يسير نحو الإشتراكيـة سيرا حتميـا نظـرا لتطـور وسائل الإنتـاج ، ومـن هنـا صوروا المجتمع البشرى على أنه مر بمراحل عديدة وكانت كل مرحلة حسب ماوجد فيها من قوى الإنتاج ووسـائله(٣). سـواء فى الأفكار أو الأخلاق أو العلاقات الإجتماعية .

ولكـن ماهى الأهداف التى يريد الشيـوعيون الوصـول إليها من وراء هذه المادية؟

إن أعظـم مـايمكن قـوله هنـا هـو أنهـم يريدون الـوصول إلى إنكـار الألوهية ، وأن الإله فكرة اخترعها الإنسان حسب الظـروف التى كان يعيشها وإن الأخلاق والقيم والأفكار والمعتقدات كلها انعكـاس للأوضاع الإقتصادية التى تكـون سـائدة فى مجتمع مـا . فهـى أهداف شيطانية تخدم أفكـارا إلحادية وغـايات إباحيـة تحتضنها فى حقيقـة الأمـر المؤسسات اليهـودية الصهيـونية .

ونصـل الآن إلى بيـان بطلان المادية التـاريخية ومصـادمتها للحقـائق العلمية .

---

(١) انظر : الفلسفة الماركسية فى القرن التاسع عشر (١٨) ومابعـدها ، مصادر الماركسية الثلاثة (٦١-٦٢) .

(٢) نقلا من معالم الإشتراكية العربية (٤٩) .

(٣) انظـر : النظـم الإقتصـادية المعـاصرة (١٦٠-١٦٢) ، المذاهـب الإقتصـادية الكبرى (٩٨-٩٩) ، الإشتراكية العربية (١٢٠-١٢١) .
ولمزيد عـن تطـور كل مجتمع حسب نوعيـة الإقتصـاد الموجود فيـه انظـر : النظـم الإقتصادية المعاصرة (١٥٦-١٥٧) .

بطلان المادية التاريخية :

إن هذه الفلسفة الماركسية باطلة وبيان بطلانها من وجوه :

الوجه الأول : إفتقار الماركسية للدليل العلمى والبرهان العقلى الصحيح . وإذا كانت المادية التاريخية هى التطبيق الفعلى لقوانين الجدل على المجتمع البشرى فإن المراحل التى جعلها الشيوعيون للبشرية ليست إلا ضربا من التخمين والظن . أو التعميم بغير دليل . والتعيم يأباه المنطق العلمى . يقول حسين أبو الحسن : (فما هو الدليل العلمى على أن المجتمعات البشرية قد مرت وتمر بالمراحل التاريخية التى ذكرتها الماركسية؟ وعلينا أن نسأل أيضا ماهو الدليل العلمى المحسوس الملموس على صحة ظهور المجتمعات البشرية فى مرحلتها الأولى ، البدائية الشيوعية؟ فهل كان فقط استنادا لآراء بعض الرحالة الذين درسوا حالات بعض المجتمعات البشرية فى أمريكا أواستراليا أو غيرهما دون دراسة إجتماعية شاملة وكاملة؟

إن اعتبار الماركسية فى موافقتها على استنتاج ماتوصل إليه بعض البحاثة أنه دليل علمى ينطبق على واقع تطور كل المجتمعات البشرية فيه كثير من الاجحاف للعلم والتعدى على قواعده وقوانينه . فكيف يجوز أن نستنتج من الجزء قاعدة تطبق على الكل؟ فهذا خلاف للعلم ولقوانينه المعمول بها ، فمثلا ، إذا تطابقت معلومات دراسة تسعين مجتمعا بشريا من أصل مائة على أنها مجتمعات تتفق فى مزايا التملك العام للإنتاج والملكية وماإلى ذلك ، نستطيع أن نستنتج قانونا أو قاعدة علمية ثابتة تقول بأن كل المجتمعات البشرية المائة لها نفس تلك المزايا ، أما إذا اكتفى من دراسة مزايا خمسة مجتمعات بشرية دون الخمس والتسعين الباقية وتطابقت تلك المزايا للخمسة ، فلايمكن أن نعمم ذلك على ال٩٥ مجتمعا ونقول إن القانون أوالقاعدة العلمية تثبت بأن جميع المجتمعات البشرية لها نفس مزايا التملك العام للإنتاج والملكية وماإلى ذلك . فالجزء هنا لايمكن أن يعمم قانونه على الكل ، وإنما قوانين الكل تشمل أجزاءه ، ولهذا ، فإن إقتصار الماركسية لإثبات

نظريتها التاريخية تلك من خلال اعتمادها على آراء بعض البحاثة الذين درسوا مجتمعا بشريا أو خمسة من أصل آلاف المجتمعات لايمكن أن تكون قاعدة علمية تعمم أو تفرض تعميمها على الكل)(١).

ولنا هنا وقفة مع التفسير الشيوعى لهذه المراحل :

(أ) إذا كانت الشيوعية البدائية قد حققت الغاية القصوى من انعدام الطبقات والقضاء على الملكية الفردية . فكيف خرج من أحشائها المجتمع الذى يليها . حيث إن الماركسية ترى أن التناقض كامن فى كل شىء وأنه مامن شىء إلا ويحمل بين أحشائه تناقضا حتى يتولد منه شىء جديد . فما هو التناقض ، وكيف كان الصراع الذى سينتج عنه مرحلة جديدة فى تاريخ البشرية ، إن الماركسية لاتعطى على ذلك جوابا . ولو أجابت فإما أن تحكم على نفسها بالتناقض أو على أفكارها بالبطلان . وكلا الأمرين صعب فى حق الشيوعية العلمية!! ويصور الصدر ذلك الأمر بدءا من مسألة المجتمعات البدائية إلى مسألة خروج النقيض من الشيوعية البدائية فيقول :

(ولنسلم أن المعلومات التى اعتمدت عليها الماركسية ، عن تلك المجتمعات المعاصرة ، هى وحدها المعلومات الصحيحة فمن حقنا بعد ذلك أن نتساءل عن هذه المجتمعات : هل هى مجتمعات بدائية ، يمكن الإعتماد عليها فى تصوير البدائية الإجتماعية؟ وبالنسبة إلى هذا السؤال الجديد ، لاتملك الماركسية دليلا واحدا على بدائية هذه المجتمعات المعاصرة ، بالمعنى العلمى للفظ . بل إن قوانين التطور الحتمى للتاريخ ، التى تؤمن بها الماركسية ، تقضى بأن تلك المجتمعات قد شملتها عملية التطور الإجتماعى حتما فالماركسية حين تزعم ، أن الحالة الحاضرة لتلك المجتمعات ، هى حالتها البدائية ، تبطل قوانين التطور ، وتقرر الجمود عبر آلاف السنين)(٢).

---

(١) معالم الإشتراكية العربية (٥٣-٥٤) .
(٢) إقتصادنا (١٤٩) .

أما كـون المجتمعات البـدائية عـاشت فى ملكية جمـاعية مشـاعية لأن الفـرد كـان يستطيع أن يأكـل ويحصل على طعامه من جراء دخولـه إلى أى منزل فى قـريته فـإن ذلك لايكـون لأن علاقات الإنتـاج كـانت إشتراكية أو مشـاعية ، حيث وجدت تلك الأخلاق فى مجتمعـات لم تعـرف تلك العلاقات الإنتاجية[١].

(ب) ثم يقـال لهـم كيف تولد النظـام العبـودى من النظـام المشـاعى الذى لايوجد فيه طبقات متصارعة ؟!!

ويجيـب الماركسيون على ذلك بقولهم إن الذى أدى إليـه هو إحساس الفـرد بأنه قادر على أن يجد مايحتاجه دون أن يبذل كـل طاقاته فى العمل ، ومـن هنا وجدت قوة إجتماعية ترغب فى الإستزادة مـن هذا الإنتاج وتعمل على إرغـام العبيـد على العمـل المتـواصل فكـان لابد مـن نشوء المجتمـع العبودى[٢].

ومـن خلال هذا التفسير يتبين (أن المسـألة هى مسـألة الإنسان ، قبل أن تكـون مسـألة وسائل الإنتـاج) . فالإنسان بطبعه يميـل إلى أضمـن الطرق لراحته وأقلها تكليفا له . فالميل الطبيعى هذا هو الـذى جعل الإنسان يرغب فى استعباد الآخرين وليست قوى الإنتاج التى عملت على ذلك[٣].

(ج) ثم بعد ظهور المجتمع العبودى انقسم المجتمع إلى طبقتين . طبقـة العبيـد وطبقة الأسياد ، فبـدأ الصراع الطبقى لأول مـرة فى التاريخ . فيقال لهم هنا :

لماذا كانت (السيادة لأولئك وكتب على هؤلاء الرق والعبـودية؟ ولماذا لم يقم السادة بدور العبيد ، والعبيد بدور السادة؟)[٤]

---

(١) انظر : معالم الإشتراكية العربية (٥٤-٥٥) ، إقتصادنا (١٥٠) .
(٢) انظر إقتصادنا (١٥١-١٥٢) .
(٣) انظر المرجع السابق (١٥٢-١٥٣) .
(٤) المرجع السابق (١٥٥) .

وتجيب الماركسية على ذلك بقولها : (إن كلا من السادة والعبيد قد مثل الدور المحتوم ، الذى يفرضه العامل الإقتصادى ومنطق الإنتاج . لأن الجماعة التى مثلت دور السيادة فى المجتمع ، كانت على مستوى عال من الثروة نسبيا ، وكانت تملك بسبب ذلك القدرة على ربط الآخرين بها ، برباط الرق والعبودية)[١].

غير أن هذا ليس جوابا مقنعا وذلك لأن (هذه الثروات الضخمة نسبيا لم تهبط على الأسياد من السماء ، فكيف حصل عليها هؤلاء دون غيرهم ، واستطاعوا أن يفرضوا سيادتهم على الآخرين ، مع أن الجميع كانوا يعيشون فى مجتمع شيوعى واحد؟!)[٢].

وتجيب الماركسية على ذلك بأمرين :

أحدهما : أن الأفراد الذين كانوا يزاولون مهام الرؤساء والقادة استغلوا مراكزهم وأخذوا فى امتلاك الثروة والانفصال شيئا فشيئا عن أعضاء جماعتهم ، بينما كان أعضاء الجماعة يسقطون شيئا فشيئا تحت تبعيتهم الإقتصادية .

وثانيهما : تحويل أسرى الحرب إلى عبيد[٣].

ويبين الصدر خطل هذاالرأى وتعارضه مع الفكر الماركسى فيقول : (وكلا هذين الأمرين لايتفقان مع وجهة نظر المادية التاريخية ، أما الأول : فلأنه يؤدى إلى إعتبار العامل السياسى ، عاملا أساسيا ، والعامل الإقتصادى عاملا ثانويا منبثقا عنه ، لأنه يفترض أن المكانة السياسية ، التى كان القواد ورجال الدين والرؤساء يتمتعون بها فى المجتمع الشيوعى اللاطبقى ، هى التى شقت لهم الطريق إلى الإثراء ، وإيجاد ملكيات خاصة ، فالظاهرة الطبقية إذن وليدة الكيان السياسى ، وليس العكس ، كما تقرر المادية

---

(١) إقتصادنا (١٥٥) .

(٢) المرجع السابق (١٥٥) ، وانظر معالم الإشتراكية العربية (٥٥) ومابعدها .

(٣) انظر إقتصادنا (١٥٥-١٥٦) .

التاريخية ، وأما السبب الثانى ، الذى فسرت به الماركسية تفاوت الثروات : فهو لايتقدم فى حل المشكلة إلا خطوة واحدة ، إذ يعتبر أن إسترقاق السادة للعبيد من أبناء القبيلة ، قد سبقه تاريخيا إسترقاق أولئك السادة ، لأسرى الحرب ، وإثراؤهم على حساب هؤلاء الأسرى ، وأما لماذا هيأت الفرص لأولئك السادة بالذات ، دون غيرهم من أعضاء القبيلة ، إسترقاق الأسرى؟ فهذا مالاتحاول الماركسية تفسيره ، لأنها لاتجد تفسيره فى القوى المنتجة ، وإنما يمكن تفسيره تفسيرا إنسانيا ، على أساس الفوارق والكفاءات المتفاوتة : البدنية والفكرية والعسكرية ، التى يولد الناس وهم يختلفون فى حظوظهم منها ...)[١].

(د) أن الماركسية تقول بأنه لابد من تطور قوى الإنتاج من أجل أن يتغير الوضع الإجتماعى ، غير أن مجتمع العبودية والإقطاعية كانت أشكال الإنتاج فيها واحدة وحصل التغير ، وفى بيان وجوب التغير فى قوى الإنتاج ليتغير الوضع الإجتماعى يقول ماركس : (إن أى تكوين إجتماعى لايحدث أبدا قبل أن تتطور القوى المنتجة ، التى تستطيع أن يفسح لها المجال)[٢].

يقول الصدر بعد أن أورد هذا القول : (بينما تؤكد الماركسية هذا ، نجد أن شكل الإنتاج كان واحدا فى المجتمع العبودى والإقطاعى معا ، ولم تتغير العلاقات العبودية إلى إقطاعية نتيجة لأى تطور أو تجديد فى القوى المنتجة السائدة ، التى كانت لاتعدو مجالات الزراعة والخدمة اليدوية . ومعنى ذلك أن التكوين الإجتماعى والعبودى ، قد مات قبل أن تتطور القوى المنتجة ، خلافا لتأكيد ماركس الآنف الذكر .

وفى مقابل ذلك نجد : أن أشكالا متعددة من الإنتاج ودرجات مختلفة ، تخطتها القوى المنتجة خلال آلاف السنين ، دون أن يحصل أى تحول فى

---

(١) إقتصادنا (١٥٦) ، ولمزيد انظر (١٦١) ومابعدها .

(٢) فلسفة التاريخ (٤٧) نقلا من كتاب إقتصادنا (١٦٠) ، وانظر نقض الإشتراكية الماركسية (١٨٢) .

الكيان الإجتماعى باعتراف الماركسية نفسها . فالإنسان البدائى كان يستعين فى إنتاجه بالأحجار الطبيعية ، ثم استعان بأدوات حجرية ، وبعد ذلك استطاع أن يكتشف النار ، وأن يصنع الفؤوس والحراب ، ثم تطورت قوى الإنتاج فظهرت الأدوات المعدنية والسهام والأقواس ، ثم ظهر الإنتاج الزراعى فى حياة الإنسان وبعده الإنتاج الحيوانى . وقد تمت هذه التحولات الكبرى فى أشكال الإنتاج ، وتتابعت تطوراته فى المجتمع البدائى ، بالتسلسل الذى ذكرناه أو بتسلسل آخر دون أن تواكبها تحولات إجتماعية وتطورات فى العلاقات العامة ، باعتراف الماركسية نفسها ، إذ أنها تؤمن بأن النظام السائد فى المجتمع البدائى ، الذى حدثت خلاله كل تلك التطورات ، كان هو الشيوعية البدائية .

فإذا كان من الممكن أن تتطور أشكال الإنتاج ، والشكل الإجتماعى ثابت كما فى المجتمع البدائى مثلا ، وكان من الممكن أن تتطور الأشكال الإجتماعية ، وشكل الإنتاج ثابت ، كما رأينا فى المجتمع العبودى والإقطاعى . فما هى الضرورة التى تدعو إلى التأكيد على : أن كل تكوين إجتماعى يرتبط بشكل معين ودرجة خاصة من الإنتاج؟! ولماذا لاتقول الماركسية : إن النظام الإجتماعى إنما هو حصيلة الأفكار العملية ، التى يحصل عليها الإنسان خلال تجربته الإجتماعية للعلاقات التى يشترك فيها مع الآخرين . كما أن أشكال الإنتاج حصيلة الأفكار التأملية والعلمية التى يحصل عليها الإنسان خلال تجربته الطبيعية ، لقوى الإنتاج وسائر قوى الكون)(١).

(هـ) أن قولهم إن تطور الإنتاج وتغيراته تبدأ بتطور قوى الإنتاج يبطله الواقع والأحداث .

(فإن الإسلام حين جاء غير النظام الذى عليه الناس أى غير العلاقات وبعد أن قويت الدولة وصارت الفتوحات بدأ الرقى المادى فبدأت أدوات

---

(١) إقتصادنا (١٦٠-١٦١) .

الإنتـاج تتغير وبدأت الخبرة الفنيـة أو مـايسمى معـارف الإنتـاج تتغير)[١].

ثم إن واقع روسيا ينقض هذه المقولة .

فـ(حين استولى الحزب الشيوعى على الحكم بدأت الدولة تغير علاقات الناس وبعد ذلك صارت الدولة تحسن أدوات الإنتاج وتغيرها ، ويروى عن لينين أنه طلـب منه شراء تراكتـورات للحراثة من الغـرب لتحسين الـزراعة وتسييرهـا حسـب العصـر الحديث فـرفض ذلـك وقـال يجب أن نصنـع نحن التراكتـورات ثم نستعمل من صنـاعتنا مايحسن زراعتنا . فهـذان مثـالان بارز فيهمـا أن التغيير بدأ فى العلاقـات وجاء تغير القـوى المنتجـة بعـد تغير العلاقات)[٢].

(و) أمـا قولهم بأن التاريخ سجـل خمسة أنواع مـن علاقـات الإنتاج وأدى تطـور كـل مرحلة إلى ولادة مـرحلة جديدة فـإنه باطـل كـذبه الواقع والتاريخ .

(فالواقع أن دول أوروبا الشرقية لاتختلف عن دول أوروبا الغربية من حيث أدوات الإنتاج ، ولكن علاقات الإنتاج فى دول أوروبا الشـرقية غيرها فى دول أوروبا الغـربية ، والنظـام فى دول أوروبا الشـرقية غيره فى دول أوروبا الغـربية ، فما الذى جعلـه يتغير ، هل تطورت دول أوروبا الشـرقية من الرأسمالية إلى الإشتراكية أو على حد تعبيرهم بشكل أدق إلى الديمقراطية الشعبية بتطور أدوات الإنتاج ، أم باستيلاء روسيا الشيـوعية عليها؟ والواقع أن أدوات الإنتـاج فى روسيـا هـى عينهـا التى فى انجلترا ، ومـع ذلـك فـإن علاقات الإنتاج فى روسيا غيرها فى انجلترا ، ونظام المجتمع فى روسيا غيره فى أمـريكا ، فلمـاذا لم تتطور العلاقـات فى انجلترا تبعا لتطـور أدوات الإنتـاج؟ وهـل تطورت أدوات الإنتاج فى روسيـا أولا ثم تطورت العلاقـات ، أم أن الحزب الشيـوعى استلم الحكـم فغير العلاقـات ، ثم صـار هـو يحسـن أدوات

---

(١) نقض الإشتراكية الماركسية (١٨٢) ، وانظر (١٧٤) ومابعدها .

(٢) المرجع السابق (١٨٢-١٨٣) .

الإنتاج ، فغير العلاقات قبل أن تتغير أدوات الإنتاج)[١].

وبهـذا يتبين أن أدوات ووسائل الإنتـاج ليسـت هـى المتحكمـة فى العلاقـات والأفكار والأخلاق وقـرر ذلك واقع روسيا وقيـام الثورة البلشفية فيها .

(وأمـا تكذيب التاريخ لقولهـم أن العالم انتقل من المشـاعية الإبتدائية إلى الرق ومن الرق إلى النظام الإقطاعى ، ومن النظام الإقطـاعى إلى النظام الرأسمالى ، ومن النظام الرأسمالى إلى النظام الإشتراكى فإنه ظاهر فى إنتقال روسيا التى كانت أقرب إلى الإقطاعية منها إلى الرأسمالية الإشتراكية ، وعدم انتقال أوروبا الرأسمالية الصناعية من الرأسمالية حتى الآن . وكذلك إنتقال الصين الإقطاعية إلى الإشتراكية ، وعدم إنتقال أمريكـا الصناعية حتى الآن . وإنتقـال المانيا الشرقية إلى الإشتراكيـة بمجرد استيلاء الـروس عليهـا ، وعدم إنتقـال المانيـا الغربية من الـرأسمالية مع أنهما بلد واحد ، وهـى أى المانيـا كلها بلد رأسمالى صناعى)[٢].

(ز) يزعم الشيوعيون أن القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج التى تطابقها تنشـأ فى أحضان النظام القـديم لاخارجه ، ويعنون بذلـك التناقض الداخلى غير أن هذا الزعم باطل يرده ويكذبه الواقع .

يقـول حسين أبوالحسن : (إن المجتمعـات البشرية ظهـرت على جميـع أنحاء الأرض ولم تكـن محصـورة فى مكان دون آخر ، فلمـاذا تطورت بعضها إلى مرحلة الرأسمالية مثلا بينما لم يزل بعضها الآخر فى مـرحلة من البدائية المتخلفة مع أنه قد مرت آلاف السنين على وجود البشرية؟

ولماذا تستطيـع تنـاقضات وصـراعات القـوى المنتجـة مـع العلاقـات الإنتاجية السائدة أن تتمخض عنها ولادة مراحل جديدة من عبودية فإقطاعية فرأسمالية فإشتراكية مثلا فى أوروبا أوفى آسيا ، ولم تستطـع تلك التناقضات

---

(١) نقض الإشتراكية الماركسية (١٨٨) وانظر مابعدها .
(٢) المرجع السابق (١٩٠-١٩١) .

والصراعات أن تنقل مجتمعات كثيرة من واقع البدائية المتخلفة كما فى الاسكيمو أو بعض مجتمعات افريقيا واستراليا؟ وإذا كانت المجتمعات البشرية فعلا تتطور من مرحلة إلى مرحلة بفعل التناقضات الكامنة داخلها بين قواها المنتجة وعلاقاتها الإنتاجية - كما تقول الماركسية - فلماذا تطور بعضها فى أوروبا إلى الإشتراكية وبعضها إلى الرأسمالية وبعضها لم يزل فى المرحلة الإقطاعية ، وبعضها لم يزل فى مرحلة الخضوع للاستعمار ، وبعضها فى مرحلة البدائية المتخلفة؟ بينما المفروض أن تتطور جمعيها دفعة واحدة لأن محرك التطور كامن فى صراع التناقضات والأضداد بين القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج ...

والحقيقة فى ذلك ، أن ماتصورته الماركسية فى تطور المجتمعات البشرية ماهو إلا فرضيات خاطئة جدا وغير علمية ، بدليل ماهو ظاهر حاليا فى الاختلاف البائن بين المجتمعات البشرية فى تمايزها الإجتماعى والإقتصادى والسياسى والثقافى)[١].

ويقول غانم عبده فى رده على هذا الزعم (إن المجتمع الجاهلى القديم لم تنشأ فيه علاقات الإسلام الجديدة ، بل نشأت خارجه وجاء ومحته من الوجود ، ولم تكن مسألة مطابقة هذه العلاقات لأدوات الإنتاج ومعارف الإنتاج موجودة ولم تكن ملاحظة ، بل كانت غير واردة على الإطلاق)[٢].

وبهذا يتبين بطلان مزاعمهم فى إنتقال البشرية من طور إلى آخر حسب قوانين الجدل الحتمية والعلاقات الإقتصادية .

الوجه الثانى : إذا كانت المادية التاريخية هى التطبيق الفعلى للقوانين الجدلية . فإن العامل الإقتصادى فيها هو المحرك كما يتصور ذلك الشيوعيون بل إنهم اعتبروا الصراع فى المجتمع بسبب وجود الطبقات التى توجد وتزداد بسبب الملكية حيث ينقسم الناس إلى مالكين وغير مالكين فيقع الصراع ،

---

(١) معالم الإشتراكية العربية (٥٦-٥٧) .
(٢) نقض الإشتراكية الماركسية (١٩٦) وانظر مابعدها .

ولكن اعتبار أن العامل الإقتصادى هو السبب الوحيد لايقوم عليه دليل ولايدعمه الواقع فى كل حين .

يقول الصدر : (إن التحليل الماركسى يفترض أن الواقع الإقتصادى - ملكية وسائل الإنتاج ، وعدم ملكيتها - هو الأساس الواقعى والتاريخى للتركيب الطبقى ، انقسام المجتمع إلى طبقة حاكمة لأنها تملك وطبقة محكومة لأنها لاتملك مع أن الواقع التاريخى ومنطق الأحداث يبرهن فى أكثر الأحايين على العكس ، ويوضح أن أوضاع الطبقات هى السبب فى الأوضاع الإقتصادية التى تتميز بها تلك الطبقات ، فالوضع الإقتصادى للطبقة يتحدد وفقا لكيانها الطبقى ، وليس كيانها الطبقى نتيجة لوضعها الإقتصادى)[١].

ثم إن إعتبار الملكية والعوامل الإقتصادية هى المؤثرة فى الحياة البشرية دون غيرها يبطله وجود بعض الطبقات المتميزة فى المجتمعات المختلفة دون أن يكون تميزها بسبب الملكية أو الخاصية الإقتصادية .

فكيف تفسر الشيوعية وجود الحدود الفاصلة بين طبقة الأشراف وغيرها فى المجتمع الرومانى مع وجود طبقات أخرى تضاهيها فى الملكية والثروات .

وكذلك كيف يفسرون وجود طبقة (الساموراى) فى المجتمع اليابانى والتى تتميز عن غيرها بحملها للسيف وفنون الفروسية ، ولم يكن تميزها من أجل الملكية[٢].

ثم كيف يفسرون التمايز الطبقى الشديد فى الهند - قبل التاريخ الحديث - والذى يقوم على أسس عسكرية ، ودينية ، وعنصرية[٣].

الوجه الثالث : يرى الشيوعيون أنه نتيجة لهذا الصراع بسبب الملكية وعدمها ، يكون التحول ثوريا أى إنتقال مفاجىء من طور إلى آخر وهذا

---

(١) إقتصادنا (١٣٤) .

(٢) انظر المرجع السابق (١٣٥) .

(٣) انظر المرجع السابق (١٣٦) وانظر مابعدها .

مايعبرون عنه بقفزات التطور حسب قوانين الجدل . وهو صراع ثورى يقضى على القديم ليقيم محله النظام الجديد ، وهذا زعم باطل حيث كذبته الأحداث التاريخية .

يقول الصدر : (إن تحول المجتمع الرومانى مثلا من نظام الرق إلى نظام الإقطاع ، لم يكن نتيجة لثورة طبقية ، فى لحظة فاصلة من لحظات التاريخ ، بالرغم من أن الثورة قانون حتمى فى المادية التاريخية لكل التحولات الإجتماعية ، وفقا للقانون الديالكتيكى "قانون قفزات التطور" القائل : بأن التغييرات الكمية التدريجية ، تتحول إلى تغير كيفى دفعى ، وهكذا عطل هذا القانون الديالكتيكى عن العمل ، ولم يؤثر فى تحويل المجتمع العبودى إلى إقطاعى ، بشكل ثورى آنى ، وإنما تحول المجتمع - حسب إيضاحات الماركسية نفسها - عن طريق السادة أنفسهم ، إذ أخذوا يعتقون كثيرا من عبيدهم ، ويقسمون الأملاك الكثيرة إلى أجزاء صغيرة ، ويعطونها إليهم ، بعد أن أحسوا بأن نظام الرق لايضمن لهم مصالحهم . فالطبقة المالكة - إذن - قد حولت المجتمع بالتدرج إلى النظام الإقطاعى ، دون حاجة إلى قانون الثورات الطبقية ، أو قفزات التطور ... وكان غزو الجرمان من الخارج ، عاملا آخر فى تكوين الإقطاع - حسب اعتراف الماركسية نفسها - وهو بدوره أيضا بعيد عن تلك القوانين)[١].

ثم إن المثال الذى ساقه الشيوعيون على التحول وكونه فجائيا هو تحول الماء إلى بخار ، وهذا قياس فاسد . كما أنه ليس بالضرورة أن يكون التحول فجائيا أو ثوريا وليس بالضرورة أن يكون سبب التحول هو الاضطهاد .

يقول غانم عبده : (وجه الخطأ فى قياس الكون والمجتمعات على تحول الماء إلى بخار أو إلى جليد هو أن الماء وإن كان جسما وقد أثرت فيه الحرارة التى سلطت عليه فإن هذا لايعنى أن الحرارة تحول جميع الأجسام

---

(١) إقتصادنا (١٥٨) .

كما تحول الماء ، ولايعنى أن غير الحرارة يحول الأشياء من حال إلى حال كالحرارة . وكون الماء تحول فجأة حين وصل إلى نقطة الحرج لايعنى أن المجتمع يتحول فجأة بواسطة الثورات حين يصل إلى نقطة الحرج لأن المجتمع هو أناس وعلاقات وتحوله يحصل بتحول الأفكار ، وليس بالثورات والاضطرابات ، ومن الخطأ قياس طبائع الإنسان على طبائع الجمادات للاختلاف البين بينهما . وعلى ذلك فإنه لاضرورة لأن ينتقل المجتمع من حال إلى حال فجأة ، ولاضرورة لأن يحصل الإنتقال من جراء الاضطهاد ، فالنظام الرأسمالى وجد فى أوروبا وأمريكا بشكل تدريجى وليس بشكل فجائى ونظام الإسلام وجد فى جزيرة العرب بشكل فجائى . واضطهاد الأوربيين للسود فى أفريقيا استمر مئات السنين ولم يحصل أى إنتقال من جراء الاضطهاد ، بل لم تحصل ثورات ذات بال مع وجود الاضطهاد ، وماشوهد فى أفريقيا فى الأيام الأخيرة من محاولات مايسمى بالاستقلال جاءت من جراء الأفكار من دول كبرى مثل أمريكا وروسيا وليس من الناس أنفسهم ، فقد أخذت كل منهما تبث فى أفريقيا مفاهيم الاستقلال والتحرر وتقوم بأعمال دولية ضد المستعمرين الآخرين ، وعليه فإن ماحصل فى الماء من التغير لاضرورة لأن يحصل فى المجتمع إذا حصلت فيه ثورات . وتطبيق مابرهنت عليه العلوم الطبيعية من تغييرات فى بعض الأجسام على المجتمع خاطىء لأنه لايوجد أى شبه بينهما فضلا عن أن واقع المجتمع قد دل على أن منهاج التغير فيه ـ يعنى المجتمع ـ لايجرى على كيفية معينة ثابتة محتومة كما هى الحال فى الجمادات حين تتغير أى تنتقل من حال إلى حال . ومادام هذا التطبيق كله خطأ فالتغير من حيث هو لاضرورة لأن يحصل ، أى ليس حتمى الحصول ، لأن حصول الثورات ليس حتميا ، وكذلك حصول الإنتقال على فرض حصول الثورات ليس حتميا ، فقد تحصل ثورات وقد لاتحصل ، وعلى فرض حصولها قد يحصل الإنتقال وقد لايحصل ، وعلى ذلك فإن ماترتب على حتمية حصول الإنتقال من النشوء والإرتقاء ليس حتمى الحصول ، لعدم إنطباق مايجرى على الأجسام حسب العلوم الطبيعية على

المجتمع)[١].

الوجه الخامس : أن مارتبه الماركسيون من حتميات تاريخية أبطلتها الأيام وحكمت عليها بعدم المصداقية فكانت هذه الحتميات والنبؤات أوهام وتخيلات . وقد أثبت التاريخ الحديث فساد نبؤات ماركس وعدم تحققها . فهو يرى أن كل مجتمع يوجد التناقض فيه ويولد ذلك التناقض بناء على الصراع حالة جديدة وهكذا إلا أن واقع الدول الغربية وواقع الاتحاد السوفييتى كذب ذلك .

يقول حسين أبو الحسن : (اعتبر ماركس أن المجتمع الألمانى هو أكثر المجتمعات تطورا فى مرحلته الرأسمالية ، وأن طبقة العمال فيه قادرة على توحيد صفها وتنظيمه بصورة جيدة حيث تستطيع أن تقود الثورة وتتسلم زمام سلطتها البروليتارية فتنقل مجتمعها إلى المرحلة الإشتراكية المرتقبة . وتنبأ أيضا أن المجتمع البريطانى سيلى المجتمع الألمانى فورا فى إنتقاله إلى المرحلة الإشتراكية . بينما لايستطيع المجتمع الروسى أن ينتقل إلى المرحلة الإشتراكية كون علاقات الإنتاج الرأسمالية فيه لم تكتمل شموليتها ، ولم تتكون بعد الطبقة العمالية الصناعية القادرة على التغيير ، ولأن قسما كبيرا من علاقات إنتاجه وقواه المنتجة لم تزل فى مرحلتها الإقطاعية ، إضافة إلى مايمثله الحكم القيصرى من قوة استبدادية رجعية رهيبة تقف بحزم وصرامة ضد انطلاقة أية عملية تغيير قصرية .

إذن فمراهنة الماركسية فى تغيير المجتمع من مرحلة إلى مرحلة ، تعتمد على صراع التناقضات فيه ، بينما تؤكد من جهة ثانية على ضرورة وجود الطبقة العمالية البروليتارية فى المرحلة الرأسمالية لتعمل على قيادة مسيرة التغيير إلى المرحلة الإشتراكية .

ففى الوقت الذى تكون تناقضات الأضداد وصراعاتها بين علاقات الإنتاج وبين القوى المنتجة فى المراحل السابقة (المشاعية البدائية والعبودية

---

(١) نقض الإشتراكية الماركسية (١٢١-١٢٢) .

والإقطاعية) هى العاملة الوحيدة والمحركة لإنتقال مجتمعها من مرحلة إلى مرحلة ، نراها قد انعدم وجودها فى المرحلة الرأسمالية ، إذا اعتمدت الماركسية هنا على وحدة الطبقة العاملة "فقط الصناعية منها" لتغيير الواقع وقيادة مسيرة التغيير بالوسائل الثورية وبواسطة سلطة البروليتاريا التى جوزت لها أن تكون سلطة ديكتاتورية . وذلك ، لأن قوى الثورة المضادة لابد وأن تسعى دائمًا لتنظيم صفوفها للانقضاض على الواقع الثورى الجديد ، فيقتضى على هذا الأساس أن تعمد الطبقة العمالية إلى التفرد بالسلطة فتحكم بديكتاتوريتها الفئوية كونها هى المخولة الوحيدة لفهم الواقع وهى القادرة على وعى أهمية المرحلة وأهمية دورها الطليعى الرائد وهى التى أبدا لاتخون الثورة وإنما تحافظ عليها وعلى إنجازاتها وعلى تأمين متطلبات جميع الفئات الأخرى العمالية الزراعية وعمال التجارة وعمال قطاع الخدمات العامة والخاصة فما الذى حصل بعد هذا؟ هل تحققت تنبؤات ماركس فى تحقيق المجتمعات الإشتراكية فى المانيا وبريطانيا مثلا؟ وهل استطاعت الحتمية التاريخية أن تقف حائلة دون إنتقال روسيا من واقعها الإقطاعى الرأسمالى إلى واقع الإشتراكية؟ وهل كان رهان الماركسية فى تغيير الواقع وتحمل مسؤولية الثورة وقفا على الطبقة العمالية الصناعية (البروليتارية) دون الطبقة العمالية الفلاحية أو طبقات العمال الأخرى فى التجارة وقطاع الخدمات العامة والخاصة والجنود والطلبة والمثقفين؟)[١].

الوجه السادس : أن الأوضاع المعاصرة التى ظهرت فى المجتمعات الصناعية كذبت ماتنبأ به ماركس من حيث إن الملكية الجماعية ستقع فى المصانع الثقيلة رضاء أم كرها لأنه لامجال للتربية أو الفكر فى نظام المجتمع . فهذه الصناعات (الثقيلة الكبرى قد نشأت فى البلاد الرأسمالية قبل الاتحاد السوفييتى ، ومع ذلك فإنها حتى الآن ، لم تتقبل فكرة الملكية الجماعية فى الأساس ، ولم ترض عن الملكية الفردية بديلا ، ولم يثر فيها العمال كما كان

(١) معالم الإشتراكية المعاصرة (٥٩-٦١) .

ماركس يتوقع ذلك عملا بنظريته بأن التطور المادى فى مكان ما هو وحده الذى يفرض نظام المجتمع ، لاالفكر ولاالتربية ، وعلى العكس من ذلك فإن فكرته كفكرة مجردة ماستطاعت أن تجد لها طريقا إلى الوجود إلا عندما وجدت من يتبناها فكريا ، وذلك : أولا فى روسية قبل تصنيعها الجديد ، وثم فى الصين قبل تصنيعها أيضا الحديث . ولذلك فإن نظرية ماركس فى إسقاط الفكر والتربية من عملية التطور فى المجتمع أصبحت فى الواقع والمحسوس لاتستحق الجد فى مناقشتها وإبطالها)(١).

الوجه السابع : عجز الماركسية عن تفسير بعض الأحداث التى وقعت فى التاريخ الإنسانى ، وإذا كان الأساس عند ماركس أن وسائل الإنتاج وملكيتها هى التى تحدد العلاقات الإجتماعية وتفسر هذه الأحداث ، فإن ماركس قد اختار (بعض وقائع من التاريخ لتدعيم نظريته وكانت ظروف الحياة فى أوروبا المعاصرة وتاريخها القريب يسعفه لتأييد وجهة نظره التحكمية ، ولكنه لو مد بصره إلى العالم كله وبخاصة فى آسيا وأفريقيا لما قال ماقال ، وهو لم يعبأ ولم يحاول أن يفسر لنا الحركات الكبرى فى التاريخ والتى لم تكن فى قليل أو كثير ، إلا تحقيقا لطموح أفراد لاأكثر ولاأقل ، مثل حروب الاسكندر المقدونى فى القديم ونابليون فى الحديث ، حيث لاتستطيع نظرية وسائل الإنتاج وملكيتها أن تفسر لنا هذه الحركات ، وإذا كان هذا مدى عجز النظرية فى تفسير حوادث محدودة كحوادث الاسكندر ونابليون ، فكم هى بالأحرى أكثر عجزا وإفلاسا فى تفسير الظواهر الكبرى كالدين البوذى وماأحدثه من تأثير فى بيئته ، والمسيحية فضلا عن الإسلام حيث استطاع جماعة من بدو الصحراء ، استناروا بنور الإسلام وامتلأت قلوبهم إيمانا بحياة أخروية لاتمت إلى هذا العالم على الإطلاق ، أن يقوضوا امبراطوريتى الفرس والرومان ، وأن يغيروا مجرى التاريخ ومساره)(٢).

---

(١) نظرات إسلامية فى الإشتراكية الثورية (٣١-٣٢) .

(٢) إفلاس الماركسية (٢٤-٢٥) ،وكان المؤلف من دعاة الإشتراكية .

الوجه الثامن : يرى الشيوعيون أن الإشتراكية (ممثلة فى طبقة البروليتاريا) تخرج من أحشاء الرأسمالية نتيجة للصراع الذى يقع بينهما ، وهذا الاستنتاج حتمية تاريخية ، لايمكن بحال تغييرها أو العمل ضدها .

يقول لينين : (كان ماركس وانجلز أول من بينا أن الطبقة العاملة تولد بالضرورة ، مع مطالبها ، من النظام الإقتصادى الحالى الذى مع البرجوازية ، يخلق وينظم البروليتاريا بصورة حتمية)(١).

ويقول : (إن ماركس يخلص إلى أن المجتمع الرأسمالى سيتحول حتما إلى مجتمع إشتراكى ، وهو يستخلص ذلك استخلاصا تاما ، وعلى وجه الحصر ، من القانون الإقتصادى لحركة المجتمع الحديث)(٢).

وهكذا يرى الشيوعيون أن المجتمع الإنسانى يسير حسب هذه الحتميات ومنها خروج الإشتراكية من المجتمع الرأسمالى وذلك بعد أن يقع الصراع بين الرأسماليين وطبقة العمال . هذه نبوؤة ماركس .

إلا أن الواقع الإنسانى كذبها فى كل أجزائها ، فمن حيث الصراع بين القديم والجديد ، نجد أن بعض المجتمعات الإنسانية لم تتحول عن طريق الصراع . فمثلا المجتمع الإقطاعى لم يكن نتيجة للصراع حيث وجد ذلك المجتمع وبقيت السيطرة الملكية فيه . يقول د. صابر طعيمة : (لم يتحول مجتمع الملوك ـ كما ادعى ماركس ـ إلى مجتمع إقطاعى نتيجة للصراع بين الملك والشعب وخاصة أن هذا الصراع لامعدل له ولانسبة تحكمه ، وإنما أقطع الملك بعض قواده ووزرائه تكريما لهم على ماقدموه له ولشعوبهم ... والدليل على ذلك أن المجتمع الإقطاعى لم يقم على أنقاض ماسبقه ، بل بقيت نظم التملك ولم يلغ فى المجتمع الإقطاعى النظام الملكى بل ظل قائما . وبقى الملك جالسا على عرشه . وهذا مايبطل أى تصور أو مزاعم حول مايسمى تاريخ الصراع الطبقى المدعى)(٣).

---

(١) مصادر الماركسية (٥٨) ، وانظر الدولة والثورة (٩٨) .
(٢) مصادر الماركسية (٤٦) .
(٣) الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٧٧) .

ويقـول : كما (ثبت عدم صحـة ماذهب إليه ماركـس من أن المجتمع تحول مـن إقطـاعى إلى رأسمـالى بضغـط الصراع بين الأحرار والإقطـاعيين - وإنما لأن الإقطـاعيين رأوا أن الصنـاعة تدر ربحا أكثر مـن زراعـة الأرض فبـاعوها للأجراء . وأقاموا المصانع سعيا وراء الربح الأكثر . ولازالـت هذه الظـاهرة تتكرر حتى اليوم وعلى مختلف المستويات ، فـالكثيرون من أصحاب الإقطـاعيات الكبيرة وملاك الأرض مـن الطبقـة المتـوسطـة يبيعـونها لمشـاريع صنـاعية وتجارية . بل إن معظـم الفقـراء الزراعيين مـن أصحـاب الحيـازات الصغيرة يلجـأون إلى نفس الأسلوب تقريبا ، وهذا مـايؤكد عدم صحة ودقة القول بالصراع فى المرحلة مابين الإقطاع إلى رأس المال المدعاة)[١].

ويقـال لهم أيضا إذا كان خروج البروليتاريا مـن أحضان الرأسمالية حتمية تاريخية فلماذا العمل؟ لماذا العنف؟ لماذا الصدام؟ لماذا الصراع؟ ولماذا الثورة الدموية التى أعلنها ماركس وطبقها لينين وستالين؟!!

ألم يقـل لينين (إننـا لم نكـن قـط طوبويين ولم نتخيـل قـط بأننا سنبنى المجتمـع الشيـوعى بأيد نظيفـة لشيـوعيين نظيفين ، سيـولدون ويتربون فى المجتمـع الشيـوعى الصرف . تلـك قصـص للأطفال . ينبغـى علينـا أن نبنى الشيوعية على أنقاض الرأسمالية ، ولايستطيع القيام بهذه المهمة سوى الطبقة التى تمرست فى النضال ضد الرأسمالية)[٢].

أليـس لينين هو القائل (فإلى التنظيم والتنظيم والتنظيم . فـإن المستقبـل لنا رغم جميع المحن)[٣].

إن عمـل الماركسيين ، وبذلهـم الجهـد فى سبيـل الـوصول إلى تحقيـق أهـدافهم ومـآربهم ، فيه أكبر دليـل على بطلان الحتمية التـاريخية ، وبالتـالى المادية التـاريخية ، إن تصـريحات لينين تدل دلالة واضحـة أن أفكار ماركس

---

(١) الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٧٧-٧٨) .

(٢) التحالف بين العمال والفلاحين (٣٥٤-٣٥٥) .

(٣) بصـدد الجملة الثورية (٦٣) ، ١٩٦٨م ، دار التقـدم ، موسكـو ، دون ذكـر لرقم الطبعة .

كانت طوباوية ، كما تدل ضمنا على كفره بالمادية التاريخية وإلا كان ترك الأمور تسير حسب مقتضيات الحتميات التاريخية .

يقول الصدر : (لماذا تبذل هذه الجهود الجبارة من الماركسيين ، فى سبيل تكتيل أكبر عدد ممكن ، لشن ثورة فاصلة على الرأسمالية؟! ولم لايدع الماركسيون قوانين التاريخ تعمل ، فتكفيهم هذه المهمة الشاقة؟!)[١]

وأخيرا مما يدل على بطلان هذا الزعم هو اعتراف زعماء وفلاسفة وقادة الماركسية ، بالمبالغة فى الحتمية ، فهذا انجلز يصرح ("بأن المادية الجدلية يجب عليها أن تدخل الصدفة التاريخية فى اعتبارها" ، الأمر الذى يدل على نبذه للحتمية المطلقة ...)[٢].

ويقول هنرى ده مان : (إن خطأ الماركسية يكمن فى أنها أرادت أن تصوغ التأثير الثابت الذى تمارسه الأوضاع الإجتماعية ومصالح الطبقات على الأفكار المسيطرة ، أرادت أن تصوغه بقالب حتمي وأن تعتبره شيئا لايمكن إثباته والبرهان عليه ، ثم أن تجعل منه القانون العام الشامل الذى يكيف الثقافة ويجعلها نتيجة للوضع الإجتماعى وانقسام الطبقات . ولكن هذا القانون ليس صحيحا دائما ، وخصوصا فى فترات النهوض والإرتقاء ، ذلك أن غالبية الأفكار الإشتراكية إنما نشأت نتيجة لمقاييس وأفكار بورجوازية ، بل إن أفكار ماركس نفسها ليست بعيدة تماما عن هذا التقييم)[٣].

ويقول بولتزير : (إن المادية الجدلية ، فى تأكيدها للطابع الموضوعى لقوانين المجتمع ، تؤكد - فى نفس الوقت - الدور الموضوعى الذى تلعبه الأفكار ، يعنى النشاطات العلمية الواعية ، مما يتيح للناس أن يؤخروا أو يقدموا ، وأن يشجعوا أو يعرقلوا ، تأثير قوانين المجتمع)[٤].

---

(١) إقتصادنا (٩٨) .
(٢) نقلا من كتاب موقف ماركس وانجلز من الآداب العالمية (١١٢) .
(٣) الإشتراكية البناءة (١٥٠) .
(١) نقلا من كتاب إقتصادنا (٩٩-١٠٠) .

ويقول ستالين : (إن المجتمع غير عاجز أمام القوانين ، وأن فى وسعه عن طريق معرفة القوانين الإقتصادية ، وبالاستناد إليها ، أن يحد من دائرة فعلها ، وأن يستخدمها فى مصلحة المجتمع ، وأن يروضها ، مثلما يجرى حيال قوى الطبيعة وقوانينها)[١].

وهكذا يتبين لنا أنه لابد من العمل[٢] ولابد من التنظيم ، كما أن الإنسان قادر على التغيير فى القوانين المحيطة به وبالتالى فليس هناك حتمية تاريخية كما صورها ماركس .

<u>الوجه التاسع</u> : أن المادية التاريخية قد جعلت مدارها على العامل الإقتصادى وتناست بقية العوامل رغم تأثيرها الشديد فى الأحداث ، ونحن بهذا لاننكر أهمية العامل الإقتصادى ودوره إلا أنه ليس السبب الوحيد أو الأكثر فعالية مما سواه .

وعلى سبيل المثال أين هذا العامل من العامل الدينى أو العقدى؟!!

يقول د. على باشكيل : (إن الماديين التاريخيين يخطئون عندما يفسرون التاريخ الإنسانى - وكذلك الدين وسائر المعتقدات - تفسيرا ماديا صرفا ويرونه تابعا للمؤثرات الإقتصادية والمادية لاغير . إن النظر إلى التاريخ وإلى المجتمع من هذه الزاوية المادية وحدها إنما هو معرفة جانب واحد أو استكشاف سر واحد من آلاف الأسرار التى تحيط بهذا الكائن الغامض المسمى بـ"الإنسان" وهو إهمال لجوانب متعددة كثيرة منه . إن الإنسان ليس آلة Robot متكونة من عضلات وعظام وأعصاب ، وليس مخلوقا ينحصر همه فى الأكل والشرب والمنام وفى إشباع سائر الضرورات المادية . إن الإنسان كائن ذو عقل وذو مشاعر ، يملك قدرة التفكير فى أموره وفى شؤونه ، وهو عندما يبقى وحيدا مع نفسه ومع ضميره يسائل نفسه : من أين أتى؟ وإلى أين سيذهب؟ وإلى أين ستنتهى هذه الحياة؟ وهو يبحث دائما عن جواب

---

(١) نقلا من كتاب إقتصادنا (٩٩) .

(٢) انظر ماذكره بوير فى كتابه عقم المذهب التاريخى (٦٥) ومابعدها .

تطمئن إليه نفسه فى مثل هذه المواضيع ، وهو لايجد هذا الاطمئنان إلا فى ظل الإعتقاد بقوة فوق قوة البشر Suprahumain يؤمن بها ويجد الأمن والسكينة فى رحاب هذا الإيمان وهذه العقيدة ، والدين وحده هو الذى يستطيع أن يمد الإنسان بمثل هذا الإيمان ، لذلك فإن الدين لم يكن وليد ظروف مادية وإقتصادية بحتة لأنه فى حقيقة الأمر تلبية لرغبة أصيلة كامنة فى فطرة الإنسان)(١).

ثم يقال لهم ، أنتم تقرون بأن الإشتراكية ممكنة الوقوع دون المرور بمرحلة الرأسمالية . وهذا إبطال للحتمية التاريخية ، أو على أقل الأحوال دليل على التناقض الشديد الذى تعيشه الأفكار الماركسية .

فإن القول بجواز قيام نظام لم يسبقه النظام الذى يحمله فى أحشائه ـ كما تقول الماركسية ـ يدل على أن العامل الإقتصادى ليس هو العامل الوحيد المؤثر بدليل الإنتقال من حال إلى آخر دون وجود الحال الذى يحمل التناقض ومن ثم الصراع بسبب إقتصادى ، الذى يكون مؤثرا فى حصول المرحلة التى تليها .

الوجه العاشر : أن الماركسية ـ وكالعادة ـ تتحكم فى مجريات الأمور كلها ، ومن ذلك قولها بحتمية حلول المجتمع الإشتراكى مكان الرأسمالى إذا ماانهار .

ونقول لهم هنا : لماذا لايكون هناك نظام آخر يحل محل الرأسمالية إذا سقطت؟ وعلى أى مستند اعتمد الشيوعيون فى تحكمهم ذلك؟!!

إن الشيوعية لاتملك دليلا واحدا يوجب حتمية خروج الشيوعية من الرأسمالية ، ولكنها الآراء والأهواء الشخصية . ومما يذكر هنا أن الشيوعية الأولى خرج بعدها مجتمع عبودى!! فكيف حدث ذلك؟!!

هذا بالإضافة إلى أن الواقع أبطل ذلك كله وهاهى الشيوعية تنهار فى الاتحاد السوفييتى ويحل محلها أو يطرح بديلا لها النظام الرأسمالى ، فما هى

---

(١) موقف الدين من العلم (٤٩-٥٠) .

الإجابة على مايحدث هناك؟!! باختصار شديد هى بطلان المادية التاريخية وحتمياتها وانتصار الفطرة الإنسانية ، وبيان دور الإنسان فى صناعة الأحداث

الوجه الحادى عشر : زعم الماركسيون أن الإنسان ليس له من الأمر شىء ، وأنه بمثابة الريشة فى مهب الريح أمام القوانين والحتميات التاريخية .

وهذا الزعم يبطله كتاب الله تعالى حيث أثبت جل وعلا الإرادة والمشيئة للإنسان ، قال تعالى : {**إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا وماتشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما**}[١].

وقال تعالى : {**منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة**}[٢].

كما أن الشيوعيين يرون أن أساليب الإنتاج هى التى تصنع الأفكار والأخلاق ، وعلى هذا فإن العامل الإقتصادى هو الذى يحدد نوعية العلاقة بين الناس فى كل مجتمع[٣]. وإذا كان الإنسان فى المادية التاريخية بهذه الشخصية التى لاحول لها ولاقوة ، وأن وسائل الإنتاج هى التى تصنع أفكاره وأخلاقه ، فإنا نقول كيف استطاع ماركس أن يأتى بهذا الفكر؟!! وهل كان فكره ذلك انعكاسا للوضع الذى يعيشه؟!!

إن أى إجابة على هذا التساؤل ستلزم الماركسيين بإبطال نظريتهم ، فإن قالوا إنها انعكاس للوضع ، قيل لهم إن الوضع القائم حينذاك كان رأسماليا . وهذه الأفكار تخالفه وتناقضه .

وإن قالوا ليست انعكاسا للوضع القائم ، قيل لهم إن هذا يدل على بطلان ماتذهبون إليه من أن الأفكار والأخلاق ليست إلا إنعكاسا للوضع الإقتصادى القائم . وبهذا يتبين أن المادية التاريخية كانت أحلاما راودت ماركس ، كشفت زيفها الأحداث التاريخية والبراهين العلمية .

---

(١) سورة الإنسان : (٢٩-٣٠) .

(٢) سورة آل عمران : (١٥٢) .

(٣) انظر التطور والثبات فى حياة البشرية (٤٠-٤١) .
وعن كون الإنسان فاقد الإرادة أمام التفسير المادى التاريخى انظر (٨٢-٨٣) .

يقـول الصدر : (إن المادية التاريخية تحكم على نفسهـا ، من ناحية أنها تعتبر كل نظرية انعكاسا محددا للواقع الموضوعى الذى تعيشه . ولاتعدو هى بدورهـا أيضا ، أن تكون نظـرية قد تبلورت فى ذهن إنسـانى ، عـاش ظروفا إجتمـاعية وإقتصادية معينة . فيجب أن تكون إنعكاسـا محددا لتلك الظروف ومتطـورة تبعا لتطورها ، ولايمكن أن تكون هى الحقيقـة الأبدية للتاريخ)[١].

الوجه الثانى عشر : زعم الشيوعيون أن المادية التاريخيـة نظرية علمية تؤيدها البراهين والوقائع والأحداث التاريخية .

وهـذا جعلهم يقعون فى التناقض ، كما أنه كشـف زيف فكرهم وأبان بطلانه ، ولو أنهم أبقوا عليها ـ المادية التاريخية ـ تأويلا للأحداث قد يصح وقـد يخطـىء لربما حقق الشيـوعيون شيئا من ورائها . ولايفـوتنا هنـا القول بأنهـم أرادوا مـن وراء المادية التـاريخية فـرض افكارهـم بالقـوة ليتسنى لهم التفريع على حسب مايخدم أهدافهم المادية الإلحادية .

إن الماركسيين قد جعلوا الأمور القابلة للتأويل نظريات وحقائق علمية بنـوا عليها مذهبهم ، وبالتالى فكيف يكون مذهبا علميـا؟!! يقول بوير : (إن المذهب التاريخى يفهم هذه التأويلات خطأ على أنهـا نظريات . وهذه إحدى مثـالبه الكبرى . فمـن الممكــن ، مثلا ، تأويل "التــاريخ" باعتبـاره تاريخ الصـراع بين الطبقـات ، أو تاريخ الصـراع بين الأجنـاس البشـرية من أجل السيـادة ، ومن الممكن تأويلـه باعتباره تاريخ الصراع بين الأفكـار الدينية ، أو بين المجتمـع "المفتـوح" والمجتمـع "المقفـل" ، أو باعتبـاره تاريخ التقـدم العلمـى والصنـاعى . وكل هـذه وجهات نظر تزيد أو تنقـص فى أهميتهـا ، ولااعتراض لنـا عليها من حيث هى تأويلات . ولكن التـاريخيين لايعرضونها من حيث هى كذلك ، ولايرون أن هنـاك بالضـرورة كثرة مــن التـأويلات المتسـاوية فى أسـاسها مـن حيـث قـدرتها على الإيحاء ، وكــذلك مـن حيـث إفتقـارها إلى الإلـزام (وإن تميز بعضهـا على البعـض بالخصـوبة ـ وهـذه نقطة جديرة بالإهتمام) .

---

(١) إقتصادنا (٦٢) ، وانظر الفكر الماركسى (٧٣) .

وإنما هم يعرضون هذه التأويلات على أنها مذاهب أو نظريات ، فيقررون أن "كل تاريخ فهو تاريخ الصراع بين الطبقات" ، أو ماإلى ذلك . وهم إذا اكتشفوا شيئا من الخصوبة فى وجهة النظر التى يأخذون بها ، فتبينوا أن كثيرا من الوقائع يمكن تنظيمها وتأويلها فى ضوئها ، فهموا ذلك خطأ على أنه تأييد لمذهبم ، بل برهان على صدقه .

ومن ناحية أخرى فالمؤرخون الكلاسيكيون الذين يعارضون بحق هذا الإتجاه قد يقعون فى خطأ من نوع آخر . فلأنهم يستهدفون الموضوعية فى أبحاثهم قد يشعرون بضرورة اجتنابهم كل وجهة نظر انتخابية ، ولكن لما كان ذلك أمرا مستحيلا ، فهم غالبا مايأخذون بوجهات نظر لايشعرون بها . وفى هذا مالابد أن يفسد عليهم سعيهم فى طلب الموضوعية . إذ لايمكن للمرء أن يقف من وجهة نظره موقفا نقديا يكشف له عن حدودها إلا إذا كان مدركا لها . ولامخرج لنا ، بالطبع ، من هذا المأزق إلا بأن نتبين ضرورة إتخاذنا وجهة نظر ما ؛ فيكون واجبنا أن نفصح عنها بوضوح ، ثم لايغيبن عن إدراكنا أبدا أنها ليست إلا وجهة واحدة من وجهات كثيرة غيرها ، وأنها حتى إذا بلغت إلى مرتبة النظرية ، فقد لايمكن اختبارها)[١].

الوجه الثالث عشر : أن المادية التاريخية جزء من المذهب التطورى الذى أخذ عينة فردية ثم عمم حكمها على بقية الأفراد .

وهذا خلط للمفاهيم العلمية ، وخروج عن الإلتزام بأصول المنهج العلمى ، كما أن وجود بعض مايؤيد النظرية أو المذهب فى عالم الواقع لايدل على صحتها وسلامتها . فما بالك إذا كان الواقع ملىء بالأحداث التى تصادم وتعارض تلك النظرية أو ذلك المذهب . وعلى هذا فإن المادية التاريخية تفتقد للمنهجية العلمية .

إن من أخطاء ماركس أنه يرجع إلى نزعة التعميم التى تجعله يتخذ من ملاحظة خاصة بحالة معينة مبدأ عاما يطبق ويسرى على جميع الحالات[٢].

---

(١) عقم المذهب التاريخى (١٨٠-١٨١) .

(٢) انظر : هزيمة الشيوعية فى عالم الإسلام (٦٥) ، الفكر الماركسى (٧٤) .

كما أن ماركس لنزعة التعميم التى كانت تمتلك أفكاره جعل قوانين الجدل التى سبق باستخدامها مطبقة على المجتمع الإنسانى ولم يقصر استخدامها على جانب دون آخر(١) مثل من سبقه . والحكم بالتعميم دون الاستقصاء ودراسة العينات كلها لايقبله منهج البحث العلمى فكيف يدعى الماركسيون علمية أفكارهم ؟!!

إن العلم يأتى على أفكارهم فيذرها قاعا صفصفا .

الوجه الرابع عشر : أن فكرة ماركس التطورية فى المادية التاريخية هى واحدة من الأحلام التى أراد تحقيقها حيث إن ماتنبأ به من زوال للطبقات ، وذهاب للدولة وتعايش الناس فى عالم يخلو من حب الذات والتملك لم ير النور بل سارت الأمور عكسه وخلاف اتجاهه . هذا بالإضافة إلى أن واقع الاتحاد السوفييتى كذب تلك النبؤات فكان يعج بالطبقات ، وكانت الدولة تقبض بيد من حديد على كل شىء ، ثم إن سقوط الشيوعية دليل على تهافت المادية التاريخية وبطلان مزاعمها التى قامت عليها .

الوجه الخامس عشر : الاضطراب فى تحديد وسائل الإنتاج ماهى؟ فلو كانت الماركسية تقوم على أصول ثابتة لما وقع لها هذا الاضطراب والتناقض فى أصولها وأساسياتها التى تنطلق منها وتفرع عليها .

فمرة يقول ماركس : (إن طاحون الريح تعطيك مجتمعا يتولاه سيد الإقطاع ، وطاحون البخار يعطيك مجتمعا يتولاه صاحب رأس المال فى الصناعة) . وعلى هذا الأساس فوسائل الإنتاج هى التى تنتج الطبقة .

ومرة يقول : (إن الطبقة البرجوازية لايمكن أن توجد بغير تطور دائم فى أدوات الإنتاج)(٢).

---

(١) انظر ماذكره سيد قطب ـ عن تعميمه وعدم إقتصاره على من سبقه ممن استخدم مبادىء الجدل ـ فى كتابه خصائص التصور الإسلامى (١٣٤-١٣٥) .

(٢) نقلا من كتاب الكيد الأحمر (٣٨٨) .

وعلى هذا فإن الطبقة هى التى تنشىء وسائل الإنتاج .

الوجه السادس عشر : أن الماركسيين قد أغفلوا النظريات التى تنقض مايذهبون إليه ، أو قاموا بالرد عليها واتهام أصحابها ، فهم لاينظرون إلا بعين واحدة وإلى نظرية واحدة هى تلك المادية هذا بالإضافة إلى أنهم فرضوا نظريتهم بالقوة مما يدل على أن مسألة القناعة كانت مفقودة فى النظريات الماركسية بما فيها المادية التاريخية .

يقول دجيلاس : (ولامشاحة فى أن المادية التاريخية هى أكثر النظريات العالمية المعاصرة انطوائية فى نفوس معتنقيها ، إذ تجعل من المستحيل عليهم أن يولوا نظرهم أية نظرية ماعداها ، ولاسيما فى البلدان التى غدت فيها مذهب الدولة ، إذ غدت مرتبطة بوشائج معينة لأشكال من التملك والحكم ... مما يحدو القائمين على الجهاز الحكومى إلى غرسها غرسا فى نفوس المواطنين ، بضروب من التطبيق العملى ، لم يعرف له تاريخ الفكر البشرى نظيرا من الاضطهاد للفكر البشرى وسحقه)(١).

ويقول هادى المدرسى : (إن أولى المآخذ على الماركسيين أنهم لايطالعون ـ أولايريدون هم أن يطالعوا ـ أية أيديولوجية أخرى تتناول الحياة ، والتاريخ ، والإنسان ، سوى الأيديولوجية الماركسية)(٢).

وهم بهذا يدللون على تعصبهم وعدم منطقيتهم وعلميتهم ، حيث رفضوا النظريات الأخرى ، وفرضوا القبول بنظرياتهم وتفسيراتهم المادية التاريخية للإنسان والدين والأخلاق والأسرة بالقوة . وفى هذا دليل أيضا على الاعتراف ضمنا بأن العقول السليمة ، والفطر المعتدلة ، سترفض ماتدعو إليه الماركسية ، ولأجل ذلك كان أعداء الماركسية كثيرون حتى من الذين آمنوا بها فى أول أمرها ، بل وشاركوا فى قيادة الثورة البلشفية التطبيق العلمى للفكر الماركسى(٣).

---

(١) الطبقة الجديدة (١٧٠) .

(٢) نقد النظرية الماركسية (١٤) .

(٣) ألف لينين كتابا أسماه الماركسية والنزعة التحريفية .

الوجه السابع عشر : أن زعم الماركسية بأن تطور وسائل الإنتاج يؤدى إلى التغير فى الأفكار والأخلاق والأنظمة الإجتماعية القائمة من أسرة وغيرها يبطله الواقع وكثير من الحقائق ، ويصور الصدر ذلك ويبين أن هذا التطور لم يقع على كل شىء - رغم تطور وسائل الإنتاج - ومن ذلك الفكر واللغة ، حيث يقول : (كيف مارس الإنسان عملية الإنتاج ، ونشأت فى حياته ، ولم تنشأ فى حياة أى كائن حى آخر؟.

نحن نعلم من عقيدة الماركسية ، أنها تؤمن بالإنتاج قاعدة رئسية للمجتمع يقوم على أساسها الوضع الإقتصادى ، وتبتنى على الوضع الإقتصادى كل الأوضاع الأخرى . ولكنها لم تكلف نفسها أن تقف قليلا عند الإنتاج نفسه ، لتفسر : كيف وجد الإنتاج فى حياة الإنسان؟. فإذا كان الإنتاج يصلح لتفسير نشوء المجتمع ، وكل علاقاته وظواهره ، أفليس للإنتاج نفسه شروط تصلح لتفسير وجوده ونشوئه؟.

إن بالإمكان الجواب على ذلك ، إذا عرفنا ماهو الإنتاج . إن الإنتاج - كما تعرفه لنا الماركسية - عملية كفاح ضد الطبيعة ، يشترك فيها مجموعة من الناس ، لإنتاج حاجاتهم المادية ، وتقوم على أساسها كل العلاقات . فهى إذن عملية يقوم بها عدد من الناس ، لتغيير الطبيعة ، وجعلها بالشكل الذى يوافق حاجاتهم ويشبع رغباتهم . وعملية تغيير كهذه ، يقوم بها عدد من الناس ، لايمكن أن توجد تاريخيا ، مالم تسبقها شروط معينة ، يمكن تلخيصها فى أمرين جوهريين :

أحدهما : "الفكر" ، فإن الكائن الحى لايستطيع أن يغير من شكل الطبيعة بقصد إشباع حاجاته ، فيجعل الحنطة دقيقا ، أو الدقيق خبزا .. مالم يكن يملك فكرا عن الشكل الذى سوف يمنحه للطبيعة ، فعملية التغيير لايمكن أن تنفصل بحال ، عن التفكير فيما ستتمخض عنه العملية من أشكال وأوضاع للطبيعة لاتزال فى ابتداء العمل غيبية . ولأجل هذا لم يكن من الممكن للحيوان ، أن يقوم بعملية إنتاج ، عملية تغيير حاسم للطبيعة.

والأمـر الآخر : هو اللغة بوصفهـا المظهر المادى للفكـر ، الـذى يتيح للمشتركين فى عمليـة الإنتـاج أن يتفاهموا ، ويتخذوا مـوقفا مـوحدا خلال العمليـة فما لم يملك كل منتـج أداة التعبير عن فكره ، وتفهـم أفكار شركائه فى العمـل لايستطيـع أن ينتـج . وهكـذا نجد ـ بوضـوح ـ أن الفكـر ـ بأى درجة كـان ـ يجب أن يسبـق عمليـة الإنتـاج ، وأن اللغـة ليسـت نابعة من عمليـة الإنتـاج ، كما تنبع كـل العلاقـات والظواهر الإجتمـاعية ، فى زعـم الماركسيـة .. وإنما تنبع من الحاجة إلى تبادل الأفكار ، بوصفهـا المظهر المادى للفكـر . فلم تنشأ اللغة ـ إذن ـ مـن القاعدة الرئيسيـة المزعومة ، من عملية الإنتـاج ، بالرغم من أنها أهـم ظاهرة إجتماعية على الإطلاق .. وإنما كـانت هى الشرط الضرورى تاريخيا ، فى وجود هـذه القاعدة المزعـومة وأكبر دليل يمكننا أن نقدمه على ذلك ، هو استقلال اللغة فى تطـورها عن الإنتاج وقواه .. فلـو كـانت اللغـة وليدة الإنتـاج ، وليـدة القـاعدة المزعـومة ، لتطـورت وتغيرت ، تبعـا لتطور أشكال الإنتاج وتغيرها ، كما تتغير تبعـا لذلك جميع الظـواهر والعلاقـات الإجتمـاعية . فى رأى الماركسيـــة ، ولايوجد مـاركسى واحد ـ وحتى ستالين ـ يجرأ على القول : بأن اللغة الروسية ـ مثلا ـ تغيرت بعد الثورة الإشتراكية ، وتبدلت إلى لغة جديدة ، أو أن الآلة البخارية التى غيرت القاعدة الأساسية للمجتمع ، وأحدثت ثورة كبرى فى أسلـوب الإنتاج قد جاءت بلغة جديدة للانجليز ، غير اللغة التى كانوا يتكلمـون بها قبل ذلك فالتاريخ يؤكد ـ إذن ـ أن اللغـــة مستقلـة عـن الإنتـــاج ، فى استمـــراريتها وتطورها . وليس ذلك إلا لأنها لم تنبع من هذا الشكل أو ذاك ، من أشكال الإنتـاج ، وإنما نبعـت عـن فكر وحاجة هما أعمق وأسبـق مـن كل ممارسة للإنتاج الإجتماعى مهما كان شكلها)[١].

---

(١) إقتصادنا (١٠٣-١٠٥) .

الوجه الثامن عشر : من الأمور التى تعجز الماركسية عن تفسيرها تطور القوى المنتجة (التى يتطور التاريخ تبعا لتطورها . كيف تتطور هذه القوى؟ وماهى العوامل التى تسيطر على تطورها وتكاملها؟ ، ولماذا لاتكون هذه العوامل هى القوة العليا التى تتحكم فى التاريخ ، بدلا عن القوى المنتجة الخاضعة لتلك العوامل ، فى نموها وتكاملها؟)(١).

وبعدأن أورد الصدر هذه التساؤلات يقول : (إن التجارب الطبيعية ، لاتقدم إلى الإنسان إلا المواد الخام ، ولاتتحفه إلا بالتصورات الحسية لمضمون التجربة . وهذه المواد والتصورات تبقى غير ذات معنى ، لو لم تصادف فى ذهن معين ، الشروط الطبيعية والسيكولوجية الخاصة ، وهو ذهن الإنسان ، الذى يملك ـ دون سائر الحيوانات التى تشترك معه فى التصور والإحساس ـ قدرة عقلية على الإستنتاج والتحليل ، ومعارف ضرورية لاتخضع للتجربة ، يأخذ الإنسان بتطبيقها على المواد الخام التى يستوردها عن طريق التجربة ، فينتهى إلى نتائج جديدة . وكلما تكررت عمليات الإستنتاج وتكامل رصيدها إزدادت خصبا وثراء . فلم تكن قوى الطبيعة المنتجة ، هى التى تشق ـ بمفردها ـ طريق تكاملها ونموها ، أو تولد عوامل تطورها واغتنائها ، وإنما تولد الإحساسات والتصورات فحسب . فليس تطورها ـ إذن ـ ديالكتيكيا ذاتيا ، وليست القوة الإيجابية التى تطورها منبثقة عنها وهكذا تصبح قوى الإنتاج محكومة لعامل أعلى منها درجة فى تسلسل التاريخ)(٢).

الوجه التاسع عشر : من أعظم مايرد به على المادية التاريخية وأصحابها وبيان فسادها ، وأنها قامت على أساس خال من البرهان هو الواقع الذى قامت فيه الثورة الإشتراكية ، فقيامها فى الاتحاد السوفييتى ذلك البلد المتخلف يقضى عل مسألة أن التغير لايقع إلا مع تطور وسائل الإنتاج وقيامها بإراقة الدماء والعنف يقضى على مسألة الحتمية التاريخية ، وهكذا فإن الواقع

---

(١) إقتصادنا (١٠٣) .
(٢) المرجع السابق (١٠٢-١٠٣) .

يصادر كل ماجاءت به النظرية الماركسية مخالفا للحقائق العلمية وليست الماركسية إلا نظريات وأوهام بنيت على مجموعة من الأحلام .

إن الماركسية ترى أن التحول والتغير لايكون إلا بالتغير فى البناء التحتى . يقول حجى : (كيف تبرر الثورة الروسية على ضوء أساسيات المادية التاريخية التى تفترض أن تغيرات البناء العلوى ماهى بأى شكل من الأشكال ـ الامحض ترجمة لتغيرات جذرية ـ سابقة ـ فى البناء التحتى "قوى علاقات الإنتاج"؟)[١].

ودل ذلك على عدم إطراد قواعد المذهب التاريخى فى المجال النظرى ، فضلا عن أنه فشل فى التطبيق ، هذا عدا أن الدول الرأسمالية الغربية مازالت على نظامها فى حين أن الأحزاب الشيوعية بها تراجعت وتخلت عن كثير من توجهاتها السياسية المأخوذة من الفكرة المادية الماركسية[٢].

ويتوجب علينا أن نضع فى الحسبان أن الإشتراكيين يرون أن التطبيق هو اختبار صحة النظرية .

يقول ماو : (إن نظريةالمعرفة فى المادية الديالكتيكية تضع التطبيق فى المقام الأول) .

ويقول بولتزير : (من المهم إذن أن نفهم معنى وحدة النظرية والتطبيق)[٣].

وعلى هذا فإن قيام الثورة البلشفية فى روسيا دل على بطلان النظرية الماركسية التاريخية جملة وتفصيلا[٤].

كما أن قيام الإشتراكية ـ فى بلدان أوروبا الشرقية دل على بطلان الحتمية التاريخية بكل أبعادها . حيث لم تنفجر الثورة من داخل تلك البلاد بل فرضت عليها من الخارج وبالقوة . ويذكر طارق حجى عدة أمور تبطل

---

(١) أفكار ماركسية فى الميزان (٦٠) .
(٢) انظر : الفكر المادى فى ميزان الإسلام (٧٨-٧٩) ، إفلاس الماركسية (٢٥-٢٦) .
(٣) نقلا من كتاب إقتصادنا (٩١) .
(٤) لمزيد عن ذلك انظر المرجع السابق (٩١) ومابعدها .

المادية التاريخية من جراء قيام الإشتراكية فى بلدان أوروبا الشرقية وهى :

(* أن تحول هذه البلدان للإشتراكية لم يأت منطبقا ولامتسقا مع التنظير الماركسى لكيفية التحول - الموضوعى - للإشتراكية .

* أن تحول هذه البلدان للإشتراكية جاء نتيجة مباشرة لعامل خارجى أساسى ، هو الوجود العسكرى السوفييتى بتلك البلدان عند نهاية الحرب العالمية الثانية .

* أن بقاء النظام الإشتراكى - إقتصاديا وسياسيا وإجتماعيا - بتلك البلدان أمر مرهون بالهيمنة السوفيتية - العسكرية فى المقام الأول)(١).

ثم إن الأحداث اللاحقة تبرهن على فساد النظرية الماركسية ، فبعد تطبيق الأفكار الماركسية فى الاتحاد السوفييتى بالقوة زمن لينين وستالين ، جاء من بعدهم وندد بفساد الحكم ، والظلم ، والاستغلال وخاصة أيام ستالين(٢). مما يدل على أن الفكر لم يحقق ماكان يعد به ، وكذبه الواقع وبطلت نبؤات ماركس أمام التطبيق الفعلى لأفكاره . وجاءت التصريحات على ألسنة القادة السوفييت بعدم صلاح الفكر الماركسى للتطبيق إما مباشرة ، أو بطريق غير

---

(١) أفكار ماركسية فى الميزان (٦٠-٦١) .
وقد ذكر المؤلف تلك الأمور بشىء من التوسع فى الصفحات التالية : الأمر الأول (٦١-٦٢) ، الأمر الثانى (٦٢-٦٤) ، الأمر الثالث (٦٤-٦٥) .
وانظر إقتصادنا (٩٢-٩٣) حيث ذكر مؤلفه أن الدول الإشتراكية انقسمت إلى قسمين و(جاء التطبيق فى كل منهما بعيدا عن النظرية ونبؤاتها العلمية ، وماحددته من قوانين لمجرى التاريخ وتياراته الإجتماعية) .
فالقسم الأول : البلاد التى فرض عليها الفكر الإشتراكى بالقوة كدول أوروبا الشرقية .
والقسم الثانى : قيام الثورات الإشتراكية فيها ولكن دون أن تجسد فيها القوانين الماركسية .
كذلك كان قيام الثورة الإشتراكية فى الصين لايمت إلى النظرية الماركسية بصلة . انظر إقتصادنا (٩٤) .

(٢) انظر الفكر الماركسى (٧٦) ومابعدها .

مباشر وذلك بإجراء العدولات عن المبادىء الماركسية التى أقام عليها فلسفته المادية .

هـذا بالإضافة إلى أن دول أوروبا الغربية وواقعهـا يبطـل المزاعـم الماركسيـة بشأن المادية التـاريخية . حيث جاءت النتائج على خلاف مـاذكره ماركس ، سواء فى قيام الثـورة ، أو فى إنتشـار الفكـر المادى[١]، أو فى ربط الأخلاق بوسائل الإنتاج وتطورها[٢]، إلى غير ذلك من تنبؤاته .

وأيضـا فإن دول العالم الثـالث تبطل مزاعم المادية التـاريخية حيـث لم يعـرف أن هذه البلدان التى قـامت فيها الثورة كانت تعـرف معلمـا من معالم النظام الرأسمالى[٣]. وهكذا يتضح أن المادية التاريخية ليسـت إلا مجموعة من الأوهـام والتخيلات ، كـانت فى ذهـن صـاحبها أراد تطبيقهـا على التـاريخ الإنسانى إلا أن الواقع والأحداث التاريخية والبراهين العلميـة أبطلتها وأبانت كذبها وزيفها[٤].

الوجه العشـرون : أن الـدين الإسلامـى بعقيدته وتشريعـاته ، وقيـامه يبطـل مزاعم المادية التاريخيـة ويأتى عليها من البنيـان فيذرها قاعا صفصفا .

(أ) تحدى الإسلام المادية التـاريخية فى مسـألة المســاواة - التى ترى الشيوعية بأنها ستتحقق إذا بلغت البشرية طورا تاريخيـا محددا - حيث جاءت تشريعاته تدعو إلى المساواة دون أن تكون تلك الدعوة مستوحاه من وسـائل الإنتــاج البرجوازى والتى لم تظهـر إلا بعـد ألـف سنــة مـن إقـرار الإسلام للمساواة والدعوة إليها .

(ب) كمـا تحدى الإسلام منطق المادية التـاريخية وحسـاباتها حينما بشر بمجتمع عالمى يجمع الإنسانية كلها على صعيد واحد ، يحمل على ذلك فى بيئة كانت تعج بالصراع القبلى ، والمجتمعـات العشـائرية المتنـاقضة فقفـز بها إلى

---

(١) انظر إقتصادنا (١١٧-١١٩) .
(٢) انظر موقف الدين من العلم (١٥١) .
(٣) انظر أفكار ماركسية فى الميزان (١٧٦) .
(٤) لمزيد عن بيان بطلان المادية التاريخية انظر إقتصادنا (٦٨-٩٠) .

وحدة إنسانية كبرى . وتسامى بالمجتمع القبلى الذى تحده حدود الدم والقرابة والجوار ، إلى فكرة المجتمع الذى لايخضع لشىء من تلك الحدود ، فأى أداة إنتاج حولت أولئك إلى أئمة المجتمع العالمى فى فترة قصيرة .

(ج) كذلك تحدى الإسلام منطق المادية التاريخية فيما أقامه من علاقات التوزيع - والذى لم يكن بمقدور الإشتراكية أن تحققه إلا بعد أن يبلغ المجتمع درجة معينة من المرحلة الصناعية - حيث هذب مفهوم الملكية الفردية ، ووضع لها الحدود والقيود ، وفرض عليها كفالة الفقراء(١).

ثم إن حدوث الإنقلاب فى مكة - علما بوجود غيرها من البلاد أقرب لهذا الإنقلاب لو أخذنا الاعتبارات الماركسية فى الإنقلابات والتغييرات التى تحصل فى المجتمع بناء على تطوره ، وتطور وسائل إنتاجه - يبطل مزاعم المادية التاريخية من أساسها . ولم يكن الإقتصاد الجاهلى أو علاقات الإنتاج الموجودة فى مكة هى السبب فى نزول القرآن الكريم .

الوجه الحادى والعشرون : أن النظريات الماركسية ، والآراء التى نادى بها دعاة الشيوعية ، من عدم اعتراف إلا بما هو محسوس وإنكار كل أمر غيبى ، وبالتالى إنكار وجود الإله لم يعد ينهض أمام الحقائق العلمية والبراهين العقلية والاعترافات حتى من دعاة من عاش ردحا من الزمن تحت وطأة الأفكار الإلحادية(٢).

كما أن تقديس المادة ، والقول بأبديتها وأزليتها أصبح أمرا منهارا أمام المكتشفات الحديثة مما يجعل مهمة نقد المادية أمرا سهلا حيث لم يعد الواقع والمشاهد يصدق شيئا من الآراء التى قيلت عنها ، والأكبر من ذلك هو إنهيار الاتحاد السوفييتى ذلك الكيان الذى قام على الفكر الماركسى مما يدل على بطلان تلك الفلسفة وتهافتها .

---

(١) انظر إقتصادنا (٣٢١-٢٢٣) .
(٢) انظر نقد العقل المحض (٤٠٤) .

وبهذا نختم البراهين التى ينتقض بها المذهب المادى التاريخى على أننا لم نكن نقصد الاستقصاء حول نقضه ولكن أردنا أن نبرهن على أن الأساس الفلسفى الذى قامت عليه الأفكار الإشتراكية لايستقيم فكان لابد من أن ينهار البناء الذى قام عليها لأن ماكان أساسه فاسدا فإن مايبنى على هذا الأساس أكثر فسادا .

إن الحصيلة التى خرجت بها النظرية من جراء تطبيقها موت مئات الآلاف من الناس وهروب الكثير من جحيم الشيوعية إلى البلاد المجاورة . والتأخر التكنولوجى والصناعى والزراعى ، وتفشى الفقر والفاقة ، وعدم حصول الإنسان على أبسط حقوقه المادية والمعنوية ، كما تفشت الطبقية بشكل لم يسبق له مثيل ، ومورست الدكتاتورية بكل ماتعنيه من معانيها وتفكك الشعب بسبب الأفكار المادية الإلحادية ، والنظريات الشيوعية فيما يتعلق بالأسرة والأطفال . ويصور فارغا تفكك الشعب ووجود الطبقات فيه بسبب المادية فيقول : (إن أخلاق المجتمع تتولد فى خاتمة المطاف عن المبادىء المادية والأيديولوجية التى تسير البلاد . فالأخلاق الدينية القديمة التى كانت تحث على عمل الخير وعلى إحقاق العدالة لكسب الحياة الأبدية فقدت اعتبارها فى نظر غالبية أعضاء المجتمع الجديد ، بالرغم من أن الدعاية الأيديولوجية الرسمية بتجريدها البارد ، تدفع ببعضهم إلى الخضوع لإغراء منظومة الرموز الدينية القديمة . وبالمقابل فإن الأخلاق الجديدة المادية النزعة غير محللة ومعمقة على الصعيد النظرى ، وغير مبنية على أسس سليمة من وجهة النظر الفلسفية والتاريخية ... وفى كثير من الأحيان تشجع العلاقات المتحكمة بالمجتمع السوفييتى على انبعاث مخلفات أو أفعال لاأخلاقية . فمن جهة أولى ، تخلق البحبوحة المادية ورفاهية الحياة ، اللتان ترتع فيهما أرستقراطية الحزب البيروقراطية ، لدى أصحاب الامتيازات من أهل المدونة وبوجه خاص لدى أعضاء أسرهم ، الصلف والعجب بالذات فى كثير من الأحيان ، وكذلك الفساد والانحراف ، وتدفعان بهم إلى الرغبة فى الحصول

على المزيد دوما ، وإلى استغلال معدات الدولة واستهلاكها ، وإلى إطلاق العنان لشهواتهم الجامحة التى تقودهم أحيانا إلى الجريمة ، وقد تحدثت الصحافة عن "تعفن" بعض الشبان ، ممن أفسدهم وأضلهم فرط الغنى ، وقد تنهشهم الألسنة بين الحين والآخر ، وقد يدانون بين الفينة والأخرى ، لكن ذلك لايبدل شيئا فى الوضع .

ومن الجهة المقابلة ، كثيرا ماتدفع رقة الحال المادية بشغيلة المدينة والريف إلى تحسين مستوى حياتهم البالغ الانخفاض عن طريق السرقة ، وهذا مايؤدى أيضا إلى انحطاطهم الأخلاقى الذى يجد تعبيره فى العديد من الظاهرات المستهجنة : السكر ، إساءة معاملة الزوجات والأولاد ، المشاحنات العائلية ، رفض العمل ، الجنوح ، وأحيانا الإجرام الأرق . وليس الغريب فحسب أن ينغص رجال غارقون فى بؤس مدقع الحياة على أفراد أسرهم ، أو أن يقترفوا الجرائم ، بل الغريب أيضا أن يقدم رجال يشغلون وظيفة مناسبة ويتقاضون فى كثير من الأحيان أجورا طيبة على هجر الزوجات والأطفال ، وأحيانا على إشهار السكاكين لاعن عجز وإملاق وإنما عن ضعف تربية وحطة أخلاقية . وقد يصل الأمر أحيانا إلى تخوم الحيوانية والسادية ، فقد سمعنا على سبيل المثال بشخصين كانا يلعبان بالورق على حياة المرأة أو الزوار .

وقد يبدو أن الوضع ليس على هذا القدر من التدهور بالنسبة إلى الشرائح المتوسطة من المجتمع السوفييتى التى يظل مستوى حياتها متواضعا والتى تكسب فى الوقت نفسه مافيه الكفاية لتكفل لأسرها حياة لائقة ، والحال أنه إنما فى الوجدان الأخلاقى لهذه الفئة تتجلى بصورة ساطعة سمة سلبية أخرى من سمات الحياة السوفيتية : إنعدام الروح الديمقراطية الحقة والحس المجتمعين . وهذا مايحمل أولئك الناس على الانزواء فى عالم المصالح الخاصة ، العائلية، وعلى التطلع إلى حياةبورجوازية صغيرة . فالشاغل الأول للمواطن السوفييتى العادى ، فيما عدا عمله ، أن يشترى أقصى حد ممكن من السلع الاستهلاكية ، وأن تكون له شقة جميلة ، وفسحة من الأرض

لعزبته ، وجهاز تلفزيون ، وملابس ...الخ وهو يدخر المال ويتباهى بذلك أمام أقاربه وجيرانه ، والواقع أن أصحاب هذه العقلية هم الذين يمثلون البورجوازية الصغيرة السوفيتية[١].

لقد عجزت النظرية الماركسية عند تطبيقها عن تحقيق مايصبو إليه الإنسان ولاغرابة فى ذلك العجز ، حيث إنها منعت الإنسان من أبسط حقوقه كما صادرت فيه الروحانية وأغرقته بالمادية ، والنفس الإنسانية تتوق إلى الروحانية ، ولأجل ذلك جاءت شريعة الإسلام تنظر إلى الإنسان على هذا الأساس المتناسق القائم على اعتبار الوجهين[٢].

إن الماركسية قامت على أساس مادى ، وعلى هذا الأساس فلايمكن اعتبارها الفلسفة الوحيدة الصحيحة[٣].

كما قامت الشيوعية وهى تهدف إلى القضاء على الدين ونشر الإباحية والرذيلة ومصادمة الفطرة بأنواعها ، ومعارضة الحقائق العلمية ظنا منها بأنها ستصل إلى تحقيق العالم الذى حلم به ماركس . يقول العوف : (إن الشيوعية تستهدف هدم الكيان الإجتماعى القائم على اختلاف أشكاله وألوانه وعلى تباين اتجاهاته ونماذجه ، هدما كليا ، يرمى إلى تحطيم كل ماتعرف عليه البشر ، أو توصل إليه من نظم وأفكار ومذاهب وعقائد ، بل هى أيضا تتعمد هدم القيم والمبادىء والفضائل والأخلاق ، زاعمة أنها ستقيم بعد ذلك مجتمعا مثاليا جديدا ، تذوب فيه الطبقات والأجناس والعروق والقوميات ، وتسود فيه طبقة واحدة ، هى طبقة البروليتاريا ، أى طبقة العمال والفلاحين ذات الطابع الإجتماعى ، الذى لايكون فيه سيد ومسود ، ولاحاكم ولامحكوم)[٤].

---

(١) الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٧٤-٧٦) .

(٢) انظر عن تلك المسألة : فلسفتنا (٣٨٩) ، الفكر الماركسى (٨٣) ، نظام الحياة فى الإسلام (٧٦-٧٧) .

(٣) انظر الإشتراكية العربية (١٣٩) .

(٤) إشتراكيتهم وإسلامنا (٣٠) .

غير أن هذه النبوأت كشف زيفها الواقع ، والبرهان العلمى والعقلى ، والحدث التاريخى ، فأضحت هذه النبؤات معلومة الفساد لقواد الثورة البلشفية قبل غيرهم وقد أدى ذلك الفساد إلى زعزعة الثقة فى الفكر الماركسى بأكمله مما كان له أثر بالغ فى النفوس ، وكان هذا الأثر يزداد يوما بعد يوم ، مما جعل النظرية تفقد بريقها ، ويخطئها أهلها ، ومع مرور الوقت غدا هذا الفساد أحد العوامل التى أدت إلى الإنهيار التدريجى فى بناء النظرية الماركسية ، وبالتالى الدولة الشيوعية التى قامت على تطبيقه .

أثر ذلك الفساد فى سقوط الشيوعية :

قامت الشيوعية على أكتاف العمال وبتضحياتهم بدون أدنى شك ، وكان جهدهم هذا نظير ماتلقوه من وعود براقة ، وأحلام تجاوزت الخيالات ومع ذلك فقد عملوا لها كثيرا وقدموا من أجلها جهدا كبيرا ، أملا فى تحقق تلك الوعود . فبدأ لينين بتطبيق ذلك الفكر النظرى على الطبيعة فى دولة روسيا فحصل الخلل منذ اللحظة الأولى ولولا شدة الاندفاع لماتت الشيوعية فى مهدها .

فلم تستجب الشعوب لكثير من الأفكار بسهولة فكان لابد من استخدام القوة .

تلك القوة التى جعلها ماركس تستخدم ضد الأعداء "الرأسماليين" لاضد الطبقة العاملة المضطهدة .

ففرض التأميم بالقوة ، وصودرت التوجهات الدينية بالإعدام والتشريد وانتشرت المجاعة بسبب الفكر الجديد ، فبدأت الصورة التى كانت مرسومة من قبل الثورة تتزعزع وخاصة فى صفوف المفكرين والمثقفين ومن هنا بدأ الانشقاق فى الصف الشيوعى ، وبدأت الظنون تساور الكثيرين وقام العداء بين الأيدى التى كانت واحدة فى تفجير الثورة . ففساد النبؤات الماركسية ، ومعارضة الواقع لهذه النظريات ، وعدم صلاح الأوضاع ، وبطلان كثير من

الحتميات ، أدى إلى فقدان الثقة فى صلاح هذه النظرية منذ السنوات الأولى ولكن كان السيف مصلتا ، والجلاد ينتظر ، ومجاهل سيبريا متعطشة لأعداء الثورة ، ومن هنا سكت كثير من الناس ، وألجمهم الخوف عن الإفصاح .. تهاوت الحتميات ، وفسدت النظريات ، وماتت النبوءات ، فكان لابد من فقدان الثقة فى الوعود التى أعطتها الشيوعية ، وكانت عمليات الترقيع للفكر لينسجم مع الواقع وماكان بالإمكان أن يتم ذلك إلا بالكفر ببعض أجزاء النظرية وعلى قدر مايشعر الزعيم بالخوف على قدر مايعلن تراجعه عن أكبر قدر من الفكر الماركسى ويتخذ فكرا جديدا يحقق شيئا من رضاء الشعوب فى الاتحاد السوفييتى .

إن القوة والتراجع ، هما اللذان أبقيا هذه السنوات على الشيوعية ، وإلا فإن الزعماء السوفييت داسوا النظرية الشيوعية (المادية الجدلية ، والتاريخية) بأقدامهم ، وإن لم يكن ذلك بطريق مباشر فإن أفعالهم دلت على كفرانهم بها .

لقد كان لفساد النظرية الشيوعية ، ومخالفتها للحقائق العلمية ، أثرا فى نبذها ومحاولة الخروج من أسرها ، ولأجل ذلك رأينا منذ السنين الأولى من أولئك الذين كانوا متعطشين للفكر الماركسى ومنافحين عنه يعلنون كفرهم به وماذلك إلا لأن الفكر النظرى عند التمحيص بالواقع أصبح بعيدا عن الحقيقة كما بعد مابين المشرقين .

فبدأ الصد عن الماركسية وفكرها ، وبدأ التمرد على الشيوعية وتطبيقها نظرا لكونها لم تحقق شيئا .

لقد كان الواقع مبطلا لأكثر الآراء الماركسية من عشية تفجير الثورة البلشفية ووقوعها فى روسيا ، حتمية الصراع مع الرأسماليين وكونها حدثت دون المرور بهذه المرحلة ، السلم مع الأعداء وعقد صلح بريست ، التراجع فى مسألة الإقتصاد ، القضاء على الملكية بالقوة لأنه أمر فطرى فى النفس البشرية - ولم يتنازل الناس عن ملكياتهم بل تمسكوا بها - وهكذا دواليك بقية الآراء التى حلم بها ماركس .

إن هـذا الفسـاد الفكرى هـو الذى حمل القادة الشيـوعيين منـذ زمن لينين على التعـديل والتراجع فيـه لأنهـم لم يستطيعـوا العمـل به فـأخذ كـل واحد منهم يعدل ويتراجع بالقدر الذى يرى أنه سيضمن له سكوت الشعب فترة مـن الزمن ، إلى أن نفـذ صبره ، فأعلن التمرد الكـامل على هذا الفكر الفـاسد . وإذا كانت الشيوعيـة بدأت بقوة وفرضت هذا الفكـر فى جامعاتها ومـدارسها فإنها فى فترة لاحقـة ألغت تدريس هذا الفكـر فى جامعـات الاتحاد السوفييتى ، وذلك (معناه الحكم على هذه الأيدلوجية بالتهافت والبوار وبأنها ـ على حد تعبير أحد البـاحثين ـ فلسفـة رجعية لم تعـد تلائم ظروف العصر وبأنهـا أفكار بالية لم تثبت صحتها أمام التجربة التى امتـدت أكثر من سبعين عاما فى شكل نظام سياسى قـام أسـاسا على هـذه الأفكـار ومعنى ذلـك أن العقيـدة التى جعلـت مـن الإلحاد ركيزة لهـا : عقيـدة فـاسدة حتى وإن تأخر إثبات فسادها كل هذه السنوات)[١].

لقـد استحال تطبيق هذا الفكر فى الواقع لتعارضه مـع الفطرة الإنسانية ومخالفتـه للسنن الـربانية ، وتصـادمه مع الحقائق العلميـة والحيـاة الواقعية ، ومـن خلال الفصـل القادم سيتبين لنـا أثر هذا الفسـاد فى سقـوط الشيوعية حيـث تراجع كل زعيم عن قدر من الفكر ، إلى أن حكـم عليه غورباتشوف بالبطلان تحت مطالبة الشعب وإلحاحه فى الخروج من نير هذا الفكر الباطل .

وبعد هذا العرض أصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن الماركسية قامت على أفكار نظرية ، وتخيلات سطـرها ماركس على أنهـا حقائق علمية ، بناها على جزئيات صغيرة لايتحقـق فى مجال البحث العلمى عن طريقها شيئا .

ثانيا : أن المادية الجدليـة ، والمادية التـاريخية قـد أبطلهـا الشـرع ، والعقل ، والعلم ، والواقع .

---

(١) مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية (٢٥) .

ثالثا : أن واقـع الاتحاد السـوفييتى ودول أوربا الشـرقية يدل دلالـة واضحة على بطلان النظريات الماركسية ، حيث لم تقم فيها الإشتراكية حسب التصور الذى رسمته النظرية .

رابعا : شدة التناقض فى النظرية الماركسية ، بين أفكارها وبين تطبيقاتها وهذا له أثر كبير على مقدار الإيمان بها والعمل من أجلها .

خامسا : أن مزاعم الماركسيين حول تقديس المادة ، وأزليتهـا وأبديتها وقـوانينها ، أبطلهـا العلم الحديث ولم يعـد لهـا مـاكان فى نفـوس الماركسيين وبالتـالى فإن مابناه ماركس على أسـاسها مصيره البطلان والفسـاد ، فإن فساد الأصل فساد للفرع .

سادسا : أن سقـوط الشيوعية الماركسيـة ، وإنهيار الاتحاد السـوفييتى . فيـه أبلغ دليل على فساد النظـريات الماركسية وتهافتهـا ، وسقوط حتمياتها ، كما أن فيه أبلغ رد على المتمسكين بذلك الفكر ونظرياته فى الوقت الحاضر .

سابعا : أن فسـاد النبـؤات الماركسيـة ، وكشف الواقـع عـن بطلانها ، وعـدم سير التـاريخ الإنسـانى على حسـب أفكـارها ، ثم عــدم تمكـن القـادة السـوفييت من تطبيقها وإقناع النـاس بها ، أدى إلى زعـزعة الثقة فيها ، ثم التراجع مـن قبـل القادة السـوفييت فى مبـادئها ، ممـا كـان لـه أثر كبير فى إنهيـارها وهـذا ماستزيده إيضـاحا مـن خلال حديثنا فى الفصـل التـالى عـن تناقضها ومصادمتها للواقع .

الفصل الخامس
مصادمتها للواقع والتغيير في مبادئها

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد .

المبحث الأول : التراجع والتغيير زمن لينين .

المبحث الثاني : التراجع والتغيير زمن ستالين .

المبحث الثالث : التراجع والتغيير زمن خروشوف .

المبحث الرابع : التراجع والتغيير زمن بريجنيف .

المبحث الخامس : التراجع والتغيير زمن اندروبوف .

المبحث السادس : التراجع والتغيير زمن تشرنينكو .

المبحث السابع : التراجع والتغيير زمن غورباتشوف .

الفصل الخامس
مصادمتها للواقع والتغيير فى مبادئها

تمهيد :

إن المحك الحقيقى لاختبار مصداقية أى فكر هو تطبيقه والعمل به فى عالم الواقع ، ثم قبول الناس له . ولانقصد بذلك ماكان حقا أصلا ورفضه الناس إتباعا لشهواتهم وأهوائهم ، أو ماكان باطلا وقبله الناس تحقيقا لرغباتهم .

والفكر الماركسى أول ماطبق عمليا فى روسيا ، وكانت التجربة الأولى له . وتبين من خلالها أن العقل البشرى قاصر جدا فى وضع مايحقق السعادة للإنسان فى حياته المستقبلية لأن نظرة العقل البشرى محدودة .

ومن هنا وعندما كان الفكر الماركسى فكرا بشريا ، فإن النتيجة البدهية حين تطبيقه أن تظهر عيوبه ومحدوديته وعدم ملاءمته للواقع الإنسانى ـ خاصة وأن الفكر الماركسى حمل فى ثناياه كل مايصادم الفطرة الإنسانية ، ويقضى على التطلعات البشرية ـ ومن هنا كان التناقض سمة بارزة فى ذلك الفكر . تناقضا بين الأفكار النظرية ذاتها ، وتناقضا بين النظرية والواقع عندما رغب القادة الشيوعيون تطبيقها فى روسيا .

إن النظرية الماركسية كانت من أشد النظريات وقوعا فى التناقض ، حتى إن الاختلاف بين الآراء النظرية والواقع أضحى بين لكل من اطلع على الفكر الماركسى .

فالحتميات التاريخية كانت تتهاوى تحت سياط الواقع ، والتطبيق الشيوعى كان يخالف النظريات العاجزة عن مسايرة مستجدات العصر . وقد وقعت الشوعية فى جملة من المتناقضات منذ اللحظة الأولى لتطبيقها فى عالم الواقع . ومن ذلك :

(أ) أن النظرية الماركسية ترى أن القوانين الإجتماعية تسير وتقضى بالتغير للوصول إلى الشيوعية ، ومفهوم ذلك أن قيام الشيوعية أمر حتمى سيصل الناس إليها دون أن يكون لهم فى ذلك اختيار .

ولكن بالنظر إلى واقع الشيوعيين التطبيقى نجدهم لايتركون هذه القوانين تعمل وتوصلهم إلى الشيوعية . بل قاموا بفرض ذلك الفكر بالقوة ، والقتل ، والإرهاب ، والنفى ، حتى غدت الشيوعية نظاما دكتاتوريا بل من أشد الدكتاتوريات التى مرت على الإنسانية فى فرض سلطانها بالقوة .

(ب) ومنها قولهم بالتغيير المفاجىء ، فإذا ماوصلوا إلى المرحلة الإشتراكية قالوا بالتدرج .

والسبب فى هذا التناقض هو الواقع الذى أبطل نبوءات ماركس . وهذا التدرج قال به لينين ليزيل الإشكال الذى علق بالأذهان عندما لم يحدث التغيير فى الأوضاع حتى بعد انفجار الثورة البلشفية .

(ج) ومنها إرجاعهم كل تغير يحدث فى المجتمع إلى العامل الإقتصادى ثم تراجعهم فى ذلك واعترافهم بأنهم بالغوا فى تقديره حتى نسوا العوامل الأخرى ، هذا بالإضافة إلى بطلان ذلك بالأحداث التاريخية السابقة واللاحقة .

(د) ومنها إعلانهم القضاء على الدين والملكية الفردية .

حيث كذب الواقع ذلك ولم تستطع الشيوعية أن تحقق شيئا منه رغم استخدامها القوة فى محاولة تحقيقه .

(هـ) ومنها قولهم بمبدأ إلغاء الطبقات وتحقيق المساواة .

إلا أن الواقع أبطل ذلك حيث كانت الطبقات متفشية ، والفوارق فى الأجور وغيرها قائمة .

(و) القول بزوال الرأسمالية ، وزيادة بؤس العمال ، وحلول الإشتراكية مكان النظام الرأسمالى .

غير أن الـواقع أثبت خلاف ذلك ، بل إن إنهيار الشيـوعية أثبت أن الصواب فى الاتجاه المعاكس لذلك الرأى تماما .

(ز) ومنها قولهم بزوال الدولة ، إلا أن واقع الاتحاد السوفييتى والشيوعية فيـه دل على أن الحفاظ على الـدولة وبقائها كان مـن أعظم اهتمامات الحزب الشيوعى .

إلى غير ذلك من المبادىء النظرية التى جاء بها مـاركس وكذبها الواقع حين اصطـدمت به حيـث أصبح الفـارق بين الفكر النظـرى والتطبيـق الفعلى واضحـا لاينكـره أحد . يقـول مـاندل : (لايزال ضعـف المصـداقية الكبير اللاحق بالشيوعية والإشتراكية والماركسية بعيد تحولهمـا إلى عقيدة دولة "بل حتى إلى دين دولـة" وكشف الحساب الإجمالى للحقبة الستـالينية والبريجنيفية والفـارق الشاسع بين الواقع والأيديولوجيا الرسمية التى تظهـر كاذبة كليا ـ يضرب عميقا فى المجتمع)[١].

إن هذاالتناقض لايستطيع أن ينكره أحد ، وذلك لكـونه متفشيا ظاهرا فى الأفكار الماركسية[٢]، وأثبتـت الأيام اللاحقة لماركس فساد مـاكان يزعمه ويعتقـده من أفكار . يقول هنرى ده مـان إن (النظرية التى نفـذ بها ماركس مهمته قد أصبحت الآن غير مناسبة تماما لحل مشاكل عصرنا)[٣].

وهـذه نتيجة بدهية لمحدودية العقـل البشرى وعجـزه ووقوفه عند حد معين . يقـول الجندى : (إذا نظـرنا إلى الماركسية نفسهـا كنظـرية تريد فرض وجودهـا على العالم كله نجدها وضعت من خلال عقل بشـرى قاصر محدود ، لايستطيع التحرك إلا فى دائرة ضيقة جدا هى دائرة عصره وبيئته)[٤].

---

(١) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٥٢) .
(٢) انظر الشيوعية (٨٣-٨٤) .
(٣) الإشتراكية البناءة (٦٠) .
(٤) مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية (٢٠) ، وانظر (١٢٤-١٢٥) .

ويقول موراوسكى : (إن الصواب يجانب ماركس فى بعض تصوراته للمستقبل)[١].

لقد كشف المستقبل ـ الواقع ـ فشل النظرية الماركسية وعدم تحققها ، ثم إن الثورة البلشفية كذلك عجزت عن تحقيق الفكر الماركسى الذى قامت عليه[٢].

ومما يدل على مصادمة الفكر الماركسى للواقع وتناقضه معه الخلاف الحاد الذى وقع بين الاتحاد السوفييتي والصين . وذلك باتهام كل طرف للآخر بأنه كفر بمبادىء ماركس ، لأن كل واحد منهما اختط لنفسه طريقا يطبق به أفكار ماركس حسب واقعه ، وبهذا يكونون (أقروا بأن ماتخيله ماركس وانجلز لم يستطع أن يطبقه أحد)[٣].

إن الواقع كان للماركسية بالمرصاد ، حيث حطم الحتمية التاريخية وأفسد النبؤة الماركسية[٤]، وكشف زيف الوعود البراقة ، وأيقنت الشعوب التى طبق فيها الفكر الماركسى بأنه لايصلح لإقامة حياة كريمة[٥]. كما أبطل الواقع كل المبادىء الماركسية لأنها تتعارض مع طبيعة الحياة الإنسانية[٦].

إن انفجار الثورة البلشفية فى روسيا كان أول ضربة يوجهها الواقع للنظرية الماركسية .

وحين جاء لينين قال : (إن انتصار السلطة السوفيتية فى العالم كله قضية مؤمنة . والمسألة مسألة وقت)[٧].

---

(١) موقف ماركس وانجلز من الآداب العالمية (١٣٨-١٣٩) .

(٢) انظر الإشتراكية على مشارف القرن الواحد والعشرين (٥٠) .

(٣) إشتراكيتهم وإسلامنا (٥٣) . ولمزيد عن تشرذم الشيوعية واختلاف أهلها إلى فرق ومذاهب شتى انظر الشيوعية (٧٩-٨١) .

(٤) عن تلك المعانى انظر الإشتراكية على مشارف القرن الواحد والعشرين (٥٩) .

(٥) انظر عن تلك المعانى الماركسية بين النظرية والتطبيق (١٦٨-١٦٩) .

(٦) انظر عن ذلك الشيوعية (٧٨-٧٩) .

(٧) مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (٣٨) .

وقـال : (ستصل جميع الأمم إلى الإشتراكية ، إن هـذا أمر محتوم)[١].

غير أن الواقع كذب هذه الحتمية ، وأين هى سلطة السوفييت الآن؟!!

لقد أثبتت الأحداث تناقض النظرية الماركسية ، وعجـزها عن التطبيق لأنها قامت على أصول فاسدة ، وليس بعد الكفر وإنكار الإله فساد .

وحين اصطدمت النظرية بالواقع كان لابدمن إيجاد المخـرج حفاظا على الكيـان الشيـوعى الذى بدأ يقـوم فى الاتحاد السوفييتى ـ خاصـة وأنه حمـل الوعود البراقة من عدل ، وحرية ، ومسـاواة[٢]غير أن هذه الشعارات لم تر النـور وأصبحت أحلاما تراود قادة الشيوعية وأتباعهـم ـ وهذا المخرج كان بتراجع زعمـاء الشيـوعية عن تطبيـق الأفكـار الماركسيـة نظـرا لعـدم إمكانية تطبيقها فى عالم الواقع لكونها تتصادم معه .

أثر ذلك التصادم :

كانت هناك عدة آثار نتجت عن مصادمة الماركسية للواقع ومن أهمها:

أولا : التراجع والتغيير فى تطبيـق الأفكار الماركسيـة ، مـن قبل زعماء الشيوعية .

ثانيا : ظهـور فسـاد النبؤات ، وتشكـك كثير من النـاس فى مصـداقية الفكر ، واقتناعهم بعدم إمكانية تطبيقه .

ثالثا : حمـل النـاس على الإيمان بالأفكـار الماركسيـة بالقـوة ، حيث لم يصـدق الـواقع تلك الأفكار ، والماركسيـة كمـا نعلم تطلـب مـن أتبـاعها أن لايؤمنوا إلا بما هو مشاهد محسوس!!!

رابعا : ضعف التمسك بالأفكار الشيوعية لدى القادة السوفييت أنفسهم وقد افتتح لينين ذلك .

وبالعـرض الآتى لمباحث هـذا الفصل سيزاد بيان أثر ذلـك التصادم بين النظرية والواقع .

---

(١) استيقاظ آسيا (٥٤) .

(٢) انظر عن ذلك إشتراكيتهم وإسلامنا (٢٩) .

المبحث الأول
التراجع والتغيير زمن لينين

بعد أن مر معنا أن الشيوعية قامت على مصادمة الفطرة الإنسانية ومصادرة الحرية وكفى بهما سببين جوهريين فى التمرد على الفكر الشيوعى والخروج عليه . إلا أن الشيوعية لم تكتف بهذا بل صادمت بفكرها الحقائق العلمية ، وواقع الحياة الإنسانية فانهارت نظرياتها تحت سياط الواقع عندما بدأ تطبيقها فى الدولة السوفيتية ، مما جعل زعماء الشيوعية يتراجعون فى تطبيق مبادئها ، ويغيرون فيها حتى يتقبلها الناس ، مما أدى إلى فقدان النظرية الماركسية الهالة التى صورت بها ، وكذلك زعزعة الثقة فى نفوس العمال الذين كانوا شعلة الثورة ، حيث بطلت النبؤات ، وتبخرت الأحلام وعند ذلك افتتح لينين بوابة العمليات الترقيعية للفكر الشيوعى .

وقبل أن أعرض للتراجع والتغير زمن لينين أود أن أشير إلى الأمور التالية :

أولا : ستكون الإشارة هنا للقضايا التى نحن بصددها (التراجع والتغير) زمن كل زعيم بصورة مختصرة ، إلا إذا تطلب الأمر إيضاحا كما هو الحال بالنسبة لغورباتشوف . وليست هذه الدراسة سردا تاريخيا للشخصية أو سياستها ، بقدر ماهو تلمس لآثار التراجع والتغيير الذى وقع فى تلك الفترة.

ثانيا : أن التراجع والتغيير أحيانا لايكون كبيرا جدا ، ولكنه يعد بالمقارنة مع الأفكار الماركسية التى بدأتها الثورة البلشفية فارقا واضحا .

ثالثا : أن هذه التغيرات والتراجعات كانت فى بداية الأمر ـ كما يزعم الشيوعيون ـ خطوات من أجل تصحيح المسار حتى تتحقق الجنة الموعودة ، ومن هنا كان يعيش العمال على أمل فلم يصدر منهم مايدل على خروجهم على النظام بصورة جماعية . هذا بالإضافة إلى أنهم حديثى عهد بنظام كان يسومهم سوء العذاب إذا ماقورن بالوعود البراقة الجديدة .

رابعا : أن هـذه التراجعات والعدولات جعلت الشعـب السوفييتى يظل ساكنا فترة من الزمن ، وقبل ذلك بسبب القوة والقهـر خاصة زمن ستالين .

خامسا : أن كـل الـزعماء السـوفييت قـد أسهمـوا فى هـذا التغيير والتراجع مـابين مقل ومستكثر ، وقد تتحكم بعض الظـروف فى عدم وضوح الجانب السياسى لبعض الزعماء وخاصة إذا كانت فترة حكمه قصيرة .

سادسا : أن غـورباتشوف أكمل مـابدأه الزعماء من قبلـه فأعلن خاتمة تلـك السلسلة من التغيير والتراجع وذلـك بإنهاء الفكـر الماركسى وإسقاطه .

سابعا : أن التغيير والتراجع يعـد سيرا نحو السقوط بطـريقة تدريجية ، حيـث يتم ذلك باستبدال الأفكار الماركسية بأفكار أخرى ليتسنى قبـولها لدى الناس .

وبعد هذا نصل إلى دراسة التغيير والتراجع فى الفترة اللينينية .

لينين :

دراسة مختصرة عن حياته :

ولادته : (ولد فلاديمير ايليتش أوليانوف (لينين) فى ٢٢ نيسـان/ ابريل سنـة ١٨٧٠م فى مـدينة سيمبيرك "المسمـاة الآن أوليـانوفسك" الـواقعة على شاطىء نهر الفولغا)[١].

جده : كـان من أهالى روسيا الأصليين ، عمل فلاحا ، ومـات فى فاقة شديدة[٢]. وجدته لأبيه مسيحية[٣].

---

(١) لينين (٤٧) .
وانظـر : الشيـوعية وموقف القرآن الكـريم منهـا (٤٦) ، النـار والجليـد (٦٧) ، المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٩٠) .

(٢) انظر لينين (٤٧) .

(٣) انظر سادات الماركسية (٣٩٠) .

والده : هو ايليانيكولايفتشى أوليانوف .

ذاق الفقر والعوز منذ نعومة أظفاره ، لم يستطع تحصيـــل تعليمه العالى إلا بمساعدة أخيه الأكبر منه سنا ، وبعد تخرجه من الجامعة عمل مدرسا ، ثم مفتشا ، ثم مديرا للمدارس الشعبيــة فى سيمبيرسك[١]و(كان عضوا فى مجلس صغير لنبلاء قريته ويعتبر من رجال الطبقة المتوسطة)[٢].

والدته : وهـى ماريا الكسندر . نشأت لأب طبيب ، تجرى فى عـروقها الـدماء الألمانية ، وهى يهـودية ، وعلى هذا فإن لينين مـن سلالة يهودية[٣].

جده لأمه : ألمانى يدعى الكسندر ديمتريفيتش بلانك .

وجدة لينين لأمه يهودية[٤].

بعض الأحداث التى أثرت فى حياة لينين ودفعته للعمل :

أولا : حياة البؤس والفقر التى كانت تعيشها أسرته .

ثانيا : وفاة والده فجأة عام ١٨٨٦م[٥].

ثالثا : إعدام أخيه بعد اشتراكه فى عملية اغتيال القيصر[٦].

وكـانت هذه الأحداث مؤثرة فى شخصية لينين ، وولـدت فيه حقدا ، فأخذ ببذل الجهد فى القراءة والتعلم ، وتخرج مـن الثـانوية ، والتحق بجامعة قازان ، وأقام بها صلات مع الطلاب ذوى الميول الثورية ففصل من الجامعة

---

(١) انظـر : لينين (٤٧-٤٨) ، النار والجليـد (٦٧) ، كارل ماركـس وداعـا أم خداعا (٣٣) .

(٢) المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٨٩) ، وانظر الشيـوعية وموقف القرآن الكريم منها (٤٦) .

(٣) انظر : المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٨٩) ، سادات الماركسية (٣٩٠) ، وانظر (٤٠٩) ، الشيوعية وموقف القرآن الكريم منها (٤٦) .

(٤) انظر سادات الماركسية (٣٩٠) .

(٥) انظـر : لينين (١٧) ومابعدها ، المذاهـب المعاصرة وموقـف الإسلام منهـا (١٨٩) .

(٦) لينين (١٧) ، وانظر النار والجليد (٦٧) .

واعتقل فى عام ١٨٨٧م[١]. ولأجل ذلك كانت القيصرية تنظر إليه على أنه شخص غير مأمون ، وقامت السلطات القيصرية بنفيه إلى قرية بقازان ، وبعد سنة سمح له بالعودة ، وحاول الالتحاق بالجامعة ، أو السماح له بالسفر إلى الخارج غير أن السلطات القيصرية رفضت ذلك[٢].

وفى عام ١٨٨٩م انتقل مع أسرته إلى سمارا ، وعكف لينين على دراسة كتب ماركس وانجلز ، وقام بترجمة "البيان الشيوعى" إلى اللغة الروسية[٣]، ثم درس برنامج الجامعة الموزع على أربع سنوات فى سنة ونصف وتقدم لامتحان كلية الحقوق وحصل على شهادة القانون من جامعة بطرسبرغ واشتغل فى المحاماة ولم تشغل باله كانشغاله بقراءة مؤلفات ماركس وانجلز[٤].

وفى عام ١٨٩٢م نظم لينين فى سمارا أول حلقة ماركسية كان أعضاؤها يدرسون مؤلفات ماركس وانجلز ، وينشرون الماركسية بنشاط[٥].

ونظرا للأعمال التى كان يقوم بها لينين ، ونشاطاته المشبوهة كان كثيرا مايعتقل ويراقب ، وسجن فى بطرسبرغ أكثر من أربعة عشر شهرا وكان يكتب المنشورات والرسائل من داخل السجن[٦].

وظل لينين فى نشاطه الثورى إلى أن (تمكن فى عام ١٨٩٥م من توحيد عدة مجموعات ماركسية تحت لواء "عصبة النضال من أجل تحرير الطبقة العاملة" وهى التنظيم الذى يعتبر البداية الحقيقية للحزب الشيوعى الروسى وتكرر اعتقاله والإفراج عنه ثم نفى إلى سيبيريا)[٧]، معاقبة له على

---

(١) لينين (٥٣) .

(٢) انظر المرجع السابق (٥٣-٥٤) .

(٣) انظر المرجع السابق (٥٩) .

(٤) انظر : المرجع السابق (٦٢-٦٣) ، النار والجليد (٦٧) وفيه أنه حصل على الشهادة الجامعية بالمراسلة من جامعة سانت بطرسبرغ ، وانظر كارل ماركس وداعا .. أم خداعا (٣٣-٣٤) .

(٥) انظر لينين (٦٣-٦٥) .

(٦) انظر المرجع السابق (٨٤) .

(٧) النار والجليد (٦٧-٦٨) ، وانظر لينين (٨٩) .

نشاطه الثورى .

(ونظرا لوجوده تحت رقابة البوليس لم يستطع أن يحضر الاجتماع التأسيسى للحزب الإشتراكى الديمقراطى الروسى فى مدينة منسك عام ١٨٩٩م ، وبعد أن أفرج عنه فى عام ١٩٠٠م ذهب إلى سويسريا حيث التقى بليخانوف وغيره من الثوريين المنفيين وعمل معهم ، ثم إلى انجلترا حيث كان يقضى معظم وقته فى مكتبة المتحف البريطانى يقرأ ويكتب . وقام أيضا بزيارات للثوريين المنفيين فى المانيا وفرنسا . وكان أحد مؤسسى جريدة إسكرا "الشرارة" التى رأس تحريرها واتخذها هو وغيره من المهاجرين الماركسيين منبرا لنشر أفكارهم عن الثورة ، وكانت الجريدة تهرب بصفة منتظمة إلى داخل روسيا . وكان أهم أعماله فى هذه الفترة هو الكتيب الذى نشره فى عام ١٩٠٢م بعنوان "ماالعمل؟" والذى وضع فيه الأسس النظرية والتطبيقية لحزب ماركسى ثورى ، والتى ظل متمسكا بها إلى أن تحققت الثورة)[١].

و(فى بداية العام ١٩٠٢م عرف رجال المباحث مكان وجود صحيفة "الشرارة" . فكان من الضرورى مغادرة مدينة ميونيخ ، لأن البقاء فيها أصبح خطرا . فاختارت هيئة التحرير مدينة لندن مكانا جديدا لطبع الصحيفة . وإلى هناك انتقل لينين فى نيسان/ابريل عام ١٩٠٢م)[٢].

(وفى ربيع العام ١٩٠٣م انتقل لينين من لندن إلى جنيف ، التى نقلت إليها مطبعة صحيفة "الشرارة" . واستأجر مع أسرته بيتا صغيرا فى إحدى ضواحى جنيف)[٣].

---

(١) النار والجليد (٦٨) ، وانظر لينين (٩٩) وذكر أن الحكومة حظرت عليه الإقامة فى العاصمة أوالمراكز الصناعية من روسيا . وقرر الإقامة قرب بطرسبرغ فى بسكوف . وانظر المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٩٠) .

(٢) لينين (١١٤) .

(٣) المرجع السابق (١١٤-١١٥) .

وفى العام نفسه انعقد المؤتمر الثانى للحزب الإشتراكى الديمقراطى الروسى وحدث انقسام فى المؤتمر حول موضوع تنظيم الحزب وفاز لينين بأغلبية الأصوات وأصبح زعيما للأغلبية البلشفيك[١].

غير أن البقاء بعيدا عن الثورة والأوضاع الداخلية الروسية لم يكن يروق للينين ولأجل ذلك عاد إلى بطرسبرغ سنة ١٩٠٥م .

يقول طلاس : (أصبحت قيادة الحركة الثورية من الخارج أصعب فأصعب على لينين ، وكان يتلهف للعودة . وفعلا عاد إلى بطرسبورغ فى نهاية تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٠٥م ، وراح يقود الحزب والنضال الثورى بصورة مباشرة . وقام بعمل تنظيمى واسع : يقود اللجنة المركزية ، ولجنة بطرسبورغ للبلاشفة ، ويخطب فى الاجتماعات والمجالس العامة الحزبية ، ويجتمع بالعاملين الحزبيين القادمين من جميع أنحاء روسيا . وكان لينين يقود صحيفة "نوفاياجيزن" "الحياة الجديدة" البلشفية العلنية ، ويكتب كثيرا لها)[٢].

وكان لينين فى هذه الفترة نشطا فظل يؤلف الكتب[٣]. وينتقل من بلد إلى آخر يقيم الندوات والاجتماعات فى الدعوة للثورة[٤]فسافر إلى لندن ، وعاد منها عام ١٩٠٧م وأقام فى فنلنده وكانت حينذاك جزءا من الإمبراطورية الروسية[٥]، وفى عام ١٩٠٨م سافر إلى جنيف[٦].

---

(١) انظر النار والجليد (٦٨) .

(٢) لينين (١٣٧) وانظر (٢٢) ، وانظر النار والجليد (٦٨) وذكر أنه بعد فشل ثورة ١٩٠٥م اضطر إلى العودة إلى المنفى فى سويسرا وفرنسا ، وانظر المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (١٩٠) وذكر أنه دخل روسيا عام ١٩٠٥م سرا ، وانظر كارل ماركس وداعا .. أم خداعا (٣٤) .

(٣) انظر النار والجليد (٦٨) .

(٤) انظر لينين (١٤٦) .

(٥) انظر المرجع السابق (١٤٩-١٥٠) .

(٦) انظر المرجع السابق (١٥٥) .

وفى عـام ١٩١٠م سـافر إلى استكهـولم[١]، وفى العـام نفسـه سـافـر إلى باريس[٢]، وهكذا كان لينين نشطا فى الإعداد للثورة والتحضير لها .

وفى عـــام ١٩١٢م أســست صحيفــة "البرافـدا" وبدأ صــوت الجمـاهير الغاضب على القيصر يظهر من خلالها[٣].

وفى العام نفسه نجح فى استبعاد المنشفيك من الإشتراك فى مؤتمر الحزب الإشتراكى الديموقراطى الروسى الذى انعقد فى براغ[٤].

وفى هــذه الفترة كـان لينين يكتــب الكثير مـن المقــالات فى صحيفـة البرافـدا بأسماء مستعارة ، ويتندر بوضع روسيا الإقتصـادى المنهار ، ويفضح الطبقـات المستغلـة ، وأن الـرأسمالية تعيق التطور خوفـا على نفسهـا وكانت تلـك المقـالات فى الفترة مـابين ١٩١٢-١٩١٤م حيث نشـر لينين أكثر مـن ٢٨٠ مقالة[٥].

وفى عـــام ١٩١٤م اهتم لينين بالإشتراكيـة الأوربيــة ، وفى العـام نفسـه اعتقلتـه الشرطة النمساوية وأمرته بمغادرة البلاد ، فـذهب إلى سويسرا وظل بعض الوقت مركزا على الكتابة ، وفى سنة ١٩١٥م عقد إجتماعا دعا إليه كل من استطاع حشده من الأوربيين الإشتراكيين لاستنكـار الحرب التى يرى أنهـا لاتخدم إلا مصلحة البرجوازية ، ثم عكف على الكتابة والتأليف بعد ذلك[٦].

ثم دخلـت سنة ١٩١٧م وكـان العمل فيها على أوجه وحصلـت الثورة التى كـان يعـد لها لينين ويخطـط لها هو وأتباعه . وبدأ لينين يضـع الخطـط الجديدة والأفكـار المتناسبة مـع الحقبة الجديدة من تاريخ الثـورة الإشتراكيـة وألـف الكتب التى يحتاج إليهـا الأتباع فى تفسير الأوضـاع الجديدة ، ومنها

---

(١) انظر لينين (١٧٢) .
(٢) انظر المرجع السابق (١٧٣) .
(٣) انظر : المرجع السابق (١٨٧) ، النار والجليد (٦٨) .
(٤) انظر النار والجليد (٦٨) .
(٥) انظر لينين (١٩٠-١٩١) .
(٦) انظر النار والجليد (٦٩) .

كتاب (الدولة والثورة) ، وتسلل لينين إلى بطرسبورغ سرا ، وقيل أن القوات الألمانية نقلته إلى الأراضى الروسية ، وعندما بدأ سياسته كان شعاره السلام ، والأرض ، والخبز ، وواجه عدة مصاعب منها تخلف الإقتصاد ، ولأجل ذلك اختط لنفسه سياسة جديدة[١]. كان يبتعد فيها عن الأفكار الماركسية التى حاول فرضها على الشعب الروسى عند قيام الثورة البلشفية .

نهاية لينين :

فى كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٢م أصيب لينين بنوبة قلبية[٢]، وفى بداية ١٩٢٣م ساءت صحته كثيرا[٣]، وفى ٢١ كانون الثانى/يناير ١٩٢٤م توفى لينين بنزيف فى الدماغ[٤]. ودفن بالساحة الحمراء وأصبح ضريحه مزارا للسكان السوفييت ورؤساء الدول الأجانب[٥].

بعض الأقوال عن لينين :

عمل لينين كثيرا على الظهور بسلوك فيه التودد للعمال من أجل الوصول إلى غاياته وتحقيق أهدافه .

يقول الشيوعى ف.أ.كاربينسكى : (إن إحدى الصفات النادرة كانت تجعل فلاديمير ايليتش رجلا من أبرز الرجال ، وهى حساسيته الخارقة ، وبشاشته ، وحسن أدبه ، وتواضعه ليس فقط مع الرفاق - سواء أكان الرفيق عضوا فى اللجنة المركزية أم عضوا عاديا فى الحزب - بل مع الناس

---

(١) انظر : لينين (٢٥٢-٢٥٣) ، النار والجليد (٦٩-٧٠) ، كارل ماركس وداعا أم خداعا (٣٤-٣٥) ، وذكر أن الألمان أرادوا منه التأثير على روسيا من أجل إقناع شعبها والقيادات فيها بمعارضة الحرب ضد المانيا . وانظر موسكو وإسرائيل (٣٥).

(٢) انظر لينين (٣٥٤) .

(٣) انظر المرجع السابق (٣٦٤) .

(٤) انظر : المرجع السابق (٣٦٥) ، النار والجليد (٧٠) .

(٥) انظر : النار والجليد (٧١-٧٢) ، لينين (٣٦٨) .

عموما ، سواء أكان شخصية مشهورة أو خادمة عادية)[١].

وقد كان يعيش فى حياته بسيطا ويقصد من ذلك كسب ود الناس ، حيث إن ذلك يجر إلى محبته ، وسماع أفكاره وموافقتها ، خاصة إذا وافقت مافى نفوسهم . وقد بذل لينين جهدا كبيرا فى سبيل الوصول إلى قلوب العمال وكسبهم فى صفه واعتبر أنهم القوة الحقيقية التى يمكن بناء الإشتراكية على سواعدها والأمثلة كثيرة فى حسن معاملته للعمال والتودد إليهم[٢].

وبعد هذا العرض المختصر لشخصية لينين نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : إن لينين يهودى وإن لم يكن فهو من سلالة يهودية ، وربيب لهم . ولولا هذه الحقيقة لما وصل الماركسيون إلى فرض سلطانهم بالقوة على روسيا . يقول د. عمر حليق : (هذه الميزة المزدوجة التى توفرت عند لينين وكونه روسيا ويهوديا فى آن واحد ، أعطت للبيعة الماركسية فى أوائل هذا القرن العشرين بعثا وانتفاضة هائلة . وبدون مساهمة (لينين) وأعوانه من اليهود الروس وغير الروس يشك أكثر المؤرخين فى أى احتمال لوصول الماركسيين فى أى مكان إلى سدة الحكم)[٣].

ثانيا : أن لينين مر بظروف قاسية منها مايتعلق بوضعه أو أسرته ، أو ملاحقة السلطة له مما ولد فى نفسه الحقد وحب الانتقام والثورة وكراهية الآخرين وحب السيطرة[٤].

وهذا يذكرنا بصاحب النظرية الأول ماركس .

---

(١) نقلا من كتاب لينين (٣١١) .

(٢) يمكن الرجوع إلى كتاب لينيننا ، انظر مثلا (١٤،١٥،٢٤،٣٢،٥٩-٦٢،٧٨،٨٠-٨١) ، وذكر فيه عدة أمثلة من القصص الدالة على اهتمامه الشديد بالعمال والفلاحين وأصحاب المهن والظروف القاسية ، ليتمكن من استخدام تلك الطاقات فى صفوف العمال ليحقق أهدافه . (٣٢-٣٦) .

(٣) موسكو وإسرائيل (٢٦-٢٧) .

(٤) ولبيان هذه الحقائق انظر كتاب لينين (٢٨) ومابعدها .

ثالثا : اهتمام لينين بتعليم نفسه وعكوفه على قراءة كتب ماركس وانجلز[١].

رابعا : حرصه الشديد على إتباع مبادىء ماركس والأخذ بها ، والإصرار على تطبيقها ، لولا أن الواقع أجبره على التراجع .

خامسا : أن المتتبع لتاريخ لينين يجد أنه قد استخدم الأساليب اليهودية ، والأفكار الصهيونية فى تحقيق أهدافه وغاياته فبدأ بنبذ الدين وحربه ، ثم السرية فى تنظيمه وقيادته الأعمال التى يقوض بها الأنظمة ويفسدها ليحقق غايته ، واعتبار أن الغاية تبرر الوسيلة ، وكذلك التلون والتشكل فى الأخلاق حتى ولو كانت داعية إلى الرذيلة ومحاربة للفضيلة من غش وخداع ونفاق وغير ذلك . إضافة لهذا اهتمامه بالعنصر النسائى لامن أجل حفاظها على بيتها وزوجها وأسرتها بل إخراجها إلى مشاركة الرجل والاختلاط به[٢].

وبعد هذا نصل إلى الحديث عن التراجع والتغيير إبان حكم لينين .

التغيير والتراجع الذى أحدثه لينين :

إن اصطدام الشيوعية بالواقع ورفضه لها جعل زعماء التطبيق الماركسى يتراجعون عن الأفكار النظرية ، ويعلنون مايخالفها من أجل السير قدما فى تحقيقها وتطبيقها .

وقد افتتح لينين هذه السلسلة التى كانت تستبعد تدريجيا الآراء والأفكار الماركسية . وأعلن لينين أن الماركسية ليست عقيدة جامدة بل مرشدا للعمل وعزا ذلك إلى ماركس وانجلز[٣].

---

(١) انظر لينيننا (٤٢-٤٤) .

(٢) انظر ماذكره طلاس فى كتابه لينين عن بعض الجوانب السرية فى حياة لينين وتنظيمه مثلا (١٥٠-١٥٨،١٥٩،٢٤٨،٢٤٩،٣١٤) .

(٣) انظر رسائل حول التكتيك (٦) .

كما أقر لينين بأن أفعاله تخالف ماكان عليه ماركس ، كما سلم الشيوعيون بذلك . وكان تبرير لينين والشيوعيين بأن ذلك التراجع فعلا يتطلبه الواقع . يقول دجيلاس : (إن آراء ماركس فى الثورة كانت مشفوعة بظروف سياسية معينة ، ومن غير الممكن تطبيقها عالميا . أما لينين فقد جاء ليحول آراء سلفه إلى مبادىء مطلقة ، مركزا عليها فى مؤلفه "اليسارية مرض الشيوعية الطفولى" . وبذلك يكون قد ابتعد كثيرا عن ماركس الذى كان يرى عدم ضرورة اشعال الثورة فى كل مكان .

ولقد أكد لينين فى مؤلفه المذكور ، بأنه لم يعد بالإمكان اعتبار بريطانيا العظمى دولة يمكن إبعاد شبح الثورة عنها ، لأنها تحولت فى ظروف الحرب العالمية الأولى إلى دولة عسكرية ، مما لايسمح للطبقة العاملة الانجليزية إلا أن تخوض غمار الثورة الدموية ، ضد النظام القائم .

ولقد وقع لينين فى تخبطه الفكرى ليس نتيجة قصوره فقط ، وعدم إدراكه أن الاتجاه العسكرى البريطانى الجديد ، لم يكن سوى ظاهرة مرحلية مؤقتة فرضتها التطورات السياسية الناجمة عن الحرب ، وحسب ، وإنما لعدم مقدرته كذلك على التنبؤ وتحليل آفاق التطور المقبل للديمقراطية الغربية ولطبيعة التقدم الإقتصادى فى دولة بريطانيا أو سواها من بلدان أوربا الغربية)[١].

ويقول لينين : (إننا لانعتبر أبدا نظرية ماركس شيئا كاملا لايجوز المساس به ، بل إننا مقتنعون ، على العكس ، بأنها لم تفعل غير أن وضعت حجر الزاوية لذلك العلم الذى يترتب على الإشتراكيين أن يدفعوه إلى الأبعد فى جميع الاتجاهات ، إذا شاؤوا أن لايتأخروا عن موكب الحياة)[٢].

لقد بدأت عملية التغيير منذ زمن لينين حيث اصطدم بالواقع وعجز عن التطبيق العملى للفكر الشيوعى . ومن هنا جاء بأفكار نسبت إليه دون

---

(١) الطبقة الجديدة (٢٣-٢٤) .

(٢) نقلا من كتاب لينين (١٣) .

ماركس فى حين أنه كان ينبغى عليه أن لايخرج عن الفكر الماركسى كما أراده ماركس حتى ولو فرضه بالقوة . لأنه يقوم على الحتمية التاريخية!! ولكن إرادة الناس ، وإحساس لينين أن رغباتهم وميولهم لاتتفق مع قضايا الفكر الماركسى جعلته يقوم بالتعديل والتراجع فيها على قدر يسمح له بمواصلة ماكان قد بدأه من ثورة .

ويحصل هذا التراجع فى وقت لم يحن بعد الكشف الحقيقى عن زيف الأفكار الماركسية .

وفى إعتقادى أنه لولا هذا التراجع من لينين لما قامت للشيوعية قائمة ، بالإضافة إلى القوة والقهر مضافا إليه الوعود البراقة .

وكانت أفكار لينين تخالف وتناقض الأفكار الماركسية التى حددها ماركس فبدأ الترقيع من زمنه وسار من بعده على نهجه إلى أن جاء غورباتشوف وقام بآخر عملية جراحية وأسقط بها الفكر الشيوعى الذى تصادم مع الواقع والحقائق العلمية .

ومن الأفكار التى جاء بها لينين وخالف فيها ماركس :

أولا : مسألة الثورة .

فبعد أن كانت الشيوعية ترى أنه لابد من الثورة ضد الأفكار المخالفة للماركسية ، وأن الثورة ستؤدى إلى سيادة البروليتاريا ، نجد لينين يرى أن الإصلاح مقدم عليها .

وكان لينين فى بداية أمره يرى ماجاء عن مؤسسى الماركسية . وضرب مثالا بروسيا فقال : (قبل ثورة شباط - آذار (فبراير - مارس) ١٩١٧م ، كانت سلطة الدولة فى روسيا بيد طبقة قديمة واحدة ، هى طبقة النبلاء الملاكين الإقطاعيين ، وبعد هذه الثورة ، غدت السلطة بيد طبقة أخرى ، طبقة جديدة ، هى البرجوازية . إن إنتقال السلطة من طبقة إلى أخرى هو الدليل الأول ، الرئيسى ، الجوهرى على الثورة سواء بمعنى الكلمة العلمى الدقيق أم بمعناها السياسى والعملى)(١).

---

(١) رسائل حول التكتيك (٧) .

ويقول لينين : (إن الثورة مستحيلة دون وضع ثورى ولكن ليس كل وضع ثورى يؤدى إلى الثورة ...)

ويقول : (والواقع الجديد فى الوقت الحاضر بالنسبة لثورتنا هو ضرورة اللجوء ، فى قضايا البناء الإقتصادى الجذرية ، إلى طرائق العمل "الإصلاحية" ، التدريجية ، القائمة على الاحتراس واللف والدوران . إن هذا "الجديد" يثير جملة من الأسئلة ، والارتباكات ، والشكوك ، سواء منها النظرية أم العملية . مسألة نظرية : كيف نفسر الانتقال ، بعد سلسلة من أكثر الأعمال ثورية ، إلى أعمال "إصلاحية" فوق العادة ، فى الميدان نفسه وفى ظروف سير الثورة المظفر العام ، مأخوذة بمجملها؟ ألا يوجد ثمة "تخل عن المواقع" أو "إعتراف بالإفلاس" أو شىء ما مماثل ...)(١).

ويصل لينين إلى القول بأن الذين يظنون أن الثورة العالمية لاتقوم إلا عن طرق السبيل الثورى يكونون جانبوا الصواب وقد حكموا على قضيتهم بالفشل(٢)، حيث قال : (ماالذى يثبت أن الثورة "الكبرى" المظفرة العالمية لاتستطيع ولاينبغى لها أن تلجأ إلا إلى الطرائق الثورية؟ لاشىء يثبت ذلك هذا خطأ صريح إطلاقا . إن خطأ هذا الزعم واضح بحد نفسه ، إذا اعتمدنا على اعتبارات نظرية محضة ، ولم نترك ميدان الماركسية . وإن خطأ هذا الزعم لتؤكده أيضا تجربة ثورتنا)(٣).

ومما يدل على تراجع لينين فى مسألة الثورة عقده صلح بريست ، وهو دليل قاطع على تراجع لينين ، وعندما انتقد لينين فى صلحه ذلك أخذ يدافع عن سياسته ويبرهن أن الظروف تقتضى ذلك من أجل استغلال الهدنة والزحف ضد الأعداء(٤).

---

(١) رسائل حول التكتيك (٩٣) .
ثم ذكر لينين أن هذه إدعاءات من الرجعيين والمناشفة وغيرهم ولكنها حقائق دامغة تدل على فساد النظرية وعدم صلاحها وتراجع لينين فيها .

(٢) انظر المرجع السابق (٩٥) .

(٣) المرجع السابق (٩٦) .

(٤) انظر المرجع السابق (١٠١-١٠٢) .

وبالعموم فإن لينين بهذا الصلح أعلن التراجع عن مسألة الثورة ضد الأنظمة المخالفة .

واعترف بذلك السوفييت فقال ريابوف : (أثبتت الحكومة السوفيتية عمليا منذ أولى خطواتها طموحها إلى التعايش السلمى مع شعوب البلدان الأخرى . أنها وقفت دائما بحزم وإصرار إلى جانب الإعتراف دون قيد أو شرط بحق جميع الشعوب صغيرها وكبيرها ، بتقرير المصير والتطور السياسى المستقل . وألغيت المعاهدات غير العادلة ، الجائرة والتى عقدتها القيصرية والحكومة البرجوازية المؤقتة مع جملة من البلدان ...)(١).

وأين هذا من أقوال لينين وتصريحاته القائلة أنه لابد أن يكون الجميع إشتراكيون ، حتى ولو تم التضحية بثلاثة أرباع الشعب؟!!

لقد أضحت الثورة لدى لينين الاستعاضة بنمط جديد عن النمط القديم . ومن هنا جاء بأفكار جديدة حادثة تخالف النمط الذى كانت عليه النظرية الماركسية فقال بالإصلاح الزراعى والصناعى ، وأدخل بعض مايناقض الفكر الإشتراكى مثل الإعتراف فى هذا الإصلاح بالملكية والرأسمالية وغيرها(٢).

لقد كانت مسألة الثورة تمثل للينين أمرا مهما فى سبيل الوصول إلى تحقيق الإشتراكية ، فما باله تراجع عن ذلك ؟!!

ثانيا : إعلان لينين أن الثورة الإشتراكية يمكن أن تقوم فى بلد واحد وهذا على خلاف ماكان ينظره قادة الماركسية .

يقول طلاس : (عالج لينين بشكل جديد مسألة إمكان انتصار الثورة البروليتارية . فالماركسيون من قبله كانوا يرون أن انتصار الثورة الإشتراكية

---

(١) القوات المسلحة فى الاتحاد السوفييتى (٩-١٠) ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧٥م ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٢) انظر رسائل حول التكتيك (٩٤-٩٥) .

فى بلـد واحد غير ممكـن ، ويعتقـدون أن الثورة لايمكـن أن تنتصـر إلا فى وقت واحد فى جميع البلدان الرأسمالية الأكثر تطورا ، أو فى معظمهـا . أما لينين ، فعلى أسـاس معطيـات التطـور الإجتمـاعى الجديدة ، استخلـص أن الثـورة الإشتراكية فى حقبة الإمبريالية ، يمكن أن تنتصـر فى بداية الأمر ، فى عدد قليل من البلدان الرأسمالية ، أو حتى فى واحد منها)[١].

ويضيـف إن لينين (أشار إلى أن الثـورة الإشتراكيـة لايجوز القيام بها بموجب توصيـة ، أو تنفيـذا لإرادة أحد . وإنما ستختمـر فى أوقـات مختلفة ، باختلاف البلـدان . وسيدخل كل بلد خصائصه فى هـذه أو تلك من أشكال التحويلات الإشتراكية ووتائرها . وكانت نظرية لينين هذه للثورة الإشتراكية تقـوى إيمان العمال بانتصار الثـورة الإشتراكية ، وتطـور بإرادتهـم وعزيمتهم الثورية . وسرعان ماأكدت الحياة كل التأكيد صحة تعاليم لينين العبقرية)[٢].

إنها عبقرية فى البعد عن تعاليم ماركس الإلحادية!!!

وممـا يعتبر نتيجة لما سبق ، العدول عن تصدير الثـورة إلى الخارج ، والإكتفاء بدعم الأحزاب الشيوعية الموجودة فى تلك الدول[٣].

وعنـدما اصطدم لينين بالواقع رأى أن الثورة ستقـع ولكن بعد حين ، وأن المجتمعات تسير نحو الإشتراكية ولكن بالتدريج[٤].

---

(١) لينين (٢٢٦-٢٢٧) .

(٢) المرجع السابق (٢٢٧) .
ويظهـر انخداع المؤلف بالفكـر الإشتراكى واعتبر أن هذه عبقـرية وغـاب عنه أنه تراجع لعـدم إمكانية تطبيق الفكـر النظرى فى الحياة الواقعيـة ، ثم إنه من أبسط مايقال للينين ولطلاس وأمثالهما أن الدول الرأسمالية كما هى فى قوتها (المادية) بينما الإشتراكية فشلت وزالت فكيف يسمى أحدا من الزعمـاء الإشتراكيين عبقريا وكيف يعتبر هذا الفكر فكرا سويا .

(٣) انظر كارل ماركس وداعا أم خداعا (٣٧-٣٨) .

(٤) انظر مسائل بناء الإشتراكية (١٠٤-١٠٥) .

إن هـذه السيـاسة قد جعلـت لينين يقع فى تناقضـات مـع نفسه ، ومع الأفكار الماركسية(١).

ثالثا : مـن سمـات التغيير فى عصـر لينين ـ بعـد أن اصطـدم بالـواقع ورأى عـدم إمكانية توافق النبـؤات الماركسية مع انفجـار الثورة فى روسيا ـ القول بالوصول إلى الإشتراكية دون المرور بالرأسمالية .

وهذا إبطال للحتمية التاريخية التى نادى بها ماركس . ودليل على فساد النظـرية الماركسية . والذى حمـل لينين على القول بذلـك هو تخلف النظرية عن الواقع ، وقد اعتبر لينين أن هنـاك مرحلة إنتقالية معينـة بين الرأسمالية والشيوعية ، تمهد للثورة الشيوعية(٢).

وبدورنا نقـول للينين مـاهى هـذه المرحلـة؟!! وهــل وردت فى فكـر ماركس؟!! ثم هل كانت موجودة فى المجتمع السوفييتى قبل أن يصطدم لينين بالواقع؟!!

إن الإجابة الـوحيدة على ذلـك أن الأفكـار الماركسيـة تصـادم الفطـرة الإنسانية ، وترفضها الحقائق العلمية ، وتنقضها الظروف الواقعية .

رابعا : الإبقاء على الرأسمالية .

ومما عجز لينين عن تطبيقه وفرضه حتى بالقوة القضاء على الرأسمالية قضـاء نهائيا ، فقد كانت الفكـرة الماركسية ترى أن ثورة البروليتـاريا تقضى على كـافة الأنظمة الظالمة الـرأسمالية . أما لينين فقـد قـال برأسمالية الدولة وعمل على الإبقاء عليها بل وامتدحها واعتبرها خيرا مــن غيرها فقال : (إننا مولعون بالقول إن الرأسماليـة شر والإشتراكية خير ولكـن هـذا الإدعاء غير صحيـح فـالرأسمالية شـر إذا مـاقورنت بالإشتراكيـة ولكنهـا تعتبر خيرا إذا ماقورنت بأنظمة العصور الـوسطى التى كـانت فى منتهـى الـرجعية ...)(٣).

---

(١) انظر : رسائل حول التكتيك (٨) ، نشوء وإنهيار الإمبراطـورية الشيوعية (٤٠١) .

(٢) انظـر : التحـالف بين العمـال والفلاحين (٣٩٧-٣٩٨) ، الطـريق الـروسى إلى الإشتراكية (٢١-٢٢) .

(٣) نقلا من كتاب النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٠٢) .

ولـن نذهب بعيدا فى بيان حاجة السوفييت لهذه الفكـرة ـ واضعين فى أذهـاننا أنهـا تخالف فكر مـاركس ـ فقد كفانا لينين مـؤنة ذلـك . فيقول عن أهمية هذه الخطوة : (إن رأسمالية الدولة ستكون خطوة إلى الأمـام بالقياس إلى وضـع الأمور الراهن "أى آنذاك" فى جهـوريتنا السـوفيتية . فـإذا قامت رأسمالية الدولة عندنا بعد نصف سنة تقريبا ، فإن هذا سيكون نجاحا ضخما جدا وأوثق ضمانة بأن الإشتراكية سترسخ نهائيا عندنا بعد سنة وتصبح منيعة لاتقهر)(١).

ويقـول : (إن رأسمالية الـدولة كانت تمثل خطوة إلى الأمـام بالنسبـة لوضع الجمهورية السوفيتية الإقتصـادى آنذاك . إن هـذا الـرأى يبدو غريبا جدا ولـربما حتى أخرق لأن جمهـوريتنا كـانت ، حتى فى ذلـك الـوقت ، جمهورية إشتراكية ؛ فى ذلك الوقت ، كنا نتخذ كل يوم ، بأعظم التسرع ، ـ وأغلـب الظـن بنـافل التسـرع ـ مختلـف التـدابير الإقتصـادية الجديدة التى لايمكـن وصفهـا إلا بأنها إشتراكيـة . ومع ذلك ، رأيت آنذاك أن رأسمـالية الـدولة تمثـل خطـوة إلى الأمـام بالقيـاس إلى وضـع الجمهـورية السـوفيتية الإقتصـادى آنذاك . وقد أوضحت هذه الفكرة بعد ذلـك بمجرد تعداد عناصر النظام الإقتصادى فى روسيا . كانت هذه العناصر ، برأيى ، العناصر التالية :

(١ ـ الشكـل البطـريركى للـزراعة ، أى الأكثر بدائيـة ؛ ٢ ـ الإنتـاج البضـاعى الصغير (وهـو يشمـل كـذلك أغلبيـة الفلاحين ممـن يتـاجرون بالحبـوب) ؛ ٣ ـ الـرأسماليـة الخاصـة ؛ ٤ ـ رأسمـالية الـدولة ؛ و٥ ـ الإشتراكيـة . جميع هذه العنـاصر الإقتصادية كانت ممثلـة فى روسيا آنذاك . وقد أخذت على عاتقى آنذاك أن أوضح النسبة بين هذه العنـاصر . ثم أولا يجدر تقـدير أحد العنـاصر غير الإشتراكيـة ، أى رأسمـالية الـدولة ، تقديرا أعلى من تقدير الإشتراكية . وأكرر : أن هذا يبدو غـريبا جدا للجميع ، إذ

(١) مسائل بناء الإشتراكية (٤) .

يقدر عنصر غير إشتراكى تقديرا أعلى ، ويعتبر فى مرتبة أعلى من مرتبة الإشتراكية ، فى جمهورية أعلنت نفسها جمهورية إشتراكية . ولكن الأمر يتضح إذا تذكرتم أننا لم نعتبر اطلاقا النظام الإقتصادى فى روسيا شيئا متجانسا وعالى التطور ، بل أدركنا كامل الإدراك أن لدينا فى روسيا زراعة بطريركية ، أى أن لدينا الشكل الأكثر بدائية من أشكال الزراعة إلى جانب الشكل الإشتراكى . فأى دور إذن كان فى مستطاع رأسمالية الدولة أن تضطلع به فى وضع كهذا؟)[١].

ويرى لينين أن رأسمالية الدولة خير من النظام القائم فى دولته فيقول : (إن رأسمالية الدولة تكون بالنسبة لنا ولروسيا شكلا أكثر ملاءمة من الشكل الحالى رغم أنها ليست شكلا إشتراكيا . فماذا يعنى هذا؟ يعنى أننا لم نستعظم لاجنين الإقتصاد الإشتراكى ولامبادئه رغم أننا قد قمنا بالثورة الإجتماعية ؛ وخلافا لذلك ، أدركنا آنذاك إلى درجة معينة وقلنا : أجل ، كان من الأفضل لو أننا توصلنا أولا إلى رأسمالية الدولة ، ثم إلى الإشتراكية)[٢].

كما أن لينين اعترف بأن رأسمالية الدولة فكرة لم يتحدث أحد عنها ضمن المرحلة الإشتراكية ، وعلى هذا فهى فكرة زائدة على ماجاء به ماركس يقول لينين : (ليس هناك حتى ولاكتاب واحد تناول رأسمالية الدولة فى ظل الشيوعية . إذ لم يخطر حتى ببال ماركس أن يكتب كلمة واحدة عن هذا الموضوع)[٣].

وعندما كان لينين يعتقد مخالفة النظرية الماركسية ، بسياسته تلك فقد أكثر من الحديث عن رأسمالية الدولة وأهميتها وكونها خطوة لتحقيق

---

(١) مسائل بناء الإشتراكية (٤-٥) .
(٢) المرجع السابق (٥-٦) ، وانظر مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (٩٥-٩٦) .
(٣) الصحافة (٣٦٧) .

الإشتراكية[١]، غير أن هذه السياسة تعتبر إبطالا للنظرية الماركسية فى جوانب عديدة منها كخروج الإشتراكية من الرأسمالية ، والحتمية التاريخية ، وانفجار الثورة بعد بلوغ المجتمع الذروة فى النظام الرأسمالى .

خامسا : بعد أن اصطدم لينين بالواقع ضرب بمبدأ دكتاتورية البروليتاريا عرض الحائط وهذا تراجع عن فكرة ماركس أو مخالفة النظرية للواقع لعجزها عن مسايرته . فإذا كان لينين قد استغل العمال ووعدهم بالأفكار النظرية الماركسية حتى ماإذا استقام له الأمر تخلى عن كل الوعود فهذا تراجع عن فكر ماركس .

وإذا كان أراد تطبيقه ولكنه لم يستطع ذلك نظرا لأن الواقع لم يكن ليستوعب هذا المبدأ فذلك دليل على فساد الفكر وكلا الأمرين أحدهما أسوأ من الآخر . وكان لينين يرى أن العمال لايستطيعون القيام بأعباء الحكم والدولة نظرا للجهل الذى هم فيه . فكيف إذا تسمى هذه الثورة ثورة العمال ؟!!

جاء فى كتاب حقيقة الشيوعية إن لينين (يرى العمال جهلة وغير مدربين وليس لهم أهلية للقيام بأعباء الحكم أو الاضطلاع بواجبات الدكتاتورية ، وقد أفسدتهم القرون الطويلة التى عاشوها فى ظل الرأسمالية وتركت رواسبها فى نفوسهم وفى أخلاقهم فجردتهم من كل أهلية للسلطة والتنظيم والإدارة الحازمة ومادامو كذلك فليس من المعقول أن يوكل الحكم إليهم فى هذه الفترة ... وإنما يجب أن تتولى هذه المهمة عنهم جماعة من الثائرين ذوى الوعى والأهلية ...)[٢].

وهذه الجماعة هى الحزب الشيوعى بدكتاتوريته .

---

(١) انظر على سبيل المثال : مسائل بناء الإشتراكية (٦٧-٦٨) ، رسائل حول التكتيك (١٠٢-١٠٣) ، تاريخ النظريات الإقتصادية (٣٨٦) ، نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٩٩) .

(٢) (٤٤) وانظر مابعدها .

إن الواقع الذى قابله لينين ، قد جعله يستبعد كثيرا من الأفكار الماركسية لمصادمتها الواقع ، ولرغبته هو وأفراد حزبه فى تحقيق الرغبات الذاتية والتوجهات الشخصية قبل أن يفكروا فى تطبيق أفكار ماركس التى لايمكن تطبيقها أساسا .

سادسا : من أبرز الأمور التى ظهر فيها تراجع لينين عن الأكفار الماركسية . إعلانه عن سياسته الإقتصادية الجديدة (N.E.B) .

وكانت الأحوال السوفيتية تتطلب مثل هذه السياسة خاصة بعد فشل النظرية الماركسية فى تحقيق ماكان معلقا بها . واعتبرت هذه السياسة ردة عن الفكر الماركسى . يقول لويس فيشر مبينا معنى السياسة الجديدة : (كانت ثورات الفلاحين واشتداد المجاعة وموات الإنتاج قد أرغمت الحكومة السوفيتية فى ربيع عام ١٩٢١م على وضع سياسة تدعى "السياسة الإقتصادية الجديدة" وهى خطة ترمى إلى إقرار الرأسمالية الأهلية ، وتبيح منح امتيازات لرؤوس الأموال الأجنبية)[١].

إن الأوضاع السيئة التى كانت تعيشها روسيا قد جعلت لينين يعلن عن سياسته الجديدة[٢]، حيث كان يتعين عليه (أن يفاضل بين العقيدة والواقع ، فاختار الواقع ، بعد أن اقتنع برفض الشعب لفكرة الشيوعية مالم تكن هناك مرحلة انتقالية يستطيع خلالها أن يتقبل أساليب تطبيق الإشتراكية)[٣].

---

(١) المعبود الذى هوى (٢٦٠) ، وانظر : الإشتراكية العربية (١٧٦-١٧٧) ، العالم فى القرن العشرين (٧١-٧٣) .

(٢) لمزيد عن ذلك انظر : النار والجليد (٢٩) ، إفلاس الماركسية (٧١) .

(٣) النار والجليد (٢٩) .

وصرح لينين أن السياسة الإقتصادية الجديدة لم تقم إلا لتصحيح جملة من الأخطاء التى كانت موجودة(١).

ونحن لانعرف إلا الأفكار الماركسية موجودة حينذاك!!!

ونتيجة لهذه الآثار السيئة عمل لينين على التراجع والتغيير فى مبادىء الشيوعية .

(أ) (فرضت السياسة الإقتصادية الجديدة على القرى تسليم حصص محددة ، على طريقة فرض الضرائب ، ولاقت نجاحا باهرا ، إذ فى خلال فترة قصيرة نسبيا ، تراجعت المجاعة ، وإزداد الإنتاج واستعادت القرى هدوءها)(٢).

(ب) (أعطى الفلاحين حرية بفائض غلالهم واعترف لهم بحق الإرث . فنشطت التجارة الداخلية ، واستعادت المؤسسات الصناعية الصغيرة نشاطها . غير أنه أبقى على رقابة الدولة على المصانع الكبرى والتجارة الخارجية والمواصلات خوفا من عودة الطبقة البورجوازية إلى التسلط على إقتصاد البلاد)(٣).

(ج) (طلب قروضا من الخارج واستقدم الخبراء الأجانب من بريطانيين وفرنسيين وأمريكيين وألمان . فأمسى التنظيم الإقتصادى الجديد مزيجا من الشيوعية والرأسمالية ، عاد معه النشاط إلى مختلف القطاعات ...)(٤).

---

(١) انظر مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (٧٢) .
(٢) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٤٢) .
(٣) النار والجليد (٢٩،٣٠) .
(٤) المرجع السابق (٣٠) ، وانظر الإشتراكية العربية (١٧٦) وذكر أن هذه السياسة الجديدة منحت بعض الشركات الأجنبية بعض الامتيازات وهى شركات رأسمالية ، كما يرى أن الإقتصاد أصبح خليطا من إشتراكية ونظام إقتصادى موجه ، ونظام رأسمالى .
وانظر العالم فى القرن العشرين (٧٤) .

(د) أعلن لينين سنة ١٩٢١م فى اجتماع الحزب العاشر إعادة الملكية الخاصة لبعض القطاعات الإقتصادية . كما سمح ببعض أنواع التجارة الخاصة[١]، واعترفت بقانون الربح ، والدوافع الذاتية من أجل تجاوز الأزمة التى حلت بالبلاد[٢].

ويرى لينين أن بداية السياسة الإقتصادية الجديدة تعود إلى رأسمالية الدولة ، فكتب يقول : (إن رأسمالية الدولة ستكون خطوة إلى الأمام بالقياس إلى وضع الأمور الراهن "أى آنذاك" فى جمهوريتنا السوفيتية . فإذا قامت رأسمالية الدولة عندنا بعد نصف سنة تقريبا[٣]، فإن هذا سيكون نجاحا ضخما جدا وأوثق ضمانة بأن الإشتراكية ستترسخ نهائيا عندنا بعد سنة وتصبح منيعة لاتقهر)[٤].

(هـ) أقر التعامل مع الرأسمالية ورؤوس الأموال الأجنبية . وهذا بحد ذاته اعتراف بالمذهب الرأسمالى ولعله يتضمن الإقرار بنجاح توجهه مقارنة بالإشتراكية فـ(فى ظل السياسة الإقتصادية الجديدة سمح بدخول رؤوس الأموال الأجنبية إلى البلاد تدعيما للاتصال التجارى مع الدول والمراكز الصناعية الغربية الرأسمالية وهى خطوة جريئة وخطرة ، إلا أنها ـ فى رأى لينين ـ كانت لازمة لتوفير العدد والآلات اللازمة لإقامة صرح الصناعة باعتبارها الهدف الأسمى للتنظيم الإقتصادى الذى ينبغى أن توفر كل السبل فى سبيل تحقيقه .

ويقول لينين فى هذا المعنى : (بدون الاستيراد من الخارج لن يتاح لنا إقامة صرح الصناعة ولذلك يجب علينا أن "نرشى" الرأسمالية بالأرباح التى

(١) انظر ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٣٧٧) ، أعده محرروا مجلة التايم الأمريكية ، قدم له ستروب ، ترجمة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م .

(٢) انظر : إفلاس الماركسية (٧١) ، تاريخ النظريات الإقتصادية (٣٨٠-٣٨١،٣٨٢) .

(٣) كان هذا الكلام عام ١٩١٨م .

(٤) مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (٩٤) .

سوف تحققها منا وإننا لمضطرون إلى ذلك طالما أننا فى حاجة ماسة للوسائل المادية لإقامة إقتصادنا الصناعى بمعدل سريع للغاية)[١].

(و) ظهور اللامركزية . والاعتراف بالهيئات المستقلة .

إذ أنه (مع تطور السياسة الإقتصادية الجديدة تحول الإشراف الصناعى من المركزية إلى اللامركزية فانقسمت الصناعة إلى "هيئات مستقلة" كهيئة البترول وهيئة الفحم وغير ذلك من الهيئات . وارتبط بهذه الهيئات التى كانت عبارة عن وكالات للإنتاج منظمات سنديكالية تقوم بالشراء والبيع وتتولى التجارة الداخلية والخارجية . وحتى يمكن تنسيق نشاط الهيئات الاحتكارية اتسع المجلس الإقتصادى الأعلى ليضم ممثلين عن تلك الهيئات ، وبذلك أصبح يشبه مؤسسة عامة للصناعة)[٢].

(ز) الاعتراف بأهمية الحوافز الشخصية والمميزات الفردية ، وقد اعتبر الشيوعيون تلك التبدلات تطوير لفكر ماركس ولكنه تراجع عن فكره واستبداله بفكر آخر يتلاءم وفطر الناس ، حيث (كان لينين فى الفترة الأولى للسلطة السوفيتية قد طور وبرر نظريا مقولة أن نظام العمل فى ظل الإشتراكية يقتضى تلازم التشجيع المعنوى للعمل مع التشجيع المادى "وكذلك إلى حد ما عاصر القسوة مع الجزء القليل من عناصر المجتمع" لقد دعا إلى بناء الإشتراكية والشيوعية "لاعلى الحماس وحسب بل بمساعدة الحماس الذى ولدته الثورة العظمى . أو على المصلحة الشخصية ، والاهتمام الشخصى والحساب الإقتصادى ...")[٣].

(ح) قام لينين بالعمل ضد مبدأ المساواة ، وجعل التوزيع حسب الإنتاج ، ليرفع من القدرة الإنتاجية ، وعمل على التفاضل فى الأجور ، حسب العمل وأهميته ، ودرجة صعوبته ، وخطورته[٤].

---

(١) نقلا من كتاب النظم الإقتصادية المعاصرة (٢٠٢) .

(٢) المرجع السابق (٢٠٤) .

(٣) ف.اى. لينين المؤلفات الكاملة المجد ٤٤ (١٥١) ، نقلا من كتاب تاريخ النظريات الإقتصادية (٣٨٨) .

(٤) انظر تاريخ النظريات الإقتصادية (٣٨٩-٣٩٠) .

(ط) أعلن لينين عدم إمكانية تطبيق دكتاتورية طبقة البروليتاريا ، وكذلك أعلن أنه (من المستحيل تحقيق الإشتراكية دفعة واحدة)[١]. وهذا ينافى التصور الماركسى القائل بالتغيير المفاجىء .

(ى) أعلن التراجع فى مبدأ إزالة الطبقات[٢].

وبعد هذا العرض فهل حقق هذا التراجع شيئا؟

إن الجواب على هذا التساؤل يقودنا إلى القول بأنه كل ماابتعد لينين عن الفكر الماركسى كلما حقق نجاحا وثمارا عديدة ، وهكذا كل من جاء بعده . مما يدل على أن الفكر لم يكن صالحا للتطبيق لتصادمه مع الواقع الإنسانى . ومن ثمرات التراجع والتغيير الذى أحدثه لينين فى هذا الجانب التالى :

أولا : محاولة التخلص من الجمود والتأخر التكنولوجى[٣].

ثانيا : الاهتمام بالفلاح وتعليمه التعليم المهنى ، وتحسين وضعه المادى ليكون أكثر عطاء[٤].

ثالثا : الاهتمام بالصناعات الثقيلة والخفيفة ، مع العمل على تحسين أوضاع العمال فى هذين القطاعين[٥].

رابعا : الاهتمام بالنواحى الفردية للعمال فى الصناعة . يقول لينين : (يجب أن تكون الصناعة الإشتراكية منظمة على الصالح المادى الشخصى والعام وعلى مبادىء التعويض الذاتى والربح)[٦].

---

(١) التحالف بين العمال والفلاحين (٨٧) .

(٢) انظر النظم الإقتصادية المعاصرة (٣٨٦) .

(٣) انظر عن ذلك النظم الإقتصادية المعاصرة (١٩٩-٢٠١) .

(٤) انظر عن ذلك مسائل بناء الإشتراكية (٥٥-٥٦) .

(٥) انظر : مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (١٠٣-١٠٥) ، مسائل بناء الإشتراكية (١٤-١٥) ، لينين (٣٥٥-٣٥٦) ، تاريخ النظريات الإقتصادية (٣٨٢-٣٨٤) .

(٦) نقلا من كتاب تاريخ النظريات الإقتصادية (٣٨٢) .

سابعا : ومما يدل على تراجع لينين فى تطبيق الأفكار الماركسية هو إقراره القومية والوطنية قبل الثورة وبعدها . وجاء الاعتراف فى المؤتمر الذى عقد فى نيسان ١٩١٧م (إنه يجب الاعتراف لكل الأقوام ، التى هى جزء من روسيا ، بحق الانفصال عنها وإنشاء دول مستقلة ، وأن إنكار هذا الحق ورفض اتخاذ التدابير الكفيلة بتطبيقه عمليا يعنى تأييد سياسة الغزو والاستعمار ...)(١).

ثامنا : مما يدل على التراجع والتغيير زمن لينين كثرة الأقوال الواردة عنه وعن غيره فى هذه المسألة (التغيير والتراجع) ، وإن كانت تلبس أحيانا ثوبا آخر من التطوير ، وإقتضاء الظروف وماإلى ذلك غير أن حقيقتها أنها تراجع وعدول عن الفكر الماركسى بسبب عدم إمكانية تطبيقه . وأعلن لينين عن صعوبة تحقيق كثير من الأفكار الماركسية نظرا لعدم تقبلها(٢)، ومن هنا كان لابد من ارتكاب الحماقات . يقول لينين : (لاريب أننا ارتكبنا وسنرتكب جملة ضخمة من الحماقات . إن أحدا لايستطيع أن يحكم على هذا خيرا منى ويراه بجلاء خيرا منى . (ضحك) فلماذا نرتكب الحماقات؟ هذا مفهوم :

أولا : نحن بلد متأخر ،

ثانيا : التعليم فى بلدنا بمستوى الحد الأدنى ،

ثالثا : نحن لانلقى مساعدة من الخارج . فإن دولة واحدة من الدول المتمدنة لاتساعدنا . بل بالعكس . فإن جميعها تعمل ضدنا .

رابعا : بذنب من جهاز دولتنا . فقد أخذنا جهاز الدولة القديم ، وكانت تلك مصيبتنا)(٣).

ولاشك أن لينين قد حلم كثيرا كما كان المؤسس الأول للشيوعية الحديثة ماركس .

---

(١) المسلمون فى الاتحاد السوفييتى (١١٦) ، وانظر العالم فى القرن العشرين (٧٧) .

(٢) انظر التحالف بين العمال والفلاحين (٢٥) .

(٣) مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (١٠٧-١٠٨) .

وقد اعترف من سار على نهج لينين بأنه صاحب أفكار حالمة[١] وإن كانوا يقولونها على سبيل المدح إلا أن الواقع قد أثبت أن الحقيقة أبعد عنها كما بعد مابين المشرقين .

تاسعا : ومما يدل على فساد الأفكار الماركسية ، وعدم إمكانية تطبيقها وأن لينين استبدلها بغيرها ، هو التوتر داخل الحزب والخلاف الذى كان يحصل بين زعماء الثورة مما جعل بعضهم يترك الحزب الشيوعى .

ومما يزيد الأمر إيضاحا أن لينين جاء بأفكار جديدة نسبت إليه يطلق عليها اللينينية .

وبعد هذا العرض السابق أصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن التغيير والتبديل الذى أجراه لينين على الأفكار الماركسية كان عدولا عنها لعدم صلاحيتها للتطبيق ورفض الواقع لها . نظرا لما جرته من ويلات على الشعب .

ثانيا : فى إعتقادى أنه لولا هذه العدولات عن الأفكار الماركسية لما استطاعت الشيوعية أن تعيش هذه الفترة الزمنية رغم قصرها فى حياة الدول الكبرى ، زد على ذلك أن الناس فى بداية الثورة كانوا يتطلعون إلى الوعود التى منحت لهم فهم مندفعون فى تطبيق وتحقيق تلك الأفكار لينعموا بالجنة الموعودة فى ظل الشيوعية . ولولا هذا التطلع لاضطر لينين إلى الكفر النهائى بالماركسية . فجاءت هذه العدولات فى جوانب من الفكر دون غيره ، فالعمال مازالوا ينتظرون فهم فى أول الطريق!!

وعلينا أن نضع فى اعتبارنا ماكان يصرح به لينين من استخدام أقبح الأخلاق من أجل الوصول إلى الغايات .

ثالثا : ينبغى أن لاينخدع أحد بقولهم أو أقوال من تابعهم "أى الشيوعيين" بأن هذه الأفكار اللينينية أفكار تطويرية للماركسية ولو سلمنا جدلا بصحة ذلك فينبغى أن يستمر التطور حتى يطال الفكر الشيوعى بأكمله وهذا يتمشى مع قاعدة الشيوعية التى تقف عند المجتمع الشيوعى.!!

---

(١) انظر : لينيننا (٧٥) ، الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٤٢-٤٤) .

رابعا : ينبغى أن لايفهم من هذا التراجع ابتعاد لينين كليا عن الأفكار الماركسية بل كان مدافعا منافحا عنها رغم فسادها مبررا تراجعه فى بعض جوانبها .

خامسا : أن هذه العدولات والتراجعات قد ولدت الانشقاق فى صف الشيوعيين وأصبحت النظرية الماركسية قابلة للأخذ والرد ، والتفكير فى صلاحها وعدمه ، ومن هنا بدأت الثقة فى هذه النظرية تتزعزع مما حدا ببعض رجال الحزب إلى الكفر بها واعتبارها جحيما لايطاق والأمثلة على ذلك كثيرة(١).

سادسا : أن الشيوعيين اعترفوا بأن النظام الرأسمالى يحقق الرخاء الإقتصادى لأجل ذلك أعيد تطبيق بعض أفكاره حتى بعد قيام الإشتراكية ، وهذا تأباه الماركسية .

سابعا : أن تفجير الثورة البلشفية فى روسيا ثم مالحق ذلك من أحداث وتراجعات أمام سياط الواقع يأتى على الأفكار المادية ، والحتميات التاريخية فيجتثها من جذورها ، وهذا من أبلغ مايرد به على المادية الماركسية بشقيها .

ثامنا : أن لينين افتتح بوابة سقوط الشيوعية الماركسية بسياسته الجديدة وخاصة فى الإقتصاد ، كما أنه أزال القدسية عن الأفكار الماركسية ، وأدخل عليها التعديلات لتناسب الواقع ، وهذا بدوره فتح بابا لمن جاء بعده ليستمر فى الطريق ذاته خاصة بعد استبطاء تحقق النبوءات الماركسية ، وهذا يدعونا إلى الحديث عن التراجع والتغيير زمن ستالين .

---

(١) منهم من خالف فى بعض القضايا كتروتسكى ، ومنهم من كفر بها كلية كجيد ، وليونهارد ، ودجيلاس ، ومنهم من اختط لنفسه فهما فى تفسير آراء ماركس كما يشاء وأصبح له شيوعيته الخاصة به كماو .

المبحث الثانى
التراجع والتغيير زمن ستالين

جوزيف ستالين[١]:

واسمه الحقيقى فيسار بونوفيتش دجوغاشفيلى[٢]

لمحة مختصرة عن حياته :

ولد عام ١٨٧٩م فى مدينة غورى من جورجيا[٣]، وفى عام ١٨٨٨م انتقل إلى المدرسة الثانوية الدينية فى تفليس ، وبعد سنة عمل كاتبا فى تفليس وبدأ ممارسة العمل الثورى سنة ١٩٠٠م ، وفى سنة ١٩٠٣م انضم إلى جناح البلاشفة ضد المناشفة وكان تلميذ لينين ومكنه ذلك من أن يصبح عضوا فى اللجنة المركزية الأولى للحزب البلشفى سنة ١٩١٢م[٤].

ومع بداية الثورة البلشفية كان ستالين منفيا فى سيبريا حيث دامت فترة اعتقاله من ١٩١٣-١٩١٧م ونفى أكثر من سبع مرات[٥].

وقد مارس ستالين دورا كبيرا فى وصول البلاشفة إلى السلطة كما يرى ذلك العسلى حيث اعتقل أكثر من مرة ، وكان مصرا على أن يصل لغايته وكسب شهرة فى وسط العمال وشارك فى عدة مؤتمرات منها مؤتمر (تامرفورس) للإشتراكية الديمقراطية عام ١٩٠٥م وتبع ذلك مؤتمر استكهولم سنة ١٩٠٦م ، ثم فى لندن سنة ١٩٠٧م ، وعندما وجد أن الحزب بحاجة إلى الأموال قام بتنظيم عملية سطو على مصرف فى (تفليس) وأشرف على تنفيذها

---

(١) لقب مشتق من الكلمة الروسية (ستال) ومعناها الفولاذ وحمل هذا اللقب سنة ١٩١٣م . انظر : ستالين (١٣) ، النار والجيد (٧٣) .

(٢) انظر النار والجليد (٧٣) .

(٣) انظر المرجع السابق (٧٣) .

(٤) انظر ستالين (٢١) .

(٥) انظر : النار والجليد (٧٣) ، ستالين (٢٢) .

وكانت علاقاته مع لينين فى سويسرا تزداد ، وتزايدت علاقاته بالقواعد العمالية فتم انتخابه عام ١٩١٢م عضوا فى اللجنة المركزية الأولى للحزب الشيوعى ، وانتقل إلى (بترسبورغ) للعمل فى مكتب اللجنة المركزية وشارك فى تحرير صحيفة النجم والبرافدا . وفى هذه الأثناء لم تغفل أنظار الحكومة عن ستالين وأصدرت الحكم عليه بالنفى إلى سيبيريا من يوليو ١٩١٣م حتى آذار مارس ١٩١٧م ، وفى هذا العام عاد ستالين إلى (بترسبورغ) ليمارس نشاطه فى الثورة التى طالما عمل على النفخ فى رمادها حتى تتوهج ، وقد كثرت فى بداية الثورة الاجتهادات فى تطبيق نظريات ماركس ، فكان لابد من مجابهة المأزق فدعى إلى عقد المؤتمر السادس لحزب العمال الإشتراكى الديمقراطى الروسى فى (بتروغراد) وحضره ١٥٧ عضوا أساسيا ، يحق لهم التصويت ، و١١٠ أعضاء استشاريين ولم يحضر لينين حيث كان مختفيا فى مكان سرى ولم يحضره تروتسكى لأنه كان فى السجن ، ومثل لينين والبلاشفة ستالين ودارت مناقشات شديدة حين كان يعتقد بعضهم أن روسيا لم تنضج بعد لقيام الثورة الإشتراكية[١]، فى حين كان آخرون يعتقدون أن العمال قوة لايمكن الاعتماد عليها[٢]. ونجح[٣]جناح لينين فى وضع منهج لإقامة سلطة شعبية تمهد لانتقال السلطة للإشتراكيين ، وحمل المؤتمر اسم (مؤتمر التوحيد) وتم انتخاب لجنة مركزية ، من ٢١ عضوا ، و١٠ أعضاء احتياطيين وجاء ترتيب ستالين وفقا لعدد الأصوات التى نالها الخامس[٤].

---

(١) قلت لأن هذا خلاف نبوءة ماركس .

(٢) قلت فكيف إذا قامت الثورة باسمهم .

(٣) قلت وماتم هذا النجاح إلا بالابتعاد عن فكر ماركس .

(٤) انظر : ستالين (٤٧-٥٣) ، النار والجليد (٧٣) ، إلا أنه يرى أن دور ستالين فى التمهيد لقيام الثورة كان ثانويا .

أسرته :

(كان والده إسكافيا فقيرا[١]، بينما كانت والدته تعمل فى منظفة للثياب ، كانت أمنية والديه أن يكون كاهنا ، ألحق بأحد المعاهد الدينية إلا أنه سرعان مافصل من المعهد لأفكاره ونشاطاته وآرائه الثورية المناهضة لتعاليم الكنيسة)[٢].

بعض أقوال لينين فى ستالين :

لقد كان لينين صاحب نظرة فى ستالين نظرا لما عرفه عنه ، ولاشك بأنه أعرف به من غيره ، ويذكر لينين القوة التى وصل إليها ستالين ولكنه لايعرف كيف يستخدمها ، ولأجل ذلك طالب بإزاحته عن منصبه .

يقول لينين : (لقد جمع الرفيق ستالين فى قبضته قوة هائلة بعد أن أصبح أمينا عاما للحزب ، ولست متأكدا من أنه يعرف كيف يستخدم هذه القوة بالحذر الكافى)[٣].

ويقول عنه : (ستالين وقح جدا ، وعيبه هذا لايطاق إذا كان يحتل منصب السكرتير العام . لذا فإننى أقترح على الرفاق أن يجدوا طريقة من الطرق لإزاحته عن هذا المنصب ، وتعيين رجل آخر مكانه . رجل أكثر

---

(١) يذكر ستالين عن أبيه أنه (كان صانع أحذية وكان يشرب كثيرا ، حتى أنه اضطر إلى بيع نطاقه من أجل بعض الكحول - الشراب) .
ويقول : (باع والدى نطاقه مرات عدة ، وعندما كنت لاأزال فى المهد ، كان يغمس اصبعه فى كأس من النبيذ ويجعلنى أمصها ، كان يعلمنى الشراب وأنا لاأزال فى المهد) . ستالين (٢٧٧) .
ولاغرابة بعد ذلك أن بعض رفقاء ستالين (قد طلبوا من الخادمات أن يقدمن لهم مياه مصبوغة بدلا من النبيذ ، إذ لم يكن باستطاعتهم مجاراة ستالين فى الشراب) . ستالين (٢٧٥) .

(٢) النار والجليد (٧٣) .

(٣) ستالين (٣٣) .

صبرا ، وأوفر أدبا ، وأكثر اهتماما بالرفاق ، وأقل تقلبا)[١].

وقد شهد الاتحاد السوفييتى فى عهد ستالين توسعا كبيرا فى السيطرة على دول أوروبا الشرقية ، كما امتلك الاتحاد السوفييتى القنبلة الذرية ، وأصبح بلدا صناعيا[٢].

وكان ستالين متسلطا (عرف بالدكتاتور الأحمر حكم الاتحاد السوفييتى حكما فرديا مطلقا بعد إزاحته لكل رفاقه إما بالنفى أو بالاغتيال أو بخلع كل سلطاتهم)[٣].

ومن أبرز الأحداث التى شهدتها الحقبة الستالينية حركات الإبادة والتطهير فى الاتحاد السوفييتى ، وخاصة عام ١٩٣٦-١٩٣٧م[٤]، ولم تكن هذه الحركات ضد فئة معينة بل تجاوزت حتى عمت أفراد المجتمع بأكمله بما فيهم الجنرالات والقيادات العليا التى مكنت الزعماء الشيوعيين من الاستمرار فى القيادة[٥]، لقد (وصل أعداد ضحايا الحقبة الستالينية إلى أكثر من ١٢ مليون ضحية بحجة تطهير البلاد من المعادين للثورة...)[٦].

والذى حمل ستالين على ذلك هو دكتاتوريته ، وتسلطه ، ومحاولته الإنفراد الكلى بالسلطة ، هذا بالإضافة إلى شكه فى الآخرين وذلك نتيجة الحماقات التى كان يرتكبها ويعلم بأنها تثير الآخرين .

---

(١) الموسوعة العربية للدراسات والنشر (٣/٣١٣-١٣٦) ، نقلا من كتاب ستالين (٣٣) ، وانظر لينين (٣٦٢-٣٦٤) .

(٢) انظر النار والجليد (٧٤) ، ولمزيد عن سنوات ستالين انظر ستالين (٢١-٢٤) .

(٣) النار والجليد (٧٣) .

(٤) انظر عن ذلك : النار والجليد (٧٤،١١٧-١١٨) ، غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٨٦) .

(٥) انظر عن ذلك : ستالين (٢٧٤) ومابعدها ، لاللرأسمالية لا.. للماركسية نعم للإسلام (٦٠-٦٢) .

(٦) ستالين (٢٩٦) .

فوقع ضحية الشك ، وضحى بالآخرين من أجل اطمئنانه . ووصل به الأمر فى الشك أنه لايتناول طعاما إلا إذا قام شخص آخر بتذوقه[١].

فرغم الدكتاتورية والقسوة إلا أن الزعيم الفولاذى كان يعيش فى جو من الخوف والهلع والرعب وذلك لتفشى الظلم وانعدام العدل .

وكان الرجل يقوم بحفظ نفسه بدرجة كبيرة فى الكرملين فالأقفال تزداد مرة بعد مرة ، البوابة الرئيسية مغلقة بأنواع من المزالج ، بالإضافة إلى الحواجز ، وثمة سوران وضعت بينهما كلاب الحراسة ، وأجهزة الإنذار الكهربائية[٢].

لقد أصبح ستالين يشك فى كل أحد حتى فى نفسه فقال : (انتهيت ، إننى لاأثق بأحد حتى ولابنفسى)[٣].

وإذا كانت الشرطة السرية ، هى التى ساعدت ستالين على تحقيق دكتاتوريته ، وقيام حركات الإبادة والتطهير ، فإن ستالين قام بتصفية قياداتها خوفا على نفسه[٤]. واستمر ستالين فى القيام بحركات الإبادة ، وفى ظل مرحلة جديدة منها وبالتحديد عام ١٩٥٣م فارق ستالين الحياة[٥].

---

(١) انظر ستالين (٢٧٤) ، ولمزيد عن حالة ستالين تلك انظر نفس المرجع (٢٨٥) ومابعدها .

(٢) انظر المرجع السابق (٢٧٢) .

(٣) المرجع السابق (٢٨٣) .

(٤) انظر العالم فى القرن العشرين (١٥٨-١٦١) ، ولمزيد عن حياة ستالين الشخصية وانفراده بالأمر دون الآخرين انظر : ستالين (٢٥٧) ومابعدها ، العالم فى القرن العشرين (١٥٠-١٥١) ، وعن التصفيات وحركات الإبادة انظر : ميخائيل غورباتشوف ، سيرة ذاتية مفصلة (٤٨-٤٩) ، العالم فى القرن العشرين (١٨٩-١٦٠) .

(٥) انظر : ستالين (٧٤) ، النار والجليد (٧٤) .

وأختم هذه النبذة المختصرة عن حياة ستالين وشخصيتـه بهذا التصوير لأحد أعضـاء الحزب الشيـوعـى اليـوغسلافى ، بل الرجل الثـانى فيـه ، وهو ميلوفان دجيلاس حيث قال فى مقالة له سنة ١٩٤٠م : (هل هناك سعادة أكبر وشرف أعظم من شعورك بأن أقرب رفيق وأحب صديق إليـك هو ستالين؟ لقـد حقـق ستـالين ملحمة الحرية والاخوة بين الشعـوب .. إنه رجل الـدولة الـوحيد الـذى يهتم بمشاكل غيره قبـل مشـاكله . إنه مثـالى : يعلم كـل شىء ويرى كل شىء . وكل ماهو إنسانى قريب إلى قلبه ، عزيز عليه) .

وبعد هذا التمجيد المفرط لستالين يقول بعد أربع سنـوات : (إنه كان واحدا من أقسى الحكام وأشدهم استبدادا فى تاريخ البشـرية ، على أن ذلك لم يقلقه قط ، وذلك لاقتناعه بأن ينفذ حكم التاريخ . ولم يكن يزعج ضميره شىء رغم أن الملايين قد أهلكت باسمه وبالأوامر التى أصـدرها . ورغم أنه أعـدم الألوف من معاونيه بتهمة الخيانة . وماكان ذنبهـم إلا عدم ثقتهم بأنه كان يقود الشعب إلى السعادة والحرية والمساواة ، لقـد كـان صراعه نحو السلطـة طويلا ، غير أنه انتصـر فى النهاية . والانتصـار هـو المقياس الوحيد للحـق . إذا ماهو الضمير؟ هل هو موجود؟ لم يكن للضمير مكـان فى فلسفته فكيف فى أعماله)[١].

---

(١) نقلا من كتاب النار والجليد (٧٥) .

التراجع والتغيير زمن ستالين :

بادىء ذى بدء نقول إن ستالين قد اختلف مع لينين فى بعض القضايا ومن هنا حذر لينين منه .

وحدثت فى الاتحاد السوفييتى فى عهد ستالين أحداث تدل دلالة واضحة على التراجع فى الفكر الماركسى تحت مطارق الواقع الذى يسير وفق السنن الربانية التى لاتتبدل ولاتتغير .

ويمكن إيجاز أبرز العدولات والتراجعات فى الحقبة الستالينية فى التالى:

أولا : اعتراف ستالين بأن الفكر الإشتراكى لايمكن أن يقوم فى بلد مثل روسيا فقال : (إنه من المحال بناء الإشتراكية فى بلد معزول ومتخلف مثل روسيا)(١).

ومعنى ذلك أن ماحصل من إدعاء لإقامة الفكر الإشتراكى فيها لايمكن أن يقبل باعتراف قواد الثورة البلشفية وزعماء الاتحاد السوفييتى . وهذا يؤكد أن النبؤات كان مصيرها الفساد ، وهذا حكم على الفكر فى الأسس التى قام عليها ، فما تفرع منه من باب أولى .

ثانيا : ورغم هذا الرأى لستالين إلا أنه اختلف مع تروتسكى فى مسألة قيام الإشتراكية فى بلد واحد . وزاد الخلاف بينهما حدة وعزل ستالين الاتحاد السوفييتى عن العالم الخارجى وراح يعمل لتكوين الإشتراكية(٢). رغم أنه قال بعدم صلاحية هذه الدولة لقيام ذلك الفكر فيها ، ورغم أن النبؤة الماركسية تقول بعدم قيام الثورة الإشتراكية فى دولة واحدة .

ثالثا : الاعتراف بالملكية الفردية .

ولاشك أن الإقرار بهذه الملكية يعنى نسفاً للإشتراكية من أصولها ، لأن ماركس وانجلز اعتبرا الماركسية أو الشيوعية هى القضاء على الملكية الفردية ، فحينما يأتى النظام ويعترف بها فمعنى ذلك أنه كفران بالفكر ولايمكن أن يفسر هذا الإقرار إلا بذلك رغم ماجاء عن الشيوعيين .

---

(١) ستالين (٣٢١) .

(٢) انظر إفلاس الماركسية (٣٦-٣٧) .

وقد اعترف ستالين بثلاثة ألوان منها :

ملكية الدولة ، الملكية الجماعية (الكولخوز) ، الملكية الفردية .

فسمح ستالين بامتلاك البيوت وثلث فدان يلحق بالبيت أشبه بالحدائق.

وسمح للفلاحين بالتصرف بحرية فى منتجات هذه المزارع الصغيرة الخاصة .

والذى أذهل الروس هو أن المزارع أصبح ينتج من هذا القدر الضئيل الذى سمح له به أضعاف ماينتجه فى المزارع التابعة للدولة أو المزارع الجماعية ، وذلك للحافز الفردى والرغبة فى الربح . ولكن ستالين أرهب من فى روسيا لكى لايتلفظوا بهاتين الكلمتين الربح والحافز الفردى[١].

وفى عام ١٩٤٥م نشرت صحيفة فيستسمان رسالة خاصة من موسكو جاء فيها (أعلن مجلس السوفييت الأعلى للجمهوريات الإشتراكية السوفيتية قانونا جديدا للميراث يهدف إلى حماية الملكية الفردية وحماية حق المالك ، ويقوى فى نفس الوقت الروابط الأسرية ، وقد وصف هذا التطور الأخير بأنه جزء من الاجراءات التى تتخذها الدولة السوفيتية لحماية حقوق المواطنين ، وقد قصرت القوانين السابقة حق الميراث على الأبناء المباشرين وأبناء التبنى والزوج والزوجة والمحتاجين ممن كان يعولهم الميت ، وأما القانون الجديد فإنه يتسع حتى يشمل الأبوين والأخوات ويعين طريقة جديدة لتوزيع الأملاك التى يوصى بها صاحبها ، فيقدم الأقرباء المباشرين على سواهم وهو كذلك يبيح للأفراد أن يهبوا أملاكهم لشخص أو أكثر أو للهيئات العامة بشرط ألا يحرموا الأطفال الصغار أوالورثة ممن لاعمل لهم من حقهم المقرر وعند عدم وجود أى وارث قانونى يكون للمالك الحق فى ترك ماله لأى فرد يشاء)[٢].

---

(١) انظر إفلاس الماركسية (٧٢-٧٣) .

(٢) الإسلام والإشتراكية (٢٢٣-٢٢٤) نقلا من كتاب الاتجاهات الفكرية المعاصرة (٢٠٢) ، وانظر إسلام لاشيوعية (٧٧) .

ومما يدل على الاهتمام بالحافز الفردى وجود الحركة السخانوفية نسبة إلى سيخانوف ، حيث ابتدع طريقة جديدة لزيادة إنتاج الفحم بواسطة إعادة تنسيق عمل العمال فى المنجم ، فأخذت الدولة تكافىء العمال المتفوقين بالأوسمة والمكافآت . وضمهم إلى عضوية الحزب . وهذه الحركة ليست إلا عودة إلى الحافز الفردى . وإن لم يكن بالإمكان إعلان ذلك صراحة لأن هذا محرم فى الفكر الماركسى[١].

ولاشك أن لاهتمام ستالين بالصناعة والزراعة أثر واضح فى التراجع عن مبدأ القضاء على الملكية الفردية ، وقال ستالين عن هذا الاهتمام (نحن اليوم نحقق أمرا ، يمكنه إذا نجح ، أن يقلب العالم ويحرر كل الطبقة العاملة ... ويجب أن نتقدم بشكل تستطيع معه البروليتاريا العالمية أن تقول : هذه هى طليعتنا ، وهذا هو وطننا)[٢].

(لقد أولت الخطة الخمسية الأولى (١٩٢٨-١٩٣٣م) الصناعة الثقيلة كل اهتمام ؛ فاستقدم الخبراء الأجانب وجلهم من الأمريكيين . مما خلق نواة صناعة ثقيلة جاءت على غرار مثيلتها فى الولايات المتحدة ، وانتظمت ضمن مجموعات ضخمة (كومبينات) . وشجعت المعاهد لإعداد المهندسين والمعاهد الفنية لتهيئة العمال ، فارتفعت نسبة الأيدى العاملة إلى ٣٥ بالمئة بعد أن كانت ١٧ بالمائة قبل الحرب . وفى الخطة الخمسية الثانية تعززت الصناعة الخفيفة بغية رفع مستوى المعيشة وتنشيط المواصلات والتجارة . وكوفىء العمال المتفوقون بإعطائهم أجورا أعلى . واختفى المبدأ القائل (لكل حسب إنتاجه) ... وقفزت أرقام إنتاج الفحم والصلب والنفط والكهرباء بسرعة مذهلة ، وتعددت كل الحدود المرسومة لها فى الخطة الخمسية . وأعطيت المصانع مزيدا من الاستقلال والحرية ، وبات يديرها ثلاثة هم : المدير العام ، والمدير الفنى وممثل عن العمال)[٣].

---

(١) انظر : إفلاس الماركسية (٧٣-٧٤) ، النار والجليد (٣٢) .
(٢) النار والجليد (٣٢) .
(٣) المرجع السابق (٣٢) .

وهكذا يعترف بالاستقلالية فى الإدارة ، وإعطاء الحوافز الفردية مما يدل على رفضه لكثير من المبادىء بهذه السياسة منها المساواة ، ومبدأ التوزيع ، والإقرار بالطبقية .

رابعا : رفض ستالين مبدأ الأممية بصورة واضحة واستعاض عنه بمبدأ آخر يناقضه تماما وهو (الوطنية) .

وعندما كانت الأفكار الماركسية تتصادم مع الفطرة الإنسانية ، اضطر ستالين تحت وطأة الواقع وأثناء الحروب أن يلغى هذه الفكرة وأن يعلن بأن الوطن مقدم على كل شيء حيث قال : (على الجندى أن يتعلم فن الحرب ملء ضميره ، وأن يكون جنديا شريفا شجاعا انضباطيا وغيورا وأن يستجيب لأول نداء من أجل الدفاع عن الوطن واتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفيتية برجولة وحكمة ، بنبل وشرف ، مضحيا بدمه وحياته من أجل النصر الكامل على العدو)[١].

وقال عن الحرب ضد المانيا عام ١٩٤١م بأنها (حرب تحرير) ، (حرب من أجل حرية بلادنا) ، وقال عام - ١٩٤٣م - عن ضحايا الحرب أنهم (الأبطال الذين سقطوا فى النضال من أجل حرية الوطن الأم) ، وأعلن ستالين (بأنه لن يتخلى عن شبر واحد من التراب السوفييتى للمعتدين النازيين)[٢].

وقد أطلق الاتحاد السوفييتى على الحرب ضد ألمانيا (الحرب الوطنية العظمى) ، وفى هذا إبطال لمبدأ الأممية ، وإقرار لفطرية الإنتماء . شعر القادة الشيوعيون بذلك أم لم يشعروا . وكانت الانتصارات التى حققها الاتحاد السوفييتى فى حروبه ضد أعدائه بسبب الاندفاع فى الدفاع عن الوطن[٣].

---

(١) نقلا من كتاب ستالين (٢٧-٢٨) .

(٢) نقلا من المرجع السابق (٩٨) .

(٣) انظر عن ذلك القوات المسلحة فى الاتحاد السوفييتى (٣٨-٤٠) .

خامسا : أن ستالين عارض جملة من الأفكار الماركسية واللينينية وحكم عليها بعدم الصلاحية وأعلن التراجع عنها إما قولا أو فعلا ، ومن هذه الأفكار التى تراجع عنها :

(أ) دكتاتورية البروليتاريا : حيث أصبحت الدكتاتورية لفرد واحد ، وتسلط ستالين وأصبح الأمر له دون غيره ، وفى هذه السياسة إبطال للزعم القائل بأن هذه الثورة ثورة للعمال وأن الدكتاتورية لهم . وإذا كانت النظرية قد قالت ذلك فإن ستالين قد أبطل بفعله مانسجته النظرية .

(ب) الاعتراف والإقرار بوجود الطبقات فى المجتمع السوفييتى بل وفى قيادة المجتمع من حزب وجيش ، وبهذا يبطل ستالين فكرة الشيوعية القائلة بالقضاء على الطبقات.

(ج) الاعتداد بالقومية والوطنية ، وهذا مما ترفضه الشيوعية حيث قالت بالأممية .

(د) اهتمام ستالين بالدولة وتقوية سلطتها وإبرازها ، وهذا يتعارض مع المبدأ القائل بزوالها كما جاء عن ماركس وانجلز .

(هـ) ويلزم من الإقرار بالطبقات إلغاء مبدأ المساواة .

ويتحدث ليونهارد عن هذه الأفكار التى جاء بها ستالين وخالف ماركس وانجلز ولينين فيها فيقول : (كنا فى الجانب العملى ، نؤيد الطريق السوفييتى ، وندعم الإجراءات السوفيتية .

كلما زاد الارتباط بسلطة الاحتلال السوفييتى ، وبالاتحاد السوفييتى وضوحا ، كلما اشتد ألم "المغص السياسى" ، واتسع الحديث حول هذا الموضوع بين "الأصدقاء المقربين" . آلمنا التفكير فى احتمال أن نتحول إلى الطريق ، الذى سلكه الاتحاد السوفييتى فى عهد "ستالين" ، ووجهت الأسئلة إلينا - نحن الذين شاهدنا الوضع فى الاتحاد السوفييتى بأعيننا - من بعض القياديين الآخرين - فى جلساتنا الخاصة - عن حقيقة الوضع فى الاتحاد السوفييتى . ولم ينقطع التقاء اللاجئين السياسيين السابقين ، مع المناضلين فى

الحركـات السـرية فى المانيـا ، ومبـادلة الأفكـار التى تقلقهـم حول بعـض الاجراءات . هـل كانت معاهـدة "هتلر ـ ستالين" اتفـاق ضرورى فى السياسة الخارجيـة فقـط؟ ماذا كان الـوضع بالنسبة لتحرير غرب "اوكـرانيا" وروسيـا البيضاء؟ ألم يمتنع تحقيق ذلك نتيجة الاتفاق مع المانيـا الهترلية؟ ألم يكن ذلك ـ يخجـل المرء من الحديث فى هذا الموضوع ـ فى حقيقتـه ، تقسيما استعماريا لبولندا؟ والحرب فى فنلندا؟ ألم يكن الاتحاد السوفييتى ، هو الذى هاجم هذه الدولة؟ ألم تكن عبادة الزعيم ، والتركيز المستمر على "قيادة ستالين العبقرية" و"عصمته من الخطأ" شيئا يتعارض مع الأفكار الأصلية لحركة إشتراكية حية؟ ألم يطالب "ماركس" عند انضمامه لـ"رابطة الشيوعيين" أن يزال مـن النصب كل مايوحى بسيطرة العقائد الخرافية؟

ألم تبين "روزا لـوكمسبرج" ظهـور الأخطـاء "التى ترتكبهـا الحركـات العمـالية الثورية الحقيقية ، وهـى من الناحية التاريخيـة أكثر خصـوبة وأعلى قيمـة من عصمة أحسن اللجان المركـزية من الخطأ؟ ألم تتعـارض النظريات ، التى يطبقهـا "سـتالين" فى الحزب مـع "أفكـار ماركـس" و"انجلـز" عـن حزب العمـال؟ "كل الأعضاء اخوة متسـاوون ، ويجب عليهـم مسـاعدة بعضهم فى كل المواقف" .

هذ ماجاء فى دستور رابطة الشيوعيين التى أسسها "مـاركس" و"انجلز" . ولكنـا نقـرأ عند "ستالين" : (يوجد فى صفـوف حزبنا ـ إذا نظـرنا إلى طبقـة القيـادة ـ عـدد يتراوح بين ٣٠٠٠ و٤٠٠٠ زعيمـا كبيرا ، هـؤلاء هـم هيئـة اللـواءات فى حزبنـا . ثم يأتى بعـد ذلـك عدد يتراوح بين ١٠٠,٠٠٠ و١٥٠,٠٠٠ تحت القيـادة ، ويمكـن أن نطلـق عليهم هيئة مساعدى الضبـاط فى حزبنـا) .

لم نستطع ـ فكريا ـ هضم هذا التعارض الواضح بين الرأى "الماركسى" القـائل بالأخوة داخل الحزب ، وبين التقسيم "الستـالينى" لأعضـاء الحزب إلى ضباط ومساعدى ضباط .

ألم تتعـارض أيضا دعوى زعـامة الحزب الشيوعى السـوفييتى الانفصال

عن "الدور السابق" للاتحاد السوفييتى تعارضا مباشرا مع أسس الحركة العمالية ومع مبادىء "ماركس" و"لينين"؟...

ألم يقل لينين فى ثورة نوفمبر سنة ١٩١٧م : (إنه لشرف كبير للبروليتاريا أن تبدأ .. سلسلة الثورات ، غير أن التزام أفكار البروليتاريا الروسية فى انتقاء البروليتاريا من بين عمال البلاد الأخرى غريب علينا) .

وسياسة "ستالين"؟!

ألم تكن المبالغة فى كل ماهو روسى ، وإظهار الشعب الروسى على أنه "زعيم كل الأمم" ابتعادا كليا عن مبادىء الإشتراكية فى السياسة الدولية؟ ناقشنا موضوع "التطهير" مرارا ، وخاصة حركة التطهير الكبرى فى الأعوام ١٩٣٦ إلى ١٩٣٨م . مضى عليها عشر سنوات الآن ، ومع ذلك كنا نعود إلى مناقشتها بين الحين والآخر .

ألم يكونوا رفقاء "لينين" فى النضال ، وأبطال ثورة أكتوبر ، حصدتهم وزارة الداخلية الروسية؟

ألم يكن مئات الآلاف الذين وقعوا ضحايا حركة التطهير الكبرى ، من المناضلين فى الحرب الأهلية ، ومن قدامى البلشفيين؟ أيمكن أن يكون من المصادفة أن يحرم الاجتماع على البلشفيين القدامى قبل التطهير ، إذا رجعت اليوم بذاكرتى إلى "أحاديثنا الخاصة" فى ذلك الوقت ، فأعتقد أن "مغصنا السياسى" يتلخص فى النقاط التالية :

(١) خضوع الاتحاد الإشتراكى الألمانى ـ أو الحزب "الستالينى" فى بلد آخر ـ للاتحاد السوفييتى ، والحزب الشيوعى السوفييتى ، معارضا بذلك مساواة الحركات العمالية فى كل البلاد ، تلك المساواة التى طالب بها "ماركس" و"انجلز" .

(٢) الدعوى "الستالينية" بأن تقتفى البلاد الديمقراطية الشعبية ـ ويقصد بها الدول الشرقية ، الدائرة فى محور الاتحاد السوفييتى ـ طريق الاتحاد السوفييتى معارضة بذلك إعلان "ماركس"و"انجلز" بأن التطور إلى الإشتراكية فى كل بلد ، يجب أن يسير مطابقا للظروف الإقتصادية والسياسية والثقافية الخاصة بتلك البلد .

(٣) المبدأ الذى نادى به "ستالين" بتقوية سلطة الدولة فى الاتحاد السوفييتى وفى بلاد الكتلة الشرقية ، معارضا بذلك نظرية "ماركس" و"لينين" ، التى تقرر بأن التطور الإشتراكى ، يؤدى إلى إضعاف الدولة ، ثم فى النهاية إلى انزوائها .

(٤) السلطة المطلقة لمديرى مؤسسات الدولة فى الاتحاد السوفييتى ، وفى بلاد الكتلة الشرقية ، وهو أمر يتعارض مع ماطالب به"ماركس" و"لينين" من أن قيادة المؤسسات الصناعية الإشتراكية يجب أن تكون فى يد مجالس عمالية منتخبة .

(٥) دعوى عصمة الزعامة العبقرية من الخطأ ، وخرافة السيادة فى "الستالينية" التى تتعارض مع الاستعداد والنية الخالصة فى معالجة المشاكل بحرية تامة ، كما نجدها فى مؤلفات "ماركس" و"انجلز" ، وكذلك عند "لينين" .

(٦) اضطهاد حرية الرأى فى الحرب ، التى وضحت عندنا بصفة خاصة عندما قرأنا فى مؤلفات "لينين" عن المناقشات الحرة المفتوحة كما كانت العادة سابقا فى الحزب البلشفى .

(٧) التمييز الكبير بين القياديين فى الحزب والدولة ، وفى المجالات الإقتصادية ، وهو يعارض نظرية "ماركس" و"انجلز" و"لينين" التى تقضى بأنه لايجوز لأحد فى المجتمع الإشتراكى أن يتقاضى مرتبا أعلى من أجر العمل الذى يقوم به .

(٨) الإزدياد المستمر فى إجراءات الاضطهاد وكبت الحريات ، وهو يعارض المبادىء التى وضحها "ماركس" و"انجلز" بأن تحديد الحريات يجب أن يكون إجراء مؤقتا فقط ضد مستغلى الطبقات ، ثم يرفع بعد تجريدهم من سلطتهم ، ويستبدل بإجراءات تضمن الحرية الكاملة لكل العاملين فى الدولة)[١].

---

(١) حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (٥٦٥-٥٦٩) ، وعن وجود الطبقات فى المجتمع السوفييتى زمن ستالين انظر حقيقة الشيوعية (٤٧-٤٨) ، وعن وجودها فى الجيش انظر (٤٩) ، وعن وجودها فى الحزب انظر (٥٠-٥١) .

ويبين آرثر كوستلر التحول فى سياسة الاتحاد السوفييتى وعقائده زمن ستالين حيث أبقاه ذلك التراجع فترة أكبر فى الحزب فيقول : (غادرت روسيا السوفيتية فى خريف عام ١٩٣٣م ، ولكنى بقيت فى الحزب أربعة أعوام أخرى ونصف عام حتى أوائل ربيع ١٩٣٨م حين تزلزل إيمانى زلزالا شديدا وإن بقيت بطيئا فى إدراك الأثر الذى حدث فى نفسى ، لكثرة الحواجز والاستحكامات التى كانت مقامة فى أطواء جوانحى ، لاستيعاب كل صدمة ، وامتصاص كل مفاجأة ، كما جاءت عدة أحداث خارجية ، وعرتنى جملة أحاسيس ، فأعانتنى على المضى فى طريقى والبقاء فى الحزب ، وأخرت الهزة الأخيرة ، والقطيعة الفاصلة . وكان أهم تلك الأحداث انعقاد المؤتمر السابع للكومنترن فى عام ١٩٣٤م ، فقد وضع المؤتمر سياسة جديدة تنافى السياسة القديمة على خط مستقيم ، ولكن تتولى الزعامة ذاتها مهمة التنفيذ ، كما هى العادة ، وكانت الخطة الجديدة تقضى بوضع العبارات القديمة والكليشيهات الثابتة ، وكل ماكان يشير إلى صراع الطبقات ، ودكتاتورية البروليتاريا

وفى مخزن الأشياء البالية ، والمخلفات المهلهلة ، والاستعاضة عنها بواجهة طريفة مبتكرة مزدانة بالأزهر والرياحين ، تدعى "الجبهة الشعبية للسلام ومناهضة الفاشية" ، وفتحت أبوابها على مصاريعها لكل الأخيار وسليمى النية من إشتراكيين وكاثوليك ومحافظين ووطنيين .

واقتضى المنهج الحديث الاستخفاف بالفكرة القائلة إن الشيوعيين ينادون بالثورة والعنف ، ووصفها بأنها كلام مزيف أريد به التخويف والتنفير منها ، ووشاية دسها على الشيوعية الرجعيون من طلاب الحرب والمحرضون على إثارة نيرانها .

وهكذا لم نعد ندعو أنفسنا "بلاشفة" ولا"شيوعيين" أيضا ، بل بدأ الحزب ذاته يعبس ويتجهم كلما سمع هذه الكلمة تجر على ألسنة العامة وأفواههم قائلا إننا لسنا إلا قوما صرحاء أمناء محبين للسلام)(١).

(١) المعبود الذى هوى (٨٦) .

التغيير على الصعيد الخارجى زمن ستالين :

يمكن اعتبار لينين هو الذى بدأ سياسة التراجع فى الفكر الماركسى على الصعيد الخارجى وذلك بعقده صلح بريست . ولكن اتضحت معالم هذا التراجع ورسمت له سياسة واضحة زمن ستالين . حيث باشر هذا التراجع بنفسه وجلس مع قادة وزعماء الدول الرأسمالية ـ التى ترى الأفكار الماركسية عدم الالتقاء معها بحال ـ للتفاوض حول عدد من القضايا التى شهدتها الساحة العالمية حينذاك ووقعت بين الاتحاد السوفييتى وتلك الدول عدة اتفاقيات مما يدل على التراجع الفعلى والمباشر فى الفكر الماركسى على صعيد العلاقات مع الأنظمة الأخرى ، ويمكن ابراز أهم ماأقدم عليه ستالين من تراجع مخالفا به الأفكار الماركسية ، فى التالى :

أولا : الاتجاه إلى سياسة التعايش السلمى(١).

اتجه ستالين إلى سياسة التعايش السلمى وعقد المعاهدات مع الدول الأخرى ومنها الرأسمالية ، وهذا يتنافى مع الثورة ضد البرجوازية ، ومع العمل على تقويضها ، وهو اعتراف ضمنى بأن الحتمية التاريخية قد بطل مفعولها نهائيا . بل إن ستالين أخذ يعمل جنبا إلى جنب مع الرأسمالية لتحقيق مصالحه . وكانت الأحداث على الساحة العالمية فى سنوات الحرب العالمية الثانية وماتلاها تدل على ذلك وتؤيده .

ثانيا : إقرار ستالين وتوقيعه ـ فى المؤتمرات التى كانت تعقد بينه وبينه زعماء الدول الرأسمالية ـ على بقاء الرأسمالية وسيطرتها على كثير من المناطق ، وبسط سلطانها على جزء كبير من دول العالم ، وهذا دليل على أن الفكر الماركسى القائل بإنهيار الرأسمالية وقيام الإشتراكية على أنقاضها فكر باطل مبنى على أوهام وتخيلات . كما دل على أن الواقع ينقض الفكر الماركسى من أساسه .

---

(١) سيأتى الحديث عن مفهوم ذلك المصطلح فى الفصل الثانى من الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

ثالثا : تصريحات ستالين المتعددة والمتكررة باحترام الولايات المتحدة حيث قال : (إننا نحترم الفعالية الأميركية التي تبرز في كل الميادين : الصناعة ، التقنية ، الأدب ، الحياة)[١].

ويعلق ميشيل هيلر على ذلك بقوله : (إن السياسة الخارجية السوفيتية مازال بعد خمسة وأربعين عاما في الوضعية التي وصفها ستالين : الاحترام للأميركيين والتعاطف مع الألمان)[٢].

رابعا : احترام القوى الأخرى والتي تتخذ من النظام الرأسمالي عقيدة لها ، أو لاتسير في فلك الاتحاد السوفييتي حيث وافق ستالين على الحياد مع اليابان بعد أن ذكرت أن أهدافها العسكرية تكمن في المحيط الهادي وجنوب شرق آسيا وليس في شمالها الشرقي[٣]. كما وقع ستالين إتفاقية دفاع مع فرنسا عام ١٩٣٥م[٤].

وبعد هذا العرض المختصر نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن ستالين في فكره وتنظيره للفكر الماركسي قد تراجع كثيرا عما كان عليه حال لينين . فكان الأخير قد أكثر من التأليف والتنظير وشرح أفكار ماركس وتبريرها بينما كان ستالين بعيد جدا عن نهج لينين ، لأن ستالين اصطدم بالواقع أكثر من سلفه .

ثانيا : لولا القوة والقهر لما استطاع ستالين فرض بعض مبادىء الماركسية كالتأميم ، ومع ذلك فقد اعترف بما يناقضه وأقر الملكية ، وإن كان في نطاق ضيق ، وعلى هذا لو سمح للشعب بالتعبير عن آرائهم وحرياتهم لكفروا بالمذهب الماركسي كله . ولكن كانت بعض التراجعات والعدولات التي تدخل على بعض الأفكار والمبادىء بمثابة التسكيت لثورة الشعب وسخطه.

---

(١) نقلا من كتاب نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٤٠٣) .
(٢) المرجع السابق (٤٠٣) .
(٣) انظر العالم في القرن العشرين (١٦٣) .
(٤) انظر المرجع السابق (١٦٤) .

ثالثا : لقد امتد أثر الفكر الدكتاتورى الستالينى لمن جاء من بعده ولأجل ذلك كان الخوف يطارد الناس كلما تذكروا حملات الإبادة والتطهير مما كان له أثر واضح فى تأخر إنهيار الفكر الشيوعى الماركسى . علما بأن من جاء بعد ستالين (خروشوف) قد فضح شيئا من أفعاله وجرائمه ، وهذا بعد وفاة ستالين بالطبع .

رابعا : أن الحقبة الستالينية أفقدت الأفكار الماركسية كثيرا من معالمها ، مما جعل الصين يتهمون السوفييت بأنهم كفروا بمبادىء ماركس .

خامسا : ثبت من العرض السابق رجوع ستالين فى سياسته الداخلية والخارجية عن المبادىء الماركسية التالية :

(أ) الأممية .

(ب) إلغاء الطبقات .

(ج) الثورة ضد الرأسمالية (التعايش السلمى) .

(د) زوال الدولة .

(هـ) المساواة .

سادسا : أن ستالين فتح المجال على مصراعيه فى مسألة التعايش مع الرأسمالية ، رغم دكتاتوريته ، كما شكلت سياسته التسلطية مرتعا خصبا لخلفه من أجل انتقاد النظام الشيوعى . كما أدت سياسته تلك إلى تذمر الشعب وشدة شكهم فى النظام ، وصلاح الفكر القائم عليه . هذا بالإضافة إلى أن ستالين قد جوع الشعب حيث وجه موارد البلاد إلى التصنيع الحربى فى حين كانت الأسواق السوفيتية تفتقر إلى كثير من الحاجيات والضروريات الغذائية . وكل هذا أدى بدوره إلى أن يكون سلف ستالين أكثر تراجعا وابتعادا عن تطبيق الفكر الماركسى فى عالم الواقع ، وهذا ماسيظهر لنا من خلال المبحث التالى .

المبحث الثالث
التراجع والتغيير زمن خروشوف

لمحة تاريخية مختصرة عن حياته :

نيكيتا خروتشوف ، ولد عام ١٨٩٤م فى كالينوفكا بمقاطعة كورسك الواقعة على الحدود الفاصلة بين روسيا وأوكرانيا . عمل فى البداية راعيا ، ثم عمل فى مصانع الصلب والحديد .

وفى عام ١٩١٨م انتسب إلى الحزب الشيوعى ، وحارب إلى جانب الحرس الأحمر أثناء الحرب الأهلية ، وفى عام ١٩٢٢م انتسب إلى الجامعة العمالية وأصبح أمين سر الخلية الشيوعية فيها . وبعد الانتهاء من الجامعة العمالية عمل فى الحزب الشيوعى الأوكرانى .

وفى عام ١٩٢٩م أوفد إلى موسكو للدراسة فى أكاديميتها الصناعية .

وفى عام ١٩٣١م عاد إلى أوكرانيا وعمل سكرتيرا لعدة لجان حزبية .

وفى عام ١٩٣٢م انتخب عضوا فى الحزب الشيوعى .

وفى عام ١٩٣٧م انتخب عضوا فى اللجنة المركزية ، وفى عام ١٩٣٨م انتخب سكرتيرا أولا للحزب الشيوعى الأوكرانى .

وفى عام ١٩٣٩م اختير عضوا فى المكتب السياسى وهو منصب رفيع يعتبر صاحبه من القادة الفعليين فى الاتحاد السوفيينى .

وفى عام ١٩٤٣م منح رتبة فريق ، مع بقائه على العمل سكرتيرا أولا للحزب الشيوعى الأوكرانى .

وفى عام ١٩٤٩م انتقل إلى موسكو وأصبح أحد سكرتيرى اللجنة المركزية للحزب .

وفى عام ١٩٥٢م انتخب عضوا فى المجلس الرئاسى للجنة المركزية ولأمانة سر اللجان .

وفى عـام ١٩٥٣م وبعـد وفـاة ستـالين انتخـب خروشـوف أمينـا عـاما للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى[١].

وظل فى الحكم حتى الخامس عشر من تشرين الأول ١٩٦٤م وفى سـاعة متـأخرة منـه صدر بيان جاء فيـه إن (اللجنـة المركـزية ، استجـابت لطلـب الـرفيق نيكيتـا سرغيفيتيش خروتشـوف باعفائه من مهـامه كـأمين عام للجنة المركـزية للحـزب الشيوعى وكعضـو فى رئاسته المركـزية ، وكـرئيس لمجلس الـوزراء السوفييتى بسبب تقدمه فى السن وتدهور حالتـه الصحية ، وانتخبت ليـونيد ايلتيـس بريجنيف وكـان خروتشـوف حينها يمضـى أجازته فى جزيرة القرم)[٢].

و(بعـد الإطاحة به مباشـرة فى أكتوبر ١٩٦٤م أمضـى نكيتـا خروشوف بقيـة حياته فى بيت تملكه الـدولة فى قرية تبعد عشرين ميلا إلى الغـرب مـن موسكو تحت رقابة مخففة . كـان حرا فى التجـول فى حديقـة البيـت وحده ، وفى التسلـل أحيانا من فتحة السياج والسير فى طريق الغـاب المحيط بالقرية أو على ضفـاف نهـر موسكو القـريب حيـث يقابل المتقـاعدين ، والقـرويين المحليين ، والقـادمين لقضاء إجازاتهم ، فيحادثهم ويتصـور أحيانا معهم)[٣].

ومـات سنـة ١٩٧١م فى شهـر أيلـول/سبتمبر فى الحادى عشـر منـه[٤].

وتكـاد تتفـق الآراء على أن أبرز الأسبـاب التى كـانت وراء تنحيـة خروتشوف هى :

---

(١) انظر النار والجليد (٧٩-٨٠) .
(٢) المرجع السابق (١٢٦) ، وانظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٢٩) .
(٣) من مقدمة كتبها جارولد شختر لكتاب الوصية الأخيرة لخروشوف (١٣) .
(٤) انظر النار والجليد (٨٣) .

(١ ـ إنفراده بالسلطة خلافا لمبدأ القيادة الجماعية الذى أقر بعد وفاة ستالين وفى المؤتمر العشرين للحزب .

٢ ـ فشل سياسته الزراعية .

٣ ـ الإساءة إلى هيبة الاتحاد السوفييتى إبان أزمة الصواريخ الكوبية .

٤ ـ الإساءة إلى هيبة منصبه الحزبى والحكومى بتصرفات مظهرية أفادت منها الدعايات الغربية ...

٥ ـ تفاقم الخلافات وتبادل الاتهامات مع قيادة الحزب الشيوعى الصينى)[١].

التراجع والتغيير زمن خروشوف :

يعتبر زمن خروشوف أكثر تغييرا وتبديلا فى العقائد الشيوعية ، حيث تنفس الشعب إلى حد ما الصعداء بعد العهد الستالينى . حتى أن دجيلاس اعتبر أن مجرد اختيار خروشوف للرئاسة بحد ذاته يعتبر تراجعا فى السياسة التى كان ينتهجها ستالين ، فيقول : (جاء خروتشوف إلى الحكم كرجل شعبى غير مثقف ، وتفسير ذلك أن الطبقة البيروقراطية الجديدة ، لم تعد بحاجة إلى الثوريين والعقائديين المتصلبين أمثال لينين وستالين . لذا فإنها باتت تكتفى باستقدام الشخصيات القيادية البسيطة ... الذين يستشف من أحاديثهم بأنهم ممثلين للفكر المحدود ، الذى يتسم به رجل الشارع . إن الطبقة البيروقراطية الجديدة الحاكمة قد شعرت بالتعب يمتد لأوصالها نتيجة عمليات التطهير العقائدية ، والدورات التثقيفية غير المحتملة ، وبدأت تطمع إلى العيش الهادىء . كما رأت أن من الضرورى بالنسبة لها ـ بعد أن توطدت أسسها وتعززت مكانتها ، أن تحمى ذاتها من الزعماء الكبار . إن الطبقة

(١) النار والجليد (٨٣) .

الجديدة لم تجرؤ على التحرك فى ظل الحكم الستالينى ، ولاسيما عندما كانت ضعيفة وتترعرع تحت حمايته ، بل وعندما كانت التدابير العنيفة أمرا ضروريا لمعالجة أولئك الذين يشكلون خطرا انحرافيا ، حتى بما فيهم أولئك الأعضاء الذين ينتمون للبيروقراطية السياسية ذاتها)[١].

ومن هنا يمكن إبراز أهم نقاط التغيير زمن خروتشوف فى الآتى :

أولا : إقرار الملكية الفردية ، والارتقاء بالحافز الفردى ، وتحقيق الحرية بصورة أكبر .

(أ) يقول الدكتور عمر حليق : (ففى السياسة الداخلية تعمد خروتشوف العزوف عن الصرامة القاسية التى مارسها "ستالين" ، وخاصة فى بطشه بالمجتمع الزراعى ، وتقييده الحريات العامة ، وتسليطه الأجهزة البوليسية على الناس . واهتم خروتشوف بالشئون الزراعية . فالمجتمع الروسى زراعى فى أغلبيته ، والعقيدة الماركسية لاتطمئن إلى ولاء المزارعين ، لأنهم أشد الناس حرصا على الملكية الفردية . وقد لقى ستالين أعنف المقاومة من المزارعين عند تطبيقه الملكية الجماعية ، وجعل الفلاح عاملا للدولة لاعاملا لنفسه . وبسبب سوء التصرف هذا ظل الاتحاد السوفييتى عاجزا عن تغذية نفسه ، رغم الأراضى الواسعة الفسيحة الهائلة التى يملكها فأدخل خروتشوف برنامج الإنتاج الكثيف من السماد ، وأطلق بعض الحريات العامة للمزارعين فى الملكية الفردية ، وأصر على تحسين الإنتاج الصناعى لسد حاجة الشعب من سلع الاستهلاك ، كالبرادات ، والسيارات ، وأجهزة المطبخ وكذلك اهتم بمشاكل الإسكان فى المدن والقرى ، كما أوصى بضرورة التوسع فى وسائل النقل وتحسين طرق المواصلات ، فالاتحاد السوفييتى متخلف تخلفا شنيعا بالقياس إلى الصناعة الثقيلة)[٢].

---

(١) الطبقة الجديدة (٧٣-٧٤) .

(٢) دور الماركسية فى الإشتراكية العربية (٣٨-٣٩) .

ويقول غيردروغ عن الإصلاح الزراعى وتخفيف الوطأة على الفلاحين ومنحهم مزيدا من الحرية زمن خروشوف : (أثر وفاة ستالين ، أخذت حياة الفلاحين بالتحسن شيئا فشيئا ، لم تكن لديهم بطاقة هوية ولايستطيعون كالاقنان مغادرة أرضهم فجرى تخفيض الحصص التى يتوجب على الفلاحين والعمال الزراعيين تسليمها سنويا إلى الدولة ، وبوشر بتطوير المكننة الزراعية ومنحوا مزيدا من حرية التقرير ، فلم تعد السلطات المركزية فى موسكو هى التى تقرر ماينبغى زراعته فى الأراضى الكولخوز ، بل سلطات المناطق المعنية . فى نهاية الخمسينات ، ألغيت محطات الآليات والجرارات وبيعت الآليات إلى الكولخوزات ، وقد شكل ثمن شرائها المرتفع عبئا جديدا على كواهلها . وتم تحسين نظام تدوين المحاصيل الزراعية . وأعلن عن توفر محاصيل جيدة فى أراضى كازاخستان ، التى جرى استغلالها بناء لتعليمات خروتشوف ، الأمر الذى خفف عن كاهل الزراعة فى المناطق الأخرى)[١].

(ب) الاهتمام بالحافز الفردى ومسألة الربح وعائد الإنتاج للعامل والتقليل من المركزية فى التخطيط ومنح مديرى المؤسسات الحرية فى إدارتها مع مراقبة هذه الحرية . وقد اعتبر التراجع فى الأمور المذكورة سابقا عودة إلى الرأسمالية . كما اعتبرها الصينيون ردة عن المبادىء الماركسية . وقد جاءت هذه التغيرات فى خطاب كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفييتى فى أواخر شهر سبتمبر ١٩٦٥م أمام الاجتماع الموسع للجنة المركزية لحزب الشيوعى السوفييتى بعد أن انتقد المرحلة الماضية وذكر تردى الدخل وقلة الإنتاج وقلة التشجيع المادى[٢].

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٢٠-١٢١) .

(٢) انظر بعض ماجاء فى خطابه عن الفترة السابقة فى كتاب الإشتراكية العربية (١٧٩) ومابعدها .

(وبعد أن أبرز خطاب كوسيجين هذه النقائض انتقل إلى ماستقر عليه الرأى لتفاديها فى المستقبل وعرض الأمور الآتية التى تعتبر جوهر التطوير الجديد :

أولا : الاهتمام بالحوافز المادية على نحو أكثر فاعلية بحيث يشعر العمال بأثر العائد المادى فى حياتهم المعيشية مباشرة . ويجب أن يرتبط الحافز المادى بإنتاجية العامل الفعلية .

ثانيا : الاهتمام بعنصر الربح باعتبار أن الربح يشكل معيارا - فى حالات كثيرة - يقاس به نجاح المشروعات الصناعية .

ثالثا : ضمان وتأكيد مبدأ الإدارة الذاتية لكل فرع من فروع الصناعة واعتبار الإدارة الذاتية جزء لايتجزأ من التنظيم الإقتصادى .

رابعا : الاهتمام الجدى بحساب التكاليف تجنبا لما يحدث من ضياع وزيادة فى الكلفة الإنتاجية بغير مبرر .

خامسا : التقليل من مركزية التخطيط وعدم "إرباك" المؤسسات الصناعية بالقرارات الكثيرة التى تأتيها من الجهات المركزية والاكتفاء بأقل قدر ممكن من هذه القرارات ، مع ترك الحرية لمديرى هذه المؤسسات فى إدارتها ومحاسبتها عن هذه الحرية ؛ كل ذلك فى إطار نظام عام للتخطيط يسير على أساس خطط خمسية)(١).

ثالثا : ومن التراجع الواضح فى السياسة السوفيتية زمن خروتشوف فتح باب النقد وحرية الرأى والتعبير . ولكن لكون الشعب لم يعتد ذلك الأسلوب فقد ظل الخوف ملازما له فترة من الزمن .

وكان الرفيق خروتشوف هو الذى بدأ الولوج من هذا الباب عندما قام بالقاء خطاب سرى فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى ، ويقوم الخطاب على نقد ستالين وفضح كذبه وخداعه وغطرسته واستبداده (فضح

---

(١) نقلا من كتاب الإشتراكية العربية (١٨٠) .

الستالينية)[١].

ومما جاء فى هذا الخطاب قوله عن ستالين :

(شخص يدرك كل شىء ، ويرى كل شىء ، ويعرف كل فرد ، ولايخطىء أبدا ، إن الاعتراف بمثل هذه الصفات غير العادية فى شخص ما هو الاعتراف به إلها ولكن ظلت هذه عقيدتنا حول ستالين لسنوات طوال وقد نقضتها اللجنة المركزية بعد وفاته) .

ويقول : (ولم يكن ستالين يعرف التفاهم بل كان يفرض آراءه فرضا وكان يطالب الناس بالطاعة العمياء وكان يقضى للأبد على الذى لايطيعون أو يختلفون معه فى وجهات النظر وقد وقع كبار زعماء الحزب وعماله ضحايا دكتاتوريته فى أعقاب المؤتمر السابع عشر للحزب) .

ويقول : (ودكتاتورية فرد ما جعل الآخرين ـ أيضا ـ يمارسون الدكتاتورية فتم اعتقال مالايحصى من الناس وتم نفى الألوف ، وصدرت الأحكام بدون الإجراءات القضائية والتحقيقات ، وأدى هذا الأسلوب إلى نشوء حالة من انعدام الأمن وجعل الناس يفقدون الأمل) .

ويقول : (وقد اتضح أن الذين أطلق عليهم وصف "الأعداء" خلال سنتى ١٩٣٧-١٩٣٨م لم يكونوا أعداء فى حقيقة الأمر ، ولم يكونوا جواسيس ولاكانوا إرهابيين ، بل كان معظمهم من الشيوعيين المخلصين جدا ، لقد تم التشهير بهم وانتزعت منهم الإعترافات بجرائم خطيرة بواسطة تعذيبهم الجسدى المروع . وحدث فى تلك الأيام أن ألقى القبض على ٩٨ شخصا من مجموع ١٣٩ قياديا ، انتخبوا أعضاء باللجنة المركزية للحزب خلال المؤتمر السابع عشر وأعدموا بالرصاص ، ولم يكن هذا هو مصير أعضاء اللجنة المركزية وحدهم ، بل هكذا عومل مندوبو المؤتمر الثامن عشر للحزب ، فتم

---

(١) سنجد هذا الأمر يتكرر لدى غورباتشوف بل كان من الأمور التى ركز عليها فى حملته الإصلاحية .

القبض على أكثرهم أى ١١٠٨ أشخاص من مجموع ١٩٦٦ مندوبا ، وذلك بتهمة "جرائم ضد الثورة"(١).

أثر خطاب خروشوف :

إن الخطاب الذى ألقاه خروشوف وركز فيه على فضح الحقبة الستالينية يعتبر حدثا غريبا على المجتمع الشيوعى . حيث لم يعتد الشعب على مثل ذلك النقد المباشر ولمن؟ لستالين الدكتاتور . هذا عدا أن خروشوف لم يعرض خطابه على مجلس رئاسة الحزب . ومن هنا يمكننا القول بأن الخطاب كان له آثارا عديدة من أهمها :

(أ) كسر حدة الخوف والسكوت إلى حد ما مما كان له أثره البالغ على حرية الرأى والتعبير والانتقاد والتوجيه .

(ب) كان له أثره على المدى البعيد حيث أصبح من أعضاء الحزب من يرى أهمية التراجع والتغيير وأنه سبب فى الخروج من المآزق التى يعيشها الاتحاد السوفييتى .

(ج) خفت حدة السيطرة الشيوعية السوفيتية على الأحزاب الشيوعية خارج الاتحاد السوفييتى لأن الخطاب قد حذر من الدكتاتورية والتسلط .

(د) كذلك أدى الخطاب إلى نتيجة عكسية للنتيجة السابقة وهو تشدد بعض الأحزاب أو بعض الأنظمة الأخرى كنظام الصين الشيوعى حيث أصبح العداء أكثر علانية .

(هـ) أدى هذا التقرير إلى دعم سياسة الانفتاح على العالم الخارجى .

---

(١) نيويورك تايمز ، العدد (٥) يونيو ١٩٥٦م . نقلا من كتاب سقوط الماركسية (١٢٤) وعن الخطاب انظر : النار والجليد (٧٤-٧٥،٨٠-٨١،١٢١) ، ستالين (٣٣٨-٣٤٧) حيث ورد فقرات من هذا الخطاب موزعة بين تلك الصفحات ، العالم فى القرن العشرين (٤١٩) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٠١) .

(و) أثر هذا التقرير حتى فى أتباع ستالين ومؤيديه فهـذا الأديب الأمريكى Hwand Fast وكان عضوا بارزا فى الحزب الشيوعى الأمريكى يقول : (لقد كنا أنا ، وآخرون من أعضاء الحزب الشيوعـى ، قد أدركنا قبل وقـت طويل من نشر خطاب خروشـوف السرى ، أن هنـاك عيبا مؤلما فى الحركـة الشيـوعية العالميـة ، وكان هذا الإدراك قـد دفعنى وآخرين كثيرين إلى ميـل نحو التغيير وبالـرغم مـن هـذا الإدراك ، لم نكـن مستعـدين للانكشـافات النـارية والجهنميـة التى وردت فى تقـرير خروتشوف السرى ، فقد فاقت حدود الدهشة وأوهامنا ، وفاقت أسوأ الاتهـامات التى كـان أعداء الاتحاد السـوفييتى يوجهـونها إليـه ، فامتلأ قلبى نفورا وحقارة ، وكنت أشعر بكآبة عقلية لاحد لهـا من أننى كنت أؤيد هـذه اللعبة الدموية الظـالمة ، وشعرت ـ كـالآخرين بأننى وقعت ضحية لخدعة فى التاريخ الحديث لاسبيل إلى وصفها)(١).

(ز) اختفـت أو كـادت موجات التطهير والتقتيـل ، يقـول فـارغا : (قضى ستـالين نحبه فى عام ١٩٥٣م ، وبعـد هذا التاريخ كـان يمكن للمرء أن يتصور أن ثمة تغييرات هامة طرأت على حياة المجتمـع السوفييتى ، فقد استعـادت الشـرعية حقـوقهـا ، ومـاعاد الأبرياء يشهـر بهـم على أنهـم "أعـداء للشعـب" ، وماعـادوا يعتقلـون ويحاكمـون فى جلسـات سرية فيعدمون أو ينفون أو يحبسون فى معسكرات اعتقال)(٢).

وهكذا كان خطاب خروشوف ذا أثر بالغ على السياسة السوفيتية سواء فى الـداخل أم الخارج . وفتـح الباب بصورة لم تكن معهـودة من قبل لمسألة النقد وذكر النقائص والمصائب التى تعترى النظام السوفييتى فى حين كان هذا أمرا غير مقدور عليه من قبل وضريبته القتل .

---

(١) من مجلة تحريك دهى عدد يونيو ١٩٥٧م نقلا من كتاب سقـوط الماركسية (١٢٦) .
(٢) الطـريق الروسى إلى الإشتراكيـة (٧٨-٧٩) ، وانظر : الأنظمـة السياسية المعاصرة (٢٧١) ، الإشتراكية العربية (١٩٠-١٩١).

رابعا : من التراجع الواضح الذى سجلته فترة خروشوف إطلاق سراح السجناء ، وإخراجهم للعمل فى مصالح الدولة ، وعدم اعتبارهم أعداء للشعب . يقول خروشوف : (كان المساجين فى الماضى يعتبرون مجرمين ، ويعاملون بناء على ذلك ، ولكنهم عموما وجدوا منا معاملة إنسانية . اعتبرناهم نتيجة المجتمع الرأسمالى ، وشعرنا أن على مجتمعنا الإشتراكى أن يعيد تربيتهم لاأن يعاقبهم)[١].

وتم الإفراج عن عشرات الألوف ، وشهد الفلاحون تحسنا ملموسا فى مستوى معيشتهم ، وتنفست موسكو الصعداء إلى حد كبير[٢].

إن خروشوف هو الذى انتهك المحرمات التى أحيطت بأعمال الإرهاب والسجن والتقتيل[٣]. ومن هناكان عليه أن يتلافى كثيراً من الأخطاء التى وقع فيها سلفه .

خامسا : التراجع فى مبدأ دكتاتورية البروليتاريا حيث أعلن خروشوف أن ("دكتاتورية البروليتاريا" لم تعد ضرورة)[٤].

كما اعتبر خروشوف أن هناك (تغييرات جذرية يجب أن تطرأ على تطور الدولة ، فبانتصار الإشتراكية أصبحت "ديكتاتورية البروليتاريا" منظمة سياسية لكل الشعب . وبناء على هذا أعلن "خروتشوف" انتهاء "ديكتاتورية البروليتاريا" وحلول دولة ـ "كل الشعب" فى محلها ، كما قال : إن "ديكتاتورية البروليتاريا" ليست هى التى ستضمحل ، ولكنها دولة كل الشعب)[٥].

---

(١) الوصية الأخيرة (٨٤) .
(٢) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٦) .
(٣) انظر المرجع السابق (٤٠) .
(٤) نقلا من كتاب أفكار ماركسية فى الميزان (٤٤) .
(٥) المرجع السابق (٤٤) ، وانظر شهادتى للتاريخ (٢٧٢) .

أما على الصعيد الخارجى :

فإن سياسة خروشوف حققت تقدما كبيرا سواء مايتعلق بالعلاقات مع الدول الأخرى ، أو مايتعلق بالأفراد داخل الاتحاد السوفييتى وصلتهم بالعالم الخارجى .

ويمكن القول بأن أبرز سمات هذا التراجع تظهر فى التالى :

أولا : التراجع فى مبدأ تصدير الثورة إلى الخارج ، وسحب القوات السوفيتية من بعض دول أوروبا الشرقية من أجل التعايش السلمى مع الغرب الرأسمالى . يقول خروشوف : (شعرت ، حين كنت رئيسا للحكومة والحزب ، بأن من المهم خفض عدد الجيش السوفييتى وبدء سحب قواتنا من البلاد الأخرى ، فخفضنا جيشنا الدائم إلى نصف ماكان عليه أيام ستالين ، وسحبنا قواتنا من فنلندا والنمسا ورومانيا . كذلك اقترحنا سحب حامياتنا من هنغاريا وبولونيا . لم يكن لنا جنود فى تشيكوسلوفاكيا أو بلغاريا ، أما جمهورية المانيا الديمقراطية فقد شعرنا بضرورة استمرار وجودنا العسكرى فيها ، فقد اتضح تماما للجميع أنه مالم يوافق حلفاؤنا السابقون ، الذين نظموا حلف "ناتو" على معاهدة سلام ستبقى جيوشنا فى مراكزها ، ذلك بأن الغرب أقام فى المانيا الغربية قوة كبيرة ، فكان لابد لنا من المحافظة على توازن القوى)(١).

ثانيا : عدم التدخل فى شئون الدول الأخرى من دول أوروبا الشرقية والاكتفاء بربطها بالاتحاد السوفييتى سياسيا وإقتصاديا دون التدخل فى شئونها عسكريا . يقول د. عمر حليق : (ولكى يضمن عهد "خروتشوف" هدوءا على الجبهة الأوربية ، بعد ثورة المجر سنة ١٩٥٦م وثورة المانيا الشرقية سنة ١٩٥٣م ، أطلق "خروتشوف" الحرية لنظم أوروبا الشرقية الخاضعة لنفوذه ، كى يغطى الحركات الإشتراكية الثورية فيها طابعا "قوميا" ، وأن تطلق بعض الحريات ، وأن تتعامل مع الغرب ، فى التبادل الثقافى وفى شؤون السياحة

---

(١) الوصية الأخيرة (١٣٨) .

وفى المعاملات التجارية . وقام الاتحاد السوفييتى نفسه بإذابة طرف من الجليد الذى اكتنف عزلة المعسكر السوفييتى كله فى علاقاته بالغرب الأوروبى والأمريكى أيام ستالين ، ونشط عهد "خروتشوف" لحضانة كل حركات اليسار الثورية الخارجية على أسلوب ستالين فى عدم المغامرة بالتدخل العسكرى السوفييتى المباشر ، واكتفى بربط الولاء العقائدى والسياسى والمصالح الإقتصادية لنظم اليسار القومية الأجنبية ربطا واسعا بالاتحاد السوفييتى وموارده وحضانته ، فى معاهدات ثنائية ، وفى القروض والهبات ، وفى المشورة السياسية ، وفى افتعال "جبهات" عدم الانحياز ، على أن يكون عدم الانحياز موجها ضد المعسكر الغربى ، أو ضد الصين الشيوعية أو ضدهما معا . وكان خروتشوف فيما فعله يتحسس بوجدانه القومى الروسى لابقميصه الماركسى الثورى . وهذا الإحساس القومى هو الذى جعل خروتشوف يقتبس اقتباسا سافرا بعض ماعند الأمريكيين من اجتهادات وأساليب ، ولم يخجل من ذلك)(١).

ثالثا : الانفتاح الكبير الذى شهده عصر خروتشوف على الدول الرأسمالية كان له أكبر الأثر فى وقت لاحق حيث حدث التقارب بصورة كبيرة بين الدول الغربية والاتحاد السوفييتى عامة ، وبينه وبين أمريكا خاصة. كما انتهج خروشوف سياسة الانفتاح تلك مع دول العالم الثالث(٢).

رابعا : أما مايتعلق بالشعب وصلاته بالعالم الخارجى . فإن سياسة ستالين جعلت الشعب السوفييتى خلف سور حديدى يمنع عنه الاتصال بالعالم الخارجى بل وصل الأمر إلى منع الكتاب والمفكرين والفنانين من الذهاب إلى الخارج إمعانا من ستالين فى عزلهم حتى لايتأثروا بما فى البلدان الأخرى أما خروشوف فإنه اختط لنفسه طريقا آخر ، وأحدث فى هذا الجانب تحولا

---

(١) دور الماركسية فى الإشتراكية العربية (٤١-٤٢) ، وانظر موسكو وإسرائيل (٣٩٩-٤٠١) .

(٢) انظر : النار والجليد (٨١) ، إشتراكيتهم وإسلامنا (٥٤-٥٥) .

كبيرا فسمح بالسفر إلى الخارج للكتاب ، والفنانين ، والمفكرين (مع الحيطة والحذر) . وتحدث خروشوف عن اضطهاد المفكرين والكتاب والموسيقيين وقال : (يضاف إلى مايعانيه أرباب الفكر والفنانون من الوسائل غير الملائمة التى تستعمل أحيانا ضدهم أن بعضهم يلاقى صعوبة فى الحصول على إذن للقيام برحلة إلى الخارج . أود أن أشرح رأيى فى جدوى إقفال حدودنا . الكل يعرف أن الأبواب فتحت على مصراعيها بعد موت ستالين . كان علينا أن ندرك أنه ستكون هناك عناصر مختلفة وأناس لهم معتقدات سياسية مختلفة بعضهم غير مرغوب فيه وإننا حين نرسل فرقة من الممثلين إلى الخارج قد لايرجع بعضهم)[١].

وهكذا كانت فترة سياسة خروشوف قد حققت الكثير والكثير من التراجع والتغيير فى مبادىء الماركسية ، نظرا لأن الواقع يرفضها ، والأحداث والتغيرات لاتصدقها فكان لابد من استبدالها والنكوص عنها ليحقق الاتحاد السوفييتى السعادة لشعبه ، وليبعث فيه الأمل من جديد .

وبعد هذا العرض أصل إلى التالى :

أولا : أن خروشوف واصل الطريق فى التغيير والتجديد وفتح أبوابا كانت مغلقة من قبل ، بل لم يتجاسر أحد بفتحها على مصراعيها والولوج منها خوفا على حياته .

ثانيا : ينبغى لنا أن لانفهم أن خروشوف قد كفر نهائيا بالفكر الماركسى بل اعتبر بعض الكتاب أن سبب عدم نجاح تغيير خروشوف وعدم كونه أكثر جذرية هو بسبب اهتمامه بالعقيدة الماركسية[٢].

---

(١) الوصية الأخيرة (٨٠-٨١) وذكر بعض الأسماء التى سمح لها بالسفر إلى الخارج ، انظر (٨١-٨٢) .

(٢) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٢٩) ، وانظر الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٧٩-٨٠) ، وذكر أن التغيير أصبح واضحا ملموسا غير أن آثار الحقبة الستالينية كانت ملازمة للناس .

ثالثا : من المسلّم به أن التراجع والتغيير وجد فى الحقبة الخروتشوفية وكان بالإمكان أن تكون أكبر بكثير من الصورة التى كانت عليها لولا وجود بعض العقبات حالت دون ذلك منها :

(أ) أن أعضاء الحزب شعروا بأنه يسحب منهم صلاحياتهم فوقفوا ضد التغيير[١].

(ب) آثار الحقبة الستالينية أثرت على تفكير الناس مما جعل كثير من أعضاء الحزب أو أفراد الشعب لايستجيبون بصورة كبيرة لهذه السياسة الجديدة .

رابعا : أدت سياسة خروشوف التراجعية إلى انحسار الإشتراكية الماركسية ، ووجود الخلاف بين الدول التى تقوم بتطبيق الفكر الماركسى[٢].

فغدت كثير من الدول تختط لنفسها أفكارا إشتراكية تتلاءم مع واقعها وحياتها ، فلم تعد أفكار ماركس وانجلز وتطبيقات لينين هى المصدر الذى يستقى منه الفكر الإشتراكى بل حصلت الخصومات وترامى الإشتراكيون بالألقاب وكفر بعضهم بعضا ، والكفر عندهم الخروج عن منهج ماركس .

خامسا : أن فترة خروشوف شهدت التغير :

على الصعيد الداخلى فى :

(أ) رفض الدكتاتورية .

(ب) إقرار الملكية الفردية والحوافز المادية .

(ج) تحقيق الحرية إلى درجة كبيرة لم تشهدها البلاد سابقا .

(د) حرية النقد والمعارضة ولاشك أن هذه الحرية فتحت المجال أمام المثقفين والمفكرين وأعضاء الحزب فى عدم السكوت ومحاولة التغيير .

---

(١) انظر العالم فى القرن العشرين (٤١٩-٤٢٠) .

(٢) انظر إشتراكيتهم وإسلامنا (٢٤-٢٥) .

أما على الصعيد الخارجى فقد شهدت الفترة الخروتشوفية :

(أ) التعايش مع النظام الرأسمالى .

(ب) عدم التدخل فى الشئون الداخلية لدول أوروبا الشرقية كما كان عليه الحال زمن ستالين .

وهذا نكوص عن الثورة ، والدكتاتورية .

سادسا : أن سياسة خروشوف تلك شجعت الشعوب السوفيتية على المطالبة بمزيد من الحريات والتغيير خاصة بعد انفتاح الشعوب السوفيتية على العالم الخارجى ، وهذا ماجعل بريجنيف (خلف خروشوف) يهتم بالتراجع والتغيير على المستوى الخارجى لسياسة السوفييت ليضمن إحدى الجبهتين على الأقل . وهذا ماسنعرض له فى المبحث التالى .

المبحث الرابع
التراجع والتغيير زمن بريجنيف

لمحة مختصرة عن حياته :

ولد بريجنيف فى بلدة تامنسكوى الأوكرانية . ولم يشارك فى الثورة ولافى الحرب الأهلية لصغر سنه ، أنهى دراسته عام ١٩٢٧م متخصصا فى الهندسة الزراعية.

وفى عام ١٩٣١م انتسب إلى الحزب الشيوعى فى موسكو ، وفى عام ١٩٣٧م ، عمل مساعدا مباشرا لخروشوف ولمع نجمه فى الإدارة الحربية المحلية.

وفى الفترة مابين ١٩٣٨-١٩٤١م شغل منصب المفوض السياسى فى فيروبتروفسك ، حيث تألق عسكريا خلال الحرب العالمية الثانية .

وفى عام ١٩٥١-١٩٥٣م شغل منصب سكرتير أول الحزب الشيوعى فى مولدافيا وأصبح بالتالى عضوا باللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى .

وبعد وفاة ستالين عزل عن كل مناصبه ، ونقل إلى وزارة الدفاع ، وبسبب ولاءه لخروتشوف عين سكرتيرا أولا للحزب الشيوعى لجمهورية قازاخستان .

وفى عام ١٩٥٧م أصبح عضوا فى سكرتارية الحزب الشيوعى السوفييتى.

وفى عام ١٩٦٠م شغل منصب رئيس سكرتارية مجلس السوفييت الأعلى ثم استلم منصب سكرتير أول الحزب عام ١٩٦٤م ، وفى عام ١٩٧٧م ساهم فى وضع أسس الدستور السوفييتى الجديد . وبقى بريجنيف يمارس كل صلاحياته سواء داخل الحزب أو الدولة أو الجيش حتى وفاته عام ١٩٨٢م(١).

---

(١) انظر النار والجليد (٩٠-٩١) .

التراجع والتغيير زمن بريجنيف :

يعتبر عصر بريجنيف عصر "ركود" مقارنة بما كان ينتهجه أسلافه ، وكذلك بمن جاء من بعده . يقول غيردروغ : (فى موسكو ، تطلق حاليا على سنوات حكم الأمين العام بريجنيف ، تسمية "زمن الركود" . ويذكر الروس أن الأوضاع كانت جامدة ولاشىء يتحرك ، حتى الإيمان بإمكانية التقدم بات على شفير الإنهيار . ولاينسحب هذا الحكم على كامل ولايته التى امتدت طيلة عشرين سنة ، اعتبارا من عام ١٩٦٤م ، حيث كان ليونيد بريجنيف على رأس الحزب والدولة . وتميز عهده بادىء ذى بدء بوعد الموظفين تأمين الهدوء والاستقرار لهم ؛ فالإجراءات التى اتخذت بحقهم فى عهد خروتشوف ، من خطط إصلاحية تتوالى بوتيرة عالية ، إلى التسرع فى التأنيب ، وإقالة المسؤولين وبعضهم فى منصبه منذ سنوات عدة ، كل ذلك أزعج الحزب . بالمقابل ، وجد بريجنيف سندا له فى القيادة الجماعية حوله وقدم نفسه بمثابة "أب للبلاد" يضمن لها الاستقرار . وبصفته رئيس الحزب ، شجع فى سنوات عهده الأولى ، وبمشاركة رئيس حكومته الكسى كوسيغين ، إصلاح النظام الإقتصادى . وحوالى عام ١٩٧٠م ، وفيما الشعب السوفييتى يعانى منذ سنوات طويلة من أجواء الخوف المصطنع الذى وضع فيها لجهة احتمال وقوع حرب عالمية جديدة ـ أعطاه بريجنيف بارقة أمل جديدة بإحلال الأمن مجددا فى أوروبا وإمكانية تحسين الوضع الإقتصادى وظروف المعيشة)(١).

ومع هذا الركود إلا أن عملية التراجع والتغيير كانت قائمة ، ويمكن إبراز ذلك فى النقاط التالية ـ على أن بريجنيف عمل على الاستمرار بسياسة خروشوف ـ :

أولا : الاستمرار فى إقرار الملكية الفردية ، والتوسع فيها ، بالإضافة إلى المرونة الفكرية حيث كان الناس فى عهد بريجنيف يفكرون على نحو ويتكلمون بخلافه ويفعلون شيئا آخر(٢).

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٧٢) ، وانظر النار والجليد (٨٨) .

(٢) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢٠١) ومابعدها .

ثانيا : تقريب العلماء والمفكرين والإستفادة من آرائهم ولعل لسياسة خروشوف الانفتاحية وإقراره حرية الرأى والنقد أثر فى ذلك . حيث أعلن بريجنيف هجومه على عدم الإستفادة من آراء العلماء[١].

ثالثا : خلو خطابات وكلمات بريجنيف فى عمومها من ترديد أفكار ماركس أو لينين . مما يدل على أن المسألة الأيديولوجية أخذت فى التراجع الحقيقى القولى والفعلى والاهتمام بالمصالح السياسية وتقديمها على الأفكار الشيوعية .

رابعا : العمل على زيادة عملية النقد وكشف العيوب والنقائص .

أما على الصعيد الخارجى : فإن التراجع كان واضحا بصورة أكبر من ذى قبل . ويمكن إبراز ذلك فى التالى :

أولا : عمل بريجنيف على الاستمرار فى سياسة السلم والتقارب مع الدول الرأسمالية وترجم ذلك بعقد الوفاق مع الولايات المتحدة الأمريكية[٢].

ثانيا : عمل بريجنيف على تحسين العلاقة بينه وبين بعض دول أوروبا الشرقية[٣]، وفى ذلك إقرار لعدم التدخل فى شئون تلك البلاد .

ثالثا : العمل على جلب التكنولوجيا الحديثة إلى موسكو خاصة بعد زيارته لفرنسا وأمريكا (حيث استهوته السيارات السريعة والالكترونيات الحديثة ، فاقتنى العديد من سيارات السباق وكذلك الآلات الالكترونية المختلفة)[٤]. وقد انعكس ذلك على التراجع فى بعض المبادىء الأخرى حيث أقر بريجنيف بطريق غير مباشر الطبقية فى الاتحاد السوفييتى ، حيث كانت

---

(١) انظر حقوق الإنسان فى الإسلام (٤٠٨-٤٠٩) .

(٢) سيأتى الحديث عن الوفاق الدولى فى الفصل الثانى من الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

(٣) انظر النار والجليد (٨٩) .

(٤) المرجع السابق (٩٠) .

الصناعات الفاخرة والتكنولوجيا الحديثة التى استقدمت من الخارج ينفرد بها برجنيف ورفقاؤه .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل خصصت المحلات التجارية لبعض المحظوظين من الحزب بعد أن كانت السلع الغذائية متوافرة إلى حد ما زمن خروشوف فى المحلات التجارية(١).

وبعد هذا العرض المختصر نصل إلى التالى :

أولا : أن بريجنيف سار على خطى خروشوف ولأجل ذلك لم يكن زمنه قد سجل تغيرا كبيرا مقارنة مع غيره ولأجل ذلك أطلق على فترته (فترة الركود) .

ثانيا : يمكن اعتبار هذه الفترة وماحدث فيها من عدم التراجع والتغيير بصورة أكثر جذرية من الأسباب التى جعلت من جاء بعد بريجنيف لم يستطع الوقوف فى وجه التيار الشعبى المطالب بالتغيير وتحسين الأوضاع المتردية . ويظهر ذلك جليا أنه بعد قرابة أربع سنوات فجرت السياسة الجديدة لغورباتشوف .

ثالثا : سجلت الفترة البريجنيفية التراجع الواضح على مستوى السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتى وانعكس ذلك على الدولة داخليا .

وهكذا انتهت هذه الفترة فى السياسة السوفيتية وكانت تزيد من حقد الشعب وضغنهم على النظام وعلى الفكر الشيوعى ، مما كان له أثره فى سياسة من جاء من بعد بريجنيف رغم قصر فترة حكمهم التى لاتساوى إلا جزءا يسيرا من سنى فترة حكم بريجنيف .

وبهذا نصل إلى الحديث عن فترة حكم اندروبوف فى المبحث التالى .

---

(١) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٧٢-١٧٣) .

المبحث الخامس
التراجع والتغيير زمن أندروبوف

لمحة مختصرة عن حياته :

ولـد أندروبوف عام ١٩١٤م ، فى جنوب مقاطعة ستـافروبول . عمل فى إدارة البرق فى القـوقاز ، ثم بحارا فى نهر الفولغا ، وتابع دراسـة الملاحة فى أحد المعاهد العالية ، ثم التحق بالمعهد العالى للحزب فى موسكو .

ولم يكـن ابن أحد الثوريين ، ولم يكـن من الأبطـال ، فكان عليه أن يصنـع نفسه بنفسه فتدرج فى عدة أعمـال مختلفة(١). ثم تقلد بعض المنـاصب فعين بسفـارة بلاده فى (بودابسـت) كمستشـار ثم سمى سفيرا مفـوضا للاتحاد السوفييتى فى هنغاريا وكان له الفضل فى الأحداث التى عصفت بتلك البلاد ، حيـث استـدعى الدبابات السـوفيتية لسحـق أجسام الـوطنيين والطلاب تحت جنازيرها لإخماد الثورة(٢).

وعمـل سفيرا لبلاده فى المجر بعد سحق الانتفاضة المجـرية ، وبعد سنة أى عام ١٩٥٨م تولى الإشراف مجددا على قطاع الأحزاب الشيوعية الأجنبية ، وعضـوا فى اللجنـة المركـزية سنـة ١٩٦١م ، وأحد أمنـاء السـر للحـزب عام ١٩٦٢م ، وسنة ١٩٦٧م تولى رئاسة لجنة الأمن الداخلى فى الاتحاد السوفييتى ، وفى عـام ١٩٨٢م استقال من هـذا المنصب ليتفرغ لوظيفـة أمين السـر للجنة المركزية وعضو المكتب السياسى . وربما أن ذلك من أجل تهيئـة نفسه لأعلى المنـاصب فى الحزب والدولة ، وهـذه المرحلة الانتقاليـة تفرض نفسها إذ لابد من تجنيب الشعب السوفييتى والعالم صدمة أن رئيس ال K.G.B تتسلم السلطة فى الكرملين(٣).

---

(١) انظـر : غـورباتشوف صـانع القـرار وضحيتـه (١٩٥) ، مـرضى حكمـوا العـالم (١٠٤-١٠٥) ، اقتباس رشاد جميل فياض ١٩٩٤م ، جروس برس ، طرابلس ، لبنان دون ذكر لرقم الطبعة ، النار والجليد (٩٥) .

(٢) انظر مرضى حكموا العالم (١٠٥) .

(٣) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٩٥-١٩٦) .

تولى أندروبوف الحكم :

وصل أندروبوف إلى السلطة العليا فى الاتحاد السوفييتى مع وجود من هو أجدر منه بذلك ، وربما كان فى اختياره مخرجا من بعض الخلافات التى بدأت تدب فى الحزب بشكل ملحوظ حيث كانت صحة أندروبوف لاتساعده على تحمل المسئولية . ولأجل ذلك لم تدم فترة حكمه سوى ٤٥٤ يوما[١].

وكان هناك عدة آراء حول أسباب وفاته منها أن الصهيونية عملت على تسميمه نظرا لشدة عدائه لليهود ومواقفه المتشددة ضد الولايات المتحدة[٢]. وقيل إن المرض كان وراء وفاته[٣]. ولاغرابة أن يكون قد دس له السم وتفاقم المرض عليه بسببه .

نهاية أندروبوف :

ومع صراع المرض وكذلك عدم الالتزام بأقوال الأطباء فى الحمية لكونه كان يعانى من داء السكرى تفاقم عليه المرض ، ووجه أندروبوف رسالة إلى الهيئة العامة للجنة المركزية جاء فيها (حضرات الرفاق أعضاء اللجنة المركزية ، لم يعد باستطاعتى المشاركة بصورة نشيطة وفعالة فى تحمل مسئولياتى فى المكتب السياسى واللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى ، للأسباب التى تعرفونها ، وأرى من واجبى أن أقول لكم بكل صدق أن هذا الوضع قد يستمر طويلا . بناء عليه ، أرجو الهيئة العامة للجنة المركزية بحث هذه المسألة وتكليف الرفيق غورباتشوف ، ميخائيل سيرغيفيتش لتولى قيادة المكتب السياسى وأمانة اللجنة المركزية)[٤].

وفى ٩ شباط ١٩٨٤م أصيب بنوبة قلبية ففارق الحياة[٥].

---

(١) انظر مرضى حكموا العالم (١٠٣-١٠٤) .

(٢) انظر غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٨) ، د. رزق رزق ، دار بلال ، بيروت ، ١٩٩١م ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٣) انظر المرجع السابق (٩) .

(٤) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٠٥) .

(٥) انظر مرضى حكموا العالم (١١٣) .

التغيير زمن أندروبوف :

أولا : الإبقـاء على الملكية الفـردية والاهتمام بممتلكـات الشعب وإقرار مبدأ النقد .

فقـد (كـان خطـاب أندروبوف عنـد توليـه القيادة السـوفيتية يلامـس مضمـون المأزق السـوفييتى .. فقـد دعـا إلى نبـذ منطـق "الإجراء الـذاتى" ، والتعامل القوى مع "النقد الذاتى" القائم على المصارحة .. وفى معرض كلامه عن الازمة الإقتصادية الإجتمـاعية التى يمر بهـا الاتحاد السـوفييتى أشـار إلى ظاهرة هبوط معدلات النمو ، وركـود التطور الإقتصادى ، انخفـاض إنتـاجية العمـل ، وضعف التحديث التكنولوجى ، وقصور البحـث العلمى وغيره .. ولقد رد أندروبوف أسباب كل ذلك إلى :

١ ـ الانحراف عـن القـاعدة الضـرورية لإدارة الإقتصـاد التى تمليهـا الإشتراكيـة ، والتى يتمثـل جوهرها فى الحرص على ممتلكـات الشعـب ، وفى مضاعفة هذه الممتلكات .

٢ ـ الإخلال بمبدأ التوزيع حسب العمل ، حيث يؤدى الإخلال بهـذا المبـدأ إلى خلق الأجواء المواتية لحالات الكسب غير المشـروع ، والتنقل من عمـل لآخر ، والتغيب عن العمل بدون سبب ، والتراخى فى أداء العمـل ، والمتسبب فى عيوب الإنتاج .

ويعتبر "أندروبوف" أن الـدولة وقيـادة الحزب هـى المسؤولة بالدرجة الأولى عـن كـل مايحدث . فيقـول بصـراحة : (إننا كنا فى أحوال غير نادرة نقبل بالحلول الوسط ، ولم نتمكن من تجاوز الخمول المتراكم بالسرعة الكافية وكـان هـاجس أندربوف الأهـم ، خلال فترة حكمـه القصيرة ، تطهير قمـة الـدولة والحزب من العناصر الفاسدة ، وتحقيق الانضبـاط ، وتخفيف التسيب فى المجتمع السوفييتى على كل مستوياته ...)[١].

---

(١) البيريسترويكا من منظور إسلامى (٢٥-٢٦) .

ثانيا : الاهتمام بالإصلاح والتغيير وبيان فساد الأوضاع ومحاولة العمل على الإنماء الإقتصادى ، وهذا بدوره يتطلب التراجع عن مبادىء الماركسية ، ومن أهمها القضاء على الملكية ومبدأ المساواة(١).

ثالثا : العمل على فتح باب النقد زيادة على ماكان عليه فى السابق مما كان له أثر كبير فى السياسة التى انتهجها غورباتشوف . يقول د. رزق : (خلال الفترة الصغيرة التى تبوأ خلالها موقع زعامة الكرملين فتح نافذة المراجعة النقدية ، هذه المراجعة التى ستتحول لاحقا إلى تحول نوعى كبير فى إطار استراتيجية البيرويسترويكا "إعادة البناء" التى سيطلقها ميخائيل غورباتشوف)(٢).

رابعا : التندر بمبدأ المساواة والدعوة إلى التوزيع حسب العمل(٣).

خامسا : إدخال مزيد من الاستقلالية للمؤسسات الصناعية والزراعية(٤)، من أجل الإرتقاء بالإقتصاد .

أما على الصعيد الخارجى : فإن فترة رئاسة أندروبوف كانت قصيرة ، وبالتالى لم تتضح معالم سياسته الخارجية بشكل كبير . ومما يذكر هنا أن أندروبوف صعد بخطاباته الوضع مع الدول الغربية غير أن الوقت لم يمهله .

وبعد هذا العرض أصل إلى النتائج التالية :

أولا : أن أندروبوف قد عمل على زيادة الأنماط التغييرية التى جاء بها من سبقه ، وخاصة فيما يتعلق بالملكية والنقد الذاتى ، ومحاولة الإصلاح الإقتصادى والإجتماعى .

ثانيا : أن الشك قائم حول ماحدث لأندروبوف فى مسألة وفاته ولعل لعدائه الشديد لليهود "للسامية" أثر فى تلك النهاية .

---

(١) انظر : غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٢٤) ، غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٩٩) .

(٢) غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٢٦) .

(٣) انظر المرجع السابق (٢٤-٢٥) .

(٤) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٩٩) .

ثالثا : نظرا لكون فترة رئاسة أندروبوف كانت قصيرة ، فإن الآثار لابد وأن تكـون قليلةأو غير بارزة للعيان خاصة أن الرجل بدأ به المرض فى فترة مبكـرة مـن حكمـه . ولكن لاشـك أن للجمـود الـذى كـان زمـن بريجنيـف وللأحداث السريعة والتى تلاحقت زمن أندروبوف ومن بعده أثر فى السياسة التى أعلنهـا غـورباتشوف . حيـث أيقن أن الوقت قـد حان وأصبـح الرجل أكثر جرأة فى الإقدام على عملية التغيير .

رابعا : رغم أن أندروبوف كان رئيسا لK.G.B إلا أن المفكرين كانوا أكثر طمأنينة فى عهده من العهد البريجنيفى[١].

(١) انظر غورباشتوف صانع القرار وضحيته (١٩٦) .

المبحث السادس
التراجع والتغيير زمن تشرنينكو

إن المعلومات عن هذا الزعيم ليست متوفرة ولعل لفترة حكمه القصيرة الأثر فى ذلك . ونذكر الآن بعضا من جوانب حياته .

مولده :

ولد سنة ١٩١١م أى قبل الثورة البلشفية بسبع سنوات .

عمل كأترابه فى الحقول ، وعندما بلغ الثامنة عشرة من العمر أصبح عضوا فى الشبيبة الشيوعية التى تألفت حديثا . ثم أصبح مسئولا عن جهاز الدعاية والتحركات فبرع فى هذا الجانب ، شارك فى عملية فرض التأميم على الناس بالقوة . ثم أصبح عضوا فى الحزب الشيوعى . وعمل فى أمن الدولة لمدة عشر سنوات(١).

بعد وفاة أندروبوف وقع الاختيار على تشرنينكو وكان يعانى من المرض ، وكبر السن ، حيث كان عمره اثنتين وسبعين سنة ، ولم يمض ثلاثة عشر شهرا حتى فارق الحياة يوم الأربعاء فى الثالث عشر من شهر آذار ١٩٨٥م(٢).

وقد اختير تشرنينكو فى حين كان اسم غورباتشوف أكثر شهرة منه ، وكذلك كان الرجل الثانى فى فترة رئاسة أندروبوف . ويرى بعض الكتاب أن اختيار تشرنينكو كان من أجل محاولة القضاء على التوجه النقدى الذى أعلنه أندروبوف وأيده غورباتشوف(٣).

ولاشك أن لوفاة تشرنينكو ومن قبله زعيمين فى هذه المدة الزمنية القصيرة أثر على الاتحاد السوفييتى يقول ميشيل هيلر : (واحد تلو الآخر ،

---

(١) انظر مرضى حكموا العالم (١١٦-١١٧) .

(٢) انظر : المرجع السابق (١١٥-١١٦) ، ولمزيد عن ذلك انظر (١٢٣-١٢٥) ، غورباتشوف ونهج التحول الكبير (١٢-١٣) .

(٣) انظر عن ذلك غورباتشوف ونهج التحول الكبير (١٣-١٤) .

اختفى ثلاثة أمناء عامين : بريجنيف فى تشرين الثانى ١٩٨٢م ، أندروبوف فى شباط ١٩٨٤م ، وتشرنينكو فى آذار ١٩٨٥م . فهل من شهادة أفصح وأجلى عن الأزمة العميقة التى يمر بها النظام؟ لقد أصبح ملحا وحيويا إيجاد مرشد جديد يتمكن من إثبات أن هؤلاء العجز الذين يبدون بوجوههم الشمعية على شفير الموت والذين يزينون منابر المؤتمرات وشاشات التلفزيون ليسوا إلا أمارات تدل على أفول الدولة الإشتراكية الأولى فى العالم ، أو على سقوط آخر الإمبراطوريات فى عصرنا)[١].

التغيير زمن تشرنينكو :

سار تشرنينكو على الوضعية التى كان عليها سلفه من السياسة الداخلية والخارجية ونظرا لكون فترة رئاسته قصيرة جدا بالإضافة إلى حالته الصحية السيئة ، فقد تميزت فترة رئاسته بالهدوء .

إلا أن هذا الهدوء كان بمثابة التمهيد للعاصفة التى ستتبعه وبالفعل كان غورباتشوف وحصل التحول الأخير والتراجع النهائى .

وبعد هذا العرض نصل إلى الآتى :

أولا : أن تشرنينكو لم يغير كثيرا فى سياسة الاتحاد السوفييتى سواء الداخلية أو الخارجية حيث كانت فترة حكمه أشهرا معدودة وخاصة إذا أخذنا فى الاعتبار حالته الصحية .

ثانيا : أن تشرنينكو كان المرشح بعد بريجنيف من قبل هذا الأخير[٢]، ولكن لم يتم تعيينه أمينا عاما ، ولأجل ذلك عاد تشرنينكو بالاتحاد السوفييتى إلى قبل عهد أندروبوف من سياسة الجمود[٣].

---

(١) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٩) .

(٢) انظر المرجع السابق (١٣-١٤) .

(٣) انظر البيريسترويكا من منظور إسلامى (٢٦-٢٧) .

ثالثا : من الأمور التى عرف بهاتشرنينكو شدة معاداته للغرب وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية حتى لقد أثارت وفاته كثيرا من علامات الاستفهام[١].

وليس بعيدا أن يكون اليهود وراءها .

رابعا : أن اليهود كانوا وراء الثورة البلشفية كما أنهم كانوا وراء إسقاط المتعنتين فى علاقاتهم مع الغرب خاصة وأن هذه الفكرة قد أعطت ثمارها لليهود وحان إسقاط ذلك المارد كى لايستفحل شره ويدمر من قام بإعداده وتمويله ، وكان غورباتشوف .

ونعرض لفترة رئاسته فى المبحث التالى .

---

(١) انظر النار والجليد (٩٦) .

المبحث السابع
التراجع والتغيير زمن غورباتشوف

يعتبر غـورباتشوف الحلقـة الأخيرة فى سلسلـة التغييرات التى أودت بالشيوعية ، وإن كان من جاء بعده سائراً فى الطريق الإصلاحى ولكن يعتبر غورباتشوف هو الذى فجر الأمر وأعلنه صراحة ، على أنه يجدر بنـا أن ننبه على قضيـة مهمة وهى أن غـورباتشوف لم يكن لوحده ، بل ليـس هو الذى أسقـط الشيـوعية بنفسه وإنما كـان الأداة التى عبرت عـن رغبـات الشعـب وتطلعاته فى الخروج من ويلات هذه الأيديولوجية الأرضيـة ، التى لم تصمد منذ اللحظة الأولى فى تطبيقها أمام الواقع والميول الإنسانية .

لمحة تاريخية عن شخصية غورباتشوف :

اكتنف شخصية غورباتشوف غموض شديد ، بل إن بعض المحطات فى حيـاته تفتقـر إلى معلومات دقيقـة عنهـا . حتى قال بعضهـم عنـه بأنه يشكل لغزا(١).

يقـول هيلير : (إن المعلـومـات المتـوفرة تبدو غير كـافية لكتـابة سيرة حقيقيـة . فحياة غورباتشوف قبـل دخوله المسرح العالمى تبقـى مجهـولة أكثر بكثير مما كانت عليه سيرة لينين)(٢).

---

(١) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٧) .

(٢) نشـوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١١) ، وانظر النار والجليـد (٩٩) ، وقال : إن شخصيـة غورباتشوف (فيها الكثير من الغموض والأسرار بحجـم الحدث الذى حصل بذاته) .

ولادته :

ولـد غورباتشوف عام ١٩٣١م فى قرية بريفولنوى وكـانت تابعة إداريا لمنطقة القفقاز الشمالية . وتميزت هذه المنطقة بشدة مقاومة التأميم(١).

ويعتبر غـورباتشوف الزعيم السـوفييتى الوحيد الـذى قضـى حداثته فى القرية والحقول قبل أن يترقى فى جهاز الحزب(٢).

وكـــانت نشـــأة غـورباتشوف فى هـــذه المنطقـة ذات تأثير على حيـــاته المستقبليـة ، وذلك لأنها لم تكـن كغيرها فى الرق والعبـودية بل كـانوا أهلها يتطلعون إلى الحرية(٣).

أسرة غورباتشوف :

كـانت أسرته ذات سمعة جيـدة لدى سكان المنطقة التى يعيشـون بها .

جده : كان بانتلى افيموفيتش غوبكالو ينحدر من القوقازيين (ويبدو ، على مـايروى عنه ، إنه ورث عنهم حرية الفكر والحزم والحس بالمسـؤولية . ويعتقد بعض أصدقاء غورباتشوف أن موقفه من الحياة نابع من تأثير التقاليد القوقازية ـ الفلاحية فيه . ويخبر القرويون أن بانتلى غوبكالو كان من أوائل الـذين عملوا بعد الثورة على تنظيم الفلاحين فى تعـاونيـة ، وأنشـأ فى القرية مايعرف باسم "توز" وهى عبـارة عـن تعـاونية تتيح للفلاحين التصـرف الحر بأرضهـم ، غير أنهـم يستطيعـون معـا ، مـن خلالها ، تحسين طـرق الـزراعة والإنتـاج . كـان بانتلى غوبكـالو شخصيـة مرموقة فى القـرية ، وكـان فلاحا ميسورا ، وتشيع للحركة الثقافية التى أقامها فلاحون فقراء فى معظم القرى . خلافـا للكولخوز التى فرضها ستـالين على الفلاحين فيمـا بعد ، كانت "التوز" تعـاونية متطـوعين ، هدفها تحسين ظـروف معيشتهم وعملهـم . وعنـدما أقدم

---

(١) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢٢) .
(٢) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٩) .
(٣) انظر عن ذلك المرجع السابق (٣٢) .

ستالين على تأميم الزراعة ، أدرك بانتلى غوبكالو ، كسواه من الفلاحين الواعين ، أنه لن يكون بمقدوره مواجهة هذا التطور . كان عضوا فى الحزب الشيوعى وتولى تنظيم الكولخوز التى أصبح رئيسا لها . ويروى المعمرون فى القرية أن بريفولنوى مدينة له لكونها تخطت فى مطلع الثلاثينات ، مرحلة المجاعة واضطهاد الفلاحين ، بشكل أفضل من معظم المجموعات الفلاحية فى روسيا)[١].

والده : سيرغى كان رجلا هادئا ، نشيطا يحترمه أبناء قريته ، لم يكن ذا ثقافة عالية . ولكنه اكتسب خبرة واسعة من خلال حياته اليومية ، وعمل ميكانيكيا ، وبقى أربعين عاما تقريبا أى أنه كان يقود الحاصدة والجرار كما كان مسئولا عن إصلاح الآلات الزراعية وصيانتها .

والدته : كانتماريا بانتيليفنا تعمل فى الحقوق ، وهى ذات شخصية حازمة فى الأسرة[٢].

التأميم وأثره :

فرض التأميم على المناطق السوفيتية بالقوة ومن هذه المناطق التى أرسلت إليها الكتائب العسكرية قرية بريفولنوى ، وضم ٩٠٪ من الفلاحين إلى مزارع جماعية ، ونظم جد غورباتشوف كولخوزا فى قريته. ومن هنا فإن غورباتشوف ولد فى أسرة كلخوزية[٣].

إن عمليات التأميم هذه أدت إلى القتل لمعارضيها والجوع لمنفذيها ، فكانت آثارها سيئة .

يقول غروسمان : (كان شبح المجاعة والموت يجوب القرية . فى البداية مات الأطفال ثم الشيوخ وأخيرا الكهول . وفى المرحلة الأولى دفنت

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣٣-٣٤) .

(٢) انظر المرجع السابق (٣٥) .

(٣) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢٢) .

الجثث ثم عدل الناس عن الأمر . كان الأموات يرقدون فى الشوارع والساحات ثم تركت ممددة فى البيوت الخشبية ... وخيم الصمت . لقد ماتت الأرياف . ولاأعلم من كان آخر الأموات . فلقد كنا من الذين قادتهم الإدارة إلى المدينة . وقد أطلقت السلطة على ذلك اسم "مقبرة المدرسة القاسية ")(١).

وتسبب التأميم فى هلاك مئات الألوف من الناس حتى بلغ عدد من مات بسبب الجوع بين عامى ١٩٣٢-١٩٣٣م مليون إنسان(٢).

وفى هذه الأثناء كانت ولادة غورباتشوف وكان حينها طفلا ، فلربما شعر بشىء ، غير أن أسرته لابد وأنها قد أخبرته بما حدث فى هذه العملية - عملية التأميم - من قتل وإرهاب .

وضع أسرة غورباتشوف الدينى :

حافظت أسرة غورباتشوف على إيمانها بالدين النصرانى . وصرح غورباتشوف بذلك عن جده وجدته . أما والده فلم يكن يحمل شعورا كبيرا بالتدين . ووالدته على عكس ذلك تماما حيث بقيت على ديانتها ، وملازمة الكنيسة رغم كل الأحداث والإجراءات التى اتخذت ضد الدين فى الاتحاد السوفييتى .

ولأجل ذلك - وإن كان غورباتشوف أعلن فى مناسبات قليلة الحرب على العواطف الدينية - لم يطلق غورباتشوف الكلام المنمق لذم التدين كما فعل بعض أسلافه(٣).

---

(١) نقلا من كتاب نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢٢-٢٣) .

(٢) انظر : المرجع السابق (٢٣) ، ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٥٢-٥٣) وفيه أن الدولة سيطرت على ٨٦,٤٪ من الممتلكات الريفية فى المنطقة . كما بلغ عدد الضحايا حتى عام ١٩٣٠م عشرات الألوف من الناس الذين قاوموا عملية التأميم .

(٣) انظر ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٦٤-٦٥) .

غورباتشوف واليهودية :

هنــاك عـدة دلائل تشير إلى أن غـورباتشوف تربطــه علاقـات وثيقـة بالديانة اليهودية :

(١) الشـك القـائم فى والد غورباتشـوف وكـونه من يهود الـدونمة الـذين هاجروا إلى روسيا .

(٢) أن زوجة غورباتشوف تعود فى جذورها إلى مملكـة الخزر اليهودية[١].

(٣) أن ابنـة غـورباتشوف وتدعـى ايرينا وهى طبيبة متزوجة مـن طبيـب يدعـى اناتولى فرغانسكى يعمـل فى المستشفى المدنى رقـم واحد التابع لمدينة موسكو وهو يهودى[٢].

وبعد هذا فإن من المجزوم به أن غورباتشوف وأسرته (زوجته وابنته) تربطهم علاقة نسب وثيقة مع اليهود .

دراسته :

إن المعلومات عن فترة دراسة غورباتشوف التى تسبـق المرحلة الجامعية قليلة جدا[٣]. ومـاوجدته مفصلا كـان حديثـا عـن سفره لمواصلـة الـدراسة الجامعيـة عـام ١٩٥٠م حيث توجه إلى مـوسكو ، وخلال رحلتـه تلـك شاهد الــدمار الهـائل الـذى وقـع على كثير مـن المدن مـن جراء الحرب العــالمية الثانية[٤].

وصـل غـورباتشوف إلى موسكـو وبدأ دراسة الحقـوق رغـم أن رغبته كانت تتجه إلى دراســة الفيزياء[٥]. ومـدة الدراسـة فى كلية الحقـوق خمس

---

(١) انظـر الإنهيار (١/١٣٣-١٣٤) ، ولمزيد عن توجه زوجة غـورباتشوف انظر سادات الماركسية (٢٧-٢٨) .

(٢) انظر : سادات الماركسية (٢٩) ، الإنهيار (١/١٣٤) .

(٣) وعلى الأقل فى المراجع التى وقعت عليها عينى .

(٤) انظر ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٧٣-٧٤) .

(٥) انظر المرجع السابق (٧٧-٧٨) .

سنوات . تحتل الماركسية اللينينية القسم الأعظم من برامج الكليـة . (كما أن لدراسة العقيدة السوفيتية دورا هاما فى برامج كافة الـدراسات الإنسانية . وقد استمـع غـورباتشوف إلى المحـاضرات ، واشترك فى حلقـات دراسيـة حول الـديالكتيكية والمادية التـاريخية والإقتصاد السياسـى وأعمـال ماركس وانجلز ولينين وستالين . فطالما أن العقيدة الماركسية ـ اللنينيـة هى النظرية المحورية التى أنشئـت بموجبها الدولة السـوفيتية وبالتالى القوانين السـوفيتية ، فإن من الطبيعـى أن تحتـل مركز الصـدارة فى كلية الحقوق . وكـان على الطلبـة أن يقرأوا باهتمام زائد أعمال ماركس ولينين بل وأن يتعمقوا فى فهم نصوصها ويتقنوا تفسيرها)(١).

المناصب التى تولاها :

بعد أن حصل غورباتشوف على الشهادة الجامعية فى الحقـوق من جامعة موسكو عاد إلى ستافروبول و(اضطلع ببعض المهام فى إطار الشبيبة الشيوعية والحزب ، حيـث شغل بين ١٩٧٠ و١٩٧٨م منصـب السكـرتير الأول فى لجنـة المنطقة)(٢).

وكـان هذا المنصب يتيح لصـاحبه فى مدينة مثل سـتافربول صلاحيات كبيرة (فهـو أعلى مـن رئيـس اللجنـة التنفيـذية للمـدينة ، الـذى يتـولى مسـؤوليات إدارية بحتـة . وأمين السـر الأول مسـؤول عـن كل شأن : عن المسـرح والمدارس ، والصحـف (غـالبا ماناقش غورباتشـوف المسـؤولين عـن تحرير الصحف فى العناوين الرئيسية والمقالات التى ستنشـر فى الأيام التالية) والمستشفيـات الحكـومية والخاصـة ، ووسـائل النقـل ، وبنـاء المسـاكن ، والمؤسسـات الصنـاعية ، وقـرارات المحـاكم على صعيـد المدينـة . كـان

(١) ميخـائيل غـورباتشوف سيرة ذاتيـة مفصلـة (٨٤) ، وانظر عـن محاضـرات جامعـة موسكو (٣٠٩) ، وانظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢١) .

(٢) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢١) ، وانظر النار والجليد (١٠٤) .

غورباتشوف رئيسا لمركز صناعى وتجارى وإدارى مهم ، فى منطقة يهتم بمحاصيلها الزراعية كل الاتحاد السوفييتى . كان هذا المنصب يعطيه فى الوقت عينه سلطة عملية ، إذ كان باستطاعة أمين سر الحزب منح الترقيات على سبيل المكافأة ، وإنزال العقوبات المسلكية لأسباب تأديبية ، كما يستطيع مساعدة صديق فى إيجاد مسكن أو مكان فى بيت للراحة)(١).

وتعترف زوجة غورباتشوف أن انتخابه كان غير عادى فتقول (كان انتخاب ميخائيل سكرتيرا أولا للجنة ستافروبول الإقليمية أمرا غير عادى فى تلك الأيام)(٢).

وتبرر ذلك بأن من كان قبله من السكرتيرين كانوا من خارج المنطقة أى غرباء عنها .

وكذلك لكون غورباتشوف شابا لم يتجاوز التاسعة والثلاثين من عمره(٣).

وقد اعتبر نيقولا دورحين أن شخصية غورباتشوف السياسية ظهرت من هذه اللحظة بل ذهب إلى أبعد من ذلك فاعتبر أن فكرته الجديدة "البيريسترويكا" بدأ حديثه عنها فى تلك الأثناء فيقول : (أستطيع التأكيد ، ومن دون أن أخشى الوقوع فى الغلط ، بأن شخصية ميخائيل ، كرجل سياسى عظيم بدأت تتأكد هنا فى ستافروبول . بعد تعيينه أمينا عاما تحدث عن موضوع فى غاية الأهمية : البيريسترويكا . لكنها لم تولد ، كفكرة ، وأمنية عند الشيوعيين ، فى تلك الجلسة حيث استعملت هذه الكلمة لأول مرة . فتلك الجلسة كانت فقط المناسبة التى شهدت التغيير غير أن الأفكار والأفعال التى أدخلت البيريسترويكا فى حيز حياتنا الإجتماعية ، وفى كافة قطاعات الحياة هى سابقة لكل ذلك . مثاله ، هنا فى منطقة ستافروبول وضعنا

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٣٢-١٣٣) .
(٢) أملى (٩٩) .
(٣) انظر المرجع السابق (١٠٠) .

مع غورباتشوف برنامجا لمكننة الزراعة ومد شبكة الكهرباء ، فانتشرت الشبكة فى كل مكان من الكوخ الصغير حتى آخر مزرعة)[١].

وعلى هذا الأساس فإن فكرة البيريسترويكا كانت قديمة لدى غورباتشوف وتكاد الآراء تعتبر تعيينه أمينا أولا للسر هى بداية ذلك التفكير[٢].

إن اطلاق هذه السياسة لايمكن أن يكون فجأة ، بل لابد وأن يكون ذلك التوجه قد درس دراسة جيدة وأعد له إعدادا جيدا .

وفى بداية هذا التوجه لدى غورباتشوف انتخب عضوا فى اللجنة المركزية أى عام ١٩٧١م[٣].

وصول غورباتشوف إلى السلطة :

إن الغموض الشديد حول شخصية غورباتشوف لم يكن الوحيد . بل يكتنف هذا الغموض وصول غورباتشوف إلى السلطة كما أن هناك كثيراً من التساؤلات التى كانت قائمة حينذاك ومازالت إلى الآن ، حيث ترقيه فى المناصب بصورة سريعة ، مما أثار علامات استفهام كثيرة . ستجيب عليها الأيام القادمة نظرا لأن آثار الحدث لم تنته بعد ، وإن كانت هناك إشارات يتلمس من خلالها حقيقة ذلك الرجل ومن جاء به ، ولصالح من فجر سياسته الجديدة .

يقول محرروا التايم : (بقيت حياته كتابا مغلقا ، ومحاولات التطفل عليها وفتحها لم تكن ناجحة تماما . والمؤلفات الحديثة حول غورباتشوف ،

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٤٥) ، وانظر مابعدها من أقوال حول إثبات أن فكرة السياسة التى فجرها غورباتشوف كانت موجودة لديه من قبل وصوله للرئاسة .

(٢) انظر : المرجع السابق (١٤٨) ، كارل ماركس وداعا .. أم خداعا (٩٢-٩٣) .

(٣) انظر : غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٤٠) ، نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢١) .

بالرغم من أنها غالبا مهمة وذات رؤية ، اتجهت أكثر نحو فحص النظام السياسى والإجتماعى السوفييتى أكثر من اتجاهها نحو دراسة شاملة لحياة غورباتشوف . السبب الرئيسى لذلك الخلل فى السيرة الذاتية هو أن غورباتشوف ظهر من وضع مغمور تماما إلى السلطة والشهرة نسبيا ، فجأة ، تاركا القليل للذين فى الكرملين ، لاقتفاء أثره . فلم ينشر سوى القليل فى الاتحاد السوفييتى عن أصوله ، سيرته المهنية المبكرة ، وحياته الخاصة . وقد تجنب التطرق إلى الجوانب الشخصية فى مقابلاته وكتاباته . إنه يريد الابتعاد عن خلق الشخصية وعبادتها . وهو تعبير "ملطف" لتمجيد قائد ، له مطلق الصلاحية)[١].

وكان غورباتشوف بنفسه لايتكلم عن حياته وسيرته إلا فى النادر اليسير[٢].

ومع ذلك فقد وجدت عدة عوامل ساعدت على وصول غورباتشوف للسلطة منها :

(أ) وجود بعض الرجال الذين مهدوا لغورباتشوف الوصول إلى السلطة والتصويت له[٣].

(ب)ومن الأمور التى ساعدته على الوصول إلى السلطة أفكاره الجديدة ، وآراؤه الإقتصادية التى كان يطرحها ، وكانت بداية الاهتمام بغورباتشوف منذ أن ألقى كلمة اللجنة المركزية حول السياسة الزراعية .

وعمل غورباتشوف للتحضير لهذا الخطاب واستغرق فى ذلك قرابة شهر ونصف . وقد كان لهذا الخطاب أثر كبير فى حياته[٤]. حيث كان غنيا

---

(١) ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (١١-١٢) .

(٢) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٠) .

(٣) من هؤلاء أندوروبوف ، والخبير الزراعى فيودر كولاكوف ، وسوسلوف أمين سر الحزب فى ستافروبول . انظر ماجاء عن هؤلاء وعلاقتهم بغورباتشوف فى كتاب غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٦١-١٦٤) .

(٤) انظر عن ذلك المرجع السابق (١٦٤-١٦٥) .

بالمعلومات والحقائق التي لم تعرض قبل ذلك الوقت بمقدار العمق الذى عرضت به . وقد كان غورباتشوف على ثقة كبيرة من كل ماقدم من إحصائيات ومعلومات ، كما كان متحفظا فى الاقتراحات وإعطاء الحلول[١].

(ج) أيضا مما يمكن ذكره هنا أن المناصب المتعددة التى شغلها غورباتشوف كان لها دور كبير فى وصوله إلى السلطة ، حيث كان نائبا فى مجلس السوفييت الأعلى ، ورئيسا للجنة المكلفة بشؤون الشبيبة فى الاتحاد السوفييتى ، ورئيسا للجنة القانون وهى هيئة ارتباط مهمة بين الحزب والحكومة . ثم عينه أندروبوف رئيسا للجنة الشئون الخارجية[٢].

(د) كذلك مما ساعد غورباتشوف على الوصول إلى السلطة شخصيته التى كان يتمتع بها حيث كان من السياسيين الموهوبين المحنكين . كما أنه كان صاحب خلق فى بيئته حيث لم يكن يشرب الكحول كما كان يعمل بجد ونشاط فى المراكز التى يشغلها[٣].

(هـ) كما أن المخابرات السوفيتية كان لها دور بارز فى إيصال غورباتشوف إلى السلطة[٤].

وبعد هذا فإن وصول غورباتشوف إلى السلطة وتدرجه فى المناصب القيادية واختياره فى هذاالسن كل ذلك مع ماصاحب اختياره من التغيير والتبديل فى سياسة الاتحاد السوفييتى الداخلية والخارجية يجعل التساؤل قائماً من وراء غورباتشوف ، ولماذا اختير هو بالذات ؟!!

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن البيئة التى نشأ فيها غورباتشوف اكتوت بآثار تطبيق التأميم مما كان له أثر فى نفوس أسرته وبالتالى انعكاسه على غورباتشوف .

---

(١) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٦٥) .

(٢) انظر المرجع السابق (١٧٠) .

(٣) انظر : الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٣) ، غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٦٣) .

(٤) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٣) .

ثانيا : أن أسرة غورباتشوف حافظت على تمسكها بدينها إلى حد كبير ، وخاصة والدته .

ثالثا : أن غورباتشوف يرتبط بعلاقة وثيقة مع اليهود .

رابعا : الغموض فى شخصية غورباتشوف وترقيه فى بعض المناصب بشكل يدعو للتساؤل .

بعض المؤثرات فى حياة غورباتشوف والتى كان لها أثر واضح فى سياسته وتوجهه فيما بعد :

لاشك أن للبيئة التى نشأ فيها غورباتشوف أثر فى سياسته التى انتهجها فيما بعد ، ويمكن ابراز هذه المؤثرات فى الآتى :

أولا : الوضع القروى الذى كان يعيشه وماحدث به من قبل أهله ، وأهل قريته من أحداث دامية ، وقتل ونفى للمواطنين خاصة فى عمليات التأميم الإجبارى .

يقول غيرد : (إن جو العائلة القروية ونمط عيشها ، والعمل الذى كان يتقاسمه مع الكبار ، منذ نعومة أظفاره ، قد أثر ، من دون منازع ، فى تطور طباعه وفى نظرته إلى الحياة . كان لايزال صغيرا جدا كى يستطيع الحكم على التأميم الإجبارى والسنوات القاسية التى أعقبته . غير أن التجارب التى عاشها أهله وأجداده قد أثرت فيه وطبعته بطابعها ، حتى ولم يكن قد بلغ - فى مرحلة عمليات التطهير السياسى الكبرى - السادسة أو السابعة من عمره ...)(١)

ثانيا : الأحداث التى صاحبت التأميم من قتل وسجن وشملت أسرته وخاصة جده الذى كانت تربطه به علاقة وثيقة . حيث قال غورباتشوف لأحد رؤساء تحرير إحدى المجلات الكبرى (هل تعلم أن جدى قد سجن عام ١٩٣٧م لمدة سنة ونصف السنة ، وأن عائلتى قد اعتبرت "عدوة الشعب"؟) .

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣٩) ، وانظر (٤٠-٤١) .

و(كان لابد للسجن من أن يترك آثاره ، فى كل حال ، على الفتى غورباتشوف الذى يكن الإعجاب لجده)[١].

ومن هنا اعتبر بعض الكتاب أن من أهم الدوافع التى وجهت غورباتشوف للاهتمام بالحقوق (القمع الرهيب الذى سببته سياسة التأميم ، والذى وصلت أخباره إلى مسامع الطفل عبر أهله)[٢].

ثالثا : تذمر غورباتشوف من سياسة ستالين حين كان فى جامعة موسكو إلا أن الخوف كان يمنعه هو ومن على شاكلته من التعبير عن مابدواخلهم أو الإفصاح عن أفكارهم .

يقول أحد أصدقاء غورباتشوف فى سنوات الجامعة (قيض لى أن أتحدث إليه ، بصورة سرية للغاية ، حول مسائل يمكننا طرحها معا وتتصل بالإشتراكية فى عهد ستالين . نحن ، أى أنا وهو ، لم نكن راضين عن هذا النظام البشع لأننا كنا نعيش فى جو من الخوف . تساءلنا بصورة سرية وحذرة حول الإشتراكية على طريقة ستالين : هل كانت جيدة أم سيئة؟ ولكن من غير الوارد أن نتطرق إلى هذا الموضوع علنا وأمام الغير ، كنا فى خوف شديد . وقد نتعرض لخطر الموت . كانت عبادة الدكتاتور قد بلغت درجة من اللاإنسانية بحيث إن كل واحد منا قد يقع ضحية هذا المجنون ، هذا المريض العقل ، هذا القاتل الشرير وضحية حكمه الأحمق . بعد موت ستالين ، تحدثنا بصورة أكثر صراحة : هذه الإشتراكية ليست بإشتراكية . هذه الإشتراكية كانت سيئة . وتحدثنا أيضا عما كان يسمى القيادة الجماعية ، وهى عبارة عن ديكتاتورية مجموعة حمقاء تمارسها عصابة متوحشة)[١].

هذا بالإضافة إلى أن دراسة غورباتشوف سمحت له بالاطلاع على أوضاع الفلاحين وأحوال البلاد الإقتصادية[٣].

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٤٦-٤٧) .
(٢) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢٦) .
(٣) نقلا من كتاب غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٨٩-٩٠) .
(٤) انظر المرجع السابق (١٣١-١٣٢) .

رابعا : علاقة غورباتشوف بالآخرين وخاصة الذين لهم آراء تخالف مبادىء الشيوعية ، أو سياسة الحزب ، مضافا إلى ذلك وقوفه إلى جانب المظلومين والمضطهدين بسبب آرائهم السياسية .

يقول سخاروف : (كان يقوم منذ عدة سنوات بنصرة أناس يتعرضون للتعذيب بسبب آرائهم السياسية ، وإيمانهم أو قوميتهم) .

هذا بالإضافة إلى استدعائه سخاروف ذاته حيث (عاش منعزلا وتحت الرقابة السياسية الدائمة ، إلى أن اتصل به غورباتشيف بالهاتف داعيا إياه إلى موسكو)[١].

خامسا : النزول إلى حياة الناس الواقعية ومعايشتهم ، والشعور بمتطلباتهم ، وسماع شكاواهم . مما جعله أكثر إيمانا بضرورة التغيير والرجوع عن هذا الفكر . وأوضح غورباتشوف أهمية سماع صوت الشعب والاستفادة من آرائه ، وتحقيق الديمقراطية له فقال : (إن الإشتراكية والديمقراطية لاتنفصلان . فمن خلال حصولهم على الحريات الديمقراطية ، يصل الشغيلة إلى السلطة ، كما أنهم لايستطيعون تحقيق هذه السلطة وترسيخها إلا فى ظروف إشاعة الديمقراطية) .

ويقول : (ينبغى أن نكون قادرين على تصويب السياسة لتتواءم مع الطريقة التى تريدها الجماهير ، وتنشيط عملية تلقى الآراء والأفكار من الجماهير لننهل من أفكار شعبنا ونصائحه . فالشغيلة يقترحون كثيرا من الأفكار المفيدة والمثيرة للاهتمام ، ولكنها أفكار لاترى دائما بشكل جيد من قبل الجالسين "فوق القمة" . ولهذا لايجوز التسامح بأى شكل مع مواقف الازدراء لما يصدر عن الشعب ، وفى النهاية ، نجد أن العامل الأساسى فى إنجاح عملية إعادة البناء ، هو موقف الشعب من هذه العملية ...)[٢].

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٣٨-١٣٩) .

(٢) عملية إعادة البناء (٣١) .

سادسا : انفتاح غورباتشوف على العالم الخارجى حيث قام بزيارة بعض الدول الرأسمالية ، واطلع على أوضاع الأمم هناك فكان لهذا الانفتاح فى شخصيته أثره على سياسته الداخلية دون شك . وتمت هذه الزيارات وغورباتشوف يعمل فى الحزب الشيوعى . هذا بالإضافة إلى أنه كان يذكر بعض الانتقادات للسياسة السوفيتية مما جعل بعض الكتاب والسياسيين يعدها سابقة فى قواد ومسئولى الحزب الشيوعى .

ففى عام ١٩٦٦م زار المانيا الشرقية ، وفرنسا ، وفى عام ١٩٦٩م ذهب إلى تشيكوسلوفاكيا . وفى سنة ١٩٧٢م ذهب إلى بروكسل ، وفى عام ١٩٧٥م ذهب إلى المانيا الغربية ، وفى عام ١٩٧٦م ذهب إلى فرنسا مرة أخرى[١].

وفى عام ١٩٨٣م ذهب إلى كندا وبعد أن رأى العمال وماهم عليه قال : (عندنا ، هذا لن يحدث قبل خمسين عاما)[٢].

وفى عام ١٩٨٤م قام بزيارة لايطاليا ، وقال رئيس قسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الايطالى : (إنه لأول مرة فى حياته يلتقى قائدا سوفيتيا يسمح لنفسه بأن يوجه ملاحظات نقدية تطال بلده)[٣].

وفى العام نفسه ذهب إلى بريطانيا وقالت عنه تاتشر : (السيد غورباتشوف يروق لى . يمكننا القيام ببعض المشاريع سويا)[٤].

سابعا : البساطة التى كان يعيشها غورباتشوف وأعضاء أسرته . حيث كانت أسرته تساير الناس فى حياتهم وشئونهم دون تميز عنهم ، وهذا على خلاف ماكانت عليه أسر قواد وزعماء الحزب الشيوعى[٥]. يضاف إلى ذلك مستوى السكن الذى كان يعيش فيه غورباتشوف وأسرته حيث كان

---

(١) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٥٥) .
(٢) نقلا من المرجع السابق (٥٥) .
(٣) المرجع السابق (٥٥) .
(٤) المرجع السابق (٥٦) ، وانظر ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (١٩٧) .
(٥) انظر عن ذلك غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٤٣) .

متواضعا جدا مقارنة بإسكان أعضاء الحزب ومسئوليه[١].

ثم أثر زوجته عليه حيث كانت تربطها علاقات عديدة بكثير من مفكرى المجتمع مما جعلها تنقل تصورات هؤلاء إلى زوجها[٢].

هذا عدا ماتميزت به شخصية غورباتشوف من ضبط النفس وتحمل سماع الآخرين والاحتكاك بهم[٣]. كل ذلك كان له أثر على سياسته ، وأثر فى تقبل الناس لها ودعمها .

ثامنا : وجود مجموعة من المفكرين يرغبون فى التغيير والتعديل فى الفكر الماركسى والأفكار المنتشرة إلى أفكار أخرى تساير الواقع وتحقق السعادة للفرد والمجتمع . وقد انتقد هؤلاء سياسة ستالين ، وآثار التأميم السيئة ، ومصادرة الملكية الفردية ، وطالبوا بالتغيير من أجل انعاش الإقتصاد وترك التزمت العقائدى ، وعدم إنفراد جهة محددة بالأمور ، ومعالجة البيروقراطية المتفشية فى الحزب[٤].

ولاشك أن وجود هذه النخبة من المفكرين والقياديين بجوار غورباتشوف له أثره الكبير فى الإقدام على إعلان السياسة الجديدة لأن هؤلاء سيكونون درعا قويا فى وجه الأفكار الأخرى ـ خاصة إذا ماكان هؤلاء المفكرين وأمثالهم ممن لهم توجهات تساير غورباتشوف ـ وأصحاب تأثير فى الرأى العام .

تاسعا : وجود القادة السوفييت الذين سبقوا غورباتشوف وكان لهم أثر واضح فى التغيير والتبديل ، وخاصة من بداية عهد خروشوف يضاف إلى ذلك ماكان من تمرد فى الدول الشرقية على الإشتراكية وتذمرها (أى

---

(١) انظر عن ذلك : المرجع السابق (١٨٣،١٤٤) ، ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٤٠-٤١) .

(٢) انظر عن ذلك غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٨٦-١٨٧) .

(٣) انظر عن ذلك أملى (١٦٧) .

(٤) انظر عن ذلك غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢١٢،٢٢٣-٢٢٤،٢٣١-٢٣٢، ٢٧٢) .

الدول) من ذلك الفكر والوضع الذى كانت تعيشه .

هذا بالإضافة إلى أن غورباتشوف كان يرغب فى تلافى الأخطاء التى وقع فيها أسلافه(١).

ونعرض الآن للسياسة الجديدة التى جاء بها غورباتشوف .

السياسة الجديدة لغورباتشوف (النظرية الغورباتشوفية) :

إن هذه النظرية تمثل الرجعة الأخيرة عن الفكرة الماركسية وحملت فكرة التراجع هذه الإصلاحات التى اعتبرت بحق الحكم النهائى بالفشل على الفكر الماركسى .

يقول آرنست ماندل إن (إصلاحات غورباتشوف وهى الأخيرة فى سياق سلسلة طويلة ، فتبين حيوية الجسم الإجتماعى وصحته الأساسيين وسيغدو مجرى الإصلاحات الجذرية وإضفاء الديمقراطية مجرى لارجعة فيه)(٢).

ويقول حسين صبرا : (لم يقف غورباتشوف فى "بيريسترويكيته" عند حد التراجع وإنما أخذ يتبرأ من كل السياسات التى انتهجها الاتحاد السوفييتى منذ قيامه فى مطلع هذا القرن حتى لحظة تسلمه النظام ... معتبرا أن ماحصل فى الماضى هو غلطة لن تتكرر أبدا ، ومتكفلا بالتكفير عن ذنوب أسلافه)(٣).

وقد أعلن غورباتشوف أن سياسته وإصلاحاته ستكون حقيقة لامجرد دعوى حيث قال : (أصبحنا على يقين من عدم جدوى الإصلاحات التجميلية ومحاولات الترقيع ، وأن المطلوب هو إعادة تصنيع جدية تماما)(٤).

---

(١) انظر عن ذلك : غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٢٢-١٢٤) ، ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٣٦٤) ، الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٢٥) .

(٢) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٥) .

(٣) سادات الماركسية (٤٨) .

(٤) عملية إعادة البناء (٢٥) .

وأضاف (إن تصور الإشتراكية والمجتمع الإشتراكى كشىء جامد لايتغير هو تصور خاطىء وضار)[١].

فما هى السياسة الجديدة التى جاء بها غورباتشوف؟

عرفت سياسة غورباتشوف الجديدة :

(١) بالبيريسترويكا .

(٢) والغلاسنوست .

أولا : البيريسترويكا :

وهى ثورة ضد القديم .

ومن حيث اللغة : تعنى إعادة البناء .

ويبين غورباتشوف دلالتها ومعناها الذى يقصده فيقول : (إعادة البناء تعبير متعدد الدلالات ، وواسع للغاية . ولكن ، إذا انتقينا من بين دلالاته المتعددة المحتملة ، الدلالة الرئيسية المعبرة أقرب مايمكن عن جوهر هذه العملية ، أمكننا القول إن إعادة البناء هى ثورة)[٢].

ويقول : (إن إعادة البناء عملية ثورية ، ذلك أنها قفزة فى تطور الإشتراكية ، فى تجسيد خصائصها الجوهرية . لقد أدركنا منذ البداية : لاوقت لدينا للتردد . ومن المهم جدا أن لا"نؤجل" لحظة الانطلاق ، أن لانتخلف ، وأن ننطلق من مستنقع العقلية المحافظة ، وأن نحطم قوة استمرار الركود . فلايمكن إنجاز ذلك بأسلوب الخطوة خطوة واللجوء إلى الإصلاحات الوجلة الزاحفة ببطء)[٣].

ثم يبين غورباتشوف أن التغيير يصل إلى كل شىء من القاع إلى القمة لأنها ثورة ضد كل قديم فيقول : (لايجوز الاستخفاف بإعادة البناء

---

(١) عملية إعادة البناء (٤٤) .

(٢) المرجع السابق (٤٩) .

(٣) المرجع السابق (٥٠) .

كما لايجوز الاستخفاف بأية ثورة . هنا لابد من المضى إلى النهاية وتحقيق النجاحات يوميا لكى تشعر الجماهير بالنتائج المفيدة ، ليدور الدولاب ، لتزداد سرعة الحركة ، وللنهوض ـ سواء بالمعنى المادى أم الروحى .

ونحن إذ نخلع على اجراءاتنا المتخذة صفة الثورية ، فإننا نعنى بذلك طابعها العميق الجذرى وغير المهادن ، وشمولها للمجتمع كله من القمة إلى القاعدة ومن علاقات الملكية حتى البنية الفوقية . إنها اجراءات تشمل كل مجالات الحياة ، تشملها بمجموعها بشكل متكامل . إنها ليست صباغة أو تنظيف بقعة على جسدنا الإجتماعى ، بل إنعاش للجسد كله ، وتجديد كامل له)[١].

ويرى غورباتشوف أن فكرة الإصلاح تعود إلى لينين فيقول : (إن لينين لم يخش استعمال هذه الكلمة ، لابل إنه علم البلاشفة ضرورة "الإصلاح" إذا اقتضاه ضرورة تطور الثورة ضمن الظروف المستجدة . ونحن اليوم بحاجة لتحقيق إصلاحات جذرية من أجل انجاز التحولات الثورية)[٢].

ويقول فى بيان أن عملية إعادة البناء هى إعادة تنظيم لكل شىء .

(يسعدنى أنه قد بدأ يتشكل الإدراك داخل الحزب والمجتمع ككل : إننا باشرنا قضية لاسابق لها ـ إعادة تنظيم السياسة والإقتصاد والمجتمع والأيديولوجيا . إلا أننا ، إذا كنا راغبين فى تنفيذ مخططنا فى الحياة ، فعلينا تنفيذ عمل سياسى وإجتماعى وإقتصادى وأيديولوجى لاسابق له على الصعيدين المحلى والخارجى ، وأن نتحمل قبل كل شىء مسؤولية لم يسبق لها مثيل . ونحن نأخذ فى اعتبارنا ضرورة العمل وضخامته وجرأته وخاصة فى المرحلة الأولى)[٣].

---

(١) عملية إعادة البناء (٥٣) .
(٢) المرجع السابق (٥١) .
(٣) المرجع السابق (٦٥) .

وبالتـالى فإن إعادة البناء هـى تغيير واستبدال الأفكـار القديمة بأخرى جديدة سـواء فى الإقتصـاد أو السيـاسة أو الإجتمـاع أو مـايتعلق بالأفكـار الدينية[١].

ثانيا : الغلاسنوست :

إن جذور هذه الكلمة هـو غلاس Glas ، غولوس Golos الصوت . وفى القاموس الروسى لعام ١٨٦٣-١٨٦٦م تعنى هذه الكلمة "ماهو معروف ، شائع ، عام" .

والكلمة تعبر عن "الرأى" ، وعن الرغبة بالصراحة . وعـن المداولات والنقاشات المفتوحة العامة[٢].

وفى قـاموس عـام ١٩٨١م أحال القـارىء إلى الصفة المشتقـة (غلاسنى) وتعنى (مايمكن أن يعرف ويناقش علنا)[٣].

وفى عـام ١٩٨٧م يعطى مختصـر القاموس السياسى الكلمـة شرحا وافيا وفيه الغلاسنوست :

(هـى أحد المبـادىء الـديمقـراطية الكبرى . أنهـا تؤمـن شفـافية عمل الإدارات الحكومية ، وتسمح للناس بمعرفة ماتقوم به هذه الإدارات من نشاط ثم إن القـاموس يكشـف عـن غـائية الكلمـة ـ الشعـار الجديد ـ "تمثـل الغلاسنـوست الشكل الأفضل لضبـط أجهزة السلطة ، المحليـة منهـا خاصة ، من جانب الجماهير ، والشكل الأفضل للصراع ضد البيروقراطية")[٤].

ولايدخل (فى نطـاق الغلاسنـوست المعلومات التى تطـال أسرار الدول والأسـرار العسكرية ، والعلميـة والتقنية والإنتاجيـة والحقـوقية والطبية)[٥].

---

(١) لمزيد عـن ذلك انظر : البيريسترويكا من منظور إسلامى (١١-١٢) ، نشـوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٦٩-١٧٠،١٩٦،٢٦١) .
(٢) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٣٥-١٣٦) .
(٣) انظر المرجع السابق (١٣٦) .
(٤)،(٥) المرجع السابق (١٣٦) .

وبعـد هـذا فـإن أفكـار التغيير والإصلاح كـانت تراود الكثير مـن المفكـرين وأعضاء الحزب[١]. إلا أن الخوف كـان يقضـى عليها ، أو يحجبهـا عن الظهور إلى أن برزت للعيان فى الآونة الأخيرة .

فظهورها على يد غورباتشوف لايعنى عدم وجودها من قبل[٢].

ولكنها اتخذت طابعا آخر فكانت المناقشات تتم بصورة علنية[٣]مما أدى إلى تطلـع الشعب إلى السيـاسة الجديدة والوقوف معهـا ومع غورباتشوف فى تطبيقهـا ولـولا ذلك لما استطـاع غـورباتشوف تحقيـق شـىء ممـا كان يهدف إليه[٤]. مضـافا لـذلك وجود كثير مـن أصحـاب المناصـب العليـا يشـاركون غورباتشوف أفكاره[٥].

كـذلك كـان الأمر بالنسبـة لفكـرة الغلاسنوست لم تكـن حديثـة وإن كانت أخذت فى عهد غورباتشـوف طـابعا آخر . وقـد اعتبر بعـض الكتـاب والمفكرين السوفييت أن بدايتها كانت منذ وفاة ستالين وقـد عملوا للحصول عليها كثيرا مما يدل على أن الشعب كان يرغب فى التخلص من ذلك الفكر الجاثم على قلبه ولكن الخوف والهلع الذى خلفته الحقبـة الستالينية كان لهم بالمرصاد . يقول فتشينكو : (إن الغلاسنوست ليست شيئـا منزلا من الأعلى ، إنهـا ليست هبة ، لقد عملنا بجد من أجلها ولقد كانت معـركة طويلة ، منذ وفـاة ستالين أحرزنا بعض الانتصـارات ، ومنينا بالعـديد مـن الهزائم ، وقد مررنا بأوقات كانت الغلاسنوست فيها غير معلنة ـ بدون صوت)[٦].

---

(١) انظر عن ذلك غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٤٧-٢٥٠) .

(٢) انظـر عن ذلك : سادات الماركسيـة (٢٥-٢٧) ، البيريسترويكـا من منظور إسلامى (٧) ، وفيـه (لم تكن البيريسترويكا ـ فى الحقيقة ـ طرحا غـورباتشوفيا وإنما كانت الطرح الأكثر وضوحا وصراحة من قبل غورباتشوف ...) .

(٣) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٨) .

(٤) انظر المرجع السابق (٢٥٢) ومابعدها .

(٥) انظر المرجع السابق (٢٢٧-٢٢٨) .

(٦) نقلا من كتاب ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٢٨) .

إن العلاقــة والاتصــال مبــاشر بين سيــاسة إعــادة البنــاء وسيــاسة الغلاسنـوست . يقول فتشينكـو : (إن العلاقة بين الغلاسنـوست وإعـادة بناء الإقتصــاد هى كالعلاقة بين الهـواء والتربة ، إن الهـواء يمكـن تجديده بسرعة ولكن التربة تحتاج لوقت طويل ليعاد تجديدها)[١].

وبعد هذا العرض نصل إلى التالى :

أولا : أن السياسة الجديدة التى نادى بها غورباتشوف وجدت لديه من قبل أن يصل إلى رئاسة الحزب .

ثانيا : أن وجود بعض الشخصيات المؤيدة لهذه السيـاسة كان له تأثير كبير فى تقبل الناس لها .

أهداف البيريسترويكا :

لــن نذهــب بعيـدا فى تحديد أهــم الأهـداف التى كــان يرمـى إليهـا غورباتشوف من سياسته الجديدة . وندعه يحدثنا عنها حيث قال :

(١) (إن إعادة البناء انتصار حاسم على الركود وكسر العمود الفقرى لآلية الفرملة "الكبح" ، وبناء آلية فعالة ومضمونة لتسـريع النمو الإقتصادى الإجتماعى للمجمتع ، وتنشيط حيويته بشكل هائل) .

(٢) (كمــا تعنى إعــادة البنــاء الاعتمـاد على إبداع الجمــاهير الحى . إنهـا التطـوير الشـامل للديمقراطيـة والإدارة الذاتية الإشتراكيـة ، وتشجيـع المبـادرات والنشـاط الفـردى وتوطيـد الانضبـاط والنظـام ، وتوسيـع العلنيـة وممـارسة النقد الـذاتى فى كـل مجالات حيـاة المجتمـع . إنهـا السمو إلى احترام القيم والكرامة الذاتية) .

(٣) (وإعــادة البناء تكثيف شامل فى الإقتصاد السوفييتى ، وإحيـاء وتطوير لمبــادىء المركـــزية الـديمقراطيـــة فى إدارة الإقتصــاد الــوطنى وإدخال

---

(١) نقلا من كتاب ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٢٩) .

الأساليب الإقتصادية الناجعة فى الإدارة فى كل مكان والتخلى عن الإدارة القائمة على إصدار الأوامر وتشجيع الابتكار والحرص الإشتراكى على جميع الجبهات) .

(٤) (وتأتى إعادة البناء تحولا حاسما نحو العلم وقدرة على توفير أساس علمى متين لكل مبادرة جديدة . إنها دمج إنجازات الثورة العلمية التكنولوجية بالتخطيط الإقتصادى) .

(٥) (وترمى إعادة البناء إلى إعطاء الأولوية لتطوير المجال الإجتماعى الموجه نحو إشباع حاجات الناس السوفييت بصورة أكمل من المسكن والراحة والتعليم والخدمات الطبية وتأمين ظروف عمل أفضل . إنها عناية دائمة بالثروة الروحية وبثقافة الأفراد والمجتمع بوجه عام) .

(٦) (إن إعادة البناء تخلص المجتمع من كل شائبة لحقت بالأخلاق الإشتراكية ، وتطبيق متواصل لمبادىء العدالة الإجتماعية فى الحياة . إنها وحدة القول والعمل ، الحقوق والواجبات ، وهى الاعلاء من شأن العمل الشريف المتقن ، والتخلص من نزعة التساوى فى المداخيل والنزعة الاستهلاكية)[١].

(٧) (إننى أستطيع القول ، من ناحية مبدئية ، أن الهدف النهائى لإعادة البناء واضح لنا . إنه التجديد العميق لكل جوانب الحياة فى البلاد ، وإضفاء أحدث أشكال التنظيم الإجتماعى على الإشتراكية ، والكشف التام عن طبيعتها الإنسانية فى كل المجالات الحاسمة ـ الإقتصادية والإجتماعية والسياسية والأخلاقية . وأؤكد من جديد ، أن إعادة البناء ليست استعادة للرؤيا ، ولامجرد ضوء ؛ بل هى إدراك للضرورة الموضوعية ، ضرورة التجديد والتسريع التى ولدت من أعماق مجتمعنا)[٢].

---

(١) عملية إعادة البناء (٣٢-٣٣) .

(٢) المرجع السابق (٣٤) .

(٨) العمل على تحقيق الحرية . يقول غورباتشوف : يجب (أن نضع أمام أعيننا أهداف البروسترويكا ، التى تشمل الحرية السياسية ، والحرية الإقتصادية ، والحرية الثقافية . ويجب علينا أن نقف بثبات ونتمسك بتلك المبادىء ، وأن نكون متأكدين من أننا لن نفتح الطريق للستالينيين الجدد ، ومنهم المتقهقرون والمغامرون والمتطرفون ، وبالتالى يجب علينا أن نحافظ على "البروسترويكا" فى إطارها السلمى ، وإلا فإن "كل شىء سيعود إلى ماكان عليه الوضع فى الأيام السالفة")[١].
ويقول : (إن أهداف البروسترويكا هى : الحرية الإقتصادية والحرية السياسية ، والهروب من العزلة ودخول البلاد فى مجرى الحضارة ، وثمة مبدأ جوهرى - إذا مانظرنا إلى الأمر على الصعيد الفلسفى - يتمثل برفض أى نماذج جاهزة للمجتمع يمكن مجددا ، بصرف النظر عن حسن المقاصد ، فرضها على المجتمع لجلب السعادة إلى الشعب "من فوق" . الهدف هو تحرير القوى الحيوية داخل أفراد الشعب ، ومنحهم إمكانية بناء عافيتهم بحرية ، كل بمفرده والكل معا ، وتمهيد الطريق نحو مستقبلهم فى ظل القيم الإنسانية البسيطة العامة المتطورة عبر قرون من التقدم العالمى ، لاعلى أساس الطروحات والقوالب الجامدة)[٢].

(٩) من أهداف السياسة الجديدة القضاء على التسلط والجبروت ، وتحقيق الديمقراطية فعلا ، ورفع مستوى المعيشة للسكان[٣].

(١٠) التأثير على مجرى السياسة الدولية بكاملها حيث لم يعد المرء يسمع بأخطار حرب عالمية[٤].

---

(١) الإنقلاب (٥٨) وانظر مابعدها .
(٢) المرجع السابق (٦٩) .
(٣) انظر المرجع السابق (٧٧-٧٨) وانظر مابعدها .
(٤) انظر المرجع السابق (٦٦) ومابعدها .

ونظـرا لبعض أقوال غورباتشـوف التى تدعو إلى الإبقـاء على النظـرية الإشتراكية كان يرى البعض أن السياسة الجديدة إعادة البناء هى العودة إلى الإشتراكيـة حيـث قـال غورباتشـوف (إذ يكمـن جوهر إعـادة البنـاء فى دمج الإشتراكيـة بالديمقراطية ، وفى إحيـاء المفهوم اللينينى للبنـاء الإشتراكى نظريا وعمليا . من هنا تستمد العملية عمقها وروحها الحقيقيـة وطابعها الكامل)(١).

أسباب ودوافع السياسة الجديدة :

إن السياسة التى انتهجها غورباتشوف لم تكن سهلـة القبول أو التطبيق لولا وجود الأسباب والدوافـع التى سـاعدت بل التى مـن أجلهـا اتخذ النهج الجديد . ومــن هنـا أصبح السير على خلاف هــذه السيــاسة هـو الـرجعية والنكوص عن التطور .

إن الوضع والحياةالمتردية التى كان يعيشها الاتحاد السـوفييتى هو السب الجوهـرى فى الإقـدام على هـذه السيـاسة . يقول غورباتشـوف : (إن الحافـز الرئيسى لعملية إعادة البناء ، هو إلى حد كبير ، عـدم رضانا عن كيفية سير الأمور فى بلادنا خلال السنوات الأخيرة)(٢).

ويمكن إبراز أهم هذه الدوافع فى التالى :

أولا : أن التغيير كان مطلب الجماهير ولو حصل تأخير لـه لربما تفاقم الــوضع إلى درجة الانفجـار غير المنضبــط ولــو بدرجة معينـــة . يقــول غورباتشوف : (إن إعادة البنــاء ليست نزوة مـن بعـض الأفـراد أو بعـض المجموعات ، الذين انتابتهم فجأة حمى الطموح . فلـو كان الأمر كذلك لما تمكنـت النـداءات ولاالإجتمـاعات الموسعة ولاحتى مـؤتمر الحزب مـن إنهاض الشعـب للإنخراط فى العملية التى بدأت عندنا الآن ، والتى ينضـم إليها كل يوم أعداد أكبر من الناس السوفييت .

---

(١) إعادة البناء (٣٤) .

(٢) المرجع السابق (٩) .

إن عملية إعادة البناء متطلبات نضجت وتمت فى رحم عمليات التطور لمجتمعنا الإشتراكى . وقد آن الأوان لولادة الجديد ، بل يمكن القول إنها قد تسببت فى آلام المخاض . وكان ممكنا أن يؤدى التأجيل فى عملية إعادة البناء ، وفى أقرب وقت ، إلى تأزيم الوضع الداخلى الذى حمل ، وبصراحة ، خطر قيام أزمة اجتماعية إقتصادية وسياسية حادة)[١].

وقد أيد هؤلاء الإصلاحات الجديدة حتى تراكمت الرسائل على غورباتشوف المؤيدة له مما يدل على أن القوة الفعلية وراء التغير هم الشعب . ويورد غورباتشوف بعضا من هذه الرلسائل فى كتابه عملية إعادة البناء ويقول قبل ذلك : (وفيما يتعلق بالقيادة السوفيتية ، فإن من أهم وسائل التواصل مع الجماهير المعاشرة المباشرة مع المواطنين ورسائلهم . فالرسائل تصل إلى المجلات والجرائد اليومية "والكثير من هذه الرسائل يتم نشره" وكذلك الرسائل الموجهة إلى الحكومة ومجلس السوفييت الأعلى . كما ترد رسائل عديدة إلى اللجنة المركزية للحزب بشكل خاص .

وهنا تتسم الرسائل بصفة مميزة . فهى وإن كانت كثيرة كالسابق أو توجه إلى مختلف المراجع ، إلا أنها الآن تغيرت من حيث الجوهر . فقد تضاءل عدد من يكتبون الرسائل سعيا لتحقيق وحل مايسمى "قضايا شخصية" مثل المساعدة فى الحصول على شقة ، موضوع التقاعد ، إغاثة شخص محكوم خطأ ، إعادة للعمل ...الخ . صحيح أنه مازال يرد القليل من مثل هذه الرسائل ، ولكن المحتوى الرئيسى لأغلبية الرسائل قد بدأ يتغير ، فالأساس فيها الآن ، اهتمامات وآراء بشأن مصير البلاد . كأن حبل الصمت والاغتراب الذى جدل خلال سنين طويلة قد انقطع . فالأوضاع الجديدة تسمح بالكثير من الصراحة للناس . وهم راغبون فى تبادل الآراء والأفكار وبث همومهم ليس للآخرين ، بل لقادة البلاد . بعض هذه الرسائل يمثل

---

(١) عملية إعادة البناء (١٥) .

ببساطة صراخ الروح)[١].

ويقـول غورباتشوف : (من بين كل خمسة عشر مواطنـا سوفيتيا هناك أربعـة عشر ولدوا بعد الثورة . ومـع ذلك يستمرون فى دعـوتهم لنا للتخلى عن الإشتراكية)[٢].

ويقـول عـن أهمية الرسائل : (هـذه الرسائل ـ وهـى بالآلاف ـ تمثـل شهـادة ثقـة عظيمة بقيادة الحزب والـدولة . بعـث الثقـة! وهـذه قـوة عظيمة ورأسمال لايقدر بثمن)[٣].

وتبين رايسـا غورباتشوف أهمية هذه الرسائل وكثرتهـا وكون الشعب كان يرغب فى التغيير فتقـول : (فى ١٩٨٥م كـان زوجى يتسلم عشـرة آلاف رسالة شخصية شهريا . وكان مجموع ماتسلمه عام ١٩٨٥م أكثر مـن أربعمائة ألف رسالة . وأكرر أن تلك هى الرسائل الشخصية فقـط لاالرسائل الموجهة على العموم إلى اللجنة المركزية . فى ١٩٨٦م تسلم أكثر مـن ستين ألف رسالة شهـريا . وأقول مرة أخرى أنهـا شخصية . فى عام ١٩٩٠م تسلم أربعين ألـف رسـالة شهريا . وفى يناير وفبراير وردت إليـه ثلاثة وتسعـون ألـف رسالة .

إنى واثقـة من أنه ليس هنـاك وثيقة تتصل بالبيريسترويكـا أكثر كشفا وأشـد نزاهـة من تلك الرسائل . وتحتـوى الرسائل على تاريخ إعـادة البنـاء وتحليل للأفكار التى تسندها ، كما تحتوى على إرشادات واقتراحات وتأملات وعلى كل التوتر والدراما الموجودين فى البيريسترويكا .

لامـوجب لإخفـاء حقيقـة أن هنـاك رسـائل مشحـونة بسـوء الطـوية

---

(١) عملية إعادة البناء (٦٧-٦٨) .
وأورد غـورباتشوف مجموعة من الـرسائل وكانت تطالبه بالاستمـرار فى سيـاسته . انظر (٦٨-٧٢) .

(٢) المرجع السابق (٤١) .

(٣) المرجع السابق (٧٢) وانظر مابعدها .

والكراهية والحنق . ولكن الأغلبية رسائل دعم وأمل وعزم على التنفيذ)(١).

وبالعموم لو لم يكن غورباتشوف على رأس السلطة فإن ماحدث كان سيحدث نظرا لأن الشعب بلغ درجة من التردى يستحيل معها استمراره تحت وطأة هذا النظام . فغورباتشوف لم يكن إلا منفذا لإرادة الشعب .

ثانيا : التردى الإقتصادى العام ونقص الغذاء وانعدام السكن مضافا إلى ذلك أو بسببه تردى الأخلاق والقيم .

يقول غورباتشوف : (لم نتمكن من أن نستثمر ، بشكل كامل ، إمكاناتنا الإشتراكية فيما يتعلق بتلبية الاحتياجات المتنامية لتحسين ظروف المسكن ، ولتأمين المواد الغذائية كما وكيفا ، وكذلك لتنظيم عمل وسائط النقل وفق المستوى المطلوب ، ولتحسين الخدمات الطبية والتعليمية ومعالجة المشاكل الأخرى التى كان من الطبيعى أن تبرز أثناء مسيرة تطور المجتمع . وأخذ ينشأ وضع غير معقول . إنتاج ضخم من الفولاذ والمواد الخام والطاقة والوقود لامثيل له فى العالم ، وفى الوقت ذاته نقص فى هذه المواد بسبب التبديد وقصور الاستخدام . ومع أن بلدنا يشغل المركز الأول فى العالم . من حيث إنتاج حبوب الأعلاف ، إلا أنه مضطر لاستيراد ملايين الأطنان . من هذه المادة سنويا . لدينا أكبر عدد من الأطباء وأسرة المستشفيات بالنسبة لكل ألف مواطن ومع ذلك نعانى نواقص خطيرة وتدنيا فى مستوى العناية الصحية . وصواريخنا تشق طريقها بدقة متناهية نحو مذنب هالى ، وتسرع

---

(١) أملى (١١٧) .

وذكرت مقتطفات من عدة رسائل ونورد منها نحن هذه المقتطفات :

١ - "لاتنحرف عن الطريق الذى اخترته ولاتتراجع) .

٢ - (إذا كانت هناك عودة إلى الماضى فإنى أفضل عليها حبل المشنقة) .

٣ - (ليمنحك الله تعالى النصر العظيم ، أيها الشخص العظيم العزيز فى قلوبنا) .

٤ - (أريدك أن تعلم أننا مؤمنون بك وبما تعهدت بتنفيذه) .

٥ - (أنصحك نصيحة صديق أن تمضى فى الطريق الذى مددت يدك إليه والذى سيقود بلادنا كلها نحو المستقبل) .

لموعدها مع كوكب الزهرة ، ولكن رغم هذا النصر للفكر الهندسى والعلمى ـ فإننا نلاحظ تخلفا واضحا فى مجال استخدام المنجزات العلمية لتلبية الاحتياجات الإقتصادية ، وكذلك تخلفا فى الأجهزة المخصصة للاستخدام المنزلى بالنسبة للمستوى العصرى .

وهذا ليس كل مافى الأمر ، مع الأسف ، إذ راحت تتقهقر تدريجيا ، القيم الفكرية والأخلاقية . وعلى مرأى من الجميع ، هبطت وتأثر النمو بشكل حاد ، وتدهورت المؤشرات النوعية على كافة الصعد ، وبرزت ظاهرة عدم استيعاب الجديد فى العلم والتكنولوجيا ، وتباطؤ النمو فى مستوى المعيشة ، وظهرت مصاعب فى تأمين المواد الغذائية والمساكن والسلع الاستهلاكية ، والخدمات . أما قوى الفرملة التى استجمعت قواها فى مجال الأيديولوجيا ، أيضا فقد شددت المقاومة والمجابهة ضد الأفكار الجديدة الهادفة إلى تقديم حلول بناءة للمشاكل الناضجة . وسادت الدعاية للنجاحات سواء أكانت حقيقية أم وهمية ، وترسخت عادة التعامل باستخفاف مع المطالب والآراء العادلة للشغيلة البسطاء والأوساط الإجتماعية الأخرى . كما سادت فى العلوم الإجتماعية روح التنظير المدرسى ، وجرى استبعاد الأفكار الخلاقة من مجال النظرية الإجتماعية . وفى الوقت ذاته تحولت الحقائق الساطعة إلى مراجع للمعلقين ليس غير ، وإلى تقديرات وأحكام فوقية يتم انتقاؤها حسب المزاج ...)[١].

ويقول : (أعتقد أننى قلت مايكفى لكى نتصور كم كانت الأوضاع خطرة فى مختلف نواحى مجتمعنا ، وكم كان ضروريا أن نقدم على التحولات الجذرية . لقد وجد الحزب القوة والشجاعة لتقييم الوضع بوعى ، والاعتراف بضرورة الإصلاحات والتحولات الجذرية)[٢].

(١) عملية إعادة البناء (١٩-٢٠) .

(٢) المرجع السابق (٢٢) ، وانظر : مابعد الحرب الباردة (١٢١-١٢٣) ، سادات الماركسية (١٤٥) .

ومن هنا اهتم غورباتشوف بالإصلاح الإقتصادى وركز على أهمية العمل والتعديلات الإقتصادية داخليا وخارجيا ، وإعطاء الدول الأخرى الفرصة فى تحقيق مصالحها الإقتصادية فى روسيا ، ولاشك أنه بهذه الآراء والأفكار يريد تجاوز الأزمة التى قد تعصف بالإصلاح الجديد نظرا لعدم تحقق ماكان يصبو إليه الإنسان الروسى أو السوفييتى(١).

ثالثا : الأزمة السكنية والصحية التى كان يعانى منها الاتحاد السوفييتى .

إن من أبرز القضايا التى يعانى منها الفرد فى الاتحاد السوفييتى مسألة السكن وتوفير الرعاية الصحية . إلا أن هذه المعاناة تعتبر بالنسبة لنا نتيجة طبيعية لتردى الأوضاع الإقتصادية التى كان يعيشها الاتحاد السوفييتى . يقول حسين صبرا : (تأتى أزمة السكن فى الدرجة الثانية من الأزمات التى عانت وتعانى منها الغالبية المطلقة من المواطنين السوفييت ، حيث يعيش الملايين فى مساكن جماعية أو مساكن مشتركة . والمساكن الجماعية هى عبارة عن مبنى من عدة طوابق مبنية حسب نظام الغرف ، حيث تعيش كل عائلة فى غرفة واحدة مستقلة ، ويوجد فى الطابق الواحد عشرات الغرف يجمعها ممر واحد ومطابخها ودورات المياه وأماكن الاستحمام فيها مشتركة . أما المساكن المشتركة فهى عبارة عن شقة مؤلفة من بضع غرف تعيش فى كل منها عائلة واحدة . ونادرا ماتجد عائلة سوفيتية إلا وعاشت سنين عديدة فى مساكن جماعية أو مشتركة قبل أن تؤمن لها الدولة شقة مستقلة . وهناك من يبلغ به الأمر إلى حد الانتظار أكثر من عشر سنوات للحصول على مسكن شرعى مستقل)(٢).

أما الحالة الصحية فكانت متردية فمعدل الوفيات على صعيد الأطفال كان مرتفعا جدا ويمثل الاتحاد السوفييتى أعلى نسبة بين دول أوروبا الشرقية فى ذلك الجانب . كذلك كانت النفقات الصحية منخفضة بدرجة كبيرة .

---

(١) انظر عن ذلك الإنقلاب (٦٠-٦٢) .

(٢) سادات الماركسية (١٢٣-١٢٤) ، وانظر (١٥٦-١٥٧) .

بالإضافة إلى افتقار المستشفيات والمستوصفات الرعاية من تجهيز وأدوية وغيرها .

كما أن الأطباء أصبحوا يمارسون مهنة الارتشاء في حين أن نفقات الاستشفاء مكلفة ، لأن الاتحاد السوفييتي يتعامل بمبدأ (الطب المجاني يجعل الناس يهملون صحتهم)[١].

ويقول حسين صبرا إن (المستشفيات والمستوصفات لاتتسع للمرضى ولاتفي بحاجاتهم ، ونسب كبيرة من المرضى توضع أسرتهم في ممرات المستشفيات والمستوصفات نظرا لعدم اتساع الغرف . كما كانت تعاني أماكن الاستشفاء من نقص في الميزانية والمعدات والأجهزة والأدوية . وكثير منها بني في العهد القيصري وبعضها شيد منذ مائتي عام ، ولم يعد صالحا للاستخدام كمستشفى أو مستوصف نظرا لنسبة الرطوبة المرتفعة فيه ، إضافة إلى هندسة البناء التي لم تعد صالحة ليومنا هذا)[٢].

رابعا : الضغوط التي كان يواجهها غورباتشوف داخليا وخارجيا . يقول ماندل : (إن غورباتشوف يعمل انطلاقا من موقف ضعف مزدوج . إنه يخضع في الوقت نفسه لضغط الإمبريالية المتنامي ولضغط الجماهير السوفيتية المتنامي أيضا)[٣].

خامسا : التأخر الذي يعاني منه الاتحاد السوفييتي في جميع مجالات الحياة مقارنة بالدول الرأسمالية الغربية .

سادسا : قناعة غورباتشوف وأكثر مساعديه بأن الاتحاد السوفييتي لم يعد قادرا على الاستمرار في مواجهة الولايات المتحدة ، فكان لابد من التغيير لإزالة التوتر بين البلدين .

---

(١) انظر : الاتحاد السوفييتي إلى أين في ظل غورباتشوف (٩٦-٩٩) ، غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٩٥-٢٩٦) .

(٢) سادات الماركسية (١٢٤) .

(٣) الاتحاد السوفييتي في ظل غورباتشوف (٢٠٧) .

ومن هنا بدأت عملية التغيير ولم يكن بالإمكان التراجع فيها . يقول غورباتشوف : (إن التغييرات قد بدأت ، ومن المستحيل ، لذلك ، عودة المجتمع إلى مرحلة السبات)(١).

وهذا الإصرار من غورباتشوف ، لعلمه أن الشعب وراء هذه العملية وغورباتشوف وسيلة لتنفيذها . فعبر الشعب عن رغبته ومشاعره التى لن يقف أمامها شيء خاصة إذا كان المعارض لها أصلا فاسدا يتعارض مع فطرتهم وتوجهاتهم ، ومع السنن الربانية التى تحكم حياتهم .

التغيير زمن غورباتشوف :

لاشك أن السياسة الجديدة التى انتهجها غورباتشوف إعادة البناء وحرية النقد كانت المعول القوى الذى كسر الجمود العقائدى والسكوت الإجبارى لدى الناس بسبب الفكر الماركسى ويمكن أن نلتمس التراجع والتغيير الذى أحدثه غورباتشوف على المستويين الداخلى والخارجى فى النقاط التالية :

أولا : التغيير فى السياسة الإقتصادية .

إن أول ماتنصرف إليه السياسة الجديدة هو إصلاح الوضع الإقتصادى المتردى الذى يعيشه الاتحاد السوفييتى . يقول غورباتشوف : (كان اهتمامنا الرئيسى ومازال منصبا على الإقتصاد ، ولكننا فى الوقت ذاته شرعنا فى تغيير الخلفيات النفسية للأخلاق الإجتماعية)(٢).

---

(١) عملية إعادة البناء (٨) .
ولمزيد عن معرفة إصرار غورباتشوف على الاستمرار فى سياسته انظر المرجع نفسه (٢٣-٢٤) .
وانظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٩٢-٢٩٣،٣٨١) .

(٢) عملية إعادة البناء (٢٦) ، وانظر (٢٢) .

ويقـول : (توقـف الإقتصاد السيـاسى للإشتراكية عنـد المفـاهيم الأولية ولذلك بات على غير وفاق مع جدلية الحياة ...)[١].

ويقول : (من الواجب القول بصراحة ، إن جميع جهـودنا لتغيير بنية الإقتصاد الوطنى ، ونقله إلى مرحلة التطور المكثف ، وتسـريع التقدم العلمى التكنـولوجى ، أصبحـت ترتكـز وبشكـل أكبر إلى ضرورة الإصلاح الجذرى للآلية الإقتصادية لعملية تغيير إدارة الإقتصاد بأنظمتها كافة .

تحتوى الإشتراكية والملكية العامة الكامنة فى جوهـرها ، فى واقع الحال على إمكـانيات غير محدودة لعمليـات إقتصادية تقدميـة . ولكن ولأجل إنجاز ذلك لابد من البحث عن أكثر أشكال الملكية الإشتراكيـة والتنظيم الإقتصادى فعالية . والأهم فى هذا الصدد أن يكون الإنسان هو المالـك الحقيقى للإنتاج وليس بالكلام . بدون ذلك لا ولن يكون هناك اهتمـام حقيقى لدى العامل أو فرق الإنتاج بنتائج عملهم)[٢].

ويبين غـورباتشوف أن هـذه السيـاسة الجديدة ستجعـل المؤسسـات والشركات ذات صلاحية واستقلالية فى خططها ولاتتلقى الأوامر من الجهات العليـا إلا فى القضايا الأسـاسية . فيقول : (فعلى كـل مؤسسة ، وانطلاقا من الحاجات الإجتمـاعية الواقعية ، أن تحدد خطتها الإنتاجيـة الواقعية وتنفذها . ولاتستنـد الخطة إلى مجموعة مفصلة من المهمات ضمن خطـة حددتها الهيئات العليـا ، وإنما إلى تنفيذ طلبيات الدولة ومؤسسات نظـام المحاسبة الإقتصادى المستقـل ، الذاتية ، والمؤسسات التجارية التى تحدد حجـم الإنتاج ونوعيته . فالمؤسسات يجب أن توضع فى ظروف تسمح لها بالدخول فى مباراة إقتصادية فيمـا بينهـا لتحقيق أفضل تلبيـة لطلب المستهلكين ، أمـا دخل العـاملين فهو وثيق الصلة بحصيلة الإنتاج النهائية ، وبالربح)[٣].

---

(١) عملية إعادة البناء (٤٨) .
(٢) المرجع السابق (٨٣-٨٤) .
(٣) المرجع السابق (٨٦) .

كما أولت الخطط الإقتصادية الجديدة الاهتمام بالغذاء والسكن اهتماما كبيرا نظرا للظروف التى تعيشها البلاد . يقول غورباتشوف : (نحن ننطلق من كون السياسة الإجتماعية الصلبة التى أعلنها المؤتمر السابع والعشرون للحزب ستؤمن النجاح لقضية إعادة البناء برمتها . يجب رفع مستوى معيشة السكان ورفع وتيرة عملية البناء المعد للسكن ، وإنتاج المزيد من المواد الغذائية وتحسين نوعية البضائع المنتجة . وتطوير قطاع الخدمات ، والصحة ، وإجراء إصلاح فى نظام التعليم العالى والمتوسط ، وحل المعضلات الإجتماعية العديدة الأخرى .

فى سياق معالجته للمهمات الآنية والمستقبلية ، أعار الاجتماع الموسع للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى فى حزيران ١٩٨٧م اهتماما خاصا لمسائل زيادة إنتاج المواد الغذائية ، والتوسع فى إنتاج السلع الاستهلاكية ، وزيادة بناء الشقق .

إن إجراءات واسعة النطاق يجرى تنفيذها . ويصار إلى بناء المزيد من المساكن ، وهذه هى مهمة الشعب بأسره . ويتم فى هذا المجال توظيف رؤوس أموال إضافية حيث يجب مساعدة الناس فى بناء مساكنهم وتحسينها سواء فى المدينة أم فى القرية .

يجب أن يحيا الإنسان حياة مطمئنة . وإذا ماحلت هذه المسائل فستستقر نفوس فرق الإنتاج . فالناس يثمنون التغييرات التى تطرأ على المدينة أو القرية ، والتبدلات فى الظروف المعيشية ، والإنتاج ، وطبيعة العمل نفسه ، بأفضل مما يثمنون سرعة تزايد رواتبهم)[١].

ومن هنا فيمكن إظهار تلك السياسة التراجعية فى التالى :

(١) عملية إعادة البناء (٩٩) .

(أ) الاعتراف بالملكية الفردية وإقرارها ، والعمل على تنمية القطاع الخاص .

يقول حسين صبرا : (كانت أول خطوة خطتها البيريسترويكا نحو تحويل النظام فى الاتحاد السوفييتى من نظام إشتراكى إلى نظام رأسمالى هى سماحها لكافة المواطنين فى مطلع عام ١٩٨٨م بإنشاء التعاونيات الخاصة "الكوبيراتيف"، بعد أن كان ممنوعا على المواطنين حسب القوانين السابقة العمل لحسابهم الخاص كأن يبيعوا ماينتجونه من أعمال يدوية على سبيل المثال ، أو أن يبيعوا بضائع من صنع محلى أو أجنبى ، أو أن يقوموا بخدمات عامة لحسابهم الخاص . الكوبيراتيف يعنى حسب لغتنا الدكاكين والمحال التجارية على أنواعها إما لبيع الملبوسات أو البوظة والمرطبات والسجائر أو الأدوات الكهربائية ، أو المواد الغذائية ، أو صالونات الحلاقة الشعر ...الخ ، إضافةإلى المطاعم والمقاهى والمحال المخصصة لتصليح الأدوات الكهربائية أو لتركيب الموكيت وورق الجدران ... وأيضا إنشاء المصانع والمعامل والشركات ووسائل الإعلام ...الخ)[١].

كما وضعت الدولة قانونا للعمل الخاص عام ١٩٨٧م ، ويسمح هذا القانون للأفراد بإقامة مشروعات خاصة . فظهرت آثار ذلك على الساحة السوفيتية من وجود سيارات الأجرة الخاصة ، والعيادات الطبية الخاصة ، بالإضافة إلى المهن الأخرى[٢].

إن إقرار الملكية الفردية وتشجيعها يعتبر قطيعة نهائية مع الفكرة الماركسية ، ولأجل ذلك وجد من عارض هذه السياسة من أولئك الذين أشربوا الفكر الماركسى . يقول العمارى : (إن الاتحاد السوفييتى الآن بدأ يخطو نحو تغييرات مهمة ، خاصة فى بنيته الإقتصادية ، والإقتصاد - كما هو معروف - هو محور الأيديولوجية الشيوعية ، فالشيوعية تنكر الملكية الفردية

---

(١) سادات الماركسية (١٣٣) .

(٢) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٣٦) .

ونرى الاتحاد السوفييتى الآن يعترف بدور القطاع الخاص فى التنمية من خلال ماسمى "بيروسترويكا" وقد عارض هذه الخطة أشخاص من القيادة فأزيحوا من مناصبهم بسبب معارضتهم ، وهؤلاء الذين عارضوا اعتبروا الاتجاه نحو التغيير خروجا عن الماركسية ، ووصفهم قادة التغيير بأنهم متحجرون وجامدون)[١].

(ب) تقوم السياسة الجديدة على أساس تحقيق العدالة ، وتطبيق المبدأ القائل من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله ، وهذا المبدأ هو الذى يتفق مع طبيعة الإنسان . يقول غورباتشوف : (وسياسة إعادة البناء تضع كل شىء فى وضعه الصحيح . إننا نحقق مبدأ الإشتراكية بمعناه الكامل : "من كل حسب قدرته ، ولكل حسب عمله" . نحقق العدالة الإجتماعية للجميع ، وحقوقا متساوية للجميع ، ونطبق قانونا واحدا على الجميع ، ونظاما واحدا للجميع وواجبات كبيرة على كل فرد . كما ترفع إعادة البناء ، من مستوى المسؤولية الإجتماعية لدى الفرد . أما من يحوز على كل مايلزم فهو يرفض التغيير . فلماذا يتوجب عليه أن يتغير؟! ولكن إذا كان الإنسان ذا ضمير ، ومهتما بخير شعبه ، فإنه لن يستطيع بل لايمكن أن يفكر بهذه الطريقة . إضافة لذلك ، فالعلنية تكشف للناس أن هناك من ينعم بامتيازات غير قانونية . ونحن لم يعد بمقدورنا التساهل مع الركود)[٢].

(ج) وعلى هذا الأساس فإن نظام الإقتصاد الجديد يقوم على تحقيق العدالة الإجتماعية والتساوى فى فرص العمل ، وإتاحتها أمام الجميع ولايعنى ذلك المساواة فى الدخول كما كان يقول المبدأ الشيوعى الذى لم يستطع أى زعيم من زعمائها تطبيقه . وفى هذا إلغاء لمبدأ المساواة .

يقول غورباتشوف : (طرحت مسألة العدالة الإجتماعية على بساط البحث فى المؤتمر السابع والعشرين للحزب على النحو التالى : إن العمل هو

---

(١) وسقطت الماركسية (٤٠-٤١) .

(٢) عملية إعادة البناء (٢٩) .

أساس العدالة الإجتماعية فى ظل الإشتراكية . وهو فقط الذى يحدد الموقع الحقيقى للإنسان فى المجتمع ، ووضعه الإجتماعى . ومادام الوضع على هذا النحو ، فإنه يستثنى "التساوى فى المداخيل" .

مازالت نفسية التساوى حتى الآن تفصح عن ذاتها . وفهم بعض المواطنين الدعوة إلى العدالة الإجتماعية على أنها المساواة بين الجميع . لكن المجتمع يطالب بالالتزام الصارم بمبدأ الإشتراكية فى الحياة . إن مايهمنا ، قبل كل شىء القسط الذى يسهم به الإنسان فى قضايا البلاد . توجب علينا تشجيع العمل المنتج الرفيع الإنتاجية ، وتشجيع الموهبة لدى الكتاب والعلماء وكل شخص شريف محب للعمل . هنا نحاول أن نكون واضحين تماما : الإشتراكية لاتعنى التساوى فى المداخيل ، ولاتستطيع ضمان متطلبات الحياة وتلبية الاحتياجات وفق مبدأ "من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته" . فهذا المبدأ سيسود فى ظل الشيوعية . أما فى ظل الإشتراكية فإن معيار توزيع الثروة الإجتماعية تختلف ويستند إلى مبدأ "من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله" . وفى ظل الإشتراكية ينعدم استغلال الإنسان للإنسان ، ويغيب تقسيم الناس إلى أغنياء وفقراء ، إلى أصحاب ملايين ومعدمين وتسود المساواة بين القوميات ، ويتمتع الجميع بحق التعليم العالى والمتوسط المجانى وبالرعاية الصحية المجانية ، وضمان الشيخوخة . وهكذا تتجسد العدالة الإجتماعية فى ظل الإشتراكية ...)[١].

ومن هنا فإن الاهتمام بالعامل ومسكنه وغذائه من الأولويات التى ستهتم بها هذه السياسة[٢]. يقول غورباتشوف : (إن للطبقة العاملة دورا فى كل شىء ، تلك البلاد هى بلادهم ، وهذا النظام هو نظامهم ، كما أن هذا المجتمع هو مجتمعهم : إنهم هم المسؤولون . إن المنظمة الحزبية وكوادرها جميعها فى خدمة هؤلاء الناس ، كما أن الحزب بكامله موضوع فى خدمتهم ـ وليس العكس)[٣].

---

(١) عملية إعادة البناء (١٠١) .

(٢) انظر المرجع السابق (١٠٢) ، نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢٠٩) .

(٣) نقلا من كتاب ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٣٦٧) .

(د) ويبين غورباتشوف أن الإقتصاد الجديد يقوم على الانسجام بين مصالح الدولة .

المبدأ المشترك (الملكية العامة) .

والمصلحة الذاتية (الملكية الخاصة) .

وهذا اعتراف بأن النظرية الماركسية لم تعد قادرة على أن تجد حظها على ألسنة قادة الكرملين .

يقول غورباتشوف : (جاءت قرارات اجتماع حزيران الموسع للجنة المركزية فى واقع الحال ، خاتمة لبناء نموذج عصرى لإقتصاد الإشتراكية يستجيب للمرحلة الراهنة من تطور بلدنا . فالإجتماع الموسع ، ودورة مجلس السوفييت الأعلى التى تلته جاءا تطويرا وتعزيزا لنهج يستند إلى المشاركة الفعالة للإنسان فى العمليات الإقتصادية والإنتاجية ، وإلى الانسجام العضوى بين مصالح الدولة ، والمصلحة الذاتية ، ومصلحة الفرق الإنتاجية ، وتحويل الشغيل السوفييتى ، عمليا ، إلى مالك حقيقى للإقتصاد)(١).

(هـ) الانتقال إلى إقتصاد السوق الحر وذلك بالاهتمام بالسلع الاستهلاكية ، ومنح الحرية الإقتصادية ، والملكية ، والتنافس ، والمكافآت .

جاء فى وثيقة الاتجاهات الأساسية نحو استقرار الإقتصاد الوطنى والانتقال إلى إقتصاد السوق ، التى أقرها البرلمان السوفييتى فى ١٩ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٩٠م .

(لامندوحة من الانتقال إلى علاقات السوق . فالخبرة العالمية بأسرها قد أثبتت حيوية إقتصاد السوق وفعاليته ، والانتقال إليه فى مجتمعنا تمليه تماما مصالح الإنسان ، وهو يستهدف إقامة إقتصاد ذى توجه إجتماعى وتحويل الإنتاج بأسره إلى تلبية طلبات المستهلك ووضع حد لشح السلع والقضاء على ظاهرة الطوابير المخزية وتوفير الحرية الإقتصادية الفعلية للمواطنين وتشكيل الظروف اللازمة لتشجيع حب العمل والابداع والمبادرة والإنتاجية العالية .

---

(١) عملية إعادة البناء (٨٧) .

وحددت الوثيقة أربع مراحل سيجرى خلالها حل مهام استقرار الإقتصاد والإنتقال إلى السوق وفى فترة تتراوح بين عام ونصف وعامين .

المرحلة الأولى هى مرحلة تطبيق القوانين اللازمة لترسيخ المبادىء الأساسية واتجاهات الإصلاح الإقتصادى عبر التدابير الآتية :

إنعاش الوضع المالى وتداول النقد عن طريق تقليص العجز فى ميزانية الدولة ووقف الإصدار النقدى وإعادة تشكيل منظومة البنوك وضبط مالية المؤسسات الإنتاجية .

حماية مدخرات السكان المالية عن طريق رفع نسب الفوائد فى بنوك الادخار والعمل على الموازنة بين مداخيل السكان ومصروفاتهم ، ودعم إنتاج سلع الاستهلاك الشعبى ، وإقامة السوق الاستهلاكية وتطبيعها على هذا الأساس .

العمل من أجل استقرار التوريدات المتبادلة والحؤول ماأمكن دون ركود الإنتاج .

إلغاء احتكار الدولة للملكية ، والتوسع فى أشكال الملكية الأخرى بما فيها الملكية الخاصة . وإجراء الإصلاح الزراعى .

ترسيخ استقرار العلاقات الإقتصادية الخارجية .

الحد من نمو أسعار الجملة وأسعار التوريد للدولة وزيادة الأسعار الحكومية لمواد الوقود والخامات ومواد البناء على مراحل وفرض الرقابة على مستوى الأسعار الحكومية لبيع السلع الاستهلاكية الشعبية بالمفرق . التفوق على عجز الميزانية المتزايد . إيقاف التضخم العفوى وفى آن واحد تحسين ظروف التوازن السلعى النقدى من أجل الانتقال السريع إلى السوق فيما بعد)(١).

(المرحلة الثانية هى مرحلة الإنتقال المطرد التدريجى إلى أسعار السوق بالنسبة لمجموعة واسعة من المنتجات المستخدمة فى الأغراض الإنتاجية

---

(١) نقلا من كتاب غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٣١١-٣١٢) .

والتقنية ومن السلع الاستهلاكية . ويجب أن تحول الاجراءات التى ستنفذ فى غضون المرحلة الأولى دون ارتفاع أسعار هذه المنتجات والسلع المفرط بعد ذلك ستكبح عمليات التضخم باللجوء إلى سياسة مالية وائتمانية تقشفية)(١).

(المرحلة الثالثة هى مرحلة التوصل إلى استقرار سوق السلع الاستهلاكية وسوق وسائل الإنتاج سواء بسواء وذلك بتوسيع مجال علاقات السوق وإقامة نظام جديد للعلاقات الإقتصادية . ستجرى فى الإقتصاد فى هذه الفترة عمليات متناقضة . فمن جهة يمكن انتظار امتلاء السوق بالسلع باطراد وستنمو بوتائر سريعة هياكل السوق الارتكازية وسيقوى تأثير المبادرة الحرة فى النشاطات الإقتصادية . ويجب أن يغدو استثمار الموارد المادية أكثر إقتصادية وستتقلص الموارد الإنتاجية غير المستثمرة . والموارد التى سيجرى توفيرها ستغنى سوق وسائل الإنتاج وستساعد على استقرارها .

وسيجرى فى هذه المرحلة التركيز على تكوين سوق المساكن وتنفيذ إصلاح نظام أجور العمل وإعادة صياغة العلاقات بين المؤسسات والسوفياتات "المجالس" المحلية فى المجال الاجتماعى وكذلك التوسع قدما فى اطلاق حرية الأسعار)(٢).

(المرحلة الرابعة هى مرحلة انتهاء فترة احلال الاستقرار والمهمات الأساسية لهذه المرحلة تحددت فى ترسيخ استقرار الإقتصاد والوضع المالى وتحسين السوق الاستهلاكية وبشكل خاص تسريع عملية تكوين الوسط التنافسى فى السوق ، هذا الوسط الضرورى لأجهزة التنظيم الذاتى التى تتميز بها السوق كى تعمل هذه الأجهزة بكامل امكانياتها .

وضرورى فى هذه الفترة احراز تقدم ملموس فى مجال إلغاء الاحتكار وفك الارتباط بالدولة وإشاعة التملك الخاص .

ويجب أن تتم صياغة المقدمات لتعزيز النشاط الإقتصادى وبشكل خاص فى الصناعة الخفيفة والغذائية وفى قطاع الزراعة وفروع الخدمات .

---

(١) نقلا من كتاب غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٣١٣) .
(٢) نقلا من المرجع السابق (٣١٤-٣١٥) .

وأن هيمنة الأسعار التى يحددها العرض والطلب بالتوافق مع ميزانية متوازنة يهيئان المقدمات لحل القضية الأساسية فى مجال الانتقال إلى إقتصاد السوق ألا وهى قضية جعل الروبل قابلا للتحويل حتى داخليا . وجوهر هذه القضية يتلخص فى ضرورة توفير الفرصة لكافة المؤسسات الوطنية والشركات الأجنبية العاملة فى الاتحاد السوفييتى لبيع وشراء العملة الصعبة الضرورية لتنفيذ عملياتها الإقتصادية الجارية بحرية حسب سعر السوق)[١].

ومن هنا فإن هذه السياسة ستحقق الملكية الفردية ، وتطرح ممتلكات الدولة للبيع ، وتسلم الأراضى الزراعية للمواطنين لتلافى الركود الذى أصابها التأميم .

(ز) العمل على إلغاء المخازن الخاصة بكبار المسئولين من الموظفين[٢]، وهذا فيه محاولة لكسر التميز الذى كان يستأثر به أعضاء الحزب بدون وجه حق .

(ح) الصرامة والنقد من أجل بيان الخلل والخطأ ومحاولة الإصلاح ، وهذا عنصر مهم فى الإقتصاد وغيره .

وقد أفصح غورباتشوف عن ذلك أمام المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى حيث ذكر أن العبر التى يمكن استخلاصها من تجربة التنمية فى المرحلة الماضية هى :

(١ ـ قول الحقيقة كما هى كاملة ودون أى تشذيب ، فالحقيقة الناقصة التى تتحاشى بخجل النقاط الحساسة تعرقل وضع السياسة الواقعية وتعرقل تقدم المجتمع السوفييتى .

٢ ـ العبرة الثانية تتعلق بوضوح الهدف والحزم فى اتخاذ الإجراءات المؤدية إليه . إذ أن نقل إقتصاد هائل كالإقتصاد السوفييتى إلى مرحلة جديدة عنوانها التنمية العمودية مسألة ليست سهلة وتتطلب جهودا ضخمة

---

(١) نقلا من كتاب غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٣١٥) .
(٢) انظر ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٥٩) .

ومسـؤولية كبيرة . ولايجوز الاكتفـاء بالإجراءات المجتزأة بعـد المبـاشرة فى التحولات ، بل ينبغى اتخاذ كافة التدابير بجرأة وحزم .

٣ ـ العبرة الثالثة وهى الرئيسية كما يعتبرها ، تشير إلى أن نجاح أية قضيـة يتحـدد بصورة أساسية بمدى النشـاط والوعى اللـذين يميزان مشـاركة الجمـاهير بهذه القضية . وأهـم الشروط للنجاح فى تسـريع التنمية هو إقناع الجمـاهير الواسعة من الشغيلة بصواب هذا الطريق وتشجيعهـا معنويا وماديا وتغيير نمط نفسية الكادرات)[١].

وبعد هذا العرض نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : الاعتراف والإقرار بالملكية الفردية وحمايتها .

ثانيا : الاستقلالية للمؤسسات والشركات وعدم فرض الخطط عليها من الأعلى .

ثالثا : تشجيـع الحافز الفـردى والتنـافس مـن أجل الجودة ومستـوى الإنتاج .

رابعا : محاولـة القضـاء على التميز للطبقـة العليـا فى المجتمـع ، والتى كانت تستأثر بكل خيرات البلاد .

ثانيا : الاهتمام بالفرد والارتقاء به .

بالفعـل حققـت البيريسترويكـا إلى درجة لابأس بهـا الاهتمـام بالفـرد وحاولـت الارتقـاء به ، وذلـك ببعـض مـاحققته لـه سـواء كـان روحيـا أم إقتصاديا أم إجتماعيا .

وقـد اعتبر غـورباتشوف أن هـذه من الغايات التى اتخذت مـن أجلهـا السيـاسة الجديدة ، فقال : (إن مهمتنا الأساسية هى الارتقـاء بالإنسان روحيا واحترام عـالمه الداخلى وترسيـخ مواقفه الأخلاقية .ونحن نسعـى لوضع طاقة مجتمعنـا الفكـرية ، بكاملهـا ، وكـل الامكانيات الثقـافية ، فى خدمـة تكوين الشخصية الإجتماعية الفعالة ، الغنية روحيا ، والعادلة ، وذات الضمير الحى

---

(١) استراتيجية التنمية السوفيتية الجديدة (١٣٩) ، بسام خليل ، دار الفارابى ، بيروت لبنان ، ١٩٨٦م ، دون ذكر لرقم الطبعة .

ولابد للإنسان أن يعرف ويحس بأن رأيه مطلوب وأن كرامته مصونة ، وأنه يعامل بثقة واحترام . وعندما يرى الإنسان كل هذا فإنه يستطيع إنجاز الكثير.

وبالطبع ، تؤثر عملية إعادة البناء على كل فرد فهي تنتشله من حالة الهجوع المألوف والرضى بنمط الحياة السائد ، وهنا ، أعتقد أن من المناسب أن ألفت انتباهكم إلى إحدى خصائص الإشتراكية : وأقصد بها تلك الدرجة العالية من الحماية الإجتماعية للفرد فى مجتمعنا . فمن جهة يعتبر هذا خيرا بالتأكيد ومن أعظم ماأنجزنا ، ولكن من جهة أخرى يتحول هذا الإنجاز إلى نفسية طفيلية لدى بعض الناس)[١].

وعن الاهتمام بالفرد يقول : (إذا ماتم العبث بالمصالح الفردية ، فلن ينجز شيء ، ولن يحصد المجتمع سوى الخسارة . يتوجب لذلك إحداث توازن بين المصالح ، وهو مايمكن تأمينه من خلال الآلية الإقتصادية الجديدة والعلنية ، والأشكال الديمقراطية وإشراك الناس فى جميع عمليات إعادة البناء)[٢].

ومن مظاهر الاهتمام التى لقيها الفرد الشيوعى فى ظل البيريسترويكا مكافحة الإدمان ، والبغاء والاهتمام بالرعاية الصحية .

فمن الإصلاحات التى أراد غورباتشوف أن يحققها مسألة مكافحة الإدمان على الخمور حيث قال : (سوف نستمر بثبات ، فى مكافحة الإدمان على الخمور . وتمتد جذور هذا الشر الإجتماعى فى أعماق القرون الماضية . وقد استشرت هذه الظاهرة وغدت عادة ليس من السهل مكافحتها . غير أن المجتمع نضج لتحقيق انعطاف حاد فى هذا المجال . إن حالات تعاطى الكحول والإدمان على تناولها قد ازدادت بشكل كبير ، ولاسيما فى العقود الأخيرة ، وأصبحت مصدر خطر على مستقبل الأمة نفسه . ويذكرنا الشغيلة

---

(١) عملية إعادة البناء (٢٨) .

(٢) المرجع السابق (٩٨) ، وانظر (٢٧) .

باستمرار ، بضرورة تشديد النضال ضد هذا الشر . حتى أن البعض يطالب بسن قانون يحرم بيع المشروبات الكحولية على نطاق الاتحاد السوفييتى . لكننا فى الوقت ذاته نعى أن تطبيق مثل هذا القانون على نطاق الدولة أمر غير مجد . كما أننا نجيب على هذا المطلب بما يلى : إذا رغبتم فطبقوا هذا القانون فى عائلاتكم وفى الحى ، وأخيرا على صعيد المنطقة . فى آلاف القرى أخذ الشغيلة على عاتقهم وقف بيع وتعاطى المشروبات الكحولية . والنضال يستمر . لقد تقلص معدل استهلاك الكحول للفرد الواحد إلى النصف ، عبر السنتين الماضيتين . غير أن نشاطا طرأ على صناعة الخمور البيتية . فالمشكلة لايمكن حلها عبر الإجراءات الإدارية . والطريق الوحيد الأكثر ضمانا للتخلص من شر الكحول ، يكمن فى تطوير مرافق التسلية واللياقة البدنية والرياضة والنشاطات الثقافية الجماهيرية ، وعبر إشاعة الديمقراطية)(١).

وبالفعل قامت وسائل الإعلام السوفيتية بنشر الأرقام والوقائع التى تبين الحجم الهائل الذى تأخذه هذه الظاهرة فى البلاد مع بيان فسادها وماتسببه من أضرار ودمار فى الصحة والإقتصاد(٢). ولاغرابة فى ذلك حيث إن المدمنين يشكلون نسبة كبيرة بين السكان .

ومن مظاهر الاهتمام بالفرد :

الإصلاح فى التعليم :

ويقوم ذلك على أساس التطوير للتعليم وإدخال التكنولوجيا الحديثة فيه . والاهتمام بالإبداع وتطويره بالإضافة إلى المكافأة والحوافز الفردية التى كانت الشيوعية تحرم المبدعين والمفكرين منها .

يقول غورباتشوف : (إن انجازاتنا فى حقل التعليم معروفة للجميع ، وهى أكثر جوهرية بالقياس إلى أكثر البلدان تطورا . ومع ذلك نقوم بإجراء

---

(١) عملية إعادة البناء (١٠٣) .

(٢) انظر : نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٧١) ، سادات الماركسية (٣٣٥) ، الاتحاد السوفييتى إلى أين فى ظل غورباتشوف (٣١١،٣١٣) .

إصلاح التعليم العالى والمتوسط . فما هى ضرورات ذلك؟ إنها قبل كل شيء المتطلبات الجديدة ، التى يطرحها المجتمع المعاصر أمام الإنسان والتى تمليها علاوة على ذلك ظواهر الركود فى المجتمع والتى اعترت أيضا نظام التعليم . فهنا أيضا تم الركون إلى اللاابالية والرضى عما تحقق . الأمر الذى ترك تأثيره على كل شيء .

يتمثل الاتجاه الرئيسى لعملية الإصلاح الجذرى للتعليم العالى والمتوسط فى إعداد الجيل الفتى للعمل ، مع الأخذ بالاعتبار متطلبات التقدم العلمى والتكنولوجى ، والتلخص من الأمور الثانوية التى تثقل كاهل الإنسان ولاتعطيه إلا القليل . كما يجرى الآن تحديث جذرى لإعداد الطلبة فى حقل العلوم الإنسانية ، بما يخدم تربيتهم وتمكينهم من استيعاب منجزات الثقافة . ونعول فى المعاهد والمدارس على حفز الأساليب الإبداعية فى التدريس والتربية ، والاهتمام بتطوير استقلالية المعاهد والجماعات المدرسية وتشجيع النشاط الذاتى . وتتطلب المهمات الجديدة تغيير القاعدة المادية للتعليم ، والأهم من ذلك ، ترقية عمل المدرسين إلى مستوى جديد . كما سيتم اللجوء إلى الحوافز المادية لرفع الكفاءة)[١].

وهكذا غدت البيريسترويكا مهتمة بالفرد وتوجهه وحاولت تحقيق وتهيئة الجو المناسب الذى ينشده .

ومن العرض السابق أصل إلى التالى :

(أ) أن السياسة الجديدة عملت على زرع أفكار جديدة وحاولت جاهدة اجتثاث كثير مما علق بالأذهان من مخلفات الماضى الشيوعى .

(ب) أن من الأسباب الرئيسية فى تدنى مستوى الإقتصاد السوفييتى - سواء كان كمية أو نوعية - تفشى الفساد فى البلاد .

---

(١) عملية إعادة البناء (١٠٠) .
وعن السياسة الجديدة وموقفها من المرأة انظر نفس المرجع (١١٨-١١٩) .

(ج) أن الاهتمام بالفرد الشيوعى وتحقيق رغباته من إقرار الملكية له أو منحه حق الحياة الروحية ، أو حق ممارسة مايشاء من إنتاج كل ذلك يدل على بطلان الفكر الماركسى وعدم تحقيقه مايصبو إليه الفرد الشيوعى .

ثالثا : التراجع العقدى (الإقرار بالدين والحرية الدينية) .

إن أعظم مايميز فترة غورباتشوف عن سابقيه ويدل بكل قوة على تراجعه الحقيقى عن مبادىء الماركسية وأفكارها ، هو التراجع العقدى الذى أصبح يعترف فيه بالإله ويقر الآخرين على حرياتهم الدينية وممارسة شعائرهم العقدية وبصورة علنية وقد كتب اندريه امالريك (إن العقيدة الماركسية عملت على تأخير إنهيار الإمبراطورية الروسية) ، مضيفا : (ولكن ليس باستطاعتها أن تمنع ذلك)[١].

وقد أعلن بعض الكتاب والمفكرين السوفييت أنه لابد من رمى العقائد الجافة ، فقال الكسندرا ياكوفيلف : (علينا أن نرمى المومياءات المهترئة من العقائد الجافة والأساطير والصيغ الجامدة)[٢].

وأقرت رايسا غورباتشوف بهذا التراجع والتغيير فجاء فى لقاء معها التالى :

(ولكن فى الأيام الأخيرة يارايسا ماكسيموفنا صار الناس فى روسيا يتحدثون أكثر من قبل عن "إنقاذ الروح" وقد صار هناك اهتمام فعال أكثر بالكنيسة والأدب الدينى وبالتدريس الدينى والأفكار الدينية .

لعل أحد أسباب ذلك فقدان الاستقرار فى وجودنا المادى وشىء من التمزق العاطفى .

---

(١) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٥٨) .
(٢) نقلا من المرجع السابق (٣٦١) .

نعـم ، ربما ولكـن لايمكن أن ننكـر أن التغييرات التى جرت فى السنين الأخيرة فى المجتمع قد سمحت للكنيسة أن تكون أكثر جرأة فى الخروج مـن الظـل وإنهـاء غربتها التى دامـت سنـوات عديدة ، هـذا مـن جهة ومن جهة أخرى سمحت هذه التغييرات للناس أن لايخفوا عقائدهم ولايستحوا منها بل حتى اهتماماتهم لم تعد محرجة لهم حتى إذا لم تكن منسجمـة مع وجهة النظر الرسمية . على سبيل المثال ، خذ الاهتمام بالكنيسة . أنه ليسـت مسألة "ربما" لإن إعـادة البناء (بيريسترويكا) ساهمت بالتأكيد فى إحيـاء الكنيسة وأزاحت ضغـوطا معينة عن حياة الكنيسـة اليومية . فالكنائس والجوامـع القـديمة تعاد اليوم واستجابة لذلك قمت بنفسى بالاشتراك فى تسليم بعض دور العبادة هذه إلى المؤمنين . ونسمع اليوم مرة أخرى أجراس الكنائس تدق فى أيام الأعياد والمواعـظ الدينية تذاع وتنقل بالتلفزيون . إن الأفكار الـدينية تنتشر اليوم بحرية أكبر .

نتـذكر طبعـا أنه حتى عام ١٩٨٥م كـانت كتب مثـل الانجيـل والقرآن تعتبر نادرة الوجود . فكان من المستحيل العثور عليها أو شراؤها . أما اليوم فإننا منفتحون على عالم ثرى متعـدد الألوان يسكنه كثير مـن المفكرين الذين كانوا منسيين أو مجهولين . بكلمـة أخرى بدأ حوار فى المجتمـع بين الكنيسة والدولة .

إن الستـار الحديدى الـذى كـان مـوجودا بينهمـا قـد أزيح مـؤخرا .

هل تتذكر الاحتفالات التى جرت بمناسبة مرور ألـف عام على المسيحية فى روسيا؟

إن الكنيسة تنضم الآن إلى الأعمال الرامية لإحلال السلام والأعمـال الخيرية والأعمـال الوطنية فى المجتمـع . وهذا أمر فى غـاية الأهميـة لدينا . فمجتمعنا مجتمع متعدد القوميات ، فيه شعوب ذات عقائد مختلفة وأن الوفاق الإجتماعى يعتمد على كل القائمين على شؤون العقائد المتنوعة ... ونحن الآن نناقش معا كل المشاكل ذات الاهتمام المشترك . حين أزور الكنـائس لاأتحدث مع رجال الدين فقط بل كذلك مع المؤمنين البسطاء .

أنت ترى أننى أتفهم أن الناس يجيئون إلى دور العبادة حاملين آلامهم وتمزقاتهم يتوسلون إلى الله أن يزيح عنهم الهموم .

ذات مرة زرت دير سفيانو دانيلوف وكانت هناك امرأة عجوز سألتها : "هـل تؤمنين باللـه؟" أجابت "نعـم" . قلت "هذا حسن . أعتقـد أن الإنسـان لايمكن له أن يحيا دون إيمان ، فهذا مايجعله كائنا بشريا")[١].

ولنا هنا وقفة مع هذاالتراجع العقـدى : دون شك أن المسلمين هنـاك قد حققوا بعض ماكانوا ينشـدونه فى العقـود السابقة سـواء فى التخفيـف من حدة التشديد عليهم من حيث ممارسة شعـائرهم الدينية[٢]. أو افتتاح بعض المعاهد الدينية والمسـاجد هناك[٣]، إلا أنه مـع ذلك فإن الحقيقة التى ينبغـى أن لاتغيب عن أذهاننا هى أن الإسلام سيظل العدو الحقيقى لقوى الكفر من يهودية ونصرانية .

ولأجل ذلـك كـان التراجع أكثر مـايكون فى تحقيـق مـايطلبه أصحاب الديانة اليهودية والنصرانية[٤].

يقـول حسين صبرا : (منـذ أواسـط الثمـانينـات اشتـدت الصحـوة الإسلاميـة بين الشباب السوفييتى المسلم ، رغم محاولات السلطـةلتشويه صورة الإسلام فى ذهــن المسلمين . فـالكتب والمقـالات التى تهـاجم الإسلام لاتعـد ولاتحصى ، وقد ازدادت مع ظهور البيريسترويكا . إضـافة إلى تضييق الخناق على المسلمين والمحـاولات السـاعية إلى جعلهم يرتدون عـن دينهـم . إلا أن أكبر دليل على اشتداد هذه الصحوة أن العديد من مسؤولى الحزب الشيوعى فى الجمهوريات الإسلامية فى ذلك الوقت كانوا يرسلون أطفـالهم إلى كتاتيب تعلم القــرآن والـدين الإسلامـى سـرا تحت الأرض . فى حين أن كثيرا مــن

---

(١) أملى (١٢٩-١٣١) ، وانظر البيريسترويكا من منظور إسلامى (٢٠) .

(٢) انظر صحيفة الرياض ، العدد (٧٩٣) ١٤١٠/١/١٥هـ كلمة الرياض .

(٣) انظر صحيفـة الشـرق الأوسـط العـدد (٤٠١٣) ١٤١٠/٤/٢٥هـ ، وانظـر مجد الأمـم (١١٥-١١٦) .

(٤) انظر سادات الماركسية (٢١٩) .

الأعضاء اليهود فى الحزب الشيوعى السوفييتى كانوا يعلقون على صدورهم نجمة داود السداسية علنا ، ودون أن يتخذ أى إجراء بحقهم!

وجاء افتعال أحداث كاراباخ بين جمهوريتى أذربيجان وأرمينيا من قبل الدولة وبمساعدة اليهود ، بمثابة هز العصا للمسلمين فى كافة أنحاء الاتحاد السوفييتى . وقد أظهرت الدولة تحيزها علنا إلى جانب النصارى الأرمن وهزات وسائل الإعلام السوفيتية ، التى يسيطر عليها اليهود بالمسلمين واتهمتهم بالتخلف . فى حين أن الاتحاد السوفييتى كله يستهلك بترول أذربيجان وحدها!)[١].

ويقول : (لقد صار يسمح لليهود بالهجرة نهائيا من الاتحاد السوفييتى تنفيذا لرغباتهم الصهيونية ، بينما يزداد التضييق والضغط على المسلمين الراغبين فى الذهاب إلى الحج ، والذين يريدون تطبيق فريضة واجبة عليهم فى دينهم الحنيف . والمسيحية والكنيسة يرد لهما اعتبارهما رسميا وشعبيا ، فى حين مايزال المسلم يؤدى فرائض الصلاة سرا ، ويخشى دخول الجامع خشية أن يطرد من عمله . اليهود يقومون باجتماعات دورية غير مخفية على أحد وهى عبارة عن اجتماعات صهيونية بحتة ، ويؤلفون منظمة يطلق عليها "الاتحاد الديمقراطى" تهاجم السلطة والحزب الشيوعى علنا فى الشوارع وقاعات الاحتفالات ، ويكتب عنها فى الصحف وتعرض احتفالاتها فى التلفزيون ويصبح لها نواب فى البرلمانين الروسى والسوفييتى ، بينما نرى أن أى إمام يرى الويلات إذا ماحاول محاربة البدع وسعى إلى تعليم الإسلام على أصوله! ويعلن غورباتشوف أنه لن يسمح بتصاعد "الأصولية" الإسلامية فى بلاده ، فى الوقت الذى يسمح فيه بانتشار المنظمات اليهودية علنا فى كافة أنحاء الاتحاد السوفييتى ، أمثال المنظمتين الإرهابيتين "أرغون" و"بيطار" ، بل ويسمح لها بإنشاء ميليشيا عسكرية خاصة بها!)[٢].

---

(١) سادات الماركسية (٢٢٧-٢٢٨) .

(٢) المرجع السابق (٢٢٩) .

إن هذا الأمر ليس بمستغرب حتى فى ظل السياسة الجديدة والسبب هو أن هؤلاء القوم وغيرهم من الكفرة يخافون الإسلام ويخشون أهله إذا تمسكوا به وطبقوه كما بينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وإذا كان الإسلام يعتبر عند قادة الشيوعية الأوائل عقبة فى طريق الفكر الماركسى ، فإن غورباتشوف لم يخرج عن ذلك فقال : (إن تمسك شعوب وقوميات آسيا الوسطى بالتقاليد البالية والإسلام من شأنه أن يكبل الأرجل للتخلف عن السير فى طريق الإشتراكية)[١].

لقد كانت تصريحات غورباتشوف تتسم بالتهجم على الدين ولكن ماحدث بعد السياسة الجديدة يدل على أن غورباتشوف وجه ضربة قاصمة على مسألة القضاء على الدين وبالتالى للفكر الشيوعى وإن كانت هذه العودة والتراجع للدين المحرف غير أنها أزالت الإلحاد وأقرت الإيمان وإن كان بطريق الضلال[٢].

ومما يذكر هنا ـ ويدل دلالة واضحة أن الاتحاد السوفييتى استبدل الإلحاد بعقيدة أخرى منافية له هى الإيمان وإن كان على ضلال ـ ماأقرته جامعة موسكو من فتح المجال لكرسى الدراسات الإسلامية بالجامعة وهو مايعرف بكرسى الأمير نايف بن عبد العزيز . ولنا أن نتخيل جامعة قامت على الإلحاد ، ولم تدرس إلا هو ، ولم يعرف طلابها درسا واحدا دينيا يصبح حالها هكذا!!!

إن ذلك دليل على أن الفكر الماركسى قضى عليه كمبادىء دون النظر لبعض من هو باق عليه ويرى جدواه . إلا أن الواقع لايصدقه ويكذبه فى دعواه .

رابعا : إنكار مبدأ الدكتاتورية ، والعمل على التغيير فى سياسة الحزب.

إن الحزب الشيوعى هو المسيطر والمستأثر بكل شىء فإذا كان هناك من تراجع فلابد أن يكون للحزب نصيب منه لكى تستقيم الأمور .

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط العدد (٣٩٣٦) ١٤١٠/٢/٧هـ .

(٢) ولمزيد عن معرفة هذا التراجع العقدى انظر : نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٥١،٣٢٥) ومابعدها ، بجد الأمم (١٨٠) ومابعدها .

يقول غورباتشوف : (شملت عملية إعادة البناء جميع فئات المجتمع . أفقيا وعموديا ، واتسعت طولا وعرضا . إن عملية إعادة البنـاء تتطور وتحل المشـاكل وتتخطـى الصعـاب . ويظهـر الحزب الشيـوعـى السـوفييتى كمبـادر وكخلاق للأفكـار وكمنظم وقائد ، ومن الممكن أن أقـول ، كضمانة لعملية إعادة البناء لمصلحة تدعيم الإشتراكية ومصالح الشغيلـة . وفى الحقيقة يتحمل حزبنـا مسـؤولية تاريخية . وفى عـام ١٩١٧م قـال لينين : بدأنا الثـورة ويجب علينـا أن نمضى حتى النهاية . وهـذا ماسيتم مع عملية إعـادة البناء ، فالحزب سيمضى حتى النهاية .

إن رصيـد الحزب والثقة به ينمـوان . وبغض النظـر عن كوننا لانزال نجتـاز مرحلة انتقال من حالـة نوعية إلى أخرى ، فإن أجهـزة الحزب تحاول حسـب الامكانيات ، ألا تضطلـع بمهمات الأجهزة الإقتصـادية والإدارية علمـا بأن هـذا ليـس سهلا : وذلك بحكـم الطرق المجربة وهـى الضغـط بالأساليب الحزبيـة لتـأمين تنفيذ الخطـة . ولكـن مهمة الحزب تنحصـر فى شـىء آخر ، وقبل كل شىء ، فى استيعاب العمليات نظريا وفى أن نلتقط فى الحال النقاط الحرجة فى تطـور التناقض وإدخال التعـديلات على الاستراتيجيـة والتكتيـك ووضـع السياسة ، وتحديد طرق وأشكال تحقيقها ، واختيـار وتوزيع الكوادر وتأمين عملية إعادة البناء تنظيميا وأيديولوجيا ، كـل هذا لاينهض به سوى الحزب .

أمـا أمـور الإدارة والإقتصـاد ، فيجـب أن تمارسهـا المنظمـات ذات الاختصاص ، الحكومية وغير الحكومية . وهذا توجه أملتـه التجربة التاريخية وهو ليس بدعة من أحد . يجب على الحزب أن يقوم بعمله ، وعلى الآخرين القيام بمهامهم وإلا فستضعف القيادة الحزبية والعمـل الأيديولوجى ، ونشاط الكوادر الحزبية .

هكـذا الأمور داخل مجتمعنـا تاريخيا : فكل مايحدث فى الحزب ينعكـس على حياة البلاد . ليس فى بلادنا معارضة رسمية . وهـذا يلقى مسؤولية أكبر على عاتق الحزب الشيوعى السوفييتى كحزب حاكم . ولهذا السبب بالذات ،

فإن مهمتنا الأهم تنحصر فى التطوير المتواصل للديمقراطية الحزبية الداخلية ، وتدعيم مبادىء القيادة الجماعية فى العمل ، وتوسيع العلنية داخل الحزب . واللجنة المركزية تطلب من الأشخاص المنتخبين إلى المراكز القيادية التواضع والاستقامة والإخلاص والنزاهة وعدم التسامح إزاء التملق والتزلف . وفى الحزب لايمكن أن يوجد أفراد فوق النقد ، وبالمستوى نفسه ، لاتوجد وجوه محرومة من حق النقد .

كان واضحا لنا أنه يجب الشروع بإعادة البناء فى التفكير والنفسية ، وفى التنظيم وأنماط العمل ، والبدء من الناس ، وقبل كل شيء من الكوادر القيادية ...)[١].

وقد وجدت النداءات التى تطالب بمقاومة الفساد فى طبقة القيادة[٢]. وهذا ماجعل بعض الرجال الطاعنين فى السن الذين يعملون فى الحزب الشيوعى تقديم استقالاتهم إما رغبة فى البقاء على الفكر القديم أو لأنهم شعروا أن موجة التغيير لاحقتهم لامحالة فاختصروا الطريق[٣].

كما أن هذا التغيير فى الحزب يلزم منه التخلى عن الآراء العقدية البالية التى ترسخت على مدى عقود من السنين . يقول غورباتشوف : (إن على الحزب أن يتخلى عن الآراء المقولبة البالية فى السياسة الداخلية والنظرات التى تقادمت بالنسبة للعملية الثورية العالمية وبالنسبة للتطور العالمى بأكمله ...)[٤].

كما أعلن غورباتشوف ضرورة التخلص من كل مايربط الحزب بالنظام الاستبدادى البيروقراطى[٥].

---

(١) عملية إعادة البناء (١٢٣-١٢٤) ، وانظر الطريق الروسى إلى الإشتراكية (٨٠-٨١)

(٢) انظر مجد الأمم (٢٤) .

(٣) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٨٩) .

(٤) من تقرير غورباتشوف فى الاجتماع الكامل للجنة الحزب المركزية فى ١٩٩٠/٢/٥م نقلا من كتاب غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٨٤) .

(٥) انظر غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٨٤) .

وهـذا التجديد الذى صوره غـورباتشوف للحزب الشيـوعى يقوم على عدة محاور :

أولا : فيما يتعلق بعلاقة الحزب مع العالم الخارجى ، ثانيا : الحزب مع الشعـب السوفييتى ، ثالثـا : الحزب وحيـاته الداخلية(١). ولاشك أن سيطـرة الحزب على كـل شـىء قـد زادت مـن حدة التردى فى الحيـاة الإقتصـادية والسياسية والإجتماعية ، ومن هنا فإنه من غير الممكن استمرار هذه السياسة الجديدة دون التغيير فى هـذا التسلـط والحد مـن صلاحيـاته لتسير عمليـة الإصلاح الجديدة(٢).

ومما يدل على التغيير الفعلى فى الحزب ، السماح باختلاف التـوجهات والآراء بداخلـه حتى وجدت عـدة اتجاهات ، وكل اتجاه يختلـف مع الآخر . وهـذا لم يكن بالإمكان وقوعه خلال العقود السابقة . ومـن هذه الاتجاهات :

(١) اتجاه علنى إشتراكى ديمقراطى .
(٢) اتجاه ديموقراطى (يلتسين) .
(٣) الغورباتشوفيون .
(٤) المحافظون وأتباعهم .
(٥) المحافظون المتطرفون .
(٦) أصحاب النزعات القومية(٣).

---

(١) انظر عن ذلك غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٨٧-٨٩) .
(٢) انظـر عـن ذلك غورباتشوف صـانع القرار وضحيته (٢٦١-٢٦٢،٢٧٠-٢٧١،٢٧٥) .
(٣) انظـر : الاتحاد السوفييتى فى ظـل غورباتشوف (٤٣١) ، غـورباتشوف صـانع القرار وضحيته (٣٢٠-٣٢٢) .
ومما يذكر هنا أن الأمر كان كذلك بالنسبة لتوجه السكان فى موسكو حيث أبرز بعـض علماء الاجتماع السوفييت فى مركز الأبحاث السوسيـولوجية النتائج التالية بالنسبة للقوى السياسية وإن كانت غير منظمة :
١ ـ الغـربيون وهم الذين يرون السير على غـرار الديمقراطيـة الغربية ، ويطالبون بالمزيد من الحرية وإقرار الملكية الفردية ، ويمثلون ١٥٪ . =

ومع هذا التشرذم والخلاف إلا أن غورباتشوف بعد كل فترة وأخرى يعلق أن الأمر بيد الحزب ، وأنه صاحب الصلاحية[١].

غير أن هذه الخطابات والكلمات كانت مخالفة لما عليه الواقع ، بل كانت تهدف إلى جعل الحزب مؤيدا لسياسة غورباتشوف الجديدة ، حيث قال : إن (كل الشعب السوفييتى وكل الحزب بما فى ذلك اللجنة المركزية ومكتبها السياسى ، والحكومة منخرطون فى عملية إعادة البناء . وخلال العمل الثورى ، نكدس نحن أعضاء المكتب السياسى الخبرات فى حل المشاكل التى تبرز أمام المجتمع ، وهكذا يحدث فى الجمهوريات والمقاطعات ، وفرق الإنتاج المشاركة فى عملية إعادة البناء . ومن خلال حل المعضلات الجديدة تنخرط دولتنا بأكملها فى تجربة إعادة البناء . والمهم أن الأجواء فى المجتمع قد تغيرت حيث تجرى ، الآن ، عملية تحرير النشاطات الإجتماعية والسياسية للناس السوفييت . فقد أصبح الناس أكثر إقداما ، وأخذ يتجلى ، وبإصرار أشد ، الموقف الوطنى لدى المواطنين . لقد تراكم الكثير الكثير خلال المدة المنصرمة مما أرادوا قوله دوما بدون أى مواربة)[٢].

= ٢ ـ اليسار الشعبي : يرون تحقيق إشتراكية ذات وجه إنسانى ومنح الفرد مزيدا من الحقوق ويتفقون مع الغربيين فى العديد من الأفكار ويرون أن يكون الإصلاح الإقتصادى فى حدود ضيقة . ويمثلون ١٧٪ .

٣ ـ اليمين الشعبى : ويقوم توجههم على الانتقاد لسياسة الاتحاد السوفييتى وتسلط البيروقراطية ، ويرون أن الفساد والسوق السوداء والإباحية من المشاكل الرئيسية فى المجتمع . ويمثلون ٢٥٪ .

٤ ـ الوطنيون القوميون : يرون إقامة دولة قوية يكون فيها الشعب الروسى المدافع الأول عن وحدة الاتحاد السوفييتى ، ويعادون الغرب الرأسمالى . ويمثلون ٥٪ .

٥ ـ أنصار الدولة : وهم لايهاجمون الحزب ولاالحكومة ويطالبون بتحقيق المزيد من الإستقرار . ويمثلون ٢٧٪ .

انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣١٩-٣٢٠) .

(١) انظر عن ذلك الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١١٥) .

(٢) عملية إعادة البناء (٦٦) .

بل إن غورباتشوف يرى أنه لولا حدوث التغيير فى القيادة العليا والثورة من أعلى ، لما استطاعت سياسته الجديدة أن تحقق شيئا من غاياتها حيث قال : (ماكان بمقدور عملية إعادة البناء أن تكون عملية ثورية حقيقية أو أن تكتسب هذه الأبعاد ، أو أن تمتلك فرصا أكيدة للنجاح ، لو لم تتداخل معها وتندمج فيها المبادرة من فوق مع الحركة الجماهيرية العريضة فى القاعدة ...)(١).

ومما يدل على هذا التراجع فى سيطرة الحزب ودكتاتوريته موافقة اللجنة المركزية على إنهاء احتكار الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى للسلطة السياسية ، وبهذا يصبح الحزب الشيوعى كغيره فى الدفاع عن نفسه وتحقيق موقعه(٢).

وابتداء من ١٥ آذار/مارس ١٩٩٠م (لم تعد الدولة السوفيتية دولة الحزب الشيوعى وحده)(٣).

هذا عدا عملية التطهير التى شهدها الحزب منذ أصبح غورباتشوف سكرتيرا أولا للجنة المركزية(٤).

ولكن كيف حقق غورباتشوف ذلك الانتصار مع وجود المعارضين له؟

لقد لعب غورباتشوف بورقة التوازن كثيرا ليكسب المعارضين ويوظفهم فى خدمة سياسته الجديدة . حيث (عمد إلى تقريب الشيوعيين المتشددين منه وتسليمهم المراكز الكبرى فى القيادة الاتحادية ... [و]هذه الخطوة كان هدفها من جهة ، الحد من اندفاعة يلتسين للتغيير الجذرى والفورى من النظام الشيوعى إلى النظام الرأسمالى ، سياسة وإقتصادا وعقيدة حكم ، ومن جهة

---

(١) عملية إعادة البناء (٥٦) .

(٢) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣٣٠-٣٣١) .

(٣) غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٩٣) ، وعن إلغاء هيمنة الحزب الشيوعى وانفراده بالسلطة انظر ماجاء فى المرجع نفسه (٨٩-٩٢) .

(٤) انظر الاتحاد السوفييتى إلى أين فى ظل غورباتشوف (٢١٦-٢٢٠) ، وقد ذكر تلك العمليات وعلى من وقعت بالأسماء والأرقام .

ثانية هدف إلى تحميل الجناح المتشدد داخل الحزب الشيوعى السوفييتى مسؤولية مواجهة تحديات المرحلة المقبلة والمشاركة فى وضع الحلول للأزمة الإقتصادية الخانقة ، بحيث لايبقى داخل الحزب من يعارض القرارات المتخذة والتحولات المقررة)[١].

ولكن يمكن القول هنا أن أغلب رجال الحزب ليسوا كالشيوعيين التقليديين بل هم شيوعيون من نوع جديد[٢].

خامسا : ومن التغييرات التى أحدثتها السياسة الجديدة :

فتح باب التنقل والسفر بصورة كبيرة جدا وخاصة للمهاجرين اليهود وسمح للآلاف من السوفييت بالسفر إلى الخارج للقيام بزيارات عائلية وغيرها . كما اكتظت مكاتب خطوط الطيران بطلبات تأشيرات السفر إلى الدول الغربية[٣].

ومنها السماح بالعمل فى الخارج : حيث خففت القيود على الراغبين فى السفر إلى الدول الأخرى خاصة إذا كانوا شخصيات بارزة فى مجال الثقافة والرياضة والفنون ، كما سمح بأمور كثيرة تتعلق بالرياضة ، والفنون[٤]، مما يدل على أن التراجع قد وصل جميع مجالات الحياة .

فهذا الشق الأول من سياسة غورباتشوف وأهم التراجعات التى سجلتها فترة رئاسته من خلال هذه السياسة .

ثانيا : الغلاسنوست .

إن هذا الجانب من سياسة غورباتشوف غالبا مايتجه إلى إعطاء الحرية فى الرأى والتعبير ، والمشاركة الفعلية بالرأى فى القضايا السياسية . مضافا

---

(١) النار والجليد (١٣٤) ، وانظر : غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣٢٦) ، نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٨٨-٣٨٩،٣٩٤) ويرى أن توازن غورباتشوف وتوسطه فى الأمور هو الذى حقق له ذلك .

(٢) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣٠٩) .

(٣) انظر ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٣١-٢٣٢) .

(٤) انظر : المرجع السابق ، سادات الماركسية (١٦٦) .

إلى ذلك تحقيق العلنية فى النقد والتوجيه مما كان يفتقر له الشعب السوفييتى ، بل يفتقر له أعضاء الحزب الشيوعى أمام الدكتاتور الأول . حيث لم يتجرأ أحد أن ينتقد السياسة التى كان ينتهجها الحزب . وعندما كسر خروشوف هذا الخوف الذى كان فى نفوس الناس ـ وذلك بفضحه الحقبة الستالينية ـ فإنه بهذا يكون فتح الباب ولو بصورة بسيطة . ثم جاء غورباتشوف وأكمل فتحه ، وفتح معه أبوابا كثيرة أدت إلى التسارع فى تساقط الأفكار الماركسية ، حيث حقق غورباتشوف الحرية فى الرأى والتغيير إلى درجة كبيرة وعمل على إقرار سياسة المكاشفة والمصارحة والعلنية ، وبين أهمية تلك السياسة فقال : (باعتقادى أن المناخ الجديد يتجلى بأسطع مايمكن فى ظل العلنية الواسعة . ونحن نسعى لمزيد من العلنية فى شتى مجالات حياة المجتمع . وعلى الناس أن تعرف الجيد والسىء لكى يتسنى مضاعفة الجيد ومقاومة السىء . وفى ظل الإشتراكية يجب أن تسير الأمور هكذا .

من المهم رؤية كل شىء إيجابى ، والتسلح به ، وجعله فى حوزة جميع الشعب والحزب ، واستخدام غراس التوجهات الجديدة فى ظروف إعادة البناء ...

إن العلنية اليوم سمة ملازمة للمناخ الروحى والمعنوى الطبيعى فى المجتمع ، تسمح للإنسان أن يتفهم بعمق أكثر ماذا حل بنا ، وماذا يجرى اليوم ، ولأى شىء نسعى ، وماهى خططنا ، ولذلك فهى تسمح بالانخراط عن وعى فى إعادة البناء .

إن إشاعة الديمقراطية فى المجال الإجتماعى ، والسير فى طريق التحولات الإقتصادية والإجتماعية تستحث الخطى ، فى الدرجة الأولى ، بفضل تطوير العلنية بالذات . بالطبع إن سياسة الحزب هى التى تشكل أساس هذه العملية .ولكن إذا لم يتم توجيه النهج السياسى بحيث تفهمه الجماهير ، فإن القضية لن تتزحزح من مكانها . فالجماهير يجب أن تعرف الحياة بكل تناقضاتها وتعقيداتها . ويجب أن يملك الشغيلة معلومات كاملة وموثوقة عن الانجازات ، وعما يكبح التقدم ، ويعيق ، ويحرف عن الطريق.

الناس ، كما يقال ، ذاقوا طعم العلنية . وهذا مرتبط ليس فقط بالرغبة الطبيعية فى معرفة ماذا وأين يجرى ، ومن وكيف يعمل ، بل وبالقناعة المتزايدة فى أن العلنية هى شكل فعال للمراقبة الشعبية على نشاط جميع أجهزة القيادة بدون استثناء ، وهى ذراع فعال وقوى لإزالة النواقص.

فى هذا السياق تحركت الطاقة الروحية للمجتمع . وبدأالعقل والضمير يحتلان مواقع السلبية واللاأبالية المسممة للروح . لايكفى بالطبع معرفة الحقيقة والنطق بها ، فالجوهرى هنا هو التصرف والعمل طبقا لهذا الفهم ولهذه المعرفة .

توصلنا إلى إدراك الضرورة الملحة لردم الهوة المتأصلة بين الواقع وبين السياسة المعلنة . وهذه النقلة الهامة فى مجال الأخلاق تشكل لب ثورية الإشتراكية المعاصرة ونبع حماسها فى مجتمعنا)[١].

وهذه السياسة تحقق الكثير والكثير من مصالح الشعب ، ويمكن إبراز أهم التراجعات والتغييرات التى حققتها تلك السياسة فى التالى :

أولا : منح الحرية للإنسان والحفاظ عليها ، ويدخل فى ذلك جميع أنواع الحريات . وبهذا لم تعد الأفكار الماركسية ذات قدسية أو حتمية . حيث أخذ الإنسان الشيوعى يعبر عن رأيه بكل جرأة ويحترم ذلك الرأى الصادر عنه . وكانت وسائل الإعلام هى الطريق الأكثر إظهارا لهذه الحرية .

وبين غورباتشوف أهمية وسائل الإعلام ، ودورها فى السياسة الجديدة ولزوم سماع أصوات ونداءات الشعب فيقول : (لقد بدأ العمل فى صياغة الأحكام القانونية التى تضمن العلنية . ويتوجب عليها ضمان علنية نشاط المنظمات الحكومية والإجتماعية فى أقصى حدودها ، وتوفير إمكانية حقيقية للكادحين للتعبير عن آرائهم بدون وجل بصدد أى مسألة من مسائل الحياة الإجتماعية والنشاط الحكومى .

---

(١) عملية إعادة البناء (٧٥-٧٦) .

استندت اللجنة المركزية ، لدى الشروع فى عملية إعادة البناء ، إلى قوتين حقيقيتين جبارتين هما اللجان الحزبية ووسائل الإعلام الجماهيرى . ويمكننى القول أن الحزب لم يكن بمقدوره بلوغ المستوى ، الذى نشأ اليوم ، فى مناقشة كافة معضلات عملية إعادة البناء ـ وهى واسعة ومتناقضة ومتعددة الجوانب ـ لو لم تنخرط فى الحال وسائل الإعلام الجماهيرى بعد اجتماع نيسان الموسع للجنة المركزية فى هذه العملية ، وتمارس دورها بنشاط وبالشكل المطلوب واللائق .

إن اللجنة المركزية تقيم عاليا دور وسائل الإعلام فى عملية إعادة البناء . ولماذا؟ لأن كل شىء يتخذ مجراه عبر الإنسان . وهو الذى يتصدر النضال ، ومن خلاله تجرى عملية إعادة البناء كلها . وهذا يشير إلى أن أفكار الإنسان ومستوى وعيه الإجتماعى ، وموقفه الوطنى تتصف بأهمية حاسمة .

إن مجتمعنا الإشتراكى السائر بحزم على درب التجديد الديمقراطى معنى للغاية بأن ينخرط كل فرد ـ سواء أكان عاملا أم فلاحا أم مثقفا ـ بنشاط فى مناقشةالخطط وتنفيذها . وتلعب وستلعب وسائل الإعلام الجماهيرى فى ذلك دورا كبيرا . وهى ، بطبيعة الحال ، ليست القناة الوحيدة المعبرة عن إرادة الشعب ، وعن آرائه ومزاجه . والصحافة أكثر منابر العلنية جماهيرية وأوسعها تمثيلا . والحزب معنى بأن ينطلق صوت الجماهير بثقة من خلف هذا المنبر ، وبأن لايكتفى هذا الصوت بالابلاغ عن النقاشات الدائرة فى البلاد ، بل وليصبح صمام أمان ، تضمن بواسطته المراقبة الديمقراطية لصحة القرارات ، واستجابتها لمصالح واحتياجات الجماهير ، ومن ثم العمل على تنفيذها .

إن عملية إشاعة الديمقراطية الجارية فى البلاد ، لاتجد صداها فى المواد المنشورة وحسب ، بل وتطال أكثر فأكثر نشاط وسائل الإعلام الجماهيرى نفسها . وبالتدريج ، كما لو أنها تذيب الجليد الذى يلفها ، تطرق المجلات والصحف والراديو والتلفزيون ، مواضيع جديدة وجديرة . أحد الدلائل

على الانتعاش العام للصحافة يتمثل فى تفضيلها المواد الصحفية التى تعتمد الحوار المباشر إذ تخلى التقارير العامة والذاتية مكانها شيئا فشيئا لمقابلات صحفية متنوعة ، ولندوات حول "المائدة المستديرة" ، ولرسائل القراء)(١).

ثانيا : العمل على تقبل النقد والتوجيه لسياسة الحزب وقراراته ، وهذا كان حلما يراود أعضاء الحزب قبلا من أفراد الشعب .

ويرى غورباتشوف أن هذا النقد لابد وأن يكون مقيدا بالحقيقة حيث قال : (ممالاريب فيه أن النقد يجب أن يستند دائما إلى الحقيقة)(٢).

ويقول : (ويمكن للنقد أن يكون أداة فعالة فقط فى تلك الحالة التى يكون جوهره الحقيقة التامة والحرص المتناهى على العدالة)(٣).

وطالب الصحافة بكشف النقاب عن أولئك الذين يرفضون النقد أو يحاولون كبحه(٤).

ويرى غورباتشوف أن العلنية والنقد الذاتى ليست (حملة موسمية فقد تم الإعلان عنها ويجب أن تصبح قاعدة لنمط الحياة السوفييتى . وبدون ذلك يستحيل إحداث أية تغييرات جذرية . وبدون العلنية لا ، ولن تكون هناك ديمقراطية ، وبدون ديمقراطية لا ، ولن تكون هناك إشتراكية عصرية)(٥).

ويقول :(سنعمل كل مافى وسعنا حتى لايضيق الخناق على النقد ، أو يطال العقاب من يمارسونه)(٦).

ويقول : (النقد دواء مر ، ولكن الأمراض تجعل منه شيئا ضروريا ، تشمئز منه ولكنك تضطر لتناوله . والرفاق الذين يفترضون تقديم النقد على جرعات مخطئون تماما ، وكذلك يخطىء كل من يعتقد أن مظاهر الركود قد تلاشت ، وأن الوقت قد حان للرجوع إلى الوضع السابق . إن إبطاء دوران

---

(١) عملية إعادة البناء (٧٦-٧٧) .
(٢) المرجع السابق (٧٨) .
(٣) المرجع السابق (٧٩) .
(٤) انظر المرجع السابق (٧٩) ومابعدها .
(٥)،(٦) المرجع السابق (٨٠) .

عملية النقد يعنى إلحاق الضرر بعملية إعادة البناء)(١).

وأدت هذه السياسة إلى النقد العلنى للطبقة الحاكمة فى الحزب والدولة ووجد لهذا الاتجاه أنصاره ، وأصبح النقد اللاذع يستغل فى الغالب ضد هؤلاء كمتنفس لحالات الاستياء والسخط (٢).

ثالثا : منح وسائل الإعلام الحرية بعد أن كانت مكبلة بالقيود التى وضعها الحزب الشيوعى .

حيث بدأت الصحف بإظهار الفساد وندرة الكفاءة على المستوى الداخلى . فبدأت الصحف والمجلات تتحدث عن كثير من الفضائح والفساد الموجود فى الدولة ، وتقول رأيها صراحة فى أحداث أفغانستان وتطالب بالانسحاب ، وتنشر العديد من الكتابات ، والمقالات ، والقصائد الشعرية التى لم تكن تنشر أبدا فى الاتحاد السوفييتى(٣).

رابعا : فتح المجال للأحزاب السياسية بإعلان سياستها وتوجهها والتحاور مع الحزب الشيوعى ، واعتبار النظرية الماركسية ـ من قبل هذه الأحزاب ـ غير صحيحة ، وأن الثورة البلشفية قامت خطأ(٤).

خامسا : إدخال جملة من الإصلاحات السياسية والتخفيف من حدة التسلط البوليسى ال(كى.جى.بى) ، وإعادة النظر فى القانون الجزائى وإلغاء أجهزة التصنت ، وعقوبة الإعدام(٥).

---

(١) عملية إعادة البناء (٨١) ، وانظر ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٣٦٥-٣٦٦) .

(٢) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٦٧-٢٦٨) .

(٣) انظر : ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٢٦-٢٢٧) ، الاتحاد السوفييتى إلى أين فى ظل غورباتشوف (٢٠٩-٢١٢) .

(٤) انظر تفصيل ذلك فى كتاب غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٨١-٨٢) .

(٥) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٢١-٢٢٢) .

ومن الإصلاحات السياسية إعادة النظر فى مسألة الترشيح والانتخاب ، واشتراك الشغيلة فى تسيير الحكم فى البلاد[١].

سادسا : أدت هذه السياسة إلى احترام المفكرين والمثقفين ، ومنحهم الحرية فى القول والكتابة مماكان له أثره على مسيرة السياسة الجديدة لغورباتشوف ، حيث أصبحوا يؤيدونها ويدعون إليها .

ويبين ذلك غورباتشوف فيقول : (قدم المثقفون دعما حارا لعملية إعادة البناء . وهنا أسمح لنفسى بإلقاء نظرة للوراء . فالمثقفون المخلصون لقيم الإشتراكية هم جزء عضوى من مجتمعنا السوفييتى ووطنيون متحمسون لوطنهم الإشتراكى ...

إن لدى المثقفين طاقات وطنية هائلة وقد حملوا على كواهلهم ، وعن طيبة خاطر ، جزءا غير يسير من عملية إعادة البناء . لقد شرع مثقفونا المبدعون ، جنبا لجنب مع الحزب ، فى تنفيذ التغيرات وأخذت تنجلى بوضوح متزايد مواقفهم الوطنية ازاءها . ونحن معنيون بنشاط كهذا ، ونثمن الكيفية التى تجلى من خلالها انخراطهم فى العمل بعد نيسان ١٩٨٥م ، كما نثمن حماسهم وسعيهم للمساعدة فى تغيير المجتمع . وأملنا أن تزداد مساهمة المثقفين وهم يرتفعون إلى مستوى جديد من التفكير والمسؤولية . إن توجهاتهم تتطابق مع الخط السياسى للحزب الشيوعى السوفييتى ومع مصالح الشعب)[٢].

وقد أثبت غورباتشوف عمليا ذلك التراجع مع المفكرين والمثقفين ومن أبرز الأمثلة استدعائه سخاروف[٣]و(لم يسبق لأمين عام للحزب الشيوعى

---

(١) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٢٣) ، ولمزيد عن معرفة تلك الإصلاحات انظر (٢٢٥-٢٣١) .

(٢) عملية إعادة البناء (٨١-٨٣) .

(٣) عالم فيزيائى نووى يعتبر أب القنبلة الذرية السوفيتية حظى بتقدير الجميع ونافح عن حقوق الإنسان والديمقراطية . نفى إلى غوركى واستمر فى منفاه يطالب الحكومة باحترام حقوق الإنسان . وحصل على جائزة نوبل للسلام .
انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣١١) .

السوفييتى أن استعاد منشقا. وكانت مثل هذه الخطوة حتى الآن أمرا لايمكن تصوره ...)[١].

وبعد عودته إلى موسكو طالب سخاروف الحكومة السوفيتية بالانسحاب من أفغانستان . وكانت آراؤه تتفق فى غالبيتها مع أفكار غورباتشوف[٢].

(ومع ذلك فإن إطلاق سراح سخاروف كان واحدا من سلسلة من اللفتات المماثلة ، فقد أطلق سراح المئات من الذين يقضون فترات سجنهم فى المخيمات والمنفى ، فى حملة وصلت إلى حد إعتبارها عفوا عاما عن الجرائم "السياسية" تتراوح بين إثارة إضرابات مزعومة معادية للسوفييت وتعلم العبرية ، وقد سمح للعديد من السجناء السياسيين البارزين بالهجرة بينما تابع الآخرون النشاطات التى كانت سببا فى زجهم بالسجن ...)[٣].

هذا بالإضافة إلى فتح المجال أمام الكتاب والأدباء للتعبير عن آرائهم وأفكارهم ، وإظهار نتاجهم الذى كانوا يخفونه من قبل[٤]. مما كان له أثر على تقدم البلاد فى عدة جوانب فكرية وإقتصادية وسياسية[٥].

سابعا : أن هذه السياسة قامت بزعزعة المجتمع السوفييتى فى جوانب عديدة من حياته سواء منها الفكرية أم الإجتماعية .

حيث أدى فتح الأبواب والنوافذ من وسائل إعلام وأدب وتحليل نقدى للحياة اليومية وللبنى الإجتماعية والسياسية عن طريق حرية التعبير والكتابة كل ذلك إلى زعزعة المجتمع بأكمله[٦].

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣١٣) ، وانظر غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٢١) ومابعدها .

(٢) انظر ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٢٢) ، وانظر نص المكالمة التى أجراها غورباتشوف مع سخاروف فى كتاب غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣١٢-٣١٣) .

(٣) ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٢٣) .

(٤) انظر نشهوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٤٨-١٤٩) .

(٥) انظر المرجع السابق (١٦٢) .

(٦) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٥٣) .

ثامنا : التخفيف من حدة الرقابة التى كانت مفروضة على الشعب السوفييتى .

كانت الرقابة فى العقود السابقة صارمة على الفرد الشيوعى أيا كان توجهه أو عمله[١].

إلا أن سياسة غورباتشوف الجديدة قد خففت من حدة الرقابة وشدتها يقول ماندل : (كانت حرية الإبداع الثقافى والإعلام إحدى سمات الغلاسنوست "الشفافية" ، "إمكانية الرؤية" ، "العلنية" ، "حق الكلام" ، الأشد تأثيرا فى الرأى العام فى الاتحاد السوفييتى وأوروبا الشرقية كما فى الغرب ، ففى الحال خلعت الأبواب الموصدة وسقطت هيئات رقابة بأكملها فيما عرضت أفلام فى صالات السينما والتلفزة كانت مهملة فى الأدراج طوال سنوات ، ونشرت مسرحيات كانت مجمدة فى الرقابة وتم عرضها . وجرى تحويل مخطوطات "ملعونة" إلى الطباعة . هذا ووضعت تجمعات كل من الكتاب وممثلى السينما والمسرح توجهات ليبرالية جديدة لنفسها فى أعقاب مؤتمرات واجتماعات موسعة صاخبة تميزت بصراعات كشفت للعلن . ثم برزت شخصيات أدبية تنتمى إلى مرحلة "إذابة الجليد" ...)[٢].

فأصبح الإنسان السوفييتى باستطاعته (قراءة ماكان بالأمس ممنوعا ، والاستماع إلى "أصوات" اعتبرت معادية ، والاطلاع على كل المصائب والكوارث التى أصابت الاتحاد السوفييتى فى زمن "العبادة")[٣].

تاسعا : تحرير المراسلين الأجانب فى الاتحاد السوفييتى مما يدل على إزالة القيود المفروضة سابقا على من يدخل الاتحاد السوفييتى .

يقول ميشيل هيلر : (يتمثل أحد أروع نجاحات الغلاسنوست فى أنها حررت المراسلين الأجانب العاملين فى الاتحاد السوفييتى من ضرورة التفتيش

---

(١) انظر : نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٧) ، غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٧٨) .

(٢) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٥٥) .

(٣) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٥٢) .

عن الأخبار . فكل "المستجدات" و"الأخبار المثيرة" تسقط عليهم مصنعة سلفا من قبل المصادر السوفيتية ، وذلك من خلال وكالة تاس ونوفوستى ، و"اجتماعات التعليمات" "البريفنك" فى الوزارات إثر أحاديث "بالأمانات" مع القادة السوفييت . فليس من حاجة بعد الآن لأية مصادر غير رسمية . كل شىء يأتى مباشرة ، كما يقول الانجليز ، من "فم الحصان" . فلم يسبق أبدا ، حتى فى ظل الرقابة الأكثر تشددا ، أن مورس مثل هذا الضبط الهائل على الصحافة الأجنبية . وتكمن أهم العناصر التى تميز الغلاسنوست أو أهم انتصاراتها الجوهرية ، فى أنها نجحت باشراك الغرب فى عملية إعادة قولبة الوعى الإجتماعى فى الاتحاد السوفييتى)(١).

عاشرا : فضح الستالينية .

من الأمور المهمة التى سجلتها السياسة الجديدة "الغلاسنوست" فضح الحقبة الستالينية . وإذا كان خروشوف قد سبق إلى ذلك إلا أنه فى زمن غورباتشوف اتخذ النقد طابعا آخر وأشد علانية . ولاشك أن هذه العملية (فضح الستالينية) مهمة جدا حيث إن الصدق فى الحديث عن الماضى قد يجعل الحديث مصدقا عن الحاضر .

يقول ماندل : (إن هذا الجانب يحتل مكانا بارزا ، وعن حق ، فى هذا النقاش . إذ أنه يبدو بمعنى من المعانى بمثابة المحك الأكبر لمصداقية سياسة الغلاسنوست ، لالشىء إلا لأن جرائم ستالين كانت تشكل الستر الرئيسى والعيب الأكبر بالنسبة للنظام . فإذا لم يكن هذا النظام مستعدا لأن يقول كل شىء عن ماضيه ، فكيف يصدق الناس مايقوله عن حاضره؟)(٢).

وفضح الستالينية يدور على محورين :

(١) إعادة الاعتبار لجميع ضحايا (حملات التطهير) الستالينية .

---

(١) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٥٠) .

(٢) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٨٠) ، وانظر (٢٨٢) ، وانظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٢٤-١٢٥) .

(٢) الحكم العام على ستالين والستالينية[١].

يقـول غورباتشوف عن الحقبة الستالينية : (يثار فى هـذه الآونة الكثير من الكلام حول دور ستالين فى تاريخنـا ، لقـد كانت شخصيـة ذلـك الرجل ذات تناقضات حادة . وإخلاصا منا للحقيقة التاريخية علينـا أن ننظر إلى كل من مساهمة ستالين فى النضـال الإشتراكـى ، وفى الذود عـن مكـاسبه ، وإلى الأخطاء السياسية الفادحة والمساوىء التى ارتكبها هو وأولئك المحيطون به ، تلـك التى كلفت شعبنا ثمنا باهظا ، والتى كان لها أوخم العـواقب على الحياة فى مجتمعنا)[٢].

ويقـول : (إن ذنب ستالين وأتبـاعه أمام الحزب والشعـب لأجل كافة الإجراءات القمعية والتصرفات اللاشرعية التى قام بها لهـو ذنب عظيم لايغتفر إنه درس لجميع الأجيال قاطبة)[٣].

إن الـدكتاتورية الستالينيـة جعلت الكل يذعن ويصمـت ولو كان فى قرارة نفسه يرى عدم صواب مايتخذه ذلك الدكتاتور . ومن تجرأ أو سولت له نفسه الحديث عن شىء يخالف أو يناقض مايريده ستالين فإن مصيره القتل والتعـذيب أو النفى والتشريد على أقل الأحوال ، ومـن هنا كانت حملات التطهير والتجسـس التى ارتكبها ستالين صفحة سوداء فى تاريخه ، بل وتاريخ الاتحاد السوفييتى كله[٤].

وبالمقـابل فإن بعض من أصابتهـم اللوثة الستالينية أرادوا رد الاعتبـار لستـالين لأن فى ذلك استقـرار لهم ، وبدأ ذلك منـذ عهد خروشوف وكادت أن تنجح فى عهد تشرنينكو ولكنها فشلت فى اللحظة الأخيرة[٥].

---

(١) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٤٨) .

(٢) نقلا من كتاب ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٣٧٤-٣٧٥) .

(٣) نقلا من المرجع السابق (٣٧٥) ، وانظر (١١١-١١٣) .

(٤) انظـر بعـض مـاذكره ميشيـل هيلبر عـن القتـل والنفـى فى كتـابه نشـوء وإنهيـار الإمبراطورية الشيوعية (٣٢٢) .

(٥) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢٩٢-٢٩٣) .

حيث قام بعض المفكرين بالتحذير من رد الاعتبار لستالين(١).

أما على الصعيد الخارجي : فإن غورباتشوف أيقن بأن التراجع والإصلاح الداخلى لايمكن أن يحقق نتائجه المرجوة منه إلا بالتراجع والتغيير فى سياسة الاتحاد السوفييتى على المستوى الخارجى . ويمكن إبراز أهم التراجعات التى سجلتها الحقبة الغورباتشوفية فى التالى :

أولا : التعايش السلمى مع القوى الرأسمالية والاندفاع فى ذلك بصورة لم يسبق لها مثيل ، وبهذا يكون غورباتشوف قضى على مسألة حتمية انتصار الإشتراكية أو زوال الرأسمالية .

يقول غورباتشوف : (يجب علينا أن نتعايش معا ، وأن نسعى لحل مشاكلنا جميعها بروح التعاون لاالعداء)(٢).

ومما شجع غورباتشوف على ذلك كثرة اللقاءات التى تمت بينه وبين زعماء كثير من الدول الرأسمالية وخاصة أولئك الذين شاركوا فى تشييع جثمان تشرنينكو(٣). ثم ماأعقب ذلك من تصريحات لغورباتشوف حول التعايش السلمى ، والبيت الأوروبى ، ونزع السلاح(٤)، والاندماج فى المجتمع الدولى(٥).

ثانيا : التراجع عن مبدأ تصدير الثورة والتدخل فى شئون الدول الأخرى من أجل فرض الإشتراكية عليها ، وذلك تراجعا فكريا بالإضافة إلى تحقيق المصالح من ورائه . يقول غورباتشوف : (كانت مكانتنا هى مكانة القوة العسكرية وهيبة التهديد . كانت القوات السوفيتية تتخذ مواقعها فى

---

(١) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (١٧٧) .
(٢) عملية إعادة البناء (٧) .
(٣) انظر ـ عن هذه اللقاءات وبعض الآراء حول شخص غورباتشوف من قبل المسئولين والرؤساء فى الدول الغربية ـ كتاب ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٠٥-٢٠٧) ، وانظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٨٧) .
(٤) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٤٠٢) .
(٥) انظر الإنقلاب (٩٠) .

أوروبا الشرقية وفى منغوليا ، وكان شبابنا يلقى حتفه فى أفغانستان . ومقابل ذلك كانت الآلة العسكرية التى صنعناها تقوض أسس إقتصادنا وتضعف أفرع الإقتصاد غير العسكرية وتحكم على مستوى المعيشة بالتراجع . وعلاوة على ذلك بدأت قدرتنا العسكرية فى الانحدار تدريجيا بسبب تزايد مستوى التخلف التقنى والنفقات التى تفوق قدراتنا . وكان من الممكن فى نهاية الأمر أن نواجه خيارين : إما تهديد العالم أجمع بقوة السلاح وإما الرضوخ أمام ظاهرة التخلف العسكرى . لقد كنا دولة عظمى ذات إقتصاد غير فعال ، وصرنا رافدا للمواد الخام التى نقدمها إلى الدول المتقدمة التى يتدنى مستوى معيشتنا عن المستوى الذى تعيشه هذه الدول عدة مرات . فهل كان من الوطنية فى شىء أن يشعر المواطنون الذين يناضلون من أجل مكانة الوطن بالحنين إلى كل ذلك؟ لقد وضعنا حدا لمثل هذه السياسة الخارجية التى كانت تخدم هدفا طوباويا حول نشر الأفكار الشيوعية فى العالم وأفضت بنا إلى طريق "الحرب الباردة" المسدود وألقت على كاهل الشعب بأعباء النفقات العسكرية التى لاتطاق ، وأخيرا ، ورطتنا فى المغامرات على غرار مغامرة أفغانستان . وهانحن ولأول مرة على مدى عقود طويلة ننتهج سياسة خارجية تخدم مصالحنا الوطنية و"تعمل" لصالح قضايانا الداخلية .

وقد حققنا لدى ذلك مكانة دولية راقية ، مكانة من نوع جديد تتمثل فى الثقة ورفعة سياستنا الخارجية التى تتسم بالوضوح والطابع البناء والأخلاقيات السامية والخالية من عنصر المغامرة . وكان تحرير البشرية من مخاوف الحرب النووية سبيلا إلى دعم أمن بلادنا . وجرى تشكيل القاعدة الوطيدة للاستمرار فى تدعيم مواقع السياسة الخارجية لدولتنا)[١].

ثالثا : الاعتراف بالأنظمة الأخرى وعلى رأسها الرأسمالية وهذا بحد ذاته اعتراف بعجز الإشتراكية أمامها . كما أنه يدل على تلاشى فكرة الحتمية التاريخية الماركسية القائلة بزوال الرأسمالية وهكذا سقط جزء كبير من فكر ماركس وبقى ماأسقطه ماركس بخياله .

---

(١) الإنقلاب (١٣٢) ، وانظر غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٣٢-٣٣) .

يقـول غورباتشوف معترفا ببقاء الرأسمالية : (بصراحة نقـول : لايمكننا قبول إدعاءات الهيمنة وأطماع السيطرة الكونية من جانب الـولايات المتحدة ولاتعجبنـا أيضا بعض جوانب الحيـاة السياسية فى الولايات المتحـدة . ولكننا نقـر بحق شعـب الولايات المتحـدة ، وحق كل شعب آخر فى أن يحيـا طبقـا لقـوانينه وقواعده ، ووفقا لعـاداته وأذواقه . نحن نعـرف ونأخذ فى اعتبـارنا الـدور الكبير الـذى تؤديه الـولايات المتحدة فى عالم اليـوم ، ونقـدر الدور الـذى أسـداه الأمـريكيون للحضـارة العـالمية ، ونأخذ فى الحسبـان المصـالح القـومية المشروعة للولايات المتحـدة ، وندرك أنه بدون هـذه الـدولة يتعذر إبعاد خطر الكارثة النووية ، وتأمين السلام الوطيد . وليست لدينا أى نوايا سيئة تجاه الشعب الأمريكى . فنحن نريد ، وعلى استعـداد للتعاون فى جميع الجوانب والاتجاهات)[١].

ويقول : (حان الوقت للتخلص من الهيمنة فى السيـاسة الخارجية ، إذ لايمكن للاتحاد السوفييتى أن يملى موقفه على أحد ، وكـذلك الولايات المتحدة ويمكن لفترة محدودة ، ممارسة الضغط والإكراه والنسف واستمالة الآخرين . أمـا فى السياسة بعيدة النظر والرصينة فإن من غير الممكـن فرض التبعية على الآخرين . إذن بقى أمامنا شىء واحد . إقامة علاقات تكـافؤ . وهذا مايجب أن نعيـه جميعا . وهذه حقيقة أخرى تفرض علينا التعـامل باحترام متبادل ، حقيقـة تضـاف إلى ماسلف من حقـائق الأسلحة النووية والثـورة العلميـة ـ التكنيكية والبيئة والإعلام .

هـذا هو عالمنا .. معقد ولكـن يبعث على الأمل . وباعتقـادنا أنه يمكـن إيجاد حل لكل معضلة ولكن شريطة أن يعيد كل منا النظـر فى دوره فى هذا العالم وأن يتصرف بشكل طبيعى)[٢].

---

(١) عملية إعادة البناء (١١) .

(٢) المرجع السابق (١٤٢-١٤٣) .

ويبين غـورباتشوف أن سياسة الاتحادات الجديدة ستسير على هـذا النهـج وهـو التقـارب مـع الـرأسمالية والعمـل معهـا سـويا لصالح البشـرية . انظـر الإنقلاب (٥٩-٦٠) .

بل الأكثر من ذلك وضوحا هو دعوة غورباتشوف على أن تبقى كل دولة على أيديولوجيتها الخاصة بها وأن يختار كل أحد مايناسبه من تفكير فقال : (فى المؤتمر السابع والعشرين توصلنا إلى مفهوم التناقض والترابط والاعتماد المتبادل فى عالمنا المتكامل . وبناء على هذا المفهوم رحنا نكيف سياستنا الخارجية . نعم ، سنظل مختلفين من حيث خيارنا الإجتماعى وقناعاتنا الأيديولوجية والعقائدية ونمط حياتنا . وسيبقى الاختلاف بالطبع . إذن هل نطلق النار على بعضنا بعضا بسبب ذلك؟ أليس من الأجدر تجاوز مايفرق بيننا فى سبيل خدمة مصالح الإنسانية جمعاء والحياة على الأرض؟ فيما يتعلق بنا فقد حددنا خيارنا ، إذ أكدنا على تفكيرنا السياسى الجديد والتزامنا بما أصدرنا من بيانات ، وكذلك بتصرفاتنا وأفعالنا المحسوسة .

لقد أرهقت الشعوب من التوتر والمجابهة وهى ترنو لعالم آمن يركن إليه ، عالم يحافظ فيه كل إنسان على وجهات نظره الفلسفية والسياسية والأيديولوجية ، وعلى نمط حياته)(١).

ويقول : (يقوم الأمن الشامل فى عصرنا على مبدأ أساسى ... هو الإعتراف بحق كل شعب فى اختيار طريق تطوره الإجتماعى . إنه التخلى عن التدخل فى الشؤون الداخلية للدول الأخرى ، واحترام الآخرين فيما يتعلق بنظرتهم الموضوعية النقدية الخاصة كل تجاه مجتمعه . فقد يختار شعب ما الرأسمالية أو الإشتراكية . إن هذا حق من حقوق السيادة . ولايستطيع شعب ، بل لايجوز ، أن يتناغم مع عزف الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتى . هذا يعنى ضرورة تحرير المواقف السياسية من التعنت الأيديولوجى .

لايجوز نقل الخلافات الأيديولوجية إلى مجال العلاقات بين الدول وفرضها على السياسة الخارجية . ذلك أن الأيديولوجيا يمكن أن تعنى الاستقطاب . أما المصلحة فى الحفاظ على الحياة ودرء خطر الحرب فهى أشمل وأسمى)(٢).

---

(١) عملية إعادة البناء (١٤٣) .

(٢) المرجع السابق (١٤٧-١٤٨) ، وانظر ماجاء فى بعض المراجع عن ذلك التراجع فى هذه المسألة : الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٨٩) ، سقوط الماركسية (٨٤-٨٥) .

رابعا : عدم التدخل فى شئون دول أوروبا الشرقية وترك الخيار لها فى اختيار السياسة والأيديولوجية التى تريدها . وهذا حكم بتهافت مبدأ انتصار الإشتراكية وانتشارها فى بلدان العالم ، حيث تراجعت فى الدول التى فرضت فيها بالقوة ، فما بالك بما عجزت عن الوصول إليه أساسا .

وقد أعلن غورباتشوف (أن كل تدخل سيكون غير مقبول ، من أى جهة أتى)(١).

ويلحق بذلك الانسحاب من أفغانستان مهما كانت الدوافع وراءه(٢).

خامسا : ومما يدل على التراجع والتغيير فى السياسة الخارجية الدعوة العريضة التى أطلقها غورباتشوف من أجل نزع السلاح تحقيقا للسلام والأمن(٣).

وفى هذا إمعان فى إبطال مبدأ الثورة والعنف الذى نعق به ماركس وطبل له لينين فى أول الأمر ، ثم أعلن فساده وعدم تحققه بعد أن اصطدم بالواقع .

وهذا ملخص لسياسة غورباتشوف الخارجية مأخوذة من خطابه الذى ألقاه فى اجتماع اللجنة المركزية ، أثر انتخابه أمينا عاما للحزب عام ١٩٨٥م حيث جاء فيه عما يخص السياسة الخارجية :

(* تعزيز الصداقة الأخوية مع أقرب إخواننا وحلفائنا بلدان الأسرة الإشتراكية العظيمة وتعزيزها الشامل ، وزيادة دور وتأثير الإشتراكية فى الشؤون العالمية .

* تأييد نضال الشعوب فى سبيل التحرر من ربقة الاستعمار والتعاطف مع بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية التى تسير على طريق توطيد

---

(١) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٢١٨) .

(٢) سيأتى الحديث معنا عن ذلك فى الفصل الثالث من الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

(٣) سيأتى الحديث بشىء من التفصيل عن ذلك فى فصل الحرب الباردة (سباق التسلح) من الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

استقلالها وتجددها الإجتماعى . إنها لنا أصدقاء وشركاء فى النضال فى سبيل السلام الوطيد وفى سبيل قيام علاقات أفضل وعادلة بين الشعوب .

* نهج سياسة السلام والتعايش السلمى اللينينى فى العلاقات مع الدول الرأسمالية . وسوف نرد دائما على الإرادة الطيبة بالإرادة الطيبة وعلى الثقة بالثقة ... بيد أنه يجب أن يعرف الجميع أننا لن نتراجع أبدا عن مصالح وطننا وحلفائه .

* تثمين نجاحات الانفراج الدولى التى تحققت فى السبعينات والاستعداد للاشتراك فى مواجهة عملية إقامة التعاون السلمى المتبادل النفع بين الدول على أساس المساواة والاحترام المتبادل وعدم التدخل فى الشؤون الداخلية .

* الخطر النووى الرهيب الذى يحيق بالبشرية والذى لم تعرف له مثيلا من قبل . وتحديد المخرج المعقول من هذا الوضع باتفاق القوى المتجابهة على الوقف الفورى لسباق التسلح ولاسيما النووى على الأرض وعدم السماح به فى الفضاء . والاستعداد للاتفاق على أساس شريف ومتكافىء ومن دون محاولة التفوق على الطرف الآخر واملاء الشروط عليه ، على الائتلاف التام للسلاح النووى وحظره إلى الأبد وإزالة خطر الحرب النووية تماما .

* نحن لانسعى لتحقيق أفضليات وحيدة الجانب على الولايات المتحدة وعلى بلدان حلف الأطلسى والتفوق العسكرى عليها . إننا نريد وقف وليس مواصلة سباق التسلح . ولهذا نقترح تجميد الترسانات النووية ووقف مواصلة نصب الصواريخ . إننا نريد تخفيض الأسلحة المكدسة الفعلى والكبير وليس صنع منظومات جديدة سواء كان ذلك فى الفضاء أو على الأرض .

* انطلاقا من طبيعة الحزب الشيوعى السوفييتى الأممية ، فإنه سيتعاون تعاونا وثيقا كما هى الحال دائما مع الأحزاب الشيوعية والعمالية والديمقراطية الثورية الشقيقة ، وسوف يعمل من أجل وحدة القوى الثورية كافة وتعاونها النشيط .

* المحافظة على قدرة الوطن السوفييتى الدفاعية على مستوى بحيث يعرف المعتدون المحتملون حق المعرفة أن الاعتداء على أمن البلاد السوفيتية وحلفائها وعلى حياة السوفيتيين السلمية سوف يجابه بضربة جوابية ساحقة)[١].

وبعد هذاالتغيير والتراجع الذى سجلته السياسة الغورباتشوفية فإنها قد اصطدمت بعوائق كثيرة جعلت ثمارها بل نجاحها أحيانا غير متحقق . ومن ذلك :

أولا : وجود دعاة الفكر الماركسى الذين يرون الأصلح فى الإبقاء على القديم . يقول غورباتشوف إن (أكبر مانواجه من مصاعب فى طريق إعادة البناء ، هو تفكيرنا الذى تشكل خلال السنين الماضية . فعلينا جميعا ، بدءا بالأمين العام ، وانتهاء بالعامل ، أن نغير ذلك التفكير)[٢].

ثانيا : أن إصرار هؤلاء على المحافظة على القديم لكونه يحقق لهم المنافع والمصالح الذاتية[٣]. وهذا يجعل اقتناعهم بالسياسة الجديدة فى غاية الصعوبة خاصة إذا كانت هذه السياسة ستحرمهم من الكثير الذى كانوا يتمتعون به .

ثالثا : عدم حصول النتائج المرجوة من وراء السياسة الجديدة مما جعل دعاة الإبقاء على الماضى يستغلون ذلك ويشككون الناس فى جدواها ، وهذا بدوره أدى إلى استنفاذ طاقات هائلة من دعاة الإصلاح لإقناع الناس ولكن الواقع لم يكن يعمل لصالحهم .

رابعا : من أخطر ماواجهته عملية إعادة البناء وسياسة المكاشفة ، الإنقلاب الذى حدث ضد غورباتشوف وكان رد فعل لسياسة غورباتشوف

---

(١) نقلا من كتاب غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٣١-٣٢) ، وانظر البيرويسترويكا من منظور إسلامى (٢١-٢٢) .

(٢) عملية إعادة البناء (٦٤) ، وانظر غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٣٠٤-٣٠٥) .

(٣) انظر عن ذلك غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٢٨٩-٢٩١) .

الداخلية والخارجية . وهؤلاء وصفهم غورباتشوف بأنهم (أصحاب الفكر الجامد المعكوس)[١].

وعندما فشل المعارضون للإصلاح من الإبقاء على الشيوعية عمدوا إلى استخدام القوة فى إيقاف عملية الإصلاح فكان الإنقلاب على غورباتشوف الذى تم فيه احتجازه لمدة ثلاثة أيام[٢]هزت العالم تحسبا لحرب مدمرة تشترك فيها الأسلحة النووية .

وكان هدف الإنقلابيين (الاستيلاء على السلطة ... واستغلالها بما يحقق أهدافهم)[٣].

إن الشعب السوفييتى قد قال كلمته واتخذ قراره بشأن أن لاعودة إلى عصر الكبت والظلم والقهر . ولاشك أن الشعب كان القوة الأولى التى منعت الإنقلابيين من الوصول إلى غاياتهم ، لأنه تنفس الحرية ، وشعر بالأمان إلى درجة ما وأيقن بأن المستقبل قد يكون أفضل ، ولأجل ذلك ماكان أحد يستطيع الوقوف فى إرادته ويقرر ذلك غورباتشوف ويبين أنه لو كان الأمر قد حدث قبل ذلك بسنة أو نحوها ربما نجح الإنقلابيون فى مبتغاهم فيقول : (تعتبر أيام أغسطس/آب الثلاثة فاصلا تاريخيا . وأقول أحيانا ، إن ماكان قبل الإنقلاب ، أشبه بما يمكن أن يقال بشأنه ماقبل الميلاد ، أما الآن فقد بدأ عصر جديد . وأعود لأكرر إننى وإلى حد ما تنبأت بأن ذلك يمكن أن يحدث وأن أياما عصيبة فى انتظارنا . وكان ذلك يمكن أن يحدث فى خريف العام الماضى . وتلخصت مهمتى الرئيسية فى التمسك بنهج الإصلاحات الجذرية للمجتمع والحفاظ على هذه العملية البالغة التعقيد بعيدا عن الالتواءات والاحباطات الكبيرة . وكرست لذلك كل الخطوات والتصرفات ذات الطابع التكتيكى .

(١) الإنقلاب (١٢١) وانظر مابعدها .
(٢) كانت فى شهر أغسطس/آب ١٩-٢١ عام ١٩٩١م .
(٣) الإنقلاب (٢٠) وانظر مابعدها .

ولربما كان مثل هذا الإنقلاب يمكن أن ينجح لو حدث منذ عام ونصف العام أو عامين . أما الآن فقد تغير المجتمع تماما . فمن كان عمره منذ خمسة أعوام ١٣-١٥ سنة بلغ اليوم ١٨-٢٠ عاما . ونشأ فى مناخ مختلف وهؤلاء هم الذين أصبحوا أكثر المدافعين عن الديمقراطية جسارة .

لقد تغير المجتمع وتغير الجيش بوصفه جزءا من هذا المجتمع . ورفض الضباط والجنود مواجهة شعبهم رغما عن أنه كانت تهددهم بمحاكمة عسكرية . كذلك فعل المسؤولون عن الحفاظ على الأمن ، حتى بعض أفراد القوات الخاصة . وفى هذا الموضوع تحديدا خاب ظن الإنقلابيين ، حيث إنهم لم يراعوا أن المجتمع لم يعد كما كان الحال عليه منذ عدة أعوام .

فقد استنشق المجتمع هواء الحرية ، ولايستطيع أى كائن كان أن يسلبه هذه الفرصة . نعم إن الشعب يريد الشرعية والاستقرار ، لكنه لايريد ذلك من خلال الدكتاتورية ، أو من خلال الطوارىء . نعم إن الشعب سئم انتظار تحسين أحواله المعيشية ، لكنه يريد أن يكون الخروج من الأزمة من خلال الأطر الديمقراطية وليس على حساب حريات وحقوق الإنسان ، أو عن طريق العنف . لقد أخطأ الإنقلابيون كثيرا فى تقديرهم لنوعية العلاقات الجديدة للاتحاد السوفييتى مع شركائه فى الغرب . وتجاهلوا التغيرات المبدئية الضخمة التى طرأت على الوضع الدولى لبلدنا ولاسيما فى العلاقات مع شعوب الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا . ولربما كان هناك بعض التردد فى تقدير الإنقلاب فى البداية ، لكن الغالبية الساحقة من حكومات البلدان الأجنبية سرعان ماقالت "لا" الحاسمة للإنقلابيين ورفضت أى تعاون معهم .

وقد حدد مسبقا هزيمة الإنقلابيين عاملان يرتبط كل منهما بالآخر وهما الإنجازات الديمقراطية للبيريسترويكا ، والعلاقات الجديدة مع العالم الخارجى.

وكنت على يقين دائم ، وحتى عندما طالبونى فى شكل إنذار بتسليم صلاحياتى إلى نائب الرئيس أو إعلان الاستقالة "من أجل إنقاذ الوطن" ، من أن المغامرة لن تنجح وأن الإنقلابيين سيلقون الفشل . لقد دفعوا البلاد

والشعب نحو الكارثة ولابد أن يحاسبوا على ذلك)[١].

لقد كان موقف الجيش السوفييتى ، ثم أفراد الشعب دليلاً على أن الإنسان ينزع إلى الأمور الفطرية ، ويبحث دوما عن الحرية ولايمكن أن يضحى بتطلعاته الإنسانية إلا تحت الضغط والقوة كما هو الحال فى الشيوعية إن الجيش السوفييتى والذى كان يتقاسم العالم مع الولايات المتحدة الأمريكية من حيث القوة عجز عن الوقوف أمام الإرادة الإنسانية . وبالعموم فرغم هذه الأحداث إلا أن غورباتشوف ظل متمسكا بالتغيير ونهج التحول الذى بدأه ، حيث قال : (إن ماحدث درس عصيب بالنسبة لى شخصيا . وهناك الكثير مما استوعبته وأعدت التفكير فيه خلال الأيام والأسابيع الماضية . وقد استخلصت العبر من المأساة التى لحقت بنا . قالوا إننى عدت إلى بلد آخر . وأنا أتفق مع ذلك . وأستطيع أن أضيف أيضا أنه عاد من القرم الإنسان الذى ينظر إلى كل شىء .. إلى الماضى والحاضر والمستقبل بعينين أخريين . وعلى أى حال فإننى لن أسمح بأى تردد أو تخاذل فى إجراء الإصلاحات مادمت رئيسا للبلاد . ولن يكون هناك أى حلول وسط مع أولئك الذين نبحث معهم عن إتفاق .

غير أننى اليوم وربما أكثر من أمس أتمنى أن يجرى كل مانقوم به فى إطار الديمقراطية وبدون دماء . وبوجه عام كان من الضرورى العمل . ولم يكن قد اتضح الكثير ، حيث كان عصر جديد يعلن عن بدايته)[٢].

إن الإنقلابيين أرادوا السير بعكس التيار ومن هنا عجزوا عن تحقيق غاياتهم أو مطالبهم[٣].

ومما يذكر هنا أن زعماء الإنقلاب لم يتحدثوا عن الماركسية ، أو الشيوعية بل طمأنوا الكل بأن السياسة الإصلاحية ستستمر[٤].

---

(١) الإنقلاب (٢٤-٢٥) ، وانظر (٢٦-٢٧،٤١-٤٢) .
(٢) المرجع السابق (٢٩) .
(٣) انظر عن ذلك النار والجليد (١٣٦-١٣٧) .
(٤) انظر على الطريق (٤٨١) ، طلال سلمان ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م ، المركز العربى للمعلومات .

كذلك لم يكن هناك أهدافا محددة للإنقلابيين . يقول طلال سلمان : (كان إنقلابا بلاقضية ، سياسيا وأيديولوجيا وإقتصاديا وعسكريا ، وعلى امتداد الساعات الأربع والعشرين الأولى التى حظى بها لم يفعل غير الإخفاق فى تحديد هويته وأهداف حركته .

لم يستجمع الحزب وأجهزته ، بل هو فشل فى جمع المكتب السياسى ليمنحه الشرعية المفتقدة حتى حزبيا ،

ولم يستقطب الجيش لأنه لم يربط وظيفته بمهام استراتيجية وبطموحات تليق بقدراته وعدده وتؤكد على الدور الكونى لدولة عظمى كالاتحاد السوفييتى ... بل لقد بدا وكأنه يضع هذا الجيش الذى يفتقد الدور فى مواجهة شعوب الاتحاد جميعا ، بمن فى ذلك الحزب .

وكان طبيعيا أن يرفض الجيش هذا الدور ، وأن تسحب المخابرات يدها ، فيتعرى الإنقلابيون ويكون سقوطهم عظيما حتى من قبل أن يتحرك أحد لإسقاطهم !

لقد كان الإنقلاب بمثابة صحوة الموت لقوى لم تعد مؤهلة لمواجهة شوق السوفييت إلى الديمقراطية وإلى الكرامة ...)(١).

وعن ردود الفعل خارجيا للسياسة الجديدة : يقول غورباتشوف : (يساور المراقبين الغربيين قلق حول ماهية النتائج التى ستفضى إليها عملية إعادة البناء ، فى حال استمرارها ، بالنسبة للاتحاد السوفييتى وللعالم بأسره . وهم يتساءلون : ماهو الأفضل بالنسبة للغرب ، نجاح العملية أم فشلها؟

إن مجال الإجابة على هذه الأسئلة واسع جدا ، ومفهوم تماما . والكثير من الخبراء الجادين يعترفون بإمكانية التسريع العالى للتطور الإقتصادى والإجتماعى للمجتمع السوفييتى ، ويؤكدون أن نجاحات إعادة البناء سوف تترك آثارا إيجابية على الصعيد الدولى . وحسب رأيهم السديد ، فلن يطال المجتمع الدولى سوى الفائدة نتيجة لنمو رفاه الملايين من المواطنين

---

(١) على الطريق (٤٨٢) .

السوفييت ، ومواصلة تطور الديمقراطية لاحقا . إن ضخامة حجم البرامج الإجتماعية - الإقتصادية بالذات والتى اتخذتها البلاد السوفيتية هى البرهان على النهج السلمى للسياسة الخارجية السوفيتية والضمان الفريد من نوعه لاستمراره . ومن هذه النقطة تنطلق التوصيات العملية الموجهة إلى قادة دول الغرب : لاتهابوا عملية إعادة البناء ، ولاتجعلوها مادة للحرب النفسية ، ولكن ساعدوا هذه العملية من خلال آلية العلاقات الإقتصادية والتبدلات الثقافية والإنسانية والتقبل الجاد لمبادرات الاتحاد السوفييتى حول مسائل نزع الأسلحة وتنقية الوضع الدولى ، والسير باتجاه الاتفاق على هذه المسائل .

ونحن إذ نطرح جانبا العديد من تقديراتهم وحساباتهم موضع الخلاف (من وجهة نظرنا) ، فإننا بصورة إجمالية نرى واقعية هذا الموقف ، ونحيى توجهه الهام البناء . فهو يستجيب لمهمات معافاة العلاقات الدولية ويعبر عن مزاج الرأى العام الواسع .

إنهم يرون أن الغرب كان سيرتكب خطأ تاريخيا لو لم يستجب للإيماءات الإيجابية الصادرة عن موسكو ، ولو لم يتحرر من التصورات الزائفة عن الاتحاد السوفييتى ، والأضاليل التى ينسجونها بأنفسهم .

غير أن مواقف متناقضة تماما يجرى ترويجها فى وسائل الإعلام الجماهيرية الغربية وفى المناقشات السياسية . ولم تضعف محاولات التشكيك بسياستنا ونوايانا فكم هى كثيرة التنبؤات المتشائمة والمرعبة تجاه دينامية سياستنا على الصعيدين الداخلى والخارجى . وهذا يبين ، مرة أخرى مقدار التأثير الذى ماتزال تمتلكه قوة استمرار "الحرب الباردة" ، وكم هى عميقة جذور العداء للسوفييت ، التى تغذيها المصالح الجشعة لدوائر معينة . ولو إقتصرت الأمور على المحاولات النظرية ، والقضايا الإعلامية ، لكان من الممكن إهمالها . ولكن فى النهاية ، ستظهر الحياة نفسها أين تكمن الحقيقة . إلا أن القضية تتمثل فى هدفهم من إثارة الرعب حول عملية إعادة البناء التى ستؤدى إلى تعزيز القدرة العسكرية الإقتصادية للاتحاد السوفييتى مما يعنى تعاظم "الخطر السوفييتى" . وبما أن الأمر كذلك ، فينبغى بناء الحسابات

فيمـا يتعلـق بالاتحاد السوفييتى على فشـل عملية إعادة البنـاء ، ووضـع مهمة توجيه كبحها وإحباطها نصب الأعين مسترشدين فى ذلك بمبـدأ غلاة المعادين للسـوفييت : كلمـا ساءت الأمـور بالنسبـة للاتحاد السـوفييتى ، كـان أفضـل بالنسبة للغرب)(١).

وهذا الاتجاه هو الذى يفسر مايحدث فى الاتحاد السـوفييتى بمثابة العداء للغـرب ، وهناك الطرف الآخر وهـو الذى يدعو إلى دعـم سيـاسة الإصلاح التى انتهجهـا غورباتشوف ويرى أن تلـك السياسة هى القطيعـة مـع الأفكار الماركسية(٢).

ولكـن ماالذى جعل هؤلاء ينتقـدون سياسة غورباتشـوف ويعارضونه؟ بدون أدنى شـك أن محاولـة التغيير لم تعـط ثمارها فى المدة القصيرة التى كـان فيها غورباتشوف وبالتالى كانت الأوضاع مترديـة إقتصاديا وإجتمـاعيا والحياة اليومية كما كانت أو أشد سوءا ، ومن هناكان لابد مـن النقد وإظهار فشل هذه السياسة ، ولكن - وهـذا ليس دفـاعا عـن إصلاحات غـورباتشوف - لايمكـن أن يتحقـق خلال سنـوات معدودة نقيض مابنى فى عقـود مـن الزمان وغرس فى النفوس بالقوة ، ومن هنا كانت مهمة غورباتشـوف صعبة ، وأثر سيـاسته لم يكن ليظهر فى سنتين أو ثلاث فكـان لابد مـن ردة الفعـل تلك .

اخفاق البروسترويكا :

إذا كانت البروسترويكا تمثل نهج التحول الأخير عن النظرية الماركسية "حقيقـة" فإنها لم تؤد الغرض المنشـود منها ، ولعل لهـذا أسباباً عديدة ومنها فى نظرى :

أولا : ترسبـات الماضى التى أثرت فى نفوس الشعب ممـا كان له الأثر على عـدم الاستجـابة الكـاملـة مـن الشعب ، وقد مـر معنـا بعـض الأحداث الداخلية التى كانت تناهض السياسة الجديدة .

---

(١) عملية إعادة البناء (١٢٧-١٢٩) .

(٢) انظر عن ذلك المرجع السابق (١٢٦-١٢٧،١٢٩-١٣٠) .

ثانيا : أن هذه السياسة كانت تسير فى خط معاكس تماما لما كانت تحكم به البلاد ، فلاشك أن ثمارها ستكون قليلة .

ثالثا : استعجال بعض الناس النتائج التى ستوصل إليها السياسة الجديدة وعندما لم يروا هذه النتائج على الوجه الذى كانوا يرغبون فيه حصل لدى هؤلاء ردة فعل ضدها . أو على الأقل عدم الثقة المطلقة والدعم المطلق لها ، مما كان له أثره السلبى على البيريسترويكا .

أبرز الأسباب التى أدت إلى عدم الوثوق بالبيريسترويكا هى :

أولا : التردى الإقتصادى الذى كانت تعانى منه البلاد حيث لم يحصل الارتقاء بها ، والشعب فى الغالب ماثار ضد النظام إلا لسوء الحياة الإقتصادية فالجوع هو الذى فجر الثورة ، ومع ذلك ظل الفرد تحت وطأة الحاجة والفاقة حتى زمن البيريسترويكا ، ومما فاقم الوضع وزاده سوءا :

(أ) الإبقاء على التنظيم القديم إلى درجة واضحة[١].

(ب) افتقار المحال التجارية لأبسط الحاجيات والضروريات[٢].

(ج) تردى الميزانية والعجز فيها ، ونقص أسعار النفط ، مما كان له دور بارز فى عدم الوثوق بالسياسة الجديدة أو الاندفاع خلفها[٣]، خاصة بعد أن عجزت عن ايجاد البديل الذى يمكن من خلاله إسكات الناس.

(د) الفساد والسوء المنتشر فى بعض الوزارات من حيث التبذير[٤].

(هـ) فشل الإصلاحات الزراعية وترديها حيث لم تحقق سياسة البيريسترويكا شيئا كبيرا فيها وذلك للاهتمام بالإصلاح السياسى[٥].

---

(١) انظر عن ذلك نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٨٨-١٨٩) .

(٢) انظر عن ذلك : المرجع السابق (١٩١) ، سادات الماركسية (٤٩) .

(٣) انظر عن ذلك غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٢٩١) ومابعدها .

(٤) انظر عن ذلك المرجع السابق (٢٩٥) .

(٥) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٩٦) .

ثانيا : وجود النظام الطبقى إلى حد ما . حيث تظهر فى بعض مجريات الحياة اليومية ولاشك أن هذا سيجعل الفرد الروسى يشعر بما كان موجودا من قبل ويعقد المقارنة بين الماضى والحاضر فيجد قدرا مشتركا بينهما ، وبالتالى يفقد الثقة فى الحاضر كما فقدها فى الماضى(١).

ثالثا : بعض التناقضات التى ترد من غورباتشوف بين لحظة وأخرى . وكذلك التى تحملها البيريسترويكا فتارة تعلن التغيير والثورة على كل شىء ، وتارة يعلن غورباتشوف التمسك باللينينية وعدم الخروج عليها ، وتارة يعلن أن هذه السياسة الجديدة تطوير للإشتراكية مع إدخال الديمقراطية عليها وهكذا ، ولاشك أن هذه التناقضات التى لاتعدو أن تكون حفاظا لماء الوجه فى نظرى تخالف الحقيقة وهى الابتعاد عن الفكر الإشتراكى واستبداله بفكر آخر .

وإذا كنا ذكرنا أن تناقض غورباتشوف كان سببا فى اختلاف وجهات نظر بعض المفكرين والكتاب فى حقيقة مايحدث فى الاتحاد السوفييتى وضربنا بعض الأمثلة على ذلك التناقض المتعلق بالتغيير(٢)، فإن هذا التناقض قد أحدث نوعا من عدم الثقة فى السياسة الجديدة وعدم ثباتها على طريقة محددة معينة ، فمن ذلك :

(أ) اعتراف غورباتشوف بالأخطاء فى طريق الإشتراكية(٣).

(ب) ثم يدعى تطويرها فى سياسته الجديدة(٤).

---

(١) انظر عن ذلك ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٦١-٢٦٤) ، وضرب مؤلفوه الأمثلة ومن ذلك التمايز فى المركوبات خاصة فى نهاية الثمانينات على عكس ماكان فى بداية سياسة البيريسترويكا .

(٢) راجع (٤٨٧) ومابعدها .

(٣) انظر عملية إعادة البناء (٣٧) .

(٤) انظر المرجع السابق (٥٤) ، وانظر (٣٥-٣٦،٥٧،٨٧) ، غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٦٨-٢٦٩) ، نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٠٤) ومابعدها ، ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٢٤٤-٢٤٥) .

(ج) ويعلن حينا آخر العمل على تعزيز الديمقراطية ويهزأ من أولئك الذين يظنون أن مايحدث فى الاتحاد السوفييتى هو تعزيز للشيوعية[١].

(د) وتارة يفخر بما حققته الشيوعية للاتحاد السوفييتى[٢].

ولاشك أن غورباتشوف يعتبر أكثر القادة تناقضا وذلك نظرا لما جاء عنه من أقوال ثم كانت الأفعال مناقضة تماما لها . وهذا يشكل صراعا داخليا لأفراد الشعب عامة ، والمثقفين والمفكرين منهم خاصة . مما يجعل السياسة الجديدة تفقد بريقها ، وليس بعيدا أن يثور الناس عليها ويستغل المخالفون لها ذلك وتكون الأفكار المتصارعة والويلات المدمرة .

خاصة وأن غورباتشوف يقول شيئا (ويفعل شيئا آخر ثم يعلن عن شىء ثالث)[٣].

ولأجل هذا التناقض حصل الخلاف فى تحديد مايحدث فى الاتحاد السوفييتى[٤].

فاستبعدت طائفة من المفكرين أن يكون هدف غورباتشوف من سياسته تلك إعادة الرأسمالية فى البلاد[٥].

واعتبر بعضهم تلك السياسة عملية تجميلية تجديدية للفكر الإشتراكى[٦].

---

(١) انظر عملية إعادة البناء (٦٤) .

(٢) انظر غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٤٢) ومابعدها .
ولمزيد عن هذه التناقضات والأقوال الواردة عن غورباتشوف انظر : غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٥١-٦٠) ، نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٦٣،٣٥٧،٣٥٥) .

(٣) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٤١٩-٤٢٠) .

(٤) انظر ميخائيل غورباتشوف سيرة ذاتية مفصلة (٣٦-٣٧) .

(٥) انظر : الإصلاح الإقتصادى فى الدول الإشتراكية (٧) المقدمة ، الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٩٩) .

(٦) انظر : نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٩٦) ، وانظر (٣٥٦) ، الإنقلاب (٣٥) .

ويرى بعضهم أن هذه السياسة ليست إلا حكما على فشل النظرية الماركسية ، التى أحالت الاتحاد السوفييتى إلى بلد مستورد للغذاء مفتقر للتكنولوجيا[١].

وبعد هذا يمكن القول بأن الحقيقة التى لامناص من الاعتراف بها هى أن الشيوعية استبدلت أفكارها بأفكار أخرى ، وأن ماصدر عن غورباتشوف من التمسك بالماركسية اللينينية ليس إلا كسبا لود المحافظين ، وحتى لايتصادم مع التيار الذى قد يؤخر عملية التغيير أو يعرقلها ولو لفترة قصيرة ومسألة التغيير والتراجع ليست جديدة بل هى قديمة قدم ظهور الفكر الإشتراكى فى الواقع مطبقا عمليا ، وأن القادة المتأخرين أكثر من السابقين فى رغبتهم فى التغيير ولكون غورباتشوف أدرك حجم المهمة كان لابد وأن يتظاهر بالسير فى خطى لينين (إن الأمين العام الجديد الذى أدرك أنه يقود شاحنة كبيرة على طريق جبلى كان يخشى المنعطفات الحادة فظل يؤكد فى بداية حكمه على "العودة إلى اللينينية" والإبقاء على الدولة الموحدة)[٢].

ومن هنا فليس هناك شك فى أن غورباتشوف حكم على النظرية الماركسية بالفشل وعدم امكانية التطبيق مهما قال أو قاله الشيوعيون .

إن غورباتشوف بسياسته هذه التى جمع فيها بين المتناقضات يكون قد كسب الأطراف لصفه[٣]، وضمن استمرار سياسته حتى يتمكن من تنفيذها ، ومن هنا كان لابد من الظهور بهذه التناقضات ليستجمع تحتها كل الأطراف .

رابعا : أن الإصلاح الإقتصادى لايمكن إنجازه إلا بتحقيق البيريسترويكا فى الجانب السياسى (والبيريسترويكا لايمكن تحقيقها فى هذا المجال قبل إحداث تغييرات جذرية فى ثقافة المجتمع ...)[٤].

---

(١) انظر مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية (٤٦-٤٧) .

(٢) النار والجليد (١٠) .

(٣) انظر عن ذلك غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢٥٦) .

(٤) غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٢٩٤) ، وانظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣٢٥-٣٢٦) .

خامسا : وجود بعض أنصار التغيير والسياسة الجديدة الذين يرون تقييد هذه العملية وعدم إطلاقها ، ويرون أن غورباتشوف قد وسع كثيرا فى التغيير فى حين أنه لابد من التضييق فيه[١].

وبعد هذا العرض للأسباب الرئيسية لإخفاق البيريسترويكا نصل إلى التالى :

أولا : أن التغيير هو استبدال الأفكار القديمة والتحرر منها بعيداً عن كل ماقيل عن حقيقة مايجرى فى الاتحاد السوفييتى .

ثانيا : أن التناقض الذى جاء عن غورباتشوف كان لابد منه لتسير عملية التغيير وتعطى شيئا من ثمارها .

ثالثا : بدون أدنى شك أن غورباتشوف أعلن الثورة على الفكر الماركسى وإن كان ذكر أن الثورة من أجل الإشتراكية لكن حقيقة ماآل إليه الوضع تكشف ماذهب إليه غورباتشوف .

رابعا : أن غورباتشوف كان على قناعة تامة أن الإصلاح الإقتصادى لن يتأتى إلا بوجود تحول عميق فى النظام السياسى والإجتماعى ، وحتى لو آمن غورباتشوف بالإشتراكية ، فإنه يرى وجوب التغيير وأنه لاشىء غير التغيير[٢].

خامسا : فيما لو اعتبرنا أن غورباتشوف لم يكن فى نيته القضاء على الشيوعية وإنما أراد علاجها أو تحسينها فإن الأمر قد وصل إلى الإنهيار التام فى كل شىء حتى غورباتشوف نفسه أطيح به .

سادسا : أن غورباتشوف بسياسته تلك بين المد والجزر يجعل التغيير يسير بطريقة متدرجة دون وقوع أى اصطدام داخل الاتحاد السوفييتى .

يقول غيرد : (إن غورباتشوف يدرك فى كل حال أنه لايستطيع الذهاب بعيدا ودفعة واحدة ، فيما يطلبه من الحزب . كان بحاجة إلى دعم الآلة الحزبية والموظفين الذين ينتقدهم وفى الوقت عينه إلى تشديد عزائمهم

---

(١) انظر غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٣٢٧) .
(٢) انظر المرجع السابق (٢١٢) .

وتحريك الشعور بالكرامة فيهم)[١].

هـذا مايتعلق بالجانب الأول مـن سياسة غورباتشـوف (البيريسترويكا) فماذا عن (الغلاسنوست)؟

إن سيـاسة النقـد والمكاشفـة لم تؤت ثمارها كاملـة وإن حققـت الكثير للشعـب السـوفييتى ، وبالتالى ظهـرت سلبيـاتها . ويمكـن إبرازهـا فى النقـاط التالية :

أولا : رغم مامنحته تلك السياسة من حرية فى الرأى والتعبير إلا أنها أبقت على الرقابة والتمييز بين أفراد الشعب .

(أ) وجود الأحكـام التعسفيـة حيـث وجدت الاعتقـالات بتهمـة خيـانة الوطن[٢].

(ب) بقـاء القـانون الجزائى الذى يرى تجريم المتهـم ، وتجديد الحكم عليه عشيـة مـوعد اطلاق سـراحه بشكـل آلى ، بالإضـافة إلى الإلـزام بالاعتراف[٣].

ثانيا : أن الغلاسنـوست كانت خطوة إلى الأمام من حيـث المقارنة مع ماسبقها ، أما بعد الانفتاح الحقيقـى وإحساس الناس بالحرية فـإنها لاتمثل كل التطلعات .

يقـول بوفين : (إن كـل شـىء نسبى . فقيـاسا على ١٩٨٥م تبـدو الغلاسنـوست مـدهشة ، أما بالنسبـة لما يتطلبه المجتمـع فهـى بالكاد نصف - غلاسنوست)[٤].

ثالثا : أن الغلاسنوست رغم اعتبارها أن النقد وحرية الـرأى والتعبير حق يمنح لكل أحد ، ويطال كل أحد ، حتى أعضاء الحزب إلا أن الحقيقة لم تصل إلى هذه الدرجة .

---

(١) غورباتشوف صانع القرار وضحيته (٢١٤) .
(٢) انظر عن ذلك الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (١٦٧) .
(٣) انظر المرجع السابق (١٦٧) ومابعدها .
(٤) نقلا من كتاب نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٥٦) .

يقول كليامكين : (من الصعب أن تقال الحقيقة فى الاتحاد السوفييتى لأن مصدر الكذب القوى ، بقى دون أن يمسه أحد : إنه يكمن فى سلطة الحزب المطلقة)(١).

ومن هنا ولكون هذه السياسة لم تعط كل المطلوب ، فإن مطالب الشعب السوفييتى لم تنته ومحصلة تلك المطالب كالآتى :

(* دعم نقدى للغلاسنوست وللاتجاه نحو اللبرلة فى مجال وسائل الإعلام والثقافة والفنون ،

* دعم كلى وشامل لإعادة حرية التعبير والتعددية الأيديولوجية السياسية ، وتنامى الحقوق السياسية للمواطنين ، وحرية الصحافة ...الخ ؛

* دعم نقدى للاجراءات الخاصة بتحلل التخطيط المركز بيروقراطية ، ولكل اجراء ينمى قدرة الشغيلة والمستهلكين "فى الواقع جميع المواطنات والمواطنين" على المشاركة فى عملية اتخاذ القرار فى المجال الإقتصادى وفى جميع المجالات ؛

* دعم نقدى لكل اجراء يحسن من شروط حياة الجماهير الواسعة ، وتحديدا فى مجال الغذاء والتوزيع والإسكان والنقل المشترك ، والعناية الصحية والتعليم والحضانات والسياحة الشعبية ، ...الخ ؛

* دعم نقدى للمبادرات فى مجال نزع السلاح ، وفى مقدمتها نزع الأسلحة النووية الكامل والالغاء الكامل للأسلحة البيولوجية والكيمائية ؛

* رفض كل قمع سياسى ، حتى لو كان تدريجيا أو جزئيا .

* رفض جميع الاجراءات التى تنتقص من حقوق الطبقة العاملة المكتسبة ، وفى طليعتها الاجراءات التى تنمى حقوق المدراء ومدراء الأعمال وسلطاتهم فى المنشآت ، ورفض كل هجوم على حق العمل الكامل ؛

* رفض كل ماينمى التفاوت فى المجتمع السوفييتى ؛

---

(١) نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٦٣-١٦٤) وانظر مابعدها .

* رفض كل توسيع مفرط لتأثير السوق وإوالات السوق فى أى مجال آخر غير مجال الإنتاج الصغير الذى لايسعه إلا أن يخرب الاستخدام الكامل وينمى التفاوت الإجتماعى ؛

* رفض كل مبادرة حول "التعايش السلمى" مع البرجوازية فى مجال الصراع الطبقى العالمى الحالى ، أى كل مناورة مشتركة مع البرجوازية ضد ثورات أو نضالات عمالية جارية ، (الأمر الذى لايفترض بالطبع الاندفاع فى مغامرات خارج الاتحاد السوفييتى ، والتى لاتحتاجها البروليتاريا والشعوب المضطهدة على الإطلاق ولاترغب فيها) ؛

* رفض "التفكير الجديد" القائم على التعاون الطبقى العالمى)[١].

ومن هذه المطالب :

* إلغاء الرقابة والسماح بنشر الكتب والدوريات .

* إلغاء بعض المواد التى تحد من حرية التعبير .

* تحرير جميع السجناء السياسيين.

* منع تعسف الشرطة ، والسماح باستجواب المتهم فى غيابها .

* حق الانتخاب ، وضمان حريتها .

* حق المرشحين فى الدفاع عن براجهم ولو تعارضت مع برنامج الحزب الشيوعى .

* إرساء حق الإضراب وحرية كل عمل مطلبى للعمال .

* مشاركة العمال فى الإدارة على نحو فعلى وليس شكلى .

* فتح دفاتر حسابات فى المنشآت كلها .

* سلم متحرك للأجور .

* وضع مؤشر شهرى لكلفة المعيشة تقوم بها لجان منتخبة من العمال وربات البيوت .

* زيادة الحضانات ورياض الأطفال .

---

(١) الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٣٨٩-٣٩٠) .

* تمديد إجازة الأمومة مع ضمان حق الأم فى عملها لاحقا .

* وضع خطة للانتقال السريع نحو أسبوع عمل الساعات فيه ٣٥ ساعة .

* تعزيز التفتيش المهنى .

* إنشاء بيوت مخصصة لقضاء العطل .

* زيادة فى الدخول المخصصة لبناء المستشفيات والصيدلة للارتقاء بالعناية الطبية .

* إلغاء الأقسام الخاصة فى المستشفيات ، والمطاعم ، ومؤسسات التعليم للطبقة الممتازة .

* إقرار حق الإدارة الذاتية وتقرير المصير للأقليات القومية(١).

وهكذا تغدو هذه المطالب من الأدلة على أن النظرية الماركسية لم تفلح فى تحقيق ماوعدت به الشعوب التى ستعيش فى كنفها . ولنا أن نضع فى اعتبارنا أن هذه المطالب صدرت من الشعب فى وقت كانت فيه القبضة الشيوعية - التى تخنق الشعب - تكاد تكون تلاشت أو خفت حدتها بشكل لم يشهده الاتحاد السوفييتى . فكيف سيكون حال هؤلاء لو سمح لهم بالتعبير عن مطالبهم فى العقود السابقة ؟!!

إن هذه المطالب تدل دلالة واضحة على فساد النظرية الماركسية فكريا وسياسيا وإقتصاديا لأنها حدثت فى وقت فتحت فيه أبواب مغلقة ، وزيد من فتح أبواب كانت معدة للفتح .

حقيقة غورباتشوف وكون اليهود وراء البيريسترويكا :

إن هذا الأمر بحاجة إلى فترة زمنية كافية كى تتضح حقيقة هذا الرجل والزمن كفيل بإظهارها وهتك أستارها لكى تعلم حقيقة هذا الرجل ، وفى نظرنا أنه لايمكن استبعاد أن غورباتشوف دسيسة يهودية ، وإن لم يكن

---

(١) انظر الاتحاد السوفييتى فى ظل غورباتشوف (٣٩٥-٣٩٩) .

فهو رجل عرفت حقيقته من قبل اليهود واستغلوه فى تحقيق أحد أهدافهم كما هو حال اليهود مع الأحداث والشخصيات . يقول عنه كارير دانكوس : (فى أصل مثل هذا العمى ، ومثل هذا الخطأ - إذ أن الفيدرالية تفرض مشاركة كل عناصرها فى القرارات التى تتعلق بالمجموع - كانت توجد بدون شك مشكلة رجل هو غورباتشوف . كل مافيه مما فتن العالم : عصريته ، ثقافته الأكبر من ثقافة كل من سبقوه ، مسلكه الأوروبى ، كل ذلك كان له وجه آخر : فهو روسى ولد فى أطراف الإمبراطورية ولكنه قدم مبكرا إلى موسكو ليتم تشكيله فيها . لم تكن له تجربة فى الحياة ولافى خارج الوسط الروسى فهو إذن أوروبى ويمثل الاتحاد السوفييتى المتطور ضد الاتحاد السوفييتى المتخلف ، الاتحاد السوفييتى المتجه إلى العالم الغربى ضد الاتحاد السوفييتى الذى يتمنى أن يعيد ارتباطه مع جذوره ، الاتحاد السوفييتى المسيحى ضد الاتحاد السوفييتى المسلم ...)(١).

ويقول سخاروف فى إجابته على سؤال ("ماهو رأيك بميخائيل غورباتشوف؟" : "من جهة أفهم أنه المبادر إلى البيريسترويكا ، وأنه كان ضرورة تاريخية . أما من جهة أخرى فلاأرى أن لديه موقفا ثابتا ... حتى إنه لدينا انطباع أن التغير الواقعى الوحيد هو وصوله إلى السلطة . ربما لايخلو هذا من مبالغة ، إلا أنه يوجد شىء من هذا النوع")(٢).

إن هذا الغموض فى هذه الشخصية ، وهذه المهام التى جمعها ، والطريق الغامض فى وصوله إلى السلطة ثم الفكر الجديد الذى جاء به ، كل ذلك جعل الكثيرين يتساءلون عن حقيقة هذا الرجل ومن جاء به؟ ولو نظرنا فى الأحداث على الساحة العالمية لوجدنا أن العنصر اليهودى هو أكثر العناصر تحقيقا للمصالح من وراء هذه السياسة ، وهذا ماجعلنى أعتقد أن اليهود خلف إسقاط الشيوعية ، والأيام القادمة ستكشف هذه الحقيقة وتبرزها بكل وضوح ، ولى الآن العديد من البراهين على هذه الحقيقة أضعها

---

(١) مجد الأمم (٢٠) .

(٢) نقلا من كتاب نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٩١) .

فى النقاط التالية :

أولا : غموض شخصية غورباتشوف .

إن هذا الأمر قد يبدو أمرا طبيعيا لأنه يوجد من القواد والزعماء من اختفت بعض الجوانب فى حقيقة شخصيته ، ولكن عندما يكون الأمر فى الدولة الشيوعية فإنه يختلف لما عرف عنهم من التشدد فى الزعامة وكذلك الشروط فى عضوية الحزب والتدرج فى الوصول إلى السلطة ، وأن يكون ذلك الرجل المختار قد بلغ من الكبر عتيا فى الأخذ بالأفكار الشيوعية .

ثانيا : أن أغلب رجال غورباتشوف من اليهود وقد أصبح لهم السيطرة على كثير من مجريات الأحداث فى الدولة السوفيتية فى عهد غورباتشوف . ولايفهم من ذلك أن تغلغل اليهود فى الاتحاد السوفييتى حادث بل هو قديم وكان منذ عهد القيصرية .

يقول حسين صبرا : (لسنا نقول أن النفوذ اليهودى فى الاتحاد السوفييتى وليد الساعة ، بمعنى أنه جاء مترادفا مع ظهور البروسترويكا . فالحركة اليهودية - ماسونية كانت أم عمالية أم صهيونية - تعود جذورها فى روسيا القيصرية العظمى إلى قرون عديدة سبقت قرننا هذا . بيد أن إتخاذ النشاط الصهيونى طابع العلنية "الشرعية" المستمدة من البروسترويكا يشكل مرحلة فريدة وخطيرة فى تاريخ الحركة الصهيونية المتأصلة فى الاتحاد السوفييتى ، شهد اليهود خلالها تعزيزا لمواقعهم ، وتكريما لهم وإسترضاء من قبل نظام "الإتجاه الإشتراكى" البيريسترويكى السوفييتى ، وقاموا بدورهم بإستغلال كل الإمكانات التى خلقتها لهم تلك الفرصة الذهبية ، فى السيطرة على معظم المراكز البالغة الأهمية والشديدة الحساسية فى الدولة والحزب و"المعارضة" ، وقناعهم اليوم هو البروسترويكا - إعادة البناء ، بعد أن كان قناعهم عام ١٩١٧م هو "البناء" ، حينما أوصلوا لينين إلى قمة العرش الشيوعى)[١].

---

(١) سادات الماركسية (٢٤٥) ، وعن بعض الشخصيات التى عينها غورباتشوف يقول : (لقد توج غورباتشوف نجمه حينما أنشأ فى ٢٦ أيلول/سبتمبر ١٩٩١م ماسمى =

ثالثا : القرارات التى اتخذت بشأن الوكالات والمؤسسات الصحفية ، والوسائل الإعلامية من أجل وقف معاداة السامية أو "الصهيونية" ، والسماح لليهود بالسيطرة عليها . مما أدى إلى قيام عدة أحزاب ومنظمات تحارب الصهيونية .و من أبرز تلك المنظمات "منظمة الذاكرة باميت" ، "جمعية الوطن" ، "لجنة الرأى العام السوفييتى لمنع إعادة العلاقات الدبلوماسية السوفيتية مع إسرائيل" ، "الجبهة العالمية لمكافحة الصهيونية" ، "المنظمة الإجتماعية الوطنية" ، "جمعية الحفاظ على الثقافة والمتاحف التاريخية الروسية" ، "جمعية العدالة الروسية"(١).

= بـ"المجلس الاستشارى السياسى لدى الرئيس السوفييتى" ليكون أعلى هيئة حاكمة فى البلاد وبمثابة المكتب السياسى للحزب الشيوعى المنحل ، وعين فيه تسع شخصيات "بيريسترويكية" ، تبين أن ٦ منهم يهود وهم :

١ ـ الكسندر ياكوفليف ، "مهندس البروسترويكا" .

٢ ـ الأكاديمى يفغينى فيليخوف ، مدير معهد "كورتشاتوف" للطاقة الذرية ، وساهم بإنشاء أكبر وأهم مركز "ثقافى" يهودى فى الاتحاد السوفييتى عام ١٩٨٨م وهو مركز "سولومون ميخائيل" .

٣ ـ الأكاديمى نيكولاى بيتراكوف ، مدير معهد السوق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية .

٤ ـ غافريل بوبوف ، حاكم موسكو.

٥ ـ أناتولى سوبتشاك ، حاكم لينغراد .

٦ ـ ايغور ياكوفليف ، رئيس الإذاعة والتلفزيون السوفياتيين ، وكان حتى تعيينه فى هذا المنصب فى آب/أغسطس ١٩٩١م يرأس تحرير صحيفة "أنباء موسكو" .

أما الثلاثة الباقون وهم : شيفارنادزه "وزير الخارجية الأسبق" وفاديم باكاتين "رئيس جهاز المخابرات الكى.جى.بى" ، ويورى ريجوف "رئيس لجنة مجلس السوفييت الأعلى فى الاتحاد السوفييتى لشؤون العلم والتكنولوجيا" ، فلايعرف عنهم مإذا كانوا يهوداً أم لا .

وهكذا ... لم يدع غورباتشوف فى السلطة ولو معاد واحد للصهيونة ، وجلب مكانهم اليهود والصهاينة ، ليعيد التاريخ نفسه) .

سادات الماركسية (٤٣-٤٤) ، ولمزيد من الشخصيات التى تم تعيينها من قبل غورباتشوف انظر (٣٨-٤٣) ، وانظر الإنهيار (١/١٣١-١٣٢) .

(١) انظر سادات الماركسية (٣٢٨-٣٢٩) ، وعن أبرز الشخصيات المعادية للصهيونية انظر (٣٢٩-٣٣٠) ، وانظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٣٧٨-٣٧٩) .

وقد أصدر غورباتشوف عدة قرارات منها سحب المؤسسات الصحفية من تحت إشراف المعادين للصهيونية[١].

وطرد اليهود رئيس تحرير صحيفة ازفستيا وتسلموا رئاسة تحريرها . وسيطرت الصهيونية على مبنى اتحاد الأدباء الروس الذى أنشأه الأدباء المعادون للصهيونية[٢]. وأصبحت الصحافة السوفيتية تحت قبضة الصهيونية وظهر واضحا تحامل تلك الصحافة على العرب المسلمين فى أرض فلسطين واتهامهم بأنهم (هم العقبة الرئيسية فى طريق التسوية)[٣].

رابعا : تغلغل اليهود الواضح فى جميع مرافق الدولة وانشاؤهم المنظمات اليهودية وسيطرتهم على الجيش .

وكانت سيطرتهم على شكلين علنى ومباشر يتمثل فى النشاط الصهيونى عبر الجمعيات والحركات اليهودية .

غير مباشر : وهو التغلغل فى كافة مؤسسات وأجهزة الدولة والحزب[٤].

ويبرز الأمر الأول فى ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وإصدار صحف خاصة باليهود ، فتح مدارس تقتصر على الطلاب اليهود تدرس فيها اللغة العبرية والديانة اليهودية ، إنشاء المراكز اليهودية ، وبلغت أكثر من ٣٠٠ مركز موزعة على أكثر من ١٠٠ مدينة سوفيتية ، وكذلك انتشار المنظمات اليهودية ومنها "اتحاد الصهاينة"[٥]، و"منظمة بيطار" العسكرية[٦]، هذا بالإضافة إلى عقد أول مؤتمر يهودى فى الاتحاد السوفييتى منذ عام ١٩١٧م وذلك من ١٨-٢٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٩م شارك فيه ٤١٤ مندوبا يمثلون

---

(١) انظر سادات الماركسية (٤٢) .
(٢) أنظر المرجع السابق (٤٢) .
(٣) المرجع السابق (٤٣) ، وانظر (٢٩٧) .
(٤) انظر عن ذلك المرجع السابق (٢٤٦) .
(٥) انظر المرجع السابق (٢٤٦-٢٤٧) .
(٦) انظر المرجع السابق (٢٤٨) .

١٩٨ منظمة ومؤسسة يهودية فى الاتحاد السوفييتى ، وحضر المؤتمر ٦٠ ممثلا عن المنظمات الصهيونية فى دول عديدة منها الولايات المتحدة ، كندا ، استراليا ، فرنسا ، بريطانيا وغيرها . ومن أبرز مقررات المؤتمر الدعوة إلى إعادة العلاقات بين الاتحاد السوفييتى وإسرائيل ، ودعوة الأمم المتحدة لإلغاء قرارها رقم ٣٣٧٩ والذى يعتبر الصهيونية شكلا من أشكال العنصرية ، والغرض الأساسى من المؤتمر توحيد ٢٠٠ منظمة ومؤسسة يهودية فى الاتحاد السوفييتى فى إطار منظمة أطلق عليها (فاعاد) (وعد) والتى تريد السيطرة على سياسة الاتحاد السوفييتى الداخلية والخارجية(١).

كما أن المنظمات اليهودية تحظى بدعم مادى هائل حيث قدمت المنظمة الصهيونية العالمية وغيرها ٤٢٠ مليون دولار للمنظمات اليهودية السوفيتية . وخصصت (الوكالة اليهودية لإسرائيل) حوالى ٨ ملايين دولار لتمويل النشاط الصهيونى فى الاتحاد السوفييتى(٢).

خامسا : أن اليهود سروا كثيرا بفشل الإنقلاب الذى حصل فى الاتحاد السوفييتى . وهناك دلائل تشير إلى أن الإنقلاب كان هدفه إحباط محاولة اليهود إسقاط الشيوعية(٣).

سادسا : ومما يدل على أن البروسترويكا حققت بعض مصالح الصهيونية وعملت من أجلها كثرة الهجرات التى سمح بها الاتحاد السوفييتى بعد السياسة الجديدة(٤).

---

(١) انظر سادات الماركسية (٢٤٨-٢٤٩) .

(٢) انظر المرجع السابق (٢٥٠) ، ولمزيد من المعلومات انظر (١٧٢-١٧٤ ، ٢٠٣-٢٠٤ ، ٢٥٣-٢٥٤) .

(٣) انظر عن ذلك المرجع السابق (٣١-٣٨) ، وقد أفاض فى الحديث عن الحقائق المذكورة أعلاه .

(٤) انظر عن ذلك : الإنهيار (٢٤٣/١، ٢٣٦-٢٣٧، ٢٨٢-٢٨٣) ، سادات الماركسية (٢٣٣) ، البيريسترويكا من منظور إسلامى (٥٤-٥٥) .

سابعا : أن البروسترويكا حققت العديد من المآرب اليهودية ، ومن ذلك :

١ - (أن البروسترويكا تدعى العداء للصهيونية ، أولا ، والتظاهر باستمرار النشاط المعادى للصهيونية فى الاتحاد السوفييتى على حاله دون أدنى تراجع ثانيا ، وذلك بإحلالها اليهود مكان المعادين الحقيقيين للصهيونية . خاصة وأن وسائل الإعلام السوفيتية تتعاطى بكل إيجابية مع هؤلاء اليهود وحدهم ، فتنشر مقالاتهم ومؤلفاتهم وبياناتهم وتصريحاتهم "الناقدة" للصهيونية ، دون أن تتعرض لهم بأى إفتراء)[١].

٢ - (تمويه حقيقة الصهيونية ، بحيث أن مدعى فضحها من هؤلاء اليهود ، لايكشفون فى كتاباتهم ، أيا من أسرارها وخططها ، ولايفضحون عريها ، بل يتناولون الصهيونية بهشاشة ، وهزالة ، مع إغراقها ، فى الوقت نفسه ، بالذم والقدح والشتائم ، لاغير!!)[٢].

٣ - (يدافع اليهود ، فى كتاباتهم ، عن إسرائيل بشكل غير مباشر[٣].

---

(١) سادات الماركسية (٣٥٠) .
(٢) المرجع السابق (٣٥٠) .
(٣) المرجع السابق (٣٥٠) .

٤ - (تصوير اليهود كـ"شعب" و"قومية" و"أمة" . وهذا هو إدعاء صهيونى بحت ، لابل أن الصهيونية نفسها قائمة على تلك الإدعاءات!)[١].

٥ - (إظهار أن ليس كل يهودى صهيونيا ، وذلك بخداع الرأى العام السوفييتى بوجود يهود "معادين" للصهيونية! وهذا أمر يتحدث عنه أولئك اليهود أنفسهم ، كقول غيرمان سموليانينوف فى تصريحه ضد "اتحاد الصهاينة" : "أن الصهاينة يحاولون ، منذ أمد بعيد ، وضع علامة المساواة بين اليهود والصهاينة ، الأمر الذى نرفضه رفضا قاطعا . ونحن نقول أن اليهود السوفييت هم فى غالبتيهم الساحقة مواطنون مخلصون لوطنهم "الاحاد السوفييتى ..."! وكقول الحقوقى اليهودى مارك كروبكين فى ندوة "نوفوستى" السالفة الذكر : "علينا أن نأخذ بالاعتبار جانبا معقدا يكتنفه الإلتباس ، وينتفع منه الصهاينة ، وهو أنه غالبا ماتوضع علامة المساواة بين مفهوم اليهودى ومفهوم الصهيونى ...")[٢].

٦ - (الدفاع عن هجرة اليهود فى الاتحاد السوفييتى ونزع صفة الصهيونية عن تلك الهجرة ، وذلك بحديث أولئك اليهود عن أن الغالبية الساحقة من المهاجرين اليهود لاتتجه إلى إسرائيل "كما تريد الصهيونية"!)[٣].

<u>ثامنا</u> : ومما يدل على أن اليهود وراء هذا الحدث أو سخروه من البداية لخدمة أهدافهم هو إعادة الاعتبار لضحايا ستالين وكانوا من اليهود والصهاينة[٤].

<u>تاسعا</u> : ومن أهم أسباب إسقاط الشيوعية هو أن اليهود رأوا أن المسلمين أخذوا فى الرجوع إلى دينهم وأصبحت الصحوة الإسلامية تنتشر فى

---

(١) سادات الماركسية (٣٥٠) .
(٢) المرجع السابق (٣٥٠) .
(٣) المرجع السابق (٣٥١) .
(٤) انظر المرجع السابق (٢٥٨-٢٦٠) وذكر مجموعة من الكتاب والشعراء وكذلك الصحف التى أوقفها ستالين .

شتى البقاع ، ومن هنا كان لابد من جمع شمل القوى المعادية وعدم تفرقها وجعل الأمر ينتهى إلى دولة واحدة فقط تسيطر على الساحة العالمية ويرجع الكل إليها ليتسنى لها نشر أفكارها ومبادئها ، وكذلك الضرب بقوة على كل من يرغب مخالفة اليهود أو عرقلة أطماعهم[١].

عاشرا : أن اليهود بعد أن كانوا خلف الثورة البلشفية عام ١٩١٧م وقد حققوا أهدافهم التى أرادواها من ورائها . رأوا أن الوقت قد حان للتخلص من هذا النظام بعد أن حققوا من خلاله المآرب التى هدفوا إليها ، وجعل العالم كله يتجه إلى قوة واحدة يسيطر عليها اليهود من خلال دولة تتمظهر بالحفاظ على حقوق الإنسان ، وتقيم يد العون لكل المضطهدين والمغلوبين . ولأجل هذا جاء الضغط من القوتين لجعل بعض الدول تترك الفكر الشيوعى وتقبل بالتغيير الجديد ، وعملت أمريكا على الدفاع عن هذه السياسة .

يقول الدلال : (إن أهداف اليهود التى أرادوا تحقيقها من خلال الشيوعية قد حققت أغراضها على كافة المستويات ، الفكرية والسلوكية والإقتصادية والإجتماعية وغيرها ، بحيث أصبح تآكل تلك الشعوب فى أتون المستويات المذكورة تآكلا ذاتيا مستمرا . أى أن الأهداف اليهودية ووسائلها قد أصبحت تقوم بمفعولها الذاتى تلقائيا ، وخاصة على المستوى الإقتصادى "إشاعة الربا والاحتكار" ، وعلى المستوى السلوكى "الإباحية والخمر والجريمة" ، وبسبب ذلك أصبح بذل الجهد فى مواصلة الضغط بالمطرقة الشيوعية لامبرر له طالما قد تحققت الأهداف الرئيسة لها . خاصة إذا لاحظنا أن التقدم التكنولوجى الهائل الذى أحرزه الغرب يستوجب الإسراع فى أن تستبدل بالثوب القديم ثوبا آخر جديدا يتناسب وطبيعة المرحلة)[٢].

---

(١) لمزيد عن ذلك انظر : الإنهيار (١/١٧٧-١٨٠) ، الفرصة السانحة (١٤٠) ومابعدها .

(١) الإنهيار (١/١٧٧) ، ولمزيد انظر (١٧٣-١٧٤،١٨٠-١٨١) ، وانظر سادات الماركسية (٤٤٨) .

الحادى عشر : دعم الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية لعملية التغيير . وفى بعض الأحيان فرض هذه السياسة الجديدة على الدول الأخرى بالقوة . مما يدل على أن اليهود هم المستفيدون من هذه السياسة . خاصة وأن السياسة الأمريكية الداخلية والخارجية تسير حسب إرادة اليهود(١).

الثانى عشر : مما يؤكد هذه الحقيقة علاقة غورباتشوف بالغرب .

إن من المسلم به أن الغرب يسيطر عليه اليهود ، ونجد هذا الجزء من العالم يدعم هذه السياسة ويثنى على قائدها بشكل منقطع النظير سواء على ألسنة القادة والزعماء ، أو عبر وسائل الإعلام .

يقول ميتران : (إن غورباتشوف رجل بعيد النظر)(٢).

ووصفته الصحف الغربية ، بأنه (رجل أوروبا فى الكرملين ، وبالبرجوازى الأحمر)(٣).

كما أن الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة قامت بدعم الاتحاد السوفييتى ، بل إن غورباتشوف طلب المساعدة صراحة فقال : (نحن نأمل هنا فى الحصول على الدعم على طريقة "الإنتشار السريع")(٤).

ويقول : (إننا بحاجة إلى القروض الغربية نحتاج إلى عشرين مليار دولار ، وهذا لايمثل بالنسبة للأمريكيين واليابان والألمان مبلغا هائلا)(٥).

ودن شك أن الغرب يجنى من وراء هذه السياسة المصالح العديدة(٦)، حيث استبشر الغرب بوجود غورباتشوف على رأس السلطة ، ومتابعة

---

(١) انظر عن ذلك سادات الماركسية (٩٨-٩٩) ، وانظر (٥٤-٥٦،٢٣٩،٢٦٢) .

(٢) نقلا من كتاب نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٢٤٦) ، وانظر النار والجليد (١٠٤) .

(٣) نقلا من كتاب النار والجليد (١٠٢) .

(٤) الإنقلاب (٦٣) .

(٥) نقلا من كتاب نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٤٠٤) ، وانظر (٤٠٥) .

(٦) انظر على الطريق (٤٧١) .

الإصلاحات التى بوشر بتنفيذها وغياب الاضطرابات[١]، وحققت هذه السياسة الانفراج الكبير بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى[٢]، ومن هنا كانت الصحافة الغربية تطالب بالدعم السريع لغورباتشوف[٣].

ومن أهم المصالح التى ترغب الدول الغربية فى تحقيقها وخاصة الولايات المتحدة إشاعة الديمقراطية فى الاتحاد السوفييتى[٤]، ومن هنا اعتبر غورباتشوف أن الديمقراطية هى الضمانة الحقيقية لنجاح السياسة الجديدة[٥].

وأعلن غورباتشوف أن هذه المساعدة الغربية لابد وأن تكون لأناس محددين ينتهجون أسلوبا جديدا يرضى الغرب حتى يقدموا المساعدة المطلوبة منهم ، فقال : (من الممكن أن يساعدنا الغرب إذا استطعنا بلوغ التنسيق المتبادل حول الأشكال الجديدة واستمالة أجهزة جديدة وأناسا جدد . إنهم هناك ينظرون إلينا اليوم للتأكدمن هوية الذين يمكن التعامل معهم ...)[٦].

وبهذا يفهم أن المساعدة لاتقدم إلا لتحقيق المصلحة .

الثالث عشر : منح غورباتشوف الجوائز اليهودية واعطائه الألقاب العديدة ، لأنه خدم الأهداف الصهيونية .

فمنح غورباتشوف جائزة نوبل للسلام للعام ١٩٩٠م ، لدوره الحاسم فى تحرير دول أوروبا الشرقية ، ودفع الاتحاد السوفييتى والدول الإشتراكية فى طريق الإصلاحات[٧].

---

(١) انظر نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (١٥٠) .
(٢) انظر المرجع السابق (٣٩٧) .
(٣) انظر المرجع السابق (٣٩٦) .
(٤) انظر عن ذلك غورباتشوف ونهج التحول الكبير (١٦٤-١٦٥) .
(٥) انظر المرجع السابق (٦٦-٦٧) ، ولمزيد انظر (٦٧-٦٩) .
(٦) الإنقلاب (٤٧) .
(٧) انظر : النار والجليد (١٠٤) ، سادات الماركسية (٢٣١-٢٣٢) ، غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٣٢٣-٣٢٥) .

وهـــذه الجائزة لاتمنـح فى الأعـم الأغلـب إلا لمن يخدم الأهـــداف الصهيونية[١].

كما اختير غورباتشوف مرتين متتاليتين ليكون شخصية العام ١٩٨٧م ، و١٩٨٨م ، ثم بعـد سنة وقع عليـه الإختيار ليكون شخصيـة عقد الثمانينات بكامله[٢].

الرابع عشر : أن المتتبـع لتاريخ القادة السوفييت يجد العلاقـة واضحة بينهـم وبين اليهـود[٣]. ومـن شـذ عن هذه القـاعدة فـإن مصيره معـروف . فأصابع الاتهام تشير إلى أن أندروبوف كـان أحد ضحـايا الصهيـونية لأنه عرف بشدة عدائه لها[٤]. وإذا كـان القادة السوفييت تربطهـم تلك الصلات باليهود ، وإذا كان اليهود قد حققوا الكثير من وراء الفكـر الشيوعى ، فإن اليهود جاؤا بغورباتشوف ليحقق المهمة الأخيرة فى وسـط ذهول العالم أجمع لما يحدث على الساحة السوفيتية .

وعلى هـذا فـإن البروسترويكـا فكـرة يهـودية ، طبقـت على يد رجل روسـى ، حتى يكون الأثر مقبولا ، والتحول سريعا . ولأجل ذلـك ليس فى حكـام الاتحاد السـوفييتى مـن كـان يعلن عن يهوديتـه مبـاشرة ، وذلـك لأن مصلحـة اليهـود تأبى ذلك ، بالإضـافة إلى خشيـة بنى يهـوذا مـن أن تعصف القـومية الروسية بكل آمال اليهـود خاصة فى الشرق ومـن هنا كان لابد من إيجاد الشخـص المناسب الذى يسير حسب ماتمليه عليه المنظمـات الصهيونية ، فكان غورباتشوف[٥]من وقع عليه الاختيار ليقوم بهذه المهمة .

---

(١) انظر سادات الماركسية (٢٣٢-٢٣٤) .
(٢) انظر غورباتشوف ونهج التحول الكبير (٣٢٣) .
(٣) انظر عن ذلك سادات الماركسية (٤٤٣-٤٤٤) .
(٤) انظر المرجع السابق (٤٤٦-٤٤٧) .
(٥) وقـد اتهـم غورباتشوف بالعمالة للغـرب ، وأنه دسيسة من المخـابرات الأمـريكية وكـان يدافـع عن نفسه بكلمات جوفـاء لايدعمها دليل . انظـر الإنقلاب (٩٧) .

(إن اليهود فى ظل البروسترويكا يعيشون عصرهم الذهبى! وهذا مايريده الغرب تماما ، وهو ماسارع غورباتشوف إلى تنفيذه على الأرض ، وهو المستعد مسبقا لذلك)[١].

وبعد هذه الحقائق والبراهين فليس بالإمكان إنكار مصلحة اليهود ودورهم البارز فى إسقاط الشيوعية ، ولربما كان من الأسباب الأساسية فى إسقاطها تحقيق مصالح اليهودية العالمية . غير أن السرية مازالت تحوط الحقائق حتى هذه اللحظة ، وأعتقد جازما بأن الأيام المقبلة ستكشف هذه الحقيقة خاصة أن الواقع بدأ يدل على ذلك حيث حقق اليهود قدرا لابأس به من المصالح من بعد سقوط الشيوعية وحتى وقتنا هذا ، وعلى رأس تلك المصالح أمن الدولة اليهودية فى الأرض الإسلامية ، والاعتراف بها ، وإقامة العلاقة معها . وهذا يذكرنا بما قلناه سابقا من أن الصهيونية كانت وراء قيام الشيوعية لتحقيق أهدافها وأطماعها فى أرض فلسطين[٢]. وهكذا وجدت دولة إسرائيل وأصبحت ذات كيان يعترف به ويقدر وبارك الجميع ذلك إلا من رحم ربك وقليل ماهم .

التغيير والتراجع وأثر ذلك فى سقوط الشيوعية :

إن الإشتراكية الماركسية التى طبقت فى الاتحاد السوفييتى مرت بعدة تغييرات بدءا من لينين وانتهاء بغورباتشوف . وقد كان لفساد النظرية الماركسية أثر بالغ فى إنهيارها وإنهيار النظام القائم عليها ، حيث إنكارها الألوهية ، ومصادمتها الفطرة الإنسانية ، واصطدامها بالواقع ، وانكشاف زيف نبؤاتها ، وعدم وثوق الناس بها ، مما أفقدها مصداقيتها ، ومحاولة الناس الخروج من ربقتها حيث لم يجنوا من ورائها إلا مصادرة إنسانيتهم ، والقضاء على غرائزهم . ومن هنا كان لزاما على الزعماء الشيوعيين وهم

(١) سادات الماركسية (٢٤٠) .
(١) راجع (٣٢٥) ومابعدها .

يطبقون فكر ماركس ـ وخاصة بعد أن اصطدموا بالواقع ـ أن يدخلوا التعديلات على ذلك الفكر وفى مبادئه الأساسية ، وافتتح لينين ذلك ، وسار على طريقه كل من جاء بعده لعدم تمكن القيادة الشيوعية من الاستمرار فى فرض المبادىء الماركسية ، وكان هذا التراجع والتغيير يبعد القادة والشعب خطوات تدريجية عن الوثوق أو التصديق بذلك الفكر ، إلى أن جاء غورباتشوف ، وفى ظل المتغيرات التى كانت تشهدها الساحة الدولية . فاختتم مابدأه أسلافه ، وحكم على الفكر بالزوال نهائيا من عالم التطبيق الإجبارى ، بل وباستبداله بفكر آخر مناقض له ، وهكذا غدت تلك التغييرات والتراجعات على مر الأيام دليلاً على إفلاس الماركسية وعدم صلاحها . بالإضافة إلى أن هذه التغييرات كانت إسقاطا للفكر بصورة بطيئة حسب مايقتضيه الواقع ، وتستدعيه الضرورة . وسيزداد ذلك وضوحا بما نسجله فى هذه النقاط التى نختم بها هذا الباب .

أولا : أن الفكر الماركسى قد ثبت بطلانه منذ اللحظات الأولى لتطبيقه ولايعنى ذلك صحته قبل التطبيق ولكن نظرا لكثرة التنظير والوعود البراقة حينما كان فكرا مجردا . وعندما بدأ التطبيق وظهر الفساد الذى كانت تحمله النظرية اصطدم الفكر بالواقع فكان لابد وأن ينهار ذلك البنيان ولو بصورة تدريجية ، وقد وجد من الماركسيين من يرى عدم جدوى الماركسية وفساد الجوانب الأيديولوجية فيها .

ثانيا : لقد كشف الواقع زيف الحتميات التاريخية ، وأبان عدم تحققها ووقوعها فكانت الكارثة حينما أصبحت الحتمية بعيدة جدا عن الواقع ولانقول بأنها تراجعت فى بعض أجزائها بل فيها كلها فكانت هذه الحتميات وبالا على الفكر وأصحابه . يقول يكن ومنى حداد : (فضلا عن جنوح التوجه الجديد عن فلك النظام الأساسى للحزب الشيوعى فقد أكد من خلال تعهده بتحقيق المجتمع الشيوعى خلال العشرين سنة المقبلة ـ فشل الشيوعية خلال الأربعين سنة الماضية ، فى خلق الأساس المادى والتكنيكى للمجتمع الشيوعى . وهذا يعنى أن الشيوعية كفكرة قد فقدت القدرة على

مايسمى بالحتمية التاريخية فى الانتقال من الرأسمالية إلى الإشتراكية .. ويعود هذا العجز أساسا إلى أن الشيوعية ـ كنظرية وضعية ـ لاتقوم على أصول وقواعد عامة قادرة على استيعاب مشاكل الحياة المتجددة كما ونوعا ، مما عرضها مرارا إلى التبديل والتغيير الجذريين فى أصولها المنهجية والفكرية فى أقل من ربع قرن .. فمبدأ محو (الملكية الفردية) عدل عنه إلى حل وسط ، وهو الاحتفاظ للدولة بالصناعات الثقيلة والتجارة الخارجية والمصارف والمشاريع العامة ، وترك الصناعات الصغيرة والتجارة الوسطى للسعى الفردى .

وكذلك عدل عن مبدأ (توزيع السلع الاستهلاكية) .

فبدل أن كانت القاعدة (من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته) أصبحت كما نص عليها الدستور السوفييتى المعدل عام ١٩٣٦م "من كل حسب قدرته ، ولكل حسب مايؤديه من عمل ، ومن لاعمل له ليس له الحق أن يأكل" ثم يعود الحزب الشيوعى عام ١٩٦١م إلى طرح مشروعه الجديد والذى يقضى بالعودة إلى "مبدأ التوزيع حسب الحاجة" وهكذا دواليك!!)(١).

ثالثا : أن من أعظم ماأفقد النظرية الماركسية بريقها ، وأبان عدم صلاحها ووجوب التغيير فيها الواقع الذى كان لها بالمرصاد .

يقول الصدر : (من سوء الحظ أن قادة التجربة الماركسية ، حاولوا أن يخلقوا الجنة الموعودة على الأرض ففشلوا ، وظلت التجربة تتأرجح بين الإشتراكية والشيوعية ، حتى أعلنت بصراحة عجزها عن تحقيق الشيوعية بالفعل ، كما تعجز كل تجربة تحاول اتجاها خياليا يتناقض مع طبيعة الإنسان فقد اتجهت الثورة الإشتراكية فى بادىء الأمر اتجاها شيوعيا خالصا ، إذ حاول لينين أن يكون كل شىء شائعا بين المجموع ، فانتزع الأرض من أصحابها وجرد الفلاحين من وسائل إنتاجهم الفردية فتمرد الفلاحون

---

(١) البيريسترويكا من منظور إسلامى (٣٤-٣٥) .

وأعلنوا إضرابهم عن العمل والإنتاج ، فنشأت المجاعة الهائلة التى زعزعت كيان البلاد ، وأرغمت السلطة على العدول عن تصميمها ، فردت للفلاح حق التملك ، واستعادت البلاد حالتها الطبيعية ، إلى أن جاءت سنة (٢٨-٣٠) فحدث إنقلاب آخر أريد به تحريم الملكية من جديد ، فاستأنف الفلاحون ثورتهم وإضرابهم ، وأمعنت الحكومة فى الناس قتلا وتشريدا وغصت السجون بالمعتقلين ، وبلغت الضحايا ، على ماقيل ـ مائة ألف قتيل باعتراف التقارير الشيوعية ، وأضعاف هذا العدد فى تقدير أعدائها . وراح ضحية المجاعة الناجمة عن الإضراب والقلق سنة (١٩٣٢م) ستة ملايين نسمة باعتراف الحكومة نفسها ، فاضطرت السلطة إلى التراجع ، وقررت منح الفلاح شيئا من الأرض وكوخا وبعض الحيوانات للاستفادة منها، على أن تبقى الملكية الأساسية للدولة ، وينضم الفلاح إلى جمعية "الكلخوز الزراعية الإشتراكية" التى تتعهدها الدولة وتستطيع أن تطرد أى عضو منها متى شاءت)(١).

رابعا : أن بشرية الفكرة الماركسية كانت قاصرة عن أن تلبى رغبات الشعب أوتحقق لهم ماوعدت به لأنها قامت على مصادمة فطرهم وكانت فكرا بشريا لايعدو أن يكون فكرا وقتيا .

يقول يكن : (إن بشرية "الفلسفة الماركسية" جعلها تفقد عنصر ديمومتها وبقائها ، وجعلها تفقد القدرة على مواجهة مشاكل الحياة ، كما جعلها تصطدم بكثير من المبادىء الفطرية وتخرج عن الحقائق الكونية الثابتة...)(٢).

خامسا : نظرا لتصادم الفكر الشيوعى مع الفطرة وكبته لحريات الناس وتصادمه مع الحقائق العلمية كان ـ لابد والحال هذه أن تحصل التغييرات ووقعت فى الفكر على يد زعماء القيادة الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى ولولا

---

(١) إقتصادنا (٢٣٤-٢٣٥) .
(٢) حركات ومذاهب (٣٧) .

هذا التغيير والتراجع لما استمرت الشيوعية كل هذه الفترة التى إذا ماقيست بفساد الفكر تعد كبيرة .

لقد كان لهذا التراجع أثره فى بقاء الزعماء الشيوعيين على مناصبهم فغيروا وبدلوا تحت سياط الواقع من أجل تحقيق المصالح والحفاظ على سلطتهم .

يقول دجيلاس : (إن كافة التغييرات التى قام بها الزعماء الشيوعيون قد فرضتها مصالح ورغبات الطبقة الجديدة ، التى هى ككل الطبقات والجماعات البشرية تعمل وتتفاعل وتسعى للدفاع عن ذاتها وتتقدم إلى الأمام لتحقيق أهدافها بإحكام قبضتها وفرض سيطرتها على الحكم ، غير أن هذه الدوافع لاتعنى مطلقا أنها غير ذات بال بالنسبة للآخرين . وبالرغم من أن هذه التغييرات الطارئة التى قامت بها البيروقراطية لاتعنى أبدا أنها تشكل تحويلا ماديا للنظام الشيوعى ، فيجب أن لايقلل المرء من قيمتها ، وإعطائها قدرها الصحيح . وأن من الضرورى دراسة طبيعة هذه التغيرات لتقدير مداها ولتقييم مغزاها وأهميتها)[١] .

وقد اعترف قادة الثورة البلشفية بالتغيير والتبديل فى الفكر ليتناسب مع الواقع الذى يعيشونه[٢].

سادسا : أن المتتبع لتاريخ هؤلاء القادة يجد العجب من كثرة الاختلافات فيما بينهم وكل واحد منهم أراد تحقيق الشيوعية فى عصره على الأقل ادعاء ، ولكن حقيقة الأمر أن كل واحد منهم ابتعد عن الفكر الإشتراكى أكثر من سابقه ، وهكذا إلى أن جاء غورباتشوف فكانت الآراء والأفكار النظرية تسير فى اتجاه والواقع يسير فى اتجاه معاكس تماما ، والشيوعية تطلب من الإنسان أن لايؤمن إلا بما يشاهده!!

لقد كانت كل طائفة فى الاتحاد السوفييتى تلعن سابقتها[٣].

---

(١) الطبقة الجديدة (٨٩-٩٠) ، وانظر (٩٦،٢٤٦) .

(٢) انظر مقالات وخطابات بمناسبة ثورة أكتوبر (٨٥-٨٧) .

(٣) انظر عن ذلك نشوء وإنهيار الإمبراطورية الشيوعية (٧٠-٧١) .

يقول وحيد الدين خان : (ومن أغرب أمثلة التناقض الذى يعانى منه النظام الماركسى هو أن ستالين كان قد اتهم معارضيه فى صفوف الحزب الشيوعى ، بأنهم "يتآمرون مع الرأسماليين الأجانب" وذلك حين أراد أن يبطش بهم ؛ أما خلفه خروشوف فاتهم معارضيه فى صفوف الحزب - حين أراد التخلص منهم - بأنهم يعارضون "التعايش السلمى" مع البلاد الرأسمالية)[١].

سابعا : أن فساد الماركسية فكريا قد جعل الدول التى تأخذ بهذا الفكر تتجه إلى القوة السياسية أكثر منها قوة فكرية ، وماذلك إلا لأنها لاتملك ماتعتمد عليه أو تنطلق من خلاله . يقول وحيد الدين خان : (لاتقوم الشيوعية اليوم فى أى مكان على أساس فكرى ، بل هى قائمة ؛ لأن دولا قوية تحكم باسمها ، ويرتبط بها كثير من المصالح . إن شيوعى اليوم ليسوا مؤمنين بقوة الشيوعية الفكرية ، بل هم شيوعيون بالإكراه أو لمصلحة من المصالح . وقد لاحظ أحد دارسى الشيوعية ذلك ، فقال : إنه بالإمكان أن تكون شيوعيا بدون أن تكون ماركسيا)[٢].

ويقول : (روسيا لم تعد المختبر الأول للإشتراكية بل هى المقبرة الأولى حيث دفنت الإشتراكية للأبد ، وبقاء الإشتراكية فى بعض البلدان اليوم ليس كنظرية ، بل كنظام حاكم ، تماما كالأنظمة الجمهورية فى بلاد أخرى)[٣].

ثامنا : لقد ادعت الشيوعية بأنها ستحقق النعيم لشعوبها وأنهم سيعيشون فى جنان هذه الأرض هذا ماجاء فى نظرياتهم الفكرية ، ولكن عندما اصطدموا بالواقع ماكان منهم إلا أن صادروا حرية الفرد . وقطعوا صلاته بالدول الأخرى وضربوا من حوله سورا حديديا لكى لايرى

---

(١) سقوط الماركسية (٨٤) ، وانظر (١٠٩) .
(٢) المرجع السابق (١٤) .
(٣) المرجع السابق (١٢١) .

الآخرين ويعلم أنه فى جحيم مقارنة بهم ليوهموه أنه يعيش فى نعيم لايعرفه غيره . ضف على ذلك أن كل الوسائل التى من شأن المرء أن يعبر عن رأيه عن طريقها ، بيد الدولة .

ثم إن القهر والتسلط قد بلغ شأوا عظيما فى الدول الإشتراكية وخاصة الاتحاد السوفييتى . وكان لتخلف هذه الوعود الأثر الكبير فى عدم الثقة فى الفكر ومحاولة الخروج عليه ، والمطالبة بالحقوق ولاغرابة فى ذلك لأنها مطالبة بحق من الحقوق التى منحها الإنسان وفطر عليها .

تاسعا : من البدهيات أن الاتحاد السوفييتى اهتم بالدول الأخرى خاصة التى حاول فرض فكره الإشتراكى عليها ، وقدم لها الشىء الكثير من أجل تحقيق مآربه وأهدافه فأعطيت المساعدات ، وحظيت بكثير من الوقت للاهتمام بشئونها ، والتطوير فى إقتصادها ودعمها ، وكان كل ذلك على حساب الشعب فى الداخل ، وعندما أحس الشعب السوفييتى بذلك بدا متذمرا مطالبا بالتغيير فى هذه السياسة القائمة على الأفكار الماركسية .

عاشرا : ظهر من هذا العرض الذى كشف زيف الأفكار الماركسية ، وتصادمها مع الواقع أن ماركس وانجلز كانا يحلقان بعيدا عن الواقع وأنهما كانا طوباويين ، فوقعا فى نظير ماوصما به من سبقهما من أصحاب الفكر الإشتراكى ، وظلت الأفكار الماركسية خيالية - رغم فرض بعضها بالقوة - حيث سقطت دون أن يتحقق منها شىء . إلا الآثار السيئة التى خلفتها محاولة التطبيق بالقهر والقوة .

الحادى عشر : أن غورباتشوف ليس إلا حلقة فى سلسلة ممتدة إلى عهد لينين ، فإن الإصلاحات والتغيير والتراجع قد بدأ من عهده وإن كانت قد تختلف الآراء حول مقصود كل واحد من هذه التغييرات . وكذلك كثرتها ومدى تأثيرها على الفكر . والشاهد أن التغيير ليس مقصورا على حقبة غورباتشوف بل بدأ ذلك منذ زمن لينين .

الثانى عشر : أن مما زاد الناس تذمرا من الشيوعية وجود طبقة دكتاتورية مسكت بزمام الأمور وتصرفت كيف يحلو لها ، واستبدت بثروات

الدولة فكان لابد من العمل على إزالتها وإزالة الفكر الذى سوغ لها هذه الأفعال .

يقول دجيلاس : (إن تطور الأوضاع العالمية فى المرحلة الأخيرة قد أثبتت بطلان النظرية الشيوعية التى تدعى إمكانية إقامة مجتمع إشتراكى فى نطاق دولة واحدة ، إذ لانرى أى مظهر من مظاهر الإشتراكية لدى الدول الشيوعية ، فالحقيقة الثابتة هى أن هناك طبقة استبدادية غاشمة تتحكم بالشعوب ، متوسلة الأساليب الإرهابية للحكم الدكتاتورى المطلق ، المكبل للحريات والخانق لفكر الحر ، إن ظهور الدول الشيوعية فى العالم لايقود إلا إلى العزلة الخانقة لمجموعة شعوب هذه الدول وانعزالها عن منطق التطور التاريخى .. لكن ، إن استطاعت الأنظمة الشيوعية أن تؤخر من مسيرة ركب التطور ، وإقامة أنظمتها الديكتاتورية الخانقة ، فلن تستطيع وقف المسيرة الإنسانية فى طريق توحدها وتآزرها وتعاونها القومى ، تلك المسيرة التى ستجرف فى طريقها كل القوى المعيقة من أشكال التسلط الاستعمارى الإقتصادى منه والأيديولوجى وعلى رأسها الأنظمة الشيوعية ، والدكتاتوريات العسكرية ، وقوى البغى والظلام .

إن عالمنا الراهن يتطور باستمرار وهو يسير بصلابة فى اتجاهاته المحتومة نحو خلق وحدة عالمية شاملة لتسودها الحرية والإخاء ، ولطالما كانت الحقائق وطاقات الحياة الزاخرة أقوى من كل أنواع قوى الظلم والعدوان ، كما أن الحقيقة وقوة الحياة هما دائما أكثر صوابا وألصق بالواقع من كل النظريات والمبادىء العقائدية الزائفة)[١].

<u>الثالث عشر</u> : أن هذه العمليات التغيرية التى خضعت لها الشيوعية أحدثت صدمة هائلة فى نفوس المفكرين ، فاليوم يعلن أن هذا الأمر صواب وحق ، وغدا يعلن أنه خطأ وكذب وهكذا .

---

(١) الطبقة الجديدة (٢٤٦-٢٤٧) .

يقول كاونتس : (إن ماتعلنه اللجنة المركزية من آن إلى آن من تغير كبير فى عقائد الحزب وسياسته سيثير أسئلة كثيرة فى عقول الذين يستطيعون القراءة والتفكير ، والتذكر. فكم من مرة حدث فى تاريخ البلشفية أن ماأعلن بالأمس أنه حق وصحيح ، أعلن اليوم أنه كاذب مخطىء . ويحدث هذا فى العادة بطريقة مفاجئة تحدث بلاريب صدمة هائلة فى عقول المفكرين)[١].

إن ماحدث فى الاتحاد السوفييتى ليس مستغربا ومانراه ليس حديثا ، بل إن لينين قد افتتح ذلك بسياسة "النيب" (NEP) راميا كل الشعارات التى تدعو لبناء الإشتراكية فورا ، ومن بعده ستالين وهكذا دواليك . ونتيجة لذلك اعتبر بعض الكتاب أن هذا التغيير والعدولات عن المبادىء الماركسية سيؤدى إلى السقوط النهائى وهذا ماحدث فعلا .

يقول أنور الجندى : (ومن هنا فقد كان من الضرورى أن يسقط هذا النظام وأن تنهار هذه النظرية ، بعد أن مرت بمراحل متعددة من التعديل والحذف والإضافة الذى لم يغنها شيئا عن الانهيار الكامل)[٢].

ثم إن التغيير لايتم إلا بنبذ المبادىء البلشفية جميعها عقائدها وأساليبها وأهدافها . وهذا معناه نبذ لينين ومبادئه بقضها وقضيضها[٣]. وهذه النتائج لاتحدث إلا فى أعقاب ثورة جامحة .. وأعلن غورباتشوف أخيرا أن مايقدم عليه إنما هو ثورة . ثورة على كل شىء .

لقد كان النظام الشيوعى مصادما لكل شىء يدعم بقاء الفكر أو يشد من أزره . فكانت هذه المصادمة أحد المعاول التى عملت على الإطاحة بذلك النظام ، والتعجيل بانهياره وتفكك بنيانه ، وذلك لعدم صلاحه ، لأن الفطرة الإنسانية تصادمه ، والرغبات الشخصية تعارضه ، والواقع يرفضه ، ومن هنا

---

(١) التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٤٢٥) .
(٢) مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية (١٢٤) .
(٣) انظر التعليم فى الاتحاد السوفييتى (٢) .

كان لابد من الانهيار . يقول سيد قطب : (وقد تهلهلت :الماركسية" على كل حال "كنظرية" ـ تحت مطارق الواقع ، ودوافع الفطرة ، وحقائق الدوافع البشرية الأصلية ، واحتاجت إلى التعديلات المتوالية ، على يد لينين وستالين وخروشوف . وهم يسمونها تعديلات وهى فى الواقع "عدولات" عن أسس النظرية مع الاحتفاظ بالشارة والإطار . وهم يعللون هذه العدولات ، بأن الماركسية مذهب متطور .. على حين أن ليس هناك مذهب ، ولانظرية ، ولادين ، يحتشد بالحتميات احتشاد الماركسية الأولى ، كما وضعها ماركس وانجلز . فدعوى "التطور" بعد الماركسية دعوى جديدة جدا ، لمواجهة مطارق الفطرة ، ومطارق الواقع ، وجهاد "الذات الإنسانية" فى روسيا والصين ، وسائر البلاد التى أخضعتها الشيوعية ، لإثبات وجودها على الرغم من الثقل الساحق للنظام البوليسى الرهيب)(١).

وإذا كان هذا التطوير من أجل الإشتراكية وتحقيقها فإنها لم تتحقق على يد أحد من زعمائها .

ونختم حديثنا فى هذا الباب بقولنا :

إن من الحقائق المسلمة أنه لايبقى إلا الصحيح ، ولايدوم إلا الحق ، على مدار الأزمنة . وهذه الحقيقة والميزة لاتتوفر إلا فى دين الله تعالى فهو الصالح لكل زمان ومكان ، لأنه منه جل جلاله .

وعلى هذا الأساس فإن المذاهب الأرضية تتلاشى أمام الحقائق العلمية والسنن الربانية إذا عارضتها ، والتوجهات الفطرية إذا صادمتها ، والحياة الواقعية إذا عارضتها وخالفتها . وهذا ماحدث للشيوعية حيث صادمت الفطرة والعلم وفشل أصحابها فى تطبيقها فى عالم الواقع فكان لابد من الإنهيار المدمر للبنيان الذى قام عليها . ولاغرابة من أن يحدث هذا إذ أن الفكر الماركسى قام على إنكار الألوهية ، ومصادمة الفطرة الإنسانية ، والقضاء على

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة (٩٠) .

الحريات الشخصية ، وفشل فى تحقيق مايصبو إليه الإنسـان فى حياته المعيشية نظرا لفشل نظرياته الإقتصادية ، ومعارضتها للتطلعات البشرية ، حيث كشف الـواقع زيف نبؤاتها وكذبها فأصبحت أحلاما لم تر النـور ولايمكنها أن تراه لأنهـا أفكار بشرية ، محدودة بغاية شخصية وفترة زمنيـة . مما جعلها تتناقض مع الحياة الواقعية ، وأدى ذلك إلى التعجيل فى سقوط ذلك الفكر ، وزوال النظـام القائم عليه وهذه سنـة ربانية فى كل نظام خالـف ماأراده الخالق جل وعلا لهذا الكون وللإنسانية .

على أن هذه الأسباب التى أدت إلى سقوط الشيوعيـة ، وهى نابعة من الفكـر مباشرة وتطبيقاته قـد أضيف إليها مؤثرات خارجيـة سـارعت بسقوط الشيـوعية ونقلها إلى مثواهـا الأخير حتى وإن تشبـث بعض أصحاب المصالح بغير هـذه الحقيقـة . وهذه الأسبـاب هـى ماأطلقنا عليـه الأسبـاب الخارجيـة لسقوط الشيوعية ، وهذا مانعرض له فى الباب التالى بحول الله تعالى وقوته.

الباب الثالث
أسباب سقوط الشيوعية (الخارجية)

ويشتمل على تمهيد وثلاثة فصول .

التمهيد .

الفصل الأول : الحرب الباردة .

الفصل الثانى : الوفاق الدولى .

الفصل الثالث : الجهاد الأفغانى .

الفصل الأول
الحرب الباردة

ويشتمل على تمهيد وعدة مباحث .

التمهيد

المبحث الأول : أسباب الحرب الباردة ومقدماتها .

المبحث الثانى : الحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وأبرز أساليبها .

المبحث الثالث : آثار الحرب الباردة .

المبحث الرابع : إنهاء الحرب الباردة وآثار ذلك .

الباب الثالث
أسباب سقوط الشيوعية الخارجية

الفصل الأول
الحرب الباردة

تمهيد :

قلنا بأن الأسباب الخارجية هى تلك الأسباب التى عملت على تقويض الفكر الشيوعى وزعزعته من خارج بيئته التى عاش فيها . وقد تنوعت هذه الأسباب وإن كانت تصب فى الغالب فى بوتقة واحدة وهى التخلى عن الفكر ، وإنهاك اقتصاد الدولة الشيوعية الذى كان فاشلا نظريا وصعبا فى تطبيق مبادئه التى يقوم عليها واقعيا ، فازداد الأمر سوءا ، وعجلت هذه الأسباب بإنهيار النظام وسقوطه الفكرى . ولكن لو تتبعنا هذه الأسباب وبدايتها فإنها لم تكن فى مقدار الأسباب الداخلية تأثيرا ذلك أن التراجع والتغيير فى الفكر الداخلى قد سبق وجود تلك الأسباب بمراحل ، وبان فساد الفكر من سنوات تطبيقه الأولى ، ومابدأت هذه الأسباب بالظهور الفعلى إلا بعد أن حكم الشيوعيون على نظرياتهم بالفساد ، إما مباشرة كما كان من كفر بعض قادتها وزعمائها ، وإما بطريق غير مباشر وذلك بالتراجع الذى أحدثه القادة الشيوعيون . وهذه الأسباب غالبا ماكانت نتيجة التغيير فى الوضع الداخلى الذى أحدثه الشيوعيون فى الاتحاد السوفييتى . وبناء على هذا فإن الأسباب الخارجية كانت أسبابا مساعدة بتعجيل إنهيار الشيوعية أكثر منها أسبابا مباشرة فى سقوطها ، وربما يساند هذا الرأى الآتى :

أولا : أن المتتبع لسقوط الدول يجد أن الأسباب الرئيسة التى أدت لسقوطها الفساد الداخلى الذى كان موجودا فيها . فبداية السقوط تكون من الداخل ، إما لفساد الفكر - وإن كان صحيحا فلعدم التمسك به - أو

لانتشار الفساد داخل بنيان الدولة فتسقط من الداخل فتأتى بعد ذلك العوامل الخارجية لتقضى على ماتبقى ولتشعل النار فى الهشيم .

ثانيا : أن الأسباب الخارجية لسقوط الشيوعية ماحدثت إلا بعد ظهور الخلل فى الفكر وعدم إمكانية تطبيقه والتراجع فى كثير من مبادئه ، فالأثر نابع من الداخل . وهذه الأسباب نتيجة للفشل الداخلى ، كما أن العمل من أجل هذه الأسباب (كردة فعل) زاد من تعميق الجراح الداخلية وخاصة الجوانب الإقتصادية .

ثالثا : طالما أن الفكر فاسد وبانت صعوبة تطبيقه فى عالم الواقع ، وكفر به كثيرون آمنوا به فى فترة سابقة فإن إنهياره وإنهيار الدولة التى قامت عليه أمر محتوم حتى لو لم يكن هناك عدو خارجى أو عوامل خارجية تساعد على إزالته .

وقد كانت بداية هذه الأسباب الدخول فى صراع مع الدول التى تتبنى الفكر الرأسمالى فيما عرف (بالحرب الباردة) . وقبل أن نتحدث عن هذا العامل يجدر بنا فى هذا المقام التنبيه على أمر لكى لايكون سبيلا للاشكال .

وهو إذا كانت الحرب الباردة ضد الرأسمالية (اليهودية) فكيف يقال أن اليهود وراء الشيوعية ، وبتعبير آخر كيف يحارب اليهود أنفسهم بأنفسهم ؟

فنقول :

أولا : أن من عرف تاريخ اليهود علم وأيقن أنه لاتعارض بين الأمرين طالما أن الغاية تبرر الوسيلة .

ثانيا : أن هذه الحرب إمعان فى تقسيم العالم إلى جبهتين وخاصة العالم الاسلامى حتى لايتحد تحت راية واحدة فى مقاومة الأعداء فيصبح جزء منه يتبع الرأسمالية وجزء الشيوعية ، ولو بقى جزء ثالث لاإلى هؤلاء ولاإلى هؤلاء لكان هذا أمرا مستحسنا لدى اليهود .

ثالثا : أن كثيرا من القادة السياسيين قد تنبهوا لمسألة أن الشيوعية خدعة وفكرة صهيونية يهودية إن حقيقة الأمر أنه لاتعارض بين الشيوعية والفكرة اليهودية .

رابعا : أن المخططات اليهودية لايستبعد عنها إشعال مثل هذه الحرب وتوجيهها لصالحها سواء كان إقتصاديا أم سياسيا . خاصة إذا ماوضعنا فى الحسبان أن اليهود يتحكمون فى الدول الغربية ، ويسيطرون على مجريات الأحداث فى الدول الشرقية . وقد برز ذلك للعيان فى دعمهم للسياسة الجديدة التى فجرها غورباتشوف بكل جرأة .

ومن هنا ومن أحداث سياسية كثيرة ، كما هو الحال فى مجلس الأمن والتصويت على القرارات ، وغير ذلك مما يدل على أن المصلحة واحدة ، والهدف يسير إلى طريق واحد .

ولكون المسلمين بدأوا بالرجوع إلى دينهم - كان لابد من اتحاد العدو - (عداء مزعوما) - ضد المسلمين .

(١٣٣٨)

لمحة تاريخية عن [الحرب]

إن الصراع بين أمم الأرض لايمكن أن ينكر ، ومن سنة الله تعالى أن الصراع بين الحق والباطل ، بين أولياء الله تعالى وأولياء الشيطان قائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، والغلبة للحق {**وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا**}(١).

وحين أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض جعل ذلك الصراع بين الشيطان والإنسان ليميز الله الخبيث من الطيب ، وأرسل تعالى الرسل عليهم السلام ، وأنزل معهم الكتب كى لايكون للناس حجة على الله تعالى بعد إرسالهم وأمر الناس أن يتبعوا الأنبياء عليهم السلام ويكونوا فى حزبهم لأن حزب الله هو الغالب . قال تعالى : {**أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون**}(٢) فما أرسل نبى عليه السلام إلا وكان له أعداء ، وأن فى قصص هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ، وعداء أهل الباطل لهم ، لعبرة ومعرفة بهذه الحقيقة وسيظل هذا العداء إلى قيام الساعة إذ أنها سنة الله تعالى فى خلقه {**ولن تجد لسنة الله تحويلا**}(٣).

ولكن نظرا لكون النفس البشرية محبة للسيطرة والاستحواذ والانتقام ولوجود الحسد فيها نجد أن هذا الصراع قد وقع أيضا بين أهل الباطل بعضهم بعضا ويكمن ذلك فى أن الإنسان اتخذ له مناهج ليشبع غرائزه وشهواته ولو تعارض ذلك مع مصالح وشهوات الآخرين فكان لابد من الصدام . يقول د. أحمد نوفل :

---

(١) سورة الإسراء : آية (٨١) .
(٢) سورة المجادلة : آية (٢٢) .
(٣) سورة فاطر : آية (٤٣) .

"وقد شاء الله تبارك وتعالى أن تكون المعركة بين الحق والباطل ، بين جند الرحمن وجند الشيطان ، وأتباع النبيين وأتباع المفسدين ، وأمر الله من آمن به وبأنبيائه وكلماته أن يتحشدوا تحت لواء الحق وأن يصاولوا الباطل حتى يزهقوه ، واضطرمت المعركة منذ قيل اسجدوا لأدم وقال عدوه وعدو ذريته لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، حتى وقتنا هذا وستبقى مضطرمة حتى يوم الدين .

ولكن الصراع الإنسانى لم ينحصر فى هذه الدائرة التى فرض الله على الإنسان أن ينحصر فيها ، بل توسع ليكون الصراع عبر التاريخ ، فى غالبه ، صراعا بين باطل وباطل . ذلك أن الإنسان اصطنع لنفسه مناهج من وضعه واصطدم أتباع المناهج واستعرت بينهم الحروب . وكذلك فإن البشر تجمعوا أعراقا وقوميات متنابذة بدل أن تتعارف كما شاء لها الله فوقع بينها التنافس والاحتراب وحل محل التعاون والتحاب ...)[١].

وعاشت المجتمعات الإنسانية فى ذلك الصراع الذى يحتدم أحيانا ويخف أخرى ، وقد اتخذت الحروب أشكالا عدة وأساليب متنوعة زاد تطورها مع مرور الزمن ، وزادت الآلة الحربية تطورا مع تقدم العلوم والتكنولوجيا ، كذلك دخلت الحرب بعض الأمكنة التى لم تكن فى السابق كذلك .

يقول محمد أسد الله صفا :

(كانت المحاربة ولاتزال حتى يومنا هذا تتبع نفس القواعد والمبادىء التى عرفها الإنسان منذ أقدم العصور ، لكن هذه المحاربة ، حتى نهاية الربع الأول من القرن الميلادى العشرين ، كانت تجرى فقط على مساحتين هما اليابسة والماء ، وكان ميدان المعركة لايزيد حجما عن حجم ميدان كبير لسباق الخيل .

---

(١) الحرب النفسية (٦،٥) ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، نشر دار الفرقان للنشر والتوزيع ، من المقدمة .

أمـا اليـوم ، فقد صارت المحـاربة تجرى على خمـس مسـاحات هـى : اليـــابسة ، والماء ، وتحت الماء ، ومتن الهـواء ، والأجواء العليـا ، وصـار ميدان المعارك يضم مجمل المساحة الوطنية ، بل ويتعـدى ذلك أحيانا ليشمل قارات بكاملها)[١].

وهكـذا مر المجتمع الإنسـانى بصراعات عديدة استخـدمت فيهـا أسلحة متنـوعة مابين بدائية إلى أن وصـل الأمر إلى الأسلحة الكيمـاوية ، والقنابل الـذرية ، والرؤوس النووية . وتظـل فى هذا الوقت كمـا فى سالف الأزمان أهداف الحرب واحدة[٢].

ولكـون الإنسان يخاف الإنسـان فـ(هذا الخوف هـو الذى أطلق وحرك أجهـزة الاستعـداد للدفاع ، ثم صنـاعة الأسلحـة وانشـاء الجيـوش ... وليس الجنـود هم الذين يسعون إلى الحرب ويحافظـون عليهـا ، ولكـن العكس هو الصحيـح ، إذ أن الخوف من الآخرين هـو الذى يخلق الحاجة إلى الأسلحـة والجنود)[٣].

ونظـرا لاشتـداد الصـراع واحتـدامه (طمـح الإنسان إلى الـوسيلة التى يستطيـع بها أن يحقق الغايات مـن عدوه بشكل مستمر وحاسـم وبأدنى ثمن .

---

(١) الحرب ، الطبعـة الثانية ، مقدمـة الطبعة الأولى (٥) ، دار الـرؤية العلمية للطباعة والنشر .

(٢) انظر عن تلك الأهداف المرجع السابق (١٠١-١٠٢) .

(٣) نقلا مـن كتاب الحرب العالمية الثالثة (الخوف الكبير) (١٢٥) ، ولأجل هـذا اعتبر البعـض (أن الحرب ظـاهرة لاتستطيـع الإنسـانية أن تتخلـص منهـا أبدا ... ويرى هؤلاء أن محاولات إقامة سلام دائم هى أضغاث أحلام ويوجزون رأيهم فى جملة واحدة : "لقـد كـانت هناك حروب دائما ، وستكـون هناك حروب دائما" . و"يرى "سـان اوغستان" أن الحرب قدر إلهـى ، حالها فى ذلك حال الكـوارث الإنسـانية المرتبطة بإرادة الله . ولذا فمن الواجب قبولها ، لأنه مـن المستحيل الوقوف ضد إرادة الله) . نفس المرجع (٦٣) ، ويقول الجنرال فيكتـور فرنر : "إن الحرب هى ظاهرة إجتماعية لايملك الإنسـان فى يده أمـر اطلاقها أو ايقـافها حسـب خيـاره" . (٦٠) .

لأنه كثيرا ماكان العدو يقع فى معركة ثم لاتلبث أن تطول أظفاره بعد تقليمها لتستعر الحرب من جديد ، فتوجهت جهود الإنسان ودراساته إلى العمق ، إلى منبع الصراع ودافعه وباعثه ، والإرادة التى تحركه وتديم أمده وتبعث الهمم من مرقدها فكان ماأطلق عليه الإنسان الحرب النفسية)[١].

وكان هذا المصطلح أو هذا النوع من الحرب معروفا منذ القدم ، ولكنه اتخذ فى العصر الحديث عمقا وانتشارا أكبر من ذى قبل ، وكانت أحد الحروب المؤثرة على العدو بل والمرهقة له ، والمكلفة له ، وإن كانت اتخذت هذه الحرب مسميات عديدة عرفت الحقبة الأخيرة منها وأصبح منتشرا فيها مصطلح الحرب الباردة .

---

(١) الحرب النفسية (٦/١) .

(١٣٤٢)

الحرب الباردة ومفهومها

قلنا إن الإنسان عرف هذا النوع من الحرب تحت مسمى الحرب النفسية ، وبقيت هذه الحرب حتى الآن ، وتظل منطلقات الحرب النفسية واحدة وأهدافها كذلك ، وإن كانت تختلف الأساليب والوسائل الحديثة عنها فى الأزمان الغابرة .

ومن هنا يمكن القول أن التاريخ الإنسانى لم يخل فى صراعه وحروبه من استخدام هذه الحرب أو بعض من جوانبها نظرا لفاعليتها ومقدار ماتحققه لصاحبها من نتائج بأقل تكلفة وإن كان تطورها وتعدد أساليبها فى الوقت الحاضر وخاصة من بعد الحرب العالمية الثانية قد يؤدى إلى استنزاف الطاقات وإهدار القدرات والموارد فى سبيلها(١).

بعض النماذج لهذه الحرب :

لقد كانت هذه الحرب معروفة فى المجتمع الإسلامى ، وقد جاءت لفتات فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تدلان على أهميتها وتأثيرها فى العدو . وذلك يتضح عندما يأتى الأمر بإعداد العدة والقوة من أجل إرهاب العدو ، وكذلك الرعب الذى أوتيه صلى الله عليه وسلم على الأعداء ، يقول تعالى : {**وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم**}(٢).

ومن الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : (بعثت بجوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، فبينما أنا نائم أوتيت مفاتيح خزائن الأرض فوضعت فى

---

(١) انظر الحرب النفسية (١/١١١-١١٢) .

(٣) سورة الأنفال : آية (٦٠) .

يدى . قال أبو هريرة : وقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم تنتثلونها)[١].

كما كان صلى الله عليه وسلم إذا أراد الغزو ورى حتى لايعلم أين يتجه ، وأجاز عليه السلام الكذب فى مواضع ومنها الكذب فى الحرب لتضليل العدو وإيهامه ، وكل ذلك يدخل فى مجالات الحرب النفسية ، فالخداع ، والكذب ، جائز لتضليل العدو شريطة أن لايكون فى ذلك نقض عهد ، أو إخلال بأمان أعطيه العدو[٢].

كذلك استخدم الأعداء أساليب الحرب النفسية ضد المسلمين فى الصدر الأول ، ومن ذلك الاشاعات الكاذبة ، والدعاوى الباطلة ، من أجل إحداث الفرقة فى الصفوف ، كما استغل الأعداء بعض الأحداث التى وجدت فى العصر الأول ونفذوا من خلالها إلى إيقاع الفرقة والخصومة بين المسلمين . وهكذا يظهر لنا أن وسائل هذه الحرب وأساليبها كانت موجودة ومعروفة لدى المسلمين الأوائل .

كذلك كانت الحرب النفسية معروفة لدى بعض الشخصيات الحاكمة ، والدول المالكة ، فعرفها المغول حيث استخدموا الجاسوسية ، والإشاعة فى تضخيم عدد جنودهم ، وبأسهم فى القتال ، وكانوا يلقون على جواسيس الأعداء الشائعات التى ينشرونها فى صفوف قومهم من أجل توهينهم وادخال الرعب فى قلوبهم[٣].

---

(١) البخارى بفتح البارى (١٢٨/٦) ، كتاب الجهاد ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر ... رقم الحديث (٢٩٧٧) .
تنتثلونها : أى تستخرجونها .

(٢) انظر مجلة كلية الملك خالد العسكرية ، العدد (١٨/١٢) ، السنة الثالثة ، النصف من جمادى الأولى ١٤٠٦هـ ، وانظر العدد (٥٥/١١) النصف من صفر ١٤٠٦هـ (موضوع بعنوان إدارة عمليات الحرب النفسية) بقلم أحمد محمود سراج الدين .

(٣) انظر : الحرب النفسية (١/١١٣-١١٥) ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد (٥٥/١١) .

ومما يدل على استخدام هذه الحرب والاهتمام بها لدى التتار ماجاء فى الرسالة التى بعث بها هولاكو للسلطان قطز[١]حيث جاء فيها :

(من ملك الملوك شرقا وغربا القائد الأعظم ، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء ، يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم، يتنعمون بأنعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وماحولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء ، فتندموا ويعود عليكم الخطأ ، فنحن مانرحم من بكى ، ولانرق لمن شكر ، وقد سمعتم أننا قد فتحناالبلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم الهرب ، وعلينا الطلب ، فأى أرض تؤويكم ، وأى بلاد تحميكم؟ فمالكم من سيوفنا خلاص ولامن مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق قلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فالحصون عندنا لاتمنع ، والعساكر لقتالنا لاتنفع ، ودعاؤكم علينا لايسمع، فإنكم أكلتم الحرام ، وخنتم العهود والإيمان وفشا فيكم العقوق والعصيان ، فأبشروا بالمذلة والهوان ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم ، فإن أنتم لشرطنا وأمرنا أطعتم فلكم مالنا وعليكم ماعلينا ، وإن خالفتم هلكتم ، فلاتهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد أعذر من أنذر ، وقد ثبت عندكم أنا نحن

---

(١) هو (الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزى ، كان فارسا شجاعا ، سائسا ، دينا محببا إلى الرعية . هزم التتار ، وطهر الشام منهم يوم عين جالوت ... قتل فى سادس عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وست مئة ولم يكمل سنة فى السلطنة رحمه الله) .
سير أعلام النبلاء (٢٣/٢٠٠-٢٠١) .

الكفـرة ، وقد ثبت عندنا أنكـم الفجرة ، وقد سلطنا عليكـم مـن له الأمور المقـدرة والأحكام المدبرة ، فكثيركـم عندنا قليل ، وعـزيزكم عنـدنا ذليل ، فلاتطيلـوا الخطاب ، وأسرعـوا برد الجواب ، قبل أن تضـرم الحرب نارهـا ، وترمـى نحوكـم شرارها ، فلاتجدون منـا جاها ولاعزا ، ولاكـافيا ولاحرزا ، وتدهـون منا بأعظم داهية ، وتصبـح بلادكم منا خاليـة ، فقـد أنصفناكم إذ راسلنـاكم ، وأيقظناكم إذ حذرناكـم ، فما بقى لنا مقصـد سـواكم والسلام علينـا وعليكم ، وعلى من أطـاع الهدى ، وخشى عـواقب الـردى ، وأطاع الملك الأعلى)[١].

وهكـذا كان حال بقية الدول ، والسلطات التى فيهـا حيث استخدموا هذه الحرب ضد أعدائهم سواء كان بالتجسس ، أو الاشـاعة ، أو الإرهاب ، والتفريق[٢].

---

(١) السلـوك لمعرفة دول الملوك (٤٢٨/١-٤٢٩) ، أحمـد بن على المقـريزى ، صححـه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة ، الطبعة الثانية ١٩٥٧م ، مطبعـة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) انظـر عن تجربة الصين ، والانجليز ، كتـاب الحرب النفسيـة (١٢٠-١٢٢) بمراجعـه .

(١٣٤٦)

أهمية الحرب النفسية وخطرها

إن هـذه الحرب تمثل خطراكبيرا ضد من تستخدم تجاهـه ، ولقد عانت منهـا الأمم كثيرا ، ولو تتبعنـا حال أمتنا الإسلامية لـوجدنا أنها عانت منها كثيرا فـولدت الخواء العقدى ، والانهزام المعنوى الذى تبعـه الانهزام المادى رغم وجود موارده . ووصل الحال إلى أنه وجد من أبنـاء المسلمين من علق تأخر المسلمين وضعفهـم بتمسكهـم بأحكام ربهم وسنة نبيهـم صلى الله عليه وآلـه وسلم . وبينما كان المسلم يقـدم روحه رخيصة فى سبيـل الله تعالى إذا بأبناء الأمة يتنصلون عن دينهم بتأثير من أعدائهم .

وهكـذا غـدت الآراء والأفكـار والشبهات التى يبثهـا أعـداء دين الله تعـالى أشـد فتكـا بالأمـة مـن الحروب العسكـرية ، وخلفـت آثارا سيئـة فى صفوفها ، وفى أفكار أبنائها .

إن هـذه الحرب مـن أخطر أنواع الحروب وأشـدها فتكـا لأنهـا تقتـل العزيمة والتضحية فى النفس ، وتغرس الضعف والذل فيها نتيجة لارتباطها بما يعتبره الإنسان أو الجيش مصدر قوته ومحور انطلاقته لملاقاة العدو .

(لقـــد أدت الحرب النفسيـــة ومـــازالت دورا بارزا وخطيرا فى إحراز النصـــر كمـا أدرك رجال العسكـرية ... خطـورة هـذا السلاح فــوضعوه فى الصـدارة بين أسلحة الحروب ، لأن إخضـاع الدول بالحرب النفسيـة أرخص بكثير من إخضاعها بقوة السلاح .

فـالجندى مهما حصل على أفضـل السلاح وأرقى مستـويات التدريب ، فلـن يستغنى فى أى لحظـة عـن الـروح المعنـوية العاليـة والاستعـداد القتـالى الكـامل لمواجهـة أشـد الظـروف وأقسـى المواقف ، لأن الجنـدى دون أمـل ومعنوية كالسلاح دون ذخيرة)[١]. فما هى الحرب النفسية؟

---

(١) مجلة كلية الملك خالد العسكرية (١٢/١١٨) .
وعـن أهمية هذه الحرب وخطرها انظر الحرب النفسية (١/٢٩) ، مجلـة كلية الملك خالد العسكرية ، العدد (١١/٥٥) ١٤٠٦هـ ، العدد (١٢/١٨) ١٤٠٦هـ .

(١٣٤٧)

تعريف الحرب النفسية

اختلفت الآراء فى تحديد مفهوم ومعنى الحرب النفسية ، ولعل لذلك أسبابه ودواعيه .

إذ أن هذا المصطلح عرف فى فترات تاريخية متباينة ومتباعدة ، واختلفت الأساليب والوسائل التى استخدمت فيها من عصر إلى آخر ، ثم إن الحرب النفسية ليست إلا جزءا من الحروب العديدة السياسية والإقتصادية.

زد على هذا أن الملاقاة العسكرية ليست إلا لخدمة الأهداف والأغراض النفسية . ومن هنا كان لابدمن التنوع والخلاف فى تعريف الحرب النفسية .

يقول صلاح نصر : (إن اصطلاح الحرب النفسية يحتاج إلى مدلول محدد ، وقد ظهر أنه ليس ثمة اتفاق عام على تحديد دلالة أى اصطلاح يغطى أوجه النشاط فى هذا الموضوع المتشعب ...)(١).

ومن التعاريف الواردة فيها :

(الحرب النفسية هى الاستخدام المخطط للدعاية والأعمال الأخرى التى يكون غرضها الرئيس التأثير على الآراء والمشاعر والاتجاهات والسلوك لمجموعات معادية أو محايدة أو صديقة ، بطريقة تساعد انجاز الأهداف والأغراض القومية)(٢).

ويعرفها الدكتور هارسى بأنها :

(ذلك العمل الموجه إلى العدو ، وإلى معنوياته وتماسكه ، وعزيمته والقادر على الدخول إلى المجالات كافة ، فى خدمة أيديولوجية معينة أو ضمن اطار استراتيجية دفاعية أو ضمن صدام أو أزمة معينة ، أو فى خلال

---

(١) الحرب الثورية الشيوعية (٢٤) ، الطبعة الثانية ١٩٨٥م ، الوطن العربى ، وانظر الحرب النفسية (٣٢) ومابعدها) .

(٢) الحرب الثورية الشيوعية (٢٤) .

الحرب الباردة)[١].

ويعرفها الدكتور السبت بقوله :

(الحرب النفسية هى حرب تغيير السلوك ، ميدانها الشخصية، وهدفها عقل الإنسان لاجسده ، وهى سلاح فعال وشديد التأثير فى الحرب والسلم ، وفى تحقيق الانتصار بسرعة وبأقل الخسائر فى الأرواح والمعدات والتجهيزات وهى حرب باردة ، حرب أعصاب ، وحرب أفكار تهدف للحصول على عقول الرجال وإذلال إرادتهم ، وهى حرب أيديولوجية عقائدية ، وهى حرب كلمات وإشاعات ، وحرب تزلزل العقل وتغير السلوك)[٢].

وبعد عرض هذه التعريفات نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن الدعاية والإشاعة من الأصول فى هذه الحرب .

ثانيا : أن هذه الحرب تتجه إلى الأفكار والمعنويات فى بداية أمرها ، ثم مايلحق ذلك من خسائر عسكرية أو إقتصادية أو سياسية .

ثالثا : أن القصد من هذه الحرب انهاك العدو وجعله يعيش فى دوامة الخوف والرعب من خصمه .

بعض المصطلحات التى عرفت بها الحرب النفسية :

لقد وجدت عدة مصطلحات عرفت بها هذه الحرب ومن أهم هذه المصطلحات الشائعة :

((١) الحرب الباردة .

(٢) حرب الآراء .

(٣) الصراع فى سبيل عقول الرجال وإرادتهم .

(٤) الحرب فى سبيل عقول الرجال .

---

(١) نقلا من كتاب الحرب النفسية بيننا وبين العدو الاسرائيلى (٣-١٢) .

(٢) مجلة كلية الملك خالد العسكرية ، العدد (١٧/١٢) ١٤٠٦هـ .

ولمزيد من التعريفات انظر مانقله د. أحمد نوفل فى كتابه الحرب النفسية (٣٤-٣٥) .

(٥) حرب الأفكار .
(٦) الحرب العقائدية .
(٧) حرب الأعصاب .
(٨) الحرب السياسية .
(٩) المعلومات الدولية .
(١٠) المعلومات فيما وراء البحار .
(١١) حملة الصدق .
(١٢) الدعاية .
(١٣) الدعاية الدولية .
(١٤) حرب الدعاية .
(١٥) حرب الكلمات .
(١٦) العدوان غير المباشر .
(١٧) الإثارة .
(١٨) الاتصال الدولى)[١].
(٢٠) الحرب الصامتة ، وأكثر ماينصب ذلك إلى الجاسوسية .

لمحة عن مصطلح الحرب الثورية :

إن الشيوعية ثورة على الأنظمة الأخرى الرجعية من رأسمالية وغيرها ومن هنا فهى تعتبر أنه لابد من الثورة لكى تحقق أيديولوجيتها فى السيطرة على العالم ونشر الفكر الإشتراكى فى أرجاء المعمورة .

يقول صلاح نصر عن مصطلح الحرب الثورية :

إنه (أول مصطلح استخدم ليغطى تلك الأنشطة التى تقوم بها الشيوعية الدولية فى نطاق أيديولوجيتها لغزو العالم ...

---

(١) الحرب الثورية الشيوعية (٢٦) .

إن الحرب الثورية مرادفة لأسماء كثيرة ، مثل : الحرب النفسية عند الأمريكيين ، والحرب السياسية عند البريطانيين ، وغير ذلك من التسميات...)[١].

ويقول لينبارجر : (وبلاجدال ، فالحرب الثورية الشيوعية أداة للتوسع والتغلغل الماركسى ...)[٢].

ويعرفها صلاح نصر بقوله :

(إن الحرب الثورية هى تلك الأنشطة التى يمارسها الشيوعيون بهدف الاستيلاء على السلطة فى دولة معينة وتدعيم حكمهم فيها ، وتشمل تلك الجهود التى تهدف إلى نخر معنويات العدو وتقويض عقائده ، وتدمير كيانه . وذلك باستخدام المناورات السياسية والضغط الاقتصادى والمعلومات المضللة والإثارة والإرهاب ، والتخريب ...الخ ، على أن يتم ذلك فى إطار الأيديولوجية شاملة ، وأساليب ثورية محددة)[٣].

---

(١) الحرب الثورية الشيوعية (٩) .
(٢) نقلا من المرجع السابق (١٠) .
(٣) المرجع السابق (٣٢-٣٣) .

أهداف الحرب النفسية ووسائلها

إن للحرب النفسية أهدافا ترغب الأطراف المستخدمة لها تحقيقها والوصول إليها ويمكننا جعلها فى النقاط التالية :

أولا : فرض الإرادة على العدو ، والسيطرة عليه وإلحاق الهزيمة به .

ثانيا : ارهاق العدو فى مجالات شتى وخاصة منها الإقتصادية ، وذلك للرعب الذى جعله يظن عدوه على غير حقيقته .

ثالثا : ترويج الإشاعات فى صفوف العدو واظهارها كما لو كانت حقائق ، وبالمقابل تقوم ببث مامن شأنه رفع الروح المعنوية فى نفوس الشعب . أى العمل على الجبهتين الداخلية والخارجية .

رابعا : التأثير المباشر فى الأفكار والآراء والعقائد التى يعتنقها العدو ، وخاصة إذا كان العدو ممن يعتقد هذه الأفكار ويدافع عنها .

خامسا : إحداث الفرقة فى وحدة الأمة ، وإثارة الخلافات والنعارات التى تزيد من الفرقة وتؤدى إلى عدم توحيد الكلمة .

سادسا : التشكيك فى القيادات ، وإثارة الشعوب ضدها لتحدث الفوضى والخلافات .

أما وسائلها فهى كثيرة ومنها :

(١) الدعاية .

(٢) الإشاعة .

(٣) الخداع .

(٤) إثارة الرعب والقلق .

(٥) التظاهر بالقوة التى لاتقهر .

(٦) افتعال الأزمات .

(٧) التهديد والوعيد .

(٨) الإغراء والوعد .

(٩) الاستفادة من الخلافات والتناقضات .

(١٠) المفاجأة .
(١١) ايجاد العملاء والأنصار .
(١٢) الضغط الإقتصادى .
(١٣) الاغتيالات للزعماء .
(١٤) التجسس .
وغيرها[١].

---

(١) انظر : الحرب النفسية (١/٨٠-٨١) بمراجعه ، الحرب (٦٣-٦٤) ، ويعتبر أن الدعاية هى الشكل الأساسى فى هذه الحرب ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية (١٢/١٨-٢٠) .
وعن الدعاية ، والإشاعة خاصة انظر مجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد (٣٠/٨٦-٨٧) ، والعدد (٣٨/٨٤-٨٥) السنة العاشرة ١٤١٣هـ .
وعن مقاومة الحرب النفسية انظر مجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد (١٢/٢٠-٢١) بمراجعه .

(١٣٥٣)

مصطلح الحرب الباردة

يطلق على الحرب النفسية (الحرب الباردة) وقد شاع هذا المصطلح بعد نهاية الحرب العالمية الثانية . ويتكون هذا المصطلح من جانبين :

أولهما : الحرب .

ويمكن تعريف الحرب بأنها (قتالا مسلحا بين الدول ، بهدف تغليب وجهة نظر سياسية ، وفقا لوسائل نظمها القانون الدولى)[١].

وضد الحرب السلم ، وقد عاشت الشعوب والكيانات الإجتماعية المختلفة على هذين المفهومين ، ولايعنى ذلك أنه إذا وجد أحدهما انتفى الآخر بالكلية بل يكون أحيانا بين حرب وسلم .

ويمكن اعتبار الحرب وسيلة لخدمة هدف سياسى ، كأن يريد الخصم فرض مالديه على عدوه أو خصومه بالعنف .

ثانيهما : الباردة .

والمقصود بذلك خلوها من اللقاء المباشر وإرهاق العدو دون الصراع معه مباشرة .

وكانت بداية استخدام المصطلح بعد نهاية الحرب العالمية الثانية[٢].

وقد كثرت التعاريف لهذا النوع من الحرب ومن ذلك :

أنها (تلك السلسلة المستمرة من الأزمات التى كان بإمكان أى منها أن تصعد من المواجهة العسكرية وتؤدى إلى خطر إفناء حضارتنا - ظلت قائمة بين الشرق والغرب لفترة تزيد على الأربعين عاما)[٣].

---

(١) نقلا من كتاب الثنائية الدولية (١٧٧) ، د. دعد بوملهب عطا الله ، ١٩٩١م ، مكتبة لبنان ، بيروت ، لبنان ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٢) انظر عن بداية استخدامه الثنائية الدولية (١٨٣-١٨٤) .

(٣) مابعد الحرب الباردة (١٣) ، روبرت مكنمارا ، ترجمة محمد حسين يونس ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .

ويعرفها د. صفا بقوله :

(الحرب البـاردة صـراع بين خصمين ، فى مختلـف المجـالات ، عـدا المجابهة العلنية بين الجيوش)(١).

ويعرفها د. أحمد نوفل فيقول :

(إن الحرب البـاردة هـى سيـاسة القيـام بايقاع الشقـاق فى العـالم بكل الـوسائل غير المستخدمة فى الحرب الفعلية مع عدم تورط الـدول الكبرى فى صراع مع بعضها البعض)(٢).

وبنـاء على هـذه التعريفـات يمكن أن نقول بأن الحرب البـاردة هـى :

ادخال الـرعب فى صفوف العـدو ، وارهاقه واهدار مـوارده حتى يرى أنه غير قادر على مجاراة عدوه فيقع فى الهزيمة دون ملاقاة مباشرة .

وبدون شـك إن لـوسائل الإعلام الـدور البارز فى هـذه الحرب ، مـن حيـث الـدعاية لها وتأجيج أوارهـا وإظهار الأمور على غير وجههـا بما يخدم المصلحة ويحقق الهدف ، ولأجل ذلك سميت (حرب الدعاية) .

ونختم حديثنـا عـن مصطلـح الحرب البـاردة بما جاء عـن د.دعـد حيـث قالت:

(ماذا يعنى مصطلح الحرب الباردة فى العلاقات الـدولية المعاصرة؟ ليس هنـاك تحديد واحد مسلم به ، إنما مـن شبـه المتفق عليـه ، أن أصـل المفهوم المعـاصر للمصطلـح يعود إلى ظـروف نهـاية الحرب العالميـة الثـانية والتشنج الـدولى الذى ميزها ، والتصـرفات التى واكبتها وتلتها ، والمواقـف المعلنة ، والنوايا الظاهرة والمزعومة . يمكن القول إن المصطلح يعنى ، فى هذه الحال ، التنافس والصراع بين النظامين الدوليين ، الإشتراكى والرأسمالى ، وبالأخص بين الـدولتين اللتين أصبحتا ، مع نهاية الحرب ، القوتين العظميين فى العـالم على الإطلاق . إن هذين التنافس والصراع يعودان إلى تنافر المصالح والأهـداف بشـأن النفـوذ فى العـالم انطلاقـا مـن نزعة كونيـة لـدى كـل من

(١) الحرب (٦٢-٦٣) .

(٢) الحرب النفسية (١٤٤/١) .

الدولتين والنظامين ، لكن هذين التنافس والصراع وبالرغم من حدة التأزم الدولى الذى أفضيا إليه ، لم يؤديا إلى حال الاقتتال المباشر مابين الدولتين . لكن وإذا لم تحصل الحرب فعلا بين الدولتين ، فإنهما ، بعد سقوط تحالفهما ضد ألمانيا ، أصبحتا خصمين يتنازعان فى كل نقطة من العالم بدأ من أوروبا.

إن مفهوم الحرب الباردة يغطى حالة لايمكن تحديدها قانونيا كحالة حرب بين عدوين ، بالرغم من كون العداء والتأزم والخوف على المصير أمورا سيطرت على مواقف وتصرفات الدولتين . ولايمكن تشبيه هذا الواقع بالحربين العالميتين ، بالرغم من كون العداء والتأزم والخوف أمورا عمت معظم أنحاء العالم ، حيث تجسدت بأشكال مختلفة بما فيها الحرب الحقيقية ، وإن بحدود ضيقة جغرافيا وعسكريا بالنظر إلى شمولية الوضع المتأزم . وأتى فى الواقع مجال هذه الحرب الجغرافى متفقا بمعظمه مع مجال الحرب العالمية الثانية بما فيه مركزه المحورى الأوروبى . ويجب الأخذ بعين الاعتبار عدم وجود تحديد قانونى للمفهوم ، أو الفترة ، أو الحالة اللتين يغطيهما ، كما هى الحال بالنسبة لأية حرب . ويمكن أن يتوضح ويتحدد المفهوم أكثر بالعودة إلى عرض أهم مقوماته . وبالمناسبة يمكن جمع هذه المقومات فى ثلاثة : الانقسام والاقتسام ، العداء المعلن ، والتأزم العام)(١).

بداية الحرب الباردة ونهايتها :

لاشك أن تحديد بداية زمنية دقيقة للحرب الباردة يشكل أمرا عسيرا للكتاب والباحثين، ولاغرابة فى وجود هذا الإشكال ، وذلك لأن مصطلح الحرب الباردة ، قد اختلف مفهومه مابين الأزمنة ، وإن كانت أساليبها موغلة فى القدم . زد على هذا أن الحرب الباردة لاتنفرد بوقت معين بل توجد ويوجد معها السلم وخاصة فى القرن العشرين ، فمرة تكون على أوجها وسرعان ماتنفرج فى وقت آخر ثم تعود للزيادة فى وقت ثالث ،

---

(١) الثنائية الدولية (١٨٤) .

وهكذا دواليك . ومن هنا فالتحديد الدقيق لبداية الحرب الباردة يكاد يكون متعذرا إلا أن هناك فترة زمنية تكاد تكون هى الأقرب للصواب من حيث تحديد الوقت للحرب الباردة فى عصرنا هذا . وتكاد الكتابات تعتبر الأربعينات هى بداية الحرب هذه بين الجبارين وبالتحديد عام ١٩٤٧م .

وإذا كانت الحرب الساخنة تحدد زمنيا باندلاع شرارة المواجهة فإنه لايمكن تحديد البداية الدقيقة لهذه الحرب .

يقول د. نوفل :

(على الرغم من أن الحرب هى الحرب ، باردة كانت أم ساخنة باعتبارها استمرارا للسياسة بوسائل أكثر عنفا وتدميرا ، ولكن هناك فرقا ظاهرا بين الحرب الساخنة والحرب الباردة يظهر فى التحديد التاريخى لكل منهما ، هذا يعنى أن تحديد الحرب الساخنة تاريخيا يبدأ من يوم اندلاع شرارة المواجهة العسكرية وينتهى يوم توقفها ، أما فى الحرب الباردة فليس هناك يوم معين تبدأ وتنتهى فيه"(١).

وتتحدث الدكتورة دعد بشأن بداية الحرب الباردة ونهايتها فتقول :

(إن التحديد الزمنى للحقبة التى غطاها ، أو يغطيها مفهوم الحرب الباردة مايزال يشكل مشكلة بالنسبة للباحثين فى هذا الشأن . وهم ينقسمون فى هذا إلى أكثر من موقف وبرهان ، وبالتالى توجد أكثر من امكانية تحديد زمنى . أما السبب الرئيس فى هذا الاختلاف فهو يعود ، بخاصة ، إلى طبيعة الظاهرة نفسها ، ومضمون المفهوم وحدوده .

ليس للحرب الباردة تحديد قانونى يجزم بشأن بدايتها ونهايتها . فهنالك اختلاف حول تحديد بداية الحرب الباردة ، لكن الاختلاف الأهم يتعلق بتاريخ نهايتها فى حال اعتبار أنها انتهت)(٢).

---

(١) من الدبلوماسية إلى الاستراتيجية (٤٩-٥١) ، نقلا من كتاب الحرب النفسية (٤٢/١-٤٣) .

(٢) الثنائية الدولية (١٨٦) .

ولعل أبرز ماقيل فى بدايات الحرب الباردة :

* أنها كانت منذ بدأت الثورة البلشفية سنة ١٩١٧م .

* والقول الآخر أنها بعد نهايات الحرب العالمية الثانية وخاصة بعد اختلاف الحلفاء من بعد انتصارهم على ألمانيا ، حيث دخل الشقاق بينهم والخلاف على كثير من القضايا الدولية آنذاك .

ولعل هذا الرأى هو الأقرب والأصوب نظرا لما يدعمه من براهين وأحداث واقعية تسنده كما سيظهر لنا من استعراض لبعض الأحداث التى وجدت فى تلك الفترة عنيت مابعد الحرب العالمية الثانية .

تقول د. دعد عن بدايتها : (يمكن اعتبار سنة ١٩٤٧م منطلقا زمنيا للحرب الباردة نظرا للتطوارت والانجازات التى حصلت فيها ، بالإضافة إلى كون هذه السنة هى بمثابة تاريخ تأكد فيه الخصام إلى حد الاقتناع ، من قبل كل من الطرفين ، بأن الطرف الآخر عازم على تدميره إن هو استطاع .

ويمكن اعتبار سنة ١٩٤٨م البداية العملية التنفيذية لمرحلة الحرب الباردة ، لأنه تكرس فيها الخصام من خلال الاقتسام ، وبدأ العمل على رص الصفوف من الجانبين . لكن يجب الانتباه إلى أمر مهم ، وهو أنه ، بدءا من سنة ١٩٤٨م ، بدأ يتأكد أيضا أن الخصمين يريدان السيطرة على العداء بمظاهره وأساليبه وحجمه ، وكأن العالم أصبح أمام خصام منظم ، يراقب كل من الفريقين تطوراته بحزم ودقة بشكل يسمح له بالسيطرة على الأمر من جانبه .

يعتمد تحديد بداية الحرب الباردة بعد الحرب العالمية الثانية على وجود المؤشرات والبراهين التى تسمح بالكلام عن هذه الحالة ، من اللاحرب واللاسلم ، على صعيد القوتين اللتين أصبحتا عظيمين على الساحة الدولية ككل . يترك جانبا ،أو بالأحرى ، يستبعد تاريخ سنة ١٩١٧م لعدم توفر البراهين الحسية الضرورية والكافية لوصف العلاقات الدولية ، وبالأخص الأمريكية السوفيتية ، بهذه الصفة . كما أن أيا من هاتين الدولتين لم تكن

تشكل دولة كبرى على الساحة الدولية ، أو هى لم تكن تتصرف على هذا الأساس ، هذا مع العلم أن فترة مابين الحربين لاتحمل دلائل ملموسة على وجود صراع بين هاتين الدولتين ، أو بين غيرهما ، أو بين الإشتراكية والرأسمالية عالميا بحيث إن الثورة توقفت عند حدود روسيا دون أن تشمل أى شعب أو دولة أخرى . يضاف إلى ذلك كون الدولتين ، الأمريكية والسوفيتية ، لم تكونا مهيأتين تاريخيا وجغرافيا للخصام فيما بينهما ، وأن الأولى أظهرت استعدادها للتعاون مع الأخرى التى كانت ، فى مطلق الأحوال ، منشغلة بمشاكلها الداخلية وبناء الاشتراكية فى الدولة الواحدة..).

وتقول : (وبالنسبة لتأريخ نشوء الحرب الباردة فى سنة ١٩٤٧م ، إن بوادر واضحة تدل على سيطرة جو التشنج والحذر . كما أن الظروف التى ساهمت فى حصول هذا التطور ، من التحالف باتجاه الخصام والحرب الباردة هى ظروف ملموسة من خلال أحداث وخطوات ، لاريب فى كونها شجعت على حصول مثل هذا التطور ...)(١).

وعلى هذا فإن عام ١٩٤٧م يعتبر التحديد الأقرب لبداية الحرب الباردة بين القطبين .

نهاية الحرب الباردة :

وقع الخلاف فى نهايتها كما هو الحال فى بدايتها .

فمن قائل أنها انتهت .

ورأى آخر يرى أن حدتها خفت فقط .

ورأى ثالث يرى أنها مازالت قائمة .

ولاغرابة فى هذا الخلاف نظرا للخلاف فى المفهوم والظاهرة .

تقول د.دعد عن الموقف من نهايتها :

---

(١) الثنائية الدولية (١٨٧-١٨٨) .

(السؤال الأول الذى يفرض نفسه ، بالنسبة لمفهوم الحرب الباردة ، هو هل فقد المفهوم أهميته ، أو هو مازال يحافظ عليها ، أو على بعضها؟ ويمكن أن يطرح السؤال بشكل ملموس أكثر مثل : هل انتهت الحرب الباردة؟ إن المفهوم هو مرادف لوضع أوحالة أوجو ... وبالتالى إنه مرادف لما يجسد هذه الحالة عمليا من أفعال وردود فعل ، لكونه يحوى المضمون الذى تنطلق منه ، وتتقيد به ، وتصب فيه هذه الأفعال والردود . وبالتالى إذا كانت الحرب الباردة مرحلة غطت حقبة زمنية معينة مضت ، يكون المضمون أو المفهوم قد فقد قيمته الواقعية بذلك ، دون أن يفقد ، فى الوقت ذاته ، قيمته الذهنية الفكرية ، ودون أن يزول بالطبع . لكن لايمكن الكلام عن قيمة المفهوم الواقعية إلا من خلال الواقع نفسه ، وبالتالى لايمكن أن يتوقف البحث عند المفهوم بحد ذاته بل يجب أن يتعداه إلى مايقابله عمليا وماديا .

هناك اختلاف ... حول موضوع نهاية الحرب الباردة ، كما بالنسبة للتحديد الزمنى . والتفسيرات والمواقف متعددة ومتباينة ، أهمها ثلاثة : انتهت ، لم تنته ، خفت حدتها (أى "فترت" أو أن "الجليد قيد الذوبان") .

[و]يمكن القول إن نية متبادلة ظهرت فى أوائل الخمسينات للحد من التأزم الحاصل على الساحة الدولية ، وبالأخص بين الاتحاد السوفياتى والولايات المتحدة الأمريكية .

لقد سنحت الظروف كذلك ، فى بداية الخمسينات ، لتتأمن المناسبة الفضلى لتليين المواقف . إن موت ستالين ، فى شهر آذار من سنة ١٩٥٣م ، كان تلك المناسبة حيث أسرع الفريقان ، السوفييتى والغربى (خاصة الأمريكيون) ، إلى اعتبار ستالين مسؤولا عن الجو المشحون بالخوف والحذر والخصام والصراع ، أى الجو المكهرب . لقد تجسدت هذه المواقف بأكثر من شكل ، منها المباشر ومنها غير المباشر ، كما هى الحال فى تعديل اللهجة فى موسكو ، أو فى التعبير عن الأمل فى غد أفضل ، فى كل من واشنطن ولندن بنتيجة موت ستالين . بالفعل توجد أكثر من دلالة على هذه المواقف ، يذكر

منهـا ، على سبيل المثال ، تليين لهجة الصحافة السوفيـاتية بشأن كل مايخص الغـرب فى الشهور الأولى لموت ستـالين : إن دراسة تحليليـة احصائية برهنت عن كون نسبة العبارات المشنعـة بالولايات المتحدة والـرأسمالية خفت بشكل ملحـوظ بعيد موت ستالين . كذلك لوحظت بعض الإجراءات والمواقـف التى اعتمـدها خلفاء ستالين ، وبالأخص فى الغرب . إن بعـض كبار المسؤولين فى الغرب أدلوا بتصريحات بهذا المغزى ، مثل : (إن عهدا انتهـى بموت ستالين) مع الرئيس الأمريكى ، وإن (الأحداث التى جرت بعـد مـوت ستالين يمكنها أن تؤدى إلى محادثات على أعلى المستـويات بين الدول الـرئيسة المعنيـة ...) مع الزعيم البريطانى تشرشل ، أمام مجلس العموم ، بعد أسابيع قليلةمن موت ستالين"[١].

وتقـول : (إن مثـل هـذه المبـادرات والمواقـف والتصـريحات جعلـت الكثيرين يخلصـون إلى القول بأن مفهـوم الحرب الباردة فقـد أهميتـه ، وإن العـالم أصبح جاهزا غداة غيـاب ستالين لأن يتخطى الحرب البـاردة ، لكن ، بالـرغم مـن هذه البوادر المشجعـة ، والتى كانت مؤهلـة لأن تؤثر فى أجواء العلاقـات الدولية ، ظل المفهـوم يحافظ على أهميته ، وكـذلك بقيـت الحرب الباردة سيدة الموقف ، وإن خفت حدتها أو برودتها بحيث أخذ البعض يتكلم عن (فتور) الحرب الباردة ، أو عـن (ذوبان الجليـد) ، خاصـة مـع حصـول مبادرات من قبل الطرفين . وبالرغم من رأى البعض بأن المفهـوم انطوى مع الخمسينـات ، بقى هذا المفهوم يحافظ على قوته مغطيا أزمـات بداية الستينات التى ، بالـرغم من شدتها وخطـورتها ، ساهمت فى إضعـاف المفهوم والبحث عن آخر يستطيع أن يكون أكثر ملاءمـة وتطابقا مع نزعـة إلى حصول المزيد من الانفراج والتعاون بما يخدم مصالح الدول والأنظمة .

ومـن الملاحظ أخيرا أن المفهـوم لم يختـف ، وإن بدا فى وقـت مـن الأوقـات وكـأنه فقد محتواه . فى الـواقع ، إن هذا المفهـوم ، أو على الأقـل

---

(١) الثنائية الدولية (١٨٨-١٨٩) .

المصطلح ربما مع بعض التعديل فى المضمون ، بقى فى الأذهان كحد أدنى ، بحيث أصبح مرادفا للتأزم الدولى وإن أتى بأشكال مختلفة . وربما أمكن الاستناد ، فى الكلام عن بقاء المفهوم مع بعض التعديل ، إلى كون المصطلح عاد مجددا للظهور بقوة فى أواخر السبعينات وبداية الثمانينات ، لكن أحيانا مع التنبيه إلى هذا التعديل أو التحديث فى المفهوم ، بحيث إن البعض أخذ يتكلم عن (حرب باردة حديثة) . أضف إلى كل هذا أن المفهوم والمصطلح احتفظا بقيمة وخاصة بوقع مهم فى النفوس ، حتى أنهما أصبحا ، إلى حد ما بمثابة أداة تهويل وتخويف (لما يحتويانه أو يرمزان إليه من خوف) يلوح بها فى بعض الحالات ، لأهداف مختلفة : منها فرض التهيب والانتظام على الحلفاء الذين رأوا ، أحيانا ، فى المسالمة والسلم فرصا للخروج على زعامة أو على خط معين ؛ ومنها أيضا لطبع مرحلة ، أو خطوة ، أو ظرف ، بالمزيد من الخطورة ، وجعل الغير مستعدا للمزيد من التنازل أو التفهم واللين .

لاالمفهوم زال مع الخمسينات ، ولاقيمته ولت نهائيا ، لكن التحول أو التحوير الحاصل فيه ، كما الأوضاع الدولية ، أمور تسمح بالقول إن المقومات التى قام عليها المفهوم لم تعد ذاتها ، بمعنى أنها لم تحافظ على قوتها . وبالتالى يكون المفهوم الأصيل قد فسح المجال أمام مفهوم متجدد معدل . وربما أمكن القول إن المصطلح هو المستمر دون أن يغطى المفهوم ذاته بقوته الأساسية .

إذن يمكن التوقف عند أواخر الخمسينات وأوائل الستينات بالنسبة للمفهوم الأساسى ، بالنظر إلى صعوبة تحديد درجة التحول الحاصل فى المفهوم ، وهذا لعدم الحصول على مايكفى من إثباتات تؤكد ، أو تدحض ، استمرارية المفهوم نفسه وراء المصطلح الواحد ، وذلك لكون البعد الزمنى مازال غير كاف للقيام بهكذا عمل بشكل موضوعى وجازم ونهائى ، وفى كل الأحوال ، يمكن فى حد أقصى اعتبار المصطلح والمفهوم قد خرجا من الإطار الأساسى والمحدد الذى قاما فى ظله وعبرا عنه ، إلى إطار أعم وأوسع ،

وأصبح بالتالى التعامل معهما ، أشمل وأقل دقة فى الوقت ذاته. هكذا مثلا ، إن العديدين يتكلمون عن الحرب الباردة فى السبعينات والثمانينات ، حتى أن المسؤولين السياسيين لايتورعون عن العودة إلى المصطلح ، على الأقل فى مناسبات مختلفة ، كما هى الحال ، عل سبيل المثال ، مع كلام غورباتشوف الزعيم السوفياتى ، فى آخر سنة ١٩٨٩م عن وصول إلى (نهاية الحرب الباردة)[١].

يقول أحد الباحثين الأوربيين :

(إن الحرب الباردة هى كل شىء ماعدا الحرب . لانستطيع أن نحدد اليوم أوالساعة اللذين بدأت فيهما . ولانعرف إذا كانت قد انتهت . ولاتدرس بالتالى جذورها كما هى حال حربى ١٩١٤م و١٩٣٩م)[٢].

وبعد هذا فإننا نعتقد الآتى بشأن بدايتها ونهايتها .

من حيث البداية فإن فترة ماقبل نهاية الحرب العالمية الثانية قد حدث فيها من الخلاف بين الدول المتحالفة التى خرجت منتصرة وعلى رأسها الاتحاد السوفييتى ، والولايات المتحدة ، وبريطانيا وفرنسا ، حدث بين هذه الدول خلافات عديدة بسببها فقدت الثقة فيما بينها ، وخاصة أمريكا والسوفييت وكانت الخلافات على أوجها فى عام ١٩٤٧م ، ومن هنا اعتبر هذا العام هو البداية الحقيقية للحرب الباردة أو بروزها على السطح بشكل ملحوظ[٣]. حيث أخذ كل فريق يجابه الفريق الآخر فى أكثر من مكان ، ولايعنى هذا عدم وجود الخلاف قبل ذلك .

---

(١) الثنائية الدولية (١٨٩-١٩٠) .

(٢) نقلا من المرجع السابق (١٨٦) .

(٣) على أن استخدام الحرب النفسية كان موجودا فى الحروب السابقة وكانت مستخدمة فى الحرب العالمية الأولى . انظر التاريخ العسكرى (٨٤٠-٨٤١) ، د. طلال عامر المهتار ، دونذكر لرقم الطبعة أو تاريخها أو دار النشر .

وأما النهاية فبدون شك أن سقوط الاتحاد السوفييتى قد جعل مصطلح الحرب الباردة يفقد الشيء الكثير من مضامينه ، وكانت السنوات التالية لهذا السقوط أشد فى إثبات أن هذه الحرب أخذت فى الانحسار الشديد بل وفى اختفائها من الساحة ، خاصة إذا ماوضعنا فى اعتبارنا أن اليهود وراء تلك الأحداث وأن الغرب يدعم التوجه الجديد فى روسيا وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، الطرف السابق فى الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتى .

وبحديثنا عن أسباب الحرب الباردة ومقدماتها فى المبحث التالى يثبت لنا ماذكرناه بشأن بدايتها .

المبحث الأول
أسباب الحرب الباردة ومقدماتها

إن الحرب العالمية الثانية قد كان لها آثارا كبيرة على مستوى دول العالم قاطبة حتى تلك التى لم تشارك فيها مباشرة .

ومن هنا فإن هذا التاريخ الذى تمثله الحرب العالمية الثانية يعتبر مغيرا لأوجه العلاقات بين الدول وكذلك السياسات والتطورات التى شهدها المجتمع الإنسانى بعد ذلك ، بل إن آثار تلك الحرب مازالت حتى الآن بجميع أشكالها ، وتعتبر الأحداث فى بدايات الأربعينات هى المقدمات التى تمخضت عنها الحرب الباردة فيما بعد ، وقد وجد من الأحداث مايدل على ذلك ويدعمه .

وتحديدا (تعتبر سنة ١٩٤٥م المنطلق الفعلى والتنظيمى للعالم فى النصف الثانى من القرن العشرين . فى هذه السنة تقرر حل المشاكل القائمة وتقررت صورة العالم ، وهذا من خلال مباحثات السلم وتصفية مايعود إلى الحرب العالمية الثانية ونتائجها المباشرة ، ومن خلال تحضير عالم المستقبل بوضع أسس التعامل مابين الشعوب والدول عبر منظمة الأمم المتحدة .. إن مجريات ماحصل فى لقاءات سنة ١٩٤٥م تدل على أن ميلا بدأ يتوضح عند المنتصرين فى الحرب إلى أن طريق التفاهم والتحالف لم يعد صالحا لإنجاز الأهداف . فبعض محللى مجريات هذه السنة يؤكد أنه فى صيف سنة ١٩٤٥م ، نظرا إلى القوى المتواجدة على الساحة الدولية ، وإلى الصراعات (الطبيعية) ، وإلى الحاجات السياسية والإقتصادية ، لم يعد على الزعماء الكبار سوى الانطلاق فى حالة عدائية فى علاقاتهم المتبادلة بالرغم من الغلاف السلمى الذى اعتمد لتغطية حقيقة هذه العلاقات .

ففى هذه السنة ، تبين لبعض هؤلاء الزعماء أن التحالف هو غير طبيعى بين القوى المتواجدة ولايمكن أن يستمر . وبالتالى كان لابد من أن يفرض ماهو طبيعى نفسه على العلاقات بين هذه القوى ، وبالتالى أن يحل الصراع مكان التحالف بين الأخصام الطبيعيين . ففى صيف سنة ١٩٤٥م ،

تأكد أمر أساسى وهو أنه أثناء الحرب لم يميز الفرقاء بين مفهومين وهدفين هما : النصر العسكرى المباشر وقواعد السلم . عند نهاية الحرب ، تبين أن السلم ليس النتيجة الطبيعية التلقائية للنصر العسكرى)(١).

ونظرا لهذه النتيجة كان لابد من إبرام الاتفاقات وتوقيع المعاهدات ، ولايغيب عن بالنا أن أمريكا والاتحاد السوفييتى وبريطانيا أثناء الحرب العالمية قد وقفوا جبهة واحدة ضد ألمانيا النازية .

وعقد هؤلاء عددا من الاجتماعات والاتفاقات والمؤتمرات كان من أهمها فى هذه الفترة مؤتمر يالطا . على أن هذه الفترة لم تخل من لقاءات واتفاقات كما ذكرنا ، ومن ذلك :

(أ) الاجتماع (فى طهران ٢٨ نوفمبر ـ أول ديسمبر ١٩٤٣م) لوضع الخطط التى تكفل كسب المعركة . واتفق الأقطاب الثلاثة على إنشاء منظمة عالمية فى القريب العاجل(٢)

(ب) وكذلك اجتماعات موسكو وبوتسدام على مستوى القمة(٣).

وكان مؤتمر موسكو متأثرا جدا منذ البداية بتصريح الرئيس ترومان الذى اقترح المساعدةالعسكرية لليونان وتركيا .. ولم يفلح المؤتمر فى التوصل إلى الحلول التى ترضى الأطراف كلها فى هذا المؤتمر .

وقد طالب مولوتوف بتعويض ١٠ مليارات دولار تقتطع من الإنتاج الألمانى الجارى ، ورفضت بريطانيا والولايات المتحدة ذلك . وطالبت فرنسا بأن تكون ألمانيا لامركزية وكانت روسيا ترغب فى دولة مركزية جدا ،

---

(١) R.Anon, Paix et 9uerre., op. cit. pp. 39-42 .
نقلا من كتاب الثنائية الدولية (٤٨-٤٩) .

(٢) التيارات السياسية المعاصرة (٤٣٧) ، د. عبد الحميد البطريق ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، وانظر : الثنائية الدولية (٤٩) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٨) ، كولن باون ، وبيترمونى ، تعريب صادق عودة ، الطبعة الأولى ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، الأدن ، دون ذكر لتاريخ الطبعة .

(٣) انظر : الثنائية الدولية (٤٩) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٣) .

وتطالب بقسط من الإشراف عليها ، كما طالب الروس بالتنازل عن كارتينا إلى يوغوسلافيا ، فرفض الغربيون ذلك(١).

يقول د. البطريق عن هذه المؤتمرات : (وفى آخر مؤتمر عقد زمن الحرب وهو مؤتمر بوتسدام ١٧ يوليه ـ ٢ أغسطس ١٩٤٥م حدد فيه الحلفاء اقرار الشروط التى ستطبق على ألمانيا ، كتجريدها من السلاح بصورة كاملة ، والقضاء على النزعة العسكرية فيها ، وعلى حل الحزب الوطنى الإشتراكى وغيره من الأحزاب المشابهة له فى ألمانيا ، وعلى تطبيق المبادىء الديمقراطية ومحاكمة مجرمى الحرب وفرض تعويضات عسيرة عليها ، وقد وافق الأقطاب الثلاثة على إنشاء مجلس لوزراء الخارجية تكون مهمته وضع معاهدات السلام وكان أول اجتماع لهذا المجلس فى لندن (سبتمبر ١٩٤٥م) ، ثم عقد فى موسكو من ٢٦ إلى ٢٧ ديسمبر ، واختتم أعماله دون الوصول إلى شىء نظرا لاختلاف الرأى بين الأعضاء على معظم المسائل المعروضة للبحث ، ولكن وزراء الخارجية توصلوا إلى عقد معاهدات سلام كانت على كل حال محدودة ومؤقتة)(٢).

(وكانت الغاية من هذه المؤتمرات هى الاتفاق على خطوط العمليات العسكرية من ناحية وتحديد المبادىء الكبيرة التى كان الحلفاء يقاتلون من أجلها ثم تسليط النور على أطماحهم ونواياهم)(٣).

ومع ذلك فقد كان مؤتمر يالطا هو الذى رسم السياسة لفترة مابعد الحرب العالمية الثانية وكانت تلك الفترة هى أنشط الفترات على الإطلاق (والتى سماها البعض بما بين يالطا (١٩٤٥) ومالطا (١٩٨٩) أو الفترة الممتدة من ظهور بوادر انقسام العالم إلى فريقين خصمين حتى بوادر زعزعة بعض

---

(١) انظر التاريخ الدبلوماسى (١٧٧-١٧٨) ، ج.ب. دروزيل ، تعريب د.نور الدين حاطوم ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار الفكر ، دمشق ، دون ذكر لرقم الطبعة .

(٢) التيارات السياسية المعاصرة (٤٣٨) ، وانظر مابعدها .
وانظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (١٩) .

(٣) الحرب العالمية الثانية (٤٩٤) .

مقومات النظام الدولى المعاصر (١٩٤٥-١٩٩٠م))[١].

ويقول كولن وبيتر :

(كان مؤتمر يالطا وبوتسدام المرحلة البارزة فى تعاون الثلاثة الكبار...)[٢].

مؤتمر يالطا :

تعتبر محادثات يالطا حدثا مهما فى التاريخ بعد الحرب العالمية الثانية ويهم العالم بأكمله .

وقد اجتمع فى هذه المحادثات كل من :

* روزفلت عن الولايات المتحدة الأمريكية .
* وجوزيف ستالين عن الاتحاد السوفييتى .
* وونستون تشرشل[٣]عن بريطانيا العظمى .

وقد عقد المؤتمر فى عام ١٩٤٥م ، ودام المؤتمر من ٤-١١ شباط .

وقبل الحديث عن الموضوعات التى تم طرحها فى مؤتمر يالطا لابد من التنويه أن هناك نقاط ضعف تميزت بها هذه المباحثات . ومن ذلك :

(أ) عدم التركيز فى التحضير للإجتماع رغم أنه سبق بعدة إجتماعات ولكنها كانت تركز على حل المشاكل المباشرة المتعلقة بسير الحرب نفسها ، وإن تعرضت لما بعد الحرب . ومن هنا افتقرت مفاوضات يالطا للتحضير الشامل للقضايا المزمع بحثها بين الرؤساء[٤].

---

(١) الثنائية الدولية (١٣) .

(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٠) .

(٣) ولد عام ١٨٧٤م ، وتدرج فى المناصب حتى أصبح رئيسا للوزراء ، استقال من منصبه سنة ١٩٥٥م ومات سنة ١٩٦٥م ، انظر مذكرات ونستون تشرشل (٥/١) تعريب خيرى حماد ، دار أسامة ، دمشق ١٩٦١م دون ذكر لرقم الطبعة .

(٤) انظر الثنائية الدولية (٥٠-٥١) .

(ب) اختلاف المواقف بين الحلفاء ، فالتحالف كان نسبيا بينهم[١].

فكل فريق يشعر بعدم الثقة فى الفريق الآخر من جهته ، وكذلك الثالث ينظر إليهما كما ينظران إليه ، فليس بالإمكان والحال هذه أن يحصل التفاهم العميق الذى سيزيل الإشكال والخلاف .

يقول كولن وبيتر :

(يجب أن لانقلل من قيمة عنصر عدم الثقة والعداء العقائدى بين الاتحاد السوفياتى والغرب . فقد توقع كل من الطرفين كل شر من الطرف الآخر ، لذلك فقد كان التعاون بين الحلفاء زمن الحرب تعاونا محدودا وحذرا بصورة دائمة"[٢].

(ج) عدم وجود الاتفاق على تفسير المصطلحات الأساسية التى وضعت فكل فريق يرغب فى تفسيرها حسب مايراه هو فى قاموسه الخاص ، ويرى كل منهم أنه الأقدر على التنفيذ للنقاط والنصوص التى طرحت[٣].

وبعد هذه النقاط التى شكلت بالفعل إشكالا كبيرا فى نتائج مؤتمر يالطا نعطى إلماحة عن الموضوعات التى تم طرحها فى القمة .

تقول الدكتورة دعد :

(عدد المواضيع الرئيسة أربعة وهى : ألمانيا ، وأوروبا ، وآسيا ، ثم العالم . يلاحظ أن قضية بولونيا احتلت القسم الأكبر من المناقشات العلنية ، وتلاها موضوع ألمانيا ثم موضوعا أوروبا عامة والعالم . أما موضوع آسيا فبحث على هامش الإجتماع وبصورةسرية بين روزفلت وستالين . تضاف إلى هذا ملاحظة مهمة ، وهى أن معظم المواضيع والقضايا التى طرحت بادر إلى طرحها ستالين .

---

(١) انظر الثنائية الدولية (٥١) .

(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (١٥) ، وانظر (١٦) ، وانظر الحرب العالمية الثانية (٤٩٥) .

(٣) انظر الثنائية الدولية (٥٢) .

إن روزفلت اعتبر منذ البداية رئيس الاجتماعات والعنصر المعتدل بين ستالين وتشرشل . ولابد من ملاحظة ولو شكلية فى هذا الشأن ، وهى أن ستالين اقترح رئاسة روزفلت لتحييده على مايبدو ، أى لتخفيف تأثير منافسه الحقيقى فى المناقشات المباشرة ، فى الوقت الذى يظهر له بهذه الخطوة احتراما يساهم فى تحقيق الهدف)[١].

ونعرض الآن بشىء من التفصيل لهذه الموضوعات .

أولا : المانيا :

وبحثت موضوعاتها من جوانب ثلاثة :

(أ) الاستسلام .

(ب) التقسيم .

(ج) تعويضات الحرب .

فالاستسلام يتم دون قيد أو شرط[٢].

التقسيم : وهو أن يكون لكل دولة من دول الحلفاء نصيبها المحدد فى ألمانيا وذلك امعانا فى إذلال ألمانيا يقول مونتجمرى : (فى مؤتمر يالطه أصدر رئيس الوزراء والرئيس ترومان والمارشال ستالين فى ١١ شباط ١٩٤٥م التصريح الآتى :

---

(١) الثنائية الدولية (٥٢-٥٣) ، وانظر التاريخ الدبلوماسى (٧٩-٨٠) .

(٢) انظر مذكرات المارشال مونتغمرى ، ترجمة ن.البعلبكى ، دار القلم ، بيروت ، لبنان (٤١٣) ، دون ذكر لرقم الطبعة أو تاريخها .
وانظر : مذكرات ونستون تشرشل (١٠٦٧/٢) ، الثنائية الدولية (٥٣) .

(وفقا لخطط الاتفاق المشترك الموضوعة ، تحتل قوات كل من الدول الثلاث فى ألمانيا منطقة مستقلة . وتفرض الخطط قيام إدارة ورقابة منسقتين بواسطة لجنة رقابة مركزية يكون أعضاؤها القواد الأعلون للدول الثلاث ولها مقر عام فى برلين .

(واتفق على أن تدعو الدول الثلاث فرنسا لأخذ منطقة احتلال إذا هى شاءت ، وإلى الإشتراك كعضو رابع فى لجنة الرقابة)[١].

واعتبر بعض الكتاب أن هذا التقسيم (من شأنه أن يؤمن شرعية الغزوات الروسية ويسدل ستارا من حديد على نصف أوروبا)[٢].

التعويضات : ومما نوقش بشأن المانيا مسألة دفعها للتعويضات ، وكان ستالين هو المطالب بهذه التعويضات ، وكان المتباحثون يرون أن تتم التعويضات عن طريق الممتلكات لاالأموال ، ولكن كيف لألمانيا أن تدفع التعويضات وكانت طاقتها الصناعية منخفضة انخفاضا كبيرا ، وأموالها مجمدة ولم تستأنف مبادلاتها الدولية . إن ستالين والروس لم يكن يعنيهم ذلك (ففى رأيهم أن علىألمانيا أن تدفع تعويضات سريعة على شكل آلات وعلى صورة عمل ، ذلك أن المانيا المستاءة المقطعة الوصال ستساعد على انتشار الشيوعية)[٣].

---

(١) المذكرات (٤١٤-٤١٥) .
وانظر الثنائية الدولية (٥٣) ، وذكرت أن الاتحاد السوفييتى اشترط أن لايكون الجزء الممنوح لفرنسا على حساب نصيبه فى المانيا ، بل يكون من نصيب الولايات المتحدة وبريطانيا وحصل ذلك .
التاريخ الدبلوماسى (٨٠) ، مابعد الحرب الباردة (٢٧) .

(٢) الأمريكيون (٧٢) ، ميشال جوبيرا ، ترجمة وجيه البعينى ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس .

(٣) مذكرات مونتغمرى (٤٢٥) ، وانظر : الثنائية الدولية (٥٣) ، وذكرت أن التعويضات المطلوبة كانت بقيمة عشرين مليار دولار يعود نصفها للاتحاد السوفييتى التاريخ الدبلوماسى (٨٠) .

ويذكر روبرت مكنمارا أن برنامج التعويضات (كان يستلزم فرضه على مناطق الاحتلال الأربع ، أو التفاعل بين تلك المناطق ، أو خطة الولايات المتحدة (١٩٤٥) "لرعاية" المانيا وتحويلها بالكامل إلى الإقتصاد المقتسم [Agraion Economy] وجد البريطانيون والفرنسيون والأمريكيون نقاط اتفاق محدودة للغاية مع نظرائهم السوفييت ، واستمرت تلك المشاكل تزيد من حدة المرارة وتغذى المناقشات التى كانت تثير الضغينة بينهم)[١].

وكذلك كان الخلاف فى المؤتمر حول شكل الحكومات الألمانية المحتملة وتعقدت المشكلة الألمانية بشكل كبير ولم تحل القوى المتحالفة منها إلا أقل القليل[٢].

ثانيا : أوروبا :

(كان وضع أوروبا بعد الحرب وكيانها كله يتطلبان إعادة النظر بشكل صارخ ...)[٣].

وكانت جهود الثلاثةالكبار ترمى إلى حل المشاكل السياسية والإقتصادية التى ستطرح على الساحة غداة الحرب ، وكانت قضية بولونيا من الأولويات التى رغبوا فى إيجاد الحل لها ، وفى الاتفاق الذى تم بين تشرشل وستالين قسم النفوذ فى بعض الدول الأوربية وحينها كانت الولايات المتحدة مشغولة بالانتخابات[٤].

ثالثا : آسيا والشرق الأقصى :

تشكل البحث بشكل خاص عن اليابان وذلك من أجل استمرار الحرب ضدها ، فقد التزمت روسيا بالدخول فى الحرب ضد اليابان بعد هزيمة

(١) مابعد الحرب الباردة (٢٧-٢٨) .
(٢) انظر المرجع السابق (٢٨) .
(٣) مذكرات تشرشل (١٠١٠/٢) .
(٤) انظر : الثنائية الدولية (٥٣-٥٤) ، مابعد الحرب الباردة (٢٠ ومابعدها) .

المانيا[١]. ولاشك أن روسيا كانت تطمح لبعض المصالح من وراء هذه المشاركة ، وبالفعل تنازلت أمريكا عن مصالح كثيرة لصالح السوفييت ، وجاء التعهد الأمريكى البريطانى (بالإبقاء على وضع منغوليا الخارجية ، والمساهمة مع الصين فى استغلال خطوط الحديد فى شرق الصين وفى منشوريا والتنازل عن جزر الكوريل ، وإعادة جنوبى جزيرة سكالين إلى الاتحاد السوفييتى ، وإعادة تأجيره مرفأ بورت ارتور ، وتدويل مرفأ دايرن . هكذا تكون التنازلات الأمريكية ، لقاء المشاركة السوفيتية فى الحرب ضد اليابان ، على حساب غير الامريكيين ، وعلى حساب الصينيين بشكل خاص)[٢].

وحرص روزفلت على مشاركة السوفييت ومعرفتها فى مؤتمر يالطا ولعل بروز المقاومة اليابانية ، والتقديرات التى أوصلها رؤساء الحرب إلى مليون جندى أمريكى كخسائر فى الأرواح وقدروا استمرار الحرب مع اليابان بعد الانتصار على أوروبا بثمانية عشر شهرا ، وعدم الانتهاء من تصنيع القنبلة الذرية كل ذلك كان دافعا فى الإصرار على هذه المشاركة والتنازلات العديدة المقابلة لها[٣].

ولاشك أن القاء القنبلتين على هيروشيما فى ٦ آب (أغسطس) ١٩٤٥م وعلى ناجازاكى فى التاسع منه سبب ردة فعل لدى السوفيتيين ، فى حين أن

---

(١) انظر : مذكرات تشرشل (١٠٨٣/٢) ، الثنائية الدولية (٥٤) .

(٢) الثنائية الدولية (٥٥) .
وانظر التاريخ الدبلوماسى (٨١-٨٢) ، وانظر ذلك موسعا (٤٩٨-٥٠٠) ، وذكر (أن تشرشل صرح بأنه يعارض اطلاقا بإرجاع هونغ كونغ إلى الصين) (ص٨٢) كما يؤيد ماذكرته د. دعد بأن التنازلات كانت على حساب الآخرين وخاصة الصين.
ويقول دروزيل إن (هذه الامتيازات لاتعتبر خرقا للسيادة الصينية وحسب بل هى تنكر عملى لمبادىء روزفلت والولايات المتحدة فيما يتعلق بسلامة التراب الصينى والأوروبى الشرق وبالاستقلال السياسى لبلدان هاتين المنطقتين من العالم) . (٤٩٩-٥٠٠) .

(٣) انظر التاريخ الدبلوماسى (٤٩٩) .

هذا السلاح لم يكن له حاجة لظهور بوادر النصر من قبله[١].

ومن هنا فإن الولايات المتحدة لابد وأنها كانت تهدف من وراء تفجير هذه القنبلة ومرتين إلى عدة أمور ظهرت آثارها فيما بعد وخاصة فى التنافس بين الدولتين واشتداد التوتر والمواجهة الباردة بينهما . وذكر ميشال جوبير (أن ترومان كان يود أن يسجل هدفا خاطفا فى تنافسه مع السوفيات ، مثل غزوهم لمنشوريا ...)[٢].

رابعا : الأوضاع العالمية :

وعن الأوضاع العالمية ككل تقول د.دعد : (أما بخصوص العالم ككل ، فلقد اهتم المتباحثون بالتفاهم حول بعض النقاط العالقة بشأن إنشاء المنظمة الدولية التى من المفترض تكليفها بشئون عالم مابعد الحرب ، وهذا انطلاقا من نظرة روزفلت الكونية ، بحيث يأتى عالم مابعد الحرب عالما واحدا يسود فيه السلام تحت إشراف الدول الكبرى ، وبإشراك كل الدول التى ساهمت بتخليص العالم من النازية . وكان قد سبق يالطا فى بحث هذا الموضوع وبعض تفاصيله عدد من الاجتماعات ، منها : اجتماع القمة فى طهران فى أواخر سنة ١٩٤٣م ، واجتماع دامبرتون أوكس الخاص فى صيف وخريف سنة ١٩٤٤م ، اتفق فى يالطا على أن يكون الاجتماع التأسيسى للمنظمة قبل نهاية الحرب ، وذلك فى سان فرانسيسكو فى الولايات المتحدة الأمريكية ، كما اتفق على أن تكون الدول الداعية إلى الاجتماع خمسا ، أى بإدخال الصين وفرنسا إلى جانب الثلاثة "الكبار" . واتفق أيضا حول موضوعى العضوية والتصويت . بالنسبة للعضوية ، اتفق على أن يتمثل الاتحاد السوفياتى بثلاثة أعضاء ، أى الاتحاد السوفييتى ككل ، وكل من جمهوريتى

---

(١) انظر مذكرات تشرشل (١٠٨٤/٢) حيث قال : (من الخطأ الافتراض بأن القنبلة الذرية هى التى قررت مصير اليابان ، لقد كان المصير المحتوم بالهزيمة ينتظرها قبل القاء القنبلة الأولى) .

(٢) الأمريكيون (٧١) .

أوكرانيا وروسيا البيضاء (بيبلوروسيا) ، وأن تدعى إلى سان فرانسيسكو كل دولة أعلنت الحرب على المحور ، أو قعطت علاقاتها مع دوله ، قبل تاريخ ١٥ شباط . وبشأن التصويت ونظرا لموقف ستالين المتشدد والمحتقر تجاه الدول الصغيرة ، تقرر أن يكون للدول الخمس الداعية حق مميز (أصبح فيما بعد حق النقض) .

وبحث أيضا موضوع عام مهم هو مصير الشعوب الواقعة تحت نفوذ دول المحور . تقرر بهذا الشأن مبدأ الوصاية الدولية . كما تقرر أمر مهم جدا فى الإطار العالمى العام ، هو تأليف مجلس من الدول الثلاث المشاركة فى المباحثات ، على مستوى وزراء الخارجية يجتمعون ، على الأقل ثلاث مرات سنويا ، لبحث الشؤون المهمة والتى قد تعترض مسيرة السلام والتفاهم فى حال السلم مابين حلفاء الحرب . وفى هذا المجال ، اعتبر كثيرون من الباحثين أن الدول الكبرى الممثلة فى يالطا ادعت لنفسها حق إدارة النظام العالمى . لكن الأمور لم تسر تماما كما خطط لها مابين الرابع والحادى عشر من شباط سنة ١٩٤٥م فى شبه جزيرة القرم)[١].

---

(١) الثنائية الدولية (٥٥) .
وقد تحدثت كثير من المراجع عن هذا المؤتمر وموضوعاته ورأيت أن ماجاء فيها لايكاد يخرج عما ذكرناه من المراجع المثبتة بل أن ماجاء فيها مما وقعت عينى عليه إما تكرار لما جاء فيها ، أو اختصار لها ، أو اقتصار على موضوع دون غيره ومن ذلك التيارات السياسية المعاصرة (٤٤٣-٤٤٨) بشأن المانيا ، وكذلك بشأنها انظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٤١ ومابعدها) .
وانظر تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥م (٢٠-٢١) ، دانيال ، نورمان ، ترجمة عبد العليم الأبيض ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، القاهرة .
وانظر الحرب العالمية الثانية عن المؤتمر عامة (٤٩٤-٥٠٢) وقال مؤلفه : "والواقع أن الجميع قد غادروا مؤتمر يالطا وهم يشعرون بأن تفاهم الكبار كان مرضيا جدا رغم المسائل الكثيرة التى بقيت معلقة بينهم ورغم الخلافات التى نجمت بين بعضهم والبعض الآخر" .

آثار المؤتمر :

لاشك أن هذا المؤتمر وغيره من الاجتماعات كان لها آثارا واضحة على الساحة الدولية وخاصة منها مؤتمر يالطا ، حيث اعتبر بعض الباحثين أن مؤتمر يالطا كان الهدف منه تقسيم العالم ، وبعضهم يرفض ذلك الرأى ، ورأى ثالث يرى أن هذا المؤتمر ساعد إلى حد ما فى سيطرة القوتين الكبريين على العالم(١).

وتتابعت المؤتمرات والاجتماعات غير أنها لم تؤت الثمرة التى كانت ترجى من ورائها(٢).

وهكذا كانت الأمور بين مد وجزر وخاصة بين الاتحاد السوفييتى من جهة والولايات المتحدة وبريطانيا من الجهة الأخرى .

لقد أفرزت السنوات التالية لعام ١٩٤٥م عدة أحداث كانت مقدمات وأسباب مباشرة فى الاتجاه للحرب الباردة ، وليس هدفنا هو السرد التاريخى لهذه الأحداث أو الاجتماعات واللقاءات التى حدثت بشأنها ولكننا نعتبرها وهى كذلك المؤثرات القوية فى ماتلاها من أحداث .

وإذا كانت الأربعينات وخاصة النصف الثانى منها قد وجدت فيها أحداث غيرت من مجرى الأوضاع السياسية والإقتصادية عالميا فإن هذه السنوات كانت بداية عصر جديد فى العلاقات الدولية .

ونتجاوز الأحداث إلى أن نصل إلى عام ١٩٤٧م وهى السنة التى اعتبرت البداية الحقيقية للحرب الباردة نظرا لما وجد فيها وماتلاها من أحداث كانت مقدمات وأسباب لها فى آن واحد .

ويمكن إبراز تلك الأسباب والمقدمات فى التالى :

---

(١) انظر الثنائية الدولية (٥٨-٦٠) .

(٢) انظر المرجع السابق (٦٢-٦٥) بمراجعها عن مؤتمر بوتسدام والذى لم يقرب الآراء بل زادها بعدا ، وقالت د. دعد : (يمكن القول فى نهاية المطاف ، أن مباحثات بوتسدام شكلت خطوة مهمة وأساسية باتجاه التباعد ...) .
وانظر مختصرا عنه من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٠-٢١) .

أولا : تراجعت بريطانيا عن سيطرتها ونفوذها نظرا لضعفها وبروز الاتحاد السوفييتى بجوار أمريكا ، ومن هنا بدأت الولايات المتحدة تعد نفسها للحقبة القادمة .

تقول د. دعد :

(إن سنة ١٩٤٧م هى سنة الانقسام والاقتسام الفعليين على أساس وجود دولتين كبريين فقط ، بحيث إن الدولة الكبرى الثالثة فى الحرب و(نصف) الدولة الكبرى عند نهاية الحرب ، أى بريطانيا ، انسحبت الآن ، أو هى قيد الانسحاب من الساحة ، آملة فى أن يسجل هذا الانسحاب لصالح حليفتها وصديقتها الأمريكية ، على الرغم من الخلافات التى حصلت بينهما)[١].

وأدى هذا التراجع البريطانى إلى أن تبذل أمريكا مافى وسعها من أجل تغطية الفراغ الذى سيحدثه أفول نجم القوة البريطانية وتحمل أمريكا التزامات جديدة تجاه بعض الأقطار .

يقول كولن وبيتر :

(وبحلول مطلع سنة ١٩٤٧م كانت المملكة المتحدة فى حالة سيئة وأصبح من الضرورى اتخاذ اجراءات إقتصادية صارمة إذا أريد لها أن تتفادى الإنهيار ، ولذلك قامت الحكومة البريطانية فى ٢١ شباط بإعلام الولايات المتحدة أنه لم يعد لديها خيار فى إنهاء معونتها ودعمها لليونان وتركيا . وقد كان هذا نقطة تحول فى التاريخ المعاصر لأنه أدى إلى دخول الولايات المتحدة فى تحمل التزامات تجاه أقطار أجنبية فى حالة السلم . وفى الثانى عشر من آذار أعلن ترومان مبدأ ترومان الذى كرس فيه الدعم الأمريكى "للعالم الحر")[٢].

---

(١) الثنائية الدولية (٨٣-٨٤) .

(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٢) .

وزد على هـذا أن أمريكا قـامت بسحب قواتها مـن أوروبا ، وأصـاب هذا العمل تشرشل بالفزع فأرسل إلى ترومان ـ يعبر عن مخاوفه ـ برقية جاء فيها :

(إننى أشعـر بقلق عميق مـن جراء الوضع فى أوربا . وقـد علمـت أن نصف القوة الجوية الأمريكية فى أوروبا قد بدأ بالانسحاب إلى مسرح المحيط الهـادى ... ومن المحتمل أن تمر جيوشنا ، وفقا لترتيبـات سابقة ، فى مرحلة ممـاثلة من التخفيض الواضح ، وسينسحب الجيش الكنـدى بصورة مؤكدة ، أمـا الجيـش الفرنسى فضعيـف ، ومن الصعب التعامـل معـه . وفى وسع كل إنسـان أن يرى ، أنه بعـد وقـت قصير جدا ، ستختفـى قـواتنا المسلحـة من القـارة الأوربية ، باستثناء قـوات معتدلة ، يحتفظ بها للسيطـرة على المانيا ... ويجوز لى أن أتسـاءل ، ترى ، ماذا سيؤول إليه الوضـع بعد سنة أو سنتين عنـدما تذوب الجيوش البريطـانية والأمريكية من القـارة ، ولاتكون الجيوش الفرنسية قد نظمت أمرها بعد على نطاق واسع ، فلاتبقـى لنا سوى حفنة من الفـرق معظمها فرنسى ، تواجه مـائتين أو ثلاثمائة فرقـة آثرت روسيا الابقاء عليها فى الخدمة الفعلية . إن ستارا حديديا ينسدل الآن على الجبهـة الروسية فنحن نجهل مايدور وراء هذا الستار ...)[١].

وقـد (انخفضـت القـوات الأمـريكية فى أوروبا خلال عـام واحد مـن ٣,١٠٠,٠٠٠ رجل إلى ٣٩١,٠٠٠ رجل فقـط ، وانخفضت قـوات المملكة المتحدة من ١,٣٢٠,٠٠٠ رجل إلى ٤٨٨,٠٠٠ . وعـادت جميع القـوات الكندية وعددها ٢٩٩,٠٠٠ رجل إلى بلادها"[٢].

---

(١) مذكرات تشرشل (١٠٧٢/٢) .

(٢) فـن الحرب (٣٥٦) ، اميل وانتى ، تعريب اكرم ديرى ، الطبعـة الأولى ١٩٧٣م ، دار القلم ، بيروت ، لبنان .

وانظـر تاريخ الـولايات المتحـدة منـذ ١٩٤٥م (٢٦-٢٧) ، وذكـر أن القـوات الأمريكية كانت تعود إلى الوطن بمعدل ٣٥ ألف جندى فى اليوم .

وقد اعتبر كثير من الأمريكيين حينها أن تشرشل كان مبالغا فى آرائه ولكن الأحداث التى تلت كانت تدل على حقيقة تخوفه ذلك ، يقول كولن وبيتر :

(إن كلمات تشرشل وجدت مايبررها كل التبرير كما أثبتت الأحداث فى شرق أوروبا سنة ١٩٤٧م)(١).

ويقول وانتى : (ومضى وقت طويل قبل أن يفهم من هم أقل منه وعيا وقدرة على الرؤيا حقيقة الموقف)(٢).

ثانيا : وكنتيجة بدهية لذلك الوضع وبداية التخوف الأمريكى ، مضافا إليه التحرك السوفييتى من أجل التوسع والسيطرة بدأت كل من الدولتين باستغلال الوقت لصالحها ، فالاتحاد السوفييتى يبذل قصارى جهده فى محاولة السيطرة على أكثر الدول ، فى حين أن أمريكا تحاول جاهدة فى احتواء المد الشيوعى والتقليل من انتشاره فى الدول الأوربية وغيرها . فبدأ كل من الطرفين بالتحرك ضد الطرف الآخر للحيلولة دونه دون تحقيق أهدافه ومآربه ، فبرزت الثنائية الدولية على الساحة بكل وضوح ، وأدى ذلك إلى زيادة التوتر واشعال لهيب الخلاف فيما بينهما .

يقول براور : (إن الفراغ فى السلطة الذى ترك فى أوروبا بعد إنهيار دول المحور فتح المجال أمام الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى لأخذ ومد المبادرة والقيادة فى إعادة تنظيم العلاقات الأوربية .

فى أوروبا الشرقية ، تمت عمليات إعادة البناء بالوجه الذى أرادته السلطات السوفيتية والأهداف السياسية للأحزاب الشيوعية ، فى أوروبا الغربية ، جعل الخوف من السيطرة الشيوعية والإنهيار الإقتصادى هناك ، جعل تلك الدول تعتمد دبلوماسيا وإقتصاديا على الولايات المتحدة ... كان

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٤) .
(٢) فن الحرب (٣٥٦) .

للصراع الجديد بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى مصطلحاته الكئيبة الخاصة به ، فقد أصبح مصطلح "الستار الحديدى" يمثل العوائق الدبلوماسية والسياسية التى فصلت بين المجتمعات الشيوعية وغير الشيوعية فى أوروبا . كان التفوق العسكرى والإقتصادى الأمريكى والسوفياتى كل فى نطاقه قد أدى إلى تسمية هاتين القوتين "بالقوى الأعظم" . إن مصطلح "الحرب الباردة" أظهر خصائص علامات العداء بين الدولتين اللتين لم تكونا فى حالة حرب ولكنها كانت على الدوام تحضر نفسها لدخول صراع جديد . كان موقع الخطوط الأمامية الوهمية فى المناطق السياسية والدبلوماسية للصراع بين الشيوعيين والدول التى تساندها أمريكا . إن هذه المواجهة العالمية واجهت القادة الأمريكيين ، الذين كانت خبرتهم فى سياسات القوة والعلاقات الدولية ضئيلة ، بأسئلة معقدة . ماذا كانت طبيعة هذا الصراع؟ إن كان الخطر هو الشيوعية أم القوة السوفياتية؟ ماهى المناطق التى تشكل المصالح الحيوية للولايات المتحدة وأين يجب توجيه الدعم الأمريكى؟

كانت ردة الفعل الأمريكية لهذه الظروف الجديدة هو اتباع استراتيجية التدخل فى إعادة البناء فى كل من آسيا وأوروبا . ثم الإطلاق على هذه السياسة الجديدة اسم (الكبح) ، ووضعت هذه السياسة الخطوط العريضة للسياسات السياسية والدبلوماسية الأمريكية للسنوات المقبلة)(١).

ويلحق بهذا أن القادة الغربيين والمسئولين العسكريين بدأوا يفسرون التحركات السوفيتية بأنها تنطلق من الأيديولوجية الشيوعية ، وكذلك الأمر بالنسبة للقادة السوفييت فى تصورهم للرأسمالية الغربية ، فزادت الخلافات الأيديولوجية من حدة التوتر بين الطرفين .

ثالثا : فشل المعاهدات والإجتماعات التى عقدت بين الحلفاء ، سواء فيما يتعلق بالسلم ، أو النتائج التى يرغب كل طرف فى تحقيقها بعد الحرب ، وبعضا من هذه المؤتمرات والإجتماعات والمعاهدات لم تؤت ثمارها المرجوة

---

(١) العالم فى القرن العشرين (٢٤٦-٢٤٧) .

من وراء عقدها[1]، مما كـان لـه أكبر الأثر فى زيادة الخلاف ، وتوسـع القضايا التى كانت تطرح وتشعبها . زد على هذا عدم الثقة بين الأطراف التى تعقـد هذه الاجتماعات والمؤتمرات ، بل إن كلا من أمـريكا وبريطانيا وهما أقـرب إلى الاتفـاق فيما بينهمـا ، كـان الشك وعدم الثقـة فى النـوايا قـائم بينهما.

وبدون أدنى شـك إن مثـل هـذا الأمـر مـن عـدم الثقـة والشـك بين الأطراف سيزداد مع الأيام ، وكذلك سيجعل كل طرف يفسـر أدنى تحرك من الطـرف الآخر بأن المقصود من ورائه بسط النفوذ أو العمـل من أجل الحاق الضـرر به . وهكـذا كـان لفقـدان الثقـة بين الأطراف أثره فى زيادة التـوتر وكـذلك العمل من أجل التحسب لأى أمر قد يصـدر عن الطرف الآخر[2].

رابعا : المعاهدات التى عقدها الاتحاد السوفييتى مع دول أوروبا الشرقية حيث كان لابد من رد فعل أمريكى تجاهها مما زاد الوضع سوءا .

يقول العسلى :

(كـان الاتحاد السـوفييتى أسبـق مـن سواه فى اتخاذ الترتيبـات لمواجهـة الأزمـات المحتملـة . إذ كـان سـتالين قد أصدر تعليمـاته بعقـد مجمـوعة من المعاهدات الدفاعية فى دول أوروبا الشرقية ، وتوثيق أسس التعاون بين هذه الدول . فكانت المعاهدات التالية :

---

(١) انظـر ماذكره تشرشل فى مذكراته وخاصـة الجزء (٢) فى مـواضع كثيرة منه وعلى سبيل المثال (٧٠٧ ومابعدها ، ٨٥٨ ومابعدها ، ٩٨١-٩٨٩) .
وانظـر التيـارات السيـاسية المعـاصرة (٤٤٠ ومـابعدها) ، وذكـر أن مجلس وزراء الخارجية عقد اجتماعاته أكثر من مائة مرة وكان أول اجتماع له فاشلا .
وانظر ستالين (٢٠٢ ومابعدها) وذكر أن المجلس الرباعى عقـد اجتماعا فى يوم ١٠ آذار/مـارس ١٩٤٧م واستمـرت اجتمـاعاته إلى يوم ٢٥ نيسـان/ ابريل وتم عقـد أربعـة وأربعين جلسة انتهت إلى فشل ذريع واختلاف تام فى وجهـات النظر بشأن القضية الألمانية .

(٢) عــن الخلاف بين الــولايات المتحــدة وبريطــانيا انظــر الحرب العــالمية الثــانية (٤٩٥-٤٩٦).

(١) المعاهدة السوفيتية ـ التشيكوسلوفاكية بتاريخ ١٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٣م .

(٢) المعاهدة السوفيتية ـ اليوغسلافية بتاريخ ١١ نيسان/ابريل ١٩٤٥م .

(٣) المعاهدة السوفيتية ـ البولونية بتاريخ ٢١ نيسان/ابريل ١٩٤٥م ...) .

(وهكذا وجد ستالين أن الاتحاد السوفييتى بات فى موقع القوة عندما تفاقمت الأزمة . فأخذ المبادأة فى أعقاب فشل مؤتمر مجلس وزراء خارجية الدول الأربع فى موسكو ، وأعلن إلغاء جميع بنود الاتفاقات المبرمة سابقا مع الحلفاء والتى كانت تقضى بتحديد حجم القوات المسلحة للدول التى كانت حليفة لقوى المحور فى الحرب العالمية الثانية ...) .

(وهبت عاصفة هوجاء فى الولايات المتحدة بصورة خاصة ، نتيجة الاحباط وخيبة الأمل التى منيت بها السياسة الأمريكية وظهر كأن ماأنفقته الولايات المتحدة فى الحرب العالمية الثانية (والذى قدر بمبلغ ٣٤١ مليار دولار) بالإضافة إلى التضحيات التى وقع ثقلها على كاهل القوات الأمريكية ماكانت كلها إلا لتعطى أوروبا الشرقية هدية للاتحاد السوفييتى ...)[١].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بالنسبة للسوفييت ، بل قامت الدول التى أصبحت تحت سيطرتهم بعقد الاتفاقيات والمعاهدات فيما بينها[٢].

وكذلك كان الأمر بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية حيث عقدت عدة معاهدات وكانت تنص على حماية الدول بعضها بعضا حال العدوان عليها مضافا إلى ذلك العمل ضد الدعاية الشيوعية . ومن هذه المؤتمرات والمعاهدات التى وقعت بين أمريكا وبعض الأطراف الأخرى لدول أمريكا الجنوبية وغيرها :

---

(١) ستالين (٢٠٢-٢٠٥) ، وانظر التاريخ الدبلوماسى (٢٢٨) .

(٢) ولكى لايطول بنا المقام فى سرد هذه الاتفاقيات وتواريخها انظر ستالين (٢٠٣) ومابعدها .

(مؤتمر مكسيكو . وقد دام هذا المؤتمر من ٢١ شباط إلى ٨ آذار ١٩٤٥م ولم يكن جزءا من دورة المؤتمرات العادية . فقد انعقد مباشرة بعد مؤتمر يالطا للنقاش فى قضايا أثارتها الحرب والسلام ، ولم تدع الجمهورية الأرجنتينية للحضور إلى مكسيكو بسبب طابع حكومتها (الفاشى) ولم تعترف بها الولايات المتحدة . وكانت النتيجة الجوهرية للمؤتمر مايسمى (صك شابولتيبيك) باسم الحصن الواقع على ٥ كم من مكسيكو . وهذه الوثيقة المؤسسة على المساواة الحقوقية بين جميع الدول تنص على (أن أى اعتداء من دولة على سلامة دولة أمريكية وحرمة أرضها ، وسيادتها أو استقلالها السياسى ، يجب أن يعتبر عمل عدوان ضد الدول الموقعة على هذا التصريح) . وفى حالة عدوان أو تهديد بالعدوان تتشاور الدول الموقعة بالأمور التالية :

(١) بينما تدور رحى الحرب يعاقب العدوان بإجراءات مختلفة (يمكن أن تعتبر ضرورية) ، مثل قطع العلاقات الدبلوماسية ، العقوبات الإقتصادية وحتى استعمال القوة المسلحة .

(٢) يجب أن يبرم اتفاق إقليمى للحفاظ على هذا النظام واتمامه بعد إبرام الصلح .

وفى ريو ـ دو ـ جانيرو ، انعقد ، من ١٥ آب إلى ٢ أيلول ١٩٤٧م ، مؤتمر أمريكى جديد فوق العادة[(١)] (للحفاظ على السلام القارى والأمن) وكان من الضرورى تنسيق نتائج مؤتمر مكسيكو مع شرعة الأمم المتحدة ووضع اتفاق دائم عوضا عن صك شابولتيبيك الموقت . وكانت النتيجة الأساسية إعداد (معاهدة معونة متبادلة أمريكية عرفت باسم (ميثاق ريو) . والتدابير الموضوعة هى تقريبا التدابير نفسها التى نص عليها صك شابولتيبيك تشاور فى حال عدوان أو تهديد بالعدوان ؛ وفى حال العدوان ، تقرر هيئة الاستشارة كافة العقوبات .

---

(١) (كانت نيكاراغوا الجمهورية الوحيدة ، من بين ٢١ جمهورية ، التى لم تدع إلى المؤتمر بسبب حدوث انقلاب فيها) .

وانعقد مؤتمر بوغوتا من ٣٠ آذار إلى ٢ أيار ١٩٤٨م . وهو المؤتمر الأمريكى التاسع النظامى . وكان مضطربا جدا بسبب محاولة عصيان فى العاصمة الكولومبية ، وفى مؤتمر صحفى نسب الجنرال مارشل إلى الشيوعيين مسؤولية هذا العصيان . وكانت نتائج المؤتمر رقيقة ، وبدا أن التوتر يزداد سوءا بين الولايات المتحدة والجمهوريات اللاتينية ، واشتد الهجوم على الدول الأوربية التى تملك أراضى فى أمريكا ... وتعهدت الدول الأمريكية بالإجماع على النضال ضد الدعاية والعمل الشيوعى)[١].

مضافا لذلك بعض التسهيلات العسكرية التى حصلت عليها الولايات المتحدة بشأن القواعد العسكرية[٢] إلى أن أقيمت الأحلاف العسكرية لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى .

خامسا : إعلان مبدأ ترومان كرد فعل تجاه السياسة السوفيتية مماكان له أثره على الوضع بين الدولتين وزيادة التوتر بينهما ، وقد ألقى الرئيس ترومان خطابا وصور فيه الوضع الدولى وذلك صبيحة الثانى عشر من آذار/ مارس سنة ١٩٤٧م ومما جاء فيه :

(فى هذه اللحظة من تاريخ العالم على كل أمة تقريبا أن تختار بين طرق بديلة فى الحياة . وكثيرا مايكون الاختيار قسريا ، فثمة طريقة للحياة قائمة على مشيئة الأكثرية وتتميز بمؤسساتها الحرة وحكومتها التمثيلية وانتخاباتها الحرة وضمان الحريات الفردية وحرية الكلام والدين والتحرر من الظلم السياسى . أما الطريقة الثانية فى الحياة فترتكز على مشيئة أقلية مفروضة بالقوة على الأكثرية . كما تعتمد على الإرهاب والظلم والصحافة والإذاعة الخاضعتين للمراقبة ، والانتخابات المقيدة وكبت الحريات الشخصية وأعتقد أن من واجب سياسة الولايات المتحدة دعم الشعوب الحرة التى تقاوم محاولاتها إخضاعها لأقليات مسلحة أو لضغوط أجنبية . كما أعتقد أن

---

(١) التاريخ الدبلوماسى (٢٢٠-٢٢٢) .
(٢) انظر المرجع السابق (٢٢٣) .

علينا مساعدة الشعوب الحرة فى تقرير مصائرها بأساليبها الخاصة)[١].

وهذا المشروع يقوم على وجوب مساعدة اليونان وتركيا ووافق الكونغرس على تخصيص مبلغ قدره أربعمائة مليون دولار مساعدة لهما ، ٣٠٠ مليون لليونان و١٠٠ مليون لتركيا[٢]. وقد خشيت أمريكا أن ينجح الشيوعيون فى قلب نظام الحكم فى اليونان ، ومن هنا أعلن ترومان وجوب المساعدة لهؤلاء وقال :

(أعتقد أن سياسة الولايات المتحدة يجب أن تتجه إلى مساعدة الشعوب الحرة التى تكافح الخضوع للأقليات المزودة بالسلاح أو الضغوط الخارجية)[٣].

ويقول كولن وبيتر :

(وعلى الأرجح فإن هذا الإجراء الأمريكى أنقذ اليونان وتركيا رغم أن التمرد الشيوعى فى اليونان لم ينته بصورة رسمية حتى صيف سنة ١٩٤٩م وكان مبدأ ترومان ردا ليس على النشاط الشيوعى فى شرق البحر المتوسط وحسب ، بل كذلك على النشاطات السوفياتية فى كل مكان بما فى ذلك أوروبا الوسطى والشرقية)[٤].

---

(١) Truman, op. cit. Vol.2, p.106 .
نقلا من كتاب الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٢) .
وانظر ستالين (٢٠٢-٢١٠) .

(٢) انظر : ستالين (٢٠٢-٢١٠) ، التيارات السياسية المعاصرة (٤٥٧) ، موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٥٢) ، ألان نيفيز ، هنرى ستيل ، ترجمة محمد بدر الدين خليل ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٢) ، تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥م (٤٥) ، التاريخ الدبلوماسى (١٧٦) .

(٣) التيارات السياسية المعاصرة (٤٥٧) ، وانظر تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥م (٤٥) ، وكانت تهدف الولايات المتحدة إلى منع انتشار النظام الإشتراكى لأنها رأت أن النظم الجمعية فرضت على عدد من الدول . التاريخ الدبلوماسى (١٧٦).

(٤) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٢-٣٣) .

وبالفعل كان لمشروع أو نظرية ترومان أثرها على الدولتين المذكورتين حيث استمرتا (خارج نطاق النفوذ السوفييتى)[١].

لقد حدد مبدأ ترومان أن الدول التى تناضل من أجل استقلالها والتى تكافح من أجل ذلك جديرة بالمساعدة وتقديم المعونة العسكرية والإقتصادية لها ، ويقضى مبدأ ترومان (باحاطة الاتحاد السوفييتى بشبكة من القواعد البرية والبحرية والجوية الأمريكية المزودة بالرادارات والقاصفات السوقية الجبارة الحاملة للقنابل الذرية امتدت القواعد الأمريكية من الاسكا إلى غرب أوروبا وجنوبها ، وإلى اليونان وتركيا وإيران وباكستان والشرق الأقصى واليابان)[٢].

سادسا : إعلان مشروع مارشال[٣].

ولم تمض فترة وجيزة حتى جاء مارشال بمشروعه ، وكان المشروع يهدف إلى تقديم المساعدات للدول الأوربية فيما بينها ، ولتسهيل التعامل التجارى والإقتصادى بينها .

ومن هنا (أعلن الوزير مارشال السياسة التى اعتزمتها الولايات المتحدة ففى خطاب ألقاه فى جامعة هارفارد يوم ٥ يونيو سنة ١٩٤٧م ، تعهد بأن تبذل الولايات المتحدة مساهمات ضخمة نحو مشروع لإنهاض أوروبا تعاونيا وكان (برنامج الإنعاش الأوروبى) ، كما أصبح معروفا ، يتضمن تقديم الآلات والمخططات والخامات والخبراء المتمرسين فى التكنولوجيا الأمريكية ، وليس المال وحده . وكان على الدول الأوربية أن تعين كل منها الأخرى بالقروض ، وتبادل التسهيلات الخاصة ، وتعجيل سرعة التجارة الدولية . وكان لابد من إزالة الحواجز الجمركية أو تخفيضها تخفيضا كبيرا ، على الأقل

---

(١) تاريخ الولايات المتحدة (٤٥) .

(٢) حرب النجوم تكنلوجيا وآفاق (١٤) ، إعداد اللواء الركن عبد الله سيد أحمد ، العميد الركن طلعت نورى على ، الطبعة الثانية ١٩٨٨م ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .

(٣) وزير خارجية أمريكا حينها .

فى كافة أرجاء العالم الحر . فكان المأمول أن يترتب على هذا البرنامج تقديم جديد نحو الحلم الذى لم يتحقق قط ، حلم ولايات متحدة أوربية . وقد أوضح مارشال أن على أوروبا أن تتكفل بالمبادرة التمهيدية والطاقة النشيطة.

فهل تستجيب أوروبا؟ وهل يفى الكونجرس بتعهد مارشال وهو الحريص على الإنفاق الأمريكى؟

كان الرد عن السؤال الأول سريعا . فإن وزيرى خارجيتى بريطانيا وفرنسا ، وجها الدعوة إلى جميع الدول الأوربية ، وبينها روسيا ، لحضور مؤتمر فى باريس لمناقشة برنامج موحد للتعمير وإعادة التنظيم . ولم تكتف روسيا بالامتناع ، بل إنها حرمت على بعثاتها الثمان أن تحضر المؤتمر(١). غير أن ست عشرة دولة من أيسلندا حتى تركيا ، حضرت واتخذت فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤٧م مشروعا تعاونيا لإعادة التعمير والإنشاء ، تطلب استخدام مايقرب من اثنين وعشرين بليونا من الدولارات فى السنوات الأربع التالية . وكان لابد لقسط من هذه الأموال أن يأتى من البنك الدولى للإنشاء والتعمير ، وقسط من متباين الدول ، ولكن القسط الأكبر كان من الولايات المتحدة . وقام المشروع على تعهد من الدول الست عشرة المشتركة (بقدر واسع النطاق من المساعدة المتبادلة الفعلية والممكنة) . وماكان من الممكن

---

(١) أعلنت تشيكوسلوفاكيا قبولها للمشروع ولكنها تحت الضغط الروسى عدلت عن الاشتراك فيه .
انظر : التيارات السياسية المعاصرة (٤٥٨) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٥) وذكر أنها أبدت اهتماما بالمشروع ، مذكرات مونتغمرى (٥٤٦) وقال : (إن بعض البلدان الأوربية تستطيع أن تستفيد من هذه المساعدة وأن بعض البلدان الدائرة فى فلك الروس قد سبق لها أن رحبت بالمشروع . وإذن فقد كان موقف الروس الدليل الواضح على أنهم لايرغبون فى أن تنهض أوروبا بل يفضلون أوروبا مضطربة مقطعة الأوصال ذلك أن نهوضها قد يعرقل انتشار الشيوعية . وإنى لأعتبر هذا التاريخ ، أى شهر تموز ١٩٤٧م ، تاريخا هاما فى فترة مابعد الحرب إذ فيه كشف الروس عن وجههم الحقيقى بشكل لم يترك مجالا للريب) .

أن يكتمل المشروع فى أقل من أربع سنوات .. ولكن أوروبا تصبح ـ إذا ماااكتمل ـ أكثر تقدما عن مرحلة التنمية الإقتصادية التى كانت فيها قبل الحرب بشوط كبير .

ولم يكن الكونجرس سريعا فى استجابته بهذه الدرجة . ففى إجتماعه فى أوائل سنة ١٩٤٨م ، قدر الوقت اللازم لدراسة المشروع بشهرين . ثم استحثه استيلاء الشيوعيين على الحكم فى تشيكوسلوفاكيا على العمل . وفى ٤ ابريل سنة ١٩٤٨م ، وقع ترومان قانون التعاون الاقتصادى ، الذى اعتمد للعام الأول ٦,٠٩٨,٠٠٠,٠٠٠ من الدولارات . وقد جاء فيه : (هذا هو الرد على التحدى الذى يواجه العالم الحر) . وبادر بأن أمر بتوفير بليون دولار للبدء فى البرنامج ، وعين لرئاسة دائرة التعاون الإقتصادى ، أحد أصحاب مصانع السيارات ومن الجمهوريين ، هوبول جى .هوفمان)(١).

---

(١) موجز تاريخ الولايات المتحدة (٥٥٤-٥٥٥) ، وانظر : التيارات السياسية المعاصرة (٤٥٧-٤٥٨) ، وذكر المؤلف أن الولايات المتحدة أنفقت اثنا عشر مليارا من الدولارات من أجل بناء إقتصاد أوروبا الغربية .
وانظر ستالين (٢٠٢-٢١٠) ، وذكر أنه مما جاء فى المحاضرة (بالنظر إلى خطورة الأحداث الدولية ، وبغية تمكين أوروبا من النهوض بعد دمار الحرب فقد يتوجب على الولايات المتحدة الأمريكية تقديم عون مجانى وهام إلى الدول الأوربية) .
من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٥) وذكر أن المبلغ ١٣١٥٠ مليون دولار منحته أمريكا لستة عشر بلدا ، ومن بين من تلقى هذه المساعدة النمسا وبلجيكا والدانمرك والنرويج والسويد وأيسلندا وهولندا ولوكسمبورج وبريطانيا والبرتغال وسويسرا وايطاليا واليونان وتركيا وفرنسا وجمهورية ايرلندا . كما تلقت المناطق العسكرية الغربية الثلاث من المانيا قدرا من المعونة (الحاشية ص٣٥) .
تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٤٧) وذكر أن المبلغ قدره ١٢,٥ بليون دولار قدم لـ١٧ دولة أوربية وذهب أكثر من نصف المبلغ إلى أشد المناطق تأثرا بالحرب.

لقد (استهدف مشروع (مارشال) انعاش أوروبا المنهكة إقتصاديا (وعلى الأخص المانيا الغربية التى دمرت مدنها ومصانعها ومعاملها أثناء الحرب) وتحويلها إلى قاعدة صناعية وعسكرية جديدة وإلى شريكة تجارية للولايات المتحدة والاستفادة من طاقاتها وامكانياتها العلمية والتكنولوجية والإقتصادية والصناعية والبشرية لمواجهة التفوق السوفييتى فى مجال القوات والأسلحة التقليدية)[١]. (وبذلك تقضى على ظروف الحرمان واليأس التى يمكن أن تؤدى إلى نمو الشيوعية)[٢]

لقد وصفت مجلة (الايكونوميست) البريطانية المشروع بقولها (إنه أسخى شىء تقدمه دولة لأخرى)[٣].

(وعندما رفض الروس عام ١٩٤٧ مشروع مارشال ، اشتدت الحرب الباردة التى كانت مستمرة آنذاك منذ بعض الوقت . وأخذ القلق يستبد بمجموعة من دول أوروبا الغربية لهذا التهديد المتعاظم الآتى من الشرق ، وتجلت الحاجة إلى الوحدة بغية التمكن من صد هذا التهديد)[٤].

وذكر مارشال (إن الحالة العالمية خطيرة جدا)[٥].

وبهذين المشروعين تكون الولايات المتحدة قد أفصحت عن سياستها تجاه أوروبا .

يقول دروزيل : (إن الولايات المتحدة ، بمبدأ ترومان وبرنامج مارشال قد اختارت عن عزم وتصميم أوروبا الغربية واعتبرتها عنصرا حاسما فى التوازن العالمى)[٦].

---

(١) حرب النجوم تكنولوجيا وآفاق (١٤) .
(٢) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٥) .
(٣) تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٤٧) .
(٤) مذكرات مونتغمرى (٥٤٦-٥٤٧) .
(٥) التاريخ الدبلوماسى (١٧٩) .
(٦) المرجع السابق (١٨٠) .

سابعا : كان لابد من رد فعل تجاه هذا المشروع فقام ستالين بانشاء الكومنفورم[1] من أجل ضم الأحزاب الشيوعية بعضها إلى بعض ، وهذا ولاشك نظير ماأرادته أمريكا من تعديل الوضع فى أوروبا .

يقول العسلى :

(لم يقف ستالين موقف المتفرج من هذه التطورات ، بل تابع عمله السياسى ، فأوفد وزير خارجيته ، مولوتوف ، لحضور المؤتمر الثالث (فرنسا وبريطانيا والاتحاد السوفييتى) والذى عقد فى باريس من ٢٧ حزيران/يونيو وحتى ٢ تموز/يوليو ١٩٤٧م حيث أعلن ـ مولوتوف ـ : (بأن العون الأمريكى فى مشروع مارشال لدعم أوروبا هو عون سينتقص من استقلال الدول التى تقبله) واقترح أن يكون العون مقتصرا على الدول الأوربية التى كانت ضحية العدوان الألمانى ـ أى دول أوروبا الوسطى وفرنسا ـ وأن لايشترط فى هذا العون تنسيقا بين الدول التى ستقبله . ولم تقبل فرنسا وبريطانيا مقترحات مولوتوف ، وفشل المؤتمر الثلاثى . قذف ستالين مرة أخرى قفاز التحدى فى وجه الغرب . عندما تم الإعلان فى شهر أيلول/سبتمبر ١٩٤٧ عن تشكيل (مكتب المعلومات السوفييتى ـ الكومنغورم) ليضم الأحزاب الشيوعية فى تسع دول منها فرنسا وايطاليا . وأعلن مبعوث ستالين لرئاسة أول مجلس لكومنفورم : (بأن العالم قد انقسم ـ للأسف ـ إلى كتلتين : الكتلة الامبريالية الرأسمالية والكتلة المناهضة للرأسمالية الامبريالية) .

هكذا عرف العالم رسميا ، ولأول مرة بعد الحرب العالمية الثانية ، انقسام العالم إلى كتلتين متصارعتين ، فتم تسمية عام ١٩٤٧ (بعام الانفصال الدولى ـ أو عام التقسيم .

---

(١) وهى نفس المنظمة القديمة الكومنتزن .
انظر : التيارات السياسية المعاصرة (٤٥٨) ، التاريخ الدبلوماسى (١٨٢) .
والكومنتزن (منظمة بروليتارية ثورية عالمية تمثل اتحاد الأحزاب الشيوعية فى مختلف بلدان العالم) . مدخل إلى علم العلاقات الدولية (٢٠٢) ، د. محمد خلف ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م ، المركز الثقافى العربى .

وانتهى ذلك العام بفشل مؤتمر (الفرصة الأخيرة ـ أو الخط الأخير ـ) لوزراء خارجية الدول الأربع والذى عقد فى لندن يوم ٢٥ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٤٧ إذ كان الخلاف كاملا فى وجهات نظر المؤتمرين ... وانصرف كل فى سبيله لتدشين عصر الخلاف الدائم ... وراح الغرب يعمل بعقليته الخاصة وأساليبه المميزة للحد من امتداد الشيوعية[١] وتسربها إلى غربى أوروبا وغيرها من بلدان العالم . كما راح الاتحاد السوفييتى يرد بأسلوب مماثل لتدعيم نفوذه فى أقطار أوروبا الشرقية . فأبرم مجموعة من المعاهدات)[٢].

ثامنا : تعتبر أزمة برلين أو أحداث ألمانيا بعمومها من الأسباب القوية فى تأجيج الحرب الباردة ولو استولى الاتحاد السوفييتى على برلين يكون بذلك قد ضرب الدول الغربية ضربة موجعة ، حتى قال كلاى Clay[٣]:

(عندما تسقط برلين سوف تعقبها ألمانيا الغربية فإذا أردنا أن نمنع عن أوروبا خطر الشيوعية وجب علينا ألانتزحزح عن مواقعنا)[٤].

وفعلا استطاع الغرب أن يصمد فى وجه الاتحاد السوفييتى ويفك الحصار عن برلين ، وقد اعتبر الغرب أنه حقق الانتصار فى هذه الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتى ، وقاموا بعد ذلك بإنشاء الحلف العسكرى للتصدى للأطماع السوفيتية .

---

(١) وهذا لايتعارف مع ماقررناه سلفا وذلك لينشغل العالم بالمعسكرين ويتبع كل واحد مجموعة فينقسم العالم وخاصة الاسلامى إلى طرفين وهذا ماحصل فتكسب اليهودية

(٢) ستالين (٢٠٦-٢٠٨) ، وانظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٥-٣٦) .

(٣) أحد القواد فى الجيوش الغربية .

(٤) التيارات السياسية المعاصرة (٤٥٩) .

وبشأن هذه الأزمة انظر : من الحرب الباردة حتى الوفاق (٤١) ومابعدها ، تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٤٧) مابعدها ، الثنائية الدولية (٣٢٩) ومابعدها ، وسيأتى الحديث عنها بشىء من التفصيل إن شاء الله تعالى .

تاسعا : ومما زاد الحال سوءا ، والتوتر حدة أحداث تشيكوسلوفاكيا ، حيث حدث الانقلاب فيها فى فبراير سنة ١٩٤٨ . و(كانت تشيكوسلوفاكيا الدولة الوحيدة من دول المجال السوفييتى التى ظلت محتفظة بنظامها الديمقراطى حتى آخر عام ١٩٤٧ ، على الرغم من أن جميع حكوماتها التى تولت الحكم فى أعقاب الحرب ظلت تحرص على علاقاتها الوثيقة بالاتحاد السوفييتى ، ولكن العلاقات الوثيقة لم تكن تكفى فى نظر الروس لاعتبار تشيكوسلوفاكيا دولة صديقة يؤمن جانبها ، لذلك صدرت الأوامر للشيوعيين التشيكيين بالقيام بالإنقلاب سنة ١٩٤٨ . وطبق النظام الشيوعى فى البلاد منذ هذا التاريخ)[١].

وكانت هذه خطوة شيوعية توسعية استثارت الغرب .

عاشرا : لم يكتف الاتحاد السوفييتى بأوروبا الشرقية ، بل مضى قدما إلى دول أخرى يبسط نفوذه[٢]عليها وماكان لأمريكا أن تسكت والوضع كذلك . حيث أدى توسيع نطاق الهيمنة إلى تأجيج حدة الحرب الباردة بين الطرفين .

الحادى عشر : ومما زاد حدة الخلاف دخول بعض الدول فى الصراع القائم بين الجبارين كما هو الحال فى قارة آسيا ، سواء مايتعلق بأحداث اليابان ، أو ظهور الشيوعية فى الصين بعد انتصارها فى الحرب الأهلية ، وكوريا ، وأحداث فيتنام (الهند الصينية) ، وشملت ثلاثة أجزاء فيتنام ، ولاوس ، وكمبوديا . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل دخل الشرق الأوسط ضمن تلك الحرب فى الصراع القائم بين الدولتين الكبريين .

الثانى عشر : ومما زاد الخلاف بين الدولتين وكادت بسببه تنشب الحرب الثالثة نشر الصواريخ السوفيتية فى كوبا ورد الفعل الأمريكى ثم

---

(١) التيارات السياسية المعاصرة (٤٥٨) ، وانظر من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٨،٣٩) .

(٢) منطقة النفوذ : (هى منطقة تمارس فيها قوة أجنبية بعض السيطرة على شئونها الداخلية) . تاريخ الولايات المتحدة منذ ١٩٤٥ (٢٠) .

الاجتياح الروسى لأفغانستان المسلمة . وبهذا يتبين لنا أن الطرفين قد اشتركا فى زيادة التوتر حدة بينهما ، وأن كل فعل يصدر من طرف كان الطرف الآخر يفسره حسب مايرى ، وهو لايرى إلا أنه يمثل فعلا المقصود منه تهديد الأمن الخاص به ، وفرض النفوذ على أكبر قدر ممكن من الدول التى قد تكون له مصالح فيها ، فكانت النتيجة الطبيعية أن تعيش هاتان الدولتان فى هذه الدوامة التى استمرت من نهاية الحرب العالمية الثانية فى صورتها التى هى عليها (دون العداء المفتعل مع الشيوعية من قبل الرأسمالية بعد تفجير الثورة البلشفية فى روسيا) إلى أن أزيلت بزوال الشيوعية .

وهكذا كان الوضع يسير من سىء إلى أسوأ ولابد أن نلاحظ هنا أن هذه الأسباب كان بعضها يعد حربا باردة فى ذاته ، ومن هنا فالتداخل قائم بين الحرب الباردة ومقدماتها لأنها تزداد حدة ببعض مايصدر من طرف تجاه الطرف الآخر ، وهى على هذا الأساس مترابطة .

لقد كانت هذه الفترة (مابعد الحرب العالمية الثانية) ذات آثار وأبعاد كبيرة على الساحة الدولية ، وخاصة فيمايتعلق بالعلاقات بين الدولتين العظميين . كما أن الحرب العالمية الثانية كانت ذات آثار على مستوى العلاقات الدولية بكاملها ، ناهيك عن تأثيرها المباشر على الدول المشاركة فيها فعليا ، ويمكن ابراز أهم الآثار فى التالى :

(أ) عدم الثقة بين دول التحالف وفشل الاتفاقيات ولم يكن مجرد التحالف لصد العدو كافيا فى تجاوز العقبات .

(ب)قضت على نظام الحكومات الأوربية القديم فأنهت فرنسا كدولة كبرى فى العالم ، وضعفت بريطانيا ولم يعد لها القوة التى تمكنها من حفظ التوازن فى العالم كما كانت[١].

---

(٢) انظر التيارات السياسية المعاصرة (٤٣٦) .

(ج) ونتيجة للعنصر السابق (أصبحت الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتى هما الدولتين الوحيدتين اللتين ترسمان سياسة العالم وتتنافسان على السيطرة عليه بعد أن كانت هذه الصفة مقصورة على الدول الأوربية الغربية فقط . وزاد من قوة نفوذهما أنهما تزعمتا العالم فى أبحاث الذرة والتقدم التكنولوجى)(١).

(د) الاكتشافات العسكرية الجديدة التى قلبت موازين القوى(٢).

(هـ) الآثار الاجتماعية الكبيرة التى خلفتها الحرب والتى لايمكن للسنين أن تمحيها لأجيال عديدة نظرا لعمقها وشدة تأثيرها مضافا لذلك الخسائر الفادحة فى الأرواح ، والمساكن ، والزراعة ، والصناعة(٣).

فهذه أبرز مقدمات وأسباب الحرب الباردة وزيادة حدتها ، وبهذا العرض نصل إلى الحقائق التالية :

أولا : أن العداء الأيديولوجى قد بدأ منذ تفجير الثورة البلشفية وإن كان عداء مزعوما فى غالب أحواله انخدع به عامة الناس فى كلا الدولتين . إلا أن حدة الخلاف وشدته كانت مع نهايات الحرب العالمية الثانية .

ثانيا : أن العداء بين الدولتين لم يكن مستحكما طيلة هذه السنوات ، بل كانت تأتى فترات من الإنفراج والهدوء النسبى بين الدولتين وتخف حدة التوتر بين فترة وأخرى مما جعل أحداث هذه السنوات متداخلة بين إنفراج وتوتر .

ثالثا : أن هذه الأحداث والحروب التى قامت سواء منها ماكان بين الحلفاء والقوات الألمانية ، أو ماكان لفرض الأنظمة على بعض الدول من

---

(١) التيارات السياسية المعاصرة (٤٣٧) ، وانظر : الثنائية الدولية (٢٠) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٤-٢٦) .

(٢) انظر : التيارات السياسية المعاصرة (٤٣٧) ، الثنائية الدولية (١٩) .

(٣) انظر عن ذلك التيارات السياسية المعاصرة (٤٣٥-٤٣٦) ، الثنائية الدولية (١٩-٢٠) ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد (٢٨/٣٨-٤٤) السنة السابعة ، مقالا بعنوان دروس من الحرب العالمية الثانية ، بقلم بسام العسلى .

قبـل دول الحلفاء فيما بعد الحرب العـالمية الثانية كـل ذلك كان مكلفا مرهقا لإقتصـاد تلك الدول وخاصة الاتحاد السـوفييتى الذى كـان يرغب فى اللحاق بالـولايات المتحدة الأمريكيـة نظرا لتفوقها التكنولوجى ، وأكثر مـايبرز ذلك فى سباق التسلح(١).

رابعا : أن هـذه الأحداث كانت مقدمات وأسباباً لما تلاهـا من اشتداد الحرب بين الطرفين بل إن بعض الأحداث اللاحقة كانت امتـدادا لها . وهذا يوصلنـا إلى الحديث عـن الحرب البـاردة بين الـولايات المتحـدة والاتحاد السوفييتى .

---

(١) يقـول مكنمـارا : (وقـد تم احتـواء التـوسع السوفييتى ، على أى حال ، ولكـن التكلفـة السياسية والاقتصادية والاجتمـاعية التى تحملتها أمتنـاوالعـالم الغربى كانت باهظـة ... أما خطر اشتعال مـواجهة عسكرية فكان دائمًا أكبر بكثير ممـا أدركنا) . مابعد الحرب الباردة (١١) .

المبحث الثانى
الحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة[١] وأبرز أساليبها

بعد أن مر معنا ماوصل إليه حال الدولتين من عدم ثقة كل منهما بالأخرى ، ورؤيتها لنفسها أنها صاحبة القرار الأول والأوحد ، كان لابد والحالة هذه أن يحصل التوتر فى العلاقة بين الدولتين ، وبالفعل هذا ماحدث ، ونظرا لمعرفة كل من الطرفين بالآثار المترتبة على المواجهة المباشرة فقد آثر كل منهما أن يقوم بإرهاق خصمه واستنزاف قدراته وموارده بهذه الحرب التى يتجنب كل منهما الصدام المباشر مع خصمه على خلاف ماعرف فى التاريخ سابقا حيث كان الخلاف والتوتر يحل بإعلان الحرب أما فى (منتصف القرن العشرين وبسبب قوة التدمير المرعبة للأسلحةالنووية ، والدقة التى وصلت إليها أساليب التوجيه والقذف ، أصبحت الحرب العلنية بين الدول القوية أو مجموعات من الدول محاولة لفرض غايات سياسية ، عبارة عن طريق انتحار متبادل مؤكد ، وذلك لأن نتيجتها قد تكون التدمير التام للحياة فى الدول المعنية . ولاتوجد بالطبع دول ترغب فى الانتحار . وفى جميع الحالات يلجأ المتنازعون إلى تضخيم مساوىء الخصوم باستخدام جميع وسائل التهويل والدعاية والتخريب وخلق المشاكل المحلية مع التحسب الشديد لعدم التورط فى عمليات حربية مباشرة . وهكذا نرى أنه عندما تتغلب رغبة عدم المجابهة على رغبة المجابهة يتحول التعايش إلى نوع من الحرب الباردة . هذا التعايش فى زمن السلم ينقلب هو نفسه إلى حرب باردة ويصبح البديل الحتمى الذى تفرضه الظروف)[٢].

---

(١) وقد أطلقت الحرب الباردة على النزاع بين الاتحاد السوفييتى والصين ، ولكنها كانت ألصق بما حدث بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة .

(٢) الحرب النفسية (١٤٣) .

وإذا كانت الحرب الباردة قد بلغت أوجها بين الطرفين ، وإذا كانت أساليبها قد تعددت وتنوعت ، فإن أبرز ماتمثلت فيه :

(١) التوسع .
(٢) سباق التسلح .
(٣) الجاسوسية .
(٤) الأحلاف .

وفى اعتقادنا أنها كانت تسير مع بعضها البعض ، وإن تقدم أحدها أو تأخر فإن بعض جوانب فى الآخر تقدمت جوانب فيه أو تأخرت عنه ، كما أن بعضها قد يكون فى حالة الذروة ، والآخر دونه ، وهكذا نظرا لأن ردود الأفعال كانت كثيرا ماتتحكم فى هذه الحرب .

وسوف نبدأ بالتوسع علما بأن بعض جوانب هذا الأسلوب كانت بعد أن بلغ سباق التسلح ذروته . ومختصر القول أن هناك تداخلا فيما بينها فلو أعيد بعض جوانب من أسلوب فى مكان آخر فلايعد ذلك من باب التكرار بل مما يقتضيه الحال .

التوسع والتدخل فى شئون الآخرين :

إن الرغبة فى السيطرة وتوسيع نطاق الملك مما فطر عليه الإنسان ، وإذا كانت الدولة تمثل مجموعة من الناس فلاغرابة أن تكون هذه السمة موجودة فيها .

ولكنها وبدون شك تختلف من دولة لأخرى ومن فئة لفئة أخرى ، فى المقصود منها والغاية التى تهدف إليها (عنيت السيطرة والتوسع) وهذا يجعلنا نلمح بإيجاز للمذهبية العسكرية ، أو الدافع الذى تنطلق منه هذه الفكرة .

وقبل ذلك نقول إن التوسع يحدث بطريقين :

الأول : التوسع المباشر وهو اخضاع الدولة تماما لسلطان الدولة المسيطرة وذلك باحتلالها عسكريا .

الثانى : التوسع غير المباشر : وهو بسط الهيمنة والنفوذ على تلك الدولة ، وجعلها تسير حسب ماتريد الدولة صاحبة السلطان عليها .

ولاشك أن هذه السياسة التوسعية تتصل اتصالا مباشرا بالمذهبية العسكرية لكل دولة . والمذهب العسكرى هو (مجموعة القواعد والمبادىء الأساسية المتناسقة التى توجه بها القوات المسلحة مختلف عناصرها القيادية والقتالية والإدارية والفنية نحو تحقيق هدف مشترك)(١).

والمذهب العسكرى يرتبط ارتباطا وثيقة بالعقيدة والمنهج الذى تسلكه الدول . يقول العسلى : (يتكون كل مذهب عسكرى من المذاهب وفقا لمجموعة من المبادىء والأسس التى تعطيه ظاهرته "الخصوصية" المميزة : ولعل أول مايميز هذه المذاهب بعضها عن بعض ، هو مدى ارتباطها بالعقيدة الدينية أو السياسية أو الأيديولوجية - الفكرية الموجهة لأنشطة الحرب وفعاليتها)(٢).

ومن هنا ولكون الفكر الماركسى يرى حتمية الصراع والثورة فإن قادة الثورة البلشفية اهتموا بقضايا الدفاع وبناء الجيش منذ زمن لينين(٣).

ثم جاء ستالين من بعده وبلغ الاهتمام بمسائل الدفاع ذروته وكان ذلك على حساب الشعب وإقتصاد الدولة ، وظهرت بوضوح المذهبية العسكرية السوفيتية . حيث (تشكلت مدرسة الحرب الروسية عبر الحروب التوسعية ، وإذا كانت الحروب الدفاعية قد احتلت حيزا هاما من فن الحرب الروسى ، إلا أن الحروب التوسعية هى التى كانت الأساس الراسخ والقاعدة

---

(١) مجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد (٥٩/١١) ١٤٠٦هـ .
وانظر العدد (٣٠/١٦) السنة الرابعة ١٤٠٧هـ .

(٢) المذاهب العسكرية فى العالم (٩) ، وانظر : الحرب (٧٧) ومابعدها ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية (٣٠/١٦) .

(٣) انظر تفصيل بناء الجيش الأحمر والاهتمام به كتاب القوات المسلحة فى الاتحاد السوفييتى (١٦-١٧،٢٣-٢٤،٣٦-٣٨) .

الثابتة فى بناء الدولة الروسية وفى تشكيل مذهبها العسكرى ...)[١].

وهـذا يدعونا للحديث عن توسـع الاتحاد السوفييتى حيـث شكلت هذه السيـاسة التـوسعية مـن الطـرفين تربة خصبـة لزيادة حدة التـوتر والصـراع بينهما.

(١) المذاهب العسكرية فى العام (١١٠) وانظر مابعدها .
وعـن المذهـب العسكـرى الإسلامـى انظـر : المذاهـب العسكـرية فى العـالم (١٨) ومـابعدها ، مجلة كلية الملك خالـد العسكرية (١١/٥٩-٦٠) ، مقـال اللـواء الركن محمود شيت خطاب بعنوان (المذهب العسكرى الإسلامى) .
وعـن المذهـب العسكـرى الأمريكـى انظـر : المذاهـب العسكـرية فى العـالم (١٢١، ١٣٥-١٣٧) ، مجلة كلية الملك خالد العسكرية (١١/٥٨) .
وعـن المذاهب العسكرية عند اليـونان والرومان والجرمان والعـرب انظـر التاريخ العسكرى :
اليونان (٣١) ومابعدها .
الرومان (٤٧) ومابعدها .
الجرمان (٧١) ومابعدها .
العــرب (٧٨) ومــابعدها . وانظــر مجلة كليـة الملـك خالــد العسكــرية العـدد (١٢/٤٦-٤٧) ، والعدد (١٦/٢٤-٣١) .

(١٣٩٩)

توسع الاتحاد السوفييتى

لاشك أن الاتحاد السوفييتى حقق مكاسب كثيرة من الحرب ومن أهمها: استيلاؤه على كثير من المناطق والدول ، وتحصينه لهذه المناطق ، وماكان هذا ليرضى أمريكا أو يدعها مكتوفة اليدين .

ولسنا هنا معنيين بتفاصيل الحرب وسيرها ، ولكن بقدر مايدلنا على سيطرة الاتحاد السوفييتى على هذه الدول وبسط نفوذه عليها (أوروبا الشرقية خاصة) ، ثم نتائج تلك المواجهات وآثارها .

يقول كولن وبيتر :

(كان الاتحاد السوفياتى قد ألحق الهزيمة بألمانيا النازية وبذلك برهن لنفسه على صدق المقولة الماركسية اللينينية بأن الشيوعية أقوى من خصومها فى الأساس . لقد حارب جنود الاتحاد السوفييتى سواء أدركوا ذلك أم لم يدركوه ، ليس من أجل أمهم روسيا وحسب ، بل كذلك للمحافظة على النظام الستالينى وكل ماكان يمثله . وكان ستالين ينظر باحتقار إلى الأنظمة الديمقراطية التى كان يتعلق بها حلفاؤه الغربيون ...)(١).

ويقولان :

(وعندما قاربت الحرب على الانتهاء كان تشرشل قد أبدى قلقه حول مستقبل أوروبا الشرقية عندما تزايد احتمال تحرير هذه المنطقة على يد الجيش الأحمر ...

وقد تركت الحرب العالمية الثانية الجيش الأحمر يحتل شرق أوروبا ويسيطر تماما على تلك المنطقة باستثناء اليونان ويوغسلافيا والبانيا . غير أن البلدين الأخيرين كانا فى قبضة الأنصار الشيوعيين ، وضم الاتحاد السوفييتى دول البلطيق وأجزاء من فنلندا وبولندا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٢٦،٢٤) .

فاستولى بذلك على مساحة تقارب ١٨٠ ألف ميل مربع و٢٤ مليون من البشر وكان لابد من أن يؤدى وجود الجيش الأحمر والأحزاب الشيوعية المحلية التى تؤيدها موسكو إلى مد النفوذ السوفياتى إلى بولندا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا والمجر والبانيا وبلغاريا ويوغسلافيا والمنطقة السوفياتية من ألمانيا . ومساحة هذه الأقطار حوالى ٣٩٣٥٠٠ ميل مربع بها ٩٢ مليونا من السكان .

وكان المستقبل الذى يواجه الغرب سنة ١٩٤٥ قاتما لأنه إذا تجاهل الاتحاد السوفياتى وعوده بعقد انتخابات حرة فى هذه الأقطار ، واضطرت لأن تسير فى طريق الشيوعية فسوف يؤدى ذلك إلى زيادة كبيرة فى قوة الاتحاد السوفييتى . وقد تحقق ماخاضت بريطانيا الحرب من أجل منعه وهو سيطرة دولة واحدة على أوروبا الوسطى ، ولكن الدولة المسيطرة كانت الاتحاد السوفياتى وليس ألمانيا)[١].

وقد أفصح تشرشل عن ذلك وقال : (لم يكن الروس قد أتاحوا فرصة للعدو ، للاستراحة من النكسات المخيفة التى منى بها فى مطلع شتاء عام ١٩٤٣ فقد شن الروس فى منتصف شهر كانون الثانى عام ١٩٤٤ ، هجوما على جبهة طولها مائة وعشرون ميلا تمتد من بحيرة ايلمان إلى لينينغراد ، وتمكنوا من اختراق الخطوط الدفاعية التى أقامها العدو أمام المدينة ، وإلى الجنوب من هذه الجبهة ، صد الألمان فى نهاية شهر شباط ، إلى شواطىء بحيرة بيبوس وقد تحررت لينينغراد مرة وإلى الأبد ، وأصبح الروس يقفون على حدود دول البلطيق)[٢].

وقد أعلن تشرشل عن تخوفه من هذه السيطرة حيث أصبحت قوات الجيش الأحمر على مشارف وسط وشرق أوروبا ، ولاشك أن هذه الانتصارات التى حققها السوفييت ستجعل بقية دول الحلفاء تحد منها أو تتخذ اجراء لمنعها وصدها . يقول تشرشل :

---

(١) من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٣-٣٤) .
(٢) المذكرات (٢/٩٣٩) .

(أثار حجم هذه الانتصارات قضايا ذات أهمية بالغة . فقد أطل الجيش الأحمر الآن على أواسط أوروبا وشرقها . فماذا سيكون مصير بولندة والمجر ورومانيا وبلغاريا واليونان أيضا ، التى ضحينا من أجلها بالكثير . وعملنا المستحيل لمساعدتها؟ وهل ستدخل تركيا الحرب إلى جانبنا؟ وهل ستحاط يوغسلافيا بالفيضان الروسى؟ لقد بدأ أن أوروبا بعد الحرب . قد بدأت تتخذ شكلها ، وأصبح من الضرورى إعداد ترتيب سياسى مع السوفييت فى منتهى السرعة)[١].

ومما زاد الوضع تعقيدا أن الاتحاد السوفييتى قام بابرام بعض المعاهدات مع بعض تلك الدول[٢].

---

(١) المذكرات (٢/٩٤٠) .

(٢) انظر : الحرب العالمية الثانية (٤٨) ، النار والجليد (٢٩٤-٢٩٥) ، من الحرب الباردة حتى الوفاق (٣٤) ، التاريخ الدبلوماسى (٧٢-٧٣) وذكر بأن هذه الهدنات لم تكن عسكرية (صرفة بل كانت تتضمن بنودا هاما سياسية وإقتصادية وحقوقية) .